

سلسلة إحياء المشروع الحضاري

# فِقْرًا اسْتَشْرَافًا وَمُسْتَقْبَلًا

تأليف  
د. فَهْمِي إِسْلَام جِيَوَانْتُو





|                    |                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                    |
|--------------------|----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------|
| رقم الإصدار        | 294                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                |
| الترقيم الدولي     | 978-625-5637-35-2                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                  |
| اسم الكتاب         | فقه استشراف المستقبل                                                                                                                                                                                                                                                                                                                               |
| اسم المؤلف         | أ.د فهيي إسلام جيوانتو                                                                                                                                                                                                                                                                                                                             |
| المدير العام للدار | رجب صونكول                                                                                                                                                                                                                                                                                                                                         |
| الإخراج الفني      | AsaletAjans<br>ajans@asaletyayinlari.com.tr                                                                                                                                                                                                                                                                                                        |
| دار النشر          | دار الأصالّة للنشر والتوزيع وخدمات الترجمة والطباعة<br>Asalet Eğitim Danışmanlık<br>Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret<br>Sertifika No: 40687<br>Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd.<br>Yümni İş Merkezi No: 16B/16 Vezneciler<br>Fatih/ İSTANBUL-TÜRKİYE<br>Tel: +90 212 511 85 47<br>www.asaletyayinlari.com.tr<br>asalet@asaletyayinlari.com.tr |

# فقه استشراف المستقبل

تأليف

د. فهمي إسلام جيوانتو









## قراءة في كتاب فضيلة الدكتور فهمي إسلام

### "فقه المستقبل"

الدكتور ونيس المبروك



الحمد لله الذي خلق فسوى وقدر فهدى، وجعل لكل شيء قدراً وسبباً. وأودع في الكون قوانين وسنناً، من حازها وتدبرها كانت له عوناً في الاعتبار مما مضى، وسيلاً للإنتفاع بما هو آت، ومكنته من درء الفساد إن هو أئى.

وصلى الله وسلم وبارك على السراج المنير، معلّم الناس الخير، الذي بين للناس شرائع الهدى، ومعاهد الخير والتقوى، وجعل البصيرة سبيل دعوته، وورضى الله عن صحابته الكرام الذين عزّروه ونصروه، وآمنوا بالنور الذي أنزل معه، وعن تابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فإن الله تعالى جعل أقداره في سنّنه، وخصّ هذه السنن بالثبات، "وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً" إلا بإذنه، في حالة مؤقتة نادرة، إثباتاً لمعجزة نبي، أو كرامة ولي.

وقد منّ الله تعالى على الناس، بأن جعل هذه السنن ثابتة لا تتخلف، وأمر عباده بأن يتعرفوا عليها ولا يجهلوا، ويستعينوا ببعضها على بعض ولا يصادموها، ويكتشفون ما هو قادم في ضوء ما هو قائم.

في لقاء مبارك بمقر الاتحاد بدوحة الخير، جمعني بأخوين كريمين، وهما صديقي الحبيب الدكتور على محمد الصلابي وفضيلة الدكتور فهمي إسلام،



كانت فكرة قراءتي المتأنية لهذا السفر المتميز " فقه استشراف المستقبل " إذ طلب مني الدكتور علي أن أشاركه في مكتبه، الاستماع لعرض موجز سيقوم به فضيلة الدكتور فهمي إسلام لكتابه الذي يتناول قضايا استشراف المستقبل،

قلت في نفسي: وهل من جديد في هذا الموضوع الذي خاض غماره، وكشف كثيرا من أسرار بعض المفكرين والعلماء، حتى أمس تقديم المزيد فيه، ضربا من التكلف قد لا يعود بطائل؟

وما أن أفاض الدكتور فهمي في عرض كتابه؛ أبوابه وفصوله وبعض مسأله وطرائق استدلاله، وأشار إلى بعض ثماره، وحججه وحججه؛ حتى وقع في نفسي أني أمام كاتب مُجيد، وكتاب فريد؛ أودع فيه صاحبه ثمرات جهد كبير، ونظرات عقل مستنير، وصاغ مباحثه على مُكث، ورصع جيد مباحثه بفرائد وقلائد من المنقول والمعقول

لم أخف إعجابي الشديد بفكرة الكتاب، ولاحظت ذلك أخي الألمعي علي الصلابي، فطالبني بقراءته، وأخذ وعدا بكتابة مقدمة أو قراءة وصفية موجزة عن الكتاب، فقرأت الكتاب وكانت هذه السطور.

### هذا الكتاب:

يُعدُّ هذا الكتاب من أوائل الدراسات المنهجية المعمقة التي تتناول استشراف المستقبل من منظور شرعي يجمع بين المنقول والمعقول، ويزاوج بين هدي الوحي وأنوار العقل وتجارب الخلق.

إن قضية غيب المستقبل واستشراف المآلات والترقب بما هو آت، لم تكن غائبة ولا شاردة في هدي القرآن وتعاليم السنة، ولم يخل منها خطاب العلماء



على مر القرون، ولكنها كغيرها من جواهر العلم؛ تفتقر دائماً لمتدبر غواص يُعيرها اهتماماً فيجمع أصول مسائلها في وعاء واحد، ويضع حدودها ويحرر موضوعاتها، ويفصل مسائلها ويحل مشاكلها، ويرد على ما يثار حولها من شبهات.

وقد مهد فضيلة الدكتور فهمي الطريق لهذا المطالب واستطاع بتوفيق الله وفضله أن يلج هذه " الغابة العذراء " ليسبر شيئاً من أغوارها ويكشف بعض أسرارها، ولعل الله تعالى يحقق مُناه في أن يكون " فقه المستقبل " علماً جديداً قائماً على سوقه، يُرشد المصلحين وينفع الناس.

وأصل هذا الكتاب بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في جامعة الإيمان اليمانية عام ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م، أي قبل عشرين عاماً، قدمه الباحث بإشراف د. حيدر الصافح. تحت عنوان "استشراف المستقبل في القرآن والسنة" ثم كتب في الموضوع نفسه رسالة الدكتوراة بعنوان "مقاصد الشريعة ودورها في صياغة المستقبل"، ثم استمرت عنايته بالموضوع فكتب كتاباً بعنوان "مستقبل العالم بين الخير والشر" وبعد ذلك كتاب "أسرار المستقبل في خبايا الماضي من وحي سورة الكهف". وكل ذلك خدمة لهذا العلم الوليد.

ويسعى الكتاب إلى تأصيل "مفهوم" التفكير المستقبلي، والمساهمة في تطوير "ملكة" التخطيط بعيد المدى، والتدبير الاستباقي لما قد يطرأ من حوادث،... وكل ذلك من منظور الرؤية العقائدية الصحيحة، وأحكام الشريعة الصريحة.

ويتغيا الكاتب -كما أشار في مقدمته- إلى "تكوين بنية معرفية تفتح طريق بناء المستقبل، وهو مطلب شرعي، يُعد من الفروض الكفائية التي تسد حاجة أمتنا، وتسهم في إنارة طريق نهوضنا الحضاري". وهو مطلب غير موطأ



ولا ممهد؛ إذ لم يجد الباحث ما يسعفه من دراسات مؤصلة على نحو منهجي في هذا المجال، مما يزيد من قيمة وأهمية هذا الكتاب الذي يُعتبر إضافة نوعية في فقه التوقعات المستقبلية من منظور إسلامي أصيل.

#### منهجية البحث ومحتوى الكتاب

اعتمد د. فهمي إسلام منهجيةً تجمع بين التأصيل والاستدلال الشرعي، وبين الواقع العملي؛ حيث استند في تأصيل مباحث الكتاب وإبراز معالم التصور الإسلامي للمستقبل، على القرآن الكريم والسنة النبوية وأقوال العلماء، كما أنه لم يغفل في الوقت نفسه، استتال الدروس والعبر، من تراكم علوم البشر، ومن العلوم المستقبلية الحديثة، واستقراء سنن الحياة والقوانين الاجتماعية.

ولما كان تحرير المصطلح وبيان المفهوم، مفتاح كل علم، ومدخل كل فن، فإن المؤلف افتتح دراسته بتعريف المصطلحات ذات الصلة؛ فعرف مفردات عنوان الكتاب لغةً واصطلاحاً، ثم وضع تعريفاً مركباً لمفهوم استشراف المستقبل في المنظور الإسلامي. مبيناً أن الاستشراف "هو محاولة الكشف والفهم لقضايا المستقبل وفق مصادر المعرفة التي دل عليها وأقرها الشرع الإسلامي". وهو فقه يعالج كل المسائل المتعلقة بالمستقبل من أبوابها الثلاثة؛ التصورات والتطلعات والتصرفات

فباب التصورات المستقبلية: يشمل التصورات عن طبيعة الحياة الدنيا والغرض من وجودها ومصائر الناس فيها، ويشمل الحياة الآخرة وطبيعتها ومعايير الربح والخسارة فيها، وكذلك يشمل قضية الأقدار وعلاقتها بسعي الإنسان.

وأما باب التطلعات المستقبلية: فيتضمن الأهداف المطلوبة والمُثل العليا المرغوبة وترغيب الشرع لها.



وأما باب التصرفات: فيعالج أعمال الإنسان ووسائله لمعرفة المستقبل وتحقيق أهدافه ورغباته، والتخطيط للوصول إليها والاستراتيجيات المناسبة لها.

ثم قسم المؤلف الكتاب إلى أربعة أبواب كبرى تسبقها مقدمة حول أهمية الموضوع وأسباب اختياره وأهداف البحث. وفي ختام الكتاب أورد النتائج والتوصيات المستخلصة.

### الأطر العقدية في استشراف المستقبل الإسلامي.

يؤصل الباب الأول للأساس العقدي للتفكير المستقبلي عند المسلم، فكما أن عقيدة المسلم ترسم تصورا عقديا راسخا عن الكون والغيب، فهي كذلك تعطينا تصورات صحيحة عن هذه الحياة وطبيعتها وأهدافها ومعاييرها وتحدياتها ونمط سيرورة أحداثها.

وقد تناول المؤلف في هذا الباب عدة محاور عقدية، منها: الإيمان باليوم الآخر - كحتمية مستقبلية - مما يجعل المؤمن يتطلع دائما إلى ذلك اليوم، وكذلك عقيدة الجزاء والحساب كمحور ودافع لجهود المسلم - فكما أن هناك ثمرات عاجلة للجزاء، فإن الجزاء الأكبر ومقياس الفلاح هو ما سيكون في الآخرة باعتبارها الحياة الحقيقية، ودار القرار والمستقر الأخير في هذه الرحلة الطويلة، وأن الحياة الدنيا لعب ولهو زينة إذا خلت من النظر في المستقبل، وأهمية حياتنا في هذه الدار الفانية هي بقدر ما نحقق من فلاح في الآخرة وعلى قدر ما نتزود به من الحياة الدنيا التي هي واسطة لا غير، وعلى المؤمن الصادق أن يقيس سعيه بما يعود عليه من ربح في مستقبله، وإلا فهو خسران محقق. فلا يجوز أن يكون معيار الإنسان مجرد حيازة النعمة الحاضرة واللذة العابرة. فالنظر في " الغد "



وإعداد الجواب له، تكليف إلهي من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]

وتحت قضية الاستعداد للتحديات القادمة، بين المؤلف أن الاهتمام بالمستقبل والسعي من أجله، يجب أن يسبق معالجة الأزمات عند وقوعها، بحيث يستغل الإنسان كل ما آتاه الله تعالى من نعم ليستثمر وقته وجهده لصالح مستقبله، ويضع من التدابير الوقائية ما يخفف آثار الضرر المتوقع قبل أن تفاجئه الأحداث وتباغته تبدلات الدهر!

وقد ضرب القرآن لهذا المسلك مثلاً رائعاً " للذي أوتي نعمة حاضرة وبسطة وافرة ثم لم يستثمرها، فبددت الأعاصير تلك النعمة وفتت العواصف تلك الوفرة. فبقي خاسراً متحسراً، وهو في أشد حاجة إلى عشر معشار ما كان عليه من النعمة، قال تعالى: ﴿يَأْتُوا أَحَدَكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّحِيلٍ وَأَعْتَابُ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦]

كما يظهر لنا جلياً كيف تجاوز القرآن العناية بمستقبل الفرد إلى الاهتمام بمستقبل الأجيال القادمة؛ قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]

عالج المؤلف في هذا الباب أيضاً قضية القضاء القدر، وعلاقتها بعلم المستقبل من خلال مقدمة بين فيها بعض القواعد المنهجية التي أبرزت منظور أهل السنة لهذه المسألة المهمة، ومركزية القرآن في تناول هذه المسألة، وعرج على المنهجية التي ارتضاها الأئمة الأوائل؛ من رعاية سياق النصوص التي وردت من خلالها



هذه القضايا، ثم التوازن بين قبول أو رد خبر الآحاد في مسائل الاعتقاد، جامعا بين نصوص الكتاب والبيان النبوي الشريف، متجنباً أساليب علم الكلام الفلسفية في تناول قضايا الغيب، وقد تطرق المؤلف إلى فقه الميزان في قضايا الاعتقاد من حيث الجمع بين صفات الله واستحضارها من أجل فهم مجريات الكون والمستقبل؛ فرحمته الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ليست الصفة الوحيدة له سبحانه، ولا هي الحقيقة الوحيدة التي تسير في ظلها أحداث الكون، بل هناك حقيقة أخرى تكملها وتزيدها جلالاً وكمالاً، وهي حقيقة العدل الإلهي، فمن تمسك برحمة الله وغفل عن عدله، فقد عرض نفسه للمهالك الوشيكة، ومن غره حلم الله ولم يرع جبروته وقهره، فقد سلك لنفسه طريقاً إلى الهاوية ويوشك أن ييؤ بغضب من الله وعقاب منه. وعلى المؤمن الكيس استحضار كل هذه الصفات في تكامل وتوازن واعتدال .

وقد خرج الباحث بخلاصة بديعة عندما قال: "إن الفرق بين الأزمنة الثلاثة - أي الماضي والحاضر والمستقبل - هو أن الماضي صار حقيقة غير قابلة للتغيير ولا جدوى من تدخل الإرادة الإنسانية فيه، أما الحاضر فهو عملية متحركة لم تكتمل بعد، بينما يمثل المستقبل المجال الوحيد المتاح أمام الإرادة الإنسانية للتدخل فيه، فسعي الإنسان وحرصه على إحداث التغيير في زمنه الحاضر، هو الذي سيؤثر على واقع المستقبل إلى حد كبير. فالكلام عن القضاء والقدر أنسب ما يكون إذا تعلق بالماضي، لأنها أحداث مضت وولت ولا مجال لنا لتغييرها، وأما الحاضر والمستقبل فالأنسب فيهما أن نستحضر حريتنا في الاختيار ومسؤوليتنا في تحديد المصير، دون التعلق بحجج الأقدار ودون أن نأسى على ما فات أو نفرح بما هو آت، وواجب المسلم - كما ذكر المؤلف - "تنفيذ الأمور وليس الانصياع للمقدور."





وفي سياق بيان علاقة العقائد بفقه المستقبل، تطرق المؤلف إلى عقيدة التوكل على الله وبيّن حقيقتها مفرقا بين التوكل والتوكل، وأن التوكل الصحيح إنما يكون بالاعتماد على مصدر القوة الحقيقية (الله تعالى) مع الأخذ بالأسباب التي أقام الله عليها نظام هذا الكون، وكيف كان النبي ﷺ يهيئ الأسباب ويتخذ كل التدابير والوسائل والدراسات والإحصاء لبلوغ النتائج دون الركون للمنى والتمنى، وكيف سنّ لنا التخطيط المستقبلي من خلال إنصاته لأحد خبراء المستقبلات " ورقة بن نوفل " حين قال له: " لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتُ بِهِ إِلَّا عُودِي " فقد دلته التجربة واستشراف مستقبل هذه الدعوة الجديدة ومعرفة بسنن الصراع أن العداء آت لا محالة، ولعل هذا الدرس مع هداية الوحي كان دافعا للمصطفى ﷺ للسعي في الأخذ بالأسباب والتخطيط المحكم، وتدبير مستقبل هذه الدعوة، فبحث عن قاعدة لدعوته في أقاليم أخرى، وإمكانية عقد التحالفات، وخطط لهجرته تخطيطا دقيقا، وبعث بعض صحابته لأماكن آمنة، فسن لنا بذلك سنة " التشريع الاستباقي " للأجيال القادمة.

كل هذه المنظومة العقدية - إن فهمت بشكل سليم - تولّد نفسية إيجابية تدفع المسلم للتخطيط لمستقبله الديني والأخروي بروح مسؤولة، خلافاً لما يظنه البعض من أن الإيمان بالقضاء أو النهي عن طول الأمل يعني القعود والتقاعد. وهكذا يؤكد المؤلف أن العقيدة الإسلامية الصحيحة تُعدُّ إطاراً معرفياً حيا متجددا باعثا على العمل ومحددا لمسارات الكفاح وضابطا لبوصلة المستقبل، وليس مجرد معرفة ذهنية باردة تخدر المشاعر، وتُعطل العقل، وتأسر صاحبها في ضحضاح التواكل المذموم.



### مسالك الانحراف وموارد الشبهات:

لم يهمل الباحث في الباب الثاني من الكتاب ركنا ركينا في أي نظرية وبحث علمي رصين، ألا وهي: مزالق الانحراف وموارد الشبهات حول هذا الفقه؛ حيث عالج الباحث في هذا الباب الأفكار المُميتة التي نشأت بسبب سوء فهم النصوص وعدم معرفة سياقها وسباقها، والتي كانت سببا في قتل إرادة كثير من المسلمين وإفساد التصورات واغتيال الآمال، ثم عالج بعضها بشيء من التفصيل مبينا ميزان الاعتدال في فهمها وتنزيلها، وبين الهدي القرآني في مواجهة هذه الشبهات والفتن وفي عرض شائق تعرض الباحث بالبيان والرد لثلاث قضايا منهجية، وهي قضية أحاديث آخر الزمان وقضية عودة التاريخ لنفسه، وقضية توسيع دائرة البدعة، وكيف كان لسوء فهم هذه القضايا وترتيبها في نسق منهجي صحيح دور في ضعف الوعي والسعي، في قضية استشراف المستقبل والعمل له،

### قادة الحضارة الإنسانية وفقه المستقبل

ليس من الإنصاف حصر دوافع التحضر والتطور في الحضارات الإنسانية على عامل التوجيه الديني فقط، فدوافع التقدم الحضاري متعددة، وهي مركوزة في فطرة الإنسان، وكامنة في طبائع الأحياء، ولكن الأنبياء والرسول -باعتبارهم قادة الحضارة الإنسانية ورواد الإصلاح والبناء في مراحلها المتعاقبة- خير من جمع بين تعاليم الحضارة والخلافة والعمارة التي وردت في القرآن الكريم، وبين ما توصل إليه الإنسان من تطور علمي وتقدم، فأقروا ما صح منها ونفع، ونبهوا على ما بطل منها وضر، وقد استل المؤلف من قصص الأنبياء في القرآن الكريم ما يؤكد نظريته ويمهد لهذا الفقه، فهذا نوح عليه السلام يصنع الفلك كما أمره الله تعالى:



﴿وَأَصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ [هود: ٣٧] لتكون أداة الإنقاذ له ولمن آمن معه إذا جاء الطوفان في المستقبل.

وهذا يعقوب عَلَيْهِ السَّلَام يحذر يوسف عَلَيْهِ السَّلَام من قص الرؤية حتى لا يكيدوا له كيدا في المستقبل.

وهذا يوسف يضع خطة خمسية لإنقاذ اقتصاد مصر، حتى يتمكن الناس من مواجهة أزمة الغذاء في المستقبل.

وهكذا يقف الكاتب مع أنبياء الله إبراهيم وموسى وداوود ومريم البتول عَلَيْهِمُ السَّلَام جميعاً، ليؤكد أن الأخذ بالأسباب وتدبير المستقبل وإعداد العدة لما قد يطرأ فيه، هو منهج الأنبياء والمصلحين على مر تاريخ الحضارات، ثم جاء القرآن ليأمر المؤمنين من أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١] ويقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وسار المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على نهج الأنبياء في التأهب للمستقبل وإعداد العدة، وحث المؤمنين وتربيتهم على هذا الفقه الإسلامي الأصيل.

#### أحكام وضوابط

من أجل وضع هذا العلم الشريف في ميزان الأحكام، وتجنب نزعات الغلو عند النظر في هذا الفقه، فقد انتقل الكاتب للحديث عن "حكم" استشراف المستقبل، مبيناً أدلته وضوابطه الشرعية، وتقسيم مجالاته وحدوده، فمفاتيح الغيب وأحداثه لا يعلمها إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أو من أطلعهم الله عليه من الرسل والأنبياء بوحي من عنده، ولكن ذلك لا يتنافى مع النصوص الشرعية التي وجهت الأنظار إلى عاقبة الأمور، كما حثَّ على التخطيط والعمل للمستقبل القريب والبعيد ونَهَتْ عن الأماني



الفارغة والاعترار بالدنيا، وفي هذا السياق جاء المؤلف بنماذج عملية من سيرة النبي ﷺ في استشرافه للمستقبل: مثل استحضاره اليوم الآخر دائماً في قراراته، وشدة مسارعته لأعمال الخير ابتغاء ما عند الله، وتخطيطه المسبق للأمور الحربية والسياسية، ولم يغفل المؤلف اهتمام السلف الصالح بالمستقبل سواء على مستوى التفكير في الآخرة والاستعداد لها، أو على مستوى اتخاذ التدابير والإجراءات الاستباقية النافعة.

وخلاصة القول أن استشراف المستقبل مطلوب شرعاً إذا انضبط باعتقاد أن الغيب بيد الله، فالمسلم مأمور بالأخذ بالأسباب والتخطيط دون افتئات على علم الل تعالى والقطع بمعرفة الغيب .

#### المشروع والممنوع من وسائل الاستشراف

تحت عنوان "منافذ شرعية لمعرفة المستقبل" افتتح المؤلف الباب الثالث بالتأكيد على أن الدين الإسلامي لا يرفض مبدأ الاستشراف العلمي للمستقبل، إنما يرفض التكهن والتخرص والظن الذي لا يقوم على حجة وبيان. فالله عَزَّوَجَلَّ استأثر بعلم الغيب ولكن الاهتمام بالمستقبل، والقلق من المجهول القادم؛ جلبة وطبع بشري أصيل، ولا ينافي الإيمان باستئثار الله عَزَّوَجَلَّ بمفاتيح الغيب.

وقد يأخذ الناس بوسائل ممنوعة لإدعاء الغيب والتعامل معه، ومن أجل ذلك تطرق المؤلف إلى المشروع والممنوع من هذه الوسائل، فأفرد من هذا الباب فصولا لبحث الأدوات والأساليب التي يمكن للإنسان من خلالها استقراء المستقبل، مفرقاً بين ما هو مشروع وجائز، وما هو ممنوع شرعاً.

في قسم الوسائل الأساسية، يقرر أن أهم وسيلة لكشف ملامح المستقبل هي "فهم سنن الله الجارية في الحياة" كسنة الابتلاء والتداول والصراع بين



الحق والباطل واستدراج الظالمين...)، وكذلك استقراء الأخبار المستقبلية في القرآن والسنة، ثم التقنيات العلمية الحديثة والقوانين العلمية والتجريبية والسنن الاجتماعية والطبيعية التي ترسم أنماطاً يمكن الاستدلال بها لتوقع ما قد يحدث، على غرار المنهج التجريبي الحديث.

وفي قسم الوسائل المكملة المساعدة، ذكر المؤلف الرؤيا الصالحة والاستخارة والفراسة الإيمانية، وكل ذلك وفق ضوابط تمنع من الاعتماد الكامل القاطع على أحكامها، كما أشار إلى دلالة الوحي الصريح كنصوص القرآن والسنة التي أخبرت عن أحداث مستقبلية: فمنها أخبار مبشرة بانتصار الإسلام وانتشاره، ومنها أخبار محدّرة من فتن وقلقل ستقع. ويشدد المؤلف على الموقف المطلوب تجاه هذه الأخبار؛ فالمسلم يتلقاها بميزان متوازن من الرجاء والخوف؛ فالبشائر تدفع للتفاؤل والعمل، والمخاوف تدفع لتصحيح المسار وأخذ الحذر، وقد أكد المؤلف على تحريم الوسائل الممنوعة لاستشراف المستقبل وفي مقدمتها ادعاء معرفة الغيب عن طريق الكهان والعرافين، وكذلك التنجيم والسحر وقراءة الأبراج ونحوها. وبين كيف حارب الإسلام الكهانة وادعاء علم الغيب وحرّمها تحريماً قاطعاً لما فيها من فساد العقيدة وتعلق بأوهام الشياطين. فالشريعة الإسلامية أباحت بل حثت على الوسائل المشروعة لاستشراف المستقبل، والتي تعتمد على العلم والتجربة والوحي والتفكير الإيجابي، وتحذر وتحرم من الخرافة والدجل وكل الوسائل الوهمية التي تنافي التوحيد والعقل.

#### سنن القرآن وأسس علم الاجتماع الإسلامي

وفي معرض حديثه عن السنن القرآنية، تعرض المؤلف لقامتين عظيمتين كان لهما دور في رصد القوانين الاجتماعية ودراسة عوامل الصعود والسقوط



للأمم والمجتمعات، وهما ابن خلدون ومالك بن نبي، وتحدث عن ما أسماه "أوليات" ابن خلدون، و"شرارات" مالك بن نبي، وبيّن دور هؤلاء الرواد في الكشف عن السنن القرآنية، وعلاقة السنن بالمبشرات والمبشرات بالسنن، فمن أمثلة المبشرات: ظهور الدين، وبعض الفتوحات، وفيض المال، وبقاء الطائفة المنصورة، وظهور المجددين،... ومن أمثلة السنن: سنة الابتلاء وسنة التداول وسنة التدافع وسنة التدرج والاستدراج، وسنة السببية التي نتعلم منها أن تحقيق الأهداف لا تكون إلا بإتيان أسبابها، وأن الأسباب إذا انعقدت، وخَلَّتْ من الموانع، تأت نتائجها حتماً.

كما تطرق لسنة الابتلاء، وكيف يؤثر الإيمان بهذه السنة على عمق النظرة للمستقبل والاستعداد له وحسن تقبله، والانتفاع من دروسه وعبره، فالحياة بُنيت على كدر ومشقة وصعاب وعقبات، وهذه الصعاب هي التي تميز بين أصناف الناس وتمتحن ما يدعوه، فالإنسان الواعي بطبيعة الابتلاء لا يتوقع راحة مستمرة إن كان في رخاء، ولا يَفْنَع بشدة مستديمة وإن كان في أشد حالات البؤس، لأن من طبيعة الابتلاء أن ينجلي وينقضي، بعد وقوعه، وظهور حكمته وتمخض نتائجه.

وقد فصل الكاتب في هذه السنن تفصيلاً رصينا رغم اختصاره، وبيّن أن هذه السنن مترابطة وجارية على كل الناس، ومطرودة في كل الأحوال، ولكنها قد تجري في حدث واحد سنن متعددة، ظاهرها التنافر ما لم نعيد قراءتها وفق نسق واحد، مما يدعو إلى تعميق النظر في هذه السنن وتوسيع الدراسات المستقلة حولها، لأنها تصلح أن تكون أسساً أولية لعلم الاجتماع الإسلامي كما صرح الكاتب.



### سنة التغيير في الدول والمجتمعات

أفرد المؤلف حديثاً مهماً عن سنة من السنن التي تشغل الصالحين والمصلحين، وهي سنة التغيير، وكيف أن الله تعالى ربط الإصلاح الخارجي بالإصلاح الداخلي، وبين - سبحانه - في كتابه وسنة نبيه ﷺ أن صلاح ظواهر حياة الناس إنما يحصل بعد إصلاح بواطنهم. ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته. وأصل هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

إن هذه الآية تقرر أمراً في غاية الأهمية في سنة التغيير، تغيير أحوال الناس وتغيير أحوال الأمم.

وإن هذه القاعدة تتضمن حقيقتان من حقائق التغيير:

الحقيقة الأولى: أن التغيير يبدأ من الإنسان نفسه، فمن أراد الانتقال من حال إلى حال فليبدأ هو بالتغيير. فهذا مبدأ المسؤولية.

الحقيقة الثانية: أن بداية التغيير تكون في النفس ومن النفس، أو بالتعبير القرآني من "ما بالنفس". فهذه معادلة التغيير؛ فتغيير ما في الأنفس من أفكار وعقائد وتصورات، يحدث تغيرات جوهرية في سلوك الإنسان ويصنع ثمار كده وعمله.

### التقنيات العلمية الحديثة:

أفرد الكاتب بحثاً مهماً يتعلق بالتقنيات العلمية في الدراسات المستقبلية الحديثة، التي تعتمد على عدة تقنيات مثل التوقعات الخطية، واستقراء الوجهات، وبناء السيناريوهات، وسؤال: ماذا لو؟، وتحليل القضايا الناشئة، ومنحنيات النمو... وغيرها من التقنيات التي فصل فيها في طيات الكتاب.



وقسم الدراسات المستقبلية الحديثة سواء فيما يتعلق بالمشكلات الراهنة التي لا تجد حولا حاسمة كأخطار التجارب النووية والانفجار السكاني التلوث البيئي، أو التي تتناول المستقبل المرغوب والذي يسعى العالم لتشكيله، وقسم هذه الدراسات إلى ثلاثة اتجاهات وهي:

الدراسات المستقبلية التنبؤية، والدراسات المستقبلية الاستقرائية، والدراسات المستقبلية الافتراضية.

ومن أهم مبادئ هذه الدراسات أنها اعتمدت على ما يلي:

- ١- دراسة التاريخ والتعمق فيه والاستفادة منه.
- ٢- دراسة جميع المتغيرات المحيطة ومدى تأثيرها، ومعرفة ما هي الفرص المتاحة والقيود المفروضة والتهديدات والأخطار الناتجة من تلك المتغيرات.
- ٣- وضع صورة للمستقبل خلال العقدين أو الثلاثة العقود المقبلة باستخدام جميع النماذج الرياضية المتاحة مع توضيح الأهداف الغايات وتفصيلها ما أمكن.
- ٤- عدم التحيز وذلك بالاعتماد على المسلمات والفرضيات التي تلاقي قبولا في مختلف الاتجاهات العلمية والفكرية والتكنولوجية.
- ٥- توضيح القدرات المطلوبة لإنجاز كل مسار مستقبلي بتحديد جميع ما يلزم للارتقاء بالمسار المستقبلي من آليات، وتوضيح الأخطار والتكاليف اللازمة.
- ٦- الارتكاز على عوامل التطور في المجالات المختلفة بما يحقق الأهداف والغايات تحقيقا فاعلا.
- ٧- الاعتماد على سيناريوهات مختلفة تشمل جميع الاحتمالات الممكنة يستفيد منها صانع القرار بناء على الأزمة المستقبلية.





ولكن كل هذه التوقعات والدراسات لا غنى لها عن العوامل المساعدة لاستشراف المستقبل، وهي عوامل غيبية وألطف ربانية، كالفراسة، والاستخارة، والرؤيا الصالحة... يكشف بها الله تعالى لمن يشاء من عباده بعض أستار المستقبل ويهبها لمن يشاء، كما حدث مع الخضر وموسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وما حدث مع سيدنا عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من إلهام... ولكنها جميعا لا تُعد حكما مطلقا، أو دليلا من أدلة الأحكام.

#### هندسة بناء المستقبل

إن الحديث عن المستقبل ليس ترفا علميا، أو تأليفا يزاحم أرفف المكتبات أو حديثا ماتعا نلتهى به في المجالس والملتديات، بل هو محاولة جادة وعزيمة صادقة على إيجاد واقع جديد يتواءم وينسجم مع تلك المثل التي يراد من الإنسان تحقيقها في واقع الحياة.

إن الرسالة التي تحملها هذه الأطروحة - كما بين المؤلف - هي أن يكون للإنسان المسلم رؤية واضحة، ولا يبني حياته على التصورات العائمة والأعمال العفوية التي تترك للارتجال والتخبط مساحةً تشتت الجهود وتضيع الأوقات. وأن يكون للمسلم مذهبه الأصيل، المنبثق من عقيدته ودينه، ولا يكون سعيه قائما على ردود أفعال آتية، أو محض هروب من الواقع الأليم.

من أجل ذلك أفرد المؤلف في هذا الباب حديثا عن التصورات المستقبلية التي ينبغي أن يتطلع إليها المسلم، والسلوكيات المطلوبة لتحقيق تلك الطموحات، والوصول إلى مستقبل مشرق.



وقدم نموذجا مقترحا لرؤية مستقبلية تتصف بالأصالة الإسلامية وتتحرى الوضوح والشمول. وتأتي هذه السطور لتوقظ الهمم النائمة، وتشجذ العزيمة الفاترة، وتفتق الأذهان النيرة، وتستدعي الأفكار الناضجة.

وقد انتظم هذا الباب في عدة فصول، بين المؤلف في الفصل الأول، كيف عالج القرآن والسنة ركائز صناعة المستقبل وهي الإرادة التي يسبقها العلم والفكر، وأن لهذه الإرادة ثلاثة أبعاد؛ الأول: وجهتها وهي ما يسمى بالهدف، الثاني: خلوصها وتجردها وهذه القضية يتكلم فيها تحت عنوان الإخلاص، والثالث: قوتها والإرادة في حالة قوتها تسمى العزم أو العزيمة.

وتناول المؤلف أثر الإخلاص ببعد جديد لا يقتصر على الجانب الروحي أو الفقهي بل وضع هذا السر العظيم في سياق فقه المستقبل، حيث يساعد الإخلاص على توحيد الوجهة التي يسعى إليه العامل، حتى لا تشعب به الطرق ويحير منه النظر، مما يساعد في وضوح الرؤية وبلوغ الهدف.

ثم تطرق في المبحث الثاني إلى الجهد المتراكم الدائم كعامل من عوامل الإنجاز في الحاضر والإعداد للمستقبل، وقد أحاط الإسلام الجهد بسلوكيات وقيم أخرى تتمه وتصل به إلى أعظم المراد، وهو الإحسان والصبر والتدرج في الإنجاز

وبعد أن فرغ المؤلف من بعض العوامل الداخلية تطرق في المبحث الثالث إلى العوامل الخارجية، التي أودعها الله تعالى في الكون والتي أبدعها الله في أحسن خلق من التوازن والتكامل، وخلقها لغاية عظمى، وسخرها جميعا للإنسان، لكي يبلغ حاجته ويؤدي واجبه، وأمر الله عباده أن يستكشفوا هذا الخلق وينفذوا إلى هذه السنن من أجل تحقيق مقاصد العبادة والخلافة والعمارة.



ومن العوامل الخارجية التي ذكرها المؤلف، وجود الصراع مع الأعداء، سواء صراعاً خارجياً مع العدو أو داخلياً مع النفس الأمارة بالسوء، فوجود العداوة سنة من سنن التدافع والتمحيص.

ثم أفرد المؤلف مبحثاً نافعا شائقاً حول التوفيق وأثره في مساعي العبد، وأن العبد لا يصل لمراده إن سلبه الله موارد التوفيق، ومن أهم هذه الموارد: صدق الالتجاء إلى الله بافتقار وتضرع، والالتزام بأمر الله تعالى، والعمل الجاد، وعدم الاتكال على غير الله تعالى،... ومما يزيد التوفيق، الشكر على نعمة التوفيق.

#### بناء المجدد

وتحت عنوان تطلعات مستقبلية افتتح المؤلف الفصل الثاني بمبحث حول مواصفات البناء النفسي والعقلي للمسلم المجدد الذي يتحقق على يديه مستقبل الإسلام المنشود، بداية بإصلاح نفسه ثم إصلاح أمته مروراً بإصلاح مجتمعه، ولا يتحقق ذلك إلا باستكمال المسلم لكل عناصر القوة؛ قوة العلم وقوة النفس وقوة العمل وقوة المال وقوة العزيمة وقوة التوجه إلى الله...

ومن هذه المواصفات ما هو "أساسي بحيث لا يتحقق أي تقدم إلا به، مثل صفات الصبر والشجاعة والحكمة. ومنها ما هو كمالي، والإخلال به ينقص من حسن الإنسان وعمله، وإن كان من الممكن وصول الهدف بدونه، لكنه يشوه الصورة بعض الشيء، وهذه الصفات مثل الآداب والنظافة وحسن النظام وبعض مظاهر الجمال."

ومن هذه الصفات ما هو إيجابي ومنها ما هو سلبي، فلا يكتفي المسلم الكيس بحياسة صفات الإيجاب بل لا بد أن يجاهد نفسه ليتحرر من صفات السلب



والنقص، كالبخل والكسل والإهمال، كما يجب عليه أن لا يكتفي بما لديه من قدرات بل يرتقي بها ويجليها، ويزيد في مهاراته المكتسبة ويُنمّيها

وعلى المسلم أن لا يقتصر على رصد وحصر العموميات وتركها في إطارها التجريدي النظري، دون البحث عن تنزيلها في واقع الحياة على هيئة إجراءات قابلة للعمل والقياس والتقويم، وأن يعرض المسلم نفسه على معايير القياس الثلاثة؛ معيار القرآن والسنة، ومعايير السلف وخير القرون، ومعايير المصلحين المعاصرين من أصحاب الهمم العالية، مع رعاية اختلاف الزمان والحال والمكان، وأن يستصحب دائما تركيته لنفسه ورقابته ومعالجتها بكل وسائل التهذيب والتزكية التي باتت علما إسلاميا مستقلا، مع رعاية الجوانب الثلاث؛ الجانب العاطفي والجانب المعرفي والجانب السلوكي في الارتقاء المتوازن. مع الحرص على الصلة مع أرباب هذه الفنون من العلماء الربانيين المرشدين، وكذلك صحبة الأختيار الذي يذكرون بالله ويعينون على السير في درب الصلاح والكفاح.

ولا بد للمسلم المجدد من العناية الكبرى بالتربية الفكرية، وانتهاج التفكير الموضوعي ووسائله، فلا يقبل الدعوى إلا مع دليل، ولا يقبل النقل إلا مع الصحة... ولا يتبع الظن، بل يتحقق ويتبين، ولا يقلد عن عَمى، ولا يتبع الهوى، ولا يطيش في تقدير الأفكار أو الحكم على الناس، ويتحرى الموضوعية في كل شيء، ولا يمنعنه كل ذلك من النقد السليم والفحص القويم، وأن يربط الحقائق بعضها ببعض، وإذا أشكل عليه شيء من المتشابهات ردها إلى المحكمات وفهمها في ضوء القواعد والكليات وجمع النصوص في سياقها دون تكلف ولا تعسف.



## هندسة بناء المجتمع

تطرق المؤلف إلى التطلعات والخطوات التي ينبغي أن يتطلع إليها الإنسان المسلم أو المجتمع المسلم، لترشيد مستقبله، بناءً على المنطلقات الإسلامية الأصيلة. وما هي السلوكيات المطلوبة لتحقيق تلك الطموحات والتطلعات كما بينها الإسلام.

واقترح المؤلف نموذجاً لرؤية مستقبلية تتصف بالأصالة الإسلامية وتتحرى الوضوح والشمول. وتوقظ الهمم النائمة، وتشحذ العزيمة الفاترة، وتفتق الأذهان النيرة، وتستدعي الأفكار الناضجة.

وليس المراد من هذا الباب تأكيد قدوم الإسلام، وسيادة حكمه في المستقبل. فذلك أمر مفروغ منه. وليس الغرض أيضاً الإخبار بسقوط الأنظمة الظالمة أو انهزام معسكر الكفر وكل ما من هذا القبيل، وإنما المراد وضع تصور بشيء من التفصيل أكثر من عمومات النصوص، وبيان كيف يتحقق وعد الله بانتصار هذا الدين وظهور أهله، حتى نسهم في ترك مقاعد المتفرجين والسلبين. فيكون كلامنا كلاماً عملياً يدفعنا إلى التغيير كما أرشد إليه قرآننا وسنة نبينا وهدى سلفنا.

وينتقل الكتاب من التشخيص إلى التوجيه العملي: كيف نبني المستقبل المنشود وفق الهدى الإسلامي؟ فيؤكد المؤلف أن القرآن والسنة قد قدّما هدفاً متكاملًا في صناعة المستقبل على مستوى الفرد والأمة، إن القرآن بيّن أن البداية في صناعة مستقبل الإنسان هي الإرادة من الإنسان نفسه. وينبغي للمسلمين اتباع هذا الهدى لتحقيق الريادة الحضارية من جديد.

وقد قسم هذا الباب إلى فصلين: الأول حول منهج صناعة المستقبل فردياً وجماعياً، والثاني حول التطلعات المستقبلية ومجالات التطبيق، حيث تناول في



الفصل الأول عناصر صناعة المستقبل كما دلّت عليها النصوص: فبدأ بعنصر الإرادة (العزم والنية) موضعاً أهمية تحديد الأهداف الواضحة والسعي إليها بإخلاص لله وعزيمة صادقة. ثم عنصر الجهود والعمل، مبرزاً قيمتي الإحسان (الإتقان) والصبر في الإنجاز الطويل المدى. ثم ناقش العوامل الخارجية التي تؤثر في تحقيق المستقبل، مثل علاقة الإنسان بالكون وتسخير موارد الطبيعة، وخريطة الصراع بين الحق والباطل عبر الزمن، واعتبار العوامل المساعدة فضلاً من الله والعوامل المعرقة ابتلاءً منه.

. وختم عناصر صناعة المستقبل بالمدد الأعظم وهو التوفيق الإلهي، مؤكداً ضرورة طلب العون من الله مع الأخذ بالأسباب. ووضع معادلة لطيفة تعبر عن ذلك: (إرادة الإنسان × جهده) + عوامل خارجية بتحقيق من الله = المحصلة. فالمطلوب بذل أقصى الجهد البشري واستفراغ الوسع، والصبر والإحسان مع الاعتماد على الله وطلب توفيقه دومًا.

أما الفصل الثاني، فركز على التطلعات المستقبلية المنشودة على ثلاثة مستويات: البناء النفسي والعقلي للفرد المسلم، تكوين المجتمع الإسلامي، الكيان الحضاري للأمة. فعلى مستوى الفرد، دعا إلى تنمية الصفات الإنسانية كالانضباط والمسؤولية، والقيم الإسلامية كالتقوى والإخلاص، بين المبنى والمعنى.

إن أكثر أجزاء الدين عرضة للضياع هو جوهره ومعناه وليس شكله ومبناه؛ فكثيرا ما يمارس المسلمون أعمالهم لكنها تبقى صوراً بلا روح، وأشكالاً بلا معنى. وهذا الخلل له مظاهر كثيرة بدأت تظهر في أحوال المسلمين ومظاهر اجتماعهم وعمرانهم!



وتعرض المؤلف لأهمية بناء عقلية علمية رصينة، تجمع بين الإيمان والفهم العلمي للحياة، والاعتماد على الحقائق والقطعيات وطرح الظنون، وتتبع المنقول والمعقول، وترد إلى الأصول والمحكمات، وتحكم بموضوعية وتتخذ بعدل، وتسعى إلى ترسيخ قناعات إسلامية راشدة توجه سلوك المسلم نحو العمل الصالح والبناء النافع.

وعلى مستوى المجتمع، أكد أهمية رسم الأهداف الجماعية الواضحة للأمة، ووضع آليات للتغيير والبناء الاجتماعي المنظم بدل الارتجال، وإعداد الأمة بأسرها لتحمل مسؤولية التغيير والتمكين، بحيث تتوافر فيها شروط النصر والاستخلاف. أما في جانب الكيان الحضاري الأوسع، فقد شدد على صياغة رؤية حضارية إسلامية أصيلة تنبع من قيم الإسلام ومقاصده، وإبراز عطاء الحضارة الإسلامية للإنسانية في الماضي والحاضر، كدليل على قدرتها على الإسهام إيجابياً مستقبلاً. كما تناول طبيعة العلاقة بين الحضارات، مبيّناً أن النظرة الإسلامية تقوم على التفاعل الإيجابي، وتبادل المنافع بين الحضارة الإسلامية وغيرها، ضمن ضوابط استقلالية تحفظ للأمة هويتها. وشدد في الوقت ذاته على ضرورة تحقيق توازن القوى عالمياً، لضمان الحرية والاستقلالية للأمة وعدم الهيمنة عليها مستقبلاً.

فالتخطيط المستقبلي في الإسلام ليس مجرد عمل عشوائي، بل هو منهج متكامل يشمل إعداد الإنسان الصالح علمياً وروحياً، وبناء المجتمع وفق مبادئ التعايش والتراحم، وتأسيس الدولة على العدل والشورى والعلم، وبلورة مشروع حضاري يخدم البشرية ويستفيد من معطياتها دون ذوبان فيها.

وختم بقوله: "إن فقه أولوياتنا يكمله فقه السباق الحضاري أو فقه التفوق العمراني في المرحلة التالية بحيث نحسن التعامل مع مراتب المقاصد؛ الضروريات



على الحاجيات والتحسينات، فالضرورات هي اللبنة الأساس ونقطة الانطلاق في التغيير والإصلاح، والحاجيات هي مرحلة الاستقرار والارتكاز، والتحسينات هي حالة التميز المنشود، يلحق ذلك خطوات تالية، للارتقاء بحال الأمة من حالة الضعف والنقص إلى حالة القوة والوفرة، بدءاً بالسعي نحو حسن التدين، وكمال الإيمان فإنه أول المقاصد وأشرفها.

#### في تكوين المجتمع الإسلامي

من المعلوم بداهة وتجربة أن المبادئ والقيم هي التي تعكس أشكال النظم ولهذا وجب العناية بترسيخ تلك المبادئ قبل تقنين القوانين وإنشاء النظم، إن عدم وضوح المبادئ والأهداف والمعايير في "واجب بناء المجتمعات" يؤدي إلى حركة مضطربة عائمة، لا يدري صاحبها المسافة بينه وبين المثاليات، وهذه الحالة تجعل العامل يراوح في مكانه دون أن يشعر بأي تقدم أو إنجاز، وحتى إن أنجز فليس لديه قدرة على قياس ما أنجز،... كما أن رسوخ المبادئ لا يقاس بكثرة الخطب والمؤلفات والمواعظ بل لا بد من ظهور ذلك على سلوكيات الناس وأخلاقهم .

وأكد المؤلف على ضرورة الاجتماع على القواسم المشتركة بين أصحاب المشروع النهضوي مهما اختلفت تصوراتهم في وسائل العمل وأولوياته .

وفي إطار حديث المؤلف عن العوامل التي تشكل المجتمعات يقول: "إن العوامل التي تشكل أوضاع المجتمع نوعان؛ نوع منظم إرادي ونوع عشوائي غير إرادي، فمن النوع المنظم الإرادي ثلاثة معسكرات: معسكر خير وإيمان، ومعسكر شر وكفر، والثالث معسكر متأرجح يمكن تسخيره للخير وللشر أيضاً.





فمن معسكر الخير والإيمان: الحركات الإسلامية والجمعيات الخيرية والعلماء والدعاة. وأول سمات هذا المعسكر أنه يعمل للإسلام وبالإسلام.

ومن معسكر الشر والكفر: الحركة الصهيونية والماسونية وشركات المخدرات والفساد والجماعات الدينية المنحرفة ووراءهم إبليس وجنوده. وهذا المعسكر تَكُونُ أساساً لمحاربة الخير أو محاربة الإسلام على وجه التحديد.

والمعسكر الثالث، معسكر يتربص، وهو قابل لأن يكون مع أي واحد من المعسكرين، ويتأثر تأثراً كبيراً بقيادته السياسية لا بقاعدته الجماهيرية، وفي مقدمة هذا المعسكر الحكومات ثم المؤسسات الشعبية الأهلية التي تقوم على جهود أفراد المجتمع.

#### تدبير الخلاف المجتمعي

إن ظاهرة اختلاف الأمة وخاصة بين العاملين للإسلام تأكل وتهدر من الطاقات وتضيع من الفرص والأوقات، ومما يعين على التخفيف من ذلك الأخذ بسنة التدرج في بلوغ الأهداف، واعتماد الطرق العلمية في قراءة الواقع كإحصاء ولغة الأرقام، والبحث والدراسة، وفي إطار تدبير الخلاف يطرح المؤلف ثلاث استراتيجيات لتدبير الخلاف، وهي:

١- استغلال القواسم المشتركة للتعاون في العمل المشترك وتحقيق مصالح مشتركة.

٢- دفع كل اتجاه في خندقه الخاص مع التأييد المعنوي في حالة تعذر التعاون العملي في العمل المشترك.



٣- العمل على إذابة الحواجز النفسية والحزاة القلبية بالزيارات وتبادل التهاني وإيجاد علاقة طيبة مع كل الأطراف.

وفي كل ذلك يشير المؤلف إلى أهمية التفرقة ما بين الثوابت والمتغيرات، والحقائق والاجتهادات، ورعاية المتغيرات النسبية؛ نسبية صفات الناس ومواقفهم وتبدلاتها، ونسبية المصالح والأغراض، ونسبية وجود الخير والشرف في المجتمعات والشعوب، ونسبية الأحكام المنوطة بالظن ونسبية الخطط، ونسبية الآراء، وكذلك يراعي الثوابت التي لا يجوز الخلاف فيها ولا حولها، كأصول الاعتقاد، وقطعيات الأحكام، ونجاة المؤمنين،

#### العطاء الحضاري وأفق المستقبل

اختتم المؤلف مباحث الكتاب بالحديث عن الحضارة الإسلامية، وما تحتاجه الأمة من أجل الإقلاع الحضاري من جديد، مؤكداً على أن هذا الأمر يحتاج إلى توازن ونظرة شمولية موسعة تضع الجزئيات في ضوء تلك النظرة الكاملة، وأن ما أنجزه غير المسلمين يعد من الحضارة الإسلامية إن كان ذاك الإنجاز في كنف المجتمعات المسلمة ورعاية دولتها المسلمة، فالإسلام يحمل رسالة حضارية منفتحة ويتبنى الحوار أداةً للتعايش والثقاف، ويدعو إلى أحسن الطرق في الجدل بين الحضارات، ولا يكره أحداً على تبني رؤيته للكون والحياة، ولكنه يحافظ على ثوابته ويؤمن رؤيته الحضارية وهويته الفكرية، مشيراً إلى ما قاله الدكتور العلواني رَحِمَهُ اللهُ فِي وصف الحضارة الغربية: "إن الحضارة المعاصرة - على كل ما أسدته للإنسان من خدمات في عمليات الكشف والتسخير، وعلى كل ما أنتجته من علوم ومعارف وآداب وفنون - بقطع النظر عن طبيعتها -



لم تستطع أن تقدم "أطرا ووسائل تربوية إنسانية هادفة" يمكن أن نجد فيها ما يساعد الإنسان على تقويم نفسه وتهذيب سلوكه وتربية ذاته.

لقد حقق المسلمون في عصرهم الذهبي ما كان ليحلم به أحد منهم قبل. لأن التقديم العلمي والحضاري في الإسلام لا يحتاج إلى مثل ذلك الصراع الميرير بين العلم والدين كما حدث في أوروبا.

ولكن المسلمين جنحوا في عصورهم المتأخرة إلى التقليد والجمود الفكري في مجالي العلم والدين، فلا هم الذين أقاموا الدين ولا هم الذين أصلحوا الدنيا، واكتفى كثير منهم بترديد أمجاد الماضي ! ولن نستأنف مشروعا الحضاري من جديد إلا إذا اجتمعنا على تصور مُفصل للعمران الإسلامي المنشود، وقمنا بمراجعة أدبياتنا المتعلقة بالرؤية لمستقبلنا، وأخذنا بكل أسباب التمكين، وأقمنا أولوياتنا ومراتب مقاصد الخلق وفق " فقه المستقبل " الرشيد.

وفي الختام أقول: لقد استطاع أخي الدكتور فهمي إسلام في هذا الكتاب تقديم رؤية لاستشراف المستقبل تتسم بالشمول والتوازن، وكشف عن ملامح أساسية لفقه المستقبل، مؤكداً على أن الاهتمام بالمستقبل وتدبيره جزء لا يتجزأ من ديننا الإسلامي، إذا قيدناه بضوابطه وحدوده، وأن هذا الفقه ينبغي أن يتصل بأركان العقيدة الصحيحة بعد إحسان فهمها وتنزيلها، على أن يسير هذا الفقه وفق خطط علمية عملية جادة، تجمع بين نصوص الوحي ومقررات العقل، وتأخذ الصالح من ثمرات الحضارات الإنسانية.

هذه قراءة في هذا الكتاب، وهي خطاطة رَسَمَت صورةً عامة لهذا الكتاب، ولخصت ما حوته بعض عناوينه، وهي لا تغني عن السياحة المتأنية في جنبات



هذا السفر المبارك، والقراءة المتأنية في مباحثه التي نحتها الكاتب ونحتت منه، وصاغها على مكث، عبر سنين من المطالعة والدراسة، ثم قدّمها سائغةً، للذين ينشدون لأمتهم مستقبلاً كريماً بين الأمم.

نسأل الله الكريم أن يوفق أخي الدكتور فهمي للمزيد، وأن يتقبل منه هذا العمل الصالح، وأن يرزقنا وإياه عمل الخير وخير العمل، ويختم بالصالحات آجالنا.

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

طرابلس الغرب، ٩ صفر ١٤٤٧هـ، الموافق، ١/٨/٢٠٢٥م





## مقدمة

الحمد لله واسع الرحمة عظيم القدر، مدبر الدهر، وأقسمت ذاته العلية بالعصر،  
فأنجى المؤمنين المهتدين من دركات الخسر، وجعل يسرين لكل عسر، وأنزل  
الكتاب هدى لكل عصر، وجعل الشرع صالحا مصلحا أبد الدهر، سبحانه له الخلق  
والأمر، لا إله إلا هو له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. وصلاة وسلاما  
على الرحمة المهداة والنعمة المسداة، معلم البشرية ورافع شأن الإنسانية، وعلى  
آله الأطهار، وصحابته الأخيار، ما تعاقب الليل والنهار، وعلينا معهم برحمتك  
وكرمك يا عزيز يا غفار.

وبعد

تقف أمتنا اليوم على عتبة مرحلة جديدة من مسيرتها، وهذه المرحلة لا تشبه  
ما قبلها، فسرعة التغيرات غير تلك التي عشناها في القرن الماضي، وموازين  
القوى غير تلك التي تشكلت في السابق، وخريطة الأفكار أيضا تغيرت بسرعة  
هائلة مع سيولة المعلومات وسهولة تناقلها، وبعض التصورات القديمة للأحداث  
والأوضاع لم تعد صالحة لدخول هذه المرحلة.

وتحديات هذه المرحلة غير تلك التي جثمت على صدورنا في الماضي، مع  
التشابه غير القليل بين مرحلة ومرحلة، إلا أن بعض التحديات القديمة تحجمت،  
وبعضها تلاشت، وأخرى تضخمت، مع نشوء تحديات جديدة لم تكن مولودة في  
الماضي، وإن الفرص أيضا تغيرت، فأمامنا فرص جديدة كثيرة تولدت، والقديمة  
منها فلتت بعضها، واستُغِلَّت بعضها، وصاحبتنا إلى اليوم بعضها.



وأمام هذه المعطيات، فنحن بحاجة ماسة إلى علم يبصرنا، وهدى يضيء طريقنا، ومنهجية ترشدنا. والدفاع عن الثوابت المحكمة في ظل المتغيرات المتسارعة المتكاثرة يتطلب سرعة الإدراك وتجدد الوعي وتحديث المعلومات والتزام المنهجية الهادية. ثم إن الاتزان بين التمسك والدفاع عن ثوابت ديننا وقيمنا وبين متابعة التغيرات يفرض علينا علمًا بالدين المنزل وفقهًا للواقع المعاش.

ولكن الأهم من كل ذلك والأجدر بموقعنا كأمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أن ترتقي إلى موقع القيادة والريادة والنهوض بالبشرية نحو الخير العام والرحمة الشاملة، وفي هذا المستوى من الإدراك نتنقل من التبعية إلى المواكبة ثم إلى قيادة الأمم وريادتها.

بناء على ذلك فإن تكوين بنية معرفية تفتح طريق بناء المستقبل من الفروض الكفائية التي تسد حاجة أمتنا في إنارة خريطة طريق نهوضنا الحضاري. ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق العلم والمعرفة، ولنا من كنوز العلم والمعرفة المتعلقة بالمستقبل الشيء الكثير، إلا أنها ما زالت "غابة عذراء" قلما من دخلها واستخرج منها تلك الكنوز الثمينة.





## حاجتنا إلى فقهٍ لاستشراف المستقبل

إن الزمان له حركة واحدة جارفة نحو المستقبل، ولا أحد يقدر على تغيير هذا الاتجاه، وكل إنسان مطلوب منه أن يصنع مستقبله، وما القيام بالواجبات كلها إلا فعل شيء في المستقبل، لأن الماضي فات لا يمكن تغييره ولا إحداث شيء فيه، والحاضر جزءان، جزء حاصل قد تم حدوثه فهو من الماضي، وجزء لم يزل يتشكل ويمكن إحداث شيء فيه أو تجاهه، فهذا بداية المستقبل. فلم تبق للإنسان مهمة أو عمل ممكن القيام به إلا في إطار بناء المستقبل.

والمؤمن بالله واليوم الآخر يهدف من كل أعماله إصلاح مآله الدنيوي والأخروي، ومستقبله في الآخرة هو حصيلة أعماله في دنياه. وقد أمر الله المؤمن بالاهتمام البالغ بمستقبله، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]

ثم إن الأمة بحاجة ماسة في تبصر طريقها وتصور مستقبلها وإدراك مسارها وتوحيد وجهتها وتنسيق جهودها، لتخرج من حالة غناء متبعثر إلى تكوين تيار مؤثر.

فمعالجة قضايا المستقبلية بحاجة إلى علم وفقه قائمين على أسس ديننا الواضحة وكنوز معرفتنا الكاشفة. وقرآننا وسنة نبينا وتراثنا الفقهي والفكري غني وثرى، إلا أنه بحاجة إلى اجتهاد جاد في استخراجهِ من مصادره وتركيب أجزائه وترتيب مسأله ثم تقديمه بشكل ملائم لاحتياجات مسلمي هذا العصر.

فقضايا المستقبل ليست غائبة عن بيان القرآن ولا شاردة عن هدي السنة ولا بعيدة عن تناول الفقه. ولكنها لم تحظ باهتمام كاف، ولم تبرز كعلم مستقل، ولم تجمع في مدون واحد، فضلا عن مناقشة مسأله وحل مشكلاته ورد شبهاته.





وقد كان للفقيه جهد متواضع منذ أكثر من عشرين سنة في خوض هذا الغمار والغوص في هذا الموضوع، فكانت المحاولة الأولى في رسالتي لنيل الماجستير وإجازة المشيخة من جامعة الإيمان بعنوان "استشراف المستقبل في القرآن والسنة" ثم رسالة الدكتوراة بعنوان "مفاصل الشريعة ودورها في صياغة المستقبل"، وبعدها أصدرت كتابا بعنوان "مستقبل العالم بين الخير والشر" وبعد ذلك كتاب "أسرار المستقبل في خبايا الماضي من وحي سورة الكهف". وكل ذلك خدمة لهذا المجال المهم.

ولعلي أخص كل ذلك في هذه الرسالة تحت عنوان "فقه استشراف المستقبل". دافعا للموضوع نحو مزيد من البلورة والنضوج وانتقالا للمعالجة من طرحه كمسائل متفرقة إلى تقديمه كعلم مؤصل منظم....



## التعريف بفقه استشراف المستقبل

### معنى الفقه

الفقه لغةً يدل على إدراك الشيء والعلم به. تقول: فقهت الحديث أفقهه. وكل علم بشيء فهو فقه. يقولون: لا يفقه ولا ينقه. ثم اختص بذلك علم الشريعة.<sup>(١)</sup> وقال ابن منظور: الفقه: العلم بالشيء والفهم له، وغلب على علم الدين لسيادته وشرفه وفضله على سائر أنواع العلم كما غلب النجم على الثريا والعود على المنديل.<sup>(٢)</sup> قال الخليل بن أحمد: الفقه العلم في الدين. يقال: فقه الرجل يفقه فقهًا فهو فقيه. وفقه يفقه فقهًا إذا فهم.<sup>(٣)</sup>

ويطلق الفقه في القرآن على مطلق الفهم كما في قوله تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٧، ٢٨] وقوله تعالى: ﴿يَشْعَبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١] وقد يطلق على المستوى المتقدم في الفهم، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢] ويُلحظ في الآية أن من مقتضيات هذا الفقه هو مهمة الإنذار، ولا يكون الإنذار إلا بإدراك المخاطر القادمة المستقبلية.

(١) مقاييس اللغة: ٤/ ٤٤٢

(٢) لسان العرب: ١٣/ ٥٢٢

(٣) معجم العين: ٣/ ٣٧٠



وكذلك في السنة المطهرة، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ، فَخِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فِقَهُوا." [متفق عليه].<sup>(١)</sup>

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ عَزَّجَلَّ مِنَ الْهُدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتْ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلَّا وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ الْمَاءَ فَفَنَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَأَصَابَ طَائِفَةٌ مِنْهَا أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيَعَانٌ لَا تُمْسِكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فُقِّهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ بِمَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ» [متفق عليه].<sup>(٢)</sup>

ومع أن إطلاق الفقه يغلب على ذلك التخصص العلمي الخاص المتعلق بالأحكام الشرعية الظاهرة، إلا أننا لا نحصره في هذا المجال، فإن قضايا المستقبل أوسع من أن تنحصر في الأحكام الشرعية الظاهرة. لذا فإننا نقصد بالفقه هنا مطلق الفهم والإدراك كما هو أصل معناه اللغوي.

#### معنى الاستشراف

هو مصدر من استشرف الشيء أي رفع بصره إليه وبسط كفه فوق حاجبه كالمستظل من الشمس. وفي الحديث «أمرنا أن نستشرف العين والأذن [يعني في الأضحية]»<sup>(٣)</sup> أي نتفقدها، ونتأملها لئلا يكون فيها نقص من عور أو جدع، أي نطلبهما شريفيين بالتمام.<sup>(٤)</sup>

(١) رواه البخاري (١٢٢/٣) رقم: (٣٣٠٤) ومسلم (١٨١/٧) رقم: (٢٥٢٦)

(٢) رواه البخاري (٤٢/١) رقم: (٧٩) مسلم (٦٣/٧) رقم: (٢٢٨٢)

(٣) أخرجه ابن خزيمة (٢٩٣/٤) رقم: (٢٩١٤) وابن حبان (٢٤٢/١٣) رقم: (٥٩٢٠)

(٤) القاموس المحيط، الفيروز آبادي، ص ٧٦٠، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى سنة



قال في لسان العرب: وتشرف الشيء واستشرفه: وضع يده على حاجبه كالذي يستظل من الشمس حتى يبصره ويستبينه ومنه قول ابن مطير<sup>(١)</sup>:

فيا عجباً للناس يستشرفونني كأن لم يروا بعدي محباً ولا قبلي

وفي حديث أبي طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه كان حسن الرمي فكان إذا رمى استشرفه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لينظر إلى مواقع نبهه أي يحقق نظره ويطلع عليه.

وفي حديث أبي عبيدة: قال لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قدم الشام وخرج أهله يستقبلونه: ما يسرني أن أهل هذا البلد استشرفوك أي خرجوا إلى لقاءك. وإنما قال ذلك لأن عمر ما تزيا بزى الأمراء فخشي ألا يستعظموه.

فالاستشراف هو فعل الإنسان لتحديق النظر نحو شيء أمامه ليتأمله ويتفقد.

#### معنى المستقبل

أما معنى المستقبل بفتح الباء فهو اسم مفعول من استقبل يستقبل استقبالا فهو مستقبل ومستقبل. والاستقبال في اللغة ضد الاستدبار<sup>(٢)</sup>، وهو التوجه إلى الأمام قبل الوجه، ولكنه في سياقنا هذا - كما قال الشريف الجرجاني: ما تترقب وجوده بعد زمانك الذي أنت فيه<sup>(٣)</sup> - فهو تعبير عن الزمن القادم، حيث إن الإنسان مقبل عليه ومتجه إليه، فهو من تشبيه المعنوي بالحسي، ومن المجاز الذي تحول إلى حقيقة عرفية تدل على الزمن القادم مطلقا.

(١) الحسين بن مطير مولي بن أسد شاعر محسن بديع القول أدرك الدولتين الأموية والعباسية (سير أعلام النبلاء ٨١ / ٧)

(٢) لسان العرب: ٥٣٧ / ١١، ابن منظور، دار صادر - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ

(٣) التعريفات: ١٧، الجرجاني، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م



والمستقبل في عقيدتنا يشمل كل ما هو آت في الحياة الدنيا والحياة الأخرى بعد الممات. فمعالجتنا لقضايا المستقبل لا تقتصر على المجال المادي الدنيوي، لكنها تتعدى إلى كل المجالات التي يعالجها هذا الدين في أمور المستقبل سواء المستقبل الدنيوي أو الآخروي، بجانبه المادي والمعنوي.

ففقه استشراف المستقبل هنا يعني محاولة الكشف والفهم بقضايا المستقبل معتمداً على مصادر المعرفة التي دل عليها وأقرها الشرع الإسلامي.

وفقه استشراف المستقبل يعالج كل المسائل المتعلقة بالمستقبل من أبوابها الثلاثة: التصورات والتطلعات والتصرفات. فباب التصورات المستقبلية يشمل التصورات عن طبيعة الحياة الدنيا والغرض من وجودها ومصائر الناس فيها، ويشمل الحياة الآخرة وطبيعتها ومعايير الربح والخسارة فيها، وكذلك يشمل قضية الأقدار وعلاقتها بسعي الإنسان. وأما باب التطلعات المستقبلية فيتضمن الأهداف المطلوبة والمُثل العليا المرغوبة وترغيب الشرع لها. وأما باب التصرفات فيعالج أعمال الإنسان ووسائله لمعرفة المستقبل وتحقيق أهدافه ورغباته، والتخطيط للوصول إليها والاستراتيجيات المناسبة لها.



# الباب الأول

## العقيدة البناءة للمستقبل

### الفصل الأول:

الإيمان باليوم الآخر والتكليف والجزاء والحساب



### الفصل الثاني:

بناء المستقبل الدنيوي



### الفصل الثالث:

مسألة القضاء والقدر في سياق بناء المستقبل



### الفصل الرابع:

التوكل الصحيح



### الفصل الخامس:

صور من التخطيط المستقبلي في الإسلام





إن ديننا الإسلامي يحمل مشروع الإصلاح الشامل وإرشاد لبناء المستقبل كامل. وإن عقيدتنا تعطينا تصورات صحيحة عن هذه الحياة وطبيعتها وأهدافها ومعاييرها وتحدياتها ونمط سيورة أحداثها. فهي عقيدة تدل الناس على طريق بناء الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنُتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]

ولم يحبذ الإسلام الموقف السلبي من المستقبل حيث لم يتجاوز نظر الإنسان لحظته الحاضرة، أو ظل يلوي رأسه نحو الماضي الغابر ولا يلتفت إلى الأمام. بل حث الإسلام على الاهتمام بالمستقبل بكل أشكاله وحيثياته، وأخذ هذا الاهتمام أشكالاً متعددة وسلك طرائق متنوعة، بدءاً بالأمر بالعمل من أجل بناء المستقبل ومروراً بإرشاد الناس إلى النظر في مآلات الأمور ثم بالتذكير الدائم بطبيعة الحساب وظهور النتائج في اليوم الآخر وحتى أن الله قدم نموذجاً عملياً في التخطيط المستقبلي في قرآنه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.







## الفصل الأول: الإيمان باليوم الآخر والتكليف والجزاء والحساب

إن الإيمان باليوم الآخر أقوى ما يؤثر في سلوك المؤمن الصادق ويحدّد موقفه من مستقبله. وهو مجموعة من المعتقدات المترابطة المتكاملة توضح مهمة الإنسان ومبدأ الجزاء والعقاب ثم الحساب واليوم الآخر الذي هو نتيجة أخيرة من عمل الإنسان في هذه الحياة. وضوح في الهدف، وضوح في الطريق، وضوح في المعايير، ثم وضوح في المصير المترتب على عمله.

### المبحث الأول: الإنسان والتكليف

لقد صرح القرآن أن على الإنسان مهمة يجب تحقيقها في هذه الحياة، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] والعبادة معنى شامل لكل ما يطلبه الله من الإنسان من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢]. إنه معنى شامل شمول ربوبية الله لعباده، شمول قدرة الله عليهم، وشمول علم الله بشؤونهم.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.<sup>(١)</sup>

إلا أن التكاليف مراتب، منها فرائض لازمة ومنها نوافل مفتوحة. بامثال الفرائض يدخل الإنسان في دائرة النجاة والسلامة. وبالنوافل يترقى الإنسان إلى سَلَم المعالي والكرامة، يصعد بها المجتهد، ويترخص فيها المقتصد.

(١) العبودية ص ٣٨، لشيخ الإسلام ابن تيمية، المكتب الإسلامي.



وهناك منهيات، منها محرمات ومنها مكروهات. باجتناب المحرمات ينجو الإنسان من الهلاك المحقق والعذاب المؤبد. وباجتناب المكروهات يسمو الإنسان عن الرذائل المستقبحة إلى الفضائل المستحسنة.

وليس التكليف في الإسلام ركاما من الأعباء الثقيلة الشاقة التي تُنقض ظهر الإنسان.

قد بين القرآن أن التكليف لا يتجاوز مقدار وسع الإنسان.

قال الله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. بقدر ما أعطاه الله من إمكانية يكون التكليف عليه ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

بل كشف الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ حقيقة أبعد من ذلك، حيث أثبت أن التكليف في الحقيقة أقل وأخف من قدرة الإنسان المتاحة له. فإن الشارع يرفع عن المكلف المشقة وإن كانت داخلية في نطاق القدرة إذا كانت خارجة عن المعتاد بحيث يشوش على النفوس في تصرفها ويقلقها في القيام بما فيه تلك المشقة.<sup>(١)</sup>

وهو أمر تقرر في شرعنا الحنيف أن الحرج مرفوع، وأن المشقة تجلب التيسير. قال الله في خصائص الرسالة المحمدية ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] وقال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]. وقال: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦].

(١) الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، (٢/ ٨٢)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م

وفي الحكمة من الصيام قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] وأحكام الزواج قال عَزَّجَلَّ: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦-٢٧]. وفي أحكام الطهارة قال: ﴿وَلَا يَكُنِ الرَّجُلُ بِرَأْسِهِ وَلَا يَرْجُلُ بِأُخْرَىٰ وَلَا يُؤَمِّلُ الْفَرْجَ وَاللَّهُ يَبْغِ الْفَحْشَاءَ وَالْمُنكَرَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧٩]. وهكذا في كل جزئيات الشريعة.



وهذا التكليف حق طبيعي ومنطقي لله عَزَّوَجَلَّ. هو الذي خلق وهو الذي ملك. هو سبحانه المعطي وهو كذلك الآخذ. فله سبحانه أن يأمر بما يشاء، ويحكم ما يريد. لكنه رب كريم، رحيم حكيم. فالذي طلبه من العبد أقل -ولا مقارنة- من الذي أعطى. والذي منعه منه أيسر بكثير من الذي منحه له.

فلم يتحرك الإنسان المسلم في حياته على فراغ. إن له رسالة عظيمة وأمانة جسيمة تتلاءم مع التكريم الذي كرم الله به بني آدم.

ولله عباد لهم نفوس راقية لا تستثقل التكاليف لأنها نفوس مشربة بحب الله ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] فهي تحب ما يحبه ربها ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧] فبقدر قوة إيمان المؤمن يكون حبه للطاعات وكرهه للمعاصي، ويكون أكثر الناس رشداً.

ولذلك يكون الدعاء المأثور: "اللهم إني أسألك حبك وحب من أحبك وحب عمل يقربني إلى حبك."<sup>(١)</sup>

#### المبحث الثاني: الجزاء والحساب

بين الله أن التكليف مقابل بالجزاء المكافئ له، إن خيراً فخير وإن شراً فشر. ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وأبت رحمة الله إلا أن تغلب غضبه. فهو سبحانه يضاعف جزاء المحسن ولا يعاقب المسيء إلا بقدر عمله.

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣/٥) رقم (٢٢١٦٢) والترمذي (٣٦٨/٥) رقم (٣٢٣٥).



﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الفصص: ٨٤].

ورحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أضعاف عدله سبحانه.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

وقد يضاعف الله الجزاء إلى سبعمائة ضعف قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

بل وقد يجازي الله بعض عباده بلا حد ولا حساب قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

وهذا الجزاء قد يحصل في الدنيا وقد يكون في الآخرة. قد يكون ماديا محسوسا وقد يكون معنويا معقولا. وستكلم عنه بتفصيل أكثر عند الكلام عن قاعدة الجزاء من جنس العمل في الباب الثالث إن شاء الله.

### الجزاء العاجل

من الجزاء ما يكون في الدنيا عاجلا. من ذلك ما ذكر الله في جزاء الاستغفار ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠، ١٢]. وقال سبحانه في سورة هود: ﴿وَأَن اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ۖ﴾ [هود: ٣] وقال على لسان هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ٥٢].



وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً ومن كل هم فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب." (١)

وكذلك جزاء التقوى منه ما يكون عاجلاً في الدنيا قال تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وإذا كانت التقوى تظهر في صورة جماعية فالجزاء جماعي أيضاً: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقد يكون الجزاء معنوياً بأن يوفق الله العبد ويعينه على الطاعة أكثر. وهذا أفضل بكثير من الجزاء المادي. لأن هذه الدار دار عمل فالإعانة على العمل في الدنيا أهم وأنفع من اللذة الفانية.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]

ومن أعظم الجزاء في الدنيا التمكين لدين الله ورفع أصحابه في الدنيا قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]

(١) أخرجه أبو داود واللفظ له (٢/ ٨٥ رقم ١٥١٨) وابن ماجه (٢/ ١٢٥٤ رقم ٣٨١٩) والبيهقي (٣/ ٣٥١ رقم ٦٢١٤) والطبراني في الكبير (١٠/ ٢٨١ رقم ١٠٦٦٥)



وكذلك -في المقابل- من العقوبة ما يكون معجلاً في هذه الدار. فالمصائب التي تصيب الإنسان منها ما يكون بسبب الذنوب ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيَ النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

لذلك لما تساءل المسلمون يوم أحد عن سبب هزيمتهم، ذكر الله أن ذلك بسبب ما ارتكبه من الأخطاء. ﴿أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ [آل عمران: ١٥٥].

لما أنزل الله قوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ قال أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يا رسول الله كيف الصلاح بعد هذه الآية ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]؟ فكل سوء عملنا جُزينا به!

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: غفر الله لك يا أبا بكر، أأنت تمرض؟ أأنت تنصب؟ أأنت تحزن؟ أأنت تصيبك اللاؤاء<sup>(١)</sup>؟ قال: بلى. قال: فهو ما تجزون به.<sup>(٢)</sup> وكذلك هلاك الأمم قبلنا كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم هو من أعظم الجزاء المعجل. ولكن الله يرحم هذه الأمة من الهلاك العام. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سألت ربي ثلاثاً، فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة، سألت ربي أن لا يهلك أمتي

(١) اللاؤاء: الشدة وضيق المعيشة (النهاية ٥٧٨/٢)

(٢) أخرجه أحمد (١١/١ رقم ٦٨) وابن حبان (١٧٠/٧ رقم ٢٩١٠) والبيهقي (٣/٣٧٣ رقم ٦٣)

(٢٨) والحاكم (٣/٧٨ رقم ٤٤٥٠) وصححه



بالسنة<sup>(١)</sup> فأعطانيها، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها.<sup>(٢)</sup>

وروى الطبري في تفسيره عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما أهلك الله قوما بعذاب من السماء ولا من الأرض بعد ما أنزلت التوراة، ثم قرأ قوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣].<sup>(٣)</sup>

من الجزاء المعجل أيضا تسليط الذل على قوم قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم الله بالعذاب".<sup>(٤)</sup>

وعن ابن عمر قال سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "إذا تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم".<sup>(٥)</sup>

والوهن الذي أصاب المسلمين إنما هو من هذا النوع ولا يرفعه الله عنهم إلا إذا رجعوا إلى دينهم.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن الله زوى<sup>(٦)</sup> لي الأرض، فرأيت مشارقتها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي

(١) السنة: الجذب (النهاية ١/ ٨١٦)

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢١٦) رقم (٢٨٩٠)

(٣) جامع البيان (٢٠ / ٨٠) الطبري، دار الفكر بيروت سنة ١٤٠٥ هـ

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٤/ ١٤٩) رقم (٣٨٤٠)

(٥) أخرجه أحمد (٢/ ٨٤) رقم (٥٥٦٢) وأبو داود (٣/ ٢٧٤) رقم (٣٤٦٢) والبيهقي (٥/ ٣١٦) رقم

(١٠٤٨٤)

(٦) زويت لي الأرض أي جمعت (النهاية ١/ ٧٣٧)





لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم<sup>(١)</sup>، وإن ربي قال: يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يسيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها أو قال من بين أقطارها حتى يكون بعضهم يهلك بعضها ويسبي بعضهم بعضا.<sup>(٢)</sup>

فكان كل ما أصاب المسلمين اليوم إنما هو بسبب ظلمهم لأنفسهم. جزاء وفاقا.

### النتيجة النهائية

ولكن هذه الدار دار عمل وإنما يوفى الجزاء يوم القيامة. وما ظهر في هذه الدار من البلاء والمصائب إنما هي للتذكير حتى يرجع الإنسان إلى رشده. كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

أو يكون تخفيفا للعقوبة. فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال لنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن في مجلس: "بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله في الدنيا فأمره إلى الله، إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه." قال: فبايعناه على ذلك.<sup>(٣)</sup>

(١) أي مجتمعهم وموضع سلطانهم ومستقر دعوتهم وبيضة الدار وسطها ومعظمها، أراد عدوا

يستأصلهم ويهلكهم جميعهم (النهاية ١/ ١٧٣)

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢١٥ رقم ٢٨٨٩)

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ١٨٥٧ رقم ٤٦١٢)



فالجزاء الحقيقي هو في تلك الدار الآخرة التي هي آخر المطاف لحياة الإنسان، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

فيكون هنالك الحساب الدقيق يوم القيامة في كل صغيرة وكبيرة قال الله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَوَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

فالفلاح كل الفلاح لمن جاء بالحسنات الوفيرة. والخسارة كل الخسارة على من لم يأت بما يطلبه الله منه. ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [٨] وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]

#### المبحث الثالث: مقياس الربح والخسارة

ثم إن الله فصل مقياس الربح والخسارة في هذه الحياة الدنيا والآخرة، وحذر البشر من الخسارة فيها، قال الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]. فلا نجاة من الخسارة إلا بهذه الأربع الخصال: الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

وقد أخطأ كثير من الناس حيث جعلوا الأموال والأولاد معايير مستقلة للنجاح والفلاح. قال تعالى مفنداً لهم: ﴿يَتَحَسَّبُونَ أَنَّمَا يُدْهَرُ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ ۖ سَارِعَ لَهُمْ فِي الْحَيَرَةِ ۚ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ولا ينفع المال ولا البنون يوم القيامة إلا لصاحب القلب السليم، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [٨٨] إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] سليم من الشرك، فلا يعبد



إلا الله. سليم من الكفر، فلا يرتكب ما نهى الله. سليم من البخل فلا يمنع الخير. سليم من الكبر فلا يفتخر ولا يحتقر.

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جلس ذات يوم على المنبر فقال: "إني مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها، فقال رجل: يا رسول الله أويأتي الخير بالشر؟

فسكت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقليل له: ما شأنك؟ تكلم النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا يكلمك! فرأينا أنه ينزل عليه. قال فمسح عنه الرخصاء<sup>(١)</sup> فقال: أين السائل؟

وكانه حمده، فقال: إن الخير لا يأتي بالشر، وإن مما ينبت الربيع<sup>(٢)</sup> ما يقتل أويلم<sup>(٣)</sup>، إلا أكلة الخضر<sup>(٤)</sup>، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتها استقبلت عين الشمس،

(١) الرخصاء هو عرق يغسل الجلد لكثرته وكثيرا ما يستعمل في عرق الحمى والمرض (النهاية ٦٤٤/١)

(٢) الربيع النهر الصغير (النهاية ٦٢٨/١)

(٣) أي يقرب من القتل (النهاية ٦١٦/٢)

(٤) الخضر بكسر الضاد نوع من البقول، ليس من أحرارها وجيدها، وثلط البعير يثلط إذا ألقى رجيعة سهلا رقيقا. ضرب في هذا الحديث مثلين: أحدهما للمفرط في جمع الدنيا، والمنع في حقها، والآخر للمقتصد في أخذها والنفع بها. فقوله "إن مما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أويلم"، فإنه مثل للمفرط الذي يأخذ الدنيا بغير حقها، وذلك أن الربيع ينبت أحرار البقول، فتستكثر الماشية منه لاستطابتها إياه، حتى تنتفخ بطونها عند مجاوزتها حد الاحتمال، فتنشق أمعاؤها من ذلك فتهلك، أو تقارب الهلاك، وأما قوله: "إلا أكلة الخضر"، فإنه مثل للمقتصد، وذلك أن الخضر ليس من أحرار البقول وجيدها الذي ينبتها الربيع، بتوالي أمطاره فتحسن وتنعم، ولكنه من البقول التي ترعاها المواشي بعد هيج البقول ويسبها حيث لا تجد سواها، وتسميها العرب الجنبّة، فلا ترى الماشية تكثر من أكلها ولا تستمرئها، فضرِبَ أكلة الخضر من المواشي مثلا لمن يقتصد في أخذ الدنيا وجمعها، لا يحمله الحرص على أخذها بغير حقها =



فثَلَطَتْ وبالت ورتعت، وإن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المسلم ما أعطي منه المسكين واليتيم وابن السبيل - أو كما قال النبي ﷺ - وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون شهيدا عليه يوم القيامة. <sup>(١)</sup>

إن الله جعل معايير للربح والخسارة، ورفع أقواما ووضع آخرين بهذه المعايير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ٥٧ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ٥٨ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ٦٠ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْحَيَرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَلِيقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: ٥٧، ٦١].

إن الرابعين بهذه المعايير هم الذين سخت نفوسهم، وفاض عطاؤهم.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيرا فنفع <sup>(٢)</sup> فيه يمينه وشماله ومن بين يديه ووراءه." <sup>(٣)</sup>

وعن امرأة من أزواج النبي ﷺ أنها ذبحت شاة فقالت: "يا رسول الله تصدقنا بها إلا كتفها." فقال: "هي لكم كلها إلا كتفها." <sup>(٤)</sup>

= فهو بنجوة من وبالها، كما نجت أكلة الخضر، ألا تراه قال: "حتى إذا امتدت خاصرته، استقبلت عين الشمس فثَلَطَتْ وبالت"، أراد أنها إذا شبت منها بركت مستقبله عين الشمس تستمرئ بذلك ما أكلت، وتجت وتثلط، فإذا ثَلَطَتْ، فقد زال عنها الحبط، وإنما تحبط الماشية لأنها تمتلئ بطونها ولا تثلط ولا تبول، فتتفخ أجوافها، فيعرض لها المرض فتهلك، وأراد بزهرة الدنيا: حسننها وبهجتها، وبركات الأرض: نماؤها وما يخرج من نباتها (النهاية ١/ ٤٩٨-٤٩٩)

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٥٣٢ رقم ١٣٩٦) ومسلم (٢/ ٧٢٨ رقم ١٠٥٢).

(٢) أي ضرب يديه فيه بالعطاء. النفخ: الضرب والرمي (النهاية ٢/ ٧٧١)

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ٢٣٦٦ رقم ٦٠٧٨) ومسلم (٢/ ٦٨٨ رقم ٩٤)

(٤) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٤٤ رقم ٢٤٧٠) والحاكم (٤/ ١٥١ رقم ٧١٩٣) والبيهقي في الشعب (٣/ ٢١٤ رقم ٣٣٥٦) واللفظ له وفي رواية الترمذي وغيره أن هذه المرأة كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.



وقد نهى الله نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ تَتَطَّلِعَ نَفْسُهُ إِلَى هَذِهِ الزَّهْرَةِ الْفَانِيَةِ: ﴿وَلَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١].

فالنفس المؤمنة التي تزن بميزان رباني لا تتطلع إلى سراب زائل. وقد نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الحسد إلا في أمرين اثنين، في العلم النافع والإنفاق في سبيل الطاعة. قال عليه صلاة الله وسلامه: "لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها ورجل آتاه الله مالا وسلطه علىهلكته في الحق."<sup>(١)</sup>

لما ظهر قارون على قومه بما آتاه الله من حظوظ الدنيا وهو عارٍ عن العمل الصالح قال بعض القوم: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [الفصل: ٧٩]. ولكن الذين أوتوا بصيرة وعلمًا استبصروا القضية وزجروهم على ذلك الموقف الذي ينبئ عن طمس البصيرة وضعف الإيمان، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُكَلِّفُهَا إِلَّا الصَّادِقُونَ﴾ [الفصل: ٨٠].

إن أمل المؤمن الحق هو العطاء دائماً، وهاجسه أبداً هو العمل الصالح الذي يقربه إلى الله.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنما الدنيا لأربعة نفر؛ عبد رزقه الله مالا وعلمًا، فهو يتقي فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعلم الله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل،

(١) أخرجه البخاري (٢/ ٥١٠ رقم ٤٧٣٧، ٦/ ٢٦١٢ رقم ٢٧٢٢، ٦/ ٢٦٦٨ رقم ٦٨٨٦) ومسلم (١/ ٥٥٩ رقم ٨١٦) وفي رواية للبخاري (٤/ ١٩١٩ رقم ٤٧٣٨) بلفظ: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار فسمعه جار له فقال ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالا فهو يهلكه في الحق فقال رجل ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل."



وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا، فهو صادق النية يقول لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علما، فهو يخبط في ماله بغير علم لا يتقي فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ولا يعلم الله فيه حقا فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علما، فهو يقول لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزرهما سواء." (١)

وقال رسول الله ﷺ: "نعم المال الصالح للرجل الصالح" (٢). فهذا ربح في الدنيا وربح في الآخرة.

هكذا يقاس على سائر الإمكانيات والفرص المتاحة للإنسان إنما تكون مربحة إذا وُظفت في طاعة الله وسبل الخير.

قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ." (٣)

#### المبحث الرابع: اليوم الآخر

إن الحياة بعد الموت حقيقة من أكثر الحقائق تأكيدا وتكريرا في القرآن. إنها حقيقة كبرى، وعلى كل إنسان أن يضعها نصب عينيه. لقد كان رسول الله ﷺ يقول: "أكثرُوا من ذكر هاذم اللذات، يعني الموت." (٤) نعم، إنه لحري

(١) أخرجه أحمد (٢٣١/٤) الترمذي (٥٦٢/٤) رقم ٢٣٢٥ واللفظ له وقال هذا حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٧/٤) وابن حبان (٦/٨) رقم ٢٣١٠ والبخاري في الأدب المفرد (١١٢/١) رقم ٢٩٩ والبيهقي في الشعب (٩١/٢) رقم ١٢٤٨ واللفظ له.

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٥٧/٥) رقم ٦٠٤٩

(٤) أخرجه ابن حبان (٢٥٩/٧) - ٢٦١ رقم ٢٩٩٢ - ٢٩٩٥) والترمذي (٥٥٣/٤) رقم ٢٣٠٧ واللفظ له وقال: هذا حديث حسن غريب.



بالإنسان الذي يريد أن يسلم وينجح، أو يغنم فيربح، أن يكون في حسابه دائما هذا الأمر الجلل.

إنه يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة. الخسارة الحاصلة فيه لا تعوض، والحسنة لا تبخس. ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظَلُّ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

إنه يوم يواجه الإنسان عمله فقط لا ينفعه شفاعة الشافعين إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا. وكل امرئ محاسب على نفسه فقط. قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا تَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ [لقمان: ٣٣]

إنه الواقعة التي ليس لوقعتها كاذبة.

ولكن مع كل ذلك أغلب الناس في غفلة شديدة عن هذه الحقيقة العظيمة. ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١]

#### التذكير المكثف في ضرورة الاهتمام باليوم الآخر كحتمية مستقبلية

بناء على ذلك لقد أخذ الكلام في الإيمان باليوم الآخر حيزا كبيرا في القرآن الكريم. ويمكن أن نقول إن هذه القضية تمثل ثلث القرآن. إذ أن محاور القرآن تدور على ثلاث ركائز: التوحيد، والرسالة، وأمر المعاد ومحاسبة العباد. وهي القضايا التي اتفقت الرسل والشرائع جميعا في التركيز عليها ودعوة الناس إليها. وهي أمهات المطالب العالية كما سماها ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.<sup>(١)</sup>

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم، ج ١ ص ٧، دار الكتاب العربي، بيروت، طبعة سنة ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.



وقد أكثر الله من ذكره في كتابه الكريم. وقرره بطرق متنوعة.<sup>(١)</sup>

منها: إخباره - وهو أصدق القائلين - عنه وعما يكون فيه من الجزاء الأوفى مع إكثار الله من ذكره. ونوع من أسمائه. بل وأقسم به، كقوله: ﴿لَا أَقْسُمُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [القيامة: ١]. وأمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْسِمَ عَلَيْهِ فِي ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِهِ. كقوله: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ﴾ [يونس: ٥٣] وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَكُمُ﴾ [سبا: ٣] وقوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

ومنها: الإخبار بكمال قدرة الله تعالى ونفوذ مشيئته وأنه لا يعجزه شيء كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧] في سورة هود بعد كلامه سبحانه عن خلود أهل النار. وقوله تعالى: ﴿فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، بعد قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [١٢] إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ [البروج: ١٢، ١٣]. فإعادة العباد بعد موتهم فرد من أفراد قدرته.

ومنها: تذكيره للعباد بالنشأة الأولى وأن الذي أوجدهم ولم يكونوا شيئاً مذكورا لا بد أن يعيدهم كما بدأهم. كما قال سبحانه: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] جوابا لسؤال المشركين: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨] وتذكيره أن الإعادة أهون عليه. قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]. وأعاد هذا المعنى في مواضع كثيرة بأساليب متنوعة.

(١) انظر القواعد الحسان لتفسير القرآن لعبدر الرحمن بن ناصر السعدي، القاعدة الثامنة. وهو ملحق بتفسير تيسير الكريم المنان طبعة دار الفكر سنة ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، ص ٦٩٩.





منها: إحياءه الأرض الهامدة الخاشعة الميتة بعد موتها. وأن الذي أحياها سيحي الموتى. وقرر ذلك بقدرته على ما هو أكبر من ذلك. وهو خلق السماوات والأرض والمخلوقات العظيمة. قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِ الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩]

ومنها: تقرير ذلك بسعة علمه وكمال حكمته، وأنه لا يليق به ولا يحسن أن يترك خلقه سدى مهملين لا يؤمرون ولا ينهون. ولا يثابون ولا يعاقبون. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْتُمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] ثم عقب ذلك بقوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] أي تعالى الله وتنزه عن أن يفعل كل ذلك عبثا بدون بعث ولا حساب ولا جزاء. وهذا طريق قرر به النبوة وأمر المعاد.

ومما قرر به البعث ومجازاة المحسنين بإحسانهم والمسيئين بإساءتهم: ما أخبر به من أيامه وسننه سبحانه في الأمم الماضية والقرون الغابرة. وكيف نجّا الأنبياء وأتباعهم، وأهلك المكذبين لهم المنكرين للبعث، ونوع عليهم العقوبات، وأحل بهم المثالات. قال تعالى بعد سرد قصص الأمم: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. فهذا جزاء معجل ونموذج من جزاء الآخرة، أراه الله عباده ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة. ثم قال بعد تلك الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ [هود: ١٠٣].

ومن ذلك ما أرى عباده من إحياء الأموات في الدنيا، كما ذكره الله عن صاحب البقرة، قال تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣].



ومثله قصة الألو ف من بني إسرائيل. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

كذلك الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، قال تعالى: ﴿أَوَكَلَّيْنَا مَرْ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمْتَ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

وقصة إبراهيم الخليل مع الطيور، ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِمُ تُؤْمِنُ قَال بَلَى وَلَكِنْ لِيُظْمِنَنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَزْجَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠] وغيرها مما أراه الله عباده في هذه الدار، ليعلموا أنه قوي ذو اقتدار، وأن العباد لا بد أن يردوا دار القرار، إما إلى الجنة أو النار.

وهذه المعاني أبداها الله وأعادها في محال كثيرة من كتابه الكريم. والله أعلم.

وكان رسول الله صلى عليه سلم يذكر أمتة بشكل دائم بالموت. فإنه مستقبل محقق لكل إنسان.

عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَهَبَ ثَلَاثَ لَيَالٍ قَامَ فَقَالَ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ! اذْكُرُوا اللَّهَ!! اذْكُرُوا اللَّهَ!!... جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ!! تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ!! جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ!! جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ!!" (١)

(١) أخرجه الترمذي (٤/٦٣٦ رقم ٢٤٥٧) وقال: حديث حسن صحيح.



هكذا كان شأن رسول الله ﷺ، كان دائم الاستحضار لليوم الآخر وكان يذكر أصحابه بهذا. وكان يذكر الصحابة بالحساب يوم القيامة في المواقف العملية.

عن ابن عباس قال: خرج أبو بكر بالهجرة إلى المسجد، فسمع بذلك عمر.

فقال: يا أبا بكر، ما أخرجك هذه الساعة؟

قال: ما أخرجني إلا ما أجد من حاق الجوع<sup>(١)</sup>.

قال: وأنا والله ما أخرجني غيره.

فبينما هما كذلك إذ خرج عليهما النبي ﷺ. فقال: ما أخرجكما هذه الساعة؟

قالا: والله ما أخرجنا إلا ما نجد في بطوننا من حاق الجوع.

قال: وأنا والذي نفسي بيده ما أخرجني غيره. فقوما.

فانطلقوا حتى أتوا باب أبي أيوب الأنصاري. وكان أبو أيوب يدخر لرسول الله ﷺ طعاما أو لبنا. فأبطأ عنه يومئذ فلم يأت لحينه. فأطعمه لأهله. وانطلق إلى نخله يعمل فيه. فلما انتهوا إلى الباب خرجت امرأته. فقالت: مرحبا بنبي الله ﷺ وبمن معه!

فقال لها نبي الله ﷺ: فأين أبو أيوب؟

فسمعه وهو يعمل في نخل له. فجاء يشتد.

فقال: مرحبا بنبي الله ﷺ وبمن معه! يا نبي الله ليس بالحين الذي كنت تجيء فيه.

(١) قال المنذري: حاق الجوع: بقاء مهملة وقاف مشددة هو شدته وكلبه (الترغيب والترهيب



فقال له النبي ﷺ: صدقت.

قال: فانطلق.

فقطع عذقا من النخل فيه من كل التمر والرطب والبسر.

فقال النبي ﷺ: ما أردت إلى هذا، ألا جنيت لنا من تمره؟

فقال: يا نبي الله، أحببت أن تأكل من تمره ورطبه وبسره، ولأذبحنّ لك مع هذا.

قال: إن ذبحت فلا تذبحن ذات درّ.

فأخذ عناقا أو جديا فذبحه.

وقال لامرأته: اخبزي واعجني لنا، وأنت أعلم بالخبز.

فأخذ الجدي فطبخه وشوى نصفه. فلما أدرك الطعام، وضع بين يدي النبي

ﷺ وأصحابه. فأخذ من الجدي فجعله في رغيف.

فقال: يا أبا أيوب أبلغ بهذا فاطمة، فإنها لم تصب مثل هذا منذ أيام.

فذهب به أبو أيوب إلى فاطمة.

فلما أكلوا وشبعوا. قال النبي ﷺ: "خبز ولحم وتمر وبسر ورطب..."

ودمعت عيناه...

"والذي نفسي بيده إن هذا لهو النعيم الذي تُسألون عنه، قال الله جَلَّ وَعَلَا ﴿ثُمَّ

لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨] فهذا النعيم الذي تُسألون عنه يوم القيامة."



فكبر ذلك على أصحابه... فقال: "بل إذا أصبتم مثل هذا فضربتكم بأيديكم، فقولوا "بسم الله"، وإذا شبعتم فقولوا "الحمد لله الذي أشبعنا وأنعم علينا وأفضل" فإن هذا كفاف بهذا".<sup>(١)</sup>

هكذا يربي رسول الله ﷺ أصحابه على يقظة دائمة، وتذكر مستمر، وإيمان متجدد.

### الزهد في الدنيا

فمن أهم الأشياء التي يؤكد عليها الله ورسوله هو أن هذه الحياة إنما هي دار ممر لا دار مقر. وأن الإنسان لا بد أن يوجه جهوده كلها لحصاد نتيجة الأعمال يوم القيامة. قال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]

قال الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي<sup>(٢)</sup> رَحِمَهُ اللهُ: "يخبر الله تعالى عن حالة الدنيا والآخرة، وفي ضمن ذلك التزهيد في الدنيا والتشويق للآخرة. فقال ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ في الحقيقة ﴿إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ﴾ [العنكبوت: ٦٤] تلهو بها القلوب وتلعب بها الأبدان، بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالبة للقلوب المعرضة، المبهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطلة

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٢/١٦ - ١٨ رقم ٥٢١٦) والطبراني في الصغير (١/١٢٤ رقم

١٨٥) والأوسط (٢/٣٦٥ رقم ٢٢٤٧) وأصله في مسلم (٣/١٦٠٩ رقم ٢٠٣٨)

(٢) عبد الرحمن بن ناصر عبد الله السعدي التميمي مفسر من علماء الحنابلة من أهل نجد ولد سنة ١٣٠٧هـ - الموافق ١٨٩٠م مولده ووفاته في غنيزة بالقصيم وهو أول من أنشأ مكتبة فيها (سنة

١٣٥٨هـ) له نحو ٣٠ كتابا. توفي سنة ١٣٧٦هـ الموافق ١٩٠٦م (الأعلام ٣/ ٣٤٠)



الباطلة، ثم تزول سريعا وتنقضي جميعا، ولم يحصل منها مجبها، إلا على الندم والخسران.<sup>(١)</sup>

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: "فهذه الحياة الدنيا في عمومها ليست إلا لهوا ولعبا حين لا ينظر فيها إلى الآخرة. حين تكون هي الغاية العليا للناس. حين يصبح المتاع فيها هي الغاية من الحياة. فأما الحياة الآخرة فهي الفائضة بالحيوية. هي "الحيوان" لشدة ما فيها من الحيوية والامتلاء."<sup>(٢)</sup>

هذه الآية تشجيع على العمل من أجل المستقبل البعيد الذي ينتهي إليه مصير كل إنسان. لا بد أن يربط الإنسان جهده بهذه النظرة. فلا يجوز أن يكون نشاط الإنسان مقطوعا بموته. يتبخر كل ما عمله بمجرد فراقه من ميدان اللعب واللهو. فالعمل المفيد هو العمل الذي يقصد منه خير الدنيا والآخرة.

"والمسألة مسألة قيم يزنها بميزانها الصحيح. فهذه قيمة الدنيا وهذه قيمة الآخرة كما ينبغي أن يستشعرها المؤمن. ثم يسير في متاع الحياة الدنيا على ضوئها، مالكا لحريته، معتدلا في نظرتة: الدنيا لهو ولعب، والآخرة حياة مليئة بالحياة."<sup>(٣)</sup>

وهكذا يوجه القرآن جهود الإنسان. فكل جهد يُبذل في نفع دنيوي محض يعتبر عبثا، فكأنه يلهو ويلعب، نشاط ليس له صلة بالحقيقة، تعب بدون جدوى، ومشقة غير طائل. فلذلك جعل الله للناس قاعدة لا بد أن يسيروا عليها، وهي أن يكون كل النشاط البشري يبذل لصالح المستقبل، لا لمجرد متعة قاصرة.

(١) تيسير الكريم المنان للعلامة الشيخ عبد الرحمن السعدي ص ٣٧١، دار الفكر، بيروت، ط.

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

(٢) ظلال القرآن ٥ / ٢٧٥١

(٣) المصدر السابق



لا بد أن يقيس الإنسان كل سعيه بما يعود عليه من ربح في مستقبله، وإلا فهو خسران محقق. فلا يجوز أن يكون معيار الإنسان مجرد حصول النعمة الحاضرة وأن يكون هدفه فقط اللذة العابرة. فإن هذه المرحلة الدنيوية لا تستحق الاستماتة فيها أو التهالك عليها. فقد ضرب رسول الله ﷺ مقارنة بين الربح الدنيوي والربح الأخروي.

فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا بن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب!

ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا بن آدم، هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب! ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط!"<sup>(١)</sup>

ليس هناك أدنى مقارنة بين حياة اللهو واللعب وبين الحياة الحقيقية. كل نعيم الدنيا مجتمعاً يذهب في غمسة واحدة في النار. وكل بؤس الدنيا وعذابها يُنسيه غمسة واحدة في الجنة. فما أعجز عقل من آثر الدنيا على الآخرة.. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، نادى مناد: يا أهل الجنة! خلود ولا موت فيها! ويا أهل النار! خلود لا موت فيها!"<sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه مسلم (٤/٢١٦٢ رقم ٢٨٠٧)

(٢) أخرجه ابن حبان (١٦/٤٨٥ رقم ٧٤٤٩)



وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، يجاء بالموت كأنه كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة! هل تعرفون هذا؟

فَيَسْرَبُونَ<sup>(١)</sup> وينظرون وكلهم قد رآه.

فيقولون: نعم هذا الموت.

ثم يؤخذ فيذبح. ثم يقال: يا أهل الجنة! خلود ولا موت! ويا أهل النار! خلود ولا موت!"

قال: وذكر قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [مريم: ٣٩] قال: أهل الدنيا في غفلة.<sup>(٢)</sup>

#### المبحث الخامس: الحث على العمل من أجل المستقبل القريب والبعيد

فانطلاقاً من قاعدة المنظومة الإيمانية باليوم الآخر أرشد الله عباده المؤمنين إلى السعي لصالح مستقبلهم وأن يقدموا لأنفسهم ما ينفعهم في غدهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]

فهذا توجيه صريح بالنظر إلى ما يجب إعداده لمصلحة المستقبل.

قال ابن عاشور: وأطلق «غد» على الزمن المستقبل مجازاً لتقريب الزمن المستقبل من البعيد لملازمة اقتراب الزمن لمفهوم الغد، لأن الغد هو اليوم الموالي لليوم الذي فيه المتكلم فهو أقرب أزمنة المستقبل كما قال قراد بن أجدع<sup>(٣)</sup>:

(١) أي يرفعون رؤوسهم لينظروا إليه (النهاية ١/ ٨٥٢)

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٢٣٩٦ رقم ٦١٧٨) ومسلم (٤/ ٢١٨٨ رقم ٢٨٤٩) واللفظ له

(٣) شاعر العصر الجاهلي عاصر العنمان بن المنذر (انظر معجم الشعراء: ١/ ٦٥)





فإن يك صدر هذا اليوم ولى فإن غدا لناظره قريب  
وهذا المجاز شائع في كلام العرب في لفظ (غد) وأخواته قال زهير<sup>(١)</sup>:  
وأعلم علم اليوم والأمس قبله ولكنني عن علم ما في غد عم  
يريد باليوم الزمن الحاضر، وبالأمس الزمن الماضي، وبالغد الزمن المستقبل.<sup>(٢)</sup>  
فالاهتمام بالمستقبل تعليم قرآني أصيل. وهو كما يشمل الاهتمام باليوم  
الآخر يشمل أيضا المستقبل الدنيوي القريب. وإن كان الاهتمام بالآخرة  
هو الأكثر وهو الأصل لكن الاهتمام بالطريق الموصل إليه - وهو المستقبل  
الدنيوي - أيضا مطلوب، وهو من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، كما  
هو مقرر في كتب الأصول.



(١) زهير بن أبي سلمى ربيعة بن رياح بن قرعة بن الحارث، المزني، المضري. (ت ١٣ ق.هـ / ٦٠٩ م)  
شاعر جاهلي. حكيم الشعراء في الجاهلية. وفي أئمة الأدب من يفضلوه على شعراء العرب كافة.  
ولد في بلاد مزينة بنواحي المدينة، ويقال: إن أبياته التي في آخر هذه القصيدة تشبه كلام الأنبياء.  
(معجم المؤلفين: ٤/ ١٨٦، الأعلام: ٣/ ٥٢)

(٢) التحرير والتنوير ٢٨/ ١١١



## الفصل الثاني: بناء المستقبل الدنيوي

إن الإسلام لا يوجهنا إلى القفز من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة بلا واسطة، بل جعل هذه الحياة طريقاً إلى الآخرة، وبالتالي فإن حياتنا في هذه الأرض لها أهمية بقدر ما يحقق الفلاح في الآخرة وبقدر ما نتزود به فيها للآخرة.

### المبحث الأول: قيمة الحياة الدنيا في الإسلام

إن المبالغة وتجاوز الحدود والخروج عن الاعتدال ليست من الإسلام في شيء. ورغم تشديد الإسلام وتأكيدهِ على التزهيد في الدنيا إلا أن الشرع لم يأمر بإهدار الحياة الدنيا لأنها مزرعة الآخرة وميدان الجهاد وحلبة السباق.

أخرج الترمذي والحاكم عن أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟ قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسُنَ عَمَلُهُ. قَالَ: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ؟ قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ. <sup>(١)</sup>

ومما يدل على قيمة الحياة في الإسلام ما أورده ابن حبان في صحيحه عن طلحة بن عبيد الله قال: قدم على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلان من بلي، فكان إسلامهما جميعاً واحداً، وكان أحدهما أشد اجتهاداً من الآخر، فغزا المجتهد فاستشهد، وعاش الآخر سنة حتى صام رمضان، ثم مات، فرأى طلحة بن عبيد الله خارجاً خرج من الجنة، فأذن للذي توفي آخرهما، ثم خرج فأذن للذي استشهد، ثم رجع إلى طلحة، فقال: ارجع فإنه لم يأن لك،

(١) أخرجه الترمذي (٢١٧/٨) رقم: (٢٢٥٢) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وأخرجه الحاكم في مستدركه (٢٧١/٣) رقم: (١٢٠٢) وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي



فأصبح طلحة يحدث به الناس، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فحدثوه الحديث، وعجبوا، فقالوا: يا رسول الله كان أشد الرجلين اجتهدا، واستشهد في سبيل الله، ودخل هذا الجنة قبله.

فقال النبي ﷺ: «أليس قد مكث هذا بعده بسنة؟»

قالوا: نعم.

قال: «وأدرك رمضان فصامه، وصلى كذا وكذا في المسجد في السنة؟»

قالوا: بلى.

قال: «فلما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض»<sup>(١)</sup>.

إن الشرع لم يقصد دحض كل صور الحب للحياة، ولم يمنع كره الموت بكل أشكاله، ولكن أراد الشرع أن يهذب النفوس ويرقيها بإطلاعها على حقائق ما وراء الحياة الدنيا فتعتدل بذلك المواقف وتتنز العواطف.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ فَقُلْتُ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَكْرَاهِيَّةُ الْمَوْتِ؟ فَكُنَّا نَكْرَهُ الْمَوْتَ.

فَقَالَ: لَيْسَ كَذَلِكَ وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ.<sup>(٢)</sup>

(١) رواه ابن حبان (١٢/٤٥٤ رقم: ٣٠٤٤)

(٢) أخرجه البخاري (٣٠/١٦٥ رقم: ٦٠٢٦) ومسلم (١٣/١٨٤ رقم: ٤٨٤٥) واللفظ له



لذلك كان دعاء الرسول ﷺ: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ.<sup>(١)</sup>

فهذا غاية في التوازن، فلم يفرد الرسول ﷺ دعاءه بالمصالح الدنية ولا بالمصير الأخروي بل دعا أيضا لصالح الحياة الدنيا التي لا غنى للإنسان عنها، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]

وهذا الوعي بهذا التوازن كان حاضرا عند صحابة رسول الله ﷺ.

فعن أبي أمامة الباهلي عن أبي بكر الصديق، قال: دينك لمعادك، ودرهمك لمعاشك.<sup>(٢)</sup>

فلما ذم رجل الدنيا عند علي وبالح فيه، فقال علي: الدنيا دار صدق لمن صدقها، ودار نجاة لمن فهم عنها، ودار غناء لمن تزود منها، مهبط وحي الله، ومصلى ملائكته، ومسجد أنبيائه، ومتجر أوليائه، ربحوا فيها الرحمة، فاكثبوا فيها الجنة.<sup>(٣)</sup>

ومن صلاح الدنيا وجود الأمل في القلب والرغبة في العمل فيها. حكى الإمام الغزالي في الإحياء أنه بينما عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جالس، وشيخ يعمل بمسحاة يثير بها الأرض، فقال عيسى: "اللهم أنزع منه الأمل." فوضع الشيخ المسحاة،

(١) أخرجه مسلم: ١٣/٢٤٩ رقم: ٤٨٩٧

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/٢٩٠ رقم: ١٢٤٦) وانظر كنز العمال: ٣/٧٣٢ رقم:

٨٦٠٢

(٣) أخرجه ابن عساکر في تاريخه (٥/٣٤) وانظر جامع الأحاديث للسيوطي: ٣٠/٣٦١ رقم:

٣٣٣٥٦، وكنز العمال: ٣/٧٣٢ رقم: ٨٦٠٣



واضطجع فلبث ساعة. فقال عيسى: "اللهم اردد إليه الأمل." فقام، فجعل يعمل. فسأله عيسى عن ذلك، فقال: بينما أنا أعمل، إذ قالت لي نفسي: إلى متى تعمل وأنت شيخ كبير؟ فألقيت المسحاة واضطجعت. ثم قالت لي نفسي: والله لا بد لك من عيش ما بقيت فقممت إلى مسحاتي.<sup>(١)</sup>

#### المبحث الثاني: ضبط الموازين بين صلاحي الدنيا والآخرة

إن الصراط المستقيم الذي دعا إليه القرآن ودل عليه الأنبياء هو طريق التوازن بين المطلوبات، فلا طغيان للدنيا على الآخرة ولا تفريط في الآخرة من أجل الدنيا. وعلى هذا التوازن سارت تعاليم ديننا الحكيم.

وقد أحسن الإمام الشاطبي في تقرير هذا المعنى. قال رَحِمَهُ اللهُ وَمَتَّعَنَا بِعِلْمِهِ: "... فإن كان التشريع لأجل انحراف المكلف أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين، كان التشريع راداً إلى الوسط الأعدل، لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه. فعل الطبيب الرفيق يحمل المريض على ما فيه صلاحه بحسب حاله وعاداته وقوة مرضه وضعفه. حتى إذا استقلت صحته، هياً له طريقاً في التدبير وسطاً لا ثقاً به في جميع أحواله. ألا أن الله تعالى خاطب الناس في ابتداء التكليف خطاب التعريف بما أنعم عليهم من الطيبات والمصالح التي بثها في هذا الوجود لأجلهم ولحصول منافعهم ومرافقهم التي يقوم بها عيشهم وتكمل بها تصرفاتهم، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ



لَكُمْ أَلْفُكَ لَتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ﴿[ابراهيم: ٣٢] إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَعْدُوا يَحْمَتَ اللَّهُ لَا تُخْصَوْهَا﴾ [ابراهيم: ٣٤] وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]، إلى آخر ما عد لهم من النعم. ثم وعدوا على ذلك بالنعيم إن آمنوا، وبالعذاب إن تمادوا على ما هم عليه من الكفر.

فلما عاندوا وقابلوا النعم بالكفران وشكوا في صدق ما قيل لهم، أقيمت عليهم البراهين القاطعة بصدق ما قيل لهم وصحته. فلما لم يلتفتوا إليها لرغبتهم في العاجلة أخبروا بحقيقتها وأنها في الحقيقة كلا شيء، لأنها زائلة فانية، وضربت لهم الأمثال في ذلك كقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ﴾ [يونس: ٢٤] الآية وقوله: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ﴾ [محمد: ٣٦]، وقوله: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَاةُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. بل لما آمن الناس ظهر من بعضهم ما يقتضي الرغبة في الدنيا رغبة ربما أمالته عن الاعتدال في طلبها أو نظرا إلى هذا المعنى فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "إن مما أخاف عليكم ما يفتح لكم من زهرات الدنيا"<sup>(١)</sup> ولما لم يظهر ذلك ولا مظنته قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]."<sup>(٢)</sup>

وقال: ولما ذم الدنيا ومتاعها هم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أن يتبتلوا ويتركوا النساء واللذة الدنيا، وينقطعوا إلى العبادة، فرد ذلك عليهم

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٧٢٨ رقم ١٠٥٢) ولفظه: "أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا."

(٢) الموافقات ٢/ ١١٢-١١٣



رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال: "من رغب عن سنتي فليس مني." <sup>(١)</sup> ودعا لأناس بكثرة المال والولد بعد ما أنزل الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، والمال والولد هي الدنيا وأقر الصحابة على جمع الدنيا والتمتع بالحلال منها، ولم يزهدهم ولا أمرهم بتركها إلا عند ظهور حرص أو وجود منع من حقه، وحيث تظهر مظنة مخالفة التوسط بسبب ذلك، وما سواه فلا. <sup>(٢)</sup>

### المبحث الثالث: الاستعداد للتحديات القادمة

ثم إن الاهتمام بالمستقبل والسعي من أجله يجب أن يسبق حلول الأزمات، يجب أن يستغل الإنسان كل ما آتاه الله من نعمة ليستثمر وقته وجهده لصالح مستقبله قبل مباغته حدوثه.

فلذلك ضرب الله مثلاً للذي أوتي نعمة حاضرة وبسطة وافرة ثم لا يستثمرها، فتبدد الأعاصير تلك النعمة وتفتت العواصف تلك الوفرة. فيبقى خاسراً متحسراً، وهو في أشد حاجة إلى عشر معشار ما كان عليه من النعمة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

جاء في المستدرک أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرأ هذه الآية: ﴿يَا أَيُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ فسأل عنها القوم، وقال: فيما ترون أنزلت ﴿يَا أَيُّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ﴾ ؟

(١) أخرجه البخاري (١٩٤٩/٥) رقم (٤٧٧٦) ومسلم (١٠٢٠/٢) رقم (١٤٠١)

(٢) الموافقات ١١٣/٢ - ١١٤



فقالوا: الله ورسوله أعلم.

فغضب عمر. وقال: قولوا نعلم أو لا نعلم!

فقال ابن عباس: في نفسي شيء منها يا أمير المؤمنين!

قال: يا بن أخي، قل! ولا تحقر نفسك!

قال ابن عباس: ضربت مثلاً لعمل.

فقال عمر: لرجل غني يعمل بالحسنات، ثم بعث الله له الشيطان فيعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله كلها، وكانت له جنة فاحترقت وهو أحوج ما كان إليها حين كثر الولد وبلغ هو الكبر.<sup>(١)</sup>

فهكذا مثل من يضيع ما أنعم الله عليه فلا يستغله في طاعة الله بل ضيع عمره فيه.

#### المبحث الرابع: الاهتمام بمستقبل الأجيال



إن حث القرآن لم يقتصر على مستقبل الفرد كل على حدة. بل نبّه القرآن أيضاً على ضرورة الاهتمام بمستقبل الأجيال القادمة. قال تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]

أمر الله تعالى المؤمنين بأن يهتموا بمستقبل ذريتهم، وإن كان الكلام في سياق الأمر بالإشفاق على اليتامى المكفولين، فإن الآية تربي المؤمنين على مبدأ التفكير المستقبلي وعلى الاستعداد لتصاريف الزمان القادم.

(١) أخرجه الحاكم المستدرک (٣/ ٦٢٥ رقم ٦٣٠٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.





ثم هناك أفق آخر يريده الإسلام من المسلمين، ويوجه الرسول ﷺ أمته لترتقي إليه. وهو ألا يحد نشاط المسلمين في الدنيا حدود عمر الدنيا القصير. فالمسلم يظل يعمل للخير حتى ولو قامت الساعة عليه فلم يأكل من ثمر عمله أحد في الدنيا. فعلى المسلم العمل والعمل في الدنيا. والثمرة يأتي بها الله موفرة غير منقوصة يوم الجزاء.

قال رسول الله ﷺ: "إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيدَ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ".<sup>(١)</sup>

هكذا سعي المؤمن في الدنيا، فهو يعرف أن هذه الدنيا دار العمل، والآخرة هو معقد الأمل، فلا يضره انقطاع الحياة ما دام الفترة المتبقية تكفي لإنجاز العمل. وإن كان غرزة لفسيلة.

#### المبحث الخامس: الإحساس بالزمان

إن استغلال الوقت مهمة لا يجيدها أكثر الناس فلذلك نبه الرسول الكريم على هذه النقطة فقال ﷺ: نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ الصُّحَّةُ وَالْفَرَاغُ.<sup>(٢)</sup>

يريد الإسلام من أمة محمد ﷺ أن يكونوا على علم تام ويقظة كاملة من هذا الأمر، ثم يتحركون وفق هذه التعاليم. فيقول تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]

(١) أخرجه أحمد ٥٩/٢٦ رقم: ١٢٥١٢، وعبد بن حميد في مسنده ٣/٣٤٠ رقم: ١٢٢٠، والبزار

وقال الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٣/٦٣)

(٢) أخرجه البخاري ٣٣/٢٠ رقم: ٥٩٣٣



طلب الله جل شأنه كل الناس بالمسارعة إليه. نعم، المسارعة لا التواني أو السير العادي، لأنه خير عظيم، والوقت قصير. إنه خير يستحق من العقل الكامل والقلب السليم أن تستنفد في سبيله كل الطاقة، ويشتد في طلبه بكل قوة.

لا بد أن يبادر الإنسان إلى الخيرات قبل أن تفوته الفرصة أو تذهب عنه الإمكانية. قال رسول الهدى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفْنِدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوْ الدَّجَالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوْ السَّاعَةِ فَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمْرٌ" (١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لرجل وهو يعظه: "اغتنم خمسا قبل خمس؛ شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك" (٢).

يجب على المسلم أن يبادر الأحداث، وعليه أن يتحرك قبل أن تستفزه الأزمات وتضيّق عليه الصعوبات. لا يجوز أن نفوت فرصة مواتية أو نضيع إمكانية حاضرة. إن الله لن يعذر من آتاه الفرصة والقدرة. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ... فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٧] نسأل الله تعالى التوفيق.



(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢١/٤٩٧ رقم: ١٠١٧٦) والترمذي (٤/٥٥٢ رقم ٢٣٠٦) وقال حديث حسن غريب.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤/٣٤١ رقم ٧٨٤٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال ابن حجر: وأخرجه ابن المبارك في الزهد بسند صحيح من مرسل عمرو بن ميمون (فتح الباري ١١/٢٣٥)



## الفصل الثالث: مسألة القضاء والقدر في سياق بناء المستقبل

يعترض في هذا الباب مسألة الإيمان بالقدر، كيف يتصرف الإنسان أمام اعتقاد أن كل شيء قد مقرر مقدر، والإنسان في هذه الحياة الدنيا مسير غير مخير؟ بينما تعتمد صياغة المستقبل على الاعتقاد بقدره الإنسان على تغيير شيء من مجريات الأمور.

إن عقيدة الإيمان بالقدر هو ركن ركين من أركان الإيمان الذي يكون شخصية المسلم ويصوغ تصوره للأشياء والأحداث، إلا أن غبشا كثيفا حال دون الاستفادة المثلى من هذه العقيدة. إن هذه العقيدة هي التي دفعت بالمسلمين الأوائل إلى الخوض في معركة صناعة الحياة. فكانت للمسلمين حضارتها العريقة، ولهم أعمالهم المشهودة. إنها صياغة رائعة لمقومات الشخصية التي تواجه الواقع المتقلب وتقوي النفس التي تذوق الوضع المرير بثبات.

ولكن مع ذلك، فقد أسيء فهم هذه العقيدة كثيرا حتى تحول أثره عكسيا مما يولّد تصرفات غير مقبولة ولا معقولة استنادا إلى الإيمان بالقدر. إن المؤمن الحق إنسان حر لا يمنعه إيمانه بقدر الله وقضائه عن تحمل مسؤولية تحديد مصيره في الدنيا والآخرة فهو يدفع الأقدار بالأقدار. وإنما الخطأ والخطل من هؤلاء الذين يتحجّجون بالقدر مبررين ضعفهم الشخصي وكسلهم العقلي. وسنفصل ذلك في المباحث الآتية بإذن الله تعالى.



### المبحث الأول: المنهجية المناسبة في معالجة الموضوع

إن هذا الموضوع قديم، ومع تقادم الموضوع تكاثرت الشبهات وتكاثفت الغشاوات، لم يكن من المناسب في هذا المقام - وفي ظل طبيعة العصر التي يحتاج الناس فيها إلى السرعة والوضوح في معظم شؤونهم - أن نعيد الأخطاء المتراكمة عبر تاريخنا الفكري، وخاصة وأن الإشكال ليس ناشئاً عن ذات الموضوع بشكل عام، ولكن ضاعت الحقيقة بسبب اختلال المناهج المتبعة في معالجته.

ولتجنب الأخطاء المنهجية المتكررة في هذه المسألة أختار المنهجية التي أعتقد أنها الأنسب لتوضيح هذه الإشكالية التي غرقت الناس في جدل طويل وحيرة مستمرة.

### المطلب الأول: مركزية القرآن

المحدد الأول لهذه المنهجية هو اعتماد القرآن كمرجع أساس للمسألة، لأن القدر ما هو إلا فعل من أفعال الله وهو نتاج علمه الشامل بالأمور وتقديره الدقيق للأشياء، فلا يعبر عن فعله ولا يخبر عن عمله وتقديره أفضل وأفصح منه سبحانه. إننا نبحث في المسألة كمؤمنين بالله تعالى، وليس ذلك مناقضاً للموضوعية العلمية في شيء، كما يظنه المغفلون من الباحثين. لأن الإيمان بالله هو مستوى من المستويات العلمية التي توصل إليه كل من بحث بصدق عن الحق الكوني الأكبر بأدلتها العلمية وتجاربه العملية. نعم، فإن الإيمان بالله الذي حظيه المؤمنون الحقيقيون ليس "دوغما"<sup>(١)</sup> كما يسميه علماء الغرب لكل معتقد ديني متوارث،

(١) "دوغما" (δόγμα) كلمة يونانية تعني "الرأي" أو "المعتقد الأوحّد". والدوغميتية هي التعصب لفكرة معينة من قبل مجموعة دون قبول النقاش فيها أو الإتيان بأي دليل ينقضها المناقشة أو كما هي لدى الإغريق الجمود الفكري. وهي الشدّد في الاعتقاد الديني أو المبدأ الأيديولوجي، أو موضوع غير =



وكما قد يصدق على الإيمان في الأديان الأخرى. إن الإيمان القرآني نشاط علمي محترم، وليس فكراً مفروضاً على العقل أو اعتقاداً قسرياً يلقيه الكبير على الصغير. لم يدع القرآن الإنسان إلى الإيمان إلا باستخدام عقله وإثراء علمه.

فالارتكاز على القرآن في معالجة هذه القضية ضرورة علمية قبل أن يكون سلوكاً إيمانياً. فإنه لا ضرورة لنا إلى التناكر عن إيماننا بالله وإيماننا بالقرآن بحجة الموضوعية العلمية، لأننا -أولاً- لا نتحدث إلا في مجال الشريعة الإسلامية التي مصدرها الأساسي القرآن والسنة، ولأننا -ثانياً- نعرف بأدلة علمية ثابتة ومعتبرة أن مضامين القرآن كلها موافقة للعقل والعلم بل وداعية إلى اعتماد العقل والعلم. وتفصيله مبسوط في غير هذا الباب.

#### المطلب الثاني: إشكالية أخبار الآحاد

ثم الأمر الثاني من هذه المنهجية: التوازن في قبول أخبار الآحاد<sup>(١)</sup>. ومع أن الأحاديث في موضوع القضاء والقدر بالكثرة التي تبلغ حد التواتر المعنوي،

= مفتوح للنقاش أو للشك. تمثل الاستبدادية والمعصومية والدمغية أو اللا دحضية (الزعم بأن قول معين غير قابل للدحض بتاتا) والقبول الخانع (من قبل الملتزمين) واللا شكية لب فكرة الدوغماتية. هذه الأفكار عادة تستدعي الانتقاد من قبل المعتدلين والمنفتحين. ولذلك تستخدم كلمة الدوغماتية غالبا للإشارة إلى عقيدة أو مبدأ لديه مشكلة الزعم بالحقيقة المطلقة كما أن من سمات الدوغماتية هي القطع برأي أو معتقد بغض النظر عن الحقائق أو ما يحصل على أرض الواقع، وهو ما يسمى في اللغة العربية بـ "التعسف". تستخدم كلمة دوغماتية، أيضا، لوصف الرأي الغير مدعوم ببراهين. (Dogma, Henry George Liddell, Robert Scott, A Greek-English Lexicon, at Perseus)

(١) المراد بأخبار الآحاد في اصطلاح العلماء هو ما لا ينتهي من الأخبار إلى حد التواتر (المستصفي: ص ٢٩٠). وأما الخبر المتواتر هو ما رواه جماعة عن جماعة إلى منتهاه بحيث يستحيل تواطؤهم على الكذب (نخبة الفكر: ص ١).



ولكن الاستشهاد بالأحاديث النبوية في باب العقائد اعترض عليه من قبل من رفض السنة باعتبارها أخبار آحاد. ففي المسألة غش كثير بسبب الخلط الذي يؤدي بهم إلى اعتبار أخبار الآحاد كلها صحيحها وضعيفها في خانة الظن غير المفيد للعلم<sup>(١)</sup>، فهذا تساهل كبير وتفريط غير مقبول، إذ إن بذل الجهد في تتبع أحوال الرواة وتسلسل الأسانيد هو الذي يفيد اعتقاداً في صحة أو ضعف الأخبار، وهذا إنما يحصل عند من مارس علم الرواية ودرسه عن كثب، فأما من نظر إليها عن بُعد وقرأ عنها باختصار، فلا عجب ألا يحصل له هذا الإدراك، كما أن صحة نظرية في الفيزياء مثلاً لا يعرفها إلا المتخصصون فيها والدارسون لها، وكذلك سائر العلوم والمدرجات. نعم، لا يكفي النظر في السند للحكم على الحديث<sup>(٢)</sup>، بل لا بد من نقد المتن أيضاً، وهو لغرض الكشف عن الشذوذ أو العلة<sup>(٣)</sup> المحتملة في الحديث، وهذا له ضابطه العلمي المعروف.

- (١) مثل قول الإمام الغزالي: "خبر الواحد لا يفيد العلم، وهو معلوم بالضرورة فإننا لا نصدق بكل ما نسمع..." [المستصفى ص ٢٩٠]، فمثل هذا التقرير غير كاف لتصوير المسألة، بل هو بتر للحقيقة، فخبير الواحد يشمل الأحاديث الصحاح وغيرها والفرق بين الصحيح وغير الصحيح في إفادة العلم بين، فما دام التصور ناقصاً فالحكم عليه أبعد. لأن الحكم فرع التصور.
- (٢) الحديث الصحيح عند المحدثين: "هو ما اتصل بإسناده بنقل عدل ضابط عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة." قال صاحب المنظومة البيقونية:

أولها الصحيح وهو ما اتصل بإسناده ولم يشذ أو يعل  
يرويه عدل ضابط عن مثله معتمد في ضبطه ونقله

- (٣) الشذوذ في الحديث هو رواية الثقة مخالفاً لما هو أولى منه. [انظر: نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر لابن حجر، ص ١٥] والعلة في الحديث هي: أن يكشف في الحديث ما يقدح صحته مع أن الظاهر السلامة منه. فالحديث المعلن أو المعلول هو: الحديث الذي اطلع فيه على علة تقدح في صحته، مع أن الظاهر السلامة منها. [انظر: مقدمة ابن الصلاح ص ١٧]



ويكفيها في هذا الباب ما علّمنا القرآن<sup>(١)</sup> أنه إذا حصل لأحد ما يستوجب الشك في صدق الخبر فليقم بالتثبت والتبيين، حتى يحصل له التمييز بين ما يصح وما لا يصح، فأما أن يجلس أحد ويحلّل الخبر بدون بذل جهد علمي ولا يتحرك للتثبت، فلا يلوم إلا نفسه إذا بقي هذا الشك في نفسه، وسيبقى هذا الشك والظن المحير ما دام على هذا الموقف.<sup>(٢)</sup> "ومن يعلم حجةً على من لا يعلم."

وأيضاً فإن الظن مراتب؛ فهناك ظن راجح ناشئ عن أدلة قوية سمعية كانت أو عقلية أو حسية، وهناك ظن متأرجح لا يفيد اعتقاداً ولا ينفيه، وهناك ظن وهمي ناشئ عن خطأ اعتقاد أو نقص إدراك. فمن الخطأ المنهجي أن يتعامل الإنسان مع كل الظنيات بموقف واحد. والأخبار إذا كانت ناشئة عن الحقيقة الواقعية لا تبقى ألفاظاً مجردة، فالبحث العلمي الجاد سيصل بالناظر إلى حقائق أخرى تساندها من قرائن الأحوال وغيرها من الدلائل المختلفة.<sup>(٣)</sup>

- (١) أي في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]
- (٢) والغريب أن إشكالية خبر الآحاد لا تورد إلا في موضوع الأحاديث النبوية المروية بالأسانيد، أما نقل الكلام عن الفلاسفة وكل الكتب المروية بغير سند فلا يرفضها أحد باعتبارها أخبار آحاد مع أنها أسوأ حالا بكثير!! إن وراء المسألة قضية أبعد من إشكالية علمية عادية.
- (٣) قال الإمام الزركشي رَحِمَهُ اللهُ في خبر الواحد المحفوف بالقرائن: ذهب النظام وإمام الحرمين والغزالي إلى أنه يفيد العلم القطعي، واختاره الرازي والآمدي وابن الحاجب والبضاوي والهندي وغيرهم، وهو المختار. ويكون العمل ناشئاً عن المجموع من القرينة والخبر، وذهب الباقر إلى أنه لا يفيد. (البحر المحيط في أصول الفقه، للزركشي: ٥ / ٢٦١). وقال: سبق منع بعض المتكلمين من التمسك بأخبار الآحاد فيما طريقه القطع من العقائد؛ لأنه لا يفيد إلا الظن، والعقيدة قطعية، والحق الجواز، والاحتجاج إنما هو بالمجموع منها، وربما بلغ مبلغ القطع، ولهذا أثبتنا المعجزات المروية بالآحاد. (البحر المحيط: ٥ / ٢٨٢)



فلذلك ليس هناك موجب علمي لرفض الأحاديث الصحيحة في هذا الباب، وخاصة إذا اتفقت مع مدلولات الآيات القرآنية. فهذه المسألة من المسائل التي تتوفر فيها الأحاديث الصحاح، وهي من المسائل الأصول التي تتعاضد عليها دلالات القرآن والحديث والعقل كما سنبينه بإذن الله تعالى.

#### المطلب الثالث: قصور علم الكلام في تقرير العقائد

المحدد الثالث من هذه المنهجية هو تجنب أسلوب علم الكلام<sup>(١)</sup> في معالجة هذه المسألة، مع التقدير لجهود علماء الكلام في رد شبهات الفرق الضالة - خاصة ضد المعتزلة والجهمية والملاحدة - وكانوا يريدون بها الدفاع عن عقيدة أهل السنة، ولكنهم بشكل عام وقعوا في مشاكل غير هينة، فقد عقدوا ما هو بسيط، وأبعدوا ما هو قريب، وحيروا الناس حيث احتاجوا إلى الوضوح وطمأنينة النفس. إن الإيمان بقضاء الله وقدره مقرر ثابت في القرآن والسنة بشكل واضح، ومبين فيهما بأساليب سهلة مفهومة، ولكن لما بدأ الناس في العصور المتأخرة يخوضون فيها معتمدين على مناهج مستوردة ومبتعدين عن الارتكاز على بيان القرآن والسنة،

(١) علم الكلام هو العلم الذي يبحث عن المسائل العقيدية، مستخدماً فيه أسلوب المجادلة المنطقية، مركزاً على رد شبهات المبطلين من أهل الأديان والفرق الباطلة. قال سعد الدين التفتازاني: الكلام هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية (تهذيب الكلام، للإمام سعد الدين التفتازاني، ص ٨) ويقصدون بالأدلة اليقينية الحجاج المنطقي الذي ساد في الأوساط العلمية آنذاك. وقال عضد الدين الإيجي: هو علمٌ يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه (شرح المواقف [١/ ٣٤] للشريف الجرجاني) وعلم الكلام كان محاولة للتصدي للتحديات التي فرضها الالتقاء بالديانات القديمة التي كانت موجودة في بلاد الرافدين أساساً مثل المانوية والزرادشتية والحركات الشعبية. حيث ظهرت فرق عديدة بعد وفاة نبي الإسلام محمد ﷺ، مثل المعتزلة والجهمية والخوارج والزنائدة والمجسمة. فكانت نشأة علم الكلام في التاريخ الإسلامي نتيجة ما اعتبره المسلمون ضرورة للرد على ما اعتبروه بدعة من قبل هذه الطوائف. وكان الهدف الرئيس هو إقامة الأدلة وإزالة الشبه. (انظر: بحوث في علم الكلام، تأليف سعيد فودة، ص ٢٢، دار الرازي، ط ١، ٢٠٠٤)





صارت القضية تتعقد يصعب فكها. كان المسلمون الأوائل يتلقون عقائدهم عن طريق آيات الله الكريمة وسنة نبيه المطهرة، فكان صدر هذه الأمة في عافية من الجدل العقيم والشك العميم، حتى استبدل الناس مراجعهم العقدية، فغيروا علم الإيمان ليصيروا به إلى علم الكلام، فصار إيمانهم كلاما وجدلا لا يتتهيان إلى العمل، ولا يصلان إلى اليقين.

وقد وصل بابن خلدون إلى التقليل من أهمية علم الكلام، فقال: "وعلى الجملة، فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم، إذ الملحة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودونوا، والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا. وأما الآن، فلم يبق منها إلا كلام تنزه الباري عن الكثير من إيهاماته وإطلاقاته."<sup>(١)</sup>

نعم إن المعارك التي خاضها المتكلمون قد وضعت أوزارها منذ قرون، حتى قبل ابن خلدون الذي عاش في القرن الثامن الهجري، خاصة في البلدان التي زارها ابن خلدون. فلم تبق حاجة ملحة لاختلاق معارك مفترضة وقد مات الأعداء وماتت أفكارهم زمنا طويلا، إلا ما ذكر في كتب أهل السنة لغرض الرد عليها. فذكر شبهات هؤلاء نوع من الإحياء لها، وقد أصبح الناس في عافية منها.<sup>(٢)</sup> ومع تقدير وجود بقية من هذه الأفكار حية فليس من المناسب أن نشتغل بها بنفس القدر الذي كانت تلك البدعة الفكرية شائعة ومعروفة. إن الذي عاش بعقلية الماضي وحصر

(١) مقدمة ابن خلدون: ٣/١٠٨٣،

(٢) لا ننكر وجود مدارس فكرية عقدية منحرفة متعددة في عالمنا الإسلامي اليوم، لكن أكثرها في زوايا معزولة لا يلتفت إليها غالبية المسلمين، فلا نثيرها إثارة تجذب الناس إليها، وتعيد حضورها في وسط عامة الناس.



نفسه فيها فاته قطار التقدم لا محالة، وهذا في حق من غاص في أمجاد الأسلاف، فكيف بمن غرق في مشاكل الأخلاف؟

ولا أقصد هنا إلغاء مسائل علم الكلام في منهج الدراسات الإسلامية كمادة مقررة، ولكن الاعتماد عليه كأساس للاعتقاد خطأ كبير وشر مستطير.

#### المطلب الرابع: مراعاة سياق النصوص

وينبغي التنبيه هنا أن الحقائق لا تبين إلا بانتظامها في سياقها الصحيح، وإن أية حقيقة علمية صحيحة إنما تكون صحيحة حقا إذا وضعت في موضعها الصحيح. فقد تكون هناك حقيقتان صحيحتان كل في سياقها المنفصل عن الآخر، إذا ضرب أحدهما بالآخر خارج سياقهما الأصلي يكون هناك تناقض عقلي، لا يقدر العقل على قبولهما معا، إلا إذا رفض أحدهما مقابل الآخر. وهذا التناقض ليس مبطلا لكلتا الحقيقتين بمجرد تناقضهما في مخيلة أحد، لأن كليهما أخرجت من السياق الذي هو منشأهما الأصلي، وركبا تركيبا غير ملائم لنسقهما الطبيعي.

مثال ذلك حجة الكفار في امتناعهم عن الإنفاق، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اطَّعِمُوا مَن لَّوِ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧] فالحقيقة التي استندوا إليها صحيحة، وهي أن حظ الفقراء بيد الله إن شاء رزقهم وإن شاء منعهم، لكن وضع هذه الحقيقة في سياق واجب الإنفاق على الفقراء تركيب خاطئ، لأن الله لما فاوت الأرزاق على الناس أراد بذلك ابتلاءهم واختبارهم به لا تسليمهم به. قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرِيًّا﴾



وهكذا فإن العقل يمكن أن يظلم الحقيقة ويضيّعها بهذه الطريقة. فمراعاة سياق الحقائق أمر ضروري لمعرفة صحتها. وليس معنى ذلك أنه يجب فصل الحقائق بعضها عن بعض، بل ترابط الحقائق وتكاملها دليل صحتها وتقوية لحقيتها، ولكن الخطورة تكمن في نقل الحقائق المجردة عن "بيئتها" المحيطة بها.

فمن هذا الباب وأمثاله شدد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في استنكار من يعارض الآيات القرآنية بالأخر ليضرب بعضها ببعض، حتى لا تتكون من ذلك صورة مشوشة عن الحقيقة القرآنية التي تنتظم فيها كل دقائقها قبل جلائها.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ، فغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، حَتَّى كَانَمَا فُقِمَى فِي وَجْتَيْهِ الرُّمَّانُ، فَقَالَ: أَبْهَذَا أُمِرْتُمْ؟! أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟! إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ! عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ. <sup>(١)</sup>

فكل الحقائق الشرعية والدلائل القرآنية لا بد أن تتعاضد وتترابط إذا وُضعت في سياقها الصحيح وفُهمت كوحدات متكاملة يصدق بعضها بعضاً. فالجريمة العلمية الكبرى أن نتعامل مع الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية بأسلوب المجادلة والمعارضة فتتضارب الحقائق في مخيلة ضعاف العقول.

#### المبحث الثاني: معنى الإيمان بالقضاء والقدر

لندخل في صلب موضوعنا ونبدأ بتعريف معنى القضاء والقدر في اللغة والاصطلاح الشرعي لهذا الباب.

(١) أخرجه الترمذي ١٦/٨ رقم ٢٠٥٩، وأبو يعلى الموصلي في مسنده ٢٩٨/١٢ رقم ٥٩١٠، وحسنه الألباني (صحيح وضعيف سنن الترمذي ١٣٣/٥ رقم ٢١٣٣)



## المطلب الأول: معنى القضاء

معنى القضاء في اللغة: الحكم والصنع والحتم والبيان.<sup>(١)</sup> وكل معانيه ترجع إلى قطع الأمور وإتمامها والفراغ منها.

قال ابن فارس: (قضى) القاف والضاد والحرف المعتل أصلٌ صحيح يدلُّ على إحكام أمرٍ وإتقانه وإنفاذه لجهته، قال الله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] أي أَحْكَمَ خَلَقَهُنَّ. ثم قال أبو ذؤيب<sup>(٢)</sup>:

وعليهما مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا      داوُدُ أَوْ صَنَعَ السَّوَابِغِ تَبَعُ  
والقضاء: الحُكْم. قال الله سبحانه في ذكر من قال: ﴿فَأَقْضَ مَا أَنْتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] أي اصْنَعْ واحْكَمْ. ولذلك سَمِيَ القاضي قاضياً، لأنَّه يحكم الأحكامَ وَيُنْفِذُهَا. وَسَمِيَتِ المَنِيَّةُ قضاءً لأنَّه أمرٌ يُنْفَذُ في ابن آدم وغيره من الخلق. قال الحارث ابن حلزة<sup>(٣)</sup>:

وثمانونَ من تميمٍ بأيديهم      رماحُ صُدورهنَّ القضاء

(١) القاموس المحيط، ص ١٢١٦، دار إحياء التراث العربي، ط ١٤٢٢هـ

(٢) أبو ذؤيب الهذلي الشاعر، كان مسلماً على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولم يره. قيل اسمه خويلد بن خالد بن محرت بن زبيد بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل. وتوفي أبو ذؤيب في خلافة عثمان بن عفان بطريق مكة قريباً منها ودفنه ابن الزبير. وغزا أبو ذؤيب مع عبد الله بن الزبير إفريقية ومدحه، وكان عمر نذبه إلى الجهاد فلم يزل مجاهداً حتى مات بأرض الروم قدس الله روحه. (الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ٢٧/٢)

(٣) الحارث بن حلزة (٠٠٠ - نحو ٥٠ ق هـ = ٠٠٠ - نحو ٥٧٠ م) الحارث بن حلزة بن مكروه بن يزيد الشكري الوائلي: شاعر جاهلي، من أهل بادية العراق. وهو أحد أصحاب المعلقة. كان أبرص فخوراً، ارتجل معلقته بين يدي عمرو بن هند الملك، بالحيرة، ومع طلعتها: (أذنتنا بينها أسماء) جمع بها كثيراً من أخبار العرب ووقائعهم. وفي الأمثال (أفخر من الحارث بن حلزة) إشارة إلى إكثاره من الفخر في معلقته هذه. (الأعلام: ١٥٤/٢)



أي المنيّة. وكلّ كلمة في الباب فإنّها تجري على القياس الذي ذكرناه.<sup>(١)</sup>  
 وقال: وقضى، أي حكّم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]. وقد يكون بمعنى الفراغ، تقول: قضيت حاجتي. وضربه فقضى عليه، أي قتله، كأنه فرغ منه. وسَمَّ قاضٍ، أي قاتل. وقضى نحبّه قضاءً، أي مات. وقد يكون بمعنى الأداء والإنهاء. تقول: قضيت ديني. ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيَّ بَنَىٰ إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ [الإسراء: ٤]. وقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ [الحجر: ٦٦]، أي أنهيناه إليه وأبلغناه ذلك. وقال الفراء في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْضُوا إِلَيَّ﴾ [يونس: ٧١]، يعني امضوا إليّ، كما يقال: قضى فلان، أي مات ومضى.

يقال: قضاه أي صنعه وقدره: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾. ومنه القضاء والقدر.<sup>(٢)</sup>

وقال الزهري: القضاء في اللغة على وجوه مرّجعتها إلى انقطاع الشيء وتمامه. وكلّ ما أحكم عمله أو أتم أو ختم أو أدّى أو أوجب أو أعلم أو أنفذ أو أمضي فقد قضى. وقد جاءت هذه الوجوه كلّها في الحديث.

ومنه [القضاء المقرّون بالقدر] والمراد بالقدر: التقدير وبالقضاء: الخلق كقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢] أي خلقهنّ.

فالقضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر لأن أحدهما بمنزلة الأساس وهو القدر والآخر بمنزلة البناء وهو القضاء فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه.<sup>(٣)</sup>

(١) مقاييس اللغة ٨٢/٥

(٢) المحيط في اللغة ٨٣/٢

(٣) النهاية في غريب الأثر ١٢٥/٤



## المطلب الثاني: معنى القدر

قال في الصحاح: قَدَرُ الشيء: مَبْلَغُهُ. وَقَدَرُ الله وَقَدَرُهُ بِمَعْنَى، وهو في الأصل مصدر.

وقال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، أي ما عَظَّمُوا الله حَقَّ تعظيمه.

والقَدَرُ والقَدَرُ أيضاً: ما يُقَدَّرُ الله عَزَّجَلَّ من القضاء. وأنشد الأَخفش:

أَلَا يَا لِقُومِي لِلنَّوَابِ وَالْقَدْرِ وَلِلْأَمْرِ يَأْتِي الْمَرْءَ مِنْ حَيْثُ لَا يَدْرِي<sup>(١)</sup>

وقال ابن فارس: (قدر) القاف والداو والراء أصلٌ صحيح يدلُّ على مَبْلَغِ الشَّيْءِ وَكُنْهٍ ونهايته. فالقدر: مَبْلَغُ كُلِّ شَيْءٍ. يقال: قَدَرَهُ كَذَا، أي مَبْلَغُهُ. وكذلك القَدَرُ. وَقَدَرْتُ الشَّيْءَ أَقْدِرُهُ وَأَقْدَرُهُ مِنَ التَّقْدِيرِ، وَقَدَّرْتُهُ أَقْدَرُهُ.

والقَدَرُ: قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها، وهو القَدَرُ أيضاً. قال في القَدَر:

خَلَّ الطَّرِيقَ لِمَنْ يَبْنِي الْمَنَارَ بِهِ وَابْرُزْ بِبَرَزَةٍ حَيْثُ اضْطَرَّكَ الْقَدَرُ  
وقال في القَدَر بسكون الدال:

وما صبَّ رجلي في حديد مجاشع مع القَدَرِ إِلَّا حَاجَةٌ لِي أَرِيدُهَا  
ومن الباب الأَقْدَرُ من الخيل، وهو الذي تقع رِجلَاهُ مَوَاقِعَ يَدَيْهِ، كأن ذلك قَدَرُهُ تقديرًا. قال:

وَأَقْدَرُ مُشْرِفُ الصَّهَوَاتِ سَاطٍ كَمِيتٌ لَا أَحَقُّ وَلَا شَيْتٌ

(١) الصحاح في اللغة ٢/ ٦٤



وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١]، قال المفسرون: ما عظموا الله حقَّ عظمته. وهذا صحيح، وتلخيصه أنهم لم يصفوه بصفته التي تنبغي له تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ﴾ [الطلاق: ٧] فمعناه قُتِر. وقياسه أنه أُعْطِيَ ذلك بقدر يسير. وقُدْرَةُ الله تعالى على خلقته: إيتاؤهم بالمبلغ الذي يشاؤه ويريده، والقياس فيه وفي الذي قبله سواء. ويقولون: رجل ذو قُدْرَةٍ وذو مَقْدِرَةٍ، أي يسار. ومعناه أنه يبلغُ بيساره وغِنائه من الأمور المبلغ الذي يوافق إرادته. ويقولون: الأقدَر من الرجال: القصير العنق؛ وهو القياس كأنَّ عُنقه قد قُدرت.<sup>(١)</sup>

قال الليث بن سعد<sup>(٢)</sup>: القَدَرُ القَضَاءُ المُوَفَّقُ يقال قَدَرَ الإله كذا تقديرًا وإذا وافق الشيء الشيء. قلت جاءه قَدْرُهُ.

وقال ابن سيده<sup>(٣)</sup>: القَدَرُ والقَضَاءُ والحُكْمُ، وهو ما يُقدِّره الله عزَّ وجلَّ من القضاء ويحكم به من الأمور. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، أي الحُكْمُ،

(١) مقاييس اللغة ٥/٥١-٥٢

(٢) شيخ الديار المصرية وعالمها أبو الحارث الليث بن سعد الفهمي، مولاها، الفقيه. وأصله فارسي إصبهاني. وكان إماماً ثقة حجةً رفيعةً واسع العلم سخيًّا جواداً محتشماً. قال الشافعي: الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به. وكان أتبع للأثر مالك. وقال غيره: كان نائب مصر وقاضيهما من تحت أوامر الليث. وإذا رابه من أحدهم شيء كاتب فيه فيعزل. وقد أراده المنصور أن يلي إمرة مصر فامتنع. ولد سنة ٩٤ ومات في شعبان سنة ١٧٥ هـ. (العبر في خبر من غير: ٤٩/١، تذكرة الحفاظ: ١٧/١)

(٣) ابن سيده (٣٩٨ - ٤٥٨ هـ = ١٠٠٧ - ١٠٦٦ م) علي بن إسماعيل، المعروف بابن سيده، أبو الحسن إمام في اللغة وآدابها. ولد بمرسية في شرق الأندلس وانتقل إلى دانية فتوفي بها. كان ضريرا واشتغل بنظم الشعر مدة، وانقطع للأمير أبي الجيش مجاهد العامري. ونبغ في آداب اللغة ومفرداتها، فصنف "المخصص" سبعة عشر جزءاً، وهو من أئمن كنوز العربية، و"المحكم والمحيط الأعظم" أربعة مجلدات منه، و"شرح ما أشكل من شعر المتنبي"، وغير ذلك. (الأعلام: ٤/٢٦٣-٢٦٤)



كما قال تعالى: ﴿فِيهَا يُفَرَّقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].<sup>(١)</sup>

وفي القاموس: القَدَرُ، محرَّكةُ القضاء، والحُكْمُ، ومَبْلَغُ الشيء، ويُضَمُّ، كالمقدَّار، والطاقة، كالقَدَرِ فيهما ج: أَقدَارٌ.<sup>(٢)</sup>

ونخلص من كل ما سبق أن معنى القضاء والقدر أن الله تعالى قضى على الأشياء وحكم عليها وقدرها في القدم، وعلم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهَا ستقع في أوقات معلومة عنده، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها الله تعالى. فهما -يعني القضاء والقدر- لفظان مترادفان في هذا الباب بالذات يعبران عن شيء واحد في هذا الخصوص.

#### المبحث الثالث: القضاء والقدر في بيان القرآن والسنة

إن القرآن والسنة نور يهدي الله به الناس، لم يتمسك به إنسان إلا اطمئن، ولم يهجره أحد إلا زاغ واحتار. فأخذُه سعادة وتركُه تعاسة. إن اختيارنا للقرآن والسنة كأساس لمباحثة هذه المسألة يكسبنا أمرين هامين: أولهما الوصول إلى الخلاصة الواضحة الجلية بشكل لا يترك الريبة، وثانيهما تهذيب النفوس بتلقي التوجيهات القرآنية والإرشادات النبوية، فإن مسألة القضاء والقدر في القرآن والسنة ليست مسألة فلسفية نظرية يراد منها ترف فكري أو تجريد فلسفي ليس وراءه مغزى عملي أو هدف سلوكي، بل تكريس عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر يقصد منها إرساء أسس متوازنة للنفس البشرية في مواجهة تحديات الحياة المتقلبة حتى تقوى النفوس على مواجهة الصعوبات وتجتاز العقبات بنجاح وفلاح.

(١) لسان العرب ٥/ ٧٤

(٢) القاموس المحيط ١/ ٤٨٧





### المطلب الأول: القضاء والقدر في السياق القرآني

نجد القرآن الكريم دائماً لا يعرّج على مسألة قضاء الله وقدره إلا في سياق معين يقرر من خلاله حقائق كبيرة تجب معرفتها واتخاذ الموقف الصحيح تجاهها. إن القرآن كتاب هداية، يقصد منها الدلالة على ما يجب على الإنسان معرفته وفعله. فالعلاقة بين موضوع القدر والموضوع الذي سبق من أجله علاقة بناء متكاملة.

#### علم الله الشامل

فمن المحاور التي تساق حولها قضية القضاء والقدر تقرير علم الله الشامل، قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ففي هذه الآيات يقرر الله مدى دقة علمه وشمول إحاطته بكل مخلوقاته بما في ذلك أمور لا يطلع عليها أحد إلا هو سبحانه وسماء "مفاتيح الغيب". وكل هذه الأشياء مسطورة في كتاب مبين. وفي الكتاب المبين قولان للعلماء أحدهما: أنه اللوح المحفوظ، والثاني: أنه علم الله المتقن.<sup>(١)</sup>

وقوله سبحانه: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ كالتكرير لقوله سبحانه: ﴿إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ لأن معناه واحد في المآل سواء أريد بالكتاب المبين علمه تعالى أو اللوح المحفوظ الذي هو محل معلوماته سبحانه.<sup>(٢)</sup> ويعني ذلك أن هاتين القضيتين - كون أن الله يعلم كل شيء وكون كل ذلك مكتوب في كتابه المبين - تصبان في حقيقة محورية واحدة وهي إحاطة الله بكل شيء علماً وتقديراً.

(١) زاد المسير ٣٥٩/٢

(٢) روح المعاني: ٣٥٣/٥



وتثبتت هذه الأمور في كتاب له فوائد ذكرها العلماء، أحدها: اعتبار الملائكة عَلَيْهِمُ السَّلَامُ موافقات المحدثات للمعلومات الإلهية. وثانيها: تنبيه المكلفين على عدم إهمال أحوالهم المشتملة على الثواب والعقاب حيث ذكر أن الورقة والحبة في الكتاب. وثالثها: عدم تغيير الموجودات عن الترتيب السابق في الكتاب، ولذا جاء «قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ»<sup>(١)</sup>.<sup>(٢)</sup>

قال ابن عاشور: وقد علم من هاته الآيات عموم علمه تعالى بالكيلات والجزئيات. وهذا متفق عليه عند أهل الأديان دون تصريح به في الكتب السابقة وما أعلنه إلا القرآن في نحو قوله: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]. وفيه إبطال لقول جمهور الفلاسفة أن الله يعلم الكليات خاصة ولا يعلم الجزئيات، زعما منهم بأنهم ينزهون العلم الأعلى عن التجزي. فهم أثبتوا صفة العلم لله تعالى، وأنكروا تعلق علمه بجزئيات الموجودات.<sup>(٣)</sup> وهذا الموقف من الفلاسفة لا شك أنه ضرب من الكفر بالله، وقد فندهم الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في عدد من كتبه، فوفانا وكفانا مؤنة السجال في المسألة.

وذكر الإمام الرازي ههنا ما سماه "دقيقة" وهو أن القضايا العقلية المحضة يصعب تحصيل العلم بها على سبيل التمام والكمال إلا للعقلاء الكاملين الذين تعودوا الإعراض عن قضايا الحس والخيال وألفوا استحضار المعقولات المجردة وهم كالكبريت الأحمر<sup>(٤)</sup> ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٩] من تلك القضايا

(١) الحديث أخرجه أحمد (١٩/٥) رقم (٢٨٠٣)

(٢) روح المعاني: ٣٥٣-٣٥٤

(٣) التحرير والتنوير ٧/٢٧٣

(٤) أي في الندرة



وحيث أريد إيصالها إلى كل عقل لأن القرآن إنما نزل ليتنفع به جميع الخلق، ذكر مثال من الأمور المحسوسة الداخلة تحت تلك القضية العقلية الكلية ليصير ذلك المعقول بمعاونة هذا المثال المحسوس.<sup>(١)</sup>

### ضبط التوازن النفسي

ومن المقاصد التي سيقت من أجلها مسألة القدر هو تهذيب النفوس وسياستها لتعود إلى حالة اعتدالها. كما في قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لَكُمْ يَسِيرٌ ۝ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

ففي هذه الآية الكريمة تقرير واضح أنه لا يصيب الناس شيء من المصائب إلا وهو مكتوب عند الله قبل ذلك، وقد قرر الله هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝﴾ [التوبة: ٥١] وقوله تعالى ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۝﴾ [التغابن: ١١] وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۚ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝﴾ [البقرة: ١٥٥]، لأن قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ۝﴾ قبل وقوع ذلك دليل على أن هذه المصائب معلومة له جلاً وعلاً قبل وقوعها، ولذا أخبرهم تعالى بأنها ستقع، ليكونوا مستعدين لها وقت نزولها بهم، لأن ذلك يعينهم على الصبر عليها، ونقص الأموال والثمرات مما أصاب من مصيبة، ونقص الأنفس في قوله: ﴿وَالْأَنْفُسِ ۝﴾، مما أصاب من مصيبة في النفس.

(١) مفاتيح الغيب ٦/ ٣٠٩ روح المعاني: ٥/ ٣٥٤



وقوله في آية الحديد هذه ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] أي بينا لكم أن الأشياء مقدرة مكتوبة قبل وجود الخلق، وأن ما كتب واقع لا محالة لأجل ألا تحزنوا على شيء فاتكم، لأن فواته لكم مقدر، وما لا طمع فيه قل الأسى عليه، ولا تفرحوا بما آتياكم، لأنكم إذا علمتم أن ما كتب لكم من الرزق والخير لا بد أن يأتاكم قل فرحكم به.<sup>(١)</sup>

لقد بنت الآيتان الكريمتان على هذه الحقائق ثلاثة أمور:

أولاً: عزاء النفس في كل فائت ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾.

ثانياً: حمايتها من الفرح الذي يطغي صاحبه ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ فإن كان الفرح غير مطغ فالحق - عَزَّجَلَّ - لم يصادر عواطفنا، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨].

ثالثاً: حفظ النفس من التناول بنعم الله على خلقه ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣].

وهذا هو دور الإيمان بالقدر في حياة الناس، وقد وقفت جماعة من المسلمين في موضوع القدر عند هذا الحد، واعتبرت أي مناقشة للموضوع بعد ذلك بدعة، بينما أفنى آخرون حياتهم، وشغلوا من بعدهم، في جدل عقيم.<sup>(٢)</sup>

وقوله: ﴿وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] تتميم لقوله: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣] فإن المقصود من الكلام أن لا يأسوا عند حلول

(١) أعضاء البيان ١٥٢/٨ بتصرف يسير

(٢) منهج القرآن في القضاء والقدر ص ٥-٦



المصائب لأن المقصود هو قوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ [الحديد: ٢٢]... إلا في كتاب ثم يعلم أن المسرات كذلك بطريق الاكتفاء، فإن من المسرات ما يحصل للمرء عن غير ترقب - وهو أوقع في المسرة - كمل أدبه بطريق المقابلة.

والفرح المنفي هو الشديد منه البالغ حد البطر، كما قال تعالى في قصة قارون إذ قال له قومه ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]. وقد فسره التذيل من قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

والمعنى: أخبرتكم بذلك لتكونوا حكماء بصراء فتعلموا أن لجميع ذلك أسبابا وعلا، وأن للعالم نظاما مرتبطا بعبءه ببعض، وأن الآثار حاصلة عقب مؤثراتها.<sup>(١)</sup> وفيه تنبيه على أن مقام المؤمن من الأدب بعد حلول المصيبة وعند انهيار الرغبة، هو أن لا يحزن على ما فات ولا يبطر بما ناله من خيرات، وليس معنى ذلك أن يترك السعي لنوال الخير واتقاء الشر قائلا: إن الله كتب الأمور كلها في الأزل، لأن هذا إقدام على إفساد ما فطر عليه الناس وأقام عليه نظام العالم. وقد قال النبي ﷺ للذين قالوا أفلا نتكل «اعملوا فكل ميسر لما خلق له»<sup>(٢)</sup>

والمراد نفي الحزن المخرج إلى ما يذهب صاحبه عن الصبر والتسليم لأمر الله تعالى ورجاء ثواب الصابرين ونفي الفرح المطغي الملهي عن الشكر، وأما الحزن الذي لا يكاد الإنسان يخلو منه مع الاستسلام والسرور بنعمة الله تعالى والاعتداد بها مع الشكر فلا بأس بهما.

(١) التحرير والتنوير ٢٧/٤١١

(٢) التحرير والتنوير ٢٧/٤١٢



أخرج البيهقي عن عكرمة<sup>(١)</sup>، عن ابن عباس في قوله: ﴿لَكَيْلًا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ قال: "ليس أحد إلا وهو يفرح ويحزن، ولكن إذا أصابته مصيبة جعلها صبراً، فإن أصابه خير جعله شكراً." قال البيهقي رحمه الله: "وهذا يؤكد قول الحلبي<sup>(٢)</sup> رحمه الله في هذه الآية: أن المراد بالحزن التسخط والتفجر، والمراد بالفرح فرح التبذخ والتكبر".<sup>(٣)</sup>

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] تذييل يفيد أن الفرح المذموم هو الموجب للبطر والاختيال. والمختال المتكبر عن تخيل فضيلة تراءت له من نفسه، والفخور المباهي في الأشياء الخارجة عن المرء كالمال والجاه.<sup>(٤)</sup>

ومن الآيات التي بنت سياسة النفوس على الإيمان بالقدر قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]

(١) عكرمة - مولى ابن عباس - أبو عبد الله المدني. أصله من البربر من أهل المغرب. قال: طلبت العلم أربعين سنة وكنت أفتي بالباب وابن عباس في الدار. وقال قتادة: أعلم التابعين أربعة: كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير وكان عكرمة أعلمهم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام. وقال سفيان الثوري: خذوا التفسير عن أربعة: عن سعيد بن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك. مات سنة خمس ومائة أو ست أو سبع. (تذكرة الحفاظ: ٥/١)

(٢) العلامة البارع رئيس أهل الحديث بما وراء النهر القاضي أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الشافعي. من أصحاب الوجوه في المذهب، كان من أذكى زمانه ومن فرسان النظر له يد طولى في العلم والأدب. أخذ عن الففال وغيره وله تصانيف مفيدة وما هو من فرسان هذا الشأن مع أن له فيه عملاً جيداً. ولد سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة ومات سنة ثلاث وأربعمائة. وللحافظ أبي بكر البيهقي اعتناء بكلام الحلبي ولا سيما في كتاب "شعب الإيمان" (طبقات الحفاظ: ٨٢/١، وسير أعلام النبلاء: ١٧/٢٣٣)

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ١/٣٩٧ رقم: ٢٣٤، ١٢/٢٢٥ رقم: ٩٣١٤

(٤) روح المعاني ٢٠/٣٣٩



قال الطبري في هذه الآية: يقول تعالى ذكره: لم يصب أحداً من الخلق مصيبة إلا بإذن الله، يقول: إلا بقضاء الله وتقدير ذلك عليه ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يقول: ومن يصدق بالله فيعلم أنه لا أحد تصيبه مصيبة إلا بإذن الله بذلك يهد قلبه: يقول: يوفق الله قلبه بالتسليم لأمره والرضا بقضائه.<sup>(١)</sup>

وقال ابن كثير: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: ومن أصابته مصيبة فعلم أنها بقضاء الله وقدره، فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله، هدى الله قلبه، وعوّضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، وبقينا صادقاً، وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه، أو خيراً منه.

قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعني: يهد قلبه لليقين، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.<sup>(٢)</sup>  
قال ابن عبد السلام: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: ١١] بأمره أو بحكمه ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يؤمن قلبه لله أو يعلم أنه من عند الله فيرضى به أو يسترجع أو إذا ابتلي صبر وإذا أنعم عليه شكر وإذا ظلم غفر.<sup>(٣)</sup>

### حجة الله البالغة وعدله المطلق

ومن المحاور التي يدور حولها الكلام عن القدر أيضاً إثبات عدل الله المطلق وتثبيت حجته البالغة. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [الفر: ٤٩]

(١) التفسير الطبري ٢٣/ ٤٢١

(٢) تفسير ابن كثير ٨/ ١٣٧

(٣) تفسير ابن عبد السلام ٦/ ٤٧٧



قال ابن عاشور: والمراد: أن خلق الله الأشياء مصاحب لقوانين جارية على الحكمة، وهذا المعنى قد تكرر في القرآن كقوله في سورة الرعد ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨].<sup>(١)</sup>

قال البقاعي: ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ أي قضاء وحكم وقياس مضبوط وقسمة محدودة ودقة بالغة وتدبير محكم في وقت معلوم ومكان محدود مكتوب في ذلك اللوح قبل وقوعه.<sup>(٢)</sup>

وكون أن الله خلق كل الأشياء بحكمة وتقدير محكم لا خلاف فيه حتى عند القدرية، ولكن دخول أفعال العباد في هذا العموم هو المتنازع فيه، ومع ذلك لا يعرج عليه الزمخشري في تفسير هذه الآية ووافق جمهور المسلمين في أن معنى الآية له جانبان: جانب أن الله خلق كل شيء مقدراً محكماً مرتباً على حسب ما اقتضته الحكمة، وجانب آخر كون كل ذلك مقدراً مكتوباً في اللوح، معلوماً قبل كونه، قد علمنا حاله وزمانه.<sup>(٣)</sup>

والجانبان متلازمان لا يمكن فكهما. لأنه إذا علم أن علم الله سابق للمحدثات يلزم أن يكون حدوثها وفق علمه وتقديره الموصوفين بالحكمة والعدل. فإنكار لتقديره السابق إنكار لعلمه وحكمته وعدله.

ويقوي هذا التلازم ما أخرجه مسلم والترمذي عن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ جَاءَ مُشْرِكُو قُرَيْشٍ يُخَاصِمُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْقَدَرِ فَنَزَلَتْ ﴿يَوْمَ يُسْجَنُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ [القمر: ٤٨، ٤٩].<sup>(٤)</sup>

(١) التحرير والتنوير ٢٧/ ٢١٧

(٢) نظم الدرر ٨/ ٢٨٩

(٣) انظر تفسير الكشاف ٦/ ٤٥٨

(٤) أخرجه مسلم ١٣/ ١٢٢ رقم: ٤٨٠٠ والترمذي ٨/ ٥٣ رقم: ٢٠٨٣





وهذا حقيقة القضاء والقدر، وأن جميع الأشياء كلها، قد علمها الله تعالى، وسطرها عنده في اللوح المحفوظ، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه.<sup>(١)</sup>

قال سيد قطب: وإن هذا النص القرآني القصير اليسير [يعني قول الله: إنا كل شيء خلقناه بقدر] ليشير إلى حقيقة ضخمة هائلة شاملة، مصداقها هذا الوجود كله. حقيقة يدركها القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود، ويتجاوب معه، ويتلقى عنه، ويحس أنه خليقة متناسقة تناسقاً دقيقاً. كل شيء فيه بقدر يحقق هذا التناسق المطلق، الذي ينطبع ظله في القلب جملة وهو يواجه هذا الوجود.

ثم يبلغ البحث والرؤية والتجربة من إدراك هذه الحقيقة القدر الذي تهيئه هذه الوسائل، ويطيقه العقل البشري، ويملك معرفته عن هذا الطريق. ووراء هذا القدر يبقى دائماً ما هو أعظم وأكمل، تدركه الفطرة وينطبع فيها بتأثير الإيقاع الكوني المتناسق فيها، وهي ذاتها بعض هذا الكون المتناسق كل شيء فيه بقدر.

ولقد وصل العلم الحديث إلى أطراف من هذه الحقيقة، فيما يملك أن يدركه منها بوسائله المهيأة له.. وصل في إدراك التناسق بين أبعاد النجوم والكواكب وأحجامها وكتلتها وجاذبيتها بعضها لبعض إلى حد أن يحدد العلماء مواقع كواكب لم يروها بعد؛ لأن التناسق يقتضي وجودها في المواضع التي حددها. فوجودها في هذه المواقع هو الذي يفسر ظواهر معينة في حركة الكواكب التي رصدوها.. ثم يتحقق هذا الذي فرضوه. ويدل تحقيقه على الدقة المتناهية في توزيع هذه الأجرام، في هذا الفضاء الهائل، بهذه النسب المقدرة، التي لا يتناولها خلل أو اضطراب!<sup>(٢)</sup>

(١) تيسير الكريم الرحمن ٢٨٢/١

(٢) في ظلال القرآن ٨٦/٧



فكل لحظة في الكون، وكل حركة فيه، تؤكد عدل الله المطلق، بل تتجاوز عدل الله إلى مقام الإحسان، وقد قرر القرآن هذه القضية، فيما لا حصر له من آياته كقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: ٤٥].

وتأخيرهم إلى أجل مسمى يعطيهم فرصة العودة والإصلاح. فمن أصرَّ فمحكمة الآخرة هي محكمة "العدل المطلق" ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]. وعدل الله وإحسانه، يؤكدان أن دائرة التكاليف في الأديان السماوية، وما يتبعها من ثواب وعقاب، مبنية على قاعدة "العدل المطلق" فالله - عَزَّوَجَلَّ - قد نزه نفسه عن العبث بأعصاب الناس، واللهو بهم، قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَا تَتَّخِذْنَهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧].<sup>(١)</sup>

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]

فالله تعالى فاعل مختار لا يحدث في ملكه إلا ما يريد، وكل ما يقع في الكون معلوم له قبل وقوعه، وموافق لما أراده. فإن الله عَزَّوَجَلَّ قدر الحبة الصالحة إذا أُلقيت في التربة الطيبة وأجري عليها الماء نبت منها نبات. وقدر أن نواة التمر تنبت نخلة

(١) منهج القرآن في القضاء والقدر، محمد غريب، دار القلم للتراث - القاهرة، الطبعة: الثانية - ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، ص ٦-٩.



ولا يمكن أن تنبت غير نخلة. وقدّر أن يولد الإنسان طفلاً، ثم يصير صبياً فمراهقاً، فشاباً، فكهنلاً، فشيخاً، فهنماً، إذا امتد به عمر. وقدره أن يمنح قدرة وإرادة يزاول بهما - بإذن الله - مصالحه، ويسعى في كسب رزقه، وجلب ما ينفعه، ودفع ما يضره. وقدر أن يمنحه أنواعاً من الهدايا يميز بها النافع من الضار، والخير من الشر، والهدى من الضلال. وقدر أن يرسل إليه رسلاً، يرشدونه إلى ما فيه خيره وصلاحه، وربط باتباعهم وطاعتهم سعادته، وبمعصيتهم والمخالفة عن أمره شقاوته. وقدره أن يكلفه أنواعاً من التكليف، كلها في إمكانه، فإن نهض بها أثابه وإن لم يفعل عاقبه. وقدره أن يجعله مختاراً، فيما يأتي وما يدع، وأن يجعل هذا الاختيار أساساً للتكاليف الشرعية، حتى إذا ذهب الاختيار ذهب التكليف.<sup>(١)</sup>

#### المطلب الثاني: القدر في البيان النبوي

بين رسول الله ﷺ قضية القضاء والقدر في مناسبات كثيرة، وثبت ذلك في روايات كثيرة بلغ مجموعها حد التواتر. وشواهد ذلك في أمهات كتب السنة. وبيان الرسول لمسألة القضاء والقدر يأتي في سياقين اثنين، إما أن يأتي في تقرير الحقائق الكونية أو يأتي لتثبيت المواقف الإيمانية.

#### تقرير الحقائق

وأما ما جاء لتقرير الحقائق فمثل قول رسول الله ﷺ: "كُتِبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ."<sup>(٢)</sup>

(١) الإيمان باليوم الآخر والقضاء والقدر، أحمد عز الدين البيانوني، دار السلام، الطبعة الثانية،

١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ص ١٣٢.

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٠٤٤ رقم ٢٦٥٣).



وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ قَالَ: "إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عِلْقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللَّهُ مَلَكًا، فَيُؤَمِّرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ. وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ وَرِزْقَهُ وَأَجَلَهُ وَشَقِيَّ أَوْ سَعِيدٌ. ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ، فَإِنَّ الرَّجُلَ مِنْكُمْ لَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ كِتَابُهُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ. وَيَعْمَلُ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّارِ إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ." (١)

وفي حديث جبريل: قَالَ فَأَخْبَرَنِي عَنِ الْإِيمَانِ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. (٢)

روى أبو داود عن عبادة بن الصامت (٣) قَالَ لِإِنِّهِ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

"إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ: لَهُ اكْتُبْ. قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ."

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١١٧٤) رقم (٣٠٣٦) ومسلم (٤/ ٢٠٣٦) رقم (٢٦٤٣) واللفظ للبخاري.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٣٧) رقم (٨).

(٣) عبادة بن الصامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن ثعلبة بن غنم ابن سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج الأنصاري السالمي يكنى أبا الوليد. وكان نقيباً وشهد العقبة الأولى والثانية والثالثة. شهد بدرًا والمشاهد كلها ثم وجهه عمر إلى الشام قاضياً ومعلماً فأقام بحمص ثم انتقل إلى فلسطين ومات بها ودفن بالبيت المقدس وقبره بها معروف إلى اليوم. وقيل: إنه توفي بالمدينة والأول أشهر وأكثر. وقيل بالبيت المقدس وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. (الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ١/ ٢٤٣)



"يَا بَنِيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي". (١)

وَعَنْ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ (٢) قَالَ أَتَيْتُ أَبِي بْنَ كَعْبٍ فَقُلْتُ لَهُ: وَقَعَ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنْ الْقَدَرِ فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُذْهِبَهُ مِنْ قَلْبِي.

قَالَ: لَوْ أَنَّ اللَّهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ عَذَابَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَلَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَأَنَّ مَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبِكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَدَخَلْتَ النَّارَ.

قَالَ: ثُمَّ أَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ. قَالَ ثُمَّ أَتَيْتُ حُذَيْفَةَ بْنَ الْيَمَانِ، فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ. قَالَ ثُمَّ أَتَيْتُ زَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَحَدَّثَنِي عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ ذَلِكَ. (٣)

فهذه الأحاديث وأمثالها يوضح فيها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حقيقة الإيمان بقضاء الله وقدره.

(١) أخرجه أبو داود (٣٠٩/١٢) رقم: (٤٠٧٨) وصححه الألباني في صحيح وضعيف الجامع الصغير (٢٢٨/٩) رقم: (٣٧٨١)

(٢) عبدالله بن فيروز الديلمي، أبو بشر، ويقال: أبو بسر. أخو الضحاك بن فيروز، وعم الغريف بن عياش بن فيروز الديلمي. كان يسكن بيت المقدس. وقال عثمان بن سعيد الدارمي، عن يحيى بن معين: ثقة. وقال العجلي: شامي تابعي ثقة. وذكره ابن حبان في كتاب "الثقات". (تهذيب الكمال: ٤٣٦/١٥)

(٣) أخرجه أبو داود (٢٠٨/١٢) رقم: (٤٠٧٧) وأحمد (٧٤/٤٤) رقم: (٢٠٦٠٧) وابن حبان في صحيحه (٤٤٩/٣) رقم: (٧٢٨)



## توجيه المواقف

وذكر الرسول ﷺ أيضا قضية القضاء والقدر لمعالجة المواقف العملية حيث احتيج فيها إلى تثبيت الموقف وتقوية الإيمان وتوجيه السلوك. كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ: "الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ، اِحْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ "لَوْ" تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ".<sup>(١)</sup>

ففي هذا الحديث يعالج الرسول ﷺ مشكلة هؤلاء الذين تعلقوا بمشكلات الماضي، وعلمهم أن هذا النوع من التشكي لا يجدي شيئا ولا يغير واقعا، ولكن ليلجأ إلى التسليم بقدر الله، وليستسلم لحكمته، لأن الشيطان يتلاعب بمقدرات الإنسان الذي لا يزال يذم الماضي ويتأسف له دون بذل جهد لتغييره. والماضي فات، وإنما على الإنسان أن يتوجه إلى العمل الجاد في حاضره ويفكر في مستقبله.

وكما قال الشاعر:

ولا تتبع الماضي سؤالك لم مضى وعرج على الباقي وسائله بم بقي<sup>(٢)</sup>

أحيانا علم الرسول ﷺ درس الصبر بسلامح الإيمان بالقدر كما ورد عن أسامة بن زيد قال: كُنَّا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ جَاءَهُ رَسُولٌ إِحْدَى بَنَاتِهِ يَدْعُوهُ إِلَى ابْنِهَا فِي الْمَوْتِ.

(١) أخرجه مسلم ١٤٢/١٣ رقم: ٤٨١٦

(٢) ذكره الألويسي في تفسيره (روح المعاني ١٢/٢٣٣) ولم ينسبه إلى قائل.



فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَأَخْبِرْهَا أَنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أُعْطِيَ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُّسَمًّى فَمُرْهَا فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ.

فَاعَادَتْ الرَّسُولَ أَنَّهَا قَدْ أَقْسَمَتْ لَتَأْتِيَنَّهَا. فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَامَ مَعَهُ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ. فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَيْهِ وَنَفْسُهُ تَقَعُّعُ كَأَنَّهَا فِي شَنْ، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ.

فَقَالَ لَهُ سَعْدٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا هَذَا؟

قَالَ: هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مَنْ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءُ. <sup>(١)</sup>

ففي هذه الحادثة دروس كثيرة وعبر وفيرة كيف واجه الرسول ما أصابه من الملمات المحزنة والوقائع المرة. لأن ما سبق في علم الله وقدره لا بد أن يقع، فهو أمر لا مفر منه، وما قدره الله للبشر ينبغي أن يقبله العباد بصدر رحب وتسليم تام. ولا ينافي ذلك شعور الإنسان بالحزن ما دام القلب راضيا مستسلما لله محتسبا منه حسن الثواب.

وفي مناسبة أخرى علم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الإيمان بقضاء الله يولد الشجاعة ورباطة الجأش وعدم الخوف من تأمر المتأمرين وحسد الحاسدين. عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ: يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ أَحْفَظُ اللَّهُ يَحْفَظُكَ أَحْفَظُ اللَّهُ تَجِدُهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ. <sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩/٢٢)، رقم: ٦٨٢٩، ٣١/٥، رقم: ١٢٠٤، ومسلم (٤/٤٨٥، رقم: ١٥٣١)

(٢) أخرجه الترمذي (٥٦/٩، رقم: ٢٤٤٠) وأحمد (٦٩/٦، رقم: ٢٥٣٧) وقال الترمذي حديث



وهكذا فإن الإيمان بالقضاء والقدر زاد عظيم ودواء ناجع وسلاح شاكٍ في مواجهة الصعوبات.

#### المبحث الرابع: حرية الإنسان

وكما أن نفي القدر عن أفعال الخلق نفي لعلم الله السابق ومشيتته الشاملة وإرادته النافذة، فإن نفي الاختيار الحر عن الإنسان مع محاسبته على أفعاله نفي لعدل الله وحكمته. فكلتا الحقيقتين صحيحة. كل شيء مقدر وأعمال البشر مكتوبة، وأيضا للإنسان حرية الإرادة والحركة ولم يحاسب إلا بما فعله مختارا، ولم يطالب إلا بما تمليه عليه إرادته الحرة.

فقد أخطأ في هذا الباب طائفتان؛ الطائفة الأولى: القدرية نفاة القدر، وهؤلاء ضلوا بالتفريط وإنكار القدر، وزعموا أنه لا يمكن الجمع بين ما هو ثابت بالضرورة من اختيار العبد في فعله ومسئوليته عنه، وبين ما دلت عليه النصوص من عموم خلقه تعالى ومشيتته؛ لأن ذلك العموم في زعمهم إبطال لمسئولية العبد عن فعله، وهدم للتكاليف، فرجحوا جانب الأمر والنهي، وخصصوا النصوص الدالة على عموم الخلق والمشية بما عدا أفعال العباد، وأثبتوا أن العبد خالق لفعله بقدرته وإرادته، فأثبتوا خالقين غير الله، ولهذا سموا مجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس يزعمون أن الشيطان يخلق الشر والأشياء المؤذية، فجعلوه خالقا مع الله، فكَذلك هؤلاء جعلوا العباد خالقين مع الله.

والطائفة الثانية: يقال لها: الجبرية، وهؤلاء غلوا في إثبات القدر، حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل حقيقة، بل هو في زعمهم لا حرية له، ولا اختيار، ولا فعل؛ كالريشة في مهب الرياح، وإنما تسند الأفعال إليه مجازا، فيقال: صلى، وصام،





وقتل، وسرق؛ كما يقال: طلعت الشمس، وجرت الريح، ونزل المطر، فاتهموا ربهم بالظلم وتكليف العباد بما لا قدرة لهم عليه، ومجازاتهم على ما ليس من فعلهم، واتهموه بالعبث في تكليف العباد، وأبطلوا الحكمة من الأمر والنهي، ألا ساء ما يحكمون.<sup>(١)</sup>

والحق وسط بين الهاويتين، وجامع لصواب الطرفين، فإن الطائفة الأولى وإن أخطأوا في إنكار القدر، فقد أصابوا في حرية العبد في فعله، والطائفة الثانية أخطأوا في سلب العبد حرية الاختيار وحقيقة أفعاله لكنهم أصابوا في إثبات القدر.

وليس بين قدر الله وحرية الإنسان تناقض، لكن بعض العقول لا تسوعب كامل الحقيقة، وتتمسك بطرف وتفترط في آخر. فليس في القدر جبر العبد على فعل ما لا يريده، بل الإنسان حر في بحر أقدار الله التي لا تفرط شيئاً إلا حواه.

قال الإمام الباقلاني<sup>(٢)</sup>: "ويجب أن يعلم أن العبد له كسب، وليس مجبوراً بل مكتسب لأفعاله؛ من طاعة ومعصية؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ يعني من ثواب طاعة ﴿وَعَلَيْهَا مَا أَكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] يعني من عقاب معصية. وقوله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ آيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] وقوله: ﴿وَمَا أَصْبَرُ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ﴾

(١) شرح العقيدة الواسطية ص ٢٢٩، بتصرف، محمود خليل هراس، دار الهجرة للنشر والتوزيع - الخبر، الطبعة: الثالثة، ١٤١٥ هـ.

(٢) الإمام العلامة القاضي أبو بكر، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم، البصري، ثم البغدادي، ابن الباقلاني، صاحب التصانيف، وكان يضرب المثل بفهمه وذكائه. وكان ثقة إماماً بارعاً، صنف في الرد على الرافضة والمعتزلة، والخوارج والجهمية والكرامية، وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري، وقد يخالفه في مضائق، فإنه من نظرائه، قال عنه القاضي عياض: "هو الملقب بسيف السنة، ولسان الأمة، المتكلم على لسان أهل الحديث، وطريق أبي الحسن." مات في ذي القعدة سنة ٤٠٣ هـ. (سير أعلام النبلاء: ١٧ / ١٩٠)



أَيَّدِيكُمْ ﴿[الشورى: ٣٠] وقوله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

ويدل على صحة هذا أيضاً: أن العاقل منها يفرق بين تحرك يده جبراً وسائر بدنه عند وقوع الحمى به، أو الارتعاش، وبين أن يحرك هو عضواً من أعضائه قاصداً إلى ذلك باختياره، فأفعال العباد هي كسب لهم وهي خلق الله تعالى. فما يتصف به الحق لا يتصف به الخلق، وما يتصف به الخلق لا يتصف به الحق، وكما لا يقال لله تعالى إنه مكتسب، كذلك لا يقال للعبد إنه خالق.<sup>(١)</sup>

وهذا هو -كما قال الدكتور القرضاوي<sup>(٢)</sup>- المذهب الوسط بين الذين فرطوا في إثبات القدر والذين أفرطوا فيه، هو مذهب أهل العلم والاعتدال من أهل السنة والحديث، الذين لم يرجعوا في هذه القضية إلى مصدر غير الإسلام، ولم يحتكموا إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وخلاصة هذا المذهب تصوره الحقائق التالية:

١- أننا نرى بضرورة العقل والحس أن لنا أفعالا اختيارية تستند إلى قدرتنا وإرادتنا. وأننا إذا أردنا الحركة يمينة لم تقع يسرة. إذا أردنا أن نأكل الخبز لم نأكل التراب. وإذا أردنا الصلاة في المسجد لم نذهب إلى الحانة. وأننا نفرق بين حركة الصاعد على السلم والساقط منه. ونعلم أن الأول مختار في حركته، والثاني غير مختار.

٢- ونعلم أن بضرورة الشرع -الذي جاء كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ- أن الله هو الذي خلق فينا الإرادة والقدرة اللتين بهما نحدث أفعالنا. وهذه الإرادة

(١) الإنصاف، أبو بكر الباقلاني ١٣/١

(٢) انظر: الإيمان بالقدر، د. القرضاوي، ص ٨٥-٨٦



والقدرة المخلوقة فينا هي أساس تكليفنا ومناط مسؤوليتنا عن أعمالنا في الدنيا والآخرة. وعليه ترتب المدح والذم وكان الثواب والعقاب، وقامت سوق الجنة والنار، ودلت على ذلك النصوص الشرعية.

٣- وهذا لا ينافي الاعتقاد بأن الله خالق كل شيء، وأن كل ما في الكون حادث بمشيئته وقدرته. ذلك أن الله تعالى هو خالق الإنسان بكل ما فيه من قوى وطاقات، وصفات مادية ومعنوية. ومن جملة هذه القوى: الإرادة والقدرة اللتان يوجد الإنسان بهما جميع أفعاله الإرادية. والله تعالى هو الذي جعلهما سببا لإحداث الفعل حسب سننه تعالى في الخلق. ولا ريب أن خالق السبب التام خالق لمسببه، ولو لم يشأ سبحانه وجود فعله لما خلق السبب الموجد له.

٤- وبهذا الاعتبار نستطيع أن نقول: إن الله هو خالق أفعال العباد، لأن سننه تعالى أن يخلق الأشياء بوسائط وأسباب. ومن هذه الوسائط ما خلقه الله تعالى في الإنسان من قدرة وإرادة واختيار. كما أن الإنسان هو محدث أفعاله بإرادته واختياره وقدرته حقيقة.

وهذا هو القول المعتدل الموافق للنصوص، وبه نخلص من ورطات المعتزلة والجبرية كليهما. وثبت للإنسان إرادة مرجحة، وقدرة مؤثرة في مقدورها بإقدار الله وتمكينه سبحانه.

#### دلالة النصوص على حرية الإنسان

فالذي يستقرئ النصوص الواردة في هذه القضية يجد:

أولاً: أن القرآن والسنة قد أسندا الأفعال إلى العباد في عشرات ومئات من الآيات والأحاديث، تارة بالاسم العام مثل: (يعملون - يكسبون - يصنعون)



ونحوها، تارة بأسمائها الخاصة (يتقون - يعبدون - يؤمنون - يكفرون - يشركون - ينفقون - يجاهدون - يقتلون - يصلحون - يفسدون) وما إلى ذلك.

والأصل في إسناد الفعل إلى فاعله أن يكون على سبيل الحقيقة لا على المجاز. بخاصة أن بعض هذه الأفعال يستحيل أن يسند إلى الله تعالى مثل: الزنا والسرقة والإفساد ونحوها، ومثل التقوى والعبادة والصلاة ونحوها.

ثانياً: أن القرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتيب حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول الشرور في الدنيا والآخرة على أعمال العباد ترتب الجزاء على الشرط، والمعلول على العلة، والمسبب على السبب. وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع كما قال ابن القيم. وذلك مثل ﴿فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: ٣٠]، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٣٩]، ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]، ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ هُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا﴾ [الإسراء: ٩٨]، ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

فلولا أن الإنسان هو فاعل الفعل والمسؤول عنه ما حاسب الله عليه ولا آخذه به وعاقبه عليه. من ظن أن الله تعالى يعذب عبده بما لا إرادة له فيه ولا قدرة له عليه ولا تأثير له في فعله، بل يعذبه على فعله هو سبحانه، فقد ظن بالله تبارك وتعالى ظن السوء، وجعل له مثل السوء.

ثالثاً: أن الآيات القرآنية قد أثبتت للإنسان مشيئة وإرادة بها يختار ويرجح. كما أثبتت له قوة واستطاعة بها يفعل ويؤثر. ولكن هذه القوة وتلك المشيئة مستمدتان من قدرة الله وليستا مستقلتين عن الله أبداً.



قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]،  
 ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خُلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]،  
 ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر: ٣٧]، ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ  
 سَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٩]

وفي سورة أخرى ذكرت هذه الآية نفسها ثم أعقبها قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا  
 أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ۖ وَمَا يَذْكُرُونَ  
 إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَعْرِفَةِ﴾ [المدثر: ٥٥، ٥٦]، ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ  
 ۖ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ۖ ۝ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [النكوير: ٢٧-٢٩].

فلإنسان بنص هذه الآيات مشيئة وإرادة، ولكنها تابعة لمشيئة الله تعالى وإرادته،  
 فهو يشاء أعماله ويريدها لأن الله هو الذي شاء له أن يكون حراً مريداً فمشيئته ليست  
 من ذاته ولا بذاته، ولكنها من الله وبالله.

وكذلك للإنسان قوة وقدرة ولكنها ليست من ذاته ولا بذاته بل من الله وبالله.  
 ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤].

ولهذا كان المجمع عليه بين المسلمين كافة أن "لا حول ولا قوة بالله" وقال  
 القرآن: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]، ﴿وَأَصْبِرْ  
 وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧].

فالإنسان كما تصوره نصوص القرآن والسنة مخلوق حر مريد، له قدرة إيجابية  
 فاعلة. ولكن من الذي خلقه كذلك؟ من الذي وهبه العقل الذي يدبر، والإرادة  
 التي ترجح، والقدرة التي تنفذ؟ ولو شاء ما منحه شيئاً من ذلك، ولو شاء لسلبه ما  
 أعطاه. إنه الله.



هذا هو التوازن الذي اتسمت به عقيدة الإسلام في شأن الإنسان كما اتسمت به شريعته وأخلاقه. فليس هو آلة تنفعل ولا تفعل، تتأثر ولا تؤثر، كما يتوهمه بعض الناس. وليس هو إلهها يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد بإطلاق، كما ظن آخرون. لكنه مخلوق إيجابي فعال. كرمه الله وجعله في الأرض خليفة، واستعمره فيها، ومنحه من الطاقات والمواهب ما يستطيع به السيادة في الكون، والخلافة في الأرض، والعمارة لها، والانتفاع بما سخر الله له في السماوات وفي الأرض. لكن كل ذرة فيه إنما هي بخلق الله. وكل ما يقدر عليه إنما هو بإقدار الله، وكل ما يشاء ويختاره إنما هو بتمكين الله، وكل ما يفعله إنما هو في دائرة سلطان الله، وفق سننه تعالى التي نصبها في الكون. ورتب عليها آثارها. وجعل من شأنها العموم والثبات. فلا تحابي ولا تتبدل. فلن تجد لسنة الله تبديلا، ولن تجد لسنة الله تحويلا. اهـ

#### النهى عن ترك العمل

لقد اتفقت جميع الكتب السماوية والسنن النبوية على أن القدر السابق لا يمنع العمل ولا يوجب الاتكال، بل يوجب الجهد والاجتهاد والحرص على العمل الصالح. فلذلك ما كان الرسول ﷺ يقر القعود عن العمل اتكالا لعوامل الأقدار، بل أمر أمته بالعمل مع إيمانهم بالقدر.

عَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ جَالِسًا وَفِي يَدِهِ عُوْدٌ يَنْكُتُ بِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ،

فَقَالَ: مَا مِنْكُمْ مِنْ نَفْسٍ إِلَّا وَقَدْ عَلِمَ مَنَزِلُهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَلِمَ نَعْمَلُ؟ أَفَلَا نَتَّكِلُ؟

قَالَ: لَا! اْعْمَلُوا! فَكُلُّ مُيَسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ.



ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۖ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ۖ﴾ (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۖ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۖ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ۖ﴾ [الليل: ٥-١٠] (١). وهي النار والعياذ بالله.

فإن الله سبحانه وتعالى قدر المقادير، وهياً لها أسباباً، وهو الحكيم بما نصبه من الأسباب في المعاش والمعاد، وقد يسر كلا من خلقه لما خلقه له في الدنيا والآخرة، فهو مهياً له ميسر له.

فإذا علم العبد أن مصالح آخرته مرتبطة بالأسباب الموصلة إليها كان أشد اجتهاداً في فعلها والقيام بها، وأعظم منه في أسباب معاشه ومصالح دنياه من كون الحرث سبباً في وجود الزرع، والنكاح سبباً في وجود النسل، وكذلك العمل الصالح سبب في دخول الجنة، والعمل السيئ سبب في دخول النار.

وقد فقه هذا كل الفقه من قال من الصحابة لما سمع أحاديث القدر "ما كنت بأشد اجتهاد مني الآن"

عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ سُرَاقَةَ بْنَ جُعْشَمٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنَا عَنْ أَمْرِنَا كَأَنَّا نَنْظُرُ إِلَيْهِ، أَيْمًا جَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَثَبَّتَ بِهِ الْمَقَادِيرُ، أَوْ بِمَا يُسْتَأْنَفُ؟، قَالَ: «لَا، بَلْ بِمَا جَرَتْ بِهِ الْأَقْلَامُ وَثَبَّتَ بِهِ الْمَقَادِيرُ»،

قَالَ: فَفِيمَ الْعَمَلِ إِذَا؟،

قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلُّ مَيْسَرٍ»

قَالَ سُرَاقَةُ: فَلَا أَكُونُ أَبَدًا أَشَدَّ اجْتِهَادًا فِي الْعَمَلِ مِنِّي الْآنَ. (٢)

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٨٩١ رقم ٤٦٦٦، ٦/ ٢٧٤٥ رقم ٧١١٣) ومسلم (٤/ ٢٠٤٠ رقم ٢٦٤٧) واللفظ له

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ٤٩ رقم: ٣٣٧)



وقال النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - في الحديث المتقدم "اخرِضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا. وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ".<sup>(١)</sup>

#### دفع الأقدار بالأقدار

فنحن مطالبون شرعا بأن ندفع أقدارا بأقدار. فالجوع مثلا من القدر ونحن ندفعه بقدر الطعام. والعطش من القدر ونحن ندفعه بقدر الشراب. والمرض من القدر ونحن ندفعه بقدر الدواء، وهو من القدر أيضا. ولو أن المرء استسلم لقدر الجوع والعطش، مثلا وهو قادر على دفعه ثم مات، مات عاصيا لله تعالى الذي نهاه عن أن يلقي بنفسه إلى التهلكة. قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]. وقد أفصح الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا كل الإفصاح، وأوضحه كل الإيضاح. فعن كعب بن مالك، أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ دَوَاءً نَتَدَاوَى بِهِ، وَرُقًى نَسْتَرْقِي بِهَا، وَأَشْيَاءَ نَفْعُلُهَا، هَلْ تَرُدُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟ قَالَ: «يَا كَعْبُ، بَلْ هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ»<sup>(٢)</sup>

فانظر إلى هذا الجواب الحكيم الذي يحفز الهمم إلى العمل النافع، ويهيب بالناس إلى اتخاذ الأسباب، والإمعان في الحذر.

وقال أبو عبيدة بن الجراح لعمر بن الخطاب حين أراد الرجوع من الشام لما فيها من الطاعون: "أفرارا من قدر الله!"

(١) سبق تخريجه

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤٦٥/١٣) رقم (٦١٠٠) والترمذي (٣٩٩/٤) رقم (٢٠٦٥) وصححه وابن ماجه (١١٣٥/٢) رقم (٣٤٣٧)





فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة، نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أ رأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟<sup>(١)</sup>

وقد أمرنا الله بإعداد المستطاع من العدة إرهاباً للعدو. والمستطاع هو ما يدخل في قدرة الإنسان ومكنته واختياره. وذلك من باب دفع الأقدار بالأقدار. وهو في وسع الإنسان وصميم إمكانه.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۚ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَحِدَةً ۖ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرَضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

فلو لا أن اتخاذ الحذر مستطاع، وفي الإمكان، وفي مقدور الإنسان، ما أمر الله العليم الحكيم به، لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها.

فلا تتم مصالح العباد في معاشهم إذن إلا بمدافعة الأقدار بعضها ببعض.

ومدافعة الأقدار على نوعين<sup>(٢)</sup>:

الأول: مدافعة أقدار قد انعقدت أسبابها ولم تقع، بأقدار تدفعها وتحول دون وقوعها. كمدافعة عدو مغير بالإعداد له.

وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

(١) أخرجه البخاري (٢١٦٣/٥) رقم ٥٣٩٧) ومسلم (١٧٤٠/٤) رقم ٢٢١٩) واللفظ للبخاري.

(٢) انظر الإيمان باليوم الآخر والقضاء والقدر، ص ١٣٢-١٣٣



والثاني: مدافعة أقدار قد وقعت، بأقدار تدفعها. كمدافعة مرض بالدواء.

وإليه يشير قول الرسول ﷺ: "تداؤوا عباد الله فإن الله تعالى لم ينزل داء إلا وقد أنزل له شفاء إلا هذا الهرم."<sup>(١)</sup>

أما القعود عن مدافعة الأقدار مع القدرة عليها فهي من العجز الذي نهينا عنه. فقد قال الرسول ﷺ: "المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل لو أني فعلت كذا، لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان."<sup>(٢)</sup>

نهى النبي عن العجز، وهو القعود عن العمل وعنده القدرة عليه كسلا وتهاونا. فإذا بذل الإنسان جهده، وخرج الأمر من يده وأصبح في يد الأقدار التي لا يمكن دفعها يقول: قدر الله وما شاء فعل. ويرضى حينئذ بقدر الله صابرا. ويخضع لمشئته الله تعالى ولا يستسلم للهم والحزن.

والحرص على ما ينفع هو مدافعة الأقدار بالأقدار. والعجز المنهي عنه هو الاستسلام للأقدار مع القدرة على مدافعتها. فلا ينبغي أن يحول الإيمان بالقدر بيننا وبين اتخاذ الحيطة والحذر والنظر في العواقب بالنظر والحرص على الخير، والعمل على الظفر به، والفرار من الشر والعمل للنجاة منه.

وقد علم الله ضعف الإنسان أمام قوة الغرائز أو أثر البيئة أو الوراثة. وعلم سبحانه أنها قد تغطي عليه، فتورطه في ألوان من الفتون. فاقترضت رحمته أن يمحو

(١) أخرجه ابن حبان (٢٣٦/٢) رقم ٤٨٦) والحاكم وصححه (٢/٢٢٠ رقم ٧٤٣٠)

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤)



بالتوبة النصوح أثر هذا الطغيان. وأمر بالتوبة ليمحو بها قدر المعصية التي دفع إليها قدر الغريزة أو غيرها.

فمن دفع بقدر التوبة قدر المعصية - كما يدفع بقدر الطعام قدر الجوع الهلاك - فقد استمسك بالعروة الوثقى. فمن لجّ في عتوه ونفوره فعلى نفسه جنى. وما ربك بظلام للعبيد.

وقدر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الجد سبب الظفر. وأن العمل الصالح سبب الفوز بالنجاة في الآخرة. فإن قصرنا في العمل وحاق بنا سوء تقصيرنا، كنا جديرين باللوم والتشريب، مستحقين لما أعد الله للمقصرين من الخيبة في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة.

ولا ينبغي أن نحتج بالقدر إذا قصرنا في عمل كان في وسعنا أن نعمله فلم نعمله، فحاق بنا ما يستوجبه التقصير، لأننا مأمورون بأن نأخذ بالحدز وأن نحتاط في الأمر، وأن نجلب لأنفسنا الخير. وأن ندفع الشر ما استطعنا إلى ذلك سبيلا.

كل امرئ يدرك إدراكا تاما الفرق بين ما يأتيه وما يدعه طوعا واختيارا وبين ما يصيبه وليس له فيه اختيار. ومن أنكر ذلك فقد سفه نفسه وأنكر عقله.

وإننا لنرى الإنسان إذا أخفق في الحصول على مطلب التمسه لتقصير منه، عاد باللائمة على نفسه ثم عاود الطلب بعد إحكام وسائله، وإتقان ذرائعه، واتخاذ الأسباب التي يعتقد أنها كفيلة بأن تحقق أمله، وتظفره بحاجته. ومن العجب أن القدر لا يخطر بباله في ذلك. ولا يخطر بباله إلا إذا اقترف سيئة، ليحمل الأقدار تبعه ما جنى، وجريرة ما اقترف.

ولولا أن الإنسان يشعر كل الشعور بأنه مختار فيما يأتي وفيما يدع، ولولا أن الطاعات في وسعه وفي مكنته، ما نزلت الشرائع ولا جاءت الأوامر والنواهي ولا



أرسل الله الرسل ولا أنزل الكتب ولا بشر ولا أنذر، ولا رغب ولا حذر، ولا جعل جنة ونعيما ولا نارا ولا جحيما.

ولو كان القدر سالبا لا اختيار الناس أعماله الاختيارية، لبطل الثواب والعقاب، والتأديب والتهذيب، والنصح والإرشاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير والصد عن الشر. اهـ

وفي هذا السياق قال الشيخ عبد القادر الجيلاني<sup>(١)</sup>: "كثير من الرجال إذا دخلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا، وأنا انفتحت لي فيه روزنة، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق. والولي من يكون منازعا للقدر لا من يكون موافقا له."<sup>(٢)</sup>

#### المبحث الخامس: انسجام الحقائق

إن قدر الله السابق حقيقة، وعلمه الشامل حقيقة، وعدله المطلق حقيقة، وحرية الإنسان في أفعاله حقيقة، ومسؤوليته أمام الله حقيقة، ومحاسبته عليها حقيقة، وترتيب الجزاء على العمل حقيقة، فكل هذه الحقائق لا تتعارض في الواقع. وإنما عجزت بعض العقول عن استيعابها بشكل متناسق، أو رغبت بعض الطوائف في رفض بعضها احتجاجا بالآخر لحاجة في أنفسهم، اعترفوا بها أو لم يعترفوا.

(١) الشيخ عبد القادر بن أبي صالح بن عبد الله بن جنكي دوست بن أبي عبد الله عبد الله بن يحيى بن محمد بن داود بن موسى الحوزي بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب الجيلاني. عالم رباني جليل. تفقه في مذهب أحمد بن حنبل على أبي الوفاء بن عقيل وأبي الخطاب وأبي الحسين محمد بن القاضي أبي يعلى والمبارك المخرمي. قال ابن رجب: وكان الشيخ عبد القادر متمسكا في مسائل الصفات والقدر ونحوهما بالسنة مبالغا في الرد على من خالفهما. وتوفي رَحِمَهُ اللهُ سنة ٥٦١ هـ (شذرات الذهب ٢/١٩٨-٢٠٢)

(٢) مجموع رسائل ابن تيمية: ١/١٩٣، ١/٢٢٣، ١/٢٦٦، ١/٣٦١



### معارضة الحقائق تسيء الفهم

إن فن التلاعب بالحقائق معروف عند أهلها، فالمحامون الذين أرادوا انتصار عملائهم قد يتمسكون ببعض الحقائق لضرب الآخر، وكذا السياسيون الذين أرادوا تحقيق مصالحهم قد يلجؤون إلى كشف بعض الحقائق في مقابلة الآخر، وقُلْ مثل ذلك في عالم الإعلام. إن سيئة التلاعب بالحقائق بينة، ولكنها في مسائل العقيدة أفحش فاحشة ارتكبتها الإنسان، إن الإنسان قد أعطاه الله قدرة على الجدل، انتصارا للحق أو تملصا عنه. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤].

فطريق البحث عن الحق سالك فقط لمن يتجنب أسلوب المعارضة والمجادلة التي يتمسك كل طرف فيه بالموقف مضحيا ببعض الحقائق التي قد تكون عند الطرف الآخر. وقد شدد الرسول ﷺ النكير على هذا السلوك.

أخرج الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي مَجْلِسًا مَا أَحْبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمَرِ النَّعَمِ أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي، وَإِذَا مَشِيخَةٌ مِنْ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ فَكَرِهْنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ، فَجَلَسْنَا حَجْرَةً إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ فَتَمَارَوْا فِيهَا حَتَّى ارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُغَضَّبًا قَدْ احْمَرَّ وَجْهُهُ يَرْمِيهِمْ بِالتُّرَابِ، وَيَقُولُ:

"مَهْلًا يَا قَوْمُ!! بِهَذَا أَهْلَكْتَ الْأُمَّمَ مِنْ قَبْلِكُمْ! بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمِ الْكُتُبَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزِلْ يَكْذِبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ." (١)



وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدْرِ، فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ، حَتَّى كَانَمَا فُقِيَ فِي وَجْتِنِهِ الرُّمَانُ، فَقَالَ: أَبْهَذَا أُمِرْتُمْ؟! أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟! إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ! عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ. <sup>(١)</sup>

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ نَفَرًا كَانُوا جُلُوسًا بَبَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: بَعْضُهُمْ أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ كَذَا وَكَذَا؟ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ كَذَا وَكَذَا؟ فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَخَرَجَ كَانَمَا فُقِيَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَانِ فَقَالَ: بِهَذَا أُمِرْتُمْ؟! أَوْ بِهَذَا بُعِثْتُمْ؟! أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ؟ إِنَّمَا ضَلَّتْ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا! إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِمَّا هَاهُنَا فِي شَيْءٍ، انْظُرُوا الَّذِي أُمِرْتُمْ بِهِ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَالَّذِي نُهِيتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا. <sup>(٢)</sup>

إن كثرة التنازع وحب التجادل يبعد الإنسان عن الوصول إلى الحقيقة، لذلك أخبر الرسول عن هؤلاء الذين يكثرون الجدل أنهم ضيعوا ما لديهم من نور الحقيقة. عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ. ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]. <sup>(٣)</sup>

- (١) أخرجه الترمذي (١٦/٨ رقم ٢٠٥٩)، وأبو يعلى الموصلي في مسنده (١٢/٢٩٨ رقم ٥٩١٠)، وحسنه الألباني (صحيح وضعيف سنن الترمذي ١٣٣/٥ رقم ٢١٣٣)
- (٢) رواه أحمد (١١/٤٣٤ رقم: ٦٨٥٤) وحسنه الألباني (ظلال الجنة في تخريج السنة ١/ ١٩٠ رقم: ٤٠٦)
- (٣) أخرجه الترمذي (١١/٥١ رقم: ٣١٧٦) وقال حديث حسن صحيح، وابن ماجه (١/ ٥٥ رقم: ٤٧) وأحمد (٤٥/ ١٣٨ رقم: ٢١١٤٣) والحاكم (٨/ ٣٤٥ رقم: ٣٦٣٢) وصححه والبيهقي في الشعب (١٧/ ٤٦٧ رقم: ٨٢٠١)



وبطبيعة الحال ليس المقصود بدم الجدل هنا منع المباحثة والمناظرة للبحث عن الحقيقة بصدق لكن المراد بالمجادلة هنا المعاندة والتي فيها التعصب وإعجاب كل ذي رأي برأيه، كما هو معروف.

وإن الأسئلة المطروحة في هذه المسألة كثيرة، لكننا لا يلزمنا أن نجيب عليها واحدة واحدة، والأفضل من ذلك أن نمسك بمفاصل المسألة، فمن استوعبها فهو قادر على إجابة كل الإشكالات - أو على الأقل لديه أسس يركز عليها في مواجهة أي تساؤلات - ومن لم يستوعب هذه المفاصل سيضيع مع أمواج متلاطمة من الشبهات المحيرة.

#### رحمة الله الواسعة وحكمته البالغة

وينبغي أن نستحضر هنا الحقيقة الأم التي نرجع إليها في كل الأحوال وجميع المجالات: أن الله حكيم في كل أفعاله رحيم بجميع خلقه. وهذه حقيقة كبرى لا يصح إغفالها، وصفات الله سبحانه تدل على طبيعة أفعاله وقراره وتقديره. علمه من علمه، وجهله من جهله.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي.<sup>(١)</sup> وفي رواية: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي.<sup>(٢)</sup>

إن هذه الكلمات المسطورة على عرش الرحمن لتعد حقيقة كبرى تلخص ما قضى الله به على الخلق في لوحه المحفوظ، فهو سبحانه يبرزها فوق العرش، وأشهدا ملائكته المقربين، فهي تعتبر إطارا كبيرا لكل ما سبق تقديره في خلقه،

(١) أخرجه البخاري (١٧/٣٨٨ رقم: ٨٣٤٦) ومسلم (١٣/٣٠٦ رقم: ٤٩٣٩)

(٢) عند البخاري: ٢٢/٤٣٢ رقم: ٦٨٧٢، وعند مسلم: ١٣/٣٠٧ رقم: ٤٩٤٩



وخلاصة مهمة لما جرت به أقلام القدر. فلم يعترض معترض إلا لجهله بخلاصة الأحداث ولخفاء مغزى القضاء عن مبلغ علمه.

وهذه الحقيقة أثبتها الله في القرآن في آيات كثيرة. منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]

فهؤلاء الملائكة المقربون الذين يحملون العرش، سبق لهم الإدراك بهذه الحقيقة بوضوح، فهم يحمدون الله ويسبحونه بإعلان هذه الحقيقة. نعم إن رحمة الله وسعت كل شيء، وشملت كل الخلق.

وحتى هؤلاء الذين عصوا الله لم يحرمهم من رحمته سبحانه. قال الله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قال الألوسي: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي شأنها أنها واسعة تبلغ كل شيء، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب في الدنيا بنعمتي. وفي نسبة الإصابة إلى العذاب بصيغة المضارع ونسبة السعة إلى الرحمة بصيغة الماضي إيدان بأن الرحمة مقتضى الذات وأما العذاب فمقتضى معاصي العباد.<sup>(١)</sup>

قال السيد رشيد رضا<sup>(٢)</sup> في تفسير هذه الآية: أي: قد كان من سبق رحمتي غضبي أن أجعل عذابي خاصاً، أصيب به من أشاء من الكفار والعصاة المجرمين،

(١) روح المعاني ٦/ ٣٨٤

(٢) محمد رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ / ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن متلا علي خليفة القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب: صاحب مجلة (المنار) وأحد رجال الإصلاح الإسلامي. من الكتاب، =





وأما رحمتي فقد وسعت كل شيء من العالمين، فهي من صفاتي القديمة الأزلية التي قام بها أمر العالم منذ خلقته. والعذاب ليس من صفاتي بل من أفعالي المترتبة على صفة العدل. ولهذا عبر عن التعذيب بالفعل المضارع، وعن تعلق الرحمة بالفعل الماضي.

وهذه الرحمة هي العامة المبذولة لكل مخلوق، ولولاها لهلك كل كافر وعاص عقب كفره وفجوره ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

وهناك رحمة خاصة يوجبها ويكتبها تعالى لبعض المؤمنين المحسنين. ويبدل ما شاء منها لمن شاء بغير كتابة منه. وما كتابته إلا فضل منه ورحمة.

وأما العذاب فلم يرد في الكتاب ولا في خبر المعصوم أن الله تعالى كتبه على نفسه، ولكن أثبتته، وتوعد به فكان لا بد من وقوعه؛ ولأنه من متعلقات صفتي العدل والحكمة.<sup>(١)</sup>

قال السعدي: ﴿وَرَحْمَتِي وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] من العالم العلوي والسفلي، البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمره فضله وإحسانه، ولكن الرحمة الخاصة المقتضية لسعادة الدنيا والآخرة، ليست لكل أحد.<sup>(٢)</sup>

= العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. رحل إلى مصر سنة ١٣١٥ هـ، فلازم الشيخ محمد عبده وتلمذ له. وأصبح مرجع الفتيا، في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة ودفن بالقاهرة. (الأعلام: ٦/ ١٢٦)

(١) تفسير المنار ٩/ ١٩٢، محمد رشيد بن علي رضا الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر ١٩٩٠ م

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٠٥



إن الله رحيم بعباده أكثر من رحمة الأم بولدها، كما جاء عند البخاري عَنْ  
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبْيِي فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ قَدْ  
تَحَلَّبُ ثَدْيَهَا تَسْقِي إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبْيِ أَخَذَتْهُ فَأَلْصَقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ فَقَالَ  
لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتُرُونَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ قُلْنَا لَا وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا  
تَطْرَحَهُ فَقَالَ لِلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بَوْلَدِهَا. <sup>(١)</sup>

إن من لم يطمئن قلبه بقضاء الله فقد غفل عن حقيقة رحمة الله الواسعة ورأفته  
بعباده. قد يبدو للعبد أن بعض ما قضى به الله لعباده شرا لهم، لكن الله تعالى أعلم  
بالخير من عباده، وأحرص على نفعهم منهم لأنفسهم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.  
لنقرأ هذه الرواية الطويلة التي تصوّر لنا مجريات الأمور في محكمة القضاء  
الكبرى يوم القيامة لنرى مدى رحمة الله بعباده، مع قيامه بالعدل في محاسبة  
العباد. وردت في صحيح مسلم عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّ نَاسًا فِي زَمَنِ رَسُولِ اللَّهِ  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَعَمْ، هَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الشَّمْسِ بِالظَّهِيرَةِ  
صَحْوًا لَيْسَ مَعَهَا سَحَابٌ؟ وَهَلْ تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةً الْبَدْرِ صَحْوًا لَيْسَ  
فِيهَا سَحَابٌ؟

قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: مَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا كَمَا تُضَارُّونَ فِي رُؤْيَةِ  
أَحَدِهِمَا.

(١) أخرجه البخاري (٤٠٥/١٨) ومسلم (٥٥٤٠) ومسلم (٣١٤/١٣) رقم: (٤٩٤٧)



إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ: لِيَتَّبِعْ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ!

فَلَا يَبْقَى أَحَدٌ كَانَ يَعْبُدُ غَيْرَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْصَابِ إِلَّا يَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ وَغَيْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ.

فَيُدْعَى الْيَهُودُ فَيَقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟

قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ عَزِيرَ ابْنِ اللَّهِ.

فَيَقَالُ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ، فَمَاذَا تَبْغُونَ؟

قَالُوا: عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا.

فَيُسَارِ إِلَيْهِمْ: أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى النَّارِ كَانَتْهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ.

ثُمَّ يُدْعَى النَّصَارَى فَيَقَالُ لَهُمْ: مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ؟

قَالُوا: كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ.

فَيَقَالُ لَهُمْ: كَذَبْتُمْ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ صَاحِبَةٍ وَلَا وَلَدٍ! فَيَقَالُ لَهُمْ: مَاذَا تَبْغُونَ؟

فَيَقُولُونَ عَطِشْنَا يَا رَبَّنَا فَاسْقِنَا.

قَالَ فَيُسَارِ إِلَيْهِمْ: أَلَا تَرِدُونَ؟ فَيُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ كَانَتْهَا سَرَابٌ يَحْطِمُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَيَتَسَاقَطُونَ فِي النَّارِ.

حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ، أَنَا هُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنَ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا قَالَ: فَمَا تَنْتَظِرُونَ؟ تَتَّبِعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ.



قَالُوا: يَا رَبَّنَا فَارْقَنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ.  
فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ.

فَيَقُولُونَ: نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا،  
مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، حَتَّىٰ إِنْ بَعْضُهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ،  
فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا؟  
فَيَقُولُونَ: نَعَمْ.

فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ  
بِالسُّجُودِ، وَلَا يَبْقَىٰ مَنْ كَانَ يَسْجُدُ انْتِقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً، كُلَّمَا  
أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَىٰ قَفَاهُ. ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ  
فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ،

فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ.

فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا.

ثُمَّ يُضْرَبُ الْجِسْرُ عَلَىٰ جَهَنَّمَ وَتَحِلُّ الشَّفَاعَةُ وَيَقُولُونَ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ..!

قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْجِسْرُ؟

قَالَ: دَحْضٌ مَزَلَّةٌ فِيهِ خَطَاطِيفٌ وَكَالَالِيبُ وَحَسَكٌ، تَكُونُ بِنَجْدٍ فِيهَا شُؤْيَكَةٌ  
يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ. فَيَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ، كَطَرْفِ الْعَيْنِ، وَكَالْبَرْقِ، وَكَالرَّيْحِ، وَكَالطَّيْرِ،  
وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ، وَالرَّكَابِ، فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُرْسَلٌ، وَمَكْدُوشٌ فِي نَارِ  
جَهَنَّمَ. حَتَّىٰ إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ. فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ



بِأَشَدِّ مُنَاشِدَةٍ لِلَّهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ،

يَقُولُونَ: رَبَّنَا كَانُوا يَصُومُونَ مَعَنَا وَيُصَلُّونَ وَيَحُجُّونَ.

فَيَقَالُ لَهُمْ: أَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ!

فَتُحَرَّمُ صُورُهُمْ عَلَى النَّارِ، فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا قَدْ أَخَذَتِ النَّارُ إِلَى نِصْفِ سَاقِيهِ وَإِلَى رُكْبَتَيْهِ.

ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا بَقِيَ فِيهَا أَحَدٌ مِمَّنْ أَمَرْتَنَا بِهِ.

فَيَقُولُ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ!

فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا.

ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا أَحَدًا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا!

ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ!

فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا.

ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا مِمَّنْ أَمَرْتَنَا أَحَدًا.

ثُمَّ يَقُولُ: ارْجِعُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأَخْرِجُوهُ!

فَيُخْرِجُونَ خَلْقًا كَثِيرًا.

ثُمَّ يَقُولُونَ: رَبَّنَا لَمْ نَذَرْ فِيهَا خَيْرًا.

وَكَانَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ يَقُولُ: إِنْ لَمْ تُصَدِّقُونِي بِهَذَا الْحَدِيثِ فَافْرُؤُوا إِنِ شِئْتُمْ:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾



فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّوَجَلَّ: شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا  
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ....

فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ، قَدْ عَادُوا حُمَمًا،  
فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ نَهْرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحَبَّةُ فِي  
حَمِيلِ السَّيْلِ. أَلَّا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ أَوْ إِلَى الشَّجَرِ مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ  
أُصْفَرُ وَأُخْيَضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ.

فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّكَ كُنْتَ تَرَعَى بِالْبَادِيَةِ.

قَالَ: فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عِتْقَاءُ اللَّهِ  
الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ.

ثُمَّ يَقُولُ: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ!

فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ!

فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا فَيَقُولُونَ يَا رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا فَيَقُولُ  
رِضَايَ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا.<sup>(١)</sup>

فسبحان الذي لا يُحصي ثنائه أحد، ولا يبلغ غاية حكمته عقل، ولا يدرك مبلغ  
رحمته خلق...

وإنما تلك إطلالة خاطفة على سعة رحمة الله غير المحدودة التي ستكشف عن  
حقيقتها و"حجمها" يوم يرث الله الأرض ومن عليها، وحينها لا يسع الخلق كلهم  
إلا أن يسبحوا الله بحمده ويدعنوا له بالتبجيل والتلهيل والتكبير...



﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمَعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ. <sup>(١)</sup>

وعند البخاري عنه أيضا قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الرَّحْمَةَ يَوْمَ خَلَقَهَا مِائَةَ رَحْمَةٍ، فَأَمْسَكَ عَنْدَهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، وَأَرْسَلَ فِي خَلْقِهِ كُلِّهُمْ رَحْمَةً وَاحِدَةً، فَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ لَمْ يَيْئَسْ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ بِكُلِّ الَّذِي عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْعَذَابِ لَمْ يَأْمَنْ مِنَ النَّارِ. <sup>(٢)</sup>

لا إله إلا الله...، ما اعترض أحد للقضاء والقدر إلا لجهله وظلمه لنفسه....

#### العدالة الإلهية

لكن الرحمة ليست الصفة الوحيدة للرحمن، ولا هي الحقيقة الوحيدة التي تسير في ظلها أحداث الكون، بل هناك حقيقة أخرى تكملها وتزيدها جلالا وكمالا، وهي حقيقة العدالة الإلهية...

إن الله رؤوف رحيم، لكنه عزيز حكيم، هو غفور حلیم، لكنه جبار قهار. فمن تمسك برحمة الله وغفل عن عدله فقد عرّض نفسه للمهالك والوشيك، ومن غرّه حلم الله ولم يرع جبروته وقهره فقط سلك لنفسه طريقا إلى الهاوية ويوشك أن ييؤء بغضب من الله وعقاب منه. فعلى الإنسان أن يستحضر الحقيقتين معا، رحمة الله ورأفته من جانب، وعدله وعزته من جانب آخر.

(١) أخرجه مسلم ١٣/٣١٥ رقم: ٤٩٤٨

(٢) أخرجه البخاري ١٠٦/٢٠ رقم: ٥٩٨٨



والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق الحياة الدنيا مسرحاً لاختبار الإنسان ليتمخض عنه التمييز بين المحسن والمسيء. فأقام العدل على المسيء ومنح الفضل للمحسن. قال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٤].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وفي هذا المختبر الحياتي فإن الله لا يقدر على الإنسان إلا ما هو حق، ليس فيه ظلم لأحد. فالكل يجازى حسب عمله، لا بخس فيه لحق، ولا إفلات فيه لظلم. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

#### الإيمان متوازن

إن المؤمن يراعي الحقائق بشكل متوازن، وهو شأن الإيمان الصحيح في كل القضايا. فهو متوازن بين الرجاء والخوف، وبين التوكل على الله والأخذ بالأسباب، بين الزهد في الدنيا والاجتهاد فيها... وبين الإيمان بالقدر والعمل بالإرادة الحرة. فكل هذه الحقائق المتقابلة إذا غلبت إحداها على الأخرى اختلت الحياة، إذا غلب الإنسان الرجاء في رحمة الله على الخوف من الله تجرأ على المعاصي ولم يخف من عذاب الله. وإذا غلب العكس قنط من رحمة الله وأيس من عفوه.





وإذا أفرط في تفويض الأمور إلى الله ولم يأخذ بالأسباب ضيّع كل مصالحه وخسر نفسه وحياته، وإذا اعتمد على الأسباب ولم يتوكل على الله لم يحظ بعناية الله ولم يرزق التوفيق من الله.

وإذا بالغ الإنسان في الزهد في الدنيا ولم يعمل لإصلاح حياته فقد ضيع مزرعته التي يتزود بها لآخرته، وإذا حرص الإنسان على الدنيا وتكالب عليها فسيخسرها بتركها ويخسر آخرته لعدم استعداده لها.

فكذلك الأمر في مسألة القضاء والقدر. إن من يتمسك بحقيقة القدر دون الالتفات إلى واجب العمل سيكون اتكاليا سلبيا، ومن خاض معركة الحياة دون الإيمان بالقدر سيهلك أعصابه ويفقد اتزانه النفسي.

#### آفاق مفتوحة لمن يريد بناء المستقبل

إن الفرق بين الأزمنة الثلاثة - أي الماضي والحاضر والمستقبل - هو أن الماضي صار حقيقة غير قابلة للتغيير ولا جدوى من تدخل الإرادة الإنسانية فيه، أما الحاضر فهو عملية متحركة لم تكتمل بعد ويكون للتدخل في مساره القدر النسبي من التأثير، بينما يمثل المستقبل المجال الوحيد المتاح أمام الإرادة الإنسانية للتدخل فيه. فإنشاء الإرادة وإحداث التغيير في الوقت الحاضر هو الذي سيؤثر على واقع المستقبل إلى حد كبير. فالكلام عن القضاء والقدر أنسب ما يكون إذا تعلق بالماضي، لأنه معلوم ولا مجال لنا لتغييره، وأما الحاضر والمستقبل فلا أنسب فيهما أن نستحضر حريتنا في الاختيار ومسؤوليتنا في تحديد المصير.

فلكل مقام مقال، ولكل حادث حديث. من يتوجه إلى صناعة مستقبله، ويعمل من أجل تقرير مصيره لا يحسن به أن يفكر في الأقدار المكتوبة، فإن ذلك لا يفيد.



ولا يطالب منه. لما أنزل الله شرعه وأمر الإنسان بتنفيذه فالمطلوب منه هو تنفيذ الأمور وليس الانصياع للمقدور. إذا امتثل الإنسان أمر الله مختاراً فهو مأجور، وليس له شيء إذا فعله وهو مجبور. فعلينا أن نستخدم أوراقنا المربحة وهي الإرادة الحرة والفعل الإيجابي والاختيار الصحيح.

ومهما نتكلم عن الأقدار في المستقبل فإنه سيكون كلاماً عن جهل، بعيداً عن اعتماد العلم اليقيني، فالتفكير في أقدار المستقبل مهما كان، لن يتعدى الظنون والتخمينات، فليس هناك أدنى اطلاع للإنسان على قدره في المستقبل بشكل جازم، إلا ما ظهر في مؤشرات واقعه، وهي كلها احتمالات، فالأفضل للإنسان في مجال المستقبل أن يحدد هو بنفسه ماذا يجب أن يكون عليه مستقبلاً. وأهم ما يحدد مسار حياته هو إرادته وفكره وعمله. وكما قال أحد الصالحين: إن واجبنا هو أن ندفع أقدار الحق بالحق للحق.





## الفصل الرابع: التوكل الصحيح



من المسائل العقدية التي تكوّن المسار الصحيح لبناء المستقبل مسألة التوكل على وجهه الصحيح، فليس التوكل اتكالا ولا كسلا ولا ترك العمل، بل هو اجتهاد مع الاعتماد على الله، فهو من العوامل القوية التي تساعد المؤمن على مواجهة الصعوبات وتحدي المستحيلات. ولكنه في المقابل إذا فهم التوكل على معنى التواكل والاستسلام والبطالة وترك العمل، فهو القاتل الفتاك لمستقبل الإنسان. فما هو هذا التوكل البناء للمستقبل؟

### المبحث الأول: حقيقة التوكل

وقال الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "اعلم أن التوكل من باب الإيمان، وجميع أبواب الإيمان لا ينتظم إلا بعلم وحال وعمل، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل، وعمل هو الثمرة، وحال هو المراد باسم التوكل.

فلنبداً ببيان العلم الذي هو الأصل وهو المسمى إيماناً في أصل اللسان، إذ الإيمان هو التصديق، وكل تصديق بالقلب فهو علم، وإذا قوي سمي يقيناً، ولكن أبواب اليقين كثيرة، ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبني عليه التوكل، وهو التوحيد الذي يترجمه وقولك: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له"، والإيمان بالقدرة التي يترجمه قولك: "له الملك"، والإيمان بالجود والحكمة الذي يترجمه قولك: "وله الحمد"، فمن قال: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير"، تم له الإيمان الذي هو أصل التوكل، أعني أن يصير معنى هذا القول وصفاً لازماً لقلبه غالباً عليه، فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه يطول.<sup>(١)</sup>

(١) الإحياء: ٤/ ٢٤٥، الإمام أبو حامد الغزالي، دار مصر للطباعة، سنة ١٩٩٨ م



فالتوكل - مثل سائر أبواب الإيمان ومقامات الارتقاء الروحي - يشتمل على الجانب المعرفي الإدراكي والمعبر عنه بالعلم، والجانب الوجداني العاطفي (والمعبر عنه بالحال) والجانب الإرادي السلوكي الذي يعبر عنه بالعمل.

ونقل ابن القيم في مدارج السالكين بعض أقوال الصالحين عن تعريف التوكل قال: <sup>(١)</sup>

قال الإمام أحمد: "التوكل عمل القلب، ومعنى ذلك أنه عمل قلبي ليس بقول اللسان ولا عمل الجوارح ولا هو من باب العلوم والإدراكات."  
ومن الناس من يجعله من باب المعارف والعلوم فيقول: "هو علم القلب بكفاية الرب للعبد."

ومنهم من يفسره بالسكون وخمود حركة القلب فيقول: "التوكل هو انطراح القلب بين يدي الرب كأنطراح الميت بين يدي الغاسل يقلبه كيف يشاء، وهو ترك الاختيار والاسترسال مع مجاري الأقدار."  
ومنهم من يفسره بالرضا فيقول: "هو الرضا بالمقدور."

وقال بيشر الحافي: "يقول أحدهم توكلت على الله، يكذب على الله، ولو توكل على الله رضي بما يفعل الله."

وسئل يحيى بن معاذ: "متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلاً."  
ومنهم من يفسره بالثقة بالله، والطمأنينة إليه، والسكون إليه.

(١) انظر مدارج السالكين (٢/ ١١٤)، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي



وقيل: "التوكل نفى الشكوك والتفويض إلى ملك الملوك."

وقال ذو النون: "خلع الأرباب وقطع الأسباب. يريد قطعها من تعلق القلب بها، لا من ملابسة الجوارح لها."

ومنهم من جعله مركبا من أمرين أو أمور.

فقال أبو سعيد الخراز: "التوكل اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب. يريد حركة ذاته في الأسباب بالظاهر والباطن، وسكون إلى المسبب، وركون إليه، ولا يضطرب قلبه معه، ولا تسكن حركته عن الأسباب الموصلة إلى رضاه."

وقال أبو تراب النخشي: "هو طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أعطي شكر وإن منع صبر."

فيجعله مركبا من خمسة أمور: "القيام بحركات العبودية، وتعلق القلب بتدبير الرب، وسكونه إلى قضائه وقدره، وطمأنينته وكفايته له، وشكره إذا أعطي وصبره إذا منع."

وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب. فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها، وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد.

قال سهل بن عبد الله: "من طعن في الحركة فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان."

فالتوكل حال النبي ﷺ، والكسب سنته. وهذا معنى قول أبي سعيد: "هو اضطراب بلا سكون، وسكون بلا اضطراب." وقول سهل أبين وأرفع.

وقيل: "التوكل قطع العلائق بغير الله."



وسئل سهل عن التوكل: فقال: "قلب عاش مع الله بلا علاقة."

وقيل: "التوكل هو هجر العلائق، ومواصلة الحقائق."

وقيل: "التوكل أن يستوي عندك الإكثار والإقلال. وهذا من موجباته وآثاره لا أنه حقيقته."

وقيل: "هو ترك كل سبب يوصلك إلى مسبب، حتى يكون الحق هو المتولي لذلك. وهذا صحيح من وجه، باطل من وجه. فترك الأسباب المأمور بها قاذح في التوكل، وقد تولى الحق إيصال العبد بها. وأما ترك الأسباب المباحة: فإن تركها لما هو أرجح منها مصلحة فممدوح، وإلا فهو مذموم."

وقيل: "هو إلقاء النفس في العبودية، وإخراج من العبودية. يريد استرسالها مع الأمر، وبرائها من حولها وفوتها، وشهود ذلك بهابل بالرب وحده."

منهم من قال: "التوكل هو التسليم لأمر الرب وقضائه."

ومنهم من قال: "هو التفويض إليه في كل حال."

ومنهم من جعل التوكل بداية والتسليم واسطة والتفويض نهاية.

قال أبو علي الدقاق: "التوكل ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض. فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. فالتوكل بداية، والتسليم واسطة، والتفويض نهاية. فالتوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحدين."

ثم قال ابن القيم: "هذا كله كلام الدقاق. ومعنى هذا التوكل: اعتماد على الوكيل، وقد يعتمد الرجل على وكيله مع نوع اقتراح عليه، وإرادة وشائبة منازعة.



فإذا سَلَّمَ إليه زال عنه ذلك، ورضي بما يفعله وكيله. وحال المفوض فوق هذا. فإنه طالب يريد ممن فوض إليه، ملتمس منه أن يتولى أموره، فهو رضا واختيار، وتسليم واعتماد. فالتوكل يندرج في التسليم. وهو والتسليم يندرجان في التفويض. والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَم. <sup>(١)</sup>

### المبحث الثاني: التوكل واتخاذ الأسباب

التوكل الذي أمر به القرآن والسنة لا ينافي رعاية الأسباب التي أقام الله عليها نظام هذا الكون وأجرى عليها سنته ومضت بها أقداره وحكم بها شرعه.

قال القرافي: "التوكل هو اعتماد القلب على الله تعالى فيما يجلب من خير أو يدفعه من ضرر أي سواء كان مع ملابسة الأسباب أو مع عدم ملابستها نعم قال المحققون والأحسن ملابسة الأسباب مع التوكل للمنقول والمعقول.

أما المنقول فإن الله تعالى قد أمر بملابسة أسباب بالاحتياط والحذر من الكفار في غير ما موضع من كتابه العزيز، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال: ٦٠]، فأمر بالاستعداد وأمر باكتساب التحرز من الشيطان كما يتحرز من الكفار بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] أي تحرزوا منه مع الأمر بالتوكل في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [ابراهيم: ١٢].

وقد كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو سيد المتوكلين يطوف على القبائل ويقول: "من يعصمني حتى أبلغ كلام ربي". وكان له جماعة يحرسونه من العدو حتى نزل



قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] ودخل مكة مظاهرا بين درعين من الحديد في كتيبته الخضراء. وكان في آخر عمره وأكمل أحواله مع ربه تعالى يدخر قوت سنته لعياله. وروى الترمذي عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: "اعقلها وتوكل." <sup>(١)</sup> أي شد ركة ناقتك مع ذراعها بحبل واعتمد على الله. <sup>(٢)</sup>

يقول أبو القاسم القشيري في رسالته:

"واعلم أن التوكل محله القلب والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بعد ما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى فإن تعسر شيء فبتقديره وإن اتفق فبتيسيره." <sup>(٣)</sup>

واستدل لذلك بالحديث المشهور عن أنس بن مالك قال: جاء رجل على ناقة له، فقال: يا رسول الله، أَدْعُهَا وَتَوَكَّلْ؟ أَوْ أُرْسِلْهَا وَتَوَكَّلْ؟

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اعقلها وتوكل. <sup>(٤)</sup>

وهذا نص صريح حاسم في مراعاة الأسباب وأنها لا تنافي التوكل.

(١) حديث أنس أخرجه الترمذي (٦٦٨/٤) رقم ٢٥١٧) واستغربه، ولكن له شاهد من حديث عمرو بن أمية الضمري أخرجه ابن حبان في صحيحه (٥١٠/٢) رقم ٧٣١) والحاكم في المستدرک (٧٢٢/٣) رقم ٦٦١٦) بلفظ قيدها وتوكل، وقال الذهبي: سنده جيد. وأوردها الهيثمي في المجمع (٣٠٣/١٠) وقال: أخرجه الطبراني من الطرق ورجال أحدها رجال الصحيح غير يعقوب بن عبد الله بن أمية الضمري وهو ثقة.

(٢) الفروق، للقرافي (٣/ ٢٤١)، الإمام شهاب الدين أبي العباس الصنهاجي القرافي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م

(٣) الرسالة القشيرية، تحقيق د. عبد الحليم محمود ومحمود بن الشريف (١/ ٣٦٨).

(٤) سبق تخريجه ص ٦٠





وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماسا وتروح بطانا"<sup>(١)</sup> وفيه إشارة إلى التسبب، لأنه لم يضمن لها الرواح بطانا إلا بعد أن غدت خماسا، والغدو حركة وانتشار.

وأحاديثه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في الدعوة إلى العمل والكسب الحلال، عن طريق الزرع والغرس والصناعة والتجارة والاحتراف -ولو بالاحتطاب- كثيرة وشهيرة. وحسبنا منها قوله: "ما أكل أحد طعاما قط خير من أن يأكل من عمل يده، وأن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده."<sup>(٢)</sup>

وحديثه الآخر: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها."<sup>(٣)</sup>

وقد رأيناه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعد العدة ويهيء الأسباب في غزواته وسراياه ويتخذ الاحتياطات اللازمة لسلامة جيشه والمحافظة على جنوده، ويبعث العيون والطلائع لمعرفة أخبار الأعداء، والتعرف على نقاط الضعف عندهم. وهذا بين لمن قرأ سيرته، ودرس مغازيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومن روائع ما قرأناه في سنته وسيرته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الأخذ بالأسباب، استخدامه "أسلوب الإحصاء" منذ وقت مبكر من إقامة الدولة الإسلامية، أي بعد الهجرة إلى المدينة. وقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٠ رقم ٢٠٥، ١/ ٥٢ رقم ٣٧٠) الترمذي (٤/ ٥٧٣ رقم ٢٣٤٤) وابن ماجه (٢/ ١٣٩٤ رقم ٤١٦٤) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٧٣٠ رقم ١٩٦٦)

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٩١ رقم ١٣٠٠٤) والبخاري في الأدب المفرد (١/ ١٦٨ رقم ٤٧٩) عن أنس بسند صحيح.



قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: "احصوا لي كم يلفظ بالإسلام" (١) حتى لفظ "الإحصاء" استعمالها.

وفي رواية البخاري في صحيحه أنه قال: "اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس". قال حذيفة: فكتبنا له ألفا وخمسة مائة رجل. (٢)

وليس هذه سنته ﷺ فقط بل هي سنة رسل الله وأنبيائه من قبله.

فهذا نوح عليه السلام يصنع الفلك كما أمره الله تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾ [هود: ٣٧] لتكون أداة الإنقاذ له وللمن آمن معه إذا جاء الطوفان، وكان في قدرة الله أن يحجز الماء عنه وعن من معه، أو أن يحملهم فوق الماء بغير سفينة، ولكن الله أراد أن يعلم أن قدرته تعمل من خلال الأسباب التي أوجدها أيضا. قال تعالى: عن نوح ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ ۝ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ۝ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ الْأَوَاجِ وَدُسِّرَ ۝ فَجَرَيْنَا بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١٠-١٤].

وهذا يعقوب عليه السلام يقول ليوסף بعد أن ذكر له رؤياه: ﴿قَالَ يَبْنَئِي لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥] ونراه بعد ذلك يخاف العين على بنيه عند توجههم إلى مصر، فيوصيهم قائلا: ﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۖ إِنَّ الْحَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [يوسف: ٦٧]. وسواء أكان يخشى عليهم العين - كما قيل - أو يخشى أمرا آخر يتعلق بالسياسة، فقد أعطى

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٣١ رقم ١٣٩)

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١١٤ رقم ٢٨٩٥)



الأسباب حقها وترك النتائج لله تعالى، ولحكمه الكوني في الخلق وهنا يكون التوكل حقا: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وهذا يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ يضع لإنقاذ مصر من القحط والمجاعة خطة خمس عشرية، وقام هو على تنفيذها، وأساسها زيادة الإنتاج في سنوات الخصوبة السبع، مع تقليل الاستهلاك، وخزن القمح في سنبله ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧] ثم الاستهلاك بقدر وحساب من المخزون خلال سنوات الجذب بحيث يكفي السبع الشداد كلها كما أشار إلى ذلك القرآن: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُخْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]. وفي قوله تعالى ﴿مَا قَدَّمْتُمْ﴾ يفيد أن الاستهلاك مقدر ومحسوب، مثل التوزيع بالبطاقات ونحو ذلك، وفي قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُخْصِنُونَ﴾ إشارة إلى استبقاء بعض الحبوب لتستخدم بذورا عندما يجيء الغيث ويبعث الله الماء وإلا لم يكن للماء فائدة إذا انعدمت البذور.

وقد قام يوسف بهذه المهمة ونجى الله على يديه مصر وما حولها من البلاد ببركة هذا التخطيط المحسوب، ولا يضير ذلك إن كان أساسه رؤيا صادقة، فالمهم أن الرؤيا أفادت علما بمشكلة وأزمة فطلبت حلا. وكان خطة يوسف هي الحل ولم يكن في ذلك ما ينافي التوكل على الله. كيف وقد قام عليه نبي مرسل وسجله الله في أعظم كتبه.

وهذا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين سار بأهله من مدين، راجعا إلى مصر آنس من جانب الطور نارا فقال لأهله: ﴿امْكُتُوا إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا أَعْلَىٰ عَاتِيكُمْ مِّنْهَا مَخْبِرٌ أَوْ جَذْوَةٌ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩] وسعى إلى موضع النار ولم يجلس حتى يأتيه الخبر أو الجذوة اتكالا على الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.



ونجده عَلَيْهِ السَّلَامُ حين سار ومعه فثاه ليلقى العبد الصالح عند مجمع البحرين يصحب معه زاده وغداه ويقول لفتاه: ﴿إِنَّا عَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]. وحين أمره الله بالخروج من مصر قال له: ﴿فَأَسْرِ بِعَبَادِي لَيْلًا إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣] وذلك ليكون الليل ستارا له من فرعون وملئه.

ويحدثنا القرآن عن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقول: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِيَكُمْ مِنْ بِأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٨٠] ويقول: ﴿وَالْتَأَ لَهُ الْحَدِيدَ ۝ أَنْ أَعْمَلَ سَيْغَتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرَدِ ۝﴾ [سبأ: ١٠، ١١] فعمله في صناعة الدروع السابغات التي تحصن لابسيها وتحفظهم من بأس العدو وضرباته ولم ير القرآن عمل داود هذا مناقضا للتوكل على الله.

وقد أمر الله تعالى الصديقة البتول مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ أن تهز بجذع النخلة ليتساقط عليها الرطب رعاية للأخذ بالأسباب ظاهرا وإن كان الأمر كله آية وكرامة لمريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، قال تعالى: ﴿وَهَزَى إِلَيْكَ الْجَذْعَ النَّخْلَةَ تَسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٦-٢٥].

والقرآن يأمر المؤمنين من أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١]،

ويقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

جاء عن ابن عباس أن ناسا من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون. فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾... [البقرة: ١٩٧] الآية.



استدلالات مردودة

فقد استدلوها هنا بموقف الخليل إبراهيم حين ألقى في النار فسأله جبريل: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.<sup>(١)</sup> فاعتبروا هذا إعراضا عن الأسباب. والحق أن هذه القصة لم يصح بها سند ولو صحت فالواضح أن الأسباب هنا قد انقطعت، ولم يبق إلا الله وحده، وتوسيط جبريل هنا لا ضرورة له، فعلم الله تعالى بحال الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ يغني عن توسيط جبريل. وكفى الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لم يفتأ منذ ألقى في النار يقول: حسبي الله ونعم الوكيل. وهذا ما جاء في الصحيح عن ابن عباس.<sup>(٢)</sup>

واستدلوا بموقف آخر للخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ حين ترك هاجر وابنها إسماعيل بواد غير ذي زرع وترك عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء فلما تبعته هاجر وقالت له: إلى من تدعنا؟ قال: إلى الله. قالت: رضيت بالله.<sup>(٣)</sup> وهذا كان يفعله بأمر الله ووحيه كما قال الحافظ ابن رجب.<sup>(٤)</sup>

وفي رواية لهذه القصة في البخاري: أن إبراهيم حين ترك أم إسماعيل وابنها وقفى منطلقا تبعته فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها، فقالت: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لن يضيعنا، ثم رجعت.<sup>(٥)</sup>

(١) ذكره الطبري في تفسيره (٤٥/١٧)، وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٩/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢٠/١)

(٢) أخرجه البخاري (١٦٦٢/٤) رقم ٤٢٨٧

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء عن ابن عباس موقوفا، وفيه بعض كلمات مرفوعة (٣٣٦٥).

(٤) انظر جامع العلوم والحكم (٥٠٣/٢) - طبع الرسالة. بتحقيق الشيخ شعيب الأرناؤوط.

(٥) هذه الرواية في البخاري أيضا عن ابن عباس برقم (٣٣٦٤).



وما كان بأمر الله ووحيه يجب أن يطاع تعبدًا، ولو لم يعرف وجهه ومعناه. كأفعال الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولكن لا يقاس عليها، فلو أن رجلا وضع امرأته وطفلها الرضيع في بركة وتركهما كان مسيئًا.

#### متى تزدم الأسباب؟

إنما تزدم الأسباب إذا تعلق القلب بها وحدها، وجعل كل اعتماده عليها ونسي مسببها وخالقها وجهل أن الأسباب لا تعمل وحدها. فربما أهمل سببا بعيدا أو خفيا، أو أغفل شرطا لازما، أو كان هناك مانع قوي يعوق سببه ويبطل تأثيره. فإنه إذا بذر الحبة في الأرض الخصبة وتعهدتها بالري والتسميد ونحو ذلك، لا يملك تعهد البذرة في أعماق التربة، ولا يملك تصريف الرياح ودرجات الحرارة والبرودة التي تؤثر فيها ولا الآفات السماوية التي يمكن أن تحيق بها، فلا يملك المؤمن هنا إلا أن يقول بعد سببه واجتهاده: نبذر الحب ونرجو الثمر من الرب.

وقد ذكر القرآن نموذجا من الاعتماد على الأسباب الظاهرة وحدها فإذا هي لا تحقق نتائجها وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

لقد خذلوا وهم كثرة حيث غرهم الكم وأذهلهم عن التوكل، على حين انتصروا وهم قلة، إذ كان اعتمادهم على الله وحده، بعد أن بذلوا ما استطاعوا.

#### ما تعجز عنه الأسباب تكمله القدرة الإلهية

وثمره التوكل هنا أن المتوكل على الله حين يقدم من الأسباب التي أمر بها ما يقدر عليه ويدخل في وسعه تكمل القدرة الإلهية العليا ما يعجز عنه ولا يدخل في وسعه.



انظر إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد أوحى الله إليه ﴿فَأَنصِرْ عِبَادِيَ لَيْلًا إِنَّكُمْ مُّتَّبِعُونَ﴾ [الدخان: ٢٣] فخرج بقومه في جنح الليل فارين من فرعون وملئه متجهين ناحية البحر. والظاهر إنه خليج السويس. وشعر فرعون وجنوده بخروجهم فاتبعوهم مشرقين، يريدون أن يفتكوا بهم. فهم يملكون العدد والعُدَد مع الغيظ والغضب، قالوا: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِطُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَازُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤-٥٦]، ﴿فَلَمَّا تَرَأَ الْجُمُعَانَ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ۝ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١، ٦٢].

لقد نظر أصحاب موسى إلى الأسباب وحدها، فقالوا: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ سيدركنا فرعون وجنوده وينكلون بنا ولا طاقة لنا بهم ولا نجاة لنا منهم فالبحر أماننا وهم من خلفنا.

ولكن كليم الله موسى لم يقف عند ظواهر الأسباب، بل رنا ببصيرته إلى ما هو أعلى منها إلى خالق الأسباب وواضع السنن. وقد هداه الله إلى المخرج من المأزق بأمر لم يكن في حسبان أحد ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فَرَقٍ كَالطُّودِ الْعَظِيمِ ۝ وَأَزَلْنَا ثَمَرَ الْأَخْرِي ۝ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ۝ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْأَخْرِي ۝ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۝﴾ [الشعراء: ٦٣-٦٧].

هذه هي ثمرة التوكل إذا انقطعت الأسباب.

وانظر إلى الرسول محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الهجرة كيف أخذ بكل الأسباب الممكنة للبشر، خطط فأحكم التخطيط، رتب فأحسن الترتيب، وأعد لكل أمر عدته المناسبة، ومع ذا كله، استطاع قومه أن يصلوا إلى الغار وأن يتوقفوا عنده وهو ما جعل أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول مشفقا على مصير الدعوة، إن مس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ



سوء: يا رسول الله لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا! فيرد النبي ﷺ قائلا:  
يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ أو كما قال تعالى: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾  
[التوبة: ٤٠].







## الفصل الخامس: صور من التخطيط المستقبلي في الإسلام

إن هدي الإسلام في بناء المستقبل لم يقتصر على تقديم التصورات والتوجيهات والإرشادات لبناء المستقبل، بل قدم الإسلام أيضا نماذج عملية في وضع الخطط لبناء المستقبل المنشود. وهذا الموضوع حقه أن يفرد له كتاب مستقل ولكننا في هذه العجالة نكتفي ببعض الأمثلة لتدل على معالم هذا الموضوع.

### المبحث الأول: خطة الأمن الغذائي

من روائع القصص القرآنية قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، لأنها قصة مليئة بالدروس والفوائد العلمية والعملية. ومن تلك الفوائد المهمة ما وضعه يوسف للشعب المصري من خطة تنقذهم من المجاعة المهلكة. لننظر ماذا فعل نبي الله يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام لما تلقى معلومات عن أحداث ستقع بواسطة رؤيا. لم تكن هناك معلومات جاهزة عن الإجراءات التي يجب أن تتخذ. وإنما قال صاحبه: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصَّبِيُّ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]

فسر أولا الرؤيا وحلّل هذه المعلومات الأولية. ثم خلص بنتيجة أنه سيكون جذب لسبع سنوات بعد سبع سنوات قادمة. لم يكتف يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَام بإخبار ما سيقع، ثم يترك التصرف لارتجال الناس. بل وضع خطة للخروج من المأزق القادم. ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعَصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٧-٤٩]



فاستثمر المعلومات التي تفيد أن الأزمة ستقع بعد سبع سنوات، إذن تكون هناك فرصة سبع سنوات للاستعداد لمواجهة تلك الأزمة. فأمرهم بالسعي لتحقيق الاحتياطي من الغذاء لمدة الجذب القادمة. ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾.

ثم طرح خطة التقشف حتى لا تستهلك كل إنتاجات السبع السنوات: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]. وأمر أن يترك الحب في سنبله حتى لا يسري إليه التسوس.<sup>(١)</sup> فيأمر أن يستهلك الغذاء بقدر الحاجة ويستودع الباقي للاحتياط.

وهكذا نجحت خطة يوسف في إنقاذ الشعب المصري من المجاعة الوشيكة. لقد كان من علم يوسف أن هذه الأزمة لا تستمر أكثر من سبع سنوات، ثم يأتي بعد ذلك عام الخصبة ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِشُونَ﴾ [يوسف: ٤٩]. لم يكن يتكل على ذلك. بل سعى إلى وضع خطة للخلاص من التحديات القادمة.

#### المبحث الثاني: التخطيط لإيجاد قاعدة الدعوة الجديدة

إن رسول الله ﷺ كان يمارس حياته بحسن التدبير وبعد النظر وإحكام الخطة. لم يكن ﷺ مرتجلاً في خطواته. لقد كان عنده تصور واضح لمستقبله. لقد عرف أن مهمته إبلاغ الرسالة الخاتمة إلى الناس كافة، فكان يضع تدابير تحقق هذه المهمة مع ما يواجهه ﷺ من معوقات وتحديات.

فمن شواهد خطته المحكمة تحرُّكه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ للبحث عن قاعدة دعوته إلى الله. أنه لما رأى ﷺ أن الوضع في مكة لم يسعف في انتشار الدعوة،

(١) انظر تفسير القرطبي (١٨٥/٥)



فكر في قاعدة جديدة تنطلق منها حركته الدعوية، فقال لأصحابه: "لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه." (١)

لم تكن هذه الخطوة مجرد الفرار من المشاكل بقدر ما تمثل خطوة استراتيجية لإنقاذ الدعوة. لذلك هاجر من المسلمين أصحاب الوجاهة والقوة والمنعة أمثال جعفر بن أبي طالب، وعثمان بن عفان وأبي سلمة المخزومي.

وقال سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: "ومن ثم كان يبحث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة وتكفل لها الحرية، ويتاح فيها أن تتخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة. وهذا في تقديري كان هو السبب الأول والأهم للهجرة. ولقد سبق الاتجاه إلى الحبشة حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل. والقول بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم لا يستند إلى قرائن قوية. فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس وجاهة وقوة ومنعة من المسلمين. غير أن الأمر كان على الضد من هذا. فالموالي المستضعفين الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا. إنما هاجر رجال ذوو عصبية، لهم من عصبيتهم في بيئة قبلية ما يعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة. وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين." (٢)

(١) سيرة ابن هشام (٢٤٣/١)، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ، السيرة النبوية لابن

كثير (٣/٢)، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، دار إحياء التراث العربي، بيروت

(٢) في ظلال القرآن (٢٩/١)



قال منير غضبان: "وهذه اللفتة العظيمة من سيد رَحْمَةُ اللَّهِ لها في السيرة ما يعضدها ويساندها. وأهم ما يؤكددها في رأيي هو الوضع العام الذي انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة. فلم نعلم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة حتى مضت هجرة يثرب وبدر وأحد والخندق والحديبية. لقد بقيت يثرب معرضة لاجتياح كاسح من قريش خمس سنوات. وكان آخر هذا الهجوم والاجتياح في الخندق. وحين اطمأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أن المدينة قد أصبحت قاعدة آمنة للمسلمين، وانتهى خطر اجتياحهم من المشركين، عندئذ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة، ولم يعد ثمة ضرورة لهذه القاعدة الاحتياطية التي كان من الممكن أن يلجأ إليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لو سقطت يثرب في يد العدو." (١)

لقد كان بإمكانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يدعو ربه بإهلاك هؤلاء الذين صدوا دعوته وعذبوا أصحابه، أو يسأل ربه أن ينجيهم وقومه بخارقة كما حدث مع موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولكن أرادت حكمة الله تعالى أن تكون حياة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حياة طبيعية ونصره على أعدائه نصرا مؤسسا على جهد بشري مع الاعتماد على الله والالتجاء إليه. وهكذا شرعه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهكذا حياته، وهكذا دعوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فإن مسيرة الأمة المحمدية ستكون طويلة تحتاج إلى زاد ثري من التجارب والقدرات حتى تتمكن من معالجة كل الإشكاليات التي تعترضها في مسيرتها الحضارية الطويلة.

لم يكتف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتلك القاعدة النائية في الحبشة، التي تنعزل عن مراكز التأثير، وتبعد عن البيئة العربية التي أريد أن تكون منطلق دعوة القرآن العربي

(١) المنهاج الحركي في السيرة النبوية (١/ ٦٧، ٦٨) منير غضبان، مكتبة المنار، الأردن، الطبعة



والنبي العربي ﷺ. فكان ﷺ يطوف بين القبائل يعرض دعوة الله عليها ويبحث عن قوم ذوي منعة وقوة يحمون الدعوة وينشرون الرسالة.

عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: مكث رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين يتبع الناس في منازلهم بعكاظ ومجنة وفي المواسم بمنى، يقول: "من يؤويني، من ينصرني، حتى أبلغ رسالة ربي وله الجنة؟" (١)

هكذا عشر سنوات يطلب من يؤويه وينصره حتى يتمكن من دعوة الناس. أي أنه بدأ هذا السعي للبحث عن مكان آخر للدعوة منذ بداية الدعوة، لما وجد أن قومه صدوه وبذلوا كل الإمكانيات لإجهاض الدعوة.

وكان يستغل فرصة اجتماع القبائل في الموسم. ولم يمنعه إصرار قومه على منعه.

قال جابر يواصل حديثه: حتى أن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر - كذا قال - فيأتيه قومه فيقولون: احذر غلام قريش لا يفتنك! ويمشي بين رجالهم وهم يشيرون إليه بالأصابع.

حتى بعثنا الله إليه من يثرب. فأويناه وصدقناه. فيخرج الرجل منا فيؤمن به، ويقرئه القرآن، فينقلب إلى أهله، فيسلمون بإسلامه حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين، يظهرون الإسلام، ثم اتتمروا جميعا.

فقلنا: حتى متى نترك رسول الله ﷺ يطرد في جبال مكة، ويخاف؟

فرحل إليه منا سبعون رجلا. حتى قدموا عليه في الموسم. فواعدناه شعب العقبة. فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين، حتى توافينا.



فقلنا: يا رسول الله، نبايعك!

قال: "تبايعوني على الطاعة في النشاط والكسل والنفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة."

قال: فقمنا إليه فبايعناه. وأخذ بيده أسعد بن زرارة بينها وهو من أصغرهم.

فقال: رويدا يا أهل يثرب! فإننا لم نصرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف! فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبيته. فبينوا ذلك فهو عذر لكم عند الله!

قالوا: يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة أبدا! ولا نسلبها أبدا!

قال: فقمنا إليه فبايعناه فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة.<sup>(١)</sup>

هكذا اجتمع سعي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدؤوب ونفسه الطويل بحماسة شباب الأنصار وشجاعتهم.

لقد أنتج هذا النظر البعيد والنفس الطويل منه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثمارا طيبة، فزرقه الله أنصارا مخلصين وأتباعا صادقين لم يشهد التاريخ البشري على الإطلاق أنصارا لفكرة أحسن وأخلص من هؤلاء. نسأل الله تعالى أن يجمعنا بهم ويوفقنا لسلوك دربهم المبارك. آمين يا مجيب الدعوات ويا واسع الرحمات.



### المبحث الثالث: خطة الهجرة إلى المدينة

من أعظم الأمثلة في اعتماد الخطة المحكمة في سيرة النبي ﷺ ما قام به النبي ﷺ في إعداده للهجرة إلى المدينة. وإن من تأمل حادثة الهجرة ورأى دقة التخطيط فيها ودقة الأخذ بالأسباب من ابتدائها إلى انتهائها ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة رسول الله ﷺ كان قائماً وأن التخطيط جزء من السنة النبوية وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طوّل به المسلم وأن الذين يميلون إلى العفوية بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السنة أمثال هؤلاء مخطئون ويجنون على أنفسهم وعلى المسلمين.<sup>(١)</sup>

وقد برز عنصر التخطيط في هذه الهجرة وأهمية ذلك في حياة المسلمين، فكان الهدف محدداً والوسائل محددة والعقبات مأخوذة بالحسبان واختيار الطرق والمكان والتموين ومن يحمل الأخبار والدليل؛ كل ذلك مؤمن، مع إحاطة ذلك بالسرية والحيلة والحذر وكل ذلك ينبئ عن تخطيط وتنظيم وترتيب لا مثيل له.<sup>(٢)</sup>

### الخطة والخطة المضادة

يجب على المسلمون أن يضعوا خطة لنصرة الدين كما أن أعداء الله لم يألوا جهداً في وضع خطة لمحاربة الدين. فقد بذل أعداء الإسلام قناطير مقنطرة لوضع خطة محكمة للصد عن سبيل الله، فمن التقصير والتفريط ألا يكون للمسلمين خطة مضادة لخطة الأعداء، وأن يستسلموا لتفوقهم في وضع الخطة، وذلك من العجز المذموم الذي نهى الله عنه ورسوله.

(١) الأساس في السنة (١/٣٥٧)

(٢) المصدر السابق (١/٣٥٨)



وكانت الهجرة النبوية المباركة مثالا ناصعا في مقابلة خطة بخطة مضادة، وكانت خطة الإسلام تفوقت على خطة أعدائه بفضل الله تعالى. قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]

وقد اجتمع كفار قريش للمشاورة في شأنك بدار الندوة ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي يوثقوك ويحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ كلهم قتلة رجل واحد ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ من مكة ﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ بك ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ بهم بتدبير أمرك بأن أوحى إليك ما دبروه وأمرك بالخروج ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ﴾ أعلمهم به.<sup>(١)</sup>

لقد كانوا يمكرون ليوثقوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويحبسوه حتى يموت؛ أو ليقتلوه ويتخلصوا منه؛ أو ليخرجوه من مكة منفيا مطرودا.. ولقد ائتمروا بهذا كله ثم اختاروا قتله؛ على أن يتولى ذلك المنكر فنية من القبائل جميعا؛ ليتفرق دمه في القبائل؛ ويعجز بنو هاشم عن قتال العرب كلها، فيرضوا بالدية وينتهي الأمر!<sup>(٢)</sup>

ونجحت الخطة المضادة لتلك الخطة! فقد امتن الله على المؤمنين بتسجيل هذا الحدث ونجاح الخطة وأثبتته في القرآن كشاهد من شواهد نصر الله لرسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. قال تعالى: ﴿...فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]

(١) تفسير الجلالين: ٢٢٢

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ٣٩٣)





### ملاحق دقة التنظيم وإحكام الخطة في حادثة الهجرة

لقد قام النبي ﷺ بوضع خطة محكمة ودبرها بشكيل دقيق، ويظهر ذلك في بعض التفاصيل الآتية:

- كان يأتي بيت أبي بكر في ساعة الظهيرة في شدة الحر على غير عادته حتى لا يراه أحد.

- وكان يأتي متلثما ليخفي شخصيته.

- وكان يأمر بإخراج من في البيت قبل البدء في الحديث عن خطة الهجرة مع أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- ثم خرج ليلا من الباب الخلفي من بيت أبي بكر.

- واتخذ الطرق غير المألوفة للخروج من مكة إلى المدينة واستعان بصاحب الخبرة في هذه الطرق وهو عبد الله بن عريقط.

- وانتقى شخصيات عاقلة في أداء أدوار مختلفة وكلهم أهلا للثقة ويجمعهم قرابة شديدة.

- وضع كل فرد في عمله المناسب، فهناك من يعد الطعام ويوصله في وقت مناسب، وهناك من يمسح آثار التحرك بين البيت والغار، وهناك من يدل على الطرق الملتوية غير المعروفة، وهكذا، كل أحد من هؤلاء يجيد أداء مهامهم.

- ومن الخطة الذكية أيضا تمويه الكفار بوجود النبي ﷺ في بيته، أثناء هذه التحركات، فأمر علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمبيت والنوم في فراش النبي ﷺ لهذا الغرض.<sup>(١)</sup>

(١) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، د. علي الصلابي، ص ٢٧٩-٢٨٠



فكل هذه السلسلة من الإجاءات تعطينا نموذجا واضحا لهدي الإسلام في اتخاذ الأسباب واعتماد الخطة.

#### المبحث الرابع: جمع المعلومات ورصد الأخبار

وقد كان من هديه ﷺ أن يستطلع الأخبار لتكون خطواته مبنية على معلومات دقيقة. ومن أوضح الأمثلة على ذلك. ما قام به في غزوة الأحزاب. وكان في هذه الحرب أن الله قد أخبر مسبقا أنه سيفتح عليه الشام وفارس واليمن وبالتالي انتصاره على الأحزاب العربية أمر مؤكد بدون شك. إلا أنه مع ذلك يرسل من يستطلع أحوال أعدائه زيادة على معلومات مجملة عن الانتصار العام. لأن امتلاك المعلومات من أهم عوامل التفوق ومن أخطر أسباب الانتصار.

حكى حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذه الحادثة فقال: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب. وأخذتنا ريح شديدة وقر.

فقال رسول الله ﷺ: "ألا رجل يأتيني بخبر القوم؟ جعله الله معي يوم القيامة."

فسكتنا، فلم يجبه منا أحد.

ثم قال: "ألا رجل يأتينا بخبر القوم؟ جعله الله معي يوم القيامة."

فسكتنا فلم يجبه منا أحد.

ثم قال: "ألا رجل يأتينا بخبر القوم؟ جعله الله معي يوم القيامة."

فسكتنا فلم يجبه منا أحد.

فقال: قم يا حذيفة! فأتنا بخبر القوم.



فلم أجد بدا إذ دعاني باسمي أن أقوم.

قال: "اذهب فأتني بخبر القوم. ولا تدعهم علي."

فلما وليت من عنده، جعلت كأنما أمشي في حمام. حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار. فوضعت سهما في كبد القوس. فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: "ولا تدعهم علي." ولو رميته لأصبته. فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام. فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت قررت. فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عبادة كانت عليه يصلي فيها. فلم أزل نائما حتى أصبحت. فلما أصبحت قال: "قم يا نومان".<sup>(١)</sup>

وكذلك بعث طليعة أخرى إلى بني قريظة<sup>(٢)</sup> بعد ذلك. كما رواه البخاري عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال: النبي ﷺ: "من يأتيني بخبر القوم؟" يوم الأحزاب. قال الزبير: أنا.

ثم قال: من يأتيني بخبر القوم؟

قال الزبير: أنا.

فقال النبي ﷺ: "إن لكل نبي حواريا وحواري الزبير."<sup>(٣)</sup>

ثم بنى رسول الله ﷺ رؤيته المستقبلية على تلك المعلومات وتحليلها. فخلص رسول الله صلى عليه وسلم إلى أن ميزان القوى تتأرجح لصالح المسلمين فيتمكنون من مبادرة الأعداء بالهجوم. لقد انتقلت المرحلة من مرحلة الدفاع

(١) أخرجه مسلم (٣/١٤١٤ رقم ١٧٨٨)

(٢) انظر فتح الباري (٥٣/٦)

(٣) أخرجه البخاري (٣/١٠٤٦ رقم ٢٦٩١)



ومجرد الحفاظ على كيان الدعوة إلى مرحلة الهجوم ومحاولة توسيع دائرة التأثير. وفتح نوافذ جديدة لانطلاق الدعوة. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم."<sup>(١)</sup>

ولا يقتصر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ممارسة التخطيط والتدبير على الشؤون العامة فقط، بل كان كذلك يضع تدابير لقوت أهله أيضا. فقد روى البخاري عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَبِيعُ نَخْلَ بَنِي النَّضِيرِ وَيَحْبِسُ لِأَهْلِهِ قُوتَ سِتِّهِمْ.<sup>(٢)</sup>

فكان التوكل عنده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس رفضا للأسباب وإنما هو عدم الركون إليها والاعتماد عليها، وهو سيد المتوكلين.

#### المبحث الخامس: التشريعات الاستباقية للأجيال القادمة

ثم كان من نظرة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ البعيدة أن شرّع تشريعات ذات طابع مستقبلي بعيد. فقد اتخذ تدابير تحدد مسيرة الأمة بعد وفاته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. لم يفارق الدنيا حتى وجه أصحابه إلى ما عليهم أن يفعلوه بعد مماته.

#### تهيئة الخلفاء من بعده

فكان يبرز بعض الشخصيات التي يجب أن يعتمد عليها بعده، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. روى الشيخان أن امرأة أتت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكلمته في شيء، فأمرها أن ترجع إليه.

(١) أخرجه البخاري (١٥٠٥/٤) رقم ٣٨٨٤

(٢) أخرجه البخاري في كتاب النفقات باب حبس نفقة الرجل قوت سنة (٥/٢٠٤٨) رقم ٥٠٤٢



قالت: يا رسول الله أرأيت إن جئت ولم أجدك؟

كأنها تريد الموت.

قال: "إن لم تجديني فأني أبا بكر".<sup>(١)</sup>

وكان كذلك يخبر أصحابه بدور أبي بكر وعمر بعد وفاته.

فعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: أرأيت كأني أنزع بدلوك بكرة على قلب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوبا أو ذنوبين، فنزع نزعاً ضعيفاً، والله تبارك وتعالى يغفر له، ثم جاء عمر، فاستقى فاستحالت غرباً، فلم أر عبقرياً من الناس يفري فريه، حتى روى الناس وضربوا العطن.<sup>(٢)</sup>

ثم لما حضرته الوفاة أراد أن يوصي أصحابه برجل يكون خليفة بعده، لكن ترك الأمر لاطمئنانه أن المسلمين قد عرفوا مكانة أبي بكر وكفاءته، فلن يختاروا غير أبي بكر. فكان كما توقع. ﷺ.

عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: "ادعي لي أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتاباً فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل أنا أولى. ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر."<sup>(٣)</sup>

(١) أخرجه البخاري (٣/١٣٣٨) رقم ٣٤٥٩، ٦/٢٦٣٩ رقم ٦٧٩٤، ٦/٢٦٧٩ رقم ٦٩٢٧ ومسلم

(٤/١٨٥٦) رقم ٢٣٨٦

(٢) أخرجه البخاري (٣/١٣٢٩، ١٣٤٥، ١٣٤٧) ومسلم (٤/١٨٦٢) واللفظ له.

(٣) أخرجه مسلم (٤/١٨٥٧) وابن حبان (١٤/٥٦٤) والحاكم (٣/٥٤٢) والطبراني في الأوسط

(٥/٢٣، ٦/٣٤٠)



### تجهيز جيش للحد من خطر قادم

وكان يُعدّ إرسال الجيش لمقارعة الروم وهو في فراش الموت صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فعن أبي جعفر محمد بن علي بن حسين عن أبيه عن جده أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أوصى عند موته بثلاث: "أوصى أن ينفذ جيش أسامة، ولا يسكن معه المدينة إلا أهل دينه." قال محمد: ونسيت الثالثة.<sup>(١)</sup>

وفي الطبقات الكبرى روى ابن سعد بسنده إلى عروة بن الزبير قال: "ومرض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فجعل يقول في مرضه: "أنفذوا جيش أسامة! أنفذوا جيش أسامة!"<sup>(٢)</sup>

لقد أكد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا الأمر لبعده الإستراتيجي لأن هذا يضمن استمرار حركة الدعوة في التمدد والتوسع، لما يكتنفه هذا الإجراء من ظروف لم يمر بالمسلمين مثلها خاصة أن رسول الله عليه وسلم اشتد مرضه. ولكن عزم الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعزم خليفته الأول تغلب على كل تلك الصعوبات.

وكان من بُعد النظر التخطيطي للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أيضا أن يأمر بإخلاء جزيرة العرب من أي دين غير الإسلام.

روى الإمام مالك في موطئه بسنده عن عمر بن عبد العزيز كان من آخر ما تكلم به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن قال: "قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، لا ييقين دينان بأرض العرب."<sup>(٣)</sup>

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣/ ١٣٠ رقم ٢٨٩١) والوصية الثالثة هي "أن أجزى الوفد بنحو ما

كنت أجزيه" كما في رواية مسند الإمام أحمد (١/ ٢٢٢ رقم ١٩٣٥)

(٢) الطبقات الكبرى (٤/ ٦٧)

(٣) الموطأ (٢/ ٥٩٢ رقم ١٥٨٣)



### المبحث السادس: النظرة الاستشرافية والرؤية الاستراتيجية

ومن عظمة هذا الدين وتمام نوره اشتماله على النظرة المستقبلية البعيدة والرؤية الاستراتيجية الدقيقة. فإن استشراف المستقبل الإسلامي يقوم على الوعي بقضايا الواقع ومآلاته القريبة والبعيدة.

#### الاهتمام بقضايا "جيئو سياسية"<sup>(١)</sup> في فاتحة سورة الروم

من ذلك ما تكنه بداية سورة الروم من الإشارات، فهي تتفرد بذكر حدث تاريخي على غير عادة القرآن، وأن وراء هذا الحدث إرهابات مستقبلية مهمة.

قال تعالى: ﴿عَلَبَتِ الرُّومُ ١ فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَاعِلُونَ ٢ فِي بَضْعِ سِنِينَ ٣ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ٤ بَنَصْرِ اللَّهِ بِنَصْرٍ مِنْ يَشَاءُ ٥ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ٦ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٧ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ ٨﴾

[الروم: ٢، ٧]

إن جعل الله هذا الخبر يتقدم هذه السورة فيه أسرار كثيرة تتعلق برؤية مستقبلية وقضايا دولية يقوم المسلمون فيها بأدوار مهمة.

فهذه الآيات تشير -أولاً- إلى أهمية الحدث. إن بعثة الرسول ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جاءت في وقت كانت السيطرة العالمية بيد الروم والفرس، فكل حدث متعلق بصراع الهيمنة بينهما كان له أثر مباشر وغير مباشر في مسيرة الدعوة.

(١) الجيئو سياسية تعريب من مصطلح إنجليزي geopolitics يدل على الروابط والعلاقات السببية بين السلطة السياسية والحيز الجغرافي، في شروط محددة. (انظر الموسوعة الحرة ويكي بيديا: مادة: "جيئو سياسية").



وثانيا: أن الروم والفرس يتصارعان ويتنافسان على بسط السيطرة في كل أجزاء العالم، بما في ذلك الجزيرة العربية، لم يسلم أطراف الجزيرة من العراق والشام واليمن من التنازع الناجم بين هاتين القوتين، إلا أن منطقة الحجاز حماها من ذلك الاضطراب والتنازع، فبقيت مستقلة، ولكنها ضعيفة من حيث ميزان القوة المادية.

رابعا: كون الروم من أهل الكتاب من جهة، والفرس من الوثنيين من جهة أخرى، جعل المشركين ينحازون إلى الفرس، والمؤمنين ينحازون إلى الروم، وإن كان ذلك الانحياز لا ينبني عليه تحالف فعلي ولا خطوة عملية.

خامسا: نزلت السورة في الفترة المكية، وفي تلك الفترة كان المؤمنون في ضعف واضطهاد من قبل المشركين، وفي نفس الوقت كانت السيطرة للفرس على الروم، وبلغ من انتصار الفرس على الروم آنذاك إلى أن يستولي الفرس على بيت المقدس. طرد منها الروم وطردها أيضا من مصر. وذكرت كتب التاريخ تعذيب الفرس للمسيحيين في البيت المقدس. وذكرت أيضا مشاركة اليهود للفرس في ذلك.

سادسا: لم يذكر الله اسم الفرس، بل ذكر اسم الروم، رغم أنها هي المغلوبة حين نزلت السورة، والفرس هي المنتصرة. في إشارة إلى أن مستقبل الروم أطول من الفرس. وفي ذلك أحاديث عدة.

سابعا: أخبر الله بأن الروم ستنتصر، وهذا تنبؤ غريب، لا يمكن أن يقوله محلل سياسي أو خبير عسكري معتمدا على المعطيات الموجودة حينئذ. فإن هزيمة الروم حينئذ كانت هزيمة ساحقة، لم تكد للروم مقومة بقاء إلا قوة صغيرة في القرطاج وعاصمة محاصرة في القسطنطينية.





ثامنا: إخبار الله أن انتصار الروم سيأتي في بضع سنين فقط إعجاز آخر إضافة إلى الإعجاز السابق، فإن ذلك أعجوبة لا يتوقعها إلا العليم الخبير سبحانه.

تاسعا: تصديق المؤمنين لهذا الخبر والمراهنة عليه مغامرة جريئة، يدفعها الإيمان المطلق بالله تعالى وبما جاء به الرسول ﷺ.

عاشرا: رغم ضعف المؤمنين وحاجتهم إلى الدعم، لم يقم رسول الله والمؤمنون بالاتصال بإحدى تلك القوى العالمية، فإن مسيرة دعوة الإسلام مسيرة مستقلة، فهي تعتمد على الله وحده. ويتجلى ذلك الاستقلال حين رفض الرسول ﷺ مساندة بني شيبان، لما قبلوا الدعوة بشرط عدم التعرض لسيطرة الفرس. وليس هذا تحريما للتحالف مطلقا، ولكنه درس إيماني يضعه الفقيه البصير في سياقه المناسب.

حادي عشر: إن كل مرحلة لها طبيعتها وتحدياتها ومتطلباتها، كل في وقتها المناسب. لو أقحم المسلمون على الخوض في ذلك الصراع الذي هو أكبر من حجمهم وأعقد من قدرتهم على التصرف لضاع الهدف ولا نحر فوا عن الطريق.

ثاني عشر: إن الإيمان يُبقي الإنسان على معنوية عالية وأمل كبير وثقة تامة بالمستقبل المشرق، فكل المعطيات الواقعية القائمة مهما كان ظاهرها قوة أهل الشر، إلا أن الخير بيد الله، وأن أهل الخير لا يهملهم الله ولا يخذلهم. بل العاقبة للمتقين دائما.

ثالث عشر: ختم الله موضوع غلبة الروم بقوله تعالى: ﴿يَعْمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ﴾ [الروم: ٧] ليلفت أنظار المؤمنين إلى المغزى



الأهم من هذه الأحداث في الدنيا، فإن هذا المسرح العابر ليس نهاية المطاف ولا النتيجة الأخيرة لمسيرة الإنسانية، فإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون. وهكذا فإن القرآن يعلمنا هذا المستوى العالي من الوعي بقراءة الأحداث وما وراء الأحداث من التداعيات العالمية الكبرى.

### رؤية استراتيجية<sup>(١)</sup> لفتح العالم

إن الرؤية الاستراتيجية نحو الفتوحات العالمية كانت واضحة من أول مراحل الدعوة، لقد أخبر الله تعالى نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الفترة المكية عن عالمية هذا الدين وهذه الدعوة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا: ٢٨]

فليست عالمية الدعوة الإسلام فكرة عارضة أو تطور طارئ تدفعه الظروف أو تحركه الطموحات، كما صوره بعض المستشرقين. بل هو عنصر متأصل في هذا الدين، ورؤية ربانية أصيلة منذ بداية الأمر.

(١) الإستراتيجية أو علم التخطيط بصفة عامة هي مصطلح عسكري بالأساس وتعني الخطة الحربية، أو هي فن التخطيط للعمليات العسكرية قبل نشوب الحروب، وفي نفس الوقت فن إدارة تلك العمليات عقب نشوب الحروب. وتعكس الاستراتيجية الخطط المحددة مسبقاً لتحقيق هدف معين على المدى البعيد في ضوء الإمكانيات المتاحة أو التي يمكن الحصول عليها. هي خطط أو طرق توضع لتحقيق هدف معين على المدى البعيد اعتماداً على التخطيطات والإجراءات الأمنية في استخدام المصادر المتوفرة في المدى القصير. ومفهوم الاستراتيجية عموماً: هي مجموعة السياسات والأساليب والخطط والمناهج المتبعة من أجل تحقيق الأهداف المسطرة في أقل وقت ممكن وبأقل جهد مبدول. (انظر الموسوعة الحرة ويكيبيديا مادة "إستراتيجية")



وفي الفترة المدنية زاد هذا الأمر تأكيداً ورسوخاً. وكانت هذه الرؤية عاملاً من عوامل الثبات لدى المؤمنين في مواجهة الصعاب. فلما تكالب الأعداء على المؤمنين وحاصروا مدينة رسول الله ﷺ، أخبر النبي ﷺ بفتح الشام والعراق واليمن.

عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ قَالَ: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَفْرِ الْخَنْدَقِ، قَالَ: وَعَرَضَ لَنَا صَخْرَةٌ فِي مَكَانٍ مِنَ الْخَنْدَقِ، لَا تَأْخُذُ فِيهَا الْمَعَاوِلُ، قَالَ: فَشَكَّوْهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قَالَ عَوْفٌ:، وَأَحْسِبُهُ قَالَ: وَضَعَ ثَوْبَهُ ثُمَّ هَبَطَ إِلَى الصَّخْرَةِ، فَأَخَذَ الْمِعْوَلَ فَقَالَ: "بِسْمِ اللَّهِ" فَضْرَبَ ضَرْبَةً فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ،

وَقَالَ: "اللَّهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الشَّامِ! وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَبْصُرُ قُصُورَهَا الْحُمْرَ مِنْ مَكَانِي هَذَا!"

ثُمَّ قَالَ: "بِسْمِ اللَّهِ". وَضْرَبَ أُخْرَى فَكَسَرَ ثُلُثَ الْحَجَرِ.

فَقَالَ: "اللَّهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ فَارِسَ! وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَبْصُرُ الْمَدَائِنَ، وَأَبْصُرُ قُصْرَهَا الْأَبْيَضَ مِنْ مَكَانِي هَذَا!"

ثُمَّ قَالَ: "بِسْمِ اللَّهِ" وَضْرَبَ ضَرْبَةً أُخْرَى فَقَلَعَ بَقِيَّةَ الْحَجَرِ فَقَالَ: "اللَّهُ أَكْبَرُ! أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْيَمَنِ! وَاللَّهِ إِنِّي لَا أَبْصُرُ أَبْوَابَ صَنْعَاءَ مِنْ مَكَانِي هَذَا!"<sup>(١)</sup>

وكان هذا الخبر وهذا الحدث نقطة تحول فاصلة بين مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم.



فبعد أن هُزم الأحزاب وتفرقوا في غزوة الخندق، «قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الْآنَ نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ"»<sup>(١)</sup>

### الإخبار بالأحداث المستقبلية

ومما يدل على اشتغال الإسلام للرؤية المستقبلية البعيدة الإخبار المكثف عن الأحداث المستقبلية التي ستحدث بعد وفاة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

من تلك الأخبار النبوية ما رواه مسلم عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَامًا مَا تَرَكَ شَيْئًا يَكُونُ فِي مَقَامِهِ ذَلِكَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا حَدَّثَ بِهِ، حَفَظَهُ مِنْ حَفْظِهِ وَنَسِيَهُ مِنْ نَسِيهِ، قَدْ عَلِمَهُ أَصْحَابِي هَؤُلَاءِ وَإِنَّهُ لَيَكُونُ مِنْهُ الشَّيْءُ قَدْ نَسِيْتَهُ فَأَرَاهُ فَأَذْكُرُهُ، كَمَا يَذْكُرُ الرَّجُلُ وَجْهَ الرَّجُلِ إِذَا غَابَ عَنْهُ ثُمَّ إِذَا رَأَاهُ عَرَفَهُ»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي سعيد الخدري قال: «صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ، ثُمَّ قَامَ خَطِيْبًا فَلَمْ يَدْعُ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرَنَا بِهِ، حَفَظَهُ مِنْ حَفْظِهِ وَنَسِيَهُ مِنْ نَسِيهِ...» إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ<sup>(٣)</sup>.

والأحاديث في هذا الخصوص كثيرة وفيرة، سنأتي على بيان ملامح تفاصيلها لاحقاً إن شاء الله.



(١) رواه البخاري (١١٠/٥) رقم: (٤١١٠)

(٢) أخرجه مسلم (٢٢١٧/٤) رقم (٢٨٩١)

(٣) أخرجه الإمام أحمد (١٩/٣) رقم ١١١٥٩، ٦١/٣ رقم ١١٦٠٤) والترمذي (٤٨٣/٤) رقم (٢١٩١) واللفظ له والحاكم (٥٥١/٤) رقم ٨٥٤٣ وقال الترمذي: وهذا حديث حسن صحيح.



# الباب الثاني

## القناعات الهدامة للمستقبل

### الفصل الأول:

تصورات سلبية بسبب أحاديث أُسيئ فهمها وُعِيبت  
سياقاتها



### الفصل الثاني:

إشكالية نظرية عودة التاريخ



### الفصل الثالث:

توسيع دائرة البدعة







تعاني أمتنا من الأفكار التي تقتل إرادتها والتصورات التي تغتال آمالها، وما أكثر تلك الأفكار والتصورات الهدامة التي نحن بحاجة إلى محاربتها لكي نفتح أبواب العمل للنهوض والتقدم! قناعات تحول دون التطوع الإيجابي نحو المستقبل، رأت بمنظار أسود إلى كل ما هو جديد، قطعت الأمل عن أي خير قادم، بل رمت بروح عدائية إلى أي شيء حادث.

والطامة الكبرى أن تكون تلك المعتقدات ناشئة عن الإيمان ببعض النصوص الدينية، مما دفعت ببعض المؤمنين إلى تنكُّب طريق التقدم الحضاري وتجنُّب عمل البناء المستقبلي إيماناً منهم بإيحاءات خاطئة لتلك النصوص. وقد ظلت هذه الأفكار قروناً تسيطر على عقول كثير من المسلمين حتى ظن بعضهم أنها جزء من الإيمان وضرب من التمسك بالدين.

سنفند بإذن الله في هذا الباب تلك القناعات المضللة والأفكار الهدامة ونصححها وفقاً لما دل عليه مجموع الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية بإذن الله.







## الفصل الأول: تصورات سلبية بسبب

### أحاديث أُسيئ فهمها وغيبت سياقاتها

برزت في الناس تصورات سوداء ومواقف سلبية بسبب فهمهم الخاطئ للأحاديث النبوية، مثل أن الزمن لا يأتي إلا بالأسوأ، وأنه كلما تأخرت العصور زاد الشر ولن يرجع ذلك الخير الذي جاء به الإسلام. وهذه الأفكار تولد التوجس من كل جديد والقنوط من كل محاولات الإصلاح، والابتعاد عن كل دعوات إعادة مجد الأمة.

وكانت شبهتهم ناتجة عن فهم مغلوط لجملة من الأحاديث مثل حديث "لا يأتي عليكم زمان إلا والذي بعده شر منه" وحديث "خير القرون قرني" وأحاديث أشرط الساعة التي أخبر فيها الرسول عن الفتن والشُرور التي ستقع قرب قيام الساعة.

فهذه الأحاديث في الحقيقة لا تدل على تزايد الشر المستمر وتناقص الخير المطرد بحيث لا أمل قط في إصلاح الأمة وفي نهضتها بعد كبوتها، وعودة مجدها بعد حقبة من تراجعها. ويتبين ذلك بعرض هذه الأحاديث على مجموعة من النصوص التي تفسر مجملها وتحدد مفهومها، فإن نصوص القرآن والسنة وحدة مترابطة وصفحات متناسقة يمسك بعضها بحجز بعض. وقد تقدم الكلام على مثل هذه الأحاديث أنها جزء مكمل لجزء آخر فيه أحاديث تبشر بالخير وتنبئ باستمرار خيرية هذه الأمة وتجدد قوة هذا الدين. ولكن لزيادة الإيضاح نخصص كلاماً لنفض الغبار عن معاني هذه الأحاديث وكيف تفهم فهما صحيحاً في ضوء منهجية التكامل الدلالي وليس على طريقة التجزيء الحرفي.



المبحث الأول: حديث "لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه"

من أخطر ما يهدم المستقبل هو قطع الأمل في فائدة إصلاح الواقع، وإيهام الناس بأن الزمن لا يأتي إلا بما هو شر من الوضع الحالي. فلا أمل من تحسُّن الواقع ولا فائدة من جهود الإصلاح. فقد استدل بعضهم بحديث "لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه". هل صحيح أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله؟

إن هناك عدم الدقة من هؤلاء في نقل الحديث وفي فهمه، فإن الحديث كما رواه البخاري والترمذي وأحمد وابن حبان وغيرهم عن الزبير بن عدي قال: أتينا أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فشكونا إليه ما يلقون من الحجاج. فقال: اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم، سمعته من نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.<sup>(١)</sup>

ورحم الله الإمام ابن حبان إذ أورد هذا الحديث في كتابه تحت عنوان: "ذَكَرَ خَيْرَ أَوْهَمَ مَنْ لَمْ يُحْكَمْ صِنَاعَةُ الْحَدِيثِ أَنَّ آخِرَ الزَّمَانِ عَلَى الْعُمُومِ يَكُونُ شَرًّا مِمَّا يَقْدَمُ مِنْهُ" فإن هذا الحديث إنما ورد في سياق خاص وزمن خاص ولأناس مخصصين، كما سنبينه إن شاء الله.

لقد جزم ابن حبان رَحِمَهُ اللَّهُ أن هذا الحديث لا يدل على العموم بل كان خبرا خاصا في ظروف محددة وزمان خاص، بل رأى ابن حبان أن الذي توهم عموم الحديث لم يحكم ولم يتقن صناعة الحديث النبوي الشريف - على صاحبه الصلاة والسلام.

(١) صحيح البخاري (٢٥٩١/٦) رقم ٦٦٥٧ وسنن الترمذي (٤٩٢/٤) رقم: ٢٢٠٦ ومسند أحمد (٢١٦/٢٠) رقم: ١٢٨٣٨ وصحيح ابن حبان (٩٢/٦) رقم: ٤٩٣٩



ثم أورد ابن حبان بعد ذلك حديثين تحت عنوان "ذكر الخبر المصرح بأن خبر أنس بن مالك لم يرد بعموم خطابه على الأحوال كلها"، فأورد حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا لَيْلَةٌ، لَمَلَكَ فِيهَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ." وحديث ابن مسعود قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَوْ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا لَيْلَةٌ، لَمَلَكَ فِيهَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي يُوَاطِئُ اسْمُهُ اسْمِي." (١)

وزاد تأكيداً بالخبر الذي بعده تحت عنوان "ذكر البيان بأن خروج المهدي إنما يكون بعد ظهور الظلم والجور في الدنيا وغلبهما على الحق والجد"، فساق حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَمْلِكِيَ الْأَرْضُ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا، ثُمَّ يَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، أَوْ عِترَتِي، فَيَمْلَأُهَا قِسْطًا وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا." (٢) فهي دلالة واضحة أن زمن الشر قد يعقبه زمن الخير، بل أكد القرآن دائماً، أن الشر في زوال أكيد، والخير هو الباقي، وهذه سنة الله الثابتة، كما سيتبين لاحقاً إن شاء الله.

ومما يدل على أن الحديث خاص قيد "عليكم" في قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ "لا يأتي عليكم زمان"، فالحديث خاص بالمخاطبين وهم الصحابة ومن في زمانهم، فإنهم قد وصلوا القمة في الخير، وليس بعد القمة إلا انحدار، وهو انحدار ونزول تدريجي، فعصر الصحابة مع الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ليس كعصرهم بعد وفاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وعصر التابعين مع وجود الصحابة ليس كعصرهم بعد انقراض الصحابة رضوان الله عليهم، وهكذا. ولكن لا يعني ذلك أن حياة البشر كلها في

(١) صحيح ابن حبان (٩٢/٦) رقم: (٤٩٤٠)

(٢) صحيح ابن حبان (٩٣/٦) رقم: (٤٩٤١)



نزول مستمر لا نهوض بعده ولا تحسُّن إلى يوم القيامة. كلا! فالخير في أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باق إلى قيام الساعة.

وليت الإمام البخاري لم يحذف هذا القيد (لفظ "عليكم") في ترجمته للحديث، فإنه قد ساق هذا الحديث في "باب: لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه" مما أوهم الناس أن الحديث يدل على العموم، وليس كذلك في الحقيقة.

وهذه حقيقة قرآنية محكمة لا يدحضها شيء، والقرآن كله تبشير بقدوم الخير وبقائه وغلبته على الشر. واقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]

ولا يأتي الإسلام إلا لينتصر الحق على الباطل، ولا ينزل الدين إلا ليظهر الخير على الشر، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣، الصف: ٩]

وهذه هي روح القرآن ولب الإسلام، وهو القانون الثابت وسنة الله التي لا تبدل فيها ولا تحويل، قال الله تعالى مقررًا هذا القانون العام: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهَا كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]

والآيات في هذا المعنى أكثر من أن تحصى.



وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ فِي شرح هذا الحديث: ويحتمل أن يكون المراد بالأزمة المذكورة أزمة الصحابة، بناء على أنهم هم المخاطبون بذلك، فيختص بهم، فأما من بعدهم فلم يقصد في الخبر المذكور.<sup>(١)</sup>

والحق أن هذا الاحتمال قد حسم بتلك الأدلة التي ذكرناها، فالتخصيص هو المتعين الذي لا يصح غيره. فإنه هو الذي يتسق مع الحقائق القرآنية ويصدقها الوقائع التاريخية.

ويؤكد هذا التخصيص بوضوح: الحديث المتفق عليه عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يَقُولُ: كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يَدْرِكَنِي. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: وَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ... إِلَى آخِرِ الْحَدِيثِ.<sup>(٢)</sup>

وقد ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ بَعْدَ زَمَنِ الشَّرِّ يَأْتِي زَمَنُ الْخَيْرِ، فَهُمَا مُتَعَاقِبَانِ، وَلَيْسَ الشَّرُّ فِي تَنَامٍ مُسْتَمِرٍّ أَوْ الْخَيْرُ فِي تَنَاقُصٍ دَائِمٍ. بَلْ كِلَاهُمَا بَاقِيَانِ مَا بَقِيَتِ الْحَيَاةُ فِي الدُّنْيَا، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]

وقد أصاب الحافظ بدر الدين العيني كبد الحقيقة في هذا الإشكال، أي توهم التزايد المستمر للشر، فقال: "فإن قلت: هذا الإطلاق مشكل لأن بعض الأزمنة

(١) فتح الباري (٢١/١٣)

(٢) أخرجه البخاري (٣/١٣١٩) رقم ٤٣١١، ٦/٢٥٩٥ رقم ٦٦٧٣، ومسلم (٣/١٤٧٥) رقم



يكون في الشر دون الذي قبله، وهذا عمر بن عبد العزيز، رضي الله تعالى عنه، بعد الحجاج بيسير وقد اشتهر خيرية زمانه بل قيل: إن الشر اضمحل في زمانه.

قلت: حملة الحسن البصري على الأكثر الأغلب، فسئل عن وجود عمر بن عبد العزيز بعد الحجاج، فقال: لا بد للناس من تنفيس.

وقيل: إن المراد بالتفضيل تفضيل مجموع العصر، فإن عصر الحجاج كان فيه كثير من الصحابة أحياء، وفي عصر عمر بن عبد العزيز انقرضوا، والزمان الذي فيه الصحابة خير من الزمان الذي بعده لقوله خير القرون قرني، وهو في الصحيحين وقوله: أصحابي أمانة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون، أخرجه مسلم. فإن قلت: ما تقول في زمن عيسى، عَلَيْهِ السَّلَام، فإنه بعد زمان الدجال.

قلت: قال الكرمانى: إن المراد بالزمان الزمان الذي يكون بعد عيسى، عَلَيْهِ السَّلَام، أو المراد جنس الزمان الذي فيه الأمراء وإلا فمعلوم من الدين بالضرورة أن زمان النبي المعصوم لا شر فيه. "انتهى كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ".<sup>(١)</sup>

لقد رأى الحافظ العيني أن هذا الحديث ليس على عمومته، لكنه جعل أزمنة الخير استثناءات، بل الصحيح عكس ذلك، فإن الخير هو الأصل، والشر استثناء، كما تبين سابقا من خلال استقراء الآيات القرآنية.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾

فالخير هو أساس الكون وإنما يأتي الشر طارئا عليه كالزبد لا يلبث أن يذهب ويتلاشى، ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ [الرعد: ١٧]



المبحث الثاني: خيرية الأمة ماذا بعد خير القرون

ومن الأحاديث التي أسئى فهمها ونشأ بسببها الموقف المتشائم من المستقبل حديث خير القرون. وهو حديث صحيح رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ. <sup>(١)</sup>

وعن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ قَالَ عمران فلا أدري أذكر بعد قرنيه قرنين أو ثلاثاً <sup>(٢)</sup> ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ وَيَحْضَرُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ وَيَنْدُرُونَ وَلَا يَقُونَ وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ. <sup>(٣)</sup>

وفي رواية للترمذي: ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمٌ يَتَسَمَّنُونَ وَيُحِبُّونَ السَّمَنَ يُعْطُونَ الشَّهَادَةَ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلُوا. <sup>(٤)</sup>

(١) أخرجه البخاري (١٣٣/٩ رقم: ٢٤٥٨) ومسلم (٣٥٧/١٢ رقم: ٤٦٠٠)

(٢) قال ابن حجر: وقع مثل هذا الشك في حديث ابن مسعود وأبي هريرة عند مسلم، وفي حديث بريدة عند أحمد، وجاء في أكثر الطرق بغير شك، منها عن النعمان بن بشير عند أحمد، وعن مالك عند مسلم عن عائشة" قال رجل: يا رسول الله أي الناس خير؟ قال: القرن الذي أنا فيه، ثم الثاني، ثم الثالث" ووقع في رواية الطبراني وسمويه ما يفسر به هذا السؤال، وهو ما أخرجه من طريق بلال بن سعد بن تميم عن أبيه قال قلت: يا رسول الله أي الناس خير؟ فقال: "أنا وقرني" فذكر مثله. وللطيايسي من حديث عمر رفعه "خير أمتي القرن الذي أنا منهم، ثم الثاني، ثم الثالث" ووقع في حديث جعدة بن هبيرة عند ابن أبي شيبة والطبراني إثبات القرن الرابع ولفظه "خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الآخرون أردأ" ورجاله ثقات، إلا أن جعدة مختلف في صحبته. والله أعلم. (فتح الباري: ٤٤٥ / ١٠)

(٣) أخرجه البخاري (٥٥/٢٠ رقم: ٥٩٤٩) ومسلم (٣٦٠/١٢ رقم: ٤٦٠٣)

(٤) أخرجه الترمذي (١٦٠/٨ رقم: ٢١٤٧)



فهذه الروايات تدل على خيرية وأفضلية الصحابة والتابعين وأتباع التابعين<sup>(١)</sup> بلا شك. لكن هل هذا يدل ذلك أن بعد تلك القرون المفضلة ليس في أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير ولا يعقد عليهم أمل؟

إن استقراء أحاديث الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمجموعها يدل على أن الخير باق في أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى قيام الساعة، وَقَدْ رَوَى ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ نَفِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "لَيُذْرِكَنَّ الْمَسِيحُ أَقْوَامًا إِنَّهُمْ لَمِثْلُكُمْ أَوْ خَيْرٌ - ثَلَاثًا - وَلَنْ يُخْزِيَ اللَّهُ أُمَّةً أَنَا أَوْلَاهَا وَالْمَسِيحُ آخِرُهَا."<sup>(٢)</sup>

وروى الإمام مالك في الموطأ ومسلم في صحيحه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَدِدْتُ أَنَا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا قَالُوا: أَوْ لَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانَنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدَ."<sup>(٣)</sup>

فكل هذه الأحاديث تخبرنا بأن الأجيال التالية بعد القرون المفضلة ليسوا كلهم أناس سوء، بل تمر الأمة بفترات نكوص ثم نهوض.

فالمؤمنون اللاحقون لهم دور متميز موصول بالأدوار السبابة التي قام بها السلف الصالح، ولهم أفضلية الصبر المضاعف، فقد رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ

(١) انظر فتح الباري (١٠/٤٤٥ رقم: ٣٣٧٧) وشرح النووي على صحيح مسلم (٨/٣١٤ رقم: ٤٦٠٣)

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١/٢٦٩٦ رقم: ١٨٧٨٣) والحاكم في مستدركه (١/١٣٧ رقم: ٤٢٩٣) ولفظه: لَيُذْرِكَنَّ الدَّجَالُ قَوْمًا مِثْلَكُمْ أَوْ خَيْرًا مِنْكُمْ، ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلَنْ يُخْزِيَ اللَّهُ أُمَّةً، أَنَا أَوْلَاهَا، وَعِيسَى بْنُ مَرْيَمَ آخِرُهَا. قال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. والحديث مرسل لكنه حسن بشواهده (انظر روضة المحدثين ٣/٤٦١ رقم: ١٢٣٦)

(٣) أخرجه مالك في الموطأ (١/٧٨ رقم: ٥٣) ومسلم (٢/٥٣ رقم: ٣٦٧)





حَدِيث أَبِي ثَعْلَبَةَ رَفَعَهُ "تَأْتِي أَيَّامٌ لِلْعَامِلِ فِيهِنَّ أَجْرُ خَمْسِينَ، قِيلَ: مِنْهُمْ أَوْ مِنَّا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: بَلْ مِنْكُمْ" (١)

ومما يدل على استمرار الخير في أمة محمد ﷺ أيضا ما رواه أحمد والترمذي وابن حبان عن أنس بن مالك وعمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ مَثَلَ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ، لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَوْ آخِرُهُ." (٢)

ومما يدل على بقاء الخير واستمراره في الأمة حديث الطائفة المنصورة، وهو حديث مشهور رواه عدد من الصحابة بألفاظ متقاربة، فمن هذه الرواية ما رواه البخاري عن الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ." (٣)

وفي رواية لمسلم عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يَقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةً لِلَّهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ». (٤)

وفي صحيح مسلم أيضا عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ». (٥)

(١) أخرجه أبو داود (٤١٦/١١) رقم: (٣٧٧٨) والترمذي (٣٢١/١٠) رقم: (٢٩٨٤) وابن حبان

(٢/٢٦١) رقم: (٣٨٦) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤٩٣/١) رقم: (٤٩٤)

(٢) أخرجه أحمد (٣٣٤/١٩) رقم: (١٢٣٢٧)، و٣١/١٧٤ رقم: (١٨٨٨١) والترمذي (١٥٦/٥) رقم:

(٢٨٦٩) وابن حبان (٥٣/٥) رقم: (٣٩٥٩)

(٣) رواه البخاري (٢٦٦٧/٦) رقم: (٦٨٨١)

(٤) رواه مسلم (٩٥/١) رقم: (١٥٦)

(٥) رواه مسلم (٥٢/٦) رقم: (١٩٢٠)



ومما يدل على استمرار الخير في هذه الأمة ظهور المجددين من هذه الأمة في كل مائة سنة، كما رواه أبو داود والحاكم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»<sup>(١)</sup>

### المبحث الثالث: الاتزان في الموقف من الفتن

من الآفات الفكرية التي أقعدت الناس عن بناء مستقبلهم وإصلاح أوضاعهم: الروح الانهزامية في كل معركة الإصلاح المفروضة على المسلمين بذريعة الخوف من الفتن وطلب السلامة بالانسحاب من كل عمل إصلاحي، وقد يصل الأمر إلى منع الناس عن ممارسة واجباتهم الاجتماعية.

وإصلاح المجتمع من خلال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومناصرة ولاية المسلمين من محكمات الدين وثوابته بل من مثبتاته، قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٤]

وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١]

وقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ﴾ [المائدة: ٢]

(١) رواه أبو داود (٣٤٩/٦) رقم: (٤٢٩١) والحاكم (٥٦٧/٤) رقم: (٨٥٩٢)



فهذه هي القيم الإسلامية وتعاليمها الأصيلة في بناء مجتمع متماسك إيجابي، ولكن القراءة السطحية لبعض الأحاديث المتعلقة بالفتن وأشراط الساعة تحجب بعض الناس عن تلك المعاني الإسلامية الأصيلة، فحوّلتهم إلى أناس سلبين منزولين عن مجتمعهم ومبتعدين عن كل سياق إصلاحي مجتمعي.

من تلك الأحاديث التي توهم المعنى، ما رواه أبو داود وأحمد عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله ﷺ: "يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرُ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمًا يَتَّبِعُ بِهَا شَعَفَ الْجِبَالِ وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ، يَفْرُ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ."<sup>(١)</sup>

وحديث «سَتَكُونُ فِتْنٌ، الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفُهُ، فَمَنْ وَجَدَ فِيهَا مَلْجَأً، أَوْ مَعَاذًا، فَلْيَعُذْ بِهِ»<sup>(٢)</sup>

وحديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: بينا نحنُ حولَ رسولِ الله ﷺ، إذ ذكر الفتنة، أو ذُكِرتُ عنده، فقال: «إِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ مَرَجَتْ عُهُودُهُمْ، وَخَفَّتْ أَمَانَاتُهُمْ، فَكَانُوا هَكَذَا» وشبك بين أصابعه، قال: فقمْتُ إليه فقلتُ: كيف أصنعُ عند ذلك جعلني الله فداءك. قال: «الزُّمُ بَيْنَكَ، وَامْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَخُذْ مَا تَعْرِفُ، وَدَعْ مَا تُنْكِرُ، وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ الْخَاصَّةِ، وَدَعْ أَمْرَ الْعَامَّةِ»<sup>(٣)</sup>

فمثل هذه الأحاديث يتخذها بعض الناس منهجا عاما وسلوكا ثابتا في اختيار الدور السلبي تجاه كل القضايا العامة التي تتطلب الإصلاح وتغيير المنكر بغض

(١) رواه أبو داود (٣٢٣/٦ رقم: ٤٢٦٦) وأحمد (٣٥٦/١٧ رقم: ١١٢٥٣) صححه شعيب الأبرؤوط والألباني.

(٢) رواه البخاري (٥١/٩ رقم: ٧٠٨١) وسلم (١٦٨/٨ رقم: ٢٨٨٦)

(٣) رواه الطبراني (٨/١٤ رقم: ١٤٥٨٨)



النظر عن إمكانية إصلاحها أو عدمه وقابلية الناس في التغيير أو عدم قابليتهم، ضارين عرض الحائط تلك النصوص التي تحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقاومة الظلم والتعاون على البر والتقوى. فهذه الأحاديث تتكلم عن ظروف خاصة في أزمنة خاصة، كما سنبينه إن شاء الله.

إن منهج الصحابة في التعامل مع النصوص هو الجمع بينها وليس ضرب بعضها ببعض، وترك بعضها على حساب بعض. فإن هذه الأحاديث لا تلغي تلك الآيات التي ذكرناها.

فلنضرب مثالا من طريقة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في التعامل بين الآية التي يتوهمها بعض الناس توحى بالانعزال وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خطب في الناس فقال: "يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥]، وأنا سمعنا النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يقول: "إنَّ الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمَّهم الله بعقاب".<sup>(١)</sup>

إن واجب منع الظلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الأصل المحكم الذي يجب التمسك به وإلا يتعرض الناس لعذاب الله. فليس في الآية طلب السكوت والانعزال، إنما هو توطين النفس والعناية بها بلا الالتفات والتأثر بضلال الناس وعدم اهتدائهم. فإذا اهتدى الإنسان فلا يضره أن يمتنع الآخرون عن الهدى. ولكن يبقى واجب البلاغ والدعوة إلى الخير والنهي عن الظلم كلما قدر الإنسان على ذلك.

(١) رواه أحمد (رقم: ١، ١٦، ٢٩، ٥٢) وأبو داود (٦/٣٩٤ رقم: ٤٣٣٨) وابن ماجه (٥/١٤٠ رقم: ٤٠٠٦) وصححه الأرئوط والألباني.



وهذا هو الأصل، أما تلك الأحاديث فتلك حالات خاصة حيث عجز الإنسان عن ذلك. قال الطيبي: وهذا رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذا كثر الأشرار وضعف الأخيار.<sup>(١)</sup>

ومعروف في الأصول أن الرخصة ليست أصلاً بل استثناء. فمن لجأ إلى الرخصة في وقت العزيمة فقد قصر وفرط في دين الله تعالى. ثم إن مآل هذا الفهم السطحي لتلك الأحاديث هي إضعاف للدين وتقوية للشر، وهو خدمة لأعداء الدين وتقوية للظلم والظالمين.

وبالجملة فإن أحاديث الفتن وأشراط الساعة فليس القصد منها التيسير من تحصيل الخير، بل هو تنبيه وتحذير لكيلا ينجرف المسلم في سيل من الانحرافات التي لا ينجو منها إلا من كان عنده علم بها. ومع ذلك يظل المؤمن ينفذ أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبَيَّدَ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةً فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ".<sup>(٢)</sup> فمعرفة الفتن وظهور بعض علامات الساعة لا توقف المؤمن عن سير عمل ما كلف به ما استطاع.

فإن وجود الصعوبات ليس مبرراً للقعود عن العمل والاستسلام للواقع الخاطئ. بل هذه الأحاديث في الحقيقة تشحذ الهمة وتقوي العزيمة لمواجهة التحديات التي تفرز الصدق والصبر وتصلق المعدن الطيب لدى المؤمنين الأوفياء.

ومهما عظمت الفتن وعم الفساد فإن ذلك لا يخرج عن نطاق قدرة الإنسان على مواجهته، قال تعالى: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال: ﴿لَا يَكُفُّ

(١) الكاشف عن حقائق السنن (١١/٣٤١٤ رقم: ٥٣٩٨)

(٢) أخرجه أحمد ٥٩/٢٦ رقم: ١٢٥١٢، وعبد بن حميد في مسنده ٣/٣٤٠ رقم: ١٢٢٠، والبخاري

وقال الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٣/٦٣)



اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَاءً أَتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ [الطلاق: ٧] والحق دائما يتوسط بين مبالغة المهولين وتساهل المهوَّنين، لأن الله جعل لكل شيء قدرا مقدرا، فلا هي أوضاع تستحيل النجاة فيها، ولا هي أمور يجوز التهاون فيها. والعصمة في ذلك دائما لمن فوض أمره لله والتجأ إليه وتمسك بهديه، وليس الله بغائب في عصر الفتن، ولكن الناس أنفسهم يظلمون. نسأل الله الثبات والنجاة من الفتن فإنه ولي ذلك والقادر عليه.

#### الهدي القرآني في مواجهة الفتن

وهنا من الضروري أن نستحضر هدي القرآن في تناول موضوع الفتن، فإن للقرآن منهجا متزنا واضحا في موضوع الفتن. وطبيعة البيان القرآن دائما تعطي تصورا كليا واضحا للمسائل المركزية، بخلاف الطبع العام في الأحاديث النبوية التي غالبا ما تتناول مسائل جزئية. فجعل القرآن إطارا عاما للأحاديث النبوية هو منهج الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وهذا هو الذي دفع عمر بن الخطاب إلى التريث في كتابة السنن، فإنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فضل أن يرسخ فهم القرآن في قلوب الناس قبل تعلم السنن. أخرج عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن عروة أن عمر بن الخطاب أراد أن يكتب السنن، فاستشار أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك، فأشاروا عليه أن يكتبها، فطفق يستخير الله فيها شهرا، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له، فقال: "إني كنت أريد أن أكتب السنن، وإني ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتباً، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء أبدا." <sup>(١)</sup>

(١) أخرج عبد الرزاق في مصنفه (٢٥٨/١١) رقم: (٢٠٤٨٤) والخطيب البغدادي في تقييد العلم ص ٧٦-٨٠، وابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله رقم: ٢٥٥، وابن سعد (٣/٢٨٧).



لننظر في البيان القرآني في موضوع الفتن، فقد جاء ذكر الفتنة في كلام الله عَزَّوَجَلَّ على معانٍ متعددة، جاءت بمعنى الابتلاء والاختبار، كما في آيات كثيرة منها: قوله سبحانه لما عبد بنو إسرائيل العجل قال لموسى : ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه: ٨٥] أي اختبرناهم. وقال تعالى عن الملكين الذين أنزلهما الله لتعليم الناس السحر ابتلاءً واختباراً : ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا فَخُ بُرْءَانُ فَتْنَةٍ﴾ أي ابتلاء واختبار ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وجاءت بمعنى الشرك والكفر قال تعالى : ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]. وقال عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧]. وقال تعالى : ﴿وَقَتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني كفر وشرك ﴿وَيَكُونَ لِلدِّينِ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

وجاءت الفتنة في كلام الله عَزَّوَجَلَّ بمعنى الإضلال، قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ﴾ يعني إضلاله ﴿فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [المائدة: ٤١]. وقال تعالى : ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ ١٦١ ﴿مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَتْنَيْنِ﴾ [الصافات: ١٦١، ١٦٢] يعني ضالين أهل الحق ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ١٦٣] إلا من كتب الله عليه الشقاوة. وجاءت بمعنى الإثم قال عَزَّوَجَلَّ : ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي وَلَا تَنْتَهَىٰ إِلَّا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩] يعني في الإثم سقطوا.

وجاءت بمعنى الصد عن سبيل الله قال تعالى : ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، يعني يصدوك عن سبيل الله. وقال تعالى : ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣]، أي يصدونك عن هذا القرآن العظيم.

ولكن مهما تعددت إطلاقات القرآن للفظ الفتنة إلا أنها لا تخرج من إطار معنى الاختبار والابتلاء إما باعتبار البداية أو باعتبار النهاية.



فالفتنة في ميزان القرآن جزء أصيل من سنن هذه الحياة الدنيا، فإنها خلقت من أجل اختبار البشر، قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢]

والإنسان المؤمن معرض للابتلاء من أجل إظهار معدنه واكتشاف صدقه أو كذبه، قال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۚ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]

فرغم تعرض هذه الأمة للفتن والابتلاءات الشديدة فإن الله يثبت أوليائه المؤمنين على الطريق المستقيم، قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [ابراهيم: ٢٧]

وقد أخبر النبي ﷺ أيضا أن هذه الأمة لن تعد من يقوم بالحق إلى يوم القيامة، كما في الحديث المتفق عليه: «لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ، حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ»<sup>(١)</sup> قال البخاري: هم أهل العلم.

ولكن رواية مسلم تدل على أن هذا الأمر لا ينحصر في أهل العلم فقط بل يشمل أهل الجهاد أيضا، ففي صحيح مسلم: عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَى صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا، إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أَمْرَاءُ، تَكْرِمَةً لِلَّهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ»<sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه البخاري (١٠١/٩) رقم: (٧٣١١)

(٢) أخرجه مسلم (٩٥/١) رقم: (١٥٦)





### بين الانخراط والاعتزال

لم تزل في الأرض من جماعة بل جماعات من المسلمين تقوم على الحق وتدعو إليه، وهي الحالة الطبيعية لمجريات الحياة فوق هذه المعمورة.

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة»<sup>(١)</sup>.

وهذه الحالة من بقاء طائفة منصورة من المسلمين تستمر إلى أن تقترب الدنيا من نهايتها، ولا يبقى قبيل قيام الساعة مؤمن واحد، لأن الساعة لا تقوم حتى يقبض الله كل نفس مؤمنة. وقد كانت هذه المسألة محل إشكال لدى بعض الصحابة حيث استشكل بعضهم كيف يخبر الرسول ببقاء الطائفة المنصورة من أمته إلى قيام الساعة مع أنه أخبر أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق؟ يبين ذلك هذه الرواية في صحيح مسلم:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: "لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر من أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم."

فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر فقال له مسلمة: يا عقبة، اسمع ما يقول عبد الله.

فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا فسمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك."

(١) أخرجه الحاكم (٢٧٣/١٩) رقم: (٨٥٠٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الصغير والكبير ورجال الكبير رجال الصحيح (مجمع الزوائد: ٢٨٨/٧).



فقال عبد الله: أجل، ثم يبعث الله ريحا كريح المسك، مسها مس الحرير، فلا تترك نفسا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة.<sup>(١)</sup>

ويؤكد ذلك حديث طويل رواه الإمام مسلم في صحيحه عن الأحداث الواقعة قبل قيام الساعة عن النواس بن سمعان<sup>(٢)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع<sup>(٣)</sup>، حتى ظنناه في طائفة النخل. فلما رحنا إليه، عرف ذلك فينا.

فقال: ما شأنكم؟

قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال غداة، فخفضت فيه ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل.

فقال: غير الدجال أخوفني عليكم<sup>(٤)</sup>، إن يخرج فأنا حجيجه دونكم،

(١) أخرجه مسلم (٣/١٥٢٤ رقم ١٩٢٤)

(٢) النواس بن سمعان بن خالد بن عمرو بن قرط بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب العامري الكلابي له ولأبيه صحبة وحديثه عند مسلم في صحيحه (الإصابة ٦/٤٧٨)

(٣) قال النووي: قوله (ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع حتى ظنناه في طائفة النخل) هو بتشديد الفاء فيهما، وفي معناه قولان (أحدهما) أن خفض بمعنى حقر وقوله (رفع) أي عظمه وفخمه. فمن تحقيره وهو أن الله تعالى عوره، ومنه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "وهو أن الله من ذلك"، وأنه لا يقدر على قتل أحد إلا ذلك الرجل، ثم يعجز عنه، وأنه يضمحل أمره، ويقتل بعد ذلك هو وأتباعه. ومن تفخيمه وتعظيم فتنته والمحنة به هذه الأمور الخارقة للعادة، وأنه ما من نبي إلا وقد أُنذره قومه. (والوجه الثاني) أنه خفض من صوته في حال الكثرة، فيما تكلم فيه، فخفض بعد طول الكلام، والتعب ليستريح، ثم رفع ليبلغ صوته كل أحد (شرح النووي ١٨/٦٣).

(٤) قال النووي نقلا عن شيخه أبي عبد الله بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأما معنى الحديث ففيه أوجه: =



وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط<sup>(١)</sup>، عينه طافئة، كأني أشبهه بعبد العزي بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشام والعراق<sup>(٢)</sup>، فعاث يمينا وعاث شمالا<sup>(٣)</sup>، يا عباد الله! فأثبتوا!

= (أظهرها) أنه من أفعّل التفضيل: (الدجال) أخوف مخوفاتي عليكم ثم أضيف إلى الياء، ومنه "أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون." معناه: أن الأشياء التي أخافها على أمتي أحقها بأن تخاف الأئمة المضلون. (والثاني) بأن يكون أخوف من أخاف بمعنى خوف الدجال أشد موجبات خوفي عليكم. (والثالث) أن يكون من باب وصف المعاني بما يوصف به الأعيان على سبيل المبالغة كقولهم في الشعر الفصيح: شعر شاعر. وخوف فلان أخوف من خوفك وتقديره الدجال أخوف خوفي عليكم ثم الأول ثم الثاني هذا آخر كلام الشيخ رَحِمَهُ اللهُ. ثم قال النووي: ولأفعل التفضيل أيضا شبه بالفعل، وخصوصا بفعل التعجب، فجاز أن تلحقه النون المذكورة في الحديث، كما لحقت في الآيات المذكورة. هذا هو الأظهر في هذه النون هنا. ويحتمل أن يكون معناه أخوف لي فأبدلت النون من اللام، ككما أبدلت في لعن وعن بمعنى لعل وعل (شرح النووي ١٨/ ٦٤)

(١) قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إنه شاب قطط) هو بفتح القاف والطاء: أى شديد جعودة الشعر، مبادعة للجعودة المحبوبة (شرح النووي ١٨/ ٦٤)

(٢) قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (أنه خارج خلة بين الشام والعراق) هكذا في نسخ بلادنا: خَلَّة بفتح الخاء المعجمة واللام وتنوين الهاء. وقال القاضي: المشهور فيه حلة بالحاء المهملة ونصب التاء منونة. قيل: معناه سمت ذلك وقبالة. وفي كتاب العين الحلة موضع حزن وصخور. قال: ورواه بعضهم حُلّه بضم اللام، وبها الضمير، أى نزوله وحلوله. قال: وكذا ذكره الحميدى في الجمع بين الصحيحين. قال: وذكره الهروى خَلَّة بالحاء المعجمة وتشديد اللام المفتوحين، وفسره بأنه ما بين البلدين. هذا آخر ما ذكره القاضي.

وهذا الذى ذكره عن الهروى هو الموجود فى نسخ بلادنا، وفى الجمع بين الصحيحين أيضا ببلادنا، وهو الذى رجحه صاحب نهاية الغريب، وفسره بالطريق بينهما (شرح النووي ١٨/ ٦٤)

(٣) قوله (فعاث يمينا وعاث شمالا) هو بعين مهملة وثاء مثناة مفتوحة: وهو فعل ماض والعياش: الفساد أو أشد الفساد، والإسراع فيه، يقال: منه عاث يعيث. وحكى القاضي أنه رواه بعضهم: فعاث بكسر الثاء منونة اسم فاعل، وهو بمعنى الأول. (شرح النووي ١٨/ ٦٤-٦٥)



قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟

قال: أربعون يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم<sup>(١)</sup>.

قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفيها فيه صلاة يوم؟<sup>(٢)</sup>

قال: لا، اقدروا له قدره.<sup>(٣)</sup>

قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟

قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به، ويستجيبيون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا، وأسبغه ضروعا، وأمدّه خواصر،<sup>(٤)</sup>

(١) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامكم) قال العلماء: هذا

الحديث على ظاهره، وهذه الأيام الثلاثة طويلة على هذا القدر المذكور في الحديث، يدل عليه قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "سائر أيامه كأيامكم." (شرح النووي ٦٥ / ١٨)

(٢) وأما قولهم (يا رسول الله فذلك اليوم الذي كسنة أتكفيها فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره) فقال القاضي وغيره: هذا حكم مخصوص بذلك اليوم، شرعه لنا صاحب الشرع. قالوا: ولولا هذا الحديث ووصلنا إلى اجتهدنا لاقتصرنا فيه على الصلوات الخمس عند الأوقات المعروفة في غيره من الأيام (شرح النووي ٦٥ / ١٨)

(٣) ومعنى (اقدروا له قدره) أنه إذا مضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم فصلوا الظهر، ثم إذا مضى بعده قدر ما يكون بينها وبين العصر فصلوا العصر، وإذا مضى بعد هذا قدر ما يكون بينها وبين المغرب فصلوا المغرب، وكذا العشاء والصبح ثم الظهر ثم العصر ثم المغرب وهكذا، حتى ينقضى ذلك اليوم، وقد وقع فيه صلوات سنة فرائض كلها مؤداة في وقتها. وأما الثاني الذي كشهر، والثالث الذي كجمعة فقياس اليوم الأول أن يقدر لهما كالיום الأول على ما ذكرناه. والله أعلم (شرح النووي ٦٥ / ١٨)

(٤) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا، وأسبغه ضروعا، وأمدّه خواصر) أما (تروح) فمعناه ترجع آخر النهار، و(السارحة) هي المشاية التي تسرح أي تذهب أول النهار إلى المرعى. وأما (الذرى) فبضم الذال المعجمة وهي الأعالي والأسمنة، جمع ذروة بضم الذال وكسرها وقوله (وأسبغه) بالسين المهملة والغين المعجمة أي أطوله، لكثرة اللبن.

وكذا (أمدّه) خواصر لكثرة امتلائها من الشبع (شرح النووي ٦٥ / ١٨)



ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة، فيقول: لها أخرجي كنوزك! فتبعه كنوزها كيغاسيب النحل<sup>(١)</sup>،

ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين<sup>(٢)</sup> رمية الغرض<sup>(٣)</sup>، ثم يدعو فيقبل ويتهلل وجهه يضحك،

فبينما هو كذلك، إذ بعث الله المسيح بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء<sup>(٤)</sup> شرقي دمشق بين مهرودتين<sup>(٥)</sup>، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ<sup>(٦)</sup>،

(١) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فتبعه كنوزها كيغاسيب النحل) هي ذكور النحل. هكذا فسره ابن قتيبة وآخرون. قال القاضي: المراد جماعة النحل لا ذكورها خاصة، لكنه كذا عن الجماعة باليعسوب وهو أميرها، لأنه متى طار تبعته جماعته. والله أعلم (شرح النووي ٦٥/١٨)

(٢) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فيقطعه جزلتين رمية الغرض) بفتح الجيم على المشهور، وحكى ابن دريد كسرهما، أي قطعتين (شرح النووي ٦٦/١٨)

(٣) ومعنى (رمية الغرض) أنه يجعل بين الجزلتين مقدار رميته. هذا هو الظاهر المشهور. وحكى القاضي هذا، ثم قال: وعندي أن فيه تقديمًا وتأخيرًا، وتقديره فيصيبه إصابة رمية الغرض فيقطعه جزلتين. والصحيح الأول (شرح النووي ٦٦/١٨)

(٤) قوله (فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين) أما المنارة فبفتح الميم. وهذه المنارة قائمة اليوم (شرقي دمشق) ودمشق بكسر الدال وفتح الميم، وهذا هو المشهور. وحكى صاحب المطالع كسر الميم. وهذا الحديث من فضائل دمشق وفي (عند) ثلاث لغات كسر العين وضمها وفتحها والمشهور الكسر (شرح النووي ٦٦/١٨)

(٥) وأما (المهر وذنان) فروي بالذال المهملة والذال المعجمة. والمهملة أكثر. والوجهان مشهوران للمتقدمين والمتأخرين من أهل اللغة والغريب وغيرهم. وأكثر ما يقع في النسخ بالمهملة، كما هو المشهور. ومعناه: لابس مهرودتين أي ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران، وقيل: هما شقتان والشقة نصف الملاء (شرح النووي ٦٦/١٨)

(٦) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (تحدر منه جمان كاللؤلؤ) الجمان بضم الجيم وتخفيف الميم هي حبات من الفضة تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار. والمراد يتحدر منه الماء على هيئة اللؤلؤ في صفاته فسمى الماء جماناً لشبهه به في الصفاء (شرح النووي ٦٦/١٨)



فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات،<sup>(١)</sup> ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه،  
فيطلبه حتى يدركه بباب لد<sup>(٢)</sup> فيقتله،

ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم<sup>(٣)</sup>  
ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: "إني قد  
أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم"<sup>(٤)</sup>، فحرز عبادي إلى الطور.

ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حذب ينسلون،<sup>(٥)</sup> فيمر أوائلهم على  
بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء.  
ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرا من مائة

(١) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات) هكذا الرواية "فلا يحل" بكسر  
الحاء و(نفسه) بفتح الفاء ومعنى لا يحل لا يمكن ولا يقع. وقال القاضي: معناه عندي حق  
وواجب. قال: ورواه بعضهم بضم الحاء وهو وهم وغلط (شرح النووي ٦٦/١٨)

(٢) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يدركه بباب لد) هو بضم اللام وتشديد الدال مصروف، وهو بلدة المساجد  
من بيت المقدس (شرح النووي ٦٦/١٨)

(٣) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (ثم يأتي عيسى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوما قد عصمهم الله منه فيمسح عن  
وجوههم) قال القاضي: يحتمل أن هذا المسح حقيقة على ظاهره، فيمسح على وجوههم تبركا  
وبرا، ويحتمل أنه إشارة إلى كشف ما هم فيه من الشدة والخوف (شرح النووي ٦٦-٦٧)

(٤) قوله تعالى (أخرجت عبادا لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلى الطور) فقوله لا يدان بكسر  
النون تشية يد. قال العلماء: معناه لا قدرة ولا طاقة. يقال: ما لي بهذا الأمر يد، وما لي به يدان،  
لأن المباشرة والدفع إنما يكون باليد، وكان يديه معدومتان، لعجزه عن دفعه. ومعنى حرزهم  
إلى الطور أي ضمهم واجعله لهم حرزا. يقال: أحرزت الشيء أحرزه إحزا إذا حفظته وضممته  
إليك وصنته عن الأخذ. ووقع في بعض النسخ حزب بالحاء والزاي والباء أي أجمعهم. قال  
القاضي: وروى حوز بالواو والزاي، ومعناه نحهم وأزلهم عن طريقهم إلى الطور (شرح النووي  
٦٧/١٨)

(٥) قوله (وهم من كل حذب ينسلون) الحذب: النشز، وينسلون: يمشون مسرعين (شرح النووي  
٦٧/١٨)



دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى<sup>(١)</sup> كموت نفس واحدة،

ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاءهم ومنتهم<sup>(٢)</sup>، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرا لا يَكُنُّ منه بيت مدر ولا وبر<sup>(٣)</sup> فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلزلة،<sup>(٤)</sup>

ثم يقال للأرض: "أنبتي ثمرتك، وردي بركتك." فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها،<sup>(٥)</sup> ويبارك في الرسل<sup>(٦)</sup> .....

(١) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فيرسل الله تعالى عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى) النغف بنون وغين معجمة مفتوحتين ثم فاء، وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم، الواحدة نغفة. والفرسى بفتح الفاء مقصور أى قتلى، واحدهم فريس (شرح النووي ٦٧/١٨)

(٢) قوله (ملاءهم ومنتهم) هو بفتح الهاء أى دسمهم ورائحتهم الكريهة (شرح النووي ٦٧/١٨)

(٣) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لا يكن منه بيت مدر) أى لا يمنع من نزول الماء (بيت المدر) بفتح الميم والدال، وهو الطين الصلب (شرح النووي ٦٧/١٨)

(٤) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلزلة) روى بفتح الزاى واللام والقاف، وروى الزَّلْزَلَةُ بضم الزاى واسكان اللام وبالفاء، وروى الزَّلْزَلَةُ بفتح الزاى واللام وبالفاء. وقال القاضي: روى بالفاء والقاف وبفتح اللام وباسكانها، وكلها صحيحة. قال فى المشارق: والزاى مفتوحة. واختلفوا فى معناه. فقال ثعلب وأبو زيد وآخرون معناه: كالمرأة. وحكى صاحب المشارق هذا عن ابن عباس أيضا، شبهها بالمرأة فى صفاتها ونظافتها. وقيل: كمصانع الماء أى إن الماء يستنقع فيها، حتى تصير كالمصنع الذى يجتمع فيه الماء. وقال أبو عبيد: معناه كالإجانة الخضراء. وقيل: كالصفحة. وقيل: كالروضة (شرح النووي ٦٧/١٨)

(٥) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها) العصابة الجماعة. وقحفها بكسر القاف هو مقعر قشرها، شبهها بقحف الرأس وهو الذى فوق الدماغ. وقيل: ما انفلق من جمجمته وانفصل (شرح النووي ٦٨/١٨)

(٦) الرِّسل بكسر الراء وإسكان السين: هو اللبن (شرح النووي ٦٨/١٨)



حتى أن اللقحة<sup>(١)</sup> من الإبل لتكفي الفئام<sup>(٢)</sup> من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ<sup>(٣)</sup> من الناس،

فبينما هم كذلك، إذ بعث الله ريحا طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم<sup>(٤)</sup>، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر<sup>(٥)</sup>، فعليهم تقوم الساعة.<sup>(٦)</sup>

فدل هذا الحديث وغيره من الروايات الموافقة له أن خلو الأرض من الجماعة المسلمة لن يحدث إلا قبيل قيام الساعة بعد قتال المسلمين الدجال وبعد نزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبعد خروج يأجوج ومأجوج، فإذا لم يبق على الأرض

(١) و(اللقحة) بكسر اللام وفتحها لغتان مشهورتان، والكسر أشهر، وهي القرية العهد بالولادة، وجمعها لقح بكسر اللام وفتح القاف، كبركة وبرك. والقوح ذات اللبن وجمعها لقاح (شرح النووي ٦٨/١٨)

(٢) و(الفئام) بكسر الفاء وبعدها همزة ممدودة، وهي الجماعة الكثيرة. هذا هو المشهور والمعروف في اللغة وكتب الغريب. ورواية الحديث أنه بكسر الفاء وبالهمز. قال القاضي: ومنهم من لا يجيز الهمز بل يقوله بالياء. وقال في المشارق: وحكاة الخليل بفتح الفاء، وهي رواية القابسي. قال: وذكره صاحب مهموز فأدخله في حرف الياء وحكى الخطابي أن بعضهم ذكره بفتح الفاء وتشديد الياء وهو غلط فاحش (شرح النووي ٦٨/١٨)

(٣) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (لتكفي الفخذ من الناس) قال أهل اللغة الفخذ: الجماعة من الأقارب، وهم دون البطن. والبطن دون القبيلة. قال القاضي: قال ابن فارس: الفخذ هنا بإسكان الخاء فلا يقال إلا بإسكانها، بخلاف الفخذ التي هي العضو، فإنها تكسر وتسكن (شرح النووي ٦٨/١٨)

(٤) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم) هكذا هو في جميع نسخ مسلم "وكل مسلم" بالواو (شرح النووي ٦٨/١٨)

(٥) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (يتهارجون تهارج الحمير) أي يجامع الرجال النساء بحضرة الناس، كما يفعل الحمير. ولا يكثر ثون لذلك. والهرج بإسكان الراء الجماع. يقال: هرج زوجته أي جامعها، يهرجها، بفتح الراء وضمها وكسرهما (شرح النووي ٦٨/١٨)

(٦) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٥١-٢٢٥٤ رقم ٢٩٣٧)





مؤمن أو مسلم واحد لم يكن هناك على وجه الأرض وجود إسلامي. وبناء على ذلك فالانخراط في جماعة المسلمين يبقى عملاً ممكناً خلال أزمنة طويلة ممتدة من وفاة الرسول ﷺ إلى قرب يوم القيامة. وبالتالي سؤال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ "فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟" يكون هذا السؤال افتراضاً استثنائياً، وليس حالة يقاس عليها ولا أصلاً يعتمد عليه. فالأصل في المسلم هو الاختلاط بالناس والانخراط في حياتهم العامة والانضواء في الكيانات الإسلامية القائمة ما داموا متعاونين على البر والتقوى.

ويبقى الاعتزال استثناء يحتاج إلى مبررات معقولة ومقبولة للجوء إليه، فليس من هدي الرسول ﷺ الهروب من معترك الحياة، فإن الأمل في إصلاح الناس يبقى قائماً، ومقاومة الشر والدعوة إلى الخير تظل مطلوبة ومتاحة رغم الصعوبات والتحديات.

ولكن ينبغي التنبيه هنا أنه ليس معنى بقاء الطائفة المنصورة وظهورها في الناس أنها منتشرة ومتواجدة في كل مكان وفي كل بلد، بل هؤلاء الطائفة قد تقل وقد تكثر، وحالة القلة هي الغالبة، فهنا جاءت مناسبة السؤال: كيف إذا لم يتمكن الإنسان من التوصل إلى جماعة المسلمين القائمين على الحق أو لم يعرف تواجدهم؟ كأن يعيش الإنسان في بلد الكفر وليس فيه مسلم صالح للاجتماع معه والتعاون معه على البر والتقوى، أو يسكن المسلم في بلد يغلب عليه أصحاب البدع والعقائد الفاسدة، ففي مثل هذه الظروف يسوغ الاعتقاد بأنه ليس هناك جماعة المسلمين ولا إمام لهم يلجأ إليهم.

ولكن قبل اللجوء إلى خيار الاعتزال يجب على المسلم الاجتهاد في البحث عن جماعة من المسلمين تتعاون على البر والتقوى تجمعهم عقيدة التوحيد وتربطهم



وحدة الانتماء إلى الأمة الإسلامية. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، مع الصادقين في انتمائهم لهذا الدين، والصادقين في العمل ابتغاء رضوان الله. والمسلم الحريص على دينه يحرص على اختيار أصحابه فقد قال النبي ﷺ: "الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ".<sup>(١)</sup> وإن السلامة من الخسران المحقق محصورة على هؤلاء الذين اجتمعوا على الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر عليه ﴿وَالْعَصْرِ ١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

ثم إذا لم يتسن العيش مع أناس صالحين صادقين يتواصون بالحق والصبر، فعليه أن يبذل جهداً للهجرة إلى أرض الإسلام والمسلمين حيث مكن فيها الإسلام. وقد حكى الله في القرآن عن أناس مظلومين مقهورين في أمرهم، ولم يعذرهم الله إلا إذا عجزوا عن الهجرة إلى أرض تمكنهم من أداء واجباتهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفُلُكَيْنِ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لَوْ أَنفُسُنَا فِي الْأَرْضِ قَالُوا لَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ٩٨ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُو عَنْهُمْ ٩٩ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٩٧-٩٩].

فإذا لم يملك الإنسان القدرة على الانتقال إلى مكان يمكنه من الانخراط في جماعة المسلمين أو لم يعرف وجود جماعة المسلمين، وحاصرته الفرق الضالة

(١) أخرجه أبو داود (٤٥٩/١٢) رقم: (٤١٩٣) والترمذي (٣٨٣/٨) رقم: (٢٣٠٠) وحسنه وأحمد (٢٢٦/١٦) رقم: (٧٦٨٥) والحاكم وقال صحيح إن شاء الله (١٦٥/١٧) رقم: (٧٤٢٧) وصححه الألباني (١/٣) رقم: (٩٢٧)



الداعية إلى أبواب جهنم، فما عليه إلا اعتزال الحياة العامة، وعليه أن يهتم بشؤونه الخاصة، وألا يشارك أهل الباطل في باطلهم. وهذا هو المعنى اللائق لقول الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "اعتزل تلك الفرق كلها".

والفرق المأمور اعتزالها هي المشار إليها في الحديث "دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها." والجماعة المأمور التزامها هي جماعة المؤمنين الملتزمين لطاعة الله ورسوله، ومهما قل عددهم، كما قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إنما الجماعة ما وافق طاعة الله وإن كنت وحدك." (١)

والفرق بين الجماعة التي أمرنا بلزومها وبين الفرق التي أمرنا باعتزالها هو أن الأولى تدعو إلى الخير والتمسك بتعاليم الإسلام جملة وتفصيلا والدعوة إلى الكتاب والسنة علما وعملا، أما الثانية فهي كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تدعو إلى أبواب جهنم، فهي تدعو إلى مخالفة أوامر الله ورسوله، ويغلفون دعوتهم بأغلفة مختلفة تغطي باطلهم وتزين ضلالهم.

والأمر الآخر الذي يبرر الاعتزال هو تفاقم حالة اتباع الهوى والأنانية والتمسك بالرأي الباطل مما يجعل النصح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر مستحيلا.

يظل المسلم مطالبا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى إذا وجد أن الناس قد استحكمت فيهم الأهواء واستعصوا على النصح فما على المسلم إلا أن يعكف على نفسه ويعتني بنجاة نفسه عن الفتن ويتمسك بالحق رغم إعراض الناس عنه.

(١) اعتقاد أهل السنة، هبة الله اللالكائي، ١/١٠٩، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢ هـ



### لفت النظر في ترتيب أحاديث آخر الزمان في كتب الحديث

وهنا يحسن التنبيه إلى نقطة مهمة، وهي أن أحاديث الرسول ﷺ عن أحداث آخر الزمان تنقسم إلى قسمين: قسم يتكلم عن المبشرات بظهور الدين وانتصارات المؤمنين وشيوع الخير، وقسم آخر يتحدث عن التحذير بحدوث الفتن وقدم الشر وابتلاء المؤمنين بالأزمة الصعبة. والجم الغفير من المحدثين جعلوا القسم الثاني في باب واحد، أما القسم الأول فجعلوها متفرقة بين أبواب كثيرة مثل باب الفضائل وباب الجهاد والسير وهكذا. وهذا يؤدي إلى وهم كبير وتصور خاطئ بأن آخر الزمان كله أو جلّه يسود فيه الشر ويقل فيه الخير.

وهنا يحسن بنا أن نتعرف على طريقة أخرى في ترتيب أحاديث آخر الزمان. وهو ترتيب الإمام الجليل المحدث الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان التميمي البستي المعروف بابن حبان رحمه الله. فكان له طريقة أخرى في ترتيب أحاديث الرسول ﷺ يختلف عن معظم كتب الحديث. لقد رتب الإمام ابن حبان في كتابه المسمى: "المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع" أحاديث الرسول ﷺ ترتيباً يدل على استيعابه وفقهه المتميز للأحاديث. فقد قسم ابن حبان رحمه الله سنن المصطفى ﷺ إلى خمسة أقسام وهي: (١) الأوامر، (٢) والنواهي، (٣) وإخبار المصطفى ﷺ، (٤) والإباحات، (٥) وأفعاله ﷺ. وجعل تحت كل قسم من هذه الأقسام أنواعاً، وتحت كل نوع أحاديث.

فابن حبان جعل كل الأخبار التي أخبر بها النبي ﷺ في مكان واحد، فمزج أحاديث أشراط الساعة والفتن بأحاديث الفضائل والبشارات. وقراءة الأحاديث بهذا النسق تعطي تصوراً متوازناً ومتكاملاً عن أحداث آخر الزمان،



يختلف عن التصور الذي يتكوّن عند قراءة أحاديث أشرط الساعة والفتن مفصولة عن الأخبار المبشرة التي وضعت بعيدة في مواضع أخرى.

لننظر الفرق بين الطريقتين في الحديث التالي:

عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ إِذَا أَرَادَ رَحْمَةً أُمَّةٍ مِنْ عِبَادِهِ قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا، فَجَعَلَهُ لَهَا فَرَطًا»<sup>(١)</sup> وَسَلَفًا بَيْنَ يَدَيْهَا، وَإِذَا أَرَادَ هَلَكَةً أُمَّةٍ عَذَّبَهَا وَنَبِيَّهَا حَيًّا، فَأَهْلَكَهَا وَهُوَ يَنْظُرُ، فَأَقْرَعَ عَيْنَهُ بِهَلَكَتِهَا حِينَ كَذَّبُوهُ وَعَصَوْا أَمْرَهُ»<sup>(٢)</sup>

روى هذا الحديث الإمامان مسلم وابن حبان في صحيحيهما، أما الإمام مسلم فأورده في كتاب الفضائل، ولم يورده في كتاب أشرط الساعة، كما جرت عليه عادة كثير من كتب الحديث. وأما ابن حبان فأورده في قسم الأخبار في موضعين: الأول ذكره في النوع السادس والستين الذي يتضمن الأحاديث عن "إخبار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في البداية عن كيفية أشياء احتاج المسلمون إلى معرفتها"، وصدّر الحديث بعنوان: "ذكر الإخبار بأن من أراد الله به الخير قبض نبيه قبله حتى يكون فرطاً له."

والموضع الثاني ذكره في النوع التاسع والستين الذي يتضمن الأحاديث عما يكون في المسلمين من الفتن والحوادث. فوضع هذا الحديث في سياق أحاديث الفتن يعدّل ذلك التصور الذي توهمه الناس أن أحداث آخر الزمان كلها شر لا ينقطع ولا يرتفع.

(١) الفرط، بفتح الراء والفاء: الذي يتقدم الواردة فيهمى لهم الدلاء والحياض، يقال: رجل فرط، وقوم فرط، وقوم فراط. يريد: أنه يكون مقدّمًا بين أيديهم يشفع لهم وينفعهم، كالذي يتقدم الواردة في نفعهم. ومنه الحديث الآخر بعده في الكتاب: "أنا فرطكم على الحوض": أنا متقدمكم وسابقكم إليه. (إكمال المعلم بفوائد مسلم: ٢٥٦/٧)

(٢) أخرجه مسلم (٧/٦٥ رقم: ٢٢٨٨) وابن حبان (٥/٤٠٣ رقم: ٤٦٣٥) و٦/٧ رقم: ٤٧٨٩)



فهذا الحديث فيه تبشير للمؤمنين وإخبار بأن الله أراد رحمة بوفاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، رغم أن وفاته عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مصاب كبير، ولكنه ينطوي على خير كبير. فجعل هذا الحديث في وسط أخبار آخر الزمان أدخل في المؤمنين أملاً وثقة برحمة الله بهم.

وهناك أمثلة كثيرة في تميز منهج ابن حبان في ترتيب أحاديث آخر الزمان يمكن مطالعة كتابه المذكور للتوسع والتعمق في هذه المسألة.





## الفصل الثاني: إشكالية نظرية عودة التاريخ

"التاريخ يعيد نفسه"... مقولة شائعة ترسخت في أذهان كثير من الناس حتى لدى بعض المثقفين. إن لهذه المقولة جناحين، جناح مضىء ينير الطريق ويكشف الحقائق الكامنة، وجناح مظلم يضلل الناظر ويحجبه عن الجواهر الغالية. وهذا الجانب المظلم يحجبنا عن الرؤية المستقبلية الثاقبة ويمنعنا من التطلع المستقبلي الحر كما سنبينه في هذا الفصل بإذن الله.

من المعروف أن الأحداث المتشابهة عبر تاريخ البشرية تخبر لقارئه أنه ينطوي على دروس وعبر، وفي إدراك التجارب السابقة للأسلاف إضافة ثمينة لمخزون الخبرات المكتسبة. ثم إن السنن الإلهية تتحكم في مجريات الأمور وتبين صورها الواقعية من خلال دراسة التاريخ. وتلك الفوائد يحويها الجناح المضىء لقانون "عودة التاريخ".

إلا أن لهذه الكلمة إحياء مضللاً، قلما ينتبه الناس من شراكه. وهو تصوّر أن الأحداث التاريخية لا تعدو أن تكون حقائق مكررة، وحوادث متماثلة، لا تنطوي على زيادة فائدة ولا تتجه إلى نوع من التكامل والترقي. يحسب البعض أن البشرية طوال تاريخها الطويل مُسَيَّرة على قوالب ثابتة من المواقف والتصرفات وبالتالي فنتائج الأحداث لا تُكوّن غير حقيقة واحدة يتيمة.

إن الخطورة لهذا التصور الثابت للتاريخ تكمن في إحياء التوقع في ذكريات الماضي والانكفاء على منجزات الأسلاف،.... بل والاستسلام لإحياءات حقبة من التاريخ مظلمة!!



وثة خطأ آخر في النظرة إلى التاريخ هو أن البعض دائماً يقيسون الحاضر على الماضي دون التفطن للفوارق. وينتج عن هذا عدم الرغبة في إضافة جديد على خير البشرية ظناً منهم أن أفضل ما يقدمه الإنسان لتاريخه هو دغدغة ماضيه التليد دون أدنى قدر من الإثراء والإنماء.

وليس هذا الكلام مجابهة لجهد إحياء التراث النبيل ولا التنكر للانتماء التاريخي المجيد، بل هو العكس تماماً، فإن الاعتزاز بالتاريخ المشرف وربط الحاضر بالماضي العظيم هو أرقى ما يحققه الإنسان وأسمى ما يخلفه جيل لجيل. إلا أن إحياء التراث لن تكتمل ولا تُعدّ إنجازاً حقيقياً إذا لم تتم معها عملية التكامل التاريخي. إن بقاء التراث قابلاً في باحات المتاحف مكرّناً في رفوف المكتبات لا ينفع حقيقة التقدم الإنساني، بل لا بد من إفادتها كمادة تمد البشرية بطاقة تقود الأفكار للاندفاع نحو الإبداع والتجديد، وتغذي النفوس بعلوم ومعارف تبعث على روح العطاء المتجدد.

إن حركة التاريخ ليست دائرية تعيد نهايتها إلى نقطة بدايتها كما كانت، بل هي حركة تراكمية فيها صعود ونزول، وانتشار وانكماش. تتشابه أجزاؤها حتى يخيّل للناظر أنها إعادة أحداث، بل هي مظاهر الانضباط والانسحاق وفق سنن الله الثابتة. نعم تتشابه صورها ولكن تتراكم نتائجها. ودور المصلحين - وأولهم الأنبياء والرسل - هو أن يكمل الآخر ما بدأه الأول، ويتم اللاحق ما تركه السابق.

وهذه الرؤية التكاملية للأدوار الحضارية عبر الأجيال ترجع جذورها إلى الأدوار التي قام بها الأنبياء والرسل وأتباعهم. وتدقيق النظر في تاريخ الأنبياء - كما صوّره القرآن الكريم - يعطينا آفاقاً مضيئة لهذا التكامل العظيم عبر تاريخ الشرائع وتتابع الرسالات.





### المبحث الأول: تكامل الأدوار في تسلسل شرائع الأنبياء والرسول

يشهد لذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبَنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ، وَيَعْجَبُونَ لَهُ، وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبَنَةُ فَأَنَّا اللَّبَنَةُ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ.<sup>(١)</sup>

لقد شبّه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تلك الجهود المباركة بالبناء الرصين الذي يدعو للإعجاب. ولم لا، فإنه تمثيل للخطة الإلهية التي قام بها صفوة من البشر اختارهم الله، وهياهم كل حسب زمانه وطبيعة قومه.

ولم يكن بعث نبي بعد آخر مجرد تكرار لجهود متشابهة لا تمايز بينها بقدر ما هو بناء متكامل لجهود متراكمة يبني اللاحق على ما أنجزه السابق، إلى أن يكتمل البناء ويستوي على سوقه ببعث خاتم النبيين محمد عليه وعلى جميع الأنبياء أفضل الصلاة وأتم التسليم.

### تواصل البناء في تاريخ الرسالات

إن المتأمل للأدوار التي قام بها الأنبياء والرسول يجد أن تعاقب الرسل يشكل حلقات مترابطة ومتسلسلة تتجه إلى بناء موحد رصين أرادته الخالق عبر تلك الشرائع. رغم أن تعاليم العقيدة الإسلامية التي جاء بها جميع الأنبياء والرسول واحدة لا تتغير، والتوحيد الذي من أجله أرسل الرسل وبعث الأنبياء لا يختلف،

(١) أخرجه البخاري في: كتاب المناقب: باب خاتم النبيين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومسلم في: كتاب الفضائل: باب ذكر كونه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاتم النبيين



إلا أن كل نبي شغل مع ذلك دوره الخاص بما يتناسب مع الوضع الحضاري والموقع التاريخي للقوم الذي بعث إليهم.

ومن خلال استقراء نصوص القرآن والسنة نعرف أن بعض الأنبياء جاؤوا متعاقبين أحيانا، أو مجتمعين في وقت واحد أحيانا أخرى. وكل نبي يستفيد من تجارب نبي آخر ويذكر أمته بها، قال نبي الله هود: ﴿أَوْعِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣] وقال صالح: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا لَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقال شعيب: ﴿وَيَقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] وقال موسى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِّن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِمَّن بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٩]

فهؤلاء الأنبياء جاؤوا متعاقبين: نوح ثم هود ثم صالح ثم لوط وشعيب. أما الذين بعثوا في عصر واحد: إبراهيم مع لوط، وإسحاق مع إسماعيل، ويعقوب مع يوسف، وموسى مع هارون، وداود مع سليمان، وزكريا ويحيى مع عيسى.

إن الأنبياء والرسل كلهم يدعون إلى توحيد الله عَزَّوَجَلَّ والأخلاق الكريمة والحياة الحميدة، ولكن تميز كل نبي بما اختص به قومه آنذاك. فنوح عَلَيْهِ السَّلَام كان يتميز بالصبر والمكث الطويل مع قومه لأنه كان يمثل أول تجربة لمواجهة الشرك المستشري في ذلك العصر. كما روى الطبري في تفسير قوله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣] بسنده عن ابن



عباس قال: كان بين نوح وآدم عشرة قرون، كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين.<sup>(١)</sup> وقال قتادة وعكرمة: كان الناس من وقت آدم إلى مبعث نوح، وكان بينهما عشرة قرون، كلهم على شريعة واحدة من الحق والهدى، ثم اختلفوا في زمن نوح، فبعث الله إليهم نوحا فكان أول نبي بعث، ثم بعث بعده النبيين.<sup>(٢)</sup>

فكان نوح عَلَيْهِ السَّلَام يطيل النفس وينوّع الأساليب ويكرر المحاولات إلى حد لا يرجي من قومه صلاح ولا توبة، فبعد محاولة طويلة مع قومه دامت ٩٥٠ سنة، دعا الله بأن ينهي هذه المرحلة بهلاك هؤلاء القوم ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وما كان ذلك بسبب عدم صبره عَلَيْهِ السَّلَام، حاشاه، بل كان من أولي العزم من الرسل الذين أعطوا قوة تحمل فائقة، ولكن الله قد أوحى إليه أن قومه قد بلغ حدا لا تنفع معهم أية محاولة قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦] فكان ذلك الطوفان العظيم الذي يمثل نتيجة عادلة للعناد المستمر مع أطول محاولة للإصلاح العقدي.

ثم جاء دور هود عَلَيْهِ السَّلَام، وهو مبعوث إلى قوم عاد الذين تميزوا ببسطة في الخلق<sup>(٣)</sup> وعظمة في العمران،<sup>(٤)</sup> فكان عندهم غرور شديد غير مسبوق فقالوا:

(١) تفسير الطبري ٤/ ٢٧٥ وهو مخرج عند الحاكم في مستدركه (٩/ ٢٥٥ رقم: ٣٩٦٨) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

(٢) تفسير البغوي: ١/ ٢٧١

(٣) دل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]

(٤) دل على ذلك قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ ١٣٨ ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ٨١٢، ١٢٩] وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ ٦ ﴿إِذْ مَاتَ الْعِمَادُ﴾ ٧ ﴿أَلَمْ يَلْبَسْكَ﴾ [الفجر: ٦-٨]



﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ فكان الجواب المناسب لهم مباشرة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] وكان بالإمكان أن يجاب عليهم بذكر جملة من خلق الله كأمثال الجبال والبحار والسماء وغيرها، ولكن بلغ بهم الكبر إلى أن ينظروا إلى الخلق كلهم أنهم أقل منهم قوة وشأنا. ولم يبق عندهم حقيقة مقنعة غير قوة الله التي لا تليق أن تقارن بأي خلق من مخلوقاته، ومع ذلك لم يردهم هذا إلى شيء من الإذعان.

وكان هود عَلَيْهِ السَّلَامُ يقابل تلك القسوة والغلظة بنفس القدر من قوة اللهجة وجرأة التحدي، نلاحظ ذلك خلال قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَيْثَنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝٥٣﴾ إِنَّ نَقُولُ إِلَّا أَعْرَتَكَ بَعْضُ آلِ هَيْثَنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظَرُونَ ۝٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: ٥٣-٥٦] وأمام هذا التكبر الغريب والغرور العجيب لم يناسبهم غير ريح صرصر تأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ثم جاء بعدهم ثمود فأروا ما حل بعاد من الهلاك المدمر، فكان ثمود أليين من عاد نوعاً ما. وكان خطاب نبي الله صالح أَلُطْف من خطاب هود عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وقد ذكر صالح قومه بمصير عاد ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤] وكان صالح ذا مكانة مرموقة لدى قومه وحظي باحترام قومه لولا دعوته إلى توحيد الله ﴿قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢] قال العلامة الشوكاني: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ أي: كنا نرجو أن تكون



فينا سيداً مطاعاً نتفع برأيك، ونسعد بسيادتك قبل هذا الذي أظهرته من ادّعاءك النبوة، ودعوتك إلى التوحيد.<sup>(١)</sup>

وكان مما تميز به خطاب نبي الله صالح تنويهه على دور عمارة الأرض المطلوبة من الإنسان ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَتَقَوِّرُ الْعَبْدُ وَاللَّهُ مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ عِزَّةٌ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَنُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١] ومعنى "واستعمركم"<sup>(٢)</sup> كما قال زيد بن أسلم: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء مساكن وحفر أنهار وغرس أشجار وغير ذلك. فالسين للطلب، وإلى هذا ذهب الكيا<sup>(٣)</sup>، واستدل بالآية على أن عمارة الأرض واجبة.<sup>(٤)</sup> وكانت لعمارة ثمود آثار باقية مشهودة إلى يومنا هذا، لتكون آية على عبثية العمران المنكر لله رب العالمين.

(١) فتح القدير: ٤٦٠/٣. وللمفسرين أقوال في معنى "مرجوا" ولا تخلو من التكلف، والمعنى الذي

اخترناه هو الأظهر. وهو اختيار الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ (تفسير الطبري: ١٥٣٦٩)

(٢) للمفسرين في معنى قوله تعالى: "واستعمركم" ثلاثة أوجه: أحدها معناه أمركم فيها بأن جعلكم فيها مدة أعماركم، قاله مجاهد، من قولهم أعمار فلان فلاناً داره فهي له عمرى. الثاني: أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه فيها بناء مساكن وغرس أشجار قاله علي بن عيسى. الثالث: أطال فيها أعماركم، قال الضحاك، كانت أعماركم ألف سنة إلى ثلاثمائة سنة. (تفسير الماوردي [النكت والعيون]: ٢٠٧/٢)

(٣) علي بن محمد بن علي، عماد الدين، أبو الحسن إلْكيا، بكسر الكاف، وبعُد، الياء آخر الحروف، الهَرَاسي، بتشديد الراء وبعُد الألف سين مهملة. تفقّه بنيسابور مدة على إمام الحرمين. وكان مليح الوجه، جهوري الصوت، فصيحاً، مطبوع الحركات، زكي الأخلاق. ولي تدرّيس النظامية ببغداد إلى مات سنة ٥٠٤ هـ. وحظي بالحشمة والجاه والتجمل، وتخرّج به الأصحاب، وروى عنه السلفي. وكان يستعمل الحديث في مناظراته. والْكيا بالعجمي هو الكبير القدر المقدم. ومولده سنة ٤٥٤ هـ. (الوافي بالوفيات: ٣٢/٧)

(٤) تفسير الألويسي ٢٨٨/٨



وكان من لطف نبي الله صالح أن استجاب لسؤال قومه إتيان دليل محسوس على صحة نبوته وصدق رسالته. إذ قالوا: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ۝۶۹﴾ قَالَ هٰذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرْبٌ وَلَكُمْ شَرْبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿الشعراء: ١٥٤، ١٥٥﴾ وقد يكون بذلك أول نبي جاء بمعجزة مادية محسوسة ملموسة. ورغم وجود هذه الآية البينة المحسوسة الماثلة أمامهم لم يكن ثمود ليرعوا بل تحدوا صالحا وعقروا الناقة وطلبوا العقوبة العاجلة من شدة عنادهم وعماية بصائرهم ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصْلِحُ آتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثَمِينَ ﴿[الأعراف: ٧٧، ٧٨]

ثم جاء شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان ما تميز به نبي الله شعيب يتمثل في ترشيده للتجار ومحاربة الفساد الاقتصادي وخاصة في تدقيق الكيل والميزان. قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَىٰ لَكُمْ بَخِيلًا خَائِفًا عَلَىٰ كُمُ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝﴾ [هود: ٨٤]

والقدر المشترك بين هؤلاء الأنبياء من نوح إلى شعيب أن دعوتهم قوبلت بالتكذيب والإنكار إلا عند قلة من المؤمنين المستضعفين فانتهت بالبشرية إلى الهلاك العام شمل كل الخلق، ما عدا هؤلاء القلة. وهكذا كان شأن البشرية مع دعوة التوحيد... إلى أن جاء خليل الرحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فغيّر مسار التاريخ، وأنقذ بني البشر من الهلاك المتكرر، وطوّر من خطاب الدعوة، فكانت تلك النقلة المباركة...

#### بعثة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ نقلة نوعية لتاريخ الرسالات

جاء إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فتى يافع مليء بالحيوية ومفعم بالشجاعة والحماسة، عقل كله ذكاء، وقلب كله عطف ونصح. خاطب أباه في غاية من اللطف والأدب والرفق:



﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِبِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۖ﴾ يَأْتِبِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٥﴾ يَأْتِبِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٦﴾ يَأْتِبِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٧﴾ [مريم: ٤٢-٤٥] فواجهه أبوه برد قاسٍ لا يقبل المساومة ﴿٤٨﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَتَّبِرُهُمْ لِيْن لَمْ تَنْتَه لَارْجُمَتَكَ ۖ وَأَهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٩﴾ [مريم: ٤٦] لكن خليل الرحمن ليس إنسانا عاديا، يرد السيئة بمثلها، يندفع لهوى النفس، بل كان قمة في الخلق وجبلا في الصبر، ما زادته قسوة الناس إلا حلما وشفقة ﴿٥٠﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٥١﴾ وَأَعْتَرِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٥٢﴾ [مريم: ٤٧، ٤٨] وكان أشبه الأنبياء بالحبيب المصطفى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خُلُقًا وَخَلْقًا، كما ثبت في الصحيحين، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَرَأَيْتُ إِبْرَاهِيمَ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَنَا أَشْبَهُ وَلَدِهِ بِهِ. (١)

خاطب قومه بأسلوب حوارٍ شيقٍ يتميز بالعقلانية وقوة الحجة. وكان من روائع أسلوبه أن تدرّج مع قومه بالمنطق الذي كانوا يفكرون به حتى بلغ بهم المطاف إلى حقيقة التوحيد بمبدأ عقلي دامغ، كما نرى ذلك في سورة الأنعام. (٢) وكان من ذكائه أن يستخدم دليلا عمليا ملموسا بعد أن انسد الإقناع بالدليل العقلي، (٣) وكان تحطيمه للأصنام ليس تهورا نتج عن الحماس الزائد، بل كان أسلوبا عمليا إقناعيا وخطوة مدروسة محسوبة العواقب، وكان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يستعد للمواقف الصعبة من أجل إظهار الحقيقة.

(١) أخرجه البخاري (٢٥٥/١١) رقم: (٣١٨٢) ومسلم (٣٩٦/١) رقم: (٢٤٥) واللفظ له

(٢) سورة الأنعام: ٧٥ - ٨٣

(٣) سورة الأنبياء: ٥١ - ٦٧



وبحكم نشأته في بلاد الرافدين - حيث المدنية المشهوددة والحضارة المرموقة - اكتسب إبراهيم ثقافة وعلم أهل عصره، فكان فكره عميقا ومنطقه بليغا، فأفحم أهل زمانه بثقافته العالية وأسكتهم بحججه الدامغة، حتى وصل به الأمر إلى أن خاطب ملك العراق بنفسه، فكانت تلك البديهة الإبراهيمية لا تفارقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿الَّذِي تَرَى إِلَى اللَّهِ دَاجٍ إِنَّهُ فِي رَبِّهِ أَنْ يَبْلُغَ أَهْلَهُ اللَّهُ الْمُلْكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]

وعلى الرغم من كل ما قام به الخليل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من دعوة منقطعة النظير إلا أن البشرية آنذاك ظلت على جهلها وأصرت على شركها بالله، وكاد مصير البشرية أن يلحق بالأمم قبلهم من الدمار الشامل والهلاك العام لولا دعوة إبراهيم: ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦] عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، وكان حقا علينا وعلى كل البشر أن نصلي ونسلم عليه صباح مساء في كل الصلوات والخَلَوَاتِ والجَلَوَاتِ، فكان منقذا للبشر أجمع ومصححا لمسار تاريخ بني آدم قاطبة...

لم يستجب له قومه، بل حاولوا إحراقه، لولا أن أنجاه الله وجعل النار له بردا وسلاما.. فهجر قومه ذاهبا إلى الشام، فكان منطلقا عالميا لدعوة التوحيد، وكانت النبوة والرسالة لم تخرج من دائرة ذريته إلى يوم القيامة. وورثت ذريته شرف الإمامة الدينية بلا منازع، فصارت ملة إبراهيم قبله كل مؤمن، وأصبح نهجه نموذجا يحتذى به إلى قيام الساعة. وشكل إبراهيم قاموسا دعويا يرجع إليه كل من بعده، حتى أمر الله نبيه محمدا خاتم النبيين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباع نهجه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]





حرص سيدنا إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أن تبقى ذريته متمسكة بدين التوحيد قال تعالى: ﴿وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] وفعلاً تمسك أبناء إبراهيم وأبناءه بدين التوحيد وتواصوا عليه، قال الله في حق إسماعيل: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥] وقال في إسحاق ويعقوب: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ۖ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣-٧٢] وقال على لسان يوسف: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۚ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يوسف: ٣٨]

#### قوم يونس أول مشهد للإيمان الجماعي

وبعد بعثة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ توقفت تلك السلسلة من العذاب المدمر، واتسمت الدعوة بعد ذلك بالسماحة وطول البال، وطولب الأنبياء بعده بصبر أكثر وحتى عاتب الله نبي الله يونس على استعجاله في مفاصلة قومه.<sup>(١)</sup> وقد علم الله أن قوم يونس قد أوشكوا على التوبة، فلم يكونوا مصرين على كفرهم وعنادهم بعد أن تركهم يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ. وكان قوم يونس أول جماعة بشرية ذكرها القرآن تستجيب لدعوة الرسل بشكل جماعي، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]

(١) ذكر الله هذا العتاب في ثلاثة مواضع في القرآن: في سورة الأنبياء الآية ٨٧-٨٨، وفي سورة الصافات الآية ١٣٩-١٤٨، وفي سورة القلم الآية ٤٨-٥٠.



قال قتادة في تفسير هذه الآية: لم ينفع قرية كفرت ثم آمنت حين حضرها العذاب، فتركت، إلا قوم يونس، لما فقدوا نبيهم وظنوا أن العذاب قد دنا منهم، قذف الله في قلوبهم التوبة، ولبسوا المسوح، وفرّقوا بين كل بهيمة وولدها ثم عَجَّوا إلى الله أربعين ليلة. فلما عرف الله منهم الصدق من قلوبهم، والتوبة والندامة على ما مضى منهم كشف الله عنهم العذاب بعد أن تدلى عليهم. قال: وذكر أن قوم يونس كانوا بنينوى أرض الموصل.<sup>(١)</sup>

وهكذا بدأ تاريخ بني آدم يشهد تناميا واضحا في قبول دعوة الأنبياء.

#### بداية مشاركة أهل التوحيد للحكم

ثم كان يوسف عَلَيْهِ السَّلَام، كانت بداية دعوته مع صاحبيه في السجن. فكان رغم معاناته داخل السجن يدعو إلى الله ﴿يُصَلِّحِي السِّجْنَ ءَأَرْبَابُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[يوسف: ٣٩، ٤٠].

وهكذا كان ديدنه عَلَيْهِ السَّلَام حتى وصل إلى سدة الحكم كالساعد الأيمن لملك مصر ووزير خزانته، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهِ؟ اسْتَخْلَصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٥٤) قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿[يوسف: ٥٤-٥٦] ويعتبر هذا أولى تجربة لأهل الإيمان في مزاوله المناصب العليا، مما رفع من شأن الدعوة إلى بلوغها الطبقة الحاكمة التي تقوم في الغالب ضد الدعوة الإيمانية.



وكان أثر هذا الموقع بقي طويلا إلى أن وصل صدى دعوته المباركة بعد موته بقرون إلى الأجيال المتلاحقة، كما ذكر به مؤمن آل فرعون قومه أيام دعوة موسى، فقال مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤] فكانت تجربة متميزة في ممارسة الدعوة وإظهار التدين في ظل حكم دولة غالب أهلها مشركون.

#### موسى ومشروع السيادة الإيمانية

ثم جاء دور موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بطل المواقف الصعبة ورمز الشجاعة ورباطة الجأش، إن قصة موسى مثيرة في كل تفاصيلها، وقد أعد الله مجيء موسى ليقوم بمهام صعبة تغير مجرى التاريخ. كان مجيئه في ظل الحضارة الفرعونية المتجبرة الظالمة. وكان على موسى أن يواجه تلك القوة الطاغية ليبليغ دعوة التوحيد أولا، ولينقذ بني إسرائيل من الاستعباد ثانيا، ثم قيادتهم وتربيتهم ليتأهلوا موقع الإمامة ثالثا. وكل واحد من هذه المهام الثلاث عمل شاق وأي مشقة. ولكن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليس إنسانا من الطراز العادي، فإن الله قد أعده إعدادا خاصا، قال تعالى مخاطبا موسى: ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١] ونشأته في قصر فرعون كانت تديرا مقصودا من عند الله ليرعاه الله رعاية خاصة، كما قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾

[طه: ٣٩]

فقد تربى موسى تربية ملكية، ونشأ معززا مكرما كفرد مهم من الأسرة المالكة، فاكسب خلق العزة وثقافة القيادة والريادة وتمكن من الاطلاع على سياسة الدولة. ولكن أصله الإبراهيمي ينزعه إلى الإيمان والإنصاف وعدم الرضى بالظلم،



فانتصر للمظلوم مهما كان أصله، وقتل ظالما مصريا انتصارا لإسرائيلي مظلوم، فاضطر إلى الفرار خارج مصر. وعاش عيش البداوة القاسية فترة من حياته. وقد أكسبته هذه التجربة قوة التحمل ومعرفة طرائق العيش في البادية، وقد علم الله أنه سيقود قومه في مزاوله الحياة البدوية. واختار الله له زوجة منها لتعينه على قسوة الحياة.

قابله الله مقابلة خاصة وكلمه بدون ترجمان، ليعود إلى مصر بنفسية عالية وروحانية مرتفعة، فواجه أعتى ملوك الأرض بثبات. وبدأ بحوار يعتمد على المنطق ويرتكز على العلم والعقل: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ ۖ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ۖ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ۖ قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ ۖ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ۖ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن تَبَاتٍ شَتَّىٰ ۖ كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ۝٥١ \* مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ۖ ﴿طه: ٤٩-٥٥﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۖ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ۖ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ ۖ أَلَا تَسْمَعُونَ ۖ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ۖ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ۖ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿الشعراء: ٢٣-٢٨﴾ ولم يأل موسى جهدا في تبين الحقائق حتى استفد كل ما يمكنه أن يقتنع به الإنسان ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾ ﴿طه: ٥٦﴾ والحقيقة أن فرعون كان يعرف صدق موسى وصحة ما جاء به ولكن منعه كبرياؤه وشيطانه عن اعتناق الحقيقة ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: ١٤]

وكانت لمصر ثقافتها العلمية المتقدمة لكن السيادة فيها للسحرة والكهنة، وليس بين العلم والكهانة والسحر فاصل آنذاك، فكان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مزودا بكل أنواع التفوق الذي يدعن له أهل زمانه. كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ



نَبِيِّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ.<sup>(١)</sup> ولما كان لأهل مصر آنذاك باع طويل في علوم السحر زود الله موسى بما يفوقهم فيما تبجحوا به من خارقة سحرية، فأعطاه الله العصى التي تتحول بإذن الله إلى ثعبان مبین، فواجه لعبة سحرية زائفة بقدرة خارقة حقيقية. فأمن به سحرة فرعون وقد عرفوا أن ما جاء به موسى ليس من قبيل السحر، وبحكم ثقافتهم ومعرفتهم بأسرار السحر وغاياته ميزوا بين السحر الزائف وبين ما هو حقيقي من عند الخالق العظيم، وبذلك نفذت دعوة موسى إلى الطبقة المثقفة المصرية، وإن كان رأس الدولة بقي مصرًا على جبروته مصممًا على محاربة موسى وأتباعه.

ثم كان ذلك التحول التاريخي حيث أمر الله موسى وقومه بمغادرة مصر، وأغرق فرعون ورجالاته في البحر الأحمر خلفهم. فبدأت حياة جديدة حرة متحررة من الطغيان الفرعوني، ليدخل بنوا إسرائيل مرحلة تحمل المسؤولية، بعد إنقاذهم من حياة العبودية فترة طويلة من تاريخهم. وكان ذلك "سيناريو" أعد الله لبني إسرائيل بقيادة موسى، ليري الله عباده حكمته ودقة تديره السابق: ﴿وَرِيدُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَهُمْ أَيْمَةً وَجَعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَتُمْكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥-٦]

وكان الدور المفترض لبني إسرائيل أن يسودوا الأرض بعد ذهاب فرعون، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعَفُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ ۚ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].



إن نعمة التمكين ليست هدية يتسلى بها، أو مكرمة يلتهم بها، لكنها مسؤولية وتكليف. وإن نعمة الحرية لها تبعه، وكان على بني إسرائيل أن يتحملوها، فقد ميزهم بدين التوحيد، وبعث فيهم أنبياء، وأعطوا كتابا مقدسا منزلا من عند الله، وشاهدوا معجزات لم يتسن لغيرهم رؤيتها، فعليهم أن يحملوا راية الانتصار لهذا الدين، ويقاوموا قوى الظلم والطغيان ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ٢٠﴾ يَنْقُومُ أَذْكُرُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿[المائدة: ٢٠، ٢١]

كان على بني إسرائيل أن ينفذوا مشروع سيادة الإيمان على الكفر، وقيادة الناس إلى التوحيد. فأمرُوا بالاستيلاء على الأرض المقدسة لتكون منطلق الدعوة الإلهية ومركز تطبيق الشريعة الربانية فانتكسوا وارتكسوا. إن مهمة قيادة الأمم تحتاج إلى روح الإقدام وقدر كبير من الشجاعة، ولم يكن شيء من ذلك لدى بني إسرائيل ﴿قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنُودُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢]

لم تكن لديهم مؤهلات السيادة بل لم تزل "قابلية الاستعباد" راسخة في نفوسهم، وكانت اهتماماتهم سخيفة، لم يقدروا على ترك الثوم والبصل والبقل مقابل هدف سام ودور رائد، وقد وفر لهم الله غذاء جاهزا من المن والسلوى والعيون المتفجرة ماء زلالا... ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَحِيدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْطُوا مُضْرًا فَإِن لَّكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]



فَضَّلُوا حَيَاةَ الذَّلَّةِ مَعَ الْبَصْلِ وَالثُّومِ وَالْبَقْلِ عَلَى احْتِمَالِ شُظْفِ الْعَيْشِ مِنْ أَجْلِ الْكَرَامَةِ وَالْعِزَّةِ وَالْحُرِّيَّةِ. فَقَدْ أَفْشَلُوا مَشْرُوعَ سِيَادَةِ أَهْلِ الْإِيمَانِ، لِأَنَّ هَذَا الْجِيلَ الَّذِي عَاشَ فِي الْعَبُودِيَّةِ زَمَنًا طَوِيلًا لَمْ يَنْفُضْ غِبَارَ الذَّلِّ عَنْ نَفْسِهِ، وَلَمْ يَكْتَسِبْ خَلْقَ الْإِعْتِرَازِ بِالْأَدِينِ وَتَحْمِلَ تَبْعَةَ الْمَسْئُولِيَّةِ وَلَمْ تَسْخِمْ نَفُوسُهُمْ لِدَفْعِ ثَمَنِ الْحُرِّيَّةِ. وَلَكِنْ تِلْكَ بَدَايَةُ إِعْدَادِ شَعْبٍ جَدِيدٍ، لَدَيْهِمْ رَصِيدٌ طَيِّبٌ غَطَاهُ غِبَارُ النَّفْسِ الْأَمَارَةِ بِالسُّوءِ، فَأَرْسَلَ اللَّهُ فِيهِمْ أَنْبِيَاءَ يُرَبِّيهُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ السُّلُوكَ الْإِنْسَانِي السَّوِيَّ. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ.<sup>(١)</sup>

وَمَا يَسِرُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مُوَاصَلَةَ الطَّرِيقِ أَنْ تَرَكَ مُوسَى لَهُمُ التَّوْرَةَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا وَيُحْكَمُونَ بِهَا، بِالإِضَافَةِ إِلَى وَجُودِ أَنْبِيَاءٍ يَعِيشُونَ بَيْنَهُمْ وَيُرْشِدُونَهُمْ. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [المائدة: ٤٤]

وهكذا عاش بنو إسرائيل في ظل شريعة موسى تحت قيادة أنبيائهم جيلاً بعد جيل، إلى أن ارتقت نفوسهم واشتاقوا إلى عيش الكرامة ووثاقت إلى حياة الأعزة الأحرار ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَّهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ولكن نبينهم في الحقيقة لم يلحظ منهم الاستعداد لخوض تبعات الجهاد، فسألهم: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَبَنَاتِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]

(١) أخرجه البخاري (٢٧١/١١) رقم: (٣١٩٦) ومسلم (٣٧٨/٩) رقم: (٣٤٢٩)



ورغم تلكؤهم في المسألة، وكان الدافع لديهم ليس دينيا بل دنيويا، مع ذلك سايهرهم بأن اختار منهم رجلا يمتلك المقومات القيادية، لأن ظهور الرغبة منهم في القتال فرصة نادرة طال انتظارها. فاختير طالوت ملكا لهم لما فيه من الاستعداد العلمي والجسدي، وميدان القتال يتطلب تفوقا في هذين الأمرين. والعجب أنهم اعترضوا لهذا الاختيار الإلهي -كعادتهم المعروفة - ورأوا أن الفقير ليس له مكان في القيادة وأن المنصب مغنم يتسابق إليه الوجهاء ويتكالب عليه الأثرياء ﴿قَالُوا أَتَىٰ يَكُونُ لَهُ أَلْمَلِكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمَلِكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلِكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]

وفعلًا أثبت طالوت جدارته في قيادة المعركة وقدر على اصطفاء عناصر صالحة لمواجهة عدو فاقهم في العدد والعدة والخبرة القتالية. وبذلك أضيف إلى قاموس الدعوة النبوية مصطلح مهم جديد وهو الجهاد في سبيل الله، ونصرة دين الله...

انتصرت القلة من بني إسرائيل على الكثرة من جيش جالوت. وبهذا الانتصار دخل بنو إسرائيل مرحلة أخرى جديدة، وبدأ مشروع السيادة الإيمانية في الأرض يرى النور ويتجه للظهور.

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١]

#### داود والسيادة الإيمانية الكاملة

فمن خلال أحداث المعركة ظهرت براعة داود وبطولته ليظهر بعد ذلك كشخصية قيادية جديدة يستلم مهمة إدارة مملكة أساسها الإيمان وغياتها التقوى





وشعارها ذكر الله والتسبيح والتحميد. وهو قرار مكتوب في الزبور الكتاب المنزل على داود: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [١٠٥] إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿[الأنبياء: ١٠٥، ١٠٦]

قامت مملكة داود عَلَيْهِ السَّلَام - وهي التي تغنى بها وحلم بها يهود اليوم، وكانت مملكة تقوم على الإيمان والطاعة، والاجتهاد في العبادة والذكر، وليست دولة التجبر والعنصرية والتطاول على عباد الله، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [١٧] إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿٧٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَضَّلْنَا الْخُطَابِ ﴿[سورة ص: ١٧-٢٠] وكان الله يشدد على نبي الله داود ألا يتبع هواه في حكمه على الناس، وهو نبي مؤيد بالوحي قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [سورة ص: ٢٦]

وهذه الدولة لا تقوم إلا بإقامة العدل والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والعز فيها للمؤمن المستقيم على أمر الله، وأما الناكبون عن الطريق والناكرون للمعروف فعليهم اللعنة، ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [٧٨] كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿[المائدة: ٧٨-٨٠]

ملك سليمان قمة يعقبها انحدار

ثم ورث ابنه سليمان عَلَيْهِ السَّلَام هذا الملك المبارك والحكم الموفق فكان نعم الوريث، ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [سورة ص: ٣٠] فبنى على ما



تركه أبوه أمورا كثيرة، وحقق على يديه منجزات لا يبلغها غيره. وما يخصنا هنا هو ما يتعلق بتطور الرسالات السماوية بما يشهد أن مسيرة الإنسانية تتنامى مع ما فضل الله به من إنزال الشرائع وإرسال الأنبياء. فما فعله نبي الله سليمان كثير لكن أهم ما يضيفه إلى تاريخ الدعوة هو استغلال موقعه كملك بلاد الشام وما جاوره لدعوة ملكة سبأ إلى الإيمان بالله وتوحيده،<sup>(١)</sup> فتقدم به النمو المطرد في تاريخ دعوة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وانطلق من المحور القومي ليرتقي إلى المحور الدولي الذي تجاوز الحدود الجغرافية والعرقية.

وبلغ من عظمة ملك سليمان أن سخر الله له الجن والطيور والرياح قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧] وقال تعالى: ﴿فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [٣٦] وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَتَاءٍ وَعَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿[سورة ص: ٣٦-٣٨]

ومن تعاسة بني إسرائيل أن اعتبروا هذه المفخرة التي أعطاها سليمان طعنا له في عقيدته وقدحا له في استقامته، وهو نبي مؤيد بالوحي مسدد بأمر الله. لقد اتهم اليهود سليمان بممارسة السحر ورموه بالكفر!! قال محمد بن إسحاق: لما ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سليمان في المرسلين قال بعض أحبارهم -يعني اليهود: يزعم محمد أن ابن داود كان نبيا! والله ما كان إلا ساحرا! فأنزل الله عَزَّجَلَّ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾<sup>(٢)</sup> وكذبوا وكذبهم الله فقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة: ١٠٢]

(١) سورة النمل: ٢٢-٤٤

(٢) تفسير القرطبي: ١/ ٢٨١



وهذا هو شأن بني إسرائيل وديدنهم مع أنبيائهم، فكان القضاء العدل عليهم أن يبقوا في الذلة والتشتت، قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَشَاءُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢] قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [٣٧] وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّمَّنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٧، ١٦٨]

انتهى ذلك المشروع السيادي الإيماني وانقسمت دولة اليهود بعد موت سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتفرق اليهود شذر مذر، وسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب، سلط عليهم ملك بابل ثم سلط عليهم ملوك الروم، وهكذا، وذلك لإنكارهم أنبيائهم وقتلهم لهم، وكفرهم بالله وقد تكرر ذلك أيام موسى وتفاقم بعد ذلك باستمرار حتى استحقوا ذلك المصير الأليم...

#### عيسى ابن مريم ودوره الانتقالي

بعث الله عيسى كآخر فرصة لبني إسرائيل، لأن يعودوا إلى رشدهم ويقدرُوا أنبياءهم. وكان مجيء عيسى على هيئة عجيبة ليعلم اليهود أنه ليس إنسانا عاديا بل كان معجزة إلهية، إنه كلمة من الله ألقاها إلى مريم وروح منه، وقد هيا الله قبل مجيء عيسى ظواهر مشابهة ليستعدوا مشاهدة مثل هذا الأمر. وكان مولد مريم آية ونشأتها آية ومولد يحيى آية وحياته آية. وكان عيسى مستجاب الدعوة وقد أجرى الله عليه يديه آيات كثيرة، لم ينفعهم كل ذلك بل رموه ورموا أمه الزكية



بأبشع التهم، وعادوه إلى أن رفعه الله وظنوا أنهم نجحوا في قتله وصلبه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٥٧]

قال تعالى على لسان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩]

كان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مبعوثاً إلى بني إسرائيل خاصة، ولكن كان أكثر المستجيبين له من غير اليهود، بل كان اليهود أول من عاداه وهم الذين تأمروا عليه، وهذا بدوره يؤكد انتهاء صلاحية بني إسرائيل لتحمل الرسالات، فكان الأنسب أن تنقل هذه المهمة إلى أقوام آخرين. فلم تعد إليهم النبوة أبداً.

وكان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يسبح في الأرض ليلبغ الناس دعوة التوحيد، وكانت معجزاته أموراً خارقة تفوق إمكانية البشر، وكان عصراً انتشر فيه الطب، إلا أن علم الطب آنذاك عاجز عن اكتشاف دواء للبرص والعمى، فأظهر الله على يديه أموراً تدل على أنه إنسان مؤيد من عند الله، والملاحظ أنه عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكثر من الحجاج العقلي كما فعله إبراهيم وموسى، لأنه كان أكثر ما يتجه إلى البسطاء من الناس، وكان عصر عيسى لم يزدهر فيه العمل العقلي مثلما كان في عهد إبراهيم وموسى. فلهذا السبب كان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أكثر الأنبياء إتياناً بخوارق عجيبة، من إحياء الموتى وغيره، لأنها أبسط أسلوب الإقناع وأقرب طريق إلى عقلية الناس آنذاك.

وكان الشام الذي تحرك في أرجائه المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ تحت حكم الرومان الذين كان شغلهم الشاغل بسط السيطرة وإذلال الشعوب والتباري على القوة الجسدية،



فكان عيسى يصب جهوده وكلامه على تصفية الروح والتزهد في الدنيا مقابل تلك المغالاة في تأليه المادة وعبودية الجسد.

فكانت رسالة عيسى عَلَيْهِ السَّلَام عنوانا بارزا في ترسيخ العقيدة وتهذيب الأخلاق، فقد أثر ذلك على طبع أتباعه بعده فكان يغلب عليهم الرقة والرأفة والرحمة، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]

وكان من آثار دعوته أن ظهرت صفة الرحمة لدى الروم الذين عاصروا صحابة رسول الله صلى عليه وسلم، حتى قال عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي حق الروم: إِنَّ فِيهِمْ لَخِصَالًا أَرْبَعًا إِنَّهُمْ لِأَحْلَمَ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ وَأَسْرَعُهُمْ إِفَاقَةً بَعْدَ مُصِيبَةٍ وَأَوْشَكُهُمْ كَرَّةً بَعْدَ فَرَّةٍ وَخَيْرُهُمْ لِمَسْكِينٍ وَيَتِيمٍ وَضَعِيفٍ وَخَامِسَةً حَسَنَةً جَمِيلَةً وَأَمْنَعُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الْمُلُوكِ<sup>(١)</sup> وفي رواية: إِنَّهُمْ لِأَحْلَمَ النَّاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ وَأَجْبَرِ النَّاسِ عِنْدَ مُصِيبَةٍ وَخَيْرِ النَّاسِ لِمَسَاكِينِهِمْ وَضُعَفَائِهِمْ<sup>(٢)</sup> وكان هرقل ملك الروم زمن البعثة يبجل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويقر بنبوته وإن لم تطاوعه نفسه لاتباعه والإيمان به، كما ثبت ذلك في صحيح البخاري<sup>(٣)</sup>.

ومن آثار دعوته أيضا أن يكون النصارى أقرب الناس إلى الإسلام في الغالب، قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي ذَلِكَ يَأْتِ مِنْهُمْ قَسِيسَاتٌ وَرُهَبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]

(١) أخرجه مسلم: ١٤/٨٧ رقم: ٥١٥٨

(٢) أخرجه مسلم: ١٤/٨٨ رقم: ٥١٥٩

(٣) في حديث طويل ذكره البخاري في صحيحه في كتاب بدء الوحي (١/٨ رقم: ٦)



وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ يبشر أتباعه بنبي من بعده اسمه أحمد، فكانت رسالته جسرا ممتدا ليصل بالبشرية إلى دخول مرحلة خاتم الرسالات ونهاية النبوات.

ثم كان من اجتهاد الحواريين بعد مغادرة عيسى لهم أن انتشروا في الآفاق، ونشروا دعوة التوحيد، ومن توفيق الله لهم أن أقبل عليهم الناس، فاعتنق دين المسيح ابن مريم شعوب كثيرة في شتى بقاع الأرض... وصدق الله وعده ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]

انتشر دين المسيح خاصة في ظل حكم الرومان الذين كانوا على دين الشرك، فكان أتباع المسيح مستضعفين، ودعاة هذا الدين مطاردون، فلم يتمكنوا من جمع تعاليم عيسى بشكل دقيق، ولم يحفظوا الإنجيل الذي جاء به عيسى، وكان الذي في مكنتهم هو أن يتذكروا رحلاتهم مع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وبعض أقواله ومواقفه، وهذا النقص المنهجي جعل من دين المسيح الذي دعا إلى التوحيد يسهل عليه التحريف لأنه لم يوجد فيهم حفظة، ولم يسرعوا إلى تدوين تعاليم عيسى، ولم ينسخوا الإنجيل الذي أنزل معه. ومما زاد الطين بلة أنه لما تراءى للقسطنطين ملك الروم أن يعتنق المسيحية أجبر علماءهم على تحريف دين التوحيد إلى عقيدة التثليث وفقا لهواه، وقتل وعذب كل من ثبت على التوحيد. وكان القتال بين طوائف المسيحيين ناشبا لا ينطفيء ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِنْثَقَهُمْ فَسَوْا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤]

أضف إلى كل ذلك الفساد المالي المتفاقم في مؤسساتهم الدينية ورجال دينهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُلُونَ أَمْوَالَ



النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ [التوبة: ٣٤]

#### اكتمال الدين على يد خاتم النبيين

بعد أن انحرفت المسيحية عن خط التوحيد وتحولت إلى دين يؤله المخلوق، وزد إلى ذلك اختلاطها بالخرافات والأساطير البالية واختلاف أهلها إلى فرق شتى وتقاتل بعضها ضد بعض، فكانت البشرية أحوج ما تكون إلى بعث جديد يصحح مسارها ويسدد طريقها وينهض بها إلى مراقي الكرامة الإنسانية بل ويتوج بها لتكتمل مسيرة الحضارة الإنسانية برسالة خاتمة يتم الله بها نعمته على بني آدم.

جاءت بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ بعد مسيرة طويلة من تظافر جهود الأنبياء عليهم الصلاة والسلام شملت ١٢٤ ألف نبي وثلاثمائة وبضعة عشر رسولا، كما روي عن أبي ذر مرفوعا رَوَاهُ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمْ وَفَى عِدَّةُ الْأَنْبِيَاءِ؟ قَالَ: مِائَةُ أَلْفٍ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفًا، الرُّسُلُ مِنْ ذَلِكَ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ جَمًّا غَيْرًا<sup>(١)</sup>. وفي رواية: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمْ النَّبِيُّونَ؟ قَالَ: مِائَةُ أَلْفٍ نَبِيٍّ وَأَرْبَعَةٌ وَعِشْرُونَ أَلْفٍ نَبِيٍّ. قُلْتُ: كَمْ الْمُرْسَلُونَ مِنْهُمْ؟ قَالَ: ثَلَاثُمِائَةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ<sup>(٢)</sup>.

تظافرت تلك الجهود المباركة وتراكمت وتكاملت لتضع في الأخير اللبنة المباركة التي أكملت البناء القيمي الإنساني على يد النبي الأمي محمد ﷺ.

(١) أخرجه أحمد ٢٥٢/٤٥ رقم: ٢١٢٥٧

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٩/ ٤٤١ رقم: ٤١٣١) والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٢٥٩) وشعب الإيمان (١/ ١٤٣ رقم: ١٢٤) قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله رجال الصحيح. (مجمع الزوائد: ١/ ١٢٠) وصححه التبريزي في مشكاة المصابيح (٣/ ٢٤٦ رقم: ٥٧٣٧) وحسنه الألباني (السلسلة الصحيحة: ٦/ ١٦٧ رقم: ٢٦٦٨)



وتميزت هذه الرسالة الخاتمة بخصائص تجعلها قادرة على شق طريق صاعدة تأخذ بأيدي البشرية إلى أفق كمالها الحضاري وقمة تمثلها الواقعي. وقد ذكر الرسول ﷺ بعضاً من هذه الميزات:

عن جابر بن عبد الله أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةَ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعْثُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً. (١)

وفي رواية عند الإمام أحمد: عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَزَاةً تَبُوكَ قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يُصَلِّي فَاجْتَمَعَ وَرَاءَهُ رِجَالٌ مِنْ أَصْحَابِهِ يَحْرُسُونَهُ حَتَّى إِذَا صَلَّى وَانْصَرَفَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ لَهُمْ: لَقَدْ أُعْطِيتُ اللَّيْلَةَ خَمْسًا مَا أُعْطِيَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: أَمَّا أَنَا فَأُرْسِلْتُ إِلَى النَّاسِ كُلِّهِمْ عَامَّةً وَكَانَ مِنْ قَبْلِي إِنَّمَا يُرْسَلُ إِلَى قَوْمِهِ، وَنُصِرْتُ عَلَى الْعَدُوِّ بِالرُّعْبِ وَلَوْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مَسِيرَةُ شَهْرٍ لَمَلِئَ مِنْهُ رُعبًا، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ أَكْلُهَا وَكَانَ مِنْ قَبْلِي يُعْظَمُونَ أَكْلُهَا، كَانُوا يُحْرِقُونَهَا، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسَاجِدَ وَطَهُورًا، إِنَّمَا أَدْرَكْتَنِي الصَّلَاةُ تَمَسَّحْتُ وَصَلَّيْتُ، وَكَانَ مِنْ قَبْلِي يُعْظَمُونَ ذَلِكَ، إِنَّمَا كَانُوا يُصَلُّونَ فِي كَنَائِسِهِمْ وَيَبِيعُهُمْ، وَالْخَامِسَةُ هِيَ مَا هِيَ؟ قِيلَ لِي: سَلْ، فَإِنَّ كُلَّ نَبِيٍّ قَدْ سَأَلَ فَأَخْرْتُ مَسْأَلَتِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ لَكُمْ وَلِمَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. (٢)

(١) أخرجه البخاري (٥٨/٢، ٣٢٣، ٢١٨/٢، ٤١٩) ومسلم (١٠٧/٣) رقم: (٨١٠)

(٢) أخرجه أحمد في مسنده: ٣٠٩/١٤ رقم: ٦٧٧١





بينما كان سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ سخر الله لها الريح ليقطع بها مسيرة شهر، كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطي ما هو أفضل منه، وهو أن تصل حالة الرعب والخوف إلى أعدائه عن بعد مسيرة شهر، لتنتصر دعوته وجنده بأقل جهد وأكبر إنجاز.

وجعلت الأرض كلها لأمة محمد مسجدا يصلون عليها ويعلنون بها طاعتهم لله، ويتطهرون بها ليسهل لهم التحرك في كل بقاع الأرض، يُشهدون للعالم ركوعهم وسجودهم لله الواحد القهار.

وأحل الله له ولأمته الانتفاع بغنائم الحرب بينما كانت الشرائع السابقة حرمت على أمتها أية استفادة من الغنيمة، بل عليهم إحراقها<sup>(١)</sup>، ذلك عدل الله وحكمته، لأن منطلق بني إسرائيل للقتال كان دنيويا كما يظهر ذلك على لسانهم: ﴿قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦] فكان الأنسب لهم وأصلح لهم أن يُمنعوا من أكل الغنيمة لئلا يتحول الجهاد إلى التكسب غرضه الدنيوي البحت، في حين أن أصحاب الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كانوا لا يلتفتون إلى الدنيا في جهادهم وحروبهم، ولما التفت جزء من جيش المسلمين إلى حظ دنيوي أدبهم الله بهزيمة في غزوة أحد تربيهم وتقومهم ليشبوا على

(١) كما ثبت ذلك فيما رواه الشيخان عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَقَالَ لِقَوْمِهِ لَا تَبْغَيْنِي رَجُلٌ بَضْعَ امْرَأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَنْبِيَّ بِهَا وَلَمَّا بَيْنَ بِهَا وَلَا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ حِلْفَانٍ وَهُوَ يَنْتَظِرُ وَلَا ذَا فَعَزَا فَدَنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ فَقَالَ لِلشَّمْسِ إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ اللَّهُمَّ احْسِبْهَا عَلَيْنَا فَحُجِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ فَجَاءَتْ يَغْنِي النَّارَ لِنَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمَهَا فَقَالَ إِنْ فِيكُمْ غُلُولٌ فَلْيَبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ فَقَالَ فِيكُمْ الْغُلُولُ فَلْيَبَايِعْنِي قَبِيلَتِكَ فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ فَقَالَ فِيكُمْ الْغُلُولُ فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلَ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنَ الذَّهَبِ فَوَضَعُوهَا فَجَاءَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا الْغَنَائِمَ رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجَزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا. أخرجه



صفائهم الأول، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما كنت أرى أن أحدا من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يريد الدنيا حتى نزلت فينا يوم أحد: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].<sup>(١)</sup> لكنها كانت حدثا تربويا فريدا يعلم المسلمين أن الإخلاص في الجهاد والتجرد من الدنيا شرط أساسي لنصرة الله.

ومن أهم ما تميزت به رسالة نبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: عالميتها وشمولها لكل الناس عابرة الحدود العرقية واللغوية والجغرافية وحتى الحدود الزمنية، بينما كان الأنبياء قبل تختص مهمتهم بأقوامهم فقط. وهذا ما يجعل هذا الدين المحمدي مرنا وقويا في نفس الوقت، المرونة التي تيسر على الناس تطبيقها في كل الظروف، والقوة التي تفرض وجودها في كل البيئات وعلى كل المجتمعات.

إن الطبيعة العالمية للدين الإسلامي المحمدي هي أقوى ميزة مؤدية إلى تفوقها على سائر الدعوات وباقي الرسالات، إنها ليست طموحا بشريا للاستيلاء على العالم -كما فسرها المستشرقون الذين لا يفهمون طبيعة هذا الدين، وقيسون الإسلام دائما على باقي الديانات - لكنها مهمة ربانية كلف بها الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأتمته من بعده. وقد ثبت هذا الأمر في القرآن المكي قال تعالى في سورة سبأ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ: ٢٨] وهي روح الفطرة التي ينجذب إليها كل قلب سليم وينتصر لها كل عقل رصين. فلم تمنعها الحدود ولم تسدها السدود عن توافد الأمم إليها أفواجا لينضموا إلى صفوف أمة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ...

(١) رواه البيهقي في دلائل النبوة (٣/ ٢٤٢ رقم: ١٠٧٨) وابن أبي حاتم في تفسيره (١٥/ ٣٢٥ رقم: ٤٣٧٨) ورواه الطبراني في الأوسط وأحمد في حديث طويل تقدم في وقعة أحد ورجال الطبراني ثقات (مجمع الزوائد: ٣/ ١٤٥)



إن هذه الرسالة طريق الكمال الإنساني، إن كل الدعوات السابقة تدعو إلى الفضائل والخلق الكريم، لكن دين محمد ﷺ يتّم كل دعوات الخير، قال ﷺ: إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ.<sup>(١)</sup> نعم إن هذا الدين جاء تنويجا لكل ما سبق من دعوات الأنبياء، وتكميلا لكل الشرائع الماضية، فهي تجمع كل ما تفرق في الكتب السابقة، وتكمل ما فاته الأنبياء السابقون.

قال علال الفاسي<sup>(٢)</sup>: "ولم تزل الإنسانية تخطو في مراحل الترقى والمعرفة حتى تم رشدها الديني بإرسال محمد ﷺ، فجاءها بخلاصة ما جاء به الأنبياء والرسل من قبله، وبما لم يأتوا به مما اقتضته درجة الرشد، وحاجة إكمال الدين، وبذلك انتهت التجربة الدينية للإنسان إلى غاية سعيدة هي تآلف العقل والدين، وتزاوجهما في اكتشاف أوامر الله وأحكامه وسننه في خلقه ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]

وحين تم الدين تمت الحاجة إلى إرسال الرسل فكان محمد خاتم النبيين، وكانت رسالته خالدة ودعوته أبدية..."<sup>(٣)</sup>

(١) أخرجه أحمد (١٣٨/١٨) رقم: ٨٥٩٥ بلفظ "صالح الأخلاق"، والبيهقي في الشعب (٩/١٧) رقم: ٧٧٤٨) والحاكم في المستدرک (٢/٦٧٠، رقم ٤٢٢١) وقال: صحيح على شرط مسلم قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٣/٤٦٩ باب مكارم الأخلاق والعفو عن ظلم، ٤/٦١ باب حسن معاشرته)

(٢) علال الفاسي (١٣٢٦ - ١٣٩٤ هـ / ١٩٠٨ - ١٩٧٤ م) علال أو محمد علال بن عبد الواحد بن عبد السلام بن علال بن عبد الله بن المجذوب الفاسي الفهري: زعيم وطني، من كبار الخطباء العلماء في المغرب. ولد بفاس وتعلم بالقرويين ومن مصنفاته: "مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها" و"الدفاع عن الشريعة" (الأعلام ٤/٢٤٦)

(٣) مقاصد الشريعة ومكارمها ص ٩-١٠



### المبحث الثاني: الإسلام شهادة تطور الحياة البشرية



وبهذه التطوافة حول تاريخ الأنبياء وتسلسل أدوارهم نعلم أن الإسلام شاهدٌ لتطور الحياة البشرية، ودل عليه ووجه الناس نحوه. فهؤلاء الأنبياء تابعوا تطورات الحضارات المتعاقبة عبر التاريخ الإنساني المديد. لا نقول أن تطور الحضارات الإنسانية كلها كانت بالدافع أو التوجيه الديني، فإن دوافع التقدم الحضاري متعددة، وهي مركوزة في فطر الإنسان، وكامنة في طبائع الحياة الإنسانية، ولكن الأنبياء يشهدون دوماً على ما توصل إليه الإنسان من تطور علمي وتقدم حضاري، وأقروا ما صح منه ونفع، ونبهوا على ما بطل منه وضر. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيْهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيْرٍ مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ، وَيُنْذِرَهُمْ شَرًّا مَا يَعْلَمُهُ لَهُمْ.<sup>(١)</sup> فلذلك كان خطابهم دائماً على مستوى ما عند الناس من الثقافات والعلوم<sup>(٢)</sup>. ولا شك أن الناس في كل الأزمنة استفادوا من حكم الأنبياء فبنوا ثقافتهم - أو على الأقل جزءاً من ثقافتهم - عليها. وليست مهمة الدين أن يُرجع الإنسانية إلى المربع الأول من الحالة البدائية الأولى.

بناءً على ذلك نقول إن دور الأمة المحمدية ليس في الدعوة إلى دين الأنبياء بمفهومه الضيق، بل عليهم أيضاً مهمة متابعة التقدم الحضاري الإنساني، بل أكثر من ذلك فإن الأمة المحمدية لهم قدرة ومؤهلات لقيادة التقدم الحضاري إذا أحسنوا فهم هذا الدين واستوعبوا مقاصدها وأدركوا مراميها، ولا يكتفون بالفهم الحرفي والنظر السطحي.

(١) أخرجه مسلم ٩/ ٣٨٠ رقم: ٣٤٣١

(٢) كما في الحديث: "نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم". روي في جزء من حديث أبي بكر بن الشخير من حديث عمر أخضر منه. وعند أبي داود من حديث عائشة "أنزلوا الناس منازلهم". (تخريج أحاديث الإحياء: ١/ ١٣٣ رقم: ١٣٣)



وقد كتب الله لهذه الأمة استمرار الخير فيها وتجدد حيويتها. فعليه ألا نخاف من الجديد في المستقبل ولا ننحصر على الأنماط القديمة التي لا يلزمنا الشرع بها، ولا نتوجس من كل شيء اسمه تطور. إن اتباع الأنبياء ليس انحباسا في قالب الماضي لكنه عملية وصل الماضي بالمستقبل.

إن هذا الدين الذي جاء به النبي الأمي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ليس معتقدا تقليديا يتلقاه الإنسان بلا دليل علمي. يبدأ الإيمان الإسلامي المحمدي بالأمر بالقراءة التي تكشف للإنسان حقائق الكون وهي منطلقات إيمانه بالله. قال تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝﴾ [العلق: ١، ٢]

ولم يكن إيمان أكثر أصحاب محمد ﷺ مبني على مشاهدة خوارق العادة كإيمان أصحاب موسى وعيسى، وإنما إيمانهم ناشئ عن قراءة فكرية ونتيجة علمية. ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّنْ جَنَّةٍ إِن هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٤] فهذه الآية دعوة إلى التفكير في صدق نبوة محمد ﷺ. ما كانت أمة محمد ﷺ تحتاج إلى ظهور خوارق غير معقولة ولا عجائب غير مألوفة حتى تصل إلى الإيمان بهذا الدين. وإن كان الله قد أجرى على يد رسوله الكريم معجزات خارقة كثيرة، لكنها ليست الأداة الرئيسة لإقناع الناس بهذا الدين. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا مِنْ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ. (١)

إن القرآن قد دل البشر إلى الإيمان ببرهان المنطق الذي لا يرده أي عاقل ولا تثبت دونه أية حجة ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ

(١) أخرجه البخاري: ٣٧٨/١٥ رقم: ٤٥٩٨



وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿الطور: ٣٥، ٣٦﴾ بل نوايس الكون ومظاهر الطبيعة كافية للدلالة على صحة هذا الدين. ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] فكان ديدنهم قول الشاعر<sup>(١)</sup>:

ويا عجباً كيف يُعصى الإلهُ      أم كيف يجحد الجاحد؟!  
وفي كل شيء له آية      تدل على أنه واحد..

وقد نشأت عن هذه المبادئ العلمية الحياة الثقافية الزاخرة بالتناج الفكري المتحرر والمنضبط بقواعد علمية رصينة سادت العالم أكثر من عشرة قرون.

كما أن القرآن علّمنا مبدأ التبيين والتثبت حتى لا يضيع الحق بالأقاويل الكاذبة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] وقد انبثق عن هذه الآية علم فريد عديم النظر يعد من مفاخر المسلمين وهو علم رواية الحديث ونقدها. وهو علم تفرد به المسلمون لا يجيده غيرهم إلى يومنا هذا.

كما حث القرآن على ملاحظة الكون لكشف الحقائق الكامنة والتوصل إلى المعلومات الغائبة، قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾ ٢٤ ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۚ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۚ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس: ٢٤-٢٧] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهْدًا ۖ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۖ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النبا: ٦-٨] واكتسب المسلمون من هذه الآية منهجية العلم التجريبي، وقد أقر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بهذا المبدأ، مبدأ التجربة في الأمور الدنيوية الفنية، فما أثبتت التجربة نفعه في هذا فهو مطلوب شرعاً، وما أثبتت ضرره فهو مفروض شرعاً.<sup>(٢)</sup>

(١) هو أبو العتاهية، انظر: تاريخ بغداد (٣/ ٣١٠) وبغية الطلب في تاريخ حلب (٢/ ١٥٠)

(٢) الرسول والعلم ص ٤٨



وأوضح مثال لهذا المبدأ: موقفه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من قضية تأبير النخل، حيث رأى أصحابه من الأنصار يفعلون ذلك، ولم يكن له بذلك عهد، حيث نشأ بمكة وهي واد غير ذي زرع، فقال لهم كلمة من باب الظن والتخمين، يشير إلى أن هذا العمل لا ضرورة له. وفهم الأنصار منها أنها من أمر الوحي والدين الذي لا يجوز مخالفته. فتركوا التأبير في ذلك الموسم، فخرج التمر رديئاً. فلما علم ذلك عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بين لهم أن كلمته لم تكن من باب الوحي الإلهي، بل من باب المشورة الدنيوية، حسب ظنه الناشئ عن خبراته البيئية المحدودة، ثم قال لهم في النهاية: "أنتم أعلم بأمور دنياكم." فهذه الشؤون الدنيوية الفنية المحضة متروكة لعقولهم ومعارفهم، يدبرونها وفقاً لمصلحتهم. وليس من شأن الوحي أن يتدخل فيها.<sup>(١)</sup>

مر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قوم في رؤوس النخل فقال: ما يصنع هؤلاء؟ قالوا: يلحقونه يجعلون الذكر في الأنثى. قال: ما أظن ذلك يغني شيئاً. فأخبروا بذلك فتركوه. فأخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقال: إن كان ينفعهم فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا أخبرتكم عن الله عَزَّوَجَلَّ بشيء فخذوه، فإني لن أكذب على الله شيئاً.<sup>(٢)</sup>

وفي صحيح مسلم<sup>(٣)</sup> من رواية رافع بن خديج<sup>(٤)</sup> أنه قال لهم: "إنما أنا بشر،

(١) الرسول والعلم ص ٤٨-٤٩

(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٦٢ رقم ١٣٩٥)

(٣) الإمام مسلم بن الحجاج بن مسلم بن وردكرشان القشيري النيسابوري، صاحب الصحيح، أحد الأئمة الحفاظ وأعلام المحدثين، توفي سنة ٢٦١هـ (شذرات الذهب ١/ ١٤٤)

(٤) رافع بن خديج بن رافع بن عدي الأنصاري الصحابي من الأنصار شهد أحداً وما بعدها مع رسول الله وكنيته أبو عبد الله وأمه حليلة بنت عروة بن مسعود توفي سنة ٧٤هـ (النجوم الزاهرة



إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر. <sup>(١)</sup>  
وفيه من رواية عائشة وأنس <sup>(٢)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أجمعين: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ  
أَخْرَجَ التَّمْرَ شَيْصًا -بَسْرًا رَدِيئًا- مَا لَنُخْلِكُمْ؟! قَالُوا: قُلْتَ كَذَا وَكَذَا. قَالَ: أَنْتُمْ أَعْلَمُ  
بَأَمْرِ دُنْيَاكُمْ. <sup>(٣)</sup>

فليس من الغريب أن يكون ابن الهيثم <sup>(٤)</sup> هو أول من اكتشف منهج العلم  
التجريبي في وقت مبكر جدا قرنين قبل روجر بايكون <sup>(٥)</sup> الذي ادعى الغربيون أنه  
هو المكتشف لهذا المنهج.

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٦/٤) رقم (٢٣٦٢)

(٢) أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب بن عامر بن غنم بن عدي بن  
التجار أبو حمزة الأنصاري الخزرجي خادم رسول الله واحد المكثرين من الرواية عنه خدام النبي  
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عشر سنين ودعا له النبي بكثرة المال والولد، اختلف في وفاته فقيل سنة ثلاث  
وتسعين وقيل إحدى وتسعين وقيل سنة تسعين (الإصابة ١/ ١٢٦-١٢٨)

(٣) أخرجه مسلم (١٨٣٦/٤) رقم (٢٣٦٣)

(٤) الحسن بن الحسن بن الهيثم (٣٥٤ - ٤٣٠ هـ / ٩٦٥ - نحو ١٠٣٨ م)، أبو علي أصله من البصرة  
ثم انتقل إلى الديار المصرية وأقام بها إلى آخر عمره. وكان فاضل النفس قوي الذكاء متفتنا في  
العلوم لم يمثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضي ولا يقاربه. وقد لخص كثيرا من كتب  
أرسطو وشرحها وكذلك كتب جالينوس، وكان خبيراً بأصول الطب وقوانينه. مات بالقاهرة سنة  
٤٣٠ هـ وكان على اعتقاد الأوائل صريح بذلك. (انظر ترجمته في: الوافي بالوفيات ٤/ ١٢٩ -  
١٣٠، الأعلام: ٨٣/ ٦، معجم المؤلفين: ٣/ ٢١٥)

(٥) روجر بايكون (Roger Bacon) (١٢١٤-١٢٩٤)، ويعرف أيضاً باسم Doctor Mirabilis  
أي "المعلم المذهل" باللاتينية، كان فيلسوفاً إنجليزياً وراهباً فرانسيسياً وهو الذي وضع  
التأكيد على التجربة. ويشكر أحياناً على إنجازاته كأول أوروبي يتكلم في قوانين المنهج العلمي  
وقد أثرت أعمال أفلاطون عليه عندما رأى العلوم الإسلامية. (انظر: Randall Noon (1992) -

Introduction to Forensic Engineering. CRC Press.

- Moorstein, Mark: Frameworks: Conflict in Balance, page 237, iUniverse, Inc., June 9,  
2004, 308 pp, ISBN 978-0-595-31824-7

- Sayed Khatab and Gary D. Bouma (2007). Democracy in Islam. Routledge. ISBN  
0415425743.





وحت الإسلام على ابتكار الأمور المفيدة للناس، ولم يحذ الجمود والسلبية والبطالة الفكرية، قال النبي ﷺ: مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجْرِهُمْ شَيْءٌ.<sup>(١)</sup>

وقد ابتكر الرسول هو نفسه أسلوب الإحصائيات في قياس منجزات الدعوة فقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة بن اليمان<sup>(٢)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: "احصوا لي كم يلفظ بالإسلام"<sup>(٣)</sup> حتى لفظ "الإحصاء" استعملها. وفي رواية البخاري في صحيحه أنه قال: "اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس". قال حذيفة: فكتبنا له ألفا وخمسة مائة رجل.<sup>(٤)</sup>

إن هذه الأسس العلمية والأعمال الابتكارية جعلت من حياة المسلمين فيما بعد تتقدم وتتطور بشكل ملحوظ، فأحدثوا أنماطا جديدة من العلوم والفنون والنظم والعمران، مما جعل الحضارة الإسلامية شاهدة على قدرة الدين لدفع حركة التقدم المدني، وهو الأمر الذي لم يحصل في التاريخ قبل بزوغ فجر الإسلام، فإن الدين غالبا ما يكون في صراع مستمر مع التقدم المدني إلا بعض استثناءات. ففي الحضارة الإسلامية تزوج الإيمان بالعلم، والدين بالدنيا. وهكذا وصل بالكمال الديني الذي حققته الرسالة المحمدية، لتقدم نموذجا فريدا من الحضارة الإنسانية التي تجمع بين الدين والدنيا، والعلم والإيمان. وإذا كانت شريعة محمد ﷺ قمة

(١) أخرجه مسلم: ١٨٩/٥ رقم: ١٦٩١

(٢) حذيفة بن اليمان العبسي صاحب السر المكنون في تمييز المنافقين ولذلك كان عمر لا يصلي على ميت حتى يصلي عليه حذيفة يخشى أن يكون من المنافقين توفي سنة ٣٦هـ (شذرات الذهب ٤٤/١)

(٣) أخرجه مسلم (١/١٣١ رقم ١٣٩)

(٤) أخرجه البخاري (٣/١١١٤ رقم ٢٨٩٥)



لشرائع الأنبياء، فأتمته المباركة خير الأمم، وهي التي تواصل تلك المسيرة المباركة من يوم آدم إلى قيام الساعة..

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الجمعة: ٤]

وقد شهدت هذه الأمة ما جرى بين الرسل وأقوامهم ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

[النساء: ١٦٤، ١٦٥]

فقد شاء الله أن يتوج تاريخ البشرية بأمة تشهد لله أمام كل البشر أن الرسل والأنبياء قد بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة وأن الله قد أقام الحجة على البشر. ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]

وهذا هو الموقع الذي أراده الله لهذه الأمة، أن تقف وسطاً<sup>(١)</sup> بين الأمم تشهد لله ما قامت به الأمم خلال هذا التاريخ المديد...

#### المبحث الثالث: أمة محمد تواصل مسيرة الأنبياء

لقد جاءت أمة محمد ﷺ بعد أن تجمّع لدى البشرية رصيد غني بتجارب الأمم، ولا غرو أن تكون هذه الأمة أكثر حظاً بتلك التجارب،

(١) تعددت أقوال المفسرين في تفسير كلمة "وسطاً" على ثلاثة معان هي: العدل والخيرية والتوسط ولا تعارض بين هذه المعاني لأن كلها منطبقة على وصف الأمة جملة.



والفضل لله أولاً وآخراً، وله الحمد. قال الرسول ﷺ: وَإِنَّكُمْ تَتِمُّونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ. <sup>(١)</sup>

وإن على هذه الأمة أن تواصل الجزء المتبقي من مسيرة خلافة أبناء آدم على الأرض. وقد عرض عليها صبر نوح وحلم إبراهيم وشجاعة موسى وزهد عيسى، وعاش بينهم خلق محمد عليه وعلى سائر الأنبياء أفضل الصلاة وأتم التسليم. وأضف إلى ذلك رؤيتها لعواقب الأمم الهالكة وتوبة قوم يونس وثبات أصحاب الكهف وصبر أصحاب الأخدود وحكمة ذي القرنين... إلى آخر ذلك الكم الضخم من كنوز الماضي الذي حواه القرآن وفصلته السنة وأضافه التاريخ...

فبذلك فقد تهيأ لأمة محمد ﷺ أن تشق طريقها بنفسها، لا تعوزهم الحاجة إلى وجود الأنبياء بينهم مثل بني إسرائيل. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَسَيَكُونُ خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُونَ. قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: فُوا بِبَيْعَةِ الْأَوَّلِ فَاَلْأَوَّلِ، أَعْطَوْهُمْ حَقَّهُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ سَأَلَهُمْ عَمَّا اسْتَرَعَاهُمْ. <sup>(٢)</sup>

نعم إن سياسة هذه الأمة موكولة إلى الخلفاء وهم أشخاص غير معصومين، وقد ائتمنهم الله على المصالح العامة لهذه الأمة. وإن مسؤولية إرشادها منوطة على علمائها لأنهم ورثوا ما عند الأنبياء من العلم. قال رسول الله عليه وسلم:

(١) أخرجه الترمذي وقال: هذا حديث حسن (١٠/٢٦٢ رقم: ٢٩٢٧) والنسائي في السنن الكبرى (٦/٤٣٩) وابن ماجه (١٢/٣٤٣ رقم: ٤٢٧٨) وأحمد (٢٣/٢٠٣ رقم: ١١١٥٨، ٤٠/٤٨١ رقم: ١٩١٦٠)

(٢) أخرجه البخاري (١١/٢٧١ رقم: ٣١٩٦) ومسلم (٩/٣٧٨ رقم: ٣٤٢٩)



وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ.<sup>(١)</sup>

إن ما تفضّل الله به على هذه الأمة يكفي لتأهيلها تحمّل هذه المسؤولية العظيمة، وإن الله تكفل بإتيان "البدائل" إذا حدث فيها ارتداد أو انتكاس عن الخط المستقيم قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]

وتوالى الأجيال والأقوام والشعوب في حمل هذه الرسالة الخاتمة ونشرها والذود عنها والدعوة إليها، وظلت هذه الأمة تشق طريقها وستظل على طريقها، وقد حدث فيها سقوط أو ركود أو كبوة، وانحرف فيها من انحرف، وفتن من فتن، لكنها لم تعدم فيها من يقوم لله بالحق، قلّوا أو كثروا..

وأول كبوة اعترت هذه الأمة كانت في نظام الحكم والأمور السياسية. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَيَنْقُضَنَّ عُرَى الْإِسْلَامِ عُرْوَةُ عُرْوَةٍ فَكُلَّمَا انْتَقَضَتْ عُرْوَةٌ تَشَبَّثَ النَّاسُ بِأَلْتِي تَلِيهَا وَأَوَّلَهُنَّ نَقْضُ الْحُكْمِ وَآخِرُهُنَّ الصَّلَاةُ.<sup>(٢)</sup>

هي كبوة ظلت قرونا وقرونا ولكنها لا تدوم، ولم تخل من محاولة إصلاح أو فترات صعود بعد هبوط، فقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ

(١) أخرجه أبو داود (٤٩/١٠) رقم: (٣١٥٧) والترمذي (٢٩٦/٩) رقم: (٢٦٠٦) وأحمد (١٩٢/٤٤) رقم: (٢٠٧٢٣) وابن حبان (١٧١/١) رقم: (٨٨) ورواه البخاري معلقا في كتاب العلم باب الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

(٢) أخرجه أحمد (٤٥/١٣٤) رقم: (٢١١٣٩) وابن حبان (٤٧١/٢٧) رقم: (٦٨٣٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٣٨/١) رقم: (٥٧٢)



أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعَهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونَ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ فَتَكُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعَهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونَ مُلْكًا عَاصِبًا فَيَكُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعَهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونَ مُلْكًا جَبَرِيَّةً فَتَكُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ ثُمَّ يَرْفَعَهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا ثُمَّ تَكُونَ خِلَافَةً عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ ثُمَّ سَكَتَ. <sup>(١)</sup>

وهو شأن هذه الأمة التي لا تتوقف عن تصحيح مسارها وتقويم اعوجاجها، فقد أخبر الصادق المصدوق عن هذا التجدد المستمر وهذه الحيوية غير المنقطعة فقال: لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ. <sup>(٢)</sup> وعند أبي داود: لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ نَاوَاهُمْ حَتَّى يُقَاتِلَ آخِرُهُمُ الْمَسِيحُ الدَّجَالُ. <sup>(٣)</sup> وفي رواية لمسلم: لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ. قَالَ: فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالِ صَلِّ لَنَا، فَيَقُولُ: لَا إِنْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ، تَكْرِمَةً اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ. <sup>(٤)</sup>

#### هكذا نفهم التاريخ وهكذا نرى المستقبل

فهذا هو تاريخ أمة محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتاريخ الأمم قبلها، كما قاله القرآن وأخبر عنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. إنه تاريخ يشمل ثباتا في المعيار وارتقاء في النتيجة، وينضبط وفق سنن الله التي لا تبدل، ولكنه يتوسع في أنماط التقدم العلمي والحضاري، فميزان الله لا يتغير ولكن مدده يزيد.

(١) أخرجه أحمد (٣٧/ ٣٦١ رقم: ١٧٦٨٠) والطبراني في الكبير (١/ ١٥٩ رقم: ٣٧٢) والبيهقي في دلائل النبوة (٧/ ٤١٣ رقم: ٢٨٤٣) حسنه التبريزي في مشكاة النبوة (٣/ ١٦٧ رقم: ٥٣٧٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٤ رقم: ٥)

(٢) أخرجه البخاري (٢٢/ ٢٨٦ رقم: ٦٧٦٧)

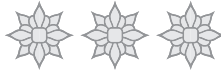
(٣) سنن أبي داود (٦/ ٤٨٧ رقم: ٢١٢٥)

(٤) صحيح مسلم (١/ ٣٧٣ رقم: ٢٢٥)



فكما أنا لحظنا تصاعدا في خط التاريخ فإننا نرى أيضا أفقا مشرقا في المستقبل، وخاصة إذا انضممنا في صف هؤلاء الذين لا يزالون متمسكين بهذا الدين، فإن المستقبل موعود لهم، كما أخبرنا الله ورسوله.

ولا نغفل عن التحذيرات التي حذرنا الرسول ﷺ، لقد حذرنا بوقوع الفتن، وأيام الصبر، والزلازل والخسوف، وانتشار الزنا، وظهور الهوى، نعم هي حقائق ثابتة - وإن كانت المبالغة فيها أيضا جناية على عقولنا وقتلاً لأملنا - ولكن قد كثر كلام الناس فيها، وهي كلها نصف القصة وشر الحقيقة، وغفل الناس عن النصف الآخر وأهملوا الشرط الباقي. والإيمان قائم على التوازن بين الخوف والرجاء، والحكمة راكزة على المزاجية بين الأمل والحذر.





## الفصل الثالث: توسيع دائرة البدعة

وشبهة أخرى وسوء فهم آخر استولى على تفكير بعض المسلمين جعلهم يظنون أن كل شيء جديد لم يكن في عهد السلف بدعة منكرا ينبغي اجتنابها وتجب محاربتها. فهل كل شيء استحدث بعد عهد السلف الصالح بدعة منكرا؟ أم أن الرسول ﷺ قصد بالبدعة نوعا خاصا من المستحدثات؟ سنعالج هذه المسألة بالرجوع إلى مجموع النصوص المتعلقة بهذا الموضوع لنعرف ما هو المقصود بنهي النبي ﷺ عن البدعة.

إن الكلام عن البدع يدور على ثلاثة أحاديث:

الأول: حديث العرباض بن سارية: قَالَ صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَوَعظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُودِعٌ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلَّ بَدْعَةٍ ضَالَّةٌ.<sup>(١)</sup>

الثاني: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ أَخَذَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ.<sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه أبو داود (٢١١/١٢) رقم: (٣٩٩١) وأحمد (٩/٣٥) رقم: (١٦٥٢١) وابن حبان (١/١١)

رقم: (٥)

(٢) أخرجه البخاري (٩/٢٠١) رقم: (٢٤٩٩) ومسلم (٩/١١٨) رقم: (٣٢٤٢)



والثالث: عن عائشة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ.<sup>(١)</sup>

ولفهم هذه الأحاديث لا بد من تفصيل نقاط ثلاث: ما معنى البدعة الذي قصده الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ ما هي الأمور المحدثات التي تدخل في مسمى البدعة؟ وهل هذا العموم يدخله تخصيص؟

#### معنى البدعة لغة واصطلاحاً

أما أصل كلمة البدعة في اللغة فهو من أَبْدَعْتُ الشيء أي اخترعته على غير مثال سابق.

قال ابن فارس: (بدع) الباء والدا ل والعين أصلان: أحدهما ابتداء الشيء وصنعه لا عَنْ مِثَالٍ، والآخر الانقطاع والكَال.

فالأول قولهم: أَبْدَعْتُ الشيء قولاً أو فعلاً، إذا ابتدأته لا عن سابق مثال. والله بديع السموات والأرض. والعرب تقول: ابتدَعَ فلان الركي إذا استنبطه. وفلان بدع في هذا الأمر. قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، أي ما كنت أول.

والأصل الآخر قولهم: أَبْدَعَتِ الراحلة، إذا كَلَّتْ وَعَطِبَتْ، وأبدع بالرجل، إذا كَلَّتْ رِكابُه أو عَطِبَتْ وبقي مُنْقَطِعاً به. وفي الحديث: "أن رجلاً أتاه فقال يا رسول الله، إني أبدو بي فاحملني".<sup>(٢)</sup> ويقال الإبداع لا يكون إلا بظُلْعٍ. ومن بعض ذلك اشتقت البدعة.<sup>(٣)</sup>

(١) أخرجه مسلم (١١٩/٩) رقم: (٣٢٤٣)

(٢) أخرجه مسلم: ٤٨٦/٩ رقم: ٣٥٠٩

(٣) مقاييس اللغة: ٢٠٣/١





قال أبو عبيد: قال أبو عبيدة: يقال للرجل إذا كَلَّت رِكابه أو عطبت وبقي منقطعاً به: قد أُبدِع به.

قال: وقال الكسائي مثله، وزاد فيه: أبدعت الركاب إذا كَلَّت وعطبت، وقال بعض الأعراب: لا يكون الإبداع إلا بظُلُع، يقال أبدعت به راحلته إذا ظَلَعَتْ.

قال أبو عبيد: وليس هذا باختلاف، وبعضه شبيه ببعض.

وقال اللحياني: يقال أَدَع فلان بفلان إذا قَطَعَ به وخذله ولم يَقم بحاجته ولم يكن عند ظنه به.

وقال أبو سعيد: أَدَعْتُ حُجَّة فلان أي أَبْطَلْتُ، وأَدَعْتُ حِجَّتَهُ أي بَطَلْتُ.

وقال غيره: أَدَع بَرُّ فلان بشكري وأَدَع فضله وإيجابه بوصفي إذا شكره على إحسانه إليه، واعترف بأن شكره لا يفي بإحسانه.<sup>(١)</sup>

نخلص من هذا السرد لأقوال اللغويين بأن كلمة البدعة لها أصلان: الأول معنى اختراعه وحدوثه على غير سابق مثال، والثاني معنى الانقطاع لسبب من الأسباب. فالبدعة على المعنى الأول مقطوعة من جهة أصله وعلى الثاني من جهة استمراره.

أما معناها في اصطلاح الشرع فهو - كما قال ابن رجب الحنبلي: ما أُحْدِثَ مِمَّا لا أصل له في الشريعة يدلُّ عليه. فأما ما كان له أصلٌ مِنَ الشَّرْع يدلُّ عليه، فليس ببدعةٍ شرعاً، وإن كان بدعةً لغَةً.<sup>(٢)</sup>

فهذا التعريف يخصص من محدثات الأمور ما لا أصل له في الشريعة، أما الأمور المحدثه التي تستند إلى أصل شرعي فليس ببدعة. قال ابن دقيق العيد في قوله: "وإياكم ومحدثات الأمور": أعلم أن المحدث على قسمين: محدث ليس

(١) تهذيب اللغة: ١/ ٢٣٤

(٢) جامع العلوم والحكم ص ٢٤



له أصل في الشريعة فهذا باطل مذموم. ومحدث يحمل النظر على النظر، فهذا ليس بمذموم لأن لفظ المحدث ولفظ البدعة لا يذمان لمجرد الاسم بل لمعنى المخالفة للسنة والداعي إلى الضلالة، ولا يذم ذلك مطلقاً.<sup>(١)</sup> واستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحِثُّهُمْ﴾ [الأنبياء: ٢] فقد وُصف الذكر - أي القرآن - بأنه محدث مع أنه هو ذاته أصل الشرع، ويقول عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في وصف صلاة التراويح: "نعمت البدعة هذه."<sup>(٢)</sup>

فليس كل ما هو محدث أو مبتدع داخلاً في النهي المقصود. فقد أحدث المسلمون واخترعوا أموراً غير معهودة في عهد الرسول ولا الصحابة، فتلك المخترعات والمحدثات منها ما له أصل في الشريعة ومنها ما ليس له أصل فيها. فعلم النحو والصرف ومفردات اللغة وأصول الفقه ومصطلح الحديث وسائر العلوم الخادمة للشريعة، فإنها وإن لم توجد في الزمان الأول، فأصولها ثابتة في الشرع، بل هي امتداد ضروري لاستمرار فاعلية الشرع، فأحداثها مطلوب شرعاً، ولا يستقيم أمر الدين بدونها.

ولكن هذا التعريف لم يفرق بين الأمور الدينية والأمور الدنيوية أو بين العبادات والعادات. والشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ - وإن أورد خلافاً في المسألة - أكد أن التعريف مقيد بـ"الدين" وقال إن البدعة هي عبارة عن: "طريقة في الدين مخترعة، تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التبعيد لله سبحانه."<sup>(٣)</sup>

(١) شرح الأربعين النووية، لابن دقيق العيد، ص ٢٥

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (١/ ٣٤٠ رقم: ٢٣١)

(٣) الاعتصام: ١/ ٤٧، لأبي إسحاق الشاطبي، تحقيق ودراسة: د محمد بن عبد الرحمن الشقيير و د سعد بن عبد الله آل حميد و د هشام بن إسماعيل الصيني، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، طبعة ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م



قال: وإنما قيدت بالدين، لأنها فيه تخترع، وإليه يضيفها صاحبها. وأيضا فلو كانت طريقة مخترعة في الدنيا على الخصوص لم تسم بدعة، كإحداث الصنائع والبلدان التي لا عهد بها فيما تقدم.<sup>(١)</sup>

وهذا الذي اختاره الشاطبي وغيره هو المشهور، ولكن في المسألة رأيا آخر عند العلماء. وسيأتي تفصيله قريبا بحول الله.

وقد أضاف الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ قَيدَين آخرين فوق قيد "الدين". فوصف البدعة بكونها "تضاهي الشرعية" فإن البدعة لا تكون بدعة إلا إذا وضعت موضع الشرعية ونُظِرَ إليها كأمر له صفة شرعية وقداسة دينية. وهذه اللفتة مهمة، لأن الشرع لا ينهى عن إحداث أمر جديد لكونه جديدا غير معهود، بل نهى عنه لكونه مضاهاة للشرع وافتراء عليه ما لم يكن منه.

فعلى هذا فإن أحسن التعاريف التي قيلت في البدعة هو تعريف العلامة حافظ الحكمي، قال: "... ومعنى البدعة هو: "شرع ما لم يأذن الله به ولم يكن عليه أمر النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولا أصحابه".<sup>(٢)</sup> فقد أبرز كون البدعة عبارة عن شرع ما لم يأذن به الله.

وأما القيد الأخير للشاطبي وهو قوله: "يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله" فلا يسلم به لأنه يلزم منه أنه إذا كان القصد غير المبالغة في التعبد لم يكن بدعة، وقد حدثت بدع كان القصد منها أسوأ من ذلك، وهو تغيير معالم الدين وإبعاد الناس عن العقيدة الصحيحة كما عند الفرق الضالة كالجهمية

(١) الاعتصام: ٤٧/١

(٢) معارج القبول ٣/٢٢٨



والباطنية وغيرهم. فليس عندهم قصد المبالغة في التعبد بل قصدهم التسبب والتملص من حدود الدين.

وعليه فالتعريف المختار عندي هو: "ما أحدث من أمر الدين مما لا أصل له منه ولا دلّ عليه." فإن كل ما أحدث في غير أمر الدين فليس من البدعة، وكذلك ما له أصل فيه ودل عليه دليل الشرع. وقد سبق بيان ذلك. فكل من أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات أو الأعمال أو الأقوال الظاهرة والباطنة.<sup>(١)</sup>

#### مفهوم البدعة بين التوسيع والتضييق



فقد اختلفت أنظار العلماء في تعريف البدعة وتحديد مفهومها من حيث الإطلاق والتقييد. فمنهم من حصر البدعة في باب العبادات فضيّق مفهومها فقصرها على الابتداع في أمور الدين التعبدية حصراً. ومنهم من وسّع مفهومها فأطلقها على كل محدث من الأمور، وجعلها تنقسم إلى أقسام خمسة: فهي إما واجبة أو مندوبة أو مباحة أو مكروهة أو محرمة.<sup>(٢)</sup>

وقال بهذا الرأي: الإمام عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء وابن الجوزي وأبو شامة المقدسي والنووي والعيني وابن الأثير والقرافي والسيوطي وغيرهم. قالوا: إن البدعة تطلق على كل محدثة لم توجد في كتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ولا في سنة رسوله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - سواء أكانت في العبادات أم العادات وسواء أكانت محمودة أو مذمومة.<sup>(٣)</sup>

(١) جامع العلوم والحكم ٢٨ / ٢٥

(٢) انظر: اتباع لا ابتداع قواعد وأسس في السنة والبدعة، المؤلف: د حسام الدين بن موسى محمد بن عفانة، ص ٢٣، الطبعة: الثانية، مصححة ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، بيت المقدس، فلسطين.

(٣) انظر مسالك العلماء في تعريف البدعة في المصادر الآتية: قواعد الأحكام ٢ / ١٧٢، =



فأدخلوا في البدعة مع العبادات والعادات ما له أصل شرعي وما ليس له أصل. فهم بالتالي لا يفرقون بين البدعة بمعناه اللغوي ومعناها الشرعي. وبناء عليه قالوا إن البدعة تنقسم إلى حسنة وسيئة، فإن وافقت السنة فهي حسنة محمودة، وإن خالفت السنة فهي سيئة مذمومة.

وقال بالرأي الأول: الإمام مالك والبيهقي والطرطوشي وشيخ الإسلام ابن تيمية والزركشي وابن رجب والشُّمْنِي الحنفي وغيرهم، واختاره جماعة من العلماء المعاصرين.<sup>(١)</sup> فقد ذهبوا إلى أن البدعة مخالفة للسنة ومذمومة شرعاً، لأنها محدثة لا أصل لها في الشرع. فليس من البدعة المحدثات في الأمور الدنيوية والعادات، وليس من البدعة أيضاً المحدثات التي تستند إلى أصول شرعية معتبرة.

وهذا القول أسلم وأقرب إلى فحوى النصوص لأن جمع المحمود والمذموم في مسمى البدعة لا يتناسب مع مطلق إنكار الرسول ﷺ للبدعة وتعميم ضلالته، ولم يستخدم الشرع لفظ البدعة إلا في سياق الذم. صحيح أن هذا العام مخصوص ببعض المحدثات التي تنشأ من أصول شرعية معتبرة كما قدمنا، ولكن هذا الخلط يؤدي بالنهي إلى عدم الفائدة، لأنه إذا قلنا إن المرجع في رفض المحدثات إلى مخالفة السنة فقط فلا داعي للنهي عن المحدثات لكونها محدثات. فتلك الأحاديث لم تستند إلا إلى كون المحدثات ليس لها عهد ولا أصل يرجع

= الاعتصام ١/ ٣٧، تهذيب الأسماء واللغات ٣/ ٢٢، اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٧٠، تلبس إبليس ص ١٦، فتح الباري ٥/ ١٥٦، جامع العلوم والحكم ص ٣٣٥، الفروق ٤/ ٢٠٢، تهذيب الفروق ٤/ ٢١٧، فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ٢/ ٣٢١، الموسوعة الفقهية ٨/ ٢١.

(١) الفروق ٤/ ٢٠٢، تهذيب الفروق ٤/ ٢٢٩، الحوادث والبدع ص ٢١، اقتضاء الصراط المستقيم ص ٢٧٠ - ٢٧١، جامع العلوم والحكم ص ٣٣٥، البدع والمصالح المرسله ص ١٠٣ - ١٠٧.



إليه. ولأن الخلط بين المعنى اللغوي والمعنى الشرعي يفتح الباب على كل دعوى استحسان بدعة تأتي بمبررات وحجج متكلفة، وبالتالي فهو يحدث إرباكا كبيرا لدى عامة الناس لعدم وضوح تحديد معنى النهي، ولأنه بذلك يكون المخصوص أكثر من المشمول، والمستثنى أكثر من المستثنى منه، وهو أمر يُخلّ بفصاحة البيان ولا يليق ببلاغة لغة الشرع التي لا عوج فيها ولا التواء.<sup>(١)</sup>

المحدثات التي ليست بدعا منها عنها

ورغم هذا الاختلاف بين القولين فإنهم اتفقوا على أن عموم الحديث "كل محدثة بدعة" مخصوص، فأول ما يخصه حديث عائشة المتفق عليه "من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه" فهناك قيدان لذلك العموم: الأول قوله "في أمرنا" يعني في أمر الدين وأمر التشريع، والثاني: "ما ليس منه" يعني ما لا أصل له من الدين والشرع.

فعلى المذهب الأول الذي ضيق معنى البدعة يكون هذان القيدان يخصصان مسمى البدعة. وعلى المذهب الثاني الذي وسعه يكون القيدان يخصصان النهي المسلط على البدعة.

(١) اختلف العلماء في استثناء الأكثر بين المنع والجواز، قال الغزالي: "أما استثناء الأكثر فقد اختلفوا فيه، والأكثر على جوازه قال القاضي رَحِمَهُ اللهُ: وقد نصرنا في مواضع جوازه، والأشبه أن لا يجوز؛ لأن العرب تستقبح استثناء الأكثر، وتستحق قول القائل: رأيت ألفا إلا تسعمائة وتسعة وتسعين، بل قال كثير من أهل اللغة: لا يستحسن استثناء عقد صحيح بأن يقول: عندي مائة إلا عشرة أو عشرة إلا درهما بل مائة إلا خمسة، وعشرة إلا دانقا، كما قال تعالى: ﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤] فلو بلغ المائة لقال فلبث فيهم تسعمائة، ولكن لما كان كسرا استثناءه." وخلص الغزالي إلى أن استثناء الأكثر جائز في كلام الناس ولكنه قبيح قال: وكلما ازداد قلة ازداد حسنا. (انظر: المستصفى ١٤٧/٢ - ١٤٩)



وقد استقر رأي الأمة سلفا وخلفا على إقرار كثير من الأمور التي حدثت وأحدثت بعد عهد رسول الله ﷺ، فمنها: كتابة المصحف وتدوين الأحاديث وكتابة التفسير وتدوين الفقه والكلام في علوم اللغة. وهذا في أمور الدين كلها لها أصل في الشرع، أما في أمور الدنيا فحدث ولا حرج، فقد أحدثوا في بناء مدن وإنشاء الدواوين وترتيب الجيوش... إلى آخره.<sup>(١)</sup> وهكذا فإن الإسلام لا يقف أمام اختراعات الإنسان لصالح أمور دينهم ودنياهم. ولا يشجع الإسلام على البقاء في قالب جامد في التفكير الديني الذي يمنع التصرف الواسع في خدمة الدين وإصلاح الدنيا.

وقد استمر هذا النمط من التوسع في إحداث العلوم وصور العمران قرونا طويلة، حتى دخلت الأمة في عصر الجمود الذي توقفت فيه حركة التوسع الحضاري والإنتاج الفكري، فلم تنتج الأمة أي جديد سوى صور من التكرير والترديد. وبدل أن يبتكروا في الميادين التي سمح فيها الشرع وحث عليها اتجهوا إلى ابتداع أنماط تعبدية واعتقادات دينية ما أنزل الله بها من سلطان. فانقلبت حال الأمة من موقع قائد إلى مقود، ومن سائد إلى مسود، ومن غالب إلى مغلوب.

#### لماذا مُنعت البدعة؟

وحتى يكتمل التصور لمسألة البدعة لا بد من استيعاب المغزى الذي قصده الشرع من نهى البدعة والتشديد عليه، ليكون فهمه لهذه المسألة مبنيا على الوعي بما قصده الشرع من جلب المصالح ودفع المضار. فلم يأمر الشرع إلا لتحقيق المصالح ولم ينه عن شيء إلا لدفع المضار.

(١) انظر: جامع العلوم والحكم ص ٢٩، وقواعد الأحكام: ٢ / ٣٨٠-٣٨٤، وفتح الباري: ٢٠ / ٣٣٠ رقم: ٦٧٣٥.



والحقيقة أن النهي عن البدعة يحقق مصالح متعددة ويجنب مضار متنوعة:

أولاً: أن الشرع يريد الحفاظ على أصالة الدين ونقاوته. وأية زيادة على ما وضعه الشرع يهدّد في قوته الأصيلة ويخل بخصائصه المتميزة ويفسد مكوّناته المكتملة. ولقد أكمل الله الدين، وشمل هدي السنة جميع مناحي الحياة البشرية، فإذا نشأت بدعة واحدة انزاحت عن مكانها سنة، كما في الحديث: ما أحدث قومٌ بدعةً إلا رُفع من السنة مثلها.<sup>(١)</sup>

ثانياً: إن الشرع قصد الاقتصار على نمط محدد من صنوف العبادات ليتيح مجالا واسعا في الأعمال الدنيوية. فلو زيد من الأعمال التعبدية على ما علمه الرسول ﷺ صار ذلك على حساب وقت الناس في أشغالهم الدنيوية ومصالحهم المعيشية. فما شغلت البدعة أوقات الناس إلا تأثر وتعثر بموجبها نشاطهم الدنيوي. وهذا يفسر العلاقة المتلازمة بين انتشار البدع وظهور صور التخلف الحضاري لدى المسلمين. فما تخلف المسلمون حضاريا إلا بعد سيطرة البدع على حياتهم. فكلما تمسك الناس بالسنة واكتفوا بها انفتحت لهم أبواب التقدم وتهيأت معها طرائق النهضة.

ثالثاً: كل ما أحدثه الإنسان من الزيادة على الشرع لم يخلُ من الطبيعة البشرية الملازمة للنقص والقصور، فإذا أضيف هذا إلى الشرع لحقت بالشرع تلك الوصمة الناقصة المشينة، فهذا ضرر عظيم على الدين وأي ضرر.

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٥/٣٤) رقم: ١٦٣٥٦ وأورده ابن حجر في إتحاف المهرة (١٢/٦٤٦ رقم: ١٦٢٤٣) وفي فتح الباري وجوّده (٢٠/٣٣٠ رقم: ٦٧٣٥) قال الهيثمي: رواه أحمد والبخاري وفيه أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم وهو منكر الحديث. (مجمع الزوائد ١/ ١١٤)





رابعاً: إن الشرائع السابقة - قبل هذه الشريعة المحمدية - ما انطلمست معالمها ولا انحرف أهلها إلا بسبب زياداتهم على تعاليم أنبيائهم. فالبدع مدخل عظيم لسيل من الانحرافات الدينية التي تجرف بأركان الدين وتقلع دعائمه. فلولا حفظ الله لهذا الدين ببعثة العلماء المجددين المصلحين الداعين إلى السنة والمحذرين من البدعة لذهب هذا الدين وانطفأ هذا النور وهلكت هذه الأمة كما هلك من قبلهم.

خامساً: إن النهي عن البدعة يشكّل توفيراً لجهود المسلمين اللاحقين، لكيلا يتجهوا إلى الاتجاه الخطأ ويجهتدوا في المجال الذي لا يحتاج إلى الاجتهاد، وحتى ينصرفوا إلى المجالات التي تتطلب اجتهاداً وتطويراً وابتكاراً. فالأمة لا تحتاج إلى "تطوير" سبل التقرب إلى الله والاتصال به، ولا إلى مزيد من الصلوات فوق ما علمنا إياها الرسول ﷺ، لكنهم طولبوا بتطوير مصالحهم الدنيوية وترقية أوضاعهم العمرانية.

سادساً: إن في الاقتصار على هدي السنة اختصاراً لسلوك العباد إلى الله، فإنه طريق مضمونة ورحلة مأمونة، وكل طريق سوى هذه الطريق محظورة نهايتها مجهولة ونتائجها مردودة.

سابعاً: التمسك بالسنة واجتناب البدع طريق إلى وحدة الأمة فإن سنة الرسول ﷺ واحدة لا تختلف في بلد دون بلد ولا شعب دون شعب، بخلاف البدع فإنها تختلف اختلافاً شتى وتعدد تعدداً لا نهاية له. وفي توحيد أنماط العبادات ترسيخ لروح الوحدة وتعميق للشعور بالأخوة والتلاحم والتراحم.

ثامناً: إن في الدعوة إلى السنة دعوة إلى حب الله ورسوله، وسبباً لجلب حب الله ورسوله ﷺ. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]



تاسعا: إن التمسك بالسنة والحذر من البدع سد منيع أمام محاولة أعداء الدين لإبعاد الناس عن دينهم، فإن أعداء الإسلام عرفوا سر قوة هذا الدين الأصيل، فلا يضعف هذه القوة ولا يفسدها إلا اختلاطها بالبدع المستحدثة قصدا لتعكير هذا الدين الناصع وتغطية نوره الساطع.

عاشرا: إن الالتزام بسنة النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام والتبري من البدعة مؤهل من مؤهلات الورود على حوض الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، قال عليه الصلاة والسلام:  
 أَلَا كَيْدَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُدَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ! فَيَقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ! فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا!!<sup>(١)</sup>

قال الإمام الحافظ أبو عمرو بن عبد البر: كل من أحدث في الدين فهو من المطرودين عن الحوض، كالخوارج والروافض وسائر أصحاب الأهواء، قال: وكذلك الظلمة المسرفون في الجور وطمس الحق والمعلنون بالكبائر، قال: وكل هؤلاء يخاف عليهم أن يكونوا ممن عنوا بهذا الخبر.<sup>(٢)</sup>

وذلك في حق من مارس البدع وتابع الناس على بدعهم، فأما من أحدث البدع واخترعها لأول مرة وروّجها في الناس ودعاهم إليها ونسبها إلى الدين وأعطائها المشروعية المزيفة فقد ارتكب جريمة الافتراء على الشرع، وهو أقبح صور الظلم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٧] والوعيد على من افتري الكذب على الله في القرآن كثير.

إن في اختراع البدع مضاهاة للشرع ومزاحمة لسلطة لا يشرك الله فيها أحدا، قال تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] وقال تعالى: ﴿أَمْرٌ لَهُمْ شُرَكَائُ

(١) أخرجه مسلم: ٥٣/٢ رقم: ٣٦٧

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم: ٤٠٢/١ رقم: ٤٦٥



شَرَعُوا لَهُمْ مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ ﴿٢١﴾ [الشورى: ٢١] بل الشرك بالله لم ينشأ إلا بالابتداع، قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٦٨] وقال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَّا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطٰنٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]

#### بين الابتداع الديني والإبداع الدنيوي

وبناء على الإدراك لخطورة البدع وفهم معناها الشرعي ننطلق إلى التحقيق فيما ليس فيه خطر عن إحداث الجديد فيه، بل تُطلب الأمة بأن تأتي فيه بجديد. وهذه مسألة قلّ من بحث فيها وأكد على أهميتها وملاً فراغها. مع أن هذا من التوازن المطلوب، بين المبالغة في التحذير من البدع فيتخوف الناس من التفكير الإبداعي والعمل الابتكاري، وبين التساهل فيها فينفرط عقد الدين وتنطمس معالمه.

فهنا يجب التأكيد على التفرقة بين العبادات والعادات، وإن طبيعة البيان الشرعي تفرّق بين المجالين، ففي العبادات يكون البيان فيها مفصلاً، لأنه لو ترك لكل إنسان أن يخترع لنفسه عبادة خاصة لا بتدع الناس أشياء ما أنزل الله بها من سلطان، ولأن العبادة تتعلق بأمور غيبية لا تعرف الناس ماهيتها فلا يمكن أن يتوصل الناس إلى الشكل الأنسب لهم في مصلحتهم الغيبية.

وأما في العادات والشؤون الدنيوية كالبيع والشراء على سبيل المثال اكتفى الشرع ببيان صور الظلم المحرمة وبيان البيوع الفاسدة، أما العقود المشروعة فلم يحددها الشرع، لأن الإباحة فيها هي الأصل. وقلّ مثل ذلك في الحياة السياسية



العامّة اكتفى الشارع بوضع الخطوط العريضة والمبادئ الأساسية، كمبادئ الشورى وواجب النصّح للمسلمين وحرمة الخيانة إلى آخره... ثم ترك التفاصيل لاجتهاد الناس، لأن تفاصيل الأمور فيها دائمة التغير، وذلك أيضا لكي يتسع المجال للابتكار والتطوير. وهكذا فإن الشريعة رُتبت على ما هو أصلح للبشر وأنفع للخلق.

وهكذا اقتضت حكمة الشرع أن يوسع المجال للناس لأن يبتكروا ويجتهدوا في أمور دنياهم، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في قصة تأبير النخل المعروفة: "أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ".<sup>(١)</sup> وكما في الحديث: كُلُوا وَاشْرَبُوا وَابْسُوا وَتَصَدَّقُوا فِي غَيْرِ إِسْرَافٍ وَلَا مَخِيلَةٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: "كُلُّ مَا شِئْتَ وَالْبَسُ مَا شِئْتَ مَا أَخْطَأَتْكَ اثْنَتَانِ سَرَفٌ أَوْ مَخِيلَةٌ".<sup>(٢)</sup>

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبها الله أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع. وأما العادات فهي ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر".<sup>(٣)</sup>

وقال أيضا: "أن البدع التي هي محل الكلام هنا هي ما أحدثه الناس في العبادات وشعائر الدين، وشرائعه، كالأعياد المحدثّة، والبدع التي أحدثها الناس حول القبور والمزارات والمشاهد، وكالصلوات المحدثّة، مثل صلاة الرغائب، والصلاة الألفية، والصيام المحدث، مثل صيام أول خميس من رجب، ونحو ذلك

(١) أخرجه مسلم (١٨٣٦/٤) رقم: (٢٣٦٣)

(٢) رواه البخاري في صحيحه معلقا (٨١/١٨) وابن ماجه (٤٧٠/١٠) رقم: (٣٥٩٥) وأحمد (٤٤٦/١٣) رقم: (٦٤٠٨) والحاكم في المستدرک (٢١/١٧) رقم: (٧٢٦٥) وصححه.

(٣) القواعد النورانية ص ٧٨ - ٧٩.



من المبتدعات التي يتعبد الناس بها، أو تصير من شعائرهم وسماتهم الدينية، فهذه الأصل فيها أن لا يشرع منها إلا ما شرعه الله. أما العادات فالأصل فيها الإباحة، إلا ما حرمه الله.<sup>(١)</sup>

وقال ابن القيم في الفرق بين باب العبادات وباب العادات: "...والفرق بينهما أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يعبد إلا بما شرعه على ألسنة رسله، فإن العبادة حقه على عباده، وحقه الذي أحقه هو ورضي به وشرعه. وأما العقود والشروط والمعاملات فهو عفو حتى يحرمها."<sup>(٢)</sup>

وقد شدد الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ النكير على من اعتبر المحدثات في أمور العادات بدعا، قال: "إن عدّوا كل محدث من العادات بدعة، فليعدوا جميع ما لم يكن فيهم من المآكل والمشارب والملابس والكلام والمسائل النازلة التي لا عهد بها في الزمان الأول بدعا، وهذا شنيع، فإن من العوائد ما يختلف بحسب الأزمان والأمكنة والاسم، أفيكون كل من خالف العرب الذين أدركوا الصحابة رضي الله تعالى عنهم واعتادوا مثل عوائدهم غير متبعين لهم؟! هذا من المستنكر جدا!! نعم لا بد من المحافظة في العوائد المختلفة على الحدود الشرعية، والقوانين الجارية على مقتضى الكتاب والسنة. وأيضا فقد يكون التزام الزي الواحد، أو الحالة الواحدة، أو العادة الواحدة تعباً ومشقة؛ لاختلاف الأخلاق والأزمنة والبقاع والأحوال، والشرعية تأبى التضييق والحرص في كل ما دل الشرع على جوازه، ولم يكن ثم معارض."<sup>(٣)</sup>

(١) اقتضاء الصراط المستقيم: ١ / ٧٠

(٢) إعلام الموقعين ١ / ٣٤٤

(٣) الاعتصام: ٢ / ٤٢٨



إن التشجيع على الابتكار والمبادرة والإبداع في أمور العادات نجد أصله في قول رسول الله ﷺ: مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ.<sup>(١)</sup>

فلا حاجة للمسلم أن ينتظر السوابق إذا لاحت له أمارات المصلحة ونادته دواعي الخير، ما لم يصطدم بنص الوحي أو قاعدة شرعية. فالرسول ﷺ قد شجع على الأخذ بزمام المبادرة والمشاركة إلى الخير غير المسبوق. والسبق والأسبقية له وزنه في الشرع قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ۖ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾

[الواقعة: ١٠، ١١]

وكانت الأسبقية والتفرد والإبداع مفخرا معترفا به لدى الأوائل، قال المتنبي:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتي بما لم تأت به الأوائل



(١) أخرجه مسلم (١٩٨/٥) رقم: (١٦٩١)



# الباب الثالث

## منافذ شرعية لمعرفة المستقبل

الفصل الأول:

أستار غيب المستقبل



الفصل الثاني:

تحريم الكهانة



الفصل الثالث:

منافذ المعرفة المستقبلية









إن الاهتمام بالمستقبل طبع بشري عميق يعكس قلق الإنسان من أي قادم مجهول. وإن الدين الإسلامي لا يرفض مبدأ الاستشراق العلمي للمستقبل، إنما يرفض التكهن والتخرص والظن الذي لا يقوم على حجة وبيان. وقد حث القرآن والسنة النبوية على أنواع من التطلع المستقبلي الذي يخدم رسالة الوجود الإنساني على سطح المعمورة. والعمل على صياغة المستقبل من خلال المعطيات الحاضرة هو خلاصة المهمة التي كلف بها الإنسان. لكن هناك حدوداً لا يمكن ولا يجوز تجاوزها. وإن العقل والواقع يُقرّان صحة وضرورة ذلك التحديد.

إن التطلع إلى المستقبل ومحاولة كشف أستار المستقبل لا يجوز ولا ينفع أن يعتمد فيها على الأوهام أو الدعاوى الكاذبة من قبيل الكهانة التي يرفضها العلم والعقل. فالإسلام فتح أبواباً واسعة لصياغة الرؤية المستقبلية، وحدد - من جهة أخرى - منافذ لتوقع الأحداث المستقبلية، وحصرها في جهات محددة حتى لا تضيع العقول وتتيه الإنسانية في غياهب الخرافات.





## الفصل الأول: أستار غيب المستقبل

إن الماضي واقع حاصل، والحاضر حادث ماثل، لكن المستقبل غائب عازل، فهو مغيب عن حواسنا ويعزلنا عن الحكم الفاصل. فمعرفة المستقبل محاطة بأنواع من الحواجب المعرفية. فالمجهول هو السائد في المجال المستقبلي، لكننا لا نعدم بعض الفتحات من تلك الغيوب العميقة. لنفصل هذه الغيوب وحدودها وما يمكن أن يعرف منها، وما لا يمكن.

### استثثار الله بعلم الغيب

إن هناك أشياء استأثر الله بعلمها، وحجب الخلق عن الاطلاع عليها. لا يعرفها ملك مقرب ولا نبي مرسل.

قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩].

لقد بين تَبَارَكَ وَتَعَالَى أن عنده أشياء لا يعلمها إلا هو، وسمّاها "مفاتيح الغيب". فلم يكن لخلقه نصيب في معرفة ذلك.

وقال أيضاً: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤].

وفي هذه الآية أفصح ربنا جَلَّ وَعَلَا عن الأشياء التي استأثر الله بعلمها. وبين الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هذه الأشياء حجب الله علمها عن الخلق.



### الأحاديث الواردة في ذكر مفاتيح الغيب

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخبر أمته في غير ما حديث عن تلك الأشياء التي حجب الله جل شأنه معرفتها عن خلقه.

فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: "مَا الْإِيمَانُ؟" قَالَ: "أَنْ تَوَكَّلَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ". قَالَ: "مَا الْإِسْلَامُ؟" قَالَ: "الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تَشْرَكَ بِهِ وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ". قَالَ: "مَا الْإِحْسَانُ؟" قَالَ: "أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ". قَالَ: "مَتَى السَّاعَةُ؟" قَالَ: "مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا، إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَّةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاةُ الْإِبِلِ الْبَهْمِ فِي الْبَنِيَانِ، فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ". ثُمَّ قَرَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الْآيَةَ. ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ: "رَدُوهُ". فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا. فَقَالَ: "هَذَا جَبْرِيلُ جَاءَ يَعْلَمُ النَّاسَ دِينَهُمْ".<sup>(١)</sup>

وقال عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ". ثُمَّ قَرَأَ ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾.<sup>(٢)</sup>

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ خَمْسٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللَّهُ: لَا يَعْلَمُ مَا تَغْيِضُ الْأَرْحَامُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَا فِي غَدِّ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى يَأْتِي الْمَطَرُ أَحَدٌ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِلَّا اللَّهُ، وَلَا يَعْلَمُ مَتَى تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا اللَّهُ".<sup>(٣)</sup>

(١) أخرجه البخاري (٢٧/١ رقم ٥٠، ١٧٩٢/٤ رقم ٤٥٤٩) ومسلم (١/٣٩-٤٠) واللفظ للبخاري

(٢) أخرجه البخاري (١٧٩٣/٤ رقم ٤٥٠٠)

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٨٧/٦ رقم ٦٩٤٤)



عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: من حدثك أن محمدا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى ربه فقد كذب، وهو يقول لا تدركه الأبصار، ومن حدثك أنه يعلم الغيب فقد كذب، وهو يقول لا يعلم الغيب إلا الله. (١)

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أوتي نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم مفاتيح كل شيء غير خمس ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿[لقمان: ٣٤]. (٢)

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: جلس رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مجلسا فأتاه جبريل وجلس بين يدي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واضعا كفيه على ركبتي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله ما الإسلام؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الإسلام أن تسلم وجهك لله عَزَّ وَجَلَّ وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله. قال: فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت؟ قال: إذا فعلت ذلك فقد أسلمت. قال: يا رسول الله فحدثني ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وتؤمن بالموت وبالحياء بعد الموت وتؤمن بالجنة والنار والحساب والميزان وتؤمن بالقدر كله خيره وشره. قال: فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟ قال: إذا فعلت ذلك فقد آمنت. قال: يا رسول الله حدثني ما الإحسان؟ قال: رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الإحسان أن تعمل لله كأنك تراه فإن كنت لا تراه فإنه يراك. قال: يا رسول الله فحدثني متى الساعة؟ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هي سبحة

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٦٨٧ رقم ٦٩٤٥)

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٩ رقم ٣٦٥٩) وأبو يعلى (٩/ ٨٦ رقم ٥١٥٣) وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٨/ ٢٦٣)



الله! في خمس لا يعلمهن إلا الله ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤] ولكن إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك. قال: أجل يا رسول الله فحدثني. قال رسول الله ﷺ: إذا رأيت الأمة ولدت ربتها أو ربها، ورأيت أصحاب البنيان يتناولون في البنيان، ورأيت الحفاة الجياع العالة رؤوس الناس، فذلك من معالم الساعة وأشراتها. قال: يا رسول الله ومن أصحاب البنيان الحفاة الجياع العالة؟ قال: العرب.<sup>(١)</sup>

وعن رجل من بني عامر أنه استأذن على النبي ﷺ فقال: أألج؟ فقال: النبي ﷺ لخادمه: اخرجني إليه فإنه لا يحسن الاستئذان، فقولني له فليقل السلام عليكم، أأدخل؟ قال: فسمعتة يقول ذلك فقلت: السلام عليكم، أأدخل؟ فأذن لي فدخلت فقلت: بم أتيتنا؟ قال: لم آتكم إلا بخير، أتيتكم بأن تعبدوا الله وحده لا شريك له، وأن تدعوا اللات والعزى، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات، وأن تصوموا من السنة شهرا، وأن تحجوا البيت، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم. قال فقال: فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه؟ قال: قد علمني الله عز وجل خيرا وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، الخمس ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ الآية.<sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه أحمد (١/٣١٩ رقم ٢٩٢٦)

(٢) أخرجه أحمد (٥/٣٦٥ رقم ٢٣١٧٦) وصححه إسناده ابن كثير (تفسير القرآن العظيم ٣/٤٥٥)



أقوال العلماء في تحديد مفهوم مفاتيح الغيب

قال ابن كثير: هذه مفاتيح الغيب التي استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب. لا يجليها لوقتها إلا هو. وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله. ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه. وكذلك لا يعلم ما في الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواه. ولكن إذا أمر بكونه ذكرا أو أنثى أو شقيا أو سعيدا علم الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه. وكذا لا تدري نفس ماذا تكسب غدا في دنياها وأخرها. وما تدري نفس بأي أرض تموت في بلدها أو غيره من أي بلاد الله كان. لا علم لأحد بذلك. وهذه شبيهة بقوله تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ الآية. وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس مفاتيح الغيب.<sup>(١)</sup>

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في قوله تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]: "هذه الآية الكريمة تدل على أن الغيب لا يعلمه إلا الله، وهو كذلك لأن الخلق لا يعلمون إلا ما علمهم خالقهم جَلَّ وَعَلَا."<sup>(٢)</sup>

إن الآيات والأحاديث صريحة ومستفيضة في إفادة أن تلك الأمور الخمسة مغيبة عن الإنسان. إلا أن العلماء مختلفون حول عمومته وخصوصه في موضعين: في تحديد الغيب الذي استأثر الله بعلمه، وفي إمكانية اطلاع بعض العباد على بعض هذه الغيوب.

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤٥٤)، إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء، دار الفكر، بيروت، سنة

١٤٠١هـ

(٢) أضواء البيان، محمد الأمين الشنقيطي، (٢/ ١٩٥)



### تحديد الغيوب التي استأثر الله بعلمها

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: وقد اختلف في المراد بالغيب فيها أي في قوله ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ٢٦] فقليل: هو على عموميه. وقيل: ما يتعلق بالوحي خاصة. وقيل: ما يتعلق بعلم الساعة.<sup>(١)</sup>

وممن قال بخصوصه الإمام فخر الدين الرازي، قال: "قوله (عَلَى غَيْبِهِ) لفظ مفرد وليس فيه صيغة عموم، فيصح أن يقال إن الله لا يظهر على غيب واحد من غيوبه أحدا إلا الرسل. فيحمل على وقت وقوع القيامة. ويقوّيه ذكرها عقب قوله ﴿أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ﴾".<sup>(٢)</sup>

ولكن تعقب بأن الرسل لم يظهرُوا على ذلك.<sup>(٣)</sup>

ويرد دعوى الخصوص زيادة على ما تقدم أمور:

أولاً: إن إضافة المفرد إلى المعرفة من صيغ العموم،<sup>(٤)</sup> ولم يرد ما يخصص ذلك. وقوله ﴿أَقْرَبُ مَا تُوعَدُونَ﴾ [الجن: ٢٥] لا يدل على التخصيص لأنه يجوز أن يؤكد قضية خاصة بقضية عامة، بل هو من أحسن أساليب التأكيد.

(١) فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، ٢٦٣/١٣

(٢) التفسير الكبير (١٤٨/٢٩)، فخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م

(٣) فتح الباري ٢٦٣/١٣

(٤) وقد ذكر السيوطي أن مذهب الرازي نفسه في المحصول أن المفرد المضاف يفيد العموم. ومثل بقول الله تعالى ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣] أي كل أمر لله. ونقل عن السبكي أنه قال في شرح المختصر: إنه يفيد العموم على الصحيح (انظر الكوكب الساطع ١/٢١٣). وقال د. وهبة الزحيلي: أما مثال المعرف بالاضافة فقوله (هو الطهور ماؤه الحل ميتته) أي كل أنواع ميتة البحر (أصول الفقه الإسلامي، د. وهبة الزحيلي ١/٢٣٧، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٨هـ-١٩٨٦م)





ثانيا: أن قوله تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] ورد بصيغة الجمع (مفاتيح) فدل على أن الغيب ليس نوعا واحدا.

ثالثا: ذكر الله تعالى في سورة لقمان أصنافا خمسة -وليس صنفا واحدا- استأثر الله بها كما يؤكد هذا المعنى الأحاديث السابقة الذكر.

وقد ذهب أكثر المفسرين إلى عموم ذلك، بل في الغالب أنهم لا يذكرون خلافا في ذلك كأن الأمر ليس فيه قول آخر.

ولكن من العلماء من رأى أن الغيب لا يقتصر على تلك الخمسة، وذكر الخمسة لا ينفي ثبوت غيرها.

قال الإمام الآلوسي: "وليس المغيبات محصورة بهذه الخمس. وإنما خصت بالذكر لوقوع السؤال عنها أو لأنها كثيرا ما تشاق النفوس إلى العلم بها. وقال القسطلاني<sup>(١)</sup>: ذكر صلى الله عليه وسلم خمساً وإن كان الغيب لا يتناهى لأن العدد لا ينفي زائدا عليه."<sup>(٢)</sup>

بل ذهب الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة<sup>(٣)</sup> - كما نقله ابن حجر في الفتح - إلى أبعد من ذلك فقال: "إن تلك الخمسة إنما هي إشارة إلى غيرها من الغيوب فتشمل

(١) الحافظ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك بن أحمد بن محمد بن حسين بن علي القسطلاني المصري الشافعي الإمام العلامة الحجة الرحلة الفقيه المقرئ المسند قال السخاوي مولده ثاني عشر ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وثمانمائة بمصر ونشأ بها. صنف التصانيف المقبولة التي سارت بها الركبان في حياته ومن أجلها شرحه على صحيح البخاري مزجا في عشرة أسفار كبار لعله أجمع شروحه وأحسنها وأخصها. توفي سنة ٩٢٣هـ (٤/١٢١)

(٢) روح المعاني (٢١/١١٢)

(٣) الإمام الحافظ عبد الله بن سعيد الأزدي الأندلسي المتوفى سنة خمس وعشرين وخمسائة له كتاب في التفسير وشرح مختصر البخاري (كشف الظنون ١/٤٣٦، شذرات الذهب ٢/٢٣)



كل الأشياء التي لا يعرفها الإنسان". قال: وقال الشيخ أبو محمد بن أبي جمرة نفع الله به: "استعار للغيب مفاتيح اقتداء بما نطق به الكتاب العزيز (وعنده مفاتيح الغيب)، وليقرب الأمر على السامع لأن أمور الغيب لا يحصيها إلا عالمها".<sup>(١)</sup>

ثم بين رَحْمَةُ اللَّهِ ما أشارت إليه هذه الخمسة: قال: "والحكمة في جعلها خمسا الإشارة إلى حصر العوالم فيها. ففي قوله ﴿وَمَا تَغِصُّ الْأَرْحَامُ﴾ [الرعد: ٨] إشارة إلى ما يزيد في النفس وينقص. وخص الرحم بالذكر لكون الأكثر يعرفونها بالعادة ومع ذلك نفى أن يعرف أحد حقيقته. فغيرها بطريق الأولى.

وفي قوله (ولا يعلم متى يأتي المطر) إشارة إلى أمور العالم العلوي. وخص المطر مع أن له أسبابا قد تدل بجري العادة على وقوعه لكنه تحقيق.

وفي قوله (ولا تدري نفس بأي أرض تموت) إشارة إلى أمور العالم السفلي مع أن عادة أكثر الناس أن يموت ببلده ولكن ليس ذلك حقيقة. بل لو مات في بلده لا يعلم في أي بقعة يدفن منها. ولو كان هناك مقبرة لأسلافه بل قبر أعده هو له.

وفي قوله (ولا يعلم ما في غد إلا الله) إشارة إلى أنواع الزمان وما فيها من الحوادث. وعبر بلفظ غد لتكون حقيقته أقرب الأزمنة. وإذا كان مع قربه لا يعلم حقيقة ما يقع فيه مع إمكان الأمانة والعلامة فما بعد عنه أولى.

وفي قوله (ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله) إشارة إلى علوم الآخرة. فإن يوم القيامة أولها وإذا نفى علم الأقرب انتفى علم ما بعده. فجمعت الآية أنواع الغيوب، وأزالت جميع الدعاوى الفاسدة. وقد بين بقوله تعالى في الآية الأخرى وهي قوله



تعالى (فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول) أن الاطلاع على شيء من هذه الأمور لا يكون إلا بتوفيق<sup>(١)</sup>.

هذا وقد وسّع ابن أبي جمرة نطاق الغيب حتى يشمل كل شيء. وهو حق، فما من شيء إلا وفيه جانب بل جوانب يجهلها الإنسان. إلا أن الغيب المطلق لا يكون في كل شيء أيضا. فإن يوم القيامة وهو أخفى الأمور على العباد قد أخبر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أسرارها.

وبناء على ذلك فإن بعض العلماء حدد معناه في نطاق ضيق نسبيا.

قال ابن عطية<sup>(٢)</sup> في قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]: "أي كل ما شأنه أن يعلم من أمر الساعة. ولكن الذي استأثر الله بعلمه هو علم الوقت، وغير ذلك فذا علم ببعض فيه. وكذلك نزول الغيث أمر قد استأثر الله عَزَّوَجَلَّ بتفصيله وعلم وقته الخاص به. وأمر الأجنة كذلك. وأفعال البشر وجميع كسبهم كذلك. وموضع موت كل بشر كذلك".<sup>(٣)</sup>

فحدد ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ أن المغيّب المطلق عن الإنسان في تلك الأشياء إنما هو زمان تلك الأشياء. وأفصح ابن حجر أكثر، فذهب إلى أن المغيّب هو المغيّب المستقبلي.

- 
- (١) فتح الباري ١٣/ ٣٦٣-٣٦٥، ابن حجر العسقلاني، دار لمعرفة، بيروت، ط. ١٩٧٩
- (٢) الإمام العلامة شيخ المفسرين أبو محمد عبد الحق بن الحافظ أبي بكر غالب بن عطية المحاربي الغرناطي، وكان إماما في الفقه وفي التفسير وفي العربية قوي المشاركة ذكيا فطنا مدركا من أوعية العلم مولده سنة ثمانين وأربع مائة اعتنى به والده وطلب العلم وهو مرهق وكان يتوقد ذكاء ولي قضاء المرية في سنة تسع وعشرين وخمس مائة، توفي بحصن لورقة في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وأربعين وخمس مائة (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٥٨٧-٥٨٨)
- (٣) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لإبي محمد عبد الحق بن عطية (١١/ ٥٢١)، طبعة أمير دولة قطر.



قال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: "المراد بالاطلاع على الغيب علم ما سيقع قبل أن يقع على تفصيله، فلا يدخل في هذا ما يكشف لهم عن الأمور المغيبة عنهم، أي في الزمن السابق، وما لا يخرق لهم من العادة، كالمشي على الماء وقطع المسافة البعيدة في مدة لطيفة ونحو ذلك".<sup>(١)</sup>

وهذا تحقيق دقيق. فإن الماضي واقع مكشوف. والحاضر ماثل قائم. والمستقبل هو الغائب المستور.

#### إمكانية إطلاع الله بعض عباده على الغيب

إن كثيرا من العلماء - بناء على تلك النصوص - ذهبوا إلى منع معرفة الخلق بهذه الأشياء. وكفّروا من يدعي ذلك بجزم، خاصة إذا لم يعتمد نتيجة التجربة التي تدل عليها العادة الجارية.

قال القرطبي: قال علماؤنا: أضاف سبحانه علم الغيب إلى نفسه في غير ما آية في كتابه إلا من اصطفى في عباده. فمن قال إنه ينزل الغيث غدا وجزم فهو كافر، أخبر عنه بأمانة ادعائها أم لا. وكذلك من قال إنه يعلم ما في الرحم فهو كافر، فإن لم يجزم وقال: إن النوء ينزل الله به الماء عادة وأنه سبب الماء، وأنه سبب الماء على ما قدره وسبق في علمه، لم يكفر، إلا أنه يستحب ألا يتكلم به. فإن فيه تشبيها بكلام أهل الكفر، وجهلا بلطيف حكمته، لأنه ينزل متى شاء، مرة بنوء كذا، ومرة بدون نوء، قال تعالى: (٢): "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بالكوكب" (٣).

(١) فتح الباري ١٣/ ٢٦٥

(٢) أي في الحديث القدسي

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٢٩٠ رقم ٨١٠، ١/ ٣٥١ رقم ٩٩١)، ومسلم (١/ ٨٣ رقم ٧١)، وتمام الحديث عند مسلم: "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب."



قال ابن العربي: وكذلك قول الطبيب إذا كان ثدي الأيمن مسود الحلمة فهو ذكر، وإن كان في الثدي الأيسر فهو أنثى، وكانت المرأة تجد الجنب الأيمن أثقل فالولد أنثى، وادعى ذلك عادة لا واجبا في الخلقة لم يكفر ولم يفسق. أما من ادعى الكسب في مستقبل العمر فهو كافر. أو أخبر عن الكوائن المجملة أو المفصلة في أن تكون قبل أن تكون، فلا ريب في كفره أيضا. فأما من أخبر عن كسوف الشمس والقمر فقد قال علماؤنا: يؤدب ولا يسجن، أما عدم تكفيره، فلأن جماعة قالوا: إنه أمر يدرك بالحساب وتقدير المنازل حسب ما أخبر الله عنه في قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩]، وأما أدبهم فلأنهم يدخلون الشك في العامة، إذ لا يدركون الفرق بين هذا وغيره، فيشوشون على عقائدهم ويتركون قواعدهم في اليقين فأدبوا حتى يسروا في ذلك إذا عرفوه ولا يعلنوا به.<sup>(١)</sup>

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: ووجه تكفير بعض أهل العلم لمن يدعي الاطلاع على الغيب أنه ادعى لنفسه ما استأثر الله تعالى به دون خلقه، وكذب القرآن الوارد بذلك، كقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] وقوله هنا ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].<sup>(٢)</sup>

لكن الإمام الألوسي أثبت إمكانية اطلاع بعض العباد على هذه المغيبات وعدم كفر من ادعى ذلك، واعترض على إطلاق القرطبي وأورد المسألة كأن فيها خلافا. إلا أن التدقيق في المسألة يظهر أن ليس بينهما خلاف. فإن الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: "ولا أرى كفر من يدعي مثل هذا العلم فإنه ظن أمر عادي."<sup>(٣)</sup> وقد ذكر القرطبي عدم كفر من أسند دعواه على العادة الجارية أي على التجارب المتكررة المطردة.

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/٦-٧)

(٢) أضواء البيان ١٩٧/٢

(٣) روح المعاني ١١٢/٢١



وهذا ما يسمى بالمنهج التجريبي في المصطلح الحديث. وليس هذا من دائرة علم الغيب. "فالغيب هو ما لا يعتمد في إدراكه على إحدى الحواس، فلا يدخل في دائرته استنباط النتائج من مقدماتها، ومعرفة المسببات من أسبابها بطريق الاستدلال، وقياس ما غاب بما حضر. كعلمنا بشفاء المريض قبل حصوله إذا وجدنا العلاج ناجعا، وكثرة ثمار الأرض إذا رأينا النبات ناميا، وسقوط أمة إذا ألفتنا أبناءها متفرقي القلوب منغمسين في اللهو والترف منصرفين عن الجد والعمل. كل ذلك خارج عن دائرة علم الغيب أو التنبؤ بالغيب."<sup>(١)</sup>

"ومن ذلك ما تذكر هيئات الأرصاد الجوية من احتمالات هبوب الرياح وسقوط الأمطار ودرجات الحرارة والبرودة والرطوبة، والمد والجزر، وما يتعلق بذلك من الأمور. فهذه لا تدخل في الغيب، لأنها مبنية على أشياء مشاهدة، من وجود مرتفعات أو منخفضات جوية قادمة من الشمال أو من الجنوب، أو من الشرق أو من الغرب. وتترتب عليها آثارها وفق سنن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. فما يذكره الراصدون هنا ليس من الغيب الذي استأثر الله بعلمه، بل من المشاهدات التي جعل علمها لخلقه من البشر."<sup>(٢)</sup>

ومن ذلك أيضا ما توصل إليه الطب المعاصر من العلم بواسطة الآلات والأجهزة إن كان الجنين ذكرا أو أنثى، ومن وقت مبكر من الحمل، أنه لا يدخل في النفي المراد بقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤]، "فإن كلمة ﴿مَا﴾ في قوله ﴿مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ من ألفاظ العموم، فهي تشمل الذكورة والأنوثة،

(١) التنبأ بالغيب، د. أحمد الشنتناوي، ص ٥، دار المعارف، مصر، ١٩٥٩ هـ

(٢) موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن التمايم والكهانة والرقى، ص ١٩٤، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٢٢ هـ - ٢٠٠١ م



والصحة والمرض، والقوة والضعف، الذكاء والغباء، والسعادة والشقاء، والحياة والموت... إلى آخر هذه الأمور الكثيرة المتشعبة التي لا يعلمها كلها إلا الله.<sup>(١)</sup>

ولا غبار في كل هذه الأمور التي تستند إلى المظاهر المحسوسة. إلا أن عبارة الإمام الآلوسي توهم أن كل من ادعى ذلك قد اعتمد على جريان العادة. بل الواقع يشهد أن أكثر من ادعى معرفة الغيب إن لم يكن كلهم اعتمدوا على أمور غيبية ومصادر غير مشروعة كالاستعانة بالجن والنظر في النجوم وغير ذلك.

وقد نقل الشيخ محمد الأمين الإجماع على مثل تلك الأشياء. قال: لا خلاف بين العلماء في منع العيافة والكهانة والعرافة والطرق والزجر والنجوم، وكل ذلك يدخل في الكهانة. لأنها تشمل جميع أنواع ادعاء الغيب.<sup>(٢)</sup> وسيأتي الكلام على ذلك مفصلاً إن شاء الله.

ثم إن نفي علم ذلك عن الخلق لا يعني نفياً كلياً، فإن بعض الجزئيات قد تستثنى ولا يخرم ذلك عموم النفي.

قال ابن حجر نقلاً عن الطيبي<sup>(٣)</sup> أنه قال: الأقرب تخصيص الاطلاع بالظهور والخفاء. فإطلاع الله الأنبياء على المغيّب أمكن. ويدل عليه حرف الاستعلاء في

(١) موقف الإسلام ص ١٩٥

(٢) أضواء البيان ج ٢ ص ١٩٧

(٣) الإمام المشهور الحسن بن محمد بن عبد الله الطيبي، قال ابن حجر: كان آية في استخراج الدقائق من القرآن والسنن، مقبلاً على نشر العلم، متواضعاً حسن المعتقد، شديد الرد على الفلاسفة، شديد الحب لله ورسوله، ملازماً لأشغال الطلبة في العلوم الإسلامية بغير طمع، بل يجديهم ويعينهم ويعير الكتب النفيسة لأهل بلده وغيرهم من يعرف ومن لا يعرف، محباً لمن عرف منه تعظيم الشريعة، صنف شرح الكشاف والتفسير، والتبيان في المعاني والبيان، وشرحه وشرح المشكاة، مات سنة ٧٤٣هـ (شذرات الذهب ٣/ ١٣٧-١٣٨)



﴿عَلَىٰ غَيْبِهِ﴾ [الجن: ٢٦] فيضمن "يظهر" معنى "يطلع"، فلا يظهر على غيبه إظهارا تاما وكشفا كلياً إلا لرسول يوحى إليه مع ملك وحفظة. ولذلك قال: ﴿فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ [الجن: ٢٧]، وتعليقه بقوله: ﴿لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَتْلَعُوا رِسَالَتِ رَبِّهِمْ﴾ [الجن: ٢٨]. وأما الكرامات فهي من قبيل التلويح واللمحات وليسوا في ذلك كالأنبياء. وقد جزم الأستاذ أبو إسحاق<sup>(١)</sup> بأن كرامات الأولياء لا تضاهي ما هو معجزة للأنبياء. وقال أبو بكر بن فورك<sup>(٢)</sup>: الأنبياء مأمورون بإظهارها، والولي يجب عليه إخفاؤها. والنبي يدعى ذلك بما يقطع به، بخلاف الولي فإنه لا يأمن الاستدراج.<sup>(٣)</sup>

قال علي القارى في شرح الشفا: الأولياء إن كان قد ينكشف لهم بعض الأشياء لكن علمهم لا يكون يقينياً، وإلهمهم لا يفيد إلا أمراً ظنياً.<sup>(٤)</sup>

وقال أبو محمد بن أبي جمرة: والمراد به نفي العلم عن الغيب الحقيقي، فإن لبعض الغيوب أسباباً قد يستدل بها عليها لكن ليس ذلك حقيقياً.<sup>(٥)</sup>

(١) إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبادي أبو إسحاق الشيرازي صاحب التنبيه والمهذب في الفقه والنكت في الخلاف واللمع وشرحه والتبصرة في أصول الفقه والملخص والمعونة في الجدل وطبقات الفقهاء ونصح أهل العلم وغير ذلك، وقد كان يضرب به المثل في الفصاحة والمناظرة، وكان يقال إنه مستجاب الدعوة، دخل أبو إسحاق يوماً مسجداً ليتغدى فبسي ديناراً ثم ذكر فرجع فوجده ففكر ثم قال: لعله وقع من غيري. فتركه. ولد سنة ٣٩٣ هـ وتوفي سنة ٤٧٦ هـ ببغداد (طبقات الشافعية الكبرى ٤/ ٢١٠، وفيات الأعيان ١/ ٢٩-٣٠)

(٢) الإمام أبو بكر بن فورك بضم الفاء وفتح الراء الأستاذ محمد بن الحسن بن فورك الأصبهاني المتكلم صاحب التصانيف في الأصول والعلم روى مسند الطيالسي عن أبي محمد بن فارس، وتصدر للإفادة بنيسابور وكان ذا زهد وعبادة وتوسع في الأدب والكلام والوعظ والنحو، وبلغت مصنفاته قريباً من مائة تصنيف توفي سنة ٤٠٦ هـ (شذرات الذهب ٢/ ١٨١-١٨٢)

(٣) فتح الباري ١٣/ ٢٦٣

(٤) روح المعاني ٢١/ ١١٣

(٥) فتح الباري ١٣/ ٢٦٤





وهو كما قال رَحِمَهُ اللهُ، فإن الله نفى اطلاع أحد متى تقوم الساعة، ولكن أخبر عن أشراتها وحوادث تدل على قربها وأمور تقع بين يديها. ولم يكن لأي إنسان مع ذلك علم قطعي بتحديد زمن القيامة. وكذلك أمور أخرى، قد يستدل الإنسان بمعلومات عن الحالات الجوية على نزول المطر ولكن يبقى ذلك أمرا ظنيا وتقديرا عقليا. وقس على ذلك كل المغيبات.

ثم عقب الآلوسي رَحِمَهُ اللهُ كلامه في الأخير: وبعد هذا كله إن أمر الساعة أخفى الأمور المذكورة، وإن ما أطلع الله عليه نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من وقت قيامها في غاية الإجمال.<sup>(١)</sup>

وهكذا فإن الله عنده العلم التام وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو سبحانه. بناء على ما تقدم نخلص بما يلي:

١. أن الله تعالى استأثر بمعرفة الغيب ولا يطلع عليه أحد إلا من ارتضى من الرسل.
٢. أن الادعاء بعلم الغيب كذب محض وقد يكون كفرا.
٣. لا يجوز أن يجزم بالأشياء الغيبية إلا الرسول فإنه يوحى إليه.
٤. يجوز التنبؤ بأحداث المستقبل بالاستدلال بالعادات الجارية والأمر المحسوسة (أو ما يسمى في اللغة العصرية باستخدام المنهج التجريبي).
٥. كل معرفة للإنسان عن الغيب فإنه إجمالي وجزئي.



## الفصل الثاني: تحريم الكهانة

فتح الله للبشرية منافذ متعددة<sup>(١)</sup> لتقدير وتوقع أحداث المستقبل وأغلق نافذة واحدة. وهذه النافذة في الحقيقة لا توصل الإنسان إلى نور المعرفة ونصاعة الحقيقة وظهور الواقع، وإنما هي كوة مطلة على ظلام وسراب وأكاذيب. فمنع الشرع إطلال الأمور من هذه النافذة حتى لا يقع الإنسان في مستنقع الأوهام والخرافات.

إن هناك وسائل وممارسات متنوعة تضلل وتوهم الناس أنها تكشف ستار المستقبل وهي أكاذيب وخداع، ويجمع تلك الوسائل والممارسات اسم واحد وهو الكهانة.

### المبحث الأول: حقيقة الكهانة

سأتكلم عن حقيقة الكهانة من جهتين عن جهة معناها وعن أنواعها.

#### معنى الكهانة

والكهانة -بفتح الكاف ويجوز كسرهما: ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض.<sup>(٢)</sup>

والكاهن: الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار.<sup>(٣)</sup>

(١) سيأتي تفصيل هذه المنافذ في المبحث التالي.

(٢) فتح الباري (١٠/٢١٧)

(٣) النهاية (٢/٥٧٣)



### أنواع الكهانة

قال النووي: "قال القاضي رحمه الله كانت الكهانة في العرب ثلاثة أضرب:

أحدها: يكون للإنسان ولي من الجن يخبره بما يسترقه من السماء. وهذا القسم بطل من حين بعث الله رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثاني: أن يخبره بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض وما خفي عنه مما قرب أو بعد. وهذا لا يبعد وجوده. ونفت المعتزلة وبعض المتكلمين هذين الضربين وأحالوهما. ولا استحالة في ذلك، ولا بعد في وجوده، لكنهم يصدقون ويكذبون. والنهي عن تصديقهم والسماع منهم عام.

الثالث: المنجمون وهذا الضرب يخلق الله تعالى فيه لبعض الناس قوة ما، لكن الكذب فيه أغلب.

ومن هذا النوع العرافة وصاحبها عراف وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعى معرفتها بها. وقد يعتضد بعض هذا النوع ببعض في ذلك بالزجر والطرق والنجوم وأسباب معتادة. وهذه الأضرب كلها تسمى كهانة. وقد أكذبهم كلهم الشرع. ونهى عن تصديقهم وإتيانهم، والله أعلم.<sup>(١)</sup>

وذكر ابن حجر تقسيما آخر للكهانة فقال: وهي على أصناف: (منها) ما يتلقونه من الجن. فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء، فيركب بعضهم بعضا إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام، فيلقيه إلى الذي يليه إلى أن يتلقاه من يليه في أذن الكاهن، فيزيد فيه. فلما جاء الإسلام، ونزل القرآن، حرس السماء من الشياطين، وأرسلت عليهم الشهب. فبقي من استراقهم ما يتخطفه الأعلى فيلقيه



إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب. وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصفات: ١٠]. وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جدا كما جاء في أخبار شق وسطيح ونحوهما. وأما في الإسلام فقد ندر ذلك جدا، حتى كاد يضمحل. والله الحمد.

(ثانيها) ما يخبر الجني به من يواليه بما غاب عن غيره، مما لا يطلع عليه الإنسان غالبا، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد.

(ثالثها) ما يستند إلى ظن وتخمين وحس. وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه.

(رابعها) ما يستند إلى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك. ومن هذا القسم الأخير ما يضاوي السحر. وقد يعتضد بعضهم من ذلك بالزجر والطرق والنجوم. وكل ذلك مذموم شرعا.<sup>(١)</sup>

فابن حجر رَحِمَهُ اللهُ ذكر نوعين آخرين مكان المنجمين. ولكن في إدراجهما تحت مسمى الكهانة مطلقا بدون تقييد نظر. فالنوع الثالث الذي يستند إلى الظن والتخمين والحدس قد يلتبس بنوع من الفراسة التي تستند إلى بعض تلك الأشياء. والفراسة ليست كلها مذمومة مثل الكهانة التي شدد الشرع في النهي عنها. وكذلك النوع الرابع الذي ذكره ابن حجر وهو ما يستند إلى التجربة والعادة، فإن موقف الشرع من مدلولات التجربة والعادة الجارية ليس موقف الرفض والإنكار. كما سبق أيضا في الكلام عن السنن التجريبية. والذي يظهر أن إلحاق هذين النوعين في الكهانة إنما يقصد منه ما كان فيه ادعاء علم الغيب وإلباسه لباس المصادقية

(١) فتح الباري (١٠/٢١٧)



الكاملة ليس مجرد التقدير والتوقع. فإن توقع الأحداث وتقدير الأمور المستقبلية بتلك المعطيات المذكورة لا ينكره الشرع وليس من ادعاء علم الغيب. والله أعلم. "فالمهم أن ما استند إلى شيء محسوس فليس من علم الغيب. وإن كان بعض العامة يظنون أن هذه الأمور من علم الغيب، ويقولون إن التصديق بها تصديق بالكهانة.

والشيء الذي يدرك بالحس إنكاره قبيح، كما قال السفاريني<sup>(١)</sup>:

فكل معلوم بحس أو حجا فنكره جهل قبيح بالهجا فالذي يعلم بالحس لا يمكن إنكاره، ولو أن أحدا أنكره مستندا بذلك إلى الشرع لكان ذلك طعنا بالشرع.<sup>(٢)</sup>

والكهانة اسم عام يشمل كل أنواع ادعاء معرفة الغيب الذي استأثر الله بعلمه.

قال العلامة محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللهُ: "ولا خلاف بين العلماء في منع العيافة والكهانة والعرافة والطرق والزجر والنجوم، وكل ذلك يدخل في الكهانة. لأنها تشمل جميع أنواع ادعاء الاطلاع على علم الغيب."<sup>(٣)</sup>

#### المبحث الثاني: ذم الشرع للكهانة

فموقف الشرع من الكهانة أمر لا يخفى فإن النصوص المتكاثرة تدل على ذمها وتنافيها مع التوحيد بل مع منطق العقل.

(١) الإمام الكبير محمد بن أحمد بن سلام السفاريني توفي في سنة ١١٩٧ (أبجد العلوم ٣/ ١٧٤)

(٢) القول المفيد ص ٣٢٧

(٣) أضواء البيان (٢/ ١٩٧)



عن معاوية بن الحكم السلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت يا رسول الله، أمورا كنا نصنعها في الجاهلية، كنا نأتي الكهان. قال: فلا تأتوا الكهان. <sup>(١)</sup>

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ناس عن الكهان، فقال: "ليس بشيء." [وفي رواية: ليسوا بشيء]

فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثوننا أحيانا بشيء فيكون حقا.

فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى، فيقرها" <sup>(٢)</sup> في أذن وليه، فيخلطون معها مائة كذبة. <sup>(٣)</sup>

قال الخطابي: "معنى قوله "ليسوا بشيء" فيما يتعاطونه من علم الغيب، أي ليس قولهم بشيء صحيح يعتمد كما يعتمد قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يخبر عن الوحي، وهو كما يقال لمن عمل غير متقن أو قال غير سديد: ما عملت، أو ما قلت شيئا." <sup>(٤)</sup>

وأخرج أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبي هريرة مرفوعا: "من أتى كاهنا أو عرافا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد." <sup>(٥)</sup>

(١) أخرجه مسلم (٣٨١/١) رقم ٥٣٧

(٢) القر: ترديدك الكلام في أذن المخاطب حتى يفهمه (النهاية ٤٣٦/٢)

(٣) أخرجه البخاري (٢١٧٣/٥) رقم ٥٤٢٩، ٢٢٩٤/٥، رقم ٥٨٥٩، ٢٧٤٨/٦ رقم ٧١٢٢ ومسلم (١٧٥٠/٤) رقم ٢٢٢٨

(٤) فتح الباري (١٠/٥٩٥)

(٥) أخرجه أحمد (٤٠٨/٢) رقم ٩٢٧٩ أبو داود (١٥/٤) رقم ٣٩٠٤ والترمذي (٢٤٣/١) رقم

(١٣٥) والنسائي في سننه الكبرى (٣٢٣/٥) رقم ٩٠١٧ وابن ماجه (٢٠٩/١) رقم ٦٣٩

والحاكم (٤٩/١) رقم ١٥



وأخرج مسلم من حديث امرأة من أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: "من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة." (١)

### التنجيم ضرب من الكهانة

هناك نوع من الكهانة شاع استعماله في الناس، وانتشر تداوله شرقا وغربا، وأعلنت ذلك الصحف والمجلات، ألا وهو التنجيم خاصة ما يعتمد على دلالة البروج. فقد أصبح مألوفا عند الناس أن يكون هناك في الجريدة أو المجلة عمود خاص بتنبؤ مستقبل شخص عن طريق النظر إلى برجيه. وهو من الكهانة المحرمة في الشرع.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: والمنجم يدخل في اسم العراف عند بعض العلماء وعند بعضهم هو في معناه. (٢) والعراف اسم عام للكهان والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق. (٣)

ومن يصدق هذه الأشياء فهو مهتد بالأحاديث السابقة، أنه من أتى كاهنا أو عرافا لم تقبل له صلاة أربعين يوما أو أنه قد كفر بما أنزل على محمد ﷺ.

### أدلة تحريم التنجيم

عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ: "من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد." (٤)

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٥١ رقم ٢٢٣٠)

(٢) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٩٣)

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/ ١٧٣)

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧ رقم ٢٠٠٠) وأبو داود (٤/ ١٥ رقم ٣٩٠٥) وابن ماجه (٢/ ١٢٢٨ رقم ٣٧٢٦)



وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن؛ الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة".<sup>(١)</sup>

وعن زيد بن خالد الجهني<sup>(٢)</sup> قال: صلى بنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس،

فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: قال: "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب".<sup>(٣)</sup>

وقد سئل ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ عن حكم التنجيم والمنجمين، فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ: "لا يحل شيء من ذلك. وصناعة التنجيم التي مضمونها الأحكام والتأثير، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية، والتمزيج بين القوى الفلكية والقوالب الأرضية، صناعة محرمة بالكتاب والسنة وإجماع الأمة. بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين في جميع الملل.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾. وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَلَّوْا نَصِيبًا مِّنَ الْكَتَبِ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَأَرْسِلُوا فِي السَّحَرِ﴾ [النساء: ٥١] قال عمر وغيره: العجت السحر.

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٤٤ رقم ٩٣٤)

(٢) زيد بن خالد الجهني مختلف في كنيته أبو زرعة وأبو عبد الرحمن وأبو طلحة. وشهد الحديبية وكان معه لواء جهينة يوم الفتح وحديثه في الصحيحين وغيرهما. مات سنة ثمان وسبعين بالمدينة وله خمس وثمانون وقيل مات سنة ثمان وستين وقيل مات قبل ذلك في خلافة معاوية بالمدينة (الإصابة ٢/ ٦٠٣)

(٣) أخرجه البخاري (١/ ٢٩٠ رقم ٨١٠، ١/ ٣٥١ رقم ٩٩١) ومسلم (١/ ٨٣ رقم ٧١)





وروى أبو داود في سننه بإسناد حسن عن قبيصة بن مخارق<sup>(١)</sup> عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: العيافة والطرق والطيرة من الجبت.<sup>(٢)</sup>

قال عوف راوي الحديث: العيافة زجر الطير، والطرق الخط يخط في الأرض، وقيل بالعكس.

فإذا كان الخط ونحوه الذي هو من فروع النجامة من الجبت، فكيف بالنجامة؟ وذلك أنهم يولّدون الأشكال في الأرض لأن ذلك متولد من أشكال الفلك.

وروى أحمد وأبو داود وابن ماجه وغيرهم بإسناد صحيح عن ابن عباس قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد.

فقد صرح رسول الله بأن علم النجوم من السحر. وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩].

وهكذا الواقع فإن الاستقراء يدل على أن أهل النجوم لا يفلحون لا في الدنيا ولا في الآخرة.

وروى أحمد ومسلم في الصحيح عن صفية بنت عبيد<sup>(٣)</sup> عن بعض أزواج النبي عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: من أتى عرافا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوما.

(١) قبيصة بن مخارق بن عبد الله بن شداد بن أبي ربيعة بن نهيك بن هلال بن عامر بن صعصعة وفد

على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وروى عنه أحاديث. له دار وولد بالبصرة (الطبقات ٥٦/١)

(٢) أخرجه ابن حبان (٥٠٣/١٣) رقم (٦١٣١) وأحمد (٤٧٧/٣، ٦٠/٥) وأبو داود (١٦/٤) رقم

(٣٩٠٧) والنسائي في سننه الكبرى (٣٢٤/٦) رقم (١١١٠٨)

(٣) صفية بنت عبيد بن أسد بن أبي علاج الثقفية زوج الحارث بن كلدة (الإصابة ٦٤٠/٢)



والمنجم يدخل في اسم العراف عند بعض العلماء. وعند بعضهم هو في معناه. فإذا كانت هذه حال السائل، فكيف بالمسئول؟<sup>(١)</sup>

### أنواع التنجيم

ولكن يطلق علم النجوم على أمرين مختلفين، الأول منهما هو المقصود بالمنهي عنه في النصوص السابقة، وأما الثاني فقد أقره الشرع وأباحه.

قال الخطابي: "المنهي من علوم النجوم ما يدعيه أهلها من معرفة الحوادث التي لم تقع وربما تقع في مستقبل الزمان، مثل إخبارهم بوقت هبوب الرياح، ومجيء ماء المطر، ووقوع الثلج، وظهور الحر والبرد وتغيير الأسعار ونحوها. ويزعمون أنهم يستدركون معرفتها بسير الكواكب واجتماعها وافتراقها. وهذا علم استأثر الله به. لا يعلمه أحد غيره. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]."

فأما ما يدرك من طريق المشاهدة من علم النجوم الذي يعرف به الزوال، وجهة القبلة فغير داخل فيما نهى عنه. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]. وقال تعالى: ﴿وَالنَّجْمُ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] فأخبر الله تعالى أن النجوم طرق لمعرفة الأوقات والمسالك. ولولاها لم يهتد الناس إلى استقبال الكعبة.<sup>(٢)</sup>

وقال الشيخ العثيمين: علم النجوم ينقسم إلى قسمين: (١) علم التأثير (٢) وعلم التسيير.

(١) مجموع الفتاوى (١٩٢/٣٥)

(٢) عون المعبود (٢٨٥/١٠)



فعلم التأثير ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

أ- أن يعتقد أن هذه النجوم مؤثرة فاعلة. بمعنى أنها هي التي تخلق الحوادث والشُرور. فهذا شرك أكبر. لأن من ادعى أن مع الله خالقا فهو مشرك شركا أكبر. فهذا جعل المخلوق المسخر خالقا مسخرًا.

ب- أن يجعلها سببا يدعي به علم الغيب. فيستدل بحركاتها وتنقلاتها وتغيراتها على أنه سيكون كذا وكذا. فهذا اتخذ تعلم النجوم وسيلة لادعاء علم الغيب. ودعوى علم الغيب كفر مخرج عن الملة. لأن الله يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥] وهذا من أقوى أنواع الحصر، لأنه بالنفي والإثبات. فإذا ادعى أحد علم الغيب فقد كذب القرآن.

ج- أن يعتقدها سببا لحدوث الخير والشر، أي أنه إذا وقع شيء نسبه إلى النجوم، ولا نسبه إلى النجوم شيئا إلا بعد وقوعه، فهذا شرك أصغر.

الثاني علم التسيير، فهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستدل بسيرها على المصالح الدينية. فهذا مطلوب. وإذا كان يعين على مصالح دينية واجبة كان تعلمها واجبا. كما لو أراد أن يستدل بالنجوم على وجهة القبلة، فالنجم الفلاني يكون ثلث الليل قبله. والنجم الفلاني يكون ربع الليل قبله. فهذا فيه فائدة عظيمة.

الثاني: أن يستدل بها على المصالح الدنيوية. فهذا لا بأس به. وهو نوعان:

النوع الأول: أن يستدل بها على الجهات، كمعرفة أن القطب يقع شمالا، والجدي وهو قريب منه يدور حوله شمالا، وهكذا. فهذا جائز. قال تعالى:

﴿وَعَلَّمَتْهُ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦]



النوع الثاني: أن يستدل بها على الفصول. وهو ما يعرف بتعلم منازل القمر. فهذا كرهه بعض السلف، وأباحه آخرون. والذين كرهوه قالوا: يخشى إذا قيل طلع النجم الفلاني فهو وقت الشتاء أو الصيف أن بعض العامة يعتقد أنه هو الذي يأتي بالبرد أو الحر أو بالرياح. والصحيح عدم الكراهة.<sup>(١)</sup> لأنه لا شرك فيها. إلا إن تعلمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد، وأنها هي الجالبة لذلك. فهذا نوع من الشرك، أما مجرد معرفة الوقت بها، هل هو الربيع أو الخريف أو الشتاء، فهذا لا بأس به.<sup>(٢)</sup>



(١) القول المفيد ص ٣٥٧-٣٥٨ مختصرا

(٢) القول المفيد ص ٣٦٠



## الفصل الثالث: منافذ المعرفة المستقبلية

قد علمنا أستار الغيب المرخاة أمام التطلع البشري لمعرفة المستقبل لكن الله فتح للمعرفة البشرية منافذ نطلّ من خلالها بعض ملامح ما قد يحدث في المستقبل، وسنرى أن المستقبل ليس كله غيباً مجهولاً، ولا كل ساحاتها منطقة محرومة، بل إذا استقرّنا نصوص الكتاب والسنة وجمعنا تفاصيلها وركبنا أجزاءها تكون لدينا تصور واضح لما سيجري في مستقبل الإنسان بشكل عام. وليس ذلك بادعاء علم الغيب، ولا نحتاج إليه، لكن هذا الدين الخاتم قد كفانا مؤنة التنقيب عن المجاهيل الخرافية، وأغنانا بالأساليب العلمية وزوّدنا بطرائق متعددة تكشف لنا بعض مكنونات الزمن القادم.

فالمنافذ المفتوحة للاطلاع على الأحداث المستقبلية ثلاثة أساسية وثلاثة مساعدة. فالثلاثة الأساسية تعتمد على أدوات علمية منضبطة وهي:

- النظر إلى سنن الله في الكون.

- الأخبار المستقبلية في القرآن والسنة.

- التقنيات العلمية الحديثة.

وأما الوسائل المساعدة فهي: الرؤيا الصالحة والفراسة والاستخارة، وهي أدوات قد تختلط بأنواع من الشعوذة والكهانة والخرافة لو لا أن الشرع يبين ما يقبل منها وما لا يقبل. فهذه الأدوات لا يعتمد عليها ولا تقبل إلا بعد إخضاعها لكثير من الضوابط التي تميز بينها وبين الخرافات والكهانات والشعوذات. وسيأتي تفصيله في آخر الفصل.



وسنبداً بتفصيل سنن الكون لأنها تعطي تفسيراً للأحداث وتبين معاني تقلبات الحياة، فهي التي تفهمنا لماذا كل هذه الأمور ولأي هدف يتصرف الإنسان ولأية حكمة تجري الأحداث. ثم تأتي بعدها الأخبار الكاشفة عن مكنون المستقبل، ولا بد أن تفهم تلك الأخبار وفقاً لسنن الكون حتى نعرف ما المقصود وما المطلوب في ظل وقوع تلك الأشياء. وأما التقنيات العلمية الحديثة فهي وإن كانت في الغالب هي نتاج الجهود العلمية الغربية في رغبتهم لتحقيق مصالحهم الدنيوية لكن المسلمين في أمس الحاجة إلى الاطلاع على تلك الدراسات التي تساعد البشرية على تحسين مستقبلهم وتدير أمورهم.

#### المبحث الأول: النظر إلى سنن الحياة



أولى هذه الأدوات التي تمكن الإنسان من معرفة مجريات المستقبل هي ملاحظة سنن الحياة واستيعاب نظام التحركات البشرية. لأن هذا الكون محكوم بنظام يحدد حركات الأشياء ويضبط سير الأمور، نظام يصدر من رب هذا الكون وخالقه. وكل ما فيه ومن فيه وما يصدر عن هذه الموجودات وما يتعلق بها وما يحل فيها وما يقع من حوادث، كل ذلك إنما يقع ويحدث وفق قانون عام دقيق ثابت صارم لا يخرج عن أحكامه شيء.

وهذا النظام هو الذي عبر عنه القرآن بـ"السنة". وقد دل القرآن على ثباتها واطرادها، قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].



قال سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: "والأمور لا تمضي في الناس جزافا، والحياة لا تجري في الأرض عبثا؛ فهناك نواميس ثابتة تتحقق، لا تتبدل ولا تتحول. والقرآن يقرر هذه الحقيقة، ويعلمها للناس، كي لا ينظروا الأحداث فرادى، ولا يعيشوا الحياة غافلين عن سننها الأصيلة، محصورين في فترة قصيرة من الزمان، وحيز محدود من المكان. ويرفعوا تصورهم لارتباطات الحياة، وسنن الوجود، فيوجههم دائما إلى ثبات السنن واطراد النواميس. ويوجه أنظارهم إلى مصداق هذا فيما وقع للأجيال قبلهم؛ ودلالة ذلك الماضي على ثبات السنن واطراد النواميس." (١)

وقال في موضع آخر: "والله يقول الحق؛ ويعلم ماذا كان، ولماذا كان ويقص على عبده - رحمة منه وفضلا - جانبا من أسرار سنته وقدره؛ ليأخذوا حذرهم ويتعظوا؛ وليدركوا كذلك ما وراء الواقع التاريخي من عوامل كامنة وأسباب ظاهرة؛ يفسرون بها هذا الواقع التاريخي تفسيراً كاملاً صحيحاً. ومن وراء هذه المعرفة يمكن أن يتوقعوا ما سيكون، استناداً إلى سنة الله التي لا تتبدل... هذه السنة التي يكشف الله لهم عنها.." (٢)

وهذه السنن التي يخضع لها مسار حياة الناس نوعان؛ نوع قرره القرآن لفت الأنظار له ونبه عليه بصريح العبارة، ونوع آخر مستفاد من ملاحظة التجارب وشواهد الواقع لا يدل عليه القرآن إلا عن طريق الإشارة.

فبما أن هذه السنن كلها لها صفة الاطراد والثبات، فإنها تحدد مسار الإنسان والإنسانية في المستقبل كما ضبطت تاريخ الإنسانية في الماضي.

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٤٩-٢٩٥٠)

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ١٠٨٩)



والحقيقة أن الكلام عن سنن الكون يحتاج إلى مجلد ضخم لإعطاء حقه من التفصيل، ويستحق هذا الموضوع أن يفرد بدراسة مستقلة. بل ندعو الباحثين إلى إثراء هذا الموضوع ليكون علما وتخصصا مستقلا، فإن حاجة الأمة إلى معرفة تفاصيل هذه السنن وتطبيقاتها في الواقع ملحة جدا.

ولضخامة الموضوع وسعة مجاله، فإننا نضطر إلى ضغط شديد لتقليص حجمه في هذه الرسالة، وسأحاول اختصارها إلى أبعد حد ممكن وأترك كثيرا من التفاصيل رغم أهميتها، وأقتصر على ما يمس صلب الموضوع بشكل مباشر، ولكن مع ذلك نطلب من القارئ أن يطيل النفس في هذا الخصوص لأن مختصره ليس بالقصير بالمقارنة إلى المباحث الأخرى التي يمكن اختزالها في صفحات معدودات، فإن الكلام عن سنن الله في الكون يتطلب استحضار بعض التفاصيل الضرورية، ولا ارتباط بعضها ببعض فإننا لا نقدر حذف جملة من التفاصيل مخافة عدم اكتمال التصور الأولي الضروري الذي لا بد من استيفاء أساساته في هذا المجال، والله الموفق.

#### النوع الأول: سنن مقررة في القرآن والسنة



يمكن أن نقسم هذه السنن إلى قسمين كبيرين: قسم يتكلم عن السبب والعلّة في ترتيب الأحداث على نظام معين، وقسم آخر يتحدث عن كيفية جريان تلك الأحداث. أو بعبارة أخرى هناك سنن تبين على أي نظام تجري حياة الإنسان وسنن أخرى توضح ما الحكمة من إجراء الأمور على ذلك النظام.

ونستطيع أن ندرج كل السنن التي تتكلم عن كيفية جريان الأحداث تحت قانون عام يسمى قانون السببية. ثم السنن التي تتحدث عن حكمة ترتيب الأمور على





النظام السابق يمكن أن ندرجها تحت قانون أو سنة الابتلاء. وإليك هذه السنن بالتفصيل:

#### سنة الابتلاء

تمثل سنة الابتلاء المغزى الذي سبقت وتساق من أجله مجريات الأحداث. فالابتلاء هو المقصد وعنوان هذا المسرح الحياتي، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. إن الحياة والموت وكل ما يحدث بينهما وما يتكونان عليه خلقا وركبا وصمما من أجل اختبار الناس، فيجازي كلا بما يستحق، ويترتب على هذا الاختبار الجزاء العاجل في الدنيا والآجل في الأخرى ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

وعلى هذا المبدأ يكون نظام الحياة. فكل إنسان سيتعرض للبلاء حتى يتميز الناس وتظهر معادنهم قال تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٣٧]. وقال: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

#### الشر والخير كلاهما ابتلاء

إن الله ركب هذا الكون ورتب الأشياء الموجودة فيه لهذا الهدف من ابتلاء الناس. فالخير والشر، والغنى والفقر، والحر والبرد، واللذة والمشقة، كل هذه وضعت من أجل تفريق الناس وتمييز الخبيث من الطيب، بين المؤمن بوعده الله المتبع لشرعه وبين الجاحد له المعرض عن هداه. قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].



والإنسان لا بد أن يتعرض لشيء من هزة نفسية أو حالة من نقص ما في نفسه أو ماله، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّمَرَّتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]. فالناجح هو الذي استسلم لأمر الله ورضي بقضائه ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]. فهذا هو الصبر المطلوب الذي يستحق به صاحبه الثناء عليه من فوق سبع سماوات، ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وهذا هو الصبر الذي يجلب الهداية وينير الطريق كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "والصبر ضياء." (١)

فهذا ابتلاء بالشر والضراء. ويبتلى الإنسان كذلك بالخير والسراء، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، أي أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يجعل ما على وجه الأرض من الأمور المستحسنة والأشياء المستلذة لاختبار بني الإنسان، أيهم أحمد موقفا منها، وأحسن استغلالا لها. وفي هذا المعنى قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها لينظر كيف تعملون." (٢)

ومن حسن العمل أيضا حسن استغلالها في طاعة الله كالإنفاق وغيره. قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة إلا من أعطاه الله خيرا، فنفع فيه يمينه وشماله ومن بين يديه ووراءه." (٣)

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (١/٢٠٣ رقم ٢٢٣) كتاب الطهارة باب فضل الوضوء.

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٠٩٨ رقم ٢٧٤٢)

(٣) أخرجه البخاري (٥/٢٣٦٦ رقم ٦٠٧٨) ومسلم (٢/٦٨٨ رقم ٩٤)



من الابتلاء أيضا كون الناس متفاوتين في الخلق والرزق والقوة والفضل والعلم والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمنظر والأشكال والألوان وغير ذلك. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥]

ومن أهم الابتلاءات ما ابتلى الله به المؤمنين ليفرق بين الأدعياء الدخلاء والمؤمنين الصادقين، قال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢، ٣]. وابتلى الله أيضا المؤمنين ليميز المجاهدون الصابرون من القاعدين العاجزين، قال تبارك وتعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢].

وهذا الابتلاء من الشدة بمكان إلى حد أن يتساءل الرسول والمؤمنون<sup>(١)</sup> إلى متى هذا البلاء؟ متى يأتي نصر الله؟

قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

### الابتلاء ومحبة الله لعبده

ولا يظن ظان أن الابتلاء دليل البغض من الله للعبد. بل هو حب من الله حتى يتسنى للعبد أن يترقى، إذ لا رقي بدون تعب الصعود، ولا تقدم بلا بذل الجهود.

(١) أكثر المفسرين على هذا القول وبعض المفسرين قالوا إن في الكلام تقديما وتأخيرا في الآية (البقرة ٢١٤) وتقدير الكلام: حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله؟ فقال الرسول: ألا إن نصر الله قريب (انظر الجامع لأحكام القرآن ٣/ ٣٥-٣٦)



قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط." (١)

فالابتلاء إنما أعدّه الله لعباده ليفتح لهم باب الخير. وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "من يرد الله به خيرا يصيب منه." (٢)

#### النظرة المستقبلية في ضوء سنة الابتلاء

إن الوعي بهذه السنة يعطي الإنسان بعد النظر وعمق الحكمة في رؤيته المستقبلية، لأنه يُنبئنا بأن الحياة لا بد لها من الصعوبة التي تفرز المتميزين من الناس وهم من يراعون أمر الشرع في كل الأحوال. ولا يقدر على ذلك إلا من جاهد نفسه وقاوم هواه وراعى حق ربه في كل أحواله.

فالإنسان الواعي بطبيعة الابتلاء لا يتوقع راحة مستمرة وإن كان في رخاء، ولا يتنبأ شدة مستديمة وإن كان في أشد حالات البؤس، لأن من طبيعة الابتلاء أن ينجلي وينقضي بعد تمخض نتائجه. فحالة اليسر والرخاء ابتلاء يميز الشاكر من المغرور، وحالة الشدة والعسر ابتلاء يميز الصابر من الجزوع. وموقع القوة والعزة ابتلاء يفرق المتواضع عن المتكبر وحالة الضعف يفرق الواثق برحمة الله من الآيس منها. فإذا ظهرت النتائج تبدلت الأحوال وفق قانون السببية، وسيأتي تفصيله.

(١) أخرجه والترمذي (٦٠١/٤) رقم ٢٣٩٦ وحسنه وابن ماجه (١٣٣٨/٢) رقم ٤٠٣١ وأخرجه أحمد (٤٢٧/٥) رقم ٢٣٦٧٢، ٤٢٨/٥ رقم ٢٣٦٨٣، ٤٢٩/٥ رقم ٢٣٦٩١ بلفظ: "إذا أحب الله قوما ابتلاهم فمن صبر فله الجزاء ومن جزع فله الجزع." وقال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٢/٢٩١)

(٢) رواه البخاري (٥/٢١٣٨) رقم ٥٣٢١



والوعي بهذه السنة أيضا يحدد تطلعات الإنسان إلى حيث لا تضيع الجهود في أمور غير مطلوبة ولا مفيدة. فإن فهم طبيعة الابتلاء في هذه الدار يجعل الإنسان يحرص على فعل المطلوب.

#### سنن تندرج تحت سنة الابتلاء

تندرج تحت سنة الابتلاء بعض السنن يمكن اعتبارها فروعاً أو تفصيلات لسنة الابتلاء. ومن تلك السنن الفرعية:

##### ١. سنة التداول

يعني أن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يداول أحوال الناس من شدة إلى رخاء، أو من رخاء إلى شدة، ومن نصر إلى هزيمة، أو العكس، من يسر إلى عسر، ومن عسر إلى يسر وهكذا، حتى يظهر مواقف الناس ويكشف بواطن ما في صدورهم.

وهذه السنة مستفادة من قول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وقال ابن كثير: وتلك الأيام نداولها بين الناس أي ندبل عليكم الأعداء تارة وإن كانت لكم العاقبة لما لنا في ذلك من الحكمة.<sup>(١)</sup>

إن العاقبة للمؤمنين والنصر موعود لهم، ولكن هناك حكمة تقتضي أن يذوق المؤمنون طعم الهزيمة.

ومداولة الأحوال لا يقتصر على تعاقب النصر والهزيمة فإن اختلاف الأحوال التي تمر بالإنسان كذلك يخدم هذا الهدف.

(١) تفسير القرآن العظيم (١/٤٠٩)



وقد قال بعض المفسرين أن معناه: نداولها بين الناس من فرح وغم وصحة وسقم وغنى وفقر. <sup>(١)</sup>

إن مشاهد التاريخ تفصل هذه السنة الثابتة، لقد قامت دول ثم انهارت وجاء أقوام آخرون مغمورون وبنوا دولاً جديدة، ودائماً تتبدل موازين القوى مع مرور الزمان، ما من قوي إلا وانتهى به الحال إلى ضعف، وكم من مستضعف بادئ الأمر حتى انتهى به الأمر إلى التمكين قال تعالى: ﴿وَنُزِذُ أَنْ نَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ أَسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيْمَةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]

## ٢. سنة التدافع بين الحق والباطل

من السنن التي تتفرع على سنة الابتلاء هو التدافع بين الحق والباطل. فإن الله أراد لهذه الحياة الدنيا أن تكون مسرحاً للصراع بين أنصار الحق وأنصار الباطل، بين قوى الخير وقوى الشر. ﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَضَرُّونَ ۚ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]. ضرب الله مثلاً لهذه الحقيقة الثابتة بقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهٗ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ضرب مثلاً للحق والباطل فشبّه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء فإنه يضمحل ويعلق بجنبات الأودية وتدفعه الرياح، فكذلك يذهب الكفر ويضمحل". <sup>(٢)</sup>

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٢١٨)

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٣٠٤)



وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه والباطل في اضمحلاله وفنائه." (١)

إن الحق ثابت وباق، قضى على الباطل بالزوال، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَاطِلَ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبا: ٤٩].

ولكن هذه الدار دار ابتلاء، فإن الله مكن لأهل الباطل أن يكون لهم جولة وصوله فترة من الزمن على أهل الحق لأسباب: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ [آل عمران: ١٤٠] وكذلك ﴿وَلِيَمْحَصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وفي الأخير ﴿وَيَمَحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

ولهذا أمر الله تعالى أهل الحق بإعداد القوة لإرهاب أهل الباطل ومنعهم من التحرش بأهل الحق، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلُمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

وقضت سنة الله تعالى في تدافع الحق والباطل أن الغلبة للحق وأهله، وأن الاندحار والمحق للباطل وأهله، قال تعالى: ﴿وَيَمَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى: ٢٤].

### تشوُّه النتيجة بسبب اختلاط العوامل

قد يوجد عند المؤمنين عوامل ترشحهم للنصر مع وجود عوامل أخرى تحرمهم هذا التكريم، فتخرج النتيجة مشوَّهة لا نصرا خالصا ولا خذلانا محضا.



وقد كرر القرآن نموذج بني إسرائيل، أحيانا في سياق المدح والامتنان وأحيانا أخرى في معرض الذم والتأسف.

فقال تعالى مادحا بني إسرائيل وامتن الله عليهم بإهلاك فرعون وقومه: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وقال أيضا: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٩].  
وقال أيضا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٣، ٢٤].

إن بني إسرائيل قوم نصرهم الله ونجاهم من فرعون وظلمه. إلا أن فيهم آفات كثيرة ذكرها القرآن في وقائع متعددة.

ففي إيمانهم بالله بقية شرك. قال تعالى: ﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ ۚ قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وقال أيضا: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٩٢].

وفي إيمانهم بالرسول غش كثيف، قال تعالى في معارضة بني إسرائيل لموسى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَىٰ اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّيْغَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾





وقال أيضا في عنادهم لما أمروا بذبح البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِصٌ وَلَا يَكَرُّ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لُونَهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقِعٌ لُونُهَا تَسْرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة: ٦٧-٧٠]

وقال في إيدائهم لموسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وأما عن قلة صبرهم وحبهم للملذات الرخيصة فقال الله: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنَ نَصِيرَ عَلَى طَعَامٍ وَحِيدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْتِثُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهَيُّطُوا مَصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّكَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: ٦١]، لم يصبروا وقد أعطاهم الله المن والسلوى وقد فجر لهم الله اثنتي عشرة عينا.

وعن "جلدهم" فقال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٨، ١٢٩].



وأما في جهادهم فقال تعالى: ﴿يَقُومُوا أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢١) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمُ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَمُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿[المائدة: ٢١-٢٤].

فكانت النتيجة المؤسفة بعد معاناة طويلة وتجارب مريرة: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

وأكثر أسفا من ذلك أنه لما تكرر من بني إسرائيل تلك الأفاعيل الشنيعة قضى الله عليهم مسارا تاريخيا مؤلما جدا قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]

إن قصة بني إسرائيل شغلت حيزا كبيرا في القرآن الكريم لما فيها من دروس وعبر كثيرة. وتلك سنة جارية في الأمم حذر الرسول أمته من الوقوع فيها.

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: "لتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم.

قلنا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟

قال: فمن؟" (١)



﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

[البقرة: ١٣٤].

### التدافع لا يعني إزالة الآخر

إن الإسلام يقر مبدأ المدافعة بين الحق والباطل وشجع الانتصار لأهل الحق وتكفل له، ولكن لا يعني ذلك أن الله يريد إبادة أهل الباطل، لأن هذه الدنيا مبنية على نظام المغالبة المستمرة. فلذلك لم يأمر الله بمقاتلة المسالمين من الكفار، بل حث المسلمين على الإحسان إليهم وحسن مجاورتهم ما داموا أرادوا حسن الجوار والعيش المشترك.

قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ

[الممتحنة: ٨، ٩].

وقال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَاطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلقَتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَرَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَالْقَوَا إِلَيْكُمُ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ۝٩٠﴾ [النساء: ٩٠]

قال القرطبي: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾ أي يتصلون بهم [أي المسلمين] ويدخلون فيما بينهم من الجوار والحلف، المعنى: فلا تقتلوا قوما بينهم وبين من بينكم وبينهم عهد فإنهم على عهدهم ثم انتسخت العهود فانتسخ هذا. هذا قول مجاهد



وابن زيد وغيرهم، وهو أصح ما قيل في معنى الآية.<sup>(١)</sup> ولكن النسخ هنا ليس على إطلاقه، لأن ذلك محصور على قريش وحلفائهم الذين نقضوا العهد، أما غيرهم فشملمهم قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] والمعروف أن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] لم ينسخ كما روي عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة، فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم. فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه.<sup>(٢)</sup>

وقال القرطبي: في هذه الآية (أي آية النساء السابقة الذكر) دليل على إثبات المواعدة بين أهل الحرب وأهل الإسلام إذا كان في المواعدة مصلحة للمسلمين.<sup>(٣)</sup> واللافت للنظر في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَاطَهُمُ عَلَيْكُمْ فَلَقَتَلَوْكُمْ﴾ وهو يعني تسليط الله تعالى المشركين على المؤمنين يعني بأن يقدرهم على ذلك ويقويهم إما عقوبة ونقمة عند إذاعة المنكر وظهور المعاصي، وإما ابتلاء واختبارا كما قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجْهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]، وإما تمحيصا للذنوب كما قال تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ١٤١]. والله أن يفعل ما يشاء ويسلط من يشاء على من يشاء إذا شاء.<sup>(٤)</sup>

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٠٨/٥

(٢) أخرجه أحمد (٣٥٣/٤٢) رقم: (٢٥٥٤٧) النسائي في السنن الكبرى (٣٣٣/٦) رقم: (١١١٣٨) وأخرجه الحاكم وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (٣٤٢/٧) رقم: (٣١٦٧)

(٣) المصدر نفسه

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ٢١٠/٥



وهذا المقطع من الآية له دالتان مهمتان:

الأولى: أن هذا يدل دلالة واضحة أن القرآن ليس من قبيل كلام البشر الذي ينحاز دائما إلى مصلحته ومصلحة قومه، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يؤكد هنا أنه لا محاباة في قضائه وقراره، فليس المسلمون مستثنين من العدالة إذا ارتكبوا ما يستحقون من أجله العقوبة. فالنصر ليس حكرا للون أو جنس أو شعب، بل الله داوِل القوة والغلبة وفق حكمته وتحت قانون عدله.

الثانية: أن سنة التدافع بين الحق والباطل مرتبطة بسنن أخرى تكملها وتوازنها، وسيأتي بيانه بعد سرد كل السنن المقررة إن شاء الله.

### ٣. سنة الاستدراج

ومن السنن التي تتفرع عن سنة الابتلاء سنة الاستدراج للعصاة والظالمين. والاستدراج من استدرجه إلى كذا إذا استنزله إليه درجة فدرجة حتى يورطه فيه.<sup>(١)</sup> ومعنى هذه السنة أن الله تعالى أمهل بعض الظالمين والعاصين بحيث أمتعهم بالخير الحسي مدة من الزمن ثم يأخذهم بغتة وفجأة دون سابق إنذار.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

ومعنى الآية أن الله يستدرج الكفرة والعصاة بأن يرزقهم الصحة والنعمة فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد الكفر والمعاصي. وهم لا يعلمون أي وهم لا يشعرون أن هذا استدراج لهم، بل يعتقدون أن ذلك من الله كرامة مع أنه في نفس الأمر إهانة لهم واستدراج.



عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنْ اللَّهُ لِيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلَتِهِ. قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].<sup>(١)</sup>

وهذا الاستدراج يكون وجهاً آخر لابتلاء الكفار والظالمين إذ إن من سنة الله عَزَّجَلَّ أَنْ يَبْتَلِيَ الْكَافِرَ وَالظَّالِمِينَ بِالْبَاسِ وَالضَّرَاءِ رَجَاءً أَنْ يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ وَيَتَضَرَّعُوا لَهُ. فلما لم تجد هذه الابتلاءات نفعا لزرهم وتنبههم استدراجهم الله بالنعماء حتى يظنوا أنهم على خير، وأن المستقبل مضمون لهم، فيزدادوا إثماً وطغياناً، ثم فاجأهم الله بعذاب بئس بما كانوا يعملون.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَاسِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾<sup>(٤٤)</sup> فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ<sup>(٤٥)</sup> فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿[الأنعام: ٤٢-٤٤]

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنها المواجهة بنموذج من بأس الله سبحانه. نموذج من الواقع التاريخي. نموذج يعرض ويفسر كيف يتعرض الناس لبأس الله، وكيف تكون عاقبة تعرضهم له، وكيف يمنحهم الله الفرصة بعد الفرصة، ويسوق إليهم التنبيه بعد التنبيه؛ فإذا نسوا ما ذكروا به، ولم توجههم الشدة إلى التوجه إلى الله والتضرع له، ولم توجههم النعمة إلى الشكر والحذر من الفتنة، كانت فطرتهم قد فسدت الفساد الذي لا يرجى معه صلاح، وكانت حياتهم قد فسدت الفساد الذي

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٧٢٦ رقم ٤٤٠٩) ومسلم (٤/ ١٩٩٧ رقم ٢٥٨٣)



لا تصلح معه للبقاء. فحقت عليهم كلمة الله. ونزل بساحتهم الدمار الذي لا تنجو منه ديار..<sup>(١)</sup>

وقال: "والقلب الذي لا ترده الشدة إلى الله قلب تحجر، فلم تعد فيه نداوة تعصرها الشدة! ومات فلم تعد الشدة تثير فيه الإحساس! وتعطلت أجهزة الاستقبال الفطرية فيه، فلم يعد يستشعر هذه الوخزة الموقظة، التي تنبئ القلوب الحية للتلقي والاستجابة. والشدة ابتلاء من الله للعبد؛ فمن كان حيا أيقظته، وفتحت مغاليق قلبه، وردته إلى ربه؛ وكانت رحمة له من الرحمة التي كتبها الله على نفسه.. ومن كان ميتا حسبت عليه، ولم تفده شيئا، وإنما أسقطت عذره وحجته، وكانت عليه شقوة، وكانت موطئة للعذاب!

وهذه الأمم التي يقص الله - سبحانه - من أنبائها على رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومن وراءه من أمته.. لم تفد من الشدة شيئا. لم تتضرع إلى الله، ولم ترجع عما زينه لها الشيطان من الإعراض والعناد.. وهنا يملي لها الله - سبحانه - ويستدرجها بالرخاء."<sup>(٢)</sup>

وهذه السنة جارية في كل الأمم كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ ٩٦ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٧﴾

[الأعراف: ٩٤، ٩٥].

(١) في ظلال القرآن (٢/ ١٠٨٨)

(٢) في ظلال القرآن (٢/ ١٠٨٩-١٠٩٠)



قال ابن كثير: "يقول تعالى مخبرا عن الأمم الماضية الذين أرسل إليهم الأنبياء ﴿بِالْبَاسَاءِ وَالضَّرَاءِ﴾. يعني بالبأساء ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام، والضرء ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك. ﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ﴾ أي يدعون ويخشعون ويتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم. وتقدير الكلام أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا فما فعلوا شيئا من الذي أراد منهم فقلب عليهم الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه.

ولهذا قال: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ﴾ أي حولنا الحال من شدة إلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك. فما فعلوا.

وقوله: ﴿حَتَّىٰ عَفَوْا﴾ أي كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم. يقال: عفا الشيء إذا كثر.

﴿وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول تعالى: ابتليناهم بهذا وهذا، ليتضرعوا وينيبوا إلى الله فما نجع فيهم لا هذا وهذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا. وقالوا: قد مسنا من البأساء والضرء، ثم بعده من الرخاء، ثم ما أصاب آباءنا في قديم الزمان والدهر. وإنما هو الدهر تارات وتارات، بل لم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين.

وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضرء. كما ثبت في الصحيحين: "عجا للمؤمن لا يقضي الله له قضاء





إلا كان خيرا له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له".<sup>(١)</sup>

فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء. ولهذا جاء في الحديث "لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيا من ذنوبه، والمنافق مثله كمثل الحمار لا يدري فيم ربطه أهله ولا فيم أرسلوه." أو كما قال. ولهذا عقب هذه الصفة بقوله ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي أخذناهم بالعقوبة بغتة أي على بغتة وعدم شعور منهم، أي أخذناهم فجأة كما في الحديث: "موت الفجأة رحمة للمؤمن، وأخذة أسف للكافر"<sup>(٢)</sup>.<sup>(٣)</sup>

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ: "إن السياق القرآني هنا لا يروي حادثة، إنما يكشف عن سنة. ولا يعرض سيرة قوم إنما يعلن عن خطوات قدر.. ومن ثم يتكشف أن هناك ناموساً تجري عليه الأمور؛ وتتم وفق الأحداث؛ ويتحرك به تاريخ "الإنسان" في هذه الأرض. وأن الرسالة ذاتها - على عظم قدرها - هي وسيلة من وسائل تحقيق الناموس - وهو أكبر من الرسالة وأشمل - وأن الأمور لا تمضي جزافاً؛ وأن الإنسان لا يقوم وحده في هذه الأرض - كما يزعم الملحدون بالله في هذا الزمان! - وأن كل ما يقع في هذا الكون إنما يقع عن تدبير، ويصدر عن حكمة، ويتجه إلى

(١) بل انفرد به مسلم (٤/ ٢٢٩٥ رقم ٢٩٩٩) عند البخاري ولفظه: عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١٣٦ رقم ٢٥٠٨٦) عن عائشة بلفظ: "سألت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن موت الفجأة فقال: راحة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر." والطبراني في الكبير (٩/ ١٧٥ رقم ٨٨٦٥) عن ابن مسعود بلفظ: "موت الفجأة تخفيف على المؤمن وأسف على الكافر."

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٣٤)



غاية. وأن هنالك في النهاية سنة ماضية وفق المشيئة الطليقة؛ التي وضعت السنة، وارتضت الناموس.. ووفقاً لسنة الله الجارية وفق مشيئته الطليقة كان من أمر تلك القرى ما كان، مما حكاها السياق. ويكون من أمر غيرها ما يكون !

إن إرادة الإنسان وحركته - في التصور الإسلامي - عامل مهم في حركة تاريخه وفي تفسير هذا التاريخ أيضاً. ولكن إرادة الإنسان وحركته إنما يقعان في إطار من مشيئة الله الطليقة وقدره الفاعل... والله بكل شيء محيط.. وإرادة الإنسان وحركته - في إطار المشيئة الطليقة والقدر الفاعل - يتعاملان مع الوجود كله، ويتأثران ويؤثران في هذا الوجود أيضاً.. فهناك زحمة من العوامل والعوالم المحركة للتاريخ الإنساني؛ وهناك سعة وعمق في مجال هذه الحركة؛ مما يبدو إلى جانبه "التفسير الاقتصادي للتاريخ" و"التفسير البيولوجي للتاريخ"، و"التفسير الجغرافي للتاريخ"... بقعا صغيرة في الرقعة الكبيرة. وعثا صغيرا من عبث الإنسان الصغير ! "هـ"<sup>(١)</sup>

### يجب الخوف من الاستدراج

لا يجوز للإنسان أن يغتر بالنعمة التي حلت بفترة من حياته فإن النعمة لا تدل بالضرورة على التكريم، وقد ذم الله من هذا ظنه فقال: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَيْنَاهُ رَبُّهُ فَآكَرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ [الفجر: ١٥]، وقال أيضاً يذم من اغتر بطيب العيش ظنا منه أن الخير سيكون مصيره المحتوم فلا يحاسب نفسه ولا يخاف من مكر ربه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْتُهُ رَحْمَةً مِّمَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠].

والمؤمن دائم الخوف من الله، دائم الحذر من مكره ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] روي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما حملت إليه

(١) في ظلال القرآن (٣/ ١٣٣٦) مختصرا



كنوز كسرى قال: "اللهم إني أعوذ بك من أن أكون مستدرجا، فإني سمعتك تقول: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤]."

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: "كم مستدرج بالإحسان إليه، وكم مفتون بالثناء عليه، وكم مغرور بالستر عليه." (١)

### قانون السببية

والقسم الثاني من سنن الكون وقانونه العام هو قانون السببية. وأهمية الوعي بهذه السنة الكونية بيّنة جدا، فإنها تنبئنا بأن تحقيق الأهداف لا تكون إلا بإتيان أسبابها، تخبرنا أيضا أن الأسباب إذا انعقدت وخلت عن الموانع تأت نتائجها حتما.

وقد دل القرآن الكريم على أن كل شيء يحدث بسبب، سواء كان هذا الحدث يتعلق بالجماد أو بالنبات أو بالحيوان أو بالإنسان أو بالأجرام السماوية أو الظواهر الكونية المادية المختلفة. (٢)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات." (٣)

قال ابن القيم: إن القرآن مملوء من ترتيب الأحكام الكونية والشرعية والثواب العقاب على الأسباب بطرق متنوعة، فيأتي بباء السببية تارة كقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ويأتي باللام تارة كقوله تعالى:

(١) الجامع لأحكام القرآن (١٨ / ٢٥١)

(٢) السنن الإلهية ص ٢٢

(٣) مجموع الفتاوى (٨ / ٧٠)



﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]،  
ويأتي بذكر الوصف المقتضي للحكم تارة كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]،<sup>(١)</sup> فالله تعالى اقتضت حكمته ربط المسببات بأسبابها.<sup>(٢)</sup>

### الحكمة من قانون السببية

إن وضع الكون على هذا النظام وترتيب الأحداث وفق هذا القانون قصده الله تعالى لحكمة بالغة تتناسب مع حكمة الله وعلمه.

وقد أفصح الشاطبي عن هذه الحكمة من هذا القانون، فقال: "... أن الأسباب والمسببات موضوعة في هذه الدار ابتلاء للعباد وامتحانا لهم، فإنها طريق إلى السعادة أو الشقاوة.

وهي على ضربين: (أحدهما) ما وضع لابتلاء العقول، وذلك العالم كله من حيث هو منظور فيه، وصنعة يستدل بها على ما وراءها.

و(الثاني) ما وضع لابتلاء النفوس، وهو العالم كله أيضا. من حيث هو موصل للعباد المنافع والمضار، ومن حيث هو مسخر لهم ومُنقاد لما يريدون فيه، لتظهر تصاريফهم تحت حكم القضاء والقدر، ولتجري أعمالهم تحت حكم الشرع، ليسعد من سعيد ويشقى من شقي، وليظهر مقتضى العلم السابق والقضاء المحتم الذي لا مرد له. فإن الله غني عن العالمين ومنزه عن الافتقار في صنع ما يصنع إلى الأسباب والوسائط ولكن وضعها للعباد ليبتيلهم فيها.<sup>(٣)</sup>

(١) مدارج السالكين (٣/٤٩٨-٤٩٩)

(٢) مدارج السالكين (٣/٤٧٨)

(٣) الموافقات (١/١٣٢)



فالابتلاء هو المقصد من ترتيب الأمور على هذا النظام. فالجزاء إنما يحصل بسبب العمل. والعمل ينتج بسبب الإرادة والقدرة. والإنسان مأمور بتحصيل الأسباب التي يراد تحقيق مسبباتها، وهو محاسب على كل الأسباب التي باشرها.

#### لا بد للأسباب من وجود الشروط وانتفاء الموانع

ولكن السبب لا يستقل بالتأثير بدون توفر الشروط ولا يؤثر أيضاً مع وجود ما يمنعه. فالنار لا تحرق إلا إذا كانت الحرارة أصابت المحل، ولا تحرق أيضاً إذا كان الحطب الذي أريد إحراقه مبللاً. وزوال الشمس لا يوجب الصلاة على الصبي ولا على من كان في ساحة القتال عند بعض حالات الخوف. وهكذا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "فكل سبب فهو موقوف على وجود الشروط وانتفاء الموانع."<sup>(١)</sup>

وقال: "فلا بد من تمام الشروط وزوال الموانع، وكل ذلك بقضاء الله وقدره، وليس شيء من الأسباب مستقلاً بمطلوبه بل لا بد من انضمام أسباب أخرى إليه، ولا بد من صرف الموانع والمعارضات عنه حتى يحصل المقصود، فالمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك. ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له. والطعام والشراب لا يغذي إلا بما جعل الله في البدن من الأعضاء والقوى."<sup>(٢)</sup>

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣٣/٨)

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٦٧/٨)



### التوكل والدعاء من أقوى الأسباب

ومع أن اعتبار الأسباب المادية المحسوسة التي لا خلاف فيه بين العقلاء، فإن الشرع أثبت أيضا مفعولية الأسباب المعنوية التي قد لا يتفطن لها كثير من الناس. ومن هذه الأسباب المعنوية ما يعتبره بعض الناس منافيا ومضادا لاعتبار الأسباب المادية، ألا وهو التوكل. فإن الذين يجهلون حقيقة التوكل يعتقدون أن التوكل هو رفض الأسباب، والاعتماد على الله يعني ترك سائر الأسباب. والذي يعنينا من هذه النقطة في هذا الموضع هو التنبيه على أن التوكل والاعتماد على الله فوق أنه لا ينافي مشروعية الأخذ بالأسباب فإنه من الأسباب أيضا بل من أقوى الأسباب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "فاعلم أن نفاة الأسباب لا يستقيم لهم توكل ألبتة. لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه. فهو كالدعاء الذي جعله الله سببا في حصول المدعو به. فإذا اعتقد العبد أن توكله لم ينصبه الله سببا، ولا جعل دعاءه سببا لنيل شيء فقد وقع في الوهم الباطل. فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَضَى بِحصول الشبع إذا أكل المرء، والري إذا شرب، فإذا لم يفعل لم يشبع ولم يرو." (١)

وقال: "فالتوكل من أعظم الأسباب التي يحصل بها المطلوب، ويندفع بها المكروه. فمن أنكر الأسباب لم يستقم منه التوكل. ولكن من تمام التوكل عدم الركون إلى الأسباب وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها وحال بدنه قيامه بها." (٢)

(١) مدارج السالكين ٢/ ١١٨

(٢) مدارج السالكين ٢/ ١٢٠



ويشهد لقول ابن القيم قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرَهُ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿[الطلاق: ٣]، فإن الله جعل التوكل سببا لكون الله كافي عبده، فإن الشروط اللغوية - في كلام الشرع - أسباب شرعية.

### أحكام الدخول في الأسباب

ولكن الناس في اتخاذ الأسباب على مراتب ثلاث؛ ظالم لنفسه، فمقتصد، فسابق بالخيرات بإذن الله. قال الشاطبي: "...فالالتفات إلى المسببات بالأسباب له ثلاث مراتب:

إحداها: أن يدخل فيها على أنه فاعل للمسبب أو مولد له، فهذا شرك أو مضاه له والعياذ بالله. والسبب غير فاعل بنفسه ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]، وفي الحديث: "أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي" الحديث<sup>(١)</sup>. فإن المؤمن بالكوكب الكافر بالله هو الذي جعل الكوكب فاعلا بنفسه. وهذه المسألة قد تولى النظر فيها أرباب الكلام.

والثانية: أن يدخل في السبب على أن المسبب يكون عنده عادة. وهذا هو المتكلم على حكمه قبل. ومحصوله طلب المسبب عن السبب لا باعتقاد الاستقلال بل من جهة كونه موضوعا على أنه سبب لمسبب. فالسبب لا بد أن يكون سببا لمسبب لأنه معقوله وإلا لم يكن سببا. فالالتفات إلى المسبب من هذا الوجه ليس بخارج عن مقتضى عادة الله في خلقه، ولا هو مناف لكون السبب واقعا بقدرة الله تعالى. فإن قدرة الله تعالى تظهر عند وجود السبب وعند عدمه. فلا ينفي وجود السبب كونه خالقا للمسبب، ولكن هنا قد يغلب الالتفات إليه حتى يكون فقد المسبب مؤثرا ومنكرا. وذلك لأن العادة غلبت على النظر في السبب فحكم كونه سببا ولم

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٩٠، ١/ ٣٥١ رقم ٩٩١)، ومسلم (١/ ٨٣ رقم ٧١)



ينظر إلى كونه موضوعا بالجعل لا مقتضيا بنفسه. وهذا هو غالب أحوال الخلق في الدخول في الأسباب.

والثالثة: أن يدخل في السبب على أن المسبب من الله تعالى لأنه المسبب فيكون الغالب على صاحب هذه المرتبة اعتقاد أنه مسبب عن قدرة الله وإرادته من غير تحكيم لكونه سببا، فإنه لو صح كونه محققا لم يتخلف كالأسباب العقلية. فلما لم يكن كذلك تمحض جانب التسيب الرباني، بدليل السبب الأول، هنا يقال لمن حكمه: فالسبب الأول عن ماذا تسبب؟ وفي مثله قال عَلَيْهِ السَّلَام: "فمن أعدى الأول؟" <sup>(١)</sup> فإذا كانت الأسباب مع المسببات داخلة تحت قدرة الله فالله هو المسبب لا هي. إذ ليس له شريك في ملكه. وهذا كله مبين في علم الكلام. وحاصله يرجع إلى عدم اعتبار السبب من المسبب من جهة نفسه واعتباره فيه من جهة أن الله مسببه وذلك صحيح". <sup>(٢)</sup>

#### سنن تندرج تحت قانون السببية

ثم تحت قانون السببية سنن أخرى ثابتة في القرآن والسنة تبين كيف تترتب المسببات على أسبابها وتحصل النتائج بمقدماتها. ويمكن تلخيص تلك السنن في أربع سنن أساسية.

#### ١- ربط الإصلاح الخارجي بالإصلاح الداخلي

فمن تلك السنن التي أثبتتها الله في كتابه وبينتها السنة المطهرة، أن صلاح أحوال الناس في ظواهرهم إنما يحصل بعد إصلاح بواطنهم. ومن أصلح سريره

(١) أخرجه البخاري (٥/ ٢١٦١ رقم ٥٣٨٧، ٥/ ٢١٧٧ رقم ٥٤٣٧) ومسلم (٤/ ١٧٤٢ رقم ٢٢٢٠)

(٢) الموافقات (١/ ١٣١-١٣٢)





أصلح الله علانيته. وأصل هذه القاعدة قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]

إن هذه الآية تقرر أمرا في غاية الأهمية في سنة التغيير، تغيير أحوال الناس، تغيير أحوال الأمة.

وإن هذه القاعدة تتضمن مجموعة من حقائق التغيير مهمة:

**الحقيقة الأولى:** أن التغيير يبدأ من الإنسان نفسه، فمن أراد الانتقال من حال إلى حال فليبدأ هو بالتغيير. فهذا مبدأ المسؤولية.

قال سيد قطب رَحِمَهُ اللهُ فِي هذه الآية: ووضح من النص الأول من هذه النصوص أن مشيئة الله في تغيير حال قوم إنما تجري وتنفذ من خلال حركة هؤلاء القوم بأنفسهم، وتغيير اتجاهها وسلوكها تغييرا شعوريا وعمليا. فإذا غير القوم ما بأنفسهم اتجاها وعملا غير الله حالهم وفق ما غيروا هم من أنفسهم..<sup>(١)</sup>

وقال: وإنها لحقيقة تلقي على البشر تبعة ثقيلة؛ فقد قضت مشيئة الله وجرت بها سنته، أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر؛ وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم. والنص صريح في هذا لا يحتمل التأويل. وهو يحمل كذلك - إلى جانب التبعة - دليل التكريم لهذا المخلوق الذي اقتضت مشيئة الله، أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه.<sup>(٢)</sup>

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٢٠٧٢)

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ٢٠٤٩-٢٠٥٠)



الحقيقة الثانية: أن بداية التغير تكون من النفس أو بالتعبير القرآني من "ما بالنفس". فهذه معادلة التغير؛ فتغير ما في الأنفس يحدث تغيرات جوهرية في تصرفات الإنسان، ومن ثم تتغير حياته بشكل أو بآخر.

ويؤيد هذا معنى هذه السنة قول الرسول ﷺ: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب."<sup>(١)</sup> فإن صلاح القلب يعقبه صلاح كل الجوارح فإنه محرك الكيان الإنساني كله.

ولقد فصل ابن القيم هذه المعادلة وكشف طريقة سياسة النفس والاستفادة من هذه الحقيقة. فقال: "واعلم أن مبدأ كل علم اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات، والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل. وكثرة تكراره تعطي العادة. فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها.

فصلاح الخواطر بأن تكون مراقبة لوليها وإلهها، صاعدة إليه، دائرة إلى مرضاته، ومحابه، فإنه سبحانه به كل صلاح، ومن عنده كل هدى، ومن توفيقه كل رشد، ومن توليه لعبده كل حفظ. ومن تولي العبد وإعراضه عنه كل ضلال وشقاء.

واعلم أن الخطرات والوساوس تؤدي متعلقاتها إلى الفكر، فيأخذها الفكر فيؤديها إلى التذكر، فيأخذها التذكر فيؤديها إلى الإرادة، فتأخذها الإرادة فتؤديها إلى الجوارح والعمل، فتستحكم فتصير عادة. فردها من مبادئها أسهل من قطعها بعد قوتها وتمامها.

(١) أخرجه البخاري (٢٨/١ رقم ٥٢) ومسلم (١٢١٩/٣ رقم ١٥٩٩)



ومعلوم أن الإنسان لم يعط إماتة الخواطر ولا القوة على قطعها، فإنها تهجم عليه هجوم النفس، إلا أن قوة الإيمان والعقل تعينه على قبول أحسنها ورضاه به ومساكنته له، وعلى دفع أقبحها وكراهته له ونفرته منه.

وقد خلق الله سبحانه النفس شبيهة بالرحى الدائرة التي لا تسكن ولا بد لها من شيء تطحنه. فإن وضع فيها حب طحنه، وإن وضع فيها تراب أو حصى طحنه.

فالأفكار والخواطر التي تجول في النفس هي بمنزلة الحب الذي يوضع في الرحى، ولا تبقى تلك الرحى معطلة قط، بل لا بد لها من شيء يوضع فيها، فمن الناس من تطحن رحاه حبا دقيقا ينفع به نفسه وغيره، وأكثرهم يطحن رملا وحصى وتبنا ونحو ذلك! فإذا جاء وقت العجن والخبز تبين له حقيقة طحنه!!<sup>(١)</sup>

وقال أيضا: "دافع الخطرة، فإن لم تفعل صارت شهوة، فحاربها، فإن لم تفعل صارت عزيمة وهمة، فإن لم تدافعها صارت فعلا، فإن لم تتداركه بضده صار عادة! فيصعب عليك الانتقال عنها!"<sup>(٢)</sup>

فمن يريد الإصلاح فليبدأ من الداخل، ويعمل على صياغة نفسه من أفكار، وإرادات، وسلوكيات، فعادات. ومجموعة العادات تشكل طبائع ثابتة صعبة التغيير، إلا أن هذه الحقيقة التي بين أيدينا تكشف كيف تتكون الطبائع والعادات، فيمكن العمل على تغييرها، وإن كانت تحتاج إلى وقت طويل ومجاهدة مستمرة حتى تثبت النفس على عادات جديدة وطبائع جديدة بإلزامها تصورات وإرادات وأفعال جديدة على مدى بعيد نسبيا.

(١) الفوائد لابن قيم الجوزية ص ١٧٣-١٧٤، دار الأندلس، السعودية-حائل، الطبعة الأولى، ١٤١٤هـ-١٩٩٣م

(٢) الفوائد ص ٣١



**والحقيقة الثالثة:** أن ما يحدث في الناس من أحوال وما أحدث الله لهم من النعم أو النقم، كل ذلك إنما سبب ما أحدثه الناس في أنفسهم. وهذا مبدأ الجزاء.

روى ابن كثير في تفسيره: أن الله أوحى إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: أن قل لقومك إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله، فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حول الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون. ثم قال: إن تصديق ذلك في كتاب الله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

وخطب علي بن أبي طالب على منبر الكوفة قال: كنت إذا أمسكت عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ابتدأني، وإذا سألته عن الخبر أنبأني، وإنه حدثني عن ربه عَزَّ وَجَلَّ قال: قال الرب: وعزتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، ما من قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهت من معصيتي ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتي إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابي إلى ما يحبون من رحمتي.<sup>(١)</sup>

عن أبي هريرة قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".<sup>(٢)</sup>

فلذلك -كما قال سفيان بن عيينة<sup>(٣)</sup>- كان العلماء فيما مضى يكتب بعضهم إلى بعض بهؤلاء الكلمات: من أصلح سريره أصلح الله علانيته، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه.<sup>(٤)</sup>

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٠٥) باختصار

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٨٧ رقم ٢٥٦٤)

(٣) سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي أبو محمد الكوفي الأعور أحد أئمة الإسلام. قال ابن المديني: ما في أصحاب الزهري أتقن من ابن عيينة. وقال الشافعي: لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز. مات بمكة أول يوم من رجب سنة ثمان وتسعين ومائة (طبقات الحفاظ ١١٩/١)

(٤) مجموع الفتاوى (٧/ ٩-١٠) وقد أخرجه أيضا ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٦٢ رقم ٣٤٩٨٨) وهناد بن السري في الزهد (١/ ٣٠٠ رقم ٥٢٨) وأبو نعيم في حلية الأولياء (٤/ ٢٤٧)



وقال بعض العارفين: حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن.<sup>(١)</sup>

### مراعاة السلف لظواهر تدل على السرائر

لقد كان السلف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يعرفون أن ما ظهر لهم من المصائب وما أصابهم من المشاكل قد يحدث بسبب ذنب ارتكبه. فيراجعون أنفسهم لذلك.

قال بكر بن عبد الله المزني<sup>(٢)</sup>: "إذا وجدت من إخوانك جفاء، فتب إلى الله فإنك أحدثت ذنبا، وإذا وجدت منهم زيادة ود، فذلك لطاعة أحدثتها فاشكر الله تعالى".<sup>(٣)</sup>

روي أن محمد بن سيرين<sup>(٤)</sup> لما ركب الدين اغتم لذلك فقال: "إني لأعرف هذا الغم، هذا بذنب أصبته منذ أربعين سنة".<sup>(٥)</sup>

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٢١)

(٢) بكر بن عبد الله المزني البصري كان عالما عابدا زاهدا متواضعا قليل الكلام. وله روايات كثيرة عن خلق من الصحابة والتابعين قال بكر بن عبد الله: إذا رأيت من هو أكبر منك من المسلمين فقل سبقتني إلى المعاصي فهو خير مني وإذا رأيت وإخوانك يكرهونك ويعظمونك فقل هذا من فضل ربي وإذا رأيت منهم تقصيرا فقل هذا بذنب أحدثته. وقال لا يكون العبد تقيا حتى يكون تقي الطمع تقي الغضب. توفي سنة ١٠٧ هـ (الدبابة والنهاية ٩/ ٢٥٦-٢٥٧)

(٣) حلية الأولياء (٢/ ٢٢٦) وذكره المناوي في فيض القدير (٥/ ٤٣٨) وهذا لفظه.

(٤) إمام المعبرين محمد بن سيرين أبو بكر بعد موت الحسن بمائة يوم قالوا كان سيرين أبو محمد عبدا لأنس بن مالك فكاتبه على عشرين ألفا وأدى المكاتبه. وكانت أمه صفية مولاة لأبي بكر الصديق طيبها ثلاث من أزواج النبي ودعون لها وحضر ملاكها ثمانية عشر بدرية فيهم أبي بن كعب يدعو وهم يؤمنون. قال وولدت أن السنة بقيت من خلافته ومات محمد سنة ١٠٩ هـ عن

سبع وسبعين سنة (شذرات الذهب ١/ ١٣٨)

(٥) حلية الأولياء (٢/ ٢٧١)



وقال مرة الهمداني<sup>(١)</sup>: رأيت على ظهر كف شريح<sup>(٢)</sup> قرحة، فقلت: يا أبا أمية، ما هذا؟ قال: هذا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير.<sup>(٣)</sup>

وقال الحسن: دخلنا على عمران بن حصين فقال رجل: لا بد أن أسألك عما أرى بك من الوجع. فقال عمران: يا أخي لا تفعل، فوالله إني لأحب الوجع، ومن أحبه كان أحب الناس إلى الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ فهذا مما كسبت يدي، وعفو ربي عما بقي أكثر.<sup>(٤)</sup>

قيل لأبي سليمان الداراني: ما بال العقلاء أزالوا اللوم عن أساء إليهم؟ فقال: لأنهم علموا أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذنوبهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾.<sup>(٥)</sup>

وقال عكرمة: ما من نكبة أصابت عبدا فما فوقها إلا بذنب، لم يكن الله ليغفره له إلا بها، أو لينال درجة لم يكن يوصله إليها إلا بها.<sup>(٦)</sup>

(١) مرة الطيب ويقال له أيضا مرة الخير لعبادته وخيره وعلمه وهو مرة بن شراحيل الهمداني الكوفي مخضرم كبير الشأن. مات سنة نيف وثمانين رَحِمَهُ اللهُ بالكوفة (سير أعلام النبلاء ٤/ ٧٤-٧٥)

(٢) القاضي شريح بن الحارث بن قيس الكندي أبو أمية الكوفي. مخضرم. وولي القضاء لعمر وعثمان وعلي ومعاوية ستين سنة إلى أيام الحجاج فاستعفى وله مائة وعشرون سنة فمات بعد سنة. قال ابن سيرين: قدمت الكوفة وبها أربعة آلاف يطلبون الحديث وإن شيوخ أهل الكوفة أربعة عبدة السلماني والحارث الأعور وعلقمة بن قيس وشريح وكان أحسنهم. مات سنة ثمان وسبعين وقيل سنة ثمانين وقيل اثنتين وثمانين وقيل سبع وثمانين وقيل سنة ثلاث وتسعين وقيل ست وتسعين وقيل سبع وقيل تسع (طبقات الحفاظ ١/ ٢٧)

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٣١/ ١٦)

(٤) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/ ١٥٣ رقم ٩٨١٣)

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٣١/ ١٦)

(٦) الجامع لأحكام القرآن (٣١/ ١٦)



وقال قتادة في تفسير قوله ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول: "لا يصيب ابن آدم خدش عود ولا عثرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب وما يعفو الله عنه أكثر".<sup>(١)</sup>

وقال الضحاك<sup>(٢)</sup>: ما تعلم رجل القرآن ثم نسيه إلا بذنب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصْبَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وإن نسيان القرآن من أعظم المصائب<sup>(٣)</sup>.<sup>(٤)</sup>

ويشهد لهذه المعاني حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صحيح البخاري عن النبي ﷺ "يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب في كل عقدة عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان"<sup>(٥)</sup>.<sup>(٦)</sup>

- (١) أخرجه البيهقي في الشعب (٧/١٥٣ رقم ٩٨١٥)
- (٢) الضحاك بن مزاحم الهلالي بخراسان وثقة الإمام أحمد وغيره. توفي سنة ١٠٢ هـ (شذرات الذهب ١/١٢٤)
- (٣) أخرجه البيهقي في الشعب (٢/٣٣٤ رقم ١٩٦٥) وابن أبي شيبة في مصنفه (٦/١٢٤ رقم ٢٩٩٩٦)
- (٤) قال أبو عبيد: "إنما هذا هو الترك، فأما الذي هو دائب في تلاوته حريص على حفظه إلا أن النسيان يغلبه فليس من ذلك في شيء." (الجامع لأحكام القرآن: ١٦/٣١). ومما يحقق ذلك أن النبي ﷺ كان ينسى الشيء من القرآن حتى يذكره. من ذلك حديث عن عائشة قالت ثم كان النبي ﷺ يستمع قراءة رجل في المسجد فقال: رَحِمَهُ اللَّهُ لقد أذكرني آية كنت أنسيتها. أخرجه البخاري (٤/١٩٢٢ رقم ٤٧٥١) ومسلم (١/٥٤٣ رقم ٧٨٨)
- (٥) أخرجه البخاري (١/٣٨٣ رقم ١٠٩١، ٣/١١٩٣ رقم ٣٠٩٦) ومسلم (١/٥٣٨ رقم ٧٧٦)
- (٦) صناعة الحياة ص ١٠، محمد أحمد الراشد، دار المنطلق، سنة ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م



وهكذا يرتبط الصلاح الحسي بالصلاح المعنوي، إلا أن هناك بعض المظاهر قد تنطلي على بعض الناس وهي ظاهرة النفاق وظاهرة الابتلاء بالخيرات وظاهرة الاستدراج. وقد سبق الكلام في ظاهرتي الابتلاء بالخيرات وظاهرة الاستدراج. ولنشرع في الكلام عن ظاهرة النفاق.

### ظاهرة النفاق زيف مكشوف

قد يبدو أن التناقض بين الظاهر والباطن لا ينطبق في كل الأحوال، فهناك حالات تبدو مستثناة من هذه القاعدة، كحالة المنافقين. لكن هذه الحالة المزيفة غير خافية على ذوي البصائر.

إن المنافقين أناس يحرسون على تغطية فسادهم الباطن بالظاهر المزيف، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسْنَدَةٌ ۚ﴾ [المنافقون: ٤].

"فهم أجسام تعجب. لا أناسي تتجاوب! وما داموا صامتين فهم أجسام معجبة للعيون.. فأما حين ينطقون فهم خواء من كل معنى ومن كل حس ومن كل خالجة.. تسمع لقولهم كأنهم خشب.. ولكنها ليست خشبا فحسب. إنما هي خشب مسندة.. لا حركة لها، ملطوعة بجانب الجدار!"<sup>(١)</sup>

فهم مجتهدون في تحسين ظاهريهم يخدعون به أعين الناس وعين الله كما يظنون وحاشاه. ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩]، ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٥٧٤)





هكذا سعيهم في الخداع والتمويه ولكن الله فضحهم بآياته البينات في كتابه الكريم في أكثر من مائة آية. حتى تظهر لدى أولي البصيرة كل صفاتهم وتعرف تصرفاتهم، وتكشف نواياهم، وتعرض للعيان بواطنهم.

أما صفاتهم قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْمُرُ بِالْأَخْرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨]، وأحدهم "إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا أوتى أمرًا خان" (١). ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالًا يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهُونَ﴾ [التوبة: ٥٤].

وأما مواقفهم فهم دائما ضد الفضائل وينافحون دائما عن الرذائل، ﴿الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، مع أنهم دائما ينكرون هذا الأمر المكشوف ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ ١١ ﴿إِنَّمَا هُمْ أَفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢]، وكيونتهم مع المؤمنين لا تأتي إلا بالفتنة والفساد ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا وُضِعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧].

وأما بواطنهم فهم غير مؤمنين في الحقيقة والمعنى، وإن كانوا مسلمين في الاسم والمبنى، ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٥٤]، مع أنهم يؤكدون إيمانهم بالإيمان المغلظة ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦٢]،



وهم يعتبرون الالتزام بالدين سفها والمؤمنين ضعاف العقول ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٣].

ومع حرصهم على التظاهر بالإيمان والخير فإن مواقفهم تشهد بضد ذلك وفلتات لسانهم وأمارات وجوههم تكشف ما يبطنون، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَّهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفْتُهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٢٩-٣٠].

قال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَصْغَنَّهُمْ﴾ أي أيعتقد المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بل سيوضح أمرهم ويجليه حتى يفهمهم ذوو البصائر. وقد أنزل الله تعالى في ذلك سورة براءة فبين فيها فضائحهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم. ولهذا كانت تسمى الفاضحة.

والأصغان جمع ضغن، وهو ما في النفوس من الحسد والحقد للإسلام وأهله والقائمين بنصره.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفْتُهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ يقول عز وجل: ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترنا منه على خلقه، وحملا للأمر على ظاهر السلامة، وردا للسرائر إلى عالمها.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه وهو المراد من لحن القول،



كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفتات لسانه.

وفي الحديث: ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله تعالى جلبابها، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر<sup>(١)</sup>. اهـ<sup>(٢)</sup>

فزيف النفاق مفصوح وفسادهم لدى ذوي البصائر مكشوف، بل تكاد فتات لسان المنافقين تفصح عما أضمره في قلوبهم، وهي أظهر مما تبديه صفحات وجوههم.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: والسيما هي العلامة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] فمعرفة المنافقين في لحن القول ثابتة، مقسم عليها، لكن هذا يكون إذا تكلموا، وأما معرفتهم بالسيما فموقوف على مشيئة الله، لأن ذلك أخفى<sup>(٣)</sup>.

وقال: والله قد أخبر في القرآن أن ذلك قد يظهر في الوجه فقال: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَاعْرِفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ﴾ فهذا تحت المشيئة، ثم قال: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ فهذا مقسم عليه محقق لا شرط فيه. وذلك أن ظهور ما في قلب الإنسان على لسانه أعظم من ظهوره في وجهه، لكنه يبدو في الوجه بدوا خفيا يعلمه الله، فإذا صار خلقا ظهر لكثير من الناس، وقد يقوى السواد والقسمة حتى يظهر لجمهور الناس<sup>(٤)</sup>.

(١) أخرجه البيهقي في الشعب (٥/٣٥٩ رقم ٦٩٤١) موقوفا على عثمان وضعفه رفعه.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/١٨١) مختصرا

(٣) مجموع الفتاوى (١٧/١١٨)

(٤) الاستقامة، لابن تيمية (١/٣٥٥)، جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ



ولكن ينبغي هنا الإشارة أن النفاق درجات. فليس المصابون بهذه الداء على درجة واحدة من السوء والبعد عن الحق. فقد تظهر لدى بعض الناس بعض صفات المنافقين مع احتفاظهم ببعض الصفات الإيمانية، فمثل هؤلاء لا يطلق عليهم اسم المنافقين، لكن نقول إن عندهم بعض خصال النفاق. لذلك قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَاهَا: إِذَا أُوتِيَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ." (١)

## ٢- ربط صلاح الجماعة بصلاح الأفراد

ومن السنن الثابتة في القرآن والسنة في تحوُّل الأمم والجماعات، أن صلاح المجتمع يبنى على صلاح أفراد ذلك المجتمع. وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] ما يدل على هذه الحقيقة. ويكون هذا وجه آخر من معنى الآية إضافة إلى ما تقدم، وإن كانت دلالة هذا الثاني أخفى من الأول. إن الله قال في هذه الآية أن التغيير الذي حدث إنما حدث بسبب فعلهم هم كمجموع، ولم يكن الله يحدث فيهم تغييرا إلا بعد أن أحدث القوم شيئا يقتضي ذلك التغيير، وإن كان هناك بعض الأفراد من لم يحدث شيئا، فإن العبرة بفعل المجموع لا بفعل كل فرد على حدة.

قال القرطبي: "فليس معنى الآية -يعني آية الرعد السابقة- أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير، كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد سئل: أنهلك وفيما الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبيث." (٢)

(١) أخرجه البخاري: ١/٥٩ رقم: ٣٣، ٨/٣٤٠ رقم: ٢٢٧٩، ١٠/٤٤٧ رقم: ٢٩٤٢

(٢) أخرجه البخاري (٣/١٢٢١ رقم: ٣١٧٨، ٣/١٣١٧ رقم: ٣٤٠٣، ٦/٢٥٨٩ رقم: ٦٦٥٠

٦/٢٦٠٩ رقم: ٦٧١٦) ومسلم (٤/٢٢٠٧ رقم: ٣٤٠٣، ٤/٢٢٠٨ رقم: ٢٨٨٠)



والله أعلم.<sup>(١)</sup>

ويؤكد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

قال ابن كثير: "يحذر تعالى عباده المؤمنين ﴿فِتْنَةً﴾ أي اختبارا ومحنة يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي، ولا من باشر الذنب، بل يعمها لم تدفع وترفع.

وقال في رواية لعلي بن أبي طلحة<sup>(٢)</sup> عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: أمر الله المؤمنين أن لا يقرؤا المنكر بين ظهرائهم فيعمهم الله بالعذاب. وهذا تفسير حسن جدا".<sup>(٣)</sup>

وعن حذيفة بن اليمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده، ثم تدعونني فلا يستجيب لكم".<sup>(٤)</sup>

روي عن حذيفة أنه يقول: "إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير منافقا، وإنني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات،

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٢٩٤-٢٩٥)

(٢) علي بن أبي طلحة الهاشمي كان من كبار التابعين عالما بالقرآن ومعانيه وأحكامه قال أحمد بن حنبل كان في مصر صحيفة واحدة من التفسير قد رواها علي بن أبي طلحة من رجل من طالبي التفسير لتحصيلها لا يعد كثيرا وقد اعتمد البخاري ما نقله عن ابن عباس على هذه النسخة الشريفة وأخذ التفسير عن مجاهد وعن سعيد بن جبير (طبقات المفسرين ١/ ٢٤)

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٢٩٩) باختصار

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٨٨ رقم ٢٣٣٤٩) والترمذي (٤/ ٤٦٨ رقم ٢١٦٩) والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٩٣)



لتأمرن بالمعروف ولتنهين عن المنكر، ولتحاضن على الخير، أو ليسحتنكم الله جميعاً بعذاب، أو ليؤمرن عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم." (١)

إن إصلاح المجتمع واجب كل الأفراد، فيجب على كل أفراد المجتمع أن يحافظ على مقومات المجتمع وأن يحفظها من كل عوامل هلاكها. لقد مثل الرسول ﷺ المجتمع مثل السفينة، فأى فرد يتسبب في خرق السفينة فسيغرق الجميع، إذا لم يمنع من ذلك.

عن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: "مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً." (٢)

إن وجود أناس صالحين في المجتمع لا يكفي ولا يجدي إذا كان السائد هو الفساد. يجب أن يكون صلاح الصالحين مؤثراً في الناس، وإلا فالهلاك مصير الجميع.

عن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ دخل عليها فزعا يقول: "لا إله إلا الله ويل للعرب، من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه." وحلق بإصبعه الإبهام وبالي تليها قالت زينب بنت جحش فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث." (٣)

(١) أخرجه أحمد (٣٩٠/٥) وابن أبي شيبة في مصنفه (٤٦٠/٧) رقم (٣٧٢٢١)

(٢) أخرجه البخاري (٨٨٢/٢) رقم (٢٣٦١)

(٣) أخرجه البخاري (١٢٢١/٣) رقم (٣١٦٨)، (١٣١٧/٣) رقم (٣٤٠٣)، (٢٥٨٩/٦) رقم (٦٦٥٠)،

(٢٦٠٩/٦) رقم (٦٧١٦) ومسلم (٢٢٠٧/٤) رقم (٢٨٨٠)



لخطورة هذا الأمر فإن رسول الله ﷺ يؤكد هذا المعنى ويكرّره في الناس:

عن عائشة قالت: دخل علي النبي ﷺ فعرفت في وجهه أن قد حضره شيء، فتوضأ وما كلم أحداً، ثم خرج، فلصقت بالحجرة أسمع ما يقول، فقعد على المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: "يا أيها الناس، إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقول لكم: مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن تدعوني فلا أجيبكم، وتسألوني فلا أعطيكم، وتستنصروني فلا أنصركم." فما زاد عليهن حتى نزل. <sup>(١)</sup>

عن جرير بن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ: "ما من قوم يعملون بالمعاصي وفيهم رجل أعز منهم وأمنع لا يغيره إلا عمهم الله بعقاب أو أصابهم العقاب." <sup>(٢)</sup>

ومن أخص ما يذكرها هنا ما رواه الإمام أحمد في المسند أن رسول الله ﷺ يقول: إن الله عَزَّجَلَّ لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذب الله الخاصة والعامة. <sup>(٣)</sup>

ويعضد هذا الحديث ما رواه مالك في الموطأ أن عمر بن عبد العزيز يقول: كان يقال: إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يعذب العامة بذنب الخاصة ولكن إذا عمل المنكر جهارا كلهم. <sup>(٤)</sup>

(١) أخرجه ابن حبان (٥٢٦/١) رقم ٢٩٠

(٢) أخرجه أحمد (٣٦١/٤)

(٣) أخرجه أحمد (١٩٢/٤) قال الهيثمي: أخرجه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما ثقات (مجمع الزوائد ٢٦٧/٧)

(٤) الموطأ (٩٩١/٢) رقم ١٧٩٩ والبيهقي في الشعب (٩٩/٦) رقم ٧٦٠٢



وكذلك حديث ابن عمر المتقدم يؤكد أنه إذا أصبح الفساد ظاهرة عامة نزلت عقوبة الله على الجميع. وهو أن رسول الله ﷺ قال: يا معشر المهاجرين خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولن ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا، ولن ينقصوا عهد الله ورسوله إلا سلط الله عليهم عدوهم ثم غزوهم وأخذوا بعض ما كان في أيديهم، وما لم يحكموا بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم.

فالملاحظ أن كل تلك العقوبات مرتبة على فساد عام من إعلان الفاحشة، أو نقص الكيل والميزان، أو منع الزكاة، أو نقض العهد، أو ترك الحكم بما أنزل الله. كل تلك الذنوب نسبها الرسول ﷺ إلى القوم مما يدل على أن تلك الأفاعيل ارتكبتها عامتهم.

وفي القرآن قصة بني إسرائيل، عوقبوا بالتيه كلهم مع أن هناك من لا يوافقهم على عنادهم إلا أن المحصلة الأخيرة من تصرف المجموع يجتمعون على معارضة موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بدخول الأرض المقدسة.

وفي موقعة أحد، ذاق المسلمون كلهم مرارة الهزيمة مع أن الذين خالفوا أمر الرسول وأحدثوا الثغرة هم مجموعة من الرماة وليسوا كلهم، ولكن لما كان هذا التصرف يخل بالخطة العامة وأصبحوا يشكلون ظاهرة ملحوظة، نزلت المصيبة على الجميع.





وعلى هذا المنطق كان السكوت على المنكر منكرا. ولقد نهى الله عن مجرد مجالسة قوم يستهزئون بالله وبالدين، قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ<sup>١</sup> إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

ويشهد لهذه الحقيقة قول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما طلبه المسلمون أن يستخلفهم خليفة قال: إن علم الله في قلوبكم خيرا يستخلف عليكم خيركم.<sup>(١)</sup>

وقد روي مرفوعا أيضا: خطب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين ضربه ابن ملجم<sup>(٢)</sup>. فقال له الناس: يا أمير المؤمنين استخلف علينا.

فقال: أترككم كما تركنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قلنا: يا رسول الله استخلف علينا. فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن يعلم الله فيكم خيرا يول عليكم خياركم".

قال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فعلم الله فينا خيرا، فولى علينا أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.<sup>(٣)</sup>

### إنقاذ المجتمع من الفساد العام

وطريق النجاة من العقوبة العامة هو القيام بحركة مضادة لذلك الفساد العام، وفي قصة أصحاب السبت توضيح لهذا المبدأ:

- (١) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣/ ١٥٦ رقم ٤٦٩٩)
- (٢) عبد الرحمن بن ملجم المرادي وهو من حمير وعداده في مراد وهو حليف بني جيلة من كندة خارجي قاتل علي بن طالب (الطبقات الكبرى ٣/ ٣٥)
- (٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٣/ ١٥٦ رقم ٤٧٩٨) سكت عنه الحاكم والذهبي وموسى بن مطير كذبه ابن معين وقال النسائي وجماعة: متروك (السنة لابن أبي عاصم (٢/ ٥٥٢)، المكتب الإسلامي، بيروت، سنة ١٤٠٠، بتحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني).



قال تعالى: ﴿وَسَأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِّنْهُمْ لَمَّا تَعُطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعَذَرَةَ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِصَمٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾

[الأعراف: ١٦٣، ١٦٥]

﴿وَسَأَلُهُمْ﴾ أي واسأل بني إسرائيل ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي على ساحله، في حال تعذيبهم وعقاب الله إياهم.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيدان فابتلاهم الله وامتحنهم، فكانت الحيتان تأتيتهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا﴾ أي كثيرة طافية على وجه البحر.

﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ﴾ أي إذا ذهب يوم السبت ﴿لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي تذهب في البحر، فلا يرون منها شيئاً.

﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله، وأن يكون لهم هذه المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر، فتحيلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفراً، وينصبون لها الشباك، فإذا جاء يوم السبت، ووقعت في تلك الحفر والشباك لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد، أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق:

معظمهم اعتدوا وتجروءوا وأعلنوا بذلك،

وفرقه أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم،



وفرقه اكنفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيههم لهم وقالوا: ﴿لَمْ تَعْطُوا قَوْلًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كأنهم يقولون: لا فائدة في وعظ من اقتحم محارم الله، ولم يصغ للنصيحة، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله، إما بهلاك، أو عذاب شديد.

فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم ﴿مَعَذَرَةً إِلَى رَبِّكَ﴾ أي لنعذر فيهم. ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤] أي يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا نياس من هدايتهم، فربما نجع فيهم الوعظ، وأثر فيهم اللوم.

وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر، ليكون معذرة، وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه، فيعمل بمقتضى ذلك الأمر والنهي.

﴿فَلَمَّا سَأَوْا مَا دُكِّرُوا بِهِ﴾ أي تركوا ما ذكروا به، واستمروا على غيهم واعتدائهم، ﴿أَنجَيْنَا﴾ من العذاب ﴿الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ وهكذا سنة الله في عباده، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم الذين اعتدوا في السبت ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].<sup>(١)</sup>

"فأما الفرقة الثالثة - أو الأمة الثالثة - فقد سكت النص عنها.. ربما تهوينا لشأنها - وإن كانت لم تؤخذ بالعذاب - إذ أنها قعدت عن الإنكار الإيجابي، ووقفت عند حدود الإنكار السلبي. فاستحققت الإهمال وإن لم تستحق العذاب."<sup>(٢)</sup>

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/ ٧٦٠-٧١)

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٣٨٥)



فالقلوب التقية هي التي تحمي المجتمع من الهلاك، وهي التي تسعى للنهي عن المنكر. والتقوى هي التي تضمن قيام النظام وسيادة القيم في المجتمع.

قال سيد قطب: "على أية حال، لقد وقع ذلك لأهل القرية التي كانت حاضرة البحر من بني إسرائيل.. فإذا جماعة منهم تهيج مطامعهم أمام هذا الإغراء، فتتهاوى عزائمهم، وينسون عهدهم مع ربهم وميثاقهم، فيحتالون الحيل - على طريقة اليهود - للصيد في يوم السبت! وما أكثر الحيل عندما يلتوي القلب، وتقل التقوى، ويصبح التعامل مع مجرد النصوص، ويراد التفلت من ظاهر النصوص!.. إن القانون لا تحرسه نصوصه، ولا يحميه حراسه. إنما تحرسه القلوب التقية التي تستقر تقوى الله فيها وخشيته، فتحرس هي القانون وتحميه. وما من قانون تمكن حمايته أن يحتال الناس عليه! ما من قانون تحرسه القوة المادية والحراسة الظاهرية! ولن تستطيع الدولة - كائنًا ما كان الإرهاب فيها - أن تضع على رأس كل فرد حارسًا يلاحقه لتنفيذ القانون وصيانه؛ ما لم تكن خشية الله في قلوب الناس، ومراقبتهم له في السر والعلن..

من أجل ذلك تفشل الأنظمة والأوضاع التي لا تقوم على حراسة القلوب التقية. وتفشل النظريات والمذاهب التي يضعها البشر للبشر ولا سلطان فيها من الله.. ومن أجل ذلك تعجز الأجهزة البشرية التي تقيمها الدول لحراسة القوانين وتنفيذها. وتعجز الملاحقة والمراقبة التي تتابع الأمور من سطوحها!"<sup>(١)</sup>

فنجاة الإنسانية لا تكون إلا بمحاربة الفساد العام، وبإيجاد تيار مضاد لما يجلب العقوبة العامة، بذلك فقط ينجي الله المؤمنين من الهلاك العام.



وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

"وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم. فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله، في صورة من صوره، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير. فأما الأمم التي يظلم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تحقق عليها، إما بهلاك الاستئصال. وإما بهلاك الانحلال.. والاختلال !

فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحده، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره، هم صمام الأمان للأمم والشعوب.. وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحده، الواقفين للظلم والفساد بكل صوره.. إنهم لا يؤدون واجبههم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله، واستحقاق النكال والضيايع.."<sup>(١)</sup>

فالدعوة إلى الله ونشر الفضائل وحمل الناس عليها ومحاربة الرذائل ومنع الناس عنها هي التي تحمي كيان المجتمع وتنقلهم من البلاء إلى النعماء، ومن غضب الله وعذابه إلى رحمة الله وإحسانه.

### ٣- ربط الصلاح الدنيوي بالصلاح الديني

من السنن التي أثبتها الله في كتابه الكريم في إيضاح نتائج الأعمال، أن الله رتب على الصلاح الديني الصلاح الدنيوي، وعلى فساد الدين فساد الدنيا.

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٣٣)



### بركة الإيمان والتقوى

ومن شواهد هذه السنة أيضا ما وعد الله لأهل القرى إذا آمنوا واتقوا، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ غَافِلَ الْخَرِي فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] أي ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس. فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١١٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الصافات: ١٤٧، ١٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ [سبأ: ٣٤] الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي آمنت قلوبهم بما جاء به الرسل، وصدقت به واتبعوه، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات، ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ أي قطر السماء ونبات الأرض.

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦] أي ولكن كذبوا رسلهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم. <sup>(١)</sup>

### فساد الدنيا بسبب فساد الدين

ومما يندرج في هذه القاعدة الثابتة، أن الله أخبر أن ظهور الفساد يكون بسبب المعاصي. قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].



قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: "يقول تعالى ذكره: ظهرت المعاصي في بر الأرض وبحرها بكسب أيدي الناس ما نهاهم الله عنه. واختلف أهل التأويل في المراد من قوله ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ فقال بعضهم: عني بالبر الفلوات وبالبحر الأمصار والقرى التي على المياه والأنهار. ذهب إليه الحسن وعكرمة<sup>(١)</sup> وقتادة.

وقال آخرون: بل عني بالبر ظهر الأرض الأمصار وغيرها، وبالبحر البحر المعروف. قاله ابن أبي نجيح<sup>(٢)</sup> وعطية العوفي<sup>(٣)</sup> وروى عن مجاهد<sup>(٤)</sup> القولان.

قال ابن جرير: وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن الله تعالى ذكره أخبر أن الفساد قد ظهر في البر والبحر، والبحر عند العرب في الأرض القفار. والبحر

(١) عكرمة مولى ابن عباس أبو عبد الله المدني أصله من البربر من أهل المغرب. قال طلبت العلم أربعين سنة وكنت أفتي بالبواب وابن عباس في الدار. وقال قتادة أعلم التابعين أربعة كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير وكان عكرمة أعلمهم بسيرة النبي وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام. مات سنة خمس ومائة أو ست أو سبع (طبقات الحفاظ ١/ ٤٤)

(٢) عبد الله بن أبي نجيح الإمام الثقة المفسر أبو يسار الثقفي المكي واسم أبيه يسار مولى الأخنس بن شريق الصحابي حدث عن مجاهد وطاووس وعطاء ونحوهم. قال ابن عينة: هو مفتي أهل مكة بعد عمرو بن دينار. قال علي بن المديني: أما التفسير فهو فيه ثقة يعلمه قد قفز القنطرة واحتج به أرباب الصحاح ولعله رجع عن البدعة وقد رأى القدر جماعة من الثقات واخطؤوا نسأل الله العفو توفي سنة إحدى وثلاثين ومائة (سير أعلام النبلاء ٦/ ١٢٥-١٢٦)

(٣) عطية بن سعد العوفي روى عن أبي هريرة وطائفة ضربه الحجاج أربعمائة سوط على أن يشتم علياً فلم يفعل وهو ضعيف الحديث توفي سنة ١١١ هـ (شذرات الذهب ١/ ١٤٤)

(٤) الإمام أبو الحجاج مجاهد بن جبر الإمام الحبر المكي وقال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة وقال له ابن عمر وددت أن نافعاً يحفظ حفظك وقال سملة بن كهيل ما رأيت أحداً أراد بهذا العلم وجه الله تعالى إلا عطاء وطاووس ومجاهداً وقال الأعمش كنت إذا رأيت مجاهداً تراه مغموماً فقيل له في ذلك فقال أخذ عبد الله بيدي ثم قال أخذ رسول الله بيدي وقال لي يا عبد الله كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ومات مجاهد بمكة وهو ساجد. توفي سنة ١٠٣ هـ مات وهو ابن ثلاث وثمانين سنة (شذرات الذهب ١/ ١٢٥)



بحران بحر ملح و بحر عذب. فهما جميعا عندهم بحر. ولم يخصص جل ثناؤه الخبر عن ظهور ذلك في بحر دون بحر، فذلك على ما وقع عليه اسم بحر عذبا كان أو ملحا. وإذا كان ذلك كذلك دخل القرى التي على الأنهار والبحار.

فتأويل الكلام إذن إذ كان الأمر كما وصفت ظهرت معاصي الله في كل مكان من بر وبحر ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ أي بذنوب الناس، وانتشر الظلم فيهما.

وقوله ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١] يقول جل ثناؤه ليسيبهم بعقوبة بعض أعمالهم التي عملوا، ومعصيتهم التي عصوا، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول كي ينيبوا إلى الحق ويرجعوا إلى التوبة ويتركوا معاصي الله.

عن الحسن لعلمهم يرجعون قال: يتوبون.

عن عبد الله - يعني ابن مسعود - : لعلمهم يرجعون يوم بدر لعلمهم يتوبون.

عن إبراهيم<sup>(١)</sup> لعلمهم يرجعون قال: إلى الحق.

عن قتادة قوله ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلمهم يرجعون لعل راجعا أن يرجع لعل تائبا أن يتوب لعل مستعتبا أن يستعتب.

عن الحسن لعلمهم يرجعون قال يرجع من بعدهم.<sup>(٢)</sup>

وجاء في الحديث ما يفصل تلك النتائج التي ترتبت على المعاصي والظلم.

فعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "يا معشر المهاجرين خصال

خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم وأعوذ بالله أن تدركوهن:

(١) إبراهيم النخعي بن يزيد بن قيس بن الأسود أبو عمران فقيه أهل الكوفة ومفتيها هو والشعبي

في زمانهما. قال الأعمش كان صيرفيا في الحديث. مات سنة ست وتسعين عن تسع وأربعين

أو ثمان وخمسين (طبقات الحفاظ ١/ ٣٦)

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن (٢١/ ٤٩-٥٠) بتصرف.





- لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا،
  - ولن ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤنة وجور السلطان عليهم،
  - ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا،
  - ولن ينقصوا عهد الله ورسوله إلا سلط الله عليهم عدوهم ثم غزوهم وأخذوا بعض ما كان في أيديهم،
  - وما لم يحكموا بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم.<sup>(١)</sup>
- والتاريخ والواقع يشهدان بصدق ذلك الذي أخبرنا به الرسول ﷺ.

#### أثر تطبيق شرع الله على الحياة الدنيوية

ويشهد لهذه السنة أيضا ما قال الله في أهل الكتاب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]

قال ابن كثير: "أي لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم لكفرنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم، أي لأزلنا عنهم المحذور وأنلناهم المقصود.

(١) أخرج ابن ماجه (١٣٣٢/٢) رقم (٤٠١٩) والحاكم في المستدرک (٥٨٣/٤) رقم (٨٦٢٣) والطبراني في الأوسط (٦٢/٥) رقم (٤٦٧١) والبيهقي في الشعب (١٩٧/٣) رقم (٣٣١٤)، ١٢٤/٧ رقم (٩٧١٨)



﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس وغيره: هو القرآن.

﴿لَا كَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أي لو أنهم عملوا بما في الكتب التي بأيديهم عن الأنبياء على ما هي عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير لقادهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمدا ﷺ. فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتما لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿لَا كَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنابت لهم من الأرض. قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿لَا كَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ يعني لأرسل الله عليهم مدرارا ومن تحت أرجلهم يعني يخرج من الأرض بركاتهما. وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والسدي، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] الآية وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١] الآية.

وقال بعضهم: معناه لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم يعني بلا كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء".<sup>(١)</sup>

ولقد تكلم سيد قطب رحمه الله في هذه الآية كلاما في غاية النفاسة، لقد سلط الضوء على مشاكل حاضرة وتصورات قائمة خاطئة قال: "إن هاتين الآيتين تقرران أصلا كبيرا من أصول التصور الإسلامي، ومن ثم فهما تمثلان حقيقة ضخمة في الحياة الإنسانية.

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٧٧-٧٨)



إن الله - سبحانه - يقول لأهل الكتاب - ويصدق القول وينطبق على كل أهل كتاب - إنهم لو كانوا آمنوا واتقوا ل كفر عنهم سيئاتهم ولأدخلهم جنات النعيم - وهذا جزاء الآخرة. وإنهم لو كانوا حققوا في حياتهم الدنيا منهج الله الممثل في التوراة والإنجيل وما أنزله الله إليهم من التعاليم - كما أنزلها الله بدون تحريف ولا تبديل - لصلحت حياتهم الدنيا، ونمت وفاضت عليهم الأرزاق، ولأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم من فيض الرزق، ووفرة التناج وحسن التوزيع، وصلاح أمر الحياة..

وهكذا يتبين أن ليس هنالك طريق مستقل لحسن الجزاء في الآخرة؛ وطريق آخر مستقل لصلاح الحياة في الدنيا. إنما هو طريق واحد، تصلح به الدنيا والآخرة..  
إن المنهج الإيماني للحياة لا يجعل الدين بديلا من الدنيا؛ ولا يجعل سعادة الآخرة بديلا من سعادة الدنيا، ولا يجعل طريق الآخرة غير طريق الدنيا..

إن الأصل في طبيعة الحياة الإنسانية أن يلتقي فيها طريق الدنيا وطريق الآخرة؛ وأن يكون الطريق إلى صلاح الآخرة هو ذاته الطريق إلى صلاح الدنيا. وأن يكون الإنتاج والنماء والوفرة في عمل الأرض هو ذاته المؤهل لنيل ثواب الآخرة كما أنه هو المؤهل لرخاء هذه الحياة الدنيا؛ وأن يكون الإيمان والتقوى والعمل الصالح هي أسباب عمران هذه الأرض كما أنها هي وسائل الحصول على رضوان الله وثوابه الأخروي..

ووفق التصور الإسلامي يعتبر الإنسان الذي لا يفجر ينابيع الأرض، ولا يستغل طاقات الكون المسخرة له، عاصيا لله، ناكلا عن القيام بالوظيفة التي خلقه الله لها، وهو يقول للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة: ٣٠]. وهو يقول



كذلك للناس: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الباقية: ١٣]، ومعطلا  
لرزق الله الموهوب للعباد.. وهكذا يخسر الآخرة لأنه خسر الدنيا !

فأما بالقياس إلى الأفراد فإن الأمر لا يختلف.. فالمنهج يحتم على الفرد أن  
يبدل أقصى طاقته الجسمية والعقلية في العمل والإنتاج؛ وأن يتغني في العمل  
والإنتاج وجه الله، فلا يظلم ولا يغدر ولا يغش ولا يخون، ولا يأكل من سحت،  
ولا يحتجز دون أخيه المحتاج في الجماعة شيئا يملكه - مع الاعتراف الكامل  
له بملكيته الفردية لثمرة عمله والاعتراف للجماعة بحقوقها في ماله في حدود ما  
فرض الله وما شرع.. ويربط المنهج بين الفرد وربّه رباطا أقوى بالشعائر التعبدية  
التي يفرضها عليه؛ ليستوثق بهذا الرباط من تجدد صلته بالله في اليوم الواحد خمس  
مرات بالصلاة، وفي العام الواحد ثلاثين يوما بصوم رمضان، وفي العمر كله بحج  
بيت الله. وفي كل موسم أو في كل عام بإخراج الزكاة..

ولا يجوز أن تخدعنا ظواهر كاذبة، في فترة موقوتة، إذ نرى أمما لا تؤمن ولا  
تتقي، ولا تقيم منهج الله في حياتها، وهي موفورة الخيرات، كثيرة الإنتاج عظيمة  
الرخاء...

إنه رخاء موقوت، حتى تفعل السنن الثابتة فعلها الثابت. وحتى تظهر كل آثار  
الفصام النكد بين الإبداع المادي والمنهج الرباني.. والآن تظهر بعض هذه الآثار  
في صورتى:

تظهر في سوء التوزيع في هذه الأمم، مما يجعل المجتمع حافلا بالشقاء،  
وحافلا بالأحقاد، وحافلا بالمخاوف من الانقلابات المتوقعة نتيجة هذه الأحقاد  
الكظيمة.. وهو بلاء على رغم الرخاء..!



وتظهر في الكبت والقمع والخوف في الأمم التي أرادت أن تضمن نوعاً من عدالة التوزيع واتخذت طريق التخطيم والقمع والإرهاب ونشر الخوف والذعر، لإقرار الإجراءات التي تأخذ بها لإعادة التوزيع.. وهو بلاء لا يأمن الإنسان فيه على نفسه ولا يطمئن ولا يبيت ليلة في سلام!

وتظهر في الانحلال النفسي والخلقي الذي يؤدي بدوره - إن عاجلاً أو آجلاً - إلى تدمير الحياة المادية ذاتها. فالعمل والإنتاج والتوزيع، كلها في حاجة إلى ضمانات الأخلاق. والقانون الأرضي وحده عاجز كل العجز عن تقديم الضمانات لسير العمل كما نرى في كل مكان!

وتظهر في القلق العصبي والأمراض المنوعة التي تجتاح أمم العالم - وبخاصة أشدها رخاء مادياً - مما يهبط بمستوى الذكاء والاحتمال. ويهبط بعد ذلك بمستوى العمل والإنتاج، وينتهي إلى تدمير الاقتصاد المادي والرخاء! وهذه الدلائل اليوم واضحة وضوحاً كافياً يلفت الأنظار!

وتظهر في الخوف الذي تعيش فيه البشرية كلها من الدمار العالمي المتوقع في كل لحظة؛ في هذا العالم المضطرب؛ الذي تحوم حوله نذر الحرب المدمرة.. وهو خوف يضغط على أعصاب الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون؛ فيصيبهم بشتى الأمراض العصبية.. ولم ينتشر الموت بالسكته وانفجار المخ والانتحار كما انتشر في أمم الرخاء!«<sup>(١)</sup>

لم يشهد سيد قطب رَحْمَةُ اللَّهِ هذه الأزمة المالية التي عصفت وتعصف بعالم الغرب اليوم، ولو شاهدها لكانت الشواهد على هذه السنة الثابتة أكثر وأقوى، بينما الأنظمة المالية المبنية على الربا تنهار يوماً بعد يوم فإن المؤسسات المالية

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٩٣٠-٩٣٦) مختصراً.



الإسلامية التي اخترعها المسلمون منذ منتصف القرن الماضي في نمو مطرد،  
وصدق الله: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ [البقرة: ٢٧٦]

### الدنيا متاع الغرور

ولكن مع ذلك كله لم تكن الدنيا هي المعيار الوحيد للفوز والفلاح، ولا يجوز  
للإنسان أن يغتر بها، فإن نعيم الدنيا قد يكون استدراجا وقد يكون امتحانا وفتنة،  
فلا يطمئن لهذه الدنيا إلا مغرور.

فلذلك زهد الله المؤمنين في الدنيا مع أن الله أعطاهم من طيباتها إلا أن الله أعد  
للمؤمنين ما هو أفضل وأبقى.

قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ  
ثَوَابًا وَخَيْرًا أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

والباقيات الصالحات كما رجحه ابن كثير تبعا لابن جرير هي كل الأعمال  
الصالحة التي تبقى عند الله يوم القيامة، وفي مقدمتها الكلمات الطيبات مثل  
سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.<sup>(١)</sup>

فكيف يحرص المؤمن على الدنيا ويعلق أمله عليها وقد أخبر الرسول  
صلى الله عليه وسلم عن قيمة الدنيا الدنيئة؟

فعن سهل بن سعد قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بذى الحليفة، فإذا هو  
بشاة ميتة شائلة<sup>(٢)</sup> برجلها فقال: "أترون هذه هينة على صاحبها؟ فوالذي نفسي  
بيده للدنيا أهون على الله من هذه على صاحبها، ولو كانت الدنيا تزن عند الله جناح  
بعوضة ما سقى كافرا منها قطرة أبدا".<sup>(٣)</sup>

(١) انظر تفسير القرآن العظيم (٣/ ٨٦-٨٨)

(٢) شالت الناقة بذنبها تشوله شولا وشولانا وأشالته واستشالته أي رفعته (لسان العرب ١١/ ٣٧٤)

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٧٦ رقم ٤١١٠) والطبراني في الكبير (٦/ ١٥٧ رقم ٥٨٤٠)



### الدنيا المقبولة

وكما لا يجوز الاغترار بالدنيا فلا يصح أيضا أن تترك الدنيا كلية فإن الله أنكر على من رفض الدنيا جملة بغير برهان من عنده سبحانه. قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْقَوْمَ يَعْلَمُونَ ﴿[الأعراف: ٣٢].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي: يقول تعالى منكرا على من تعنت وحرم ما أحل الله من الطيبات: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق، من مأكّل ومشرب بجميع أنواعه، أي: من هذا الذي يقدم على تحريم ما أنعم الله بها على العباد، من ذا الذي يضيق عليهم ما وسعه الله؟!!

وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يبيحه إلا لعباده المؤمنين، ولهذا قال: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي لا تبعة عليهم فيها.

ومفهوم الآية أن من لم يؤمن بالله بل استعان بها على معاصيه فإنها غير خالصة له ولا مباحة بل يعاقب عليها وعلى التمتع بها، ويسأل عن النعيم يوم القيامة.<sup>(١)</sup> إن هذا المبدأ من عدم تحريم طيبات الدنيا جملة معروف عند السلف، فقد روى البخاري عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: "إذا وسع الله عليكم فأوسعوا."<sup>(٢)</sup>

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/٧٠٥-٧٠٦)

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (١/١٤٣ رقم ٣٥٨)



وروي عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب<sup>(١)</sup> شيخ مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَلْبَسُ كِسَاءَ خَزٍّ بِخَمْسِينَ دِينَارًا يَلْبَسُهُ فِي الشِّتَاءِ، فَإِذَا كَانَ فِي الصَّيْفِ تَصَدَّقَ بِهِ، أَوْ بَاعَهُ فَتَصَدَّقَ بِثَمَنِهِ، وَكَانَ يَلْبَسُ فِي الصَّيْفِ ثَوْبَيْنِ مِنْ مَتَاعِ مِصْرَ مَمَشَقَيْنِ، وَيَقُولُ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].<sup>(٢)</sup>

وجاء رجل إلى أبي العالية<sup>(٣)</sup> وعليه ثياب صوف فقال أبو العالية: إنما هذه ثياب الرهبان إن كان المسلمون إذا تزاوروا تجملوا.<sup>(٤)</sup>

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم ينكر جواز الاستمتاع بالحلال. ففي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب أَنَّهُ رَأَى حَلَّةَ سِيرَاءٍ<sup>(٥)</sup> تَبَاعَ عِنْدَ بَابِ الْمَسْجِدِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لَوْ أَشْتَرَيْتَهَا لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ وَلِلْوُفُودِ إِذَا قَدِمُوا عَلَيْكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّمَا يَلْبَسُ هَذَا مَنْ لَا خَلْقَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ.<sup>(٦)</sup> فَمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِ ذَكَرَ التَّجَمُّلِ، وَإِنَّمَا أَنْكَرَ عَلَيْهِ كَوْنُهَا سِيرَاءً.

(١) علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أبو الحسين وأبو الحسن أو أبو محمد أو أبو عبد الله المدني زين العابدين قال الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه ولا أفقه. وقال مالك: كان من أهل الفضل. ولد سنة ثلاث وثلاثين ومات سنة اثنتين وتسعين أو ثلاث أو أربع أو خمس أو تسع وتسعين أو سنة مائة (طبقات الحفاظ ١/ ٣٧)

(٢) رواه ابن عبد البر في التمهيد (١٥٩/٩)

(٣) أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي مولاهم البصري المفسر دخل على أبي بكر وقرأ القرآن على أبي وكان ابن عباس يرفعه على السرير وقرئش أسفل وقال أبو بكر بن أبي داود ليس بعد الصحابة أحد أعلم بالقرآن من أبي العالية وبعده سعيد بن جبیر. وقال ابن قتيبة: حج أبو العالية ستين حجة. توفي سنة ٩٣ هـ وقيل ٩٠ (شذرات الذهب ١/ ١٠٢)

(٤) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ١٢٧ رقم ٣٤٨) وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٢١٧) والذهبي في السير (٤/ ٢١٣)

(٥) السيراء بكسر السين وفتح الياء والمد نوع من البرودي خالطه حرير (النهاية ١/ ٨٣٤)

(٦) أخرجه البخاري (١/ ٣٠٢ رقم ٨٣٦، ٢/ ٩٢١ رقم ٢٤٧٠، ٢/ ٩٢٢ رقم ٢٣٧٢، ومسلم (٣/ ١٦٣٨ رقم ٢٠٦٨)





قال أبو الفرج بن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: وأنا أكره لبس الفوط والمرقعات لأربعة أوجه: (أحدها) أنه ليس من لبس السلف، وإنما كانوا يرقعون ضرورة. و(الثاني) أنه يتضمن ادعاء الفقر، وقد أمر الإنسان أن يظهر أثر نعم الله عليه. و(الثالث) إظهار التزهّد، وقد أمرنا بستره. و(الرابع) أنه تشبه بهؤلاء المتزحّزين عن الشريعة، ومن تشبه بقوم فهو منهم<sup>(١)</sup>.

وقال أبو الفرج: وقد كان السلف يلبسون الثياب المتوسطة لا المترفعة ولا الدون. ويتخيرون أجودها للجمعة والعيد وللقاء الإخوان، ولم يكن تخيّر الأجود عندهم قبيحا، وأما اللباس الذي يزري بصاحبه فإنه يتضمن إظهار الزهد وإظهار الفقر، وكأنه لسان شكوى من الله تعالى، ويوجب احتقار اللابس، وكل ذلك مكروه منهي عنه.

فإن قال قائل: تجويد اللباس هو النفس، وقد أمرنا بمجاهدتها، وتزین للخلق، وقد أمرنا أن تكون أفعالنا لله لا للخلق.

فالجواب: ليس كل ما تهواه النفس يذم، وليس كل ما يتزين به للناس يكره، وإنما ينهى عن ذلك إذا كان الشرع قد نهى عنه، أو وجه الرياء في باب الدين. فإن الإنسان يجب أن يرى جميلا، وذلك حظ للنفس لا يلزم فيه، ولهذا يسرّح شعره، وينظر في المرأة، ويسوي عمامته، ويلبس بطانة الثوب الخشنة إلى داخل وظهارته الحسنة إلى خارج، وليس في شيء من هذا ما يكره ولا يذم<sup>(٢)</sup>.

وقد روى مكحول<sup>(٣)</sup> عن عائشة قالت: كان نفر من أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينتظرونه على الباب، فخرج يريداهم وفي الدار ركوة فيها ماء، فجعل

(١) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ١٩٧)

(٢) انظر تلبس إبليس (٢٢٧-٢٢٩)

(٣) مكحول الدمشقي أبو عبد الله الفقيه أحد الأئمة روى عن أنس وواثلة بن الأسقع وأبي أمامة =



ينظر في الماء، ويسوى لحيته وشعره، فقلت: يا رسول الله وأنت تفعل هذا؟ قال: نعم إذا خرج الرجل إلى إخوانه فليهيء من نفسه، فإن الله جميل يحب الجمال.<sup>(١)</sup> وفي صحيح مسلم عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.

فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة.

قال: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس.<sup>(٢)</sup>

هدي الإسلام هو التوازن في كل شيء

الشريعة - كما قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ - جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخلة تحت كسب العبد من غير مشقة عليه ولا انحلال. بل هو تكليف جار على موازنة تقتضي في جميع المكلفين الاعتدال.<sup>(٣)</sup>

وقال الشاطبي أيضا: فإن كان التشريع لأجل انحراف المكلف أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين كان التشريع رادا إلى الوسط الأعدل، لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه، فعل الطبيب الرفيق

= وثوبان وأبي ثعلبة الخشني وعنه أبو حنيفة والزهري وحמיד الطويل وابن إسحاق وخلق وسمعه العجلي وغيره وقال أبو حاتم ما أعلم بالشام أفقه منه مات سنة اثنتي عشرة ومائة (طبقات الحفاظ ٤٩/١)

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول (١٣/٤) وعبد الكريم السمعاني في أدب الإملاء والاستملاء (٣٢/١) وهذا لفظه.

(٢) أخرجه مسلم (٩٣/١) رقم ٩١

(٣) الموافقات ١١٢/٢



يحمل المريض على ما فيه صلاحه بحسب حاله وعادته وقوة مرضه وضعفه، حتى إذا استقلت صحته، هياً له طريقاً في التدبير وسطاً لا ثقاً به في جميع أحواله. ألا أن الله تعالى خاطب الناس في ابتداء التكليف خطاب التعريف بما أنعم عليهم من الطيبات والمصالح التي بثها في هذا الوجود لأجلهم ولحصول منافعهم ومرافقتهم التي يقوم بها عيشتهم وتكمل بها تصرفاتهم، كقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢]، وقوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [ابراهيم: ٣٢] إلى قوله: ﴿وَأَنْ تَعْبُدُوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصِيهَا﴾ [ابراهيم: ٣٤] وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]، إلى آخر ما عد لهم من النعم، ثم وُعدوا على ذلك بالنعيم إن آمنوا وبالعذاب إن تمادوا على ما هم عليه من الكفر. فلما عاندوا وقابلوا النعم بالكفران وشكوا في صدق ما قيل لهم، أقيمت عليهم البراهين القاطعة بصدق ما قيل لهم وصحته. فلما لم يلتفتوا إليها لرغبتهم في العاجلة أخبروا بحقيقتها وأنها في الحقيقة كلا شيء، لأنها زائلة فانية، وضربت لهم الأمثال في ذلك كقوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ﴾ [يونس: ٢٤] الآية وقوله: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ﴾ [محمد: ٣٦] وقوله: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌّ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِیَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤]. بل لما آمن الناس ظهر من بعضهم ما يقتضي الرغبة في الدنيا رغبة ربما أمالته عن الاعتدال في طلبها أو نظراً إلى هذا المعنى فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "إن مما أخاف عليكم ما يفتح لكم من زهرات الدنيا"<sup>(١)</sup> ولما لم يظهر ذلك ولا مظنته قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ

(١) أخرجه مسلم (٢/٧٢٨ رقم ١٠٥٢) ولفظه: "أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من زهرة الدنيا."



لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴿١﴾  
[الأعراف: ٣٢] وقال : ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١].<sup>(١)</sup>

وقال: ولما ذم الدنيا ومتاعها هم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أن يتبتلوا ويتركوا النساء ولذة الدنيا، وينقطعوا إلى العبادة، فرد ذلك عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: "من رغب عن سنتي فليس مني." <sup>(٢)</sup> ودعا لأناس بكثرة المال والولد بعد ما أنزل الله: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، والمال والولد هي الدنيا وأقر الصحابة على جمع الدنيا والتمتع بالحلال منها، ولم يزهدهم ولا أمرهم بتركها إلا عند ظهور حرص أو وجود منع من حقه، وحيث تظهر مظنة مخالفة التوسط بسبب ذلك وما سواه فلا.<sup>(٣)</sup>

قال: فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلا إلى جهة طرف من الأطراف فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر. فطرف التشديد وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين. وطرف التخفيف وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد. فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحا ومسلك الاعتدال واضحا، وهو الأصل الذي يرجع إليه والمعقل الذي يلجأ إليه. وعلى هذا إذا رأيت في النقل من المعتبرين في الدين من مال عن التوسط فاعلم أن ذلك مراعاة منه لطرف واقع أو متوقع في الجهة الأخرى. وعليه يجري النظر في الورع والزهد وأشباهاها وما

(١) الموافقات ٢/ ١١٢-١١٣

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ١٩٤٩ رقم ٤٧٧٦) ومسلم (٢/ ١٠٢٠ رقم ١٤٠١)

(٣) الموافقات ٢/ ١١٣-١١٤



قابلها. والتوسط يعرف بالشرع، وقد يعرف بالعوائد وما يشهد به معظم العقلاء كما في الإسراف، والإقتار في النفقات.<sup>(١)</sup>

#### ٤- الجزء من جنس العمل

هذه قاعدة جليلة وسنة ثابتة اشتهر بين العلماء ونبه عليها ابن القيم كثيرا وذكرها واستشهد بها في كثير من كتبه رَحِمَهُ اللهُ.

قال في حاشيته على أبي داود: "وقد دل الكتاب والسنة في أكثر من مائة موضع على أن الجزء من جنس العمل في الخير والشر كما قال تعالى: ﴿جَزَاءٌ وَفَاءٌ﴾ [النبا: ٢٦] أي وفق أعمالهم وهذا ثابت شرعا وقدرًا."<sup>(٢)</sup>

وقال في جلاء الأفهام: "أنه قد ثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم أنه من صلى عليه مرة صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بها عشرا، وأنه سُبِّحَ نَعْمَةً وَتَعَالَى قَالَ له: "أما يرضيك أنه من صلى عليك من أمتك مرة صليت عليه بها عشرا." وهذا موافق للقاعدة المستقرة في الشريعة أن الجزء من جنس العمل. فصلاة الله على المصلي على رسوله جزاء لصلاته هو عليه."<sup>(٣)</sup>

وقال في مدارج السالكين: "وإذا كان المتقرب إليه بالأعمال يعطى أضعاف أضعاف ما تقرب به، فما الظن بمن أعطي حال التقرب وذوقه ووجده؟ فما الظن بمن تقرب إليه بروحه وجميع إرادته وهمته وأقواله وأعماله؟

(١) الموافقات ٢/ ١١٤-١١٥

(٢) حاشية ابن القيم على سنن أبي داود، (١٢/ ١٧٦) دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٣١٥ هـ

(٣) جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام (١/ ١٦٤)، دار العروبة، سنة ١٤٠٧ هـ-



وعلى هذا فكما جاد لحبيبه بنفسه، فإنه أهل أن يجاد عليه بأن يكون ربه سبحانه هو حظه ونصيبه، عوضا عن كل شيء، جزاء، وفاقا فإن الجزاء من جنس العمل. وشواهد هذا كثيرة.

منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۗ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] ففرق بين الجزائين كما ترى، وجعل جزاء المتوكل عليه كونه سبحانه حسبه وكافيه.

ومنها أن الشهيد لما بذل حياته لله أعاضه الله سبحانه حياة أكمل منها عنده في محل قربه وكرامته.

ومنها: "أن من بذل لله شيئا أعاضه الله خيرا منه".<sup>(١)</sup>

ومنها قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ومنها قوله في الحديث القدسي: "من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ومن ذكرني في ملا ذكرته في ملا خير منه".<sup>(٢)</sup>

ومنها قوله: "من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا".<sup>(٣)</sup> الحديث.<sup>(٤)</sup>

وقال في إعلام الموقعين: "لذلك كان الجزاء مماثلا للعمل من جنسه في الخير والشر. فمن ستر مسلما ستره الله، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب

(١) أخرجه أحمد (٣٦٣/٥) رقم (٢٣١٢٤) والبيهقي (٣٣٥/٥) رقم (١٠٦٠٣) قال الهيثمي رواه أحمد بأسانيد رجالها رجال الصحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٦٧/٤) رقم (٢٦٧٥)

(٣) أخرجه البخاري (٢٧٤١/٦) رقم (٧٠٩٨) ومسلم (٢٠٦٨/٤) رقم (٢٦٨٧)

(٤) مدارج السالكين (٢٧٢-٢٧٣)



يوم القيامة، ومن أقال نادما أقاله الله عشرته يوم القيامة، ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته، ومن ضار مسلما ضار الله به، ومن شاق شاق الله عليه، ومن خذل مسلما في موضع يجب نصرته فيه خذله الله في موضع يجب نصرته فيه، ومن سمح سمح الله له، والراحمون يرحمهم الرحمن وإنما يرحم الله من عباده الرحماء، ومن أنفق أنفق عليه، ومن أوعى أوعى عليه، ومن عفا عن حقه عفا الله له عن حقه، ومن جاوز تجاوز الله عنه، ومن استقصى استقصى الله عليه، فهذا شرع الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه كله قائم بهذا الأصل. وهو إلحاق النظر بالنظر واعتبار المثل بالمثل.<sup>(١)</sup>

إن هذه القاعدة وهذه السنة مظهر من مظاهر عدل الله وحكمته سبحانه. وإن معرفة وفهم هذه السنة الإلهية مهمة ومفيدة جدا حيث اطلع العبد على عدل الله وحكمته، كما أنها مفيدة في معرفة مصائر الأفراد والجماعات. فجزاء الحسنة الحسنة بعدها، وجزاء السيئة السيئة بعدها.

### جزاء الظلم

من الشواهد على هذه القاعدة ما قرره الشارع في الظلم وجزاء الظالم على ظلمه.

قال رسول الله ﷺ: "اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة."<sup>(٢)</sup>

قال المناوي: إن الظلم في الدنيا ظلمات على أصحابه بمعنى أنه يورث ظلمة في القلب، فإذا أظلم القلب تاه وتحير وتجر، فذهبت الهداية والبصيرة، فخرب القلب، فصار صاحبه في ظلمة يوم القيامة. فالظلمة معنوية. وقيل: حسية. فيكون

(١) إعلام الموقعين (١/١٩٦)، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤١٥ هـ

(٢) أخرجه مسلم (٤/١٩٩٦ رقم ٢٥٧٨)



ظلمه ظلمات عليه، فلا يهتدي في القيامة بسببه، وغيره من المؤمنين يسعى نوره بين يديه. وإنما ينشأ الظلم من ظلمة القلب. فإذا سعى المتقون بنورهم احتوشت<sup>(١)</sup> ظلمات ظلم الظالم، فغمرته فأعمته حتى لا يغني عنه ظلمه شيئاً.<sup>(٢)</sup>

### الظلم لحقوق العباد

إن كل ذنب تكفره التوبة الخالصة، فإذا اعترف العبد بالخطأ وندم وأقلع عنه فإن الله يغفر له، إلا أن جريرة ظلم العبد بحق خلق من خلق الله لا يبرئ ذمته منها شيء إلا إذا استحلّه منه وعفا عنه صاحبه. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "إن التوبة المجردة تسقط حق الله من العقاب. وأما حق المظلوم فلا يسقط بمجرد التوبة، فمن تاب من ظلم فلا يسقط بتوبته حق المظلوم، ولكن من تمام توبته أن يعوضه بمثل مظلمته، وإن لم يعوضه في الدنيا فلا بد له من العوض في الآخرة. فينبغي للظالم التائب أن يستكثر من الحسنات حتى إذا استوفى المظلومون حقوقهم لم يبق مفلساً. ومع هذا فإذا شاء الله أن يعوض المظلوم من عنده فلا راد لفضله كما إذا شاء أن يغفر ما دون الشرك لمن يشاء."<sup>(٣)</sup>

عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من كانت له مظلمة من أخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل ألا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه."<sup>(٤)</sup>

(١) احتوش القوم الصيد إذا انفره بعضهم على بعض، واحتوش القوم على فلان جعلوه وسطهم.

(مختار الصحاح ص ٢١٠)

(٢) فيض القدير (١/ ١٣٤)

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٣٦٢)

(٤) أخرجه البخاري (٢/ ٨٦٥ رقم ٢٣١٧)





وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "هل تدرون من المفلس؟

قالوا: المفلس فينا، يا رسول الله، من لا درهم له ولا متاع.

قال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصيام وصلاة وزكاة، ويأتي قد شتم عرض هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، فيقعد فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه من الخطايا، أخذه من خطاياهم فطرح عليه، ثم طرح في النار".<sup>(١)</sup>

روي عن عائشة قَالَتْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الدَّوَّائِنُ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّجَلَّ ثَلَاثَةٌ دِيَوَانٌ لَا يَعْْبَأُ اللَّهُ بِهِ شَيْئًا وَدِيَوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا وَدِيَوَانٌ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ فَأَمَّا الدِّيَوَانُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ فَالشَّرْكَ بِاللَّهِ قَالَ اللَّهُ عَزَّجَلَّ ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢] وَأَمَّا الدِّيَوَانُ الَّذِي لَا يَعْْبَأُ اللَّهُ بِهِ شَيْئًا فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ مِنْ صَوْمٍ يَوْمَ تَرَكَهُ أَوْ صَلَاةٍ تَرَكَهَا فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّجَلَّ يَغْفِرُ ذَلِكَ وَيَتَجَاوَزُ إِنْ شَاءَ وَأَمَّا الدِّيَوَانُ الَّذِي لَا يَتْرُكُ اللَّهُ مِنْهُ شَيْئًا فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا الْقِصَاصُ لَا مَحَالَةَ".<sup>(٢)</sup>

### من جزاء الظلم تولية الظالمين على الظالمين

مما يندرج تحت هذه القاعدة أن الظالمين يولى الله عليهم أمثالهم. قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ يُؤْتَى بَعْضُ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩].

(١) أخرجه أحمد (٣٠٣/٢) رقم ٨٠١٦، ٢/٣٣٤ رقم ٨٣٩٥، ٨٨٢٩) وابن حبان (٢٥٩/١٠) رقم

٤٤١١، ١٦/٣٥٩ رقم ٧٣٥٩

(٢) أخرجه أحمد (٤٩٥/٥٥) رقم: ٢٤٨٣٨) والبيهقي في الشعب (٢١/١٦) رقم: ٧٢١٥) وقال

العراقي في هذا الحديث: وفيه صدقة بن موسى الدقيقي ضعفه ابن معين وغيره، وله شاهد من

حديث سلمان رواه الطبراني (انظر تخريج أحاديث الإحياء: ٨/٨٠ رقم: ٣٥٨٠)



قال ابن كثير: ومعنى الآية: كما ولينا هؤلاء الخاسرين من الإنس تلك الطائفة التي أغوتهم من الجن، كذلك نفعل بالظالمين، نسلط بعضهم على بعض، ونهلك بعضهم ببعض، ننتقم ببعضهم من بعض، جزاء على ظلمهم وبغيهم.<sup>(١)</sup>

وقال البقاعي<sup>(٢)</sup>: ولي الكفرة من ظالمي الجن ظالمي الإنس، وسلطهم عليهم. هذا عمله مع كل ظالم من أي قبيل، يجمع بين الأشكال في الأوصاف الباطنة والخصال، ويسلط بعضهم على بعض في الضلال والإضلال والأوجاع والأنكال، بما كانوا بجبلاتهم يكسبون. بسبب اجتماعهم في الطباع التي طبعناهم عليها يجتمعون، وينقاد بعضهم لبعض، حتى صارت أعمالهم كلها في غير مواضعها، فيظلم بعضهم بعضا، ويهلك بعضهم بعضا. يولي بعض الظالمين بعضا ليهينهم؛ بسبب ما كانوا يتعاطون من مساوئ الأعمال، ورديء الخلال، وغث الخصال، فيؤديهم إلى مهلك الأوجاع والأوجال.<sup>(٣)</sup>

وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور<sup>(٤)</sup>: هو من قبيل قوله ﴿تَوَلَّيْ﴾ [النساء: ١١٥] أي نلزمه ما ألزمه نفسه.

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٣٢)

(٢) الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط البقاعي الشافعي المحدث المفسر الإمام العلامة المؤرخ ولد سنة تسع وثمانمائة قال هو في ليلة الأحد تاسع شعبان سنة إحدى وعشرين وثمانمائة (شذرات الذهب ٤/ ٣٣٩)

(٣) نظم الدرر (٧/ ٢٧٠-٢٧١)

(٤) محمد الطاهر بن عاشور بن محمد الشاذلي بن عبد القادر بن عاشور، صاحب تفسير التحرير والتنوير نقيب أشراف تونس وكبير علمائها في عهد الباي محمد الصادق باشا. ولي قضاءها سنة ١٢٦٧ هـ ثم الفتيا سنة ١٢٧٧ هـ فنقابة الأشراف. توفي بتونس. (الأعلام ٦/ ١٧٣)



قال المفسرون: يجوز أن يكون معنى ﴿تَوَلَّى بَعْضُ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩] نجعل بعضهم ولاية على بعض؛ أي نسلط بعضهم على بعض، والمعنى أنه جعل الجن وهم ظالمون مسلمين على المشركين، والمشركون ظالمون. فكل يظلم بمقدار سلطانه. والمراد بالظالمين في الآية المشركون.

وقد تشمل الآية بطريق الإشارة كل ظالم، فتدل على أن الله سلط على الظالم من يظلمه.

ومن أجل ذلك قيل: إن لم يقلع الظالم عن ظلمه سلط عليه ظالم آخر.

وقد قيل: وما ظالم إلا سيلى بظالم.<sup>(١)</sup>

قال الفخر: إن أراد الرعية أن يتخلصوا من أمير ظالم فليتركوا الظلم.<sup>(٢)</sup>

وقال الآلوسي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقد استدل بالآية على أن الرعية إذا كانوا ظالمين فإن الله تعالى يسلط عليهم ظالما مثلهم، وفي الحديث: "كما تكونوا يول عليكم"<sup>(٣)</sup>.<sup>(٤)</sup>

**تبقى الدولة مع الكفر ولا تبقى مع الظلم**

ومن عظيم شأن الظلم أن جعل الله الظلم سببا لهلاك الدولة مع إسلامها مع أن الله تعالى أبقى الدولة الكافرة إذا كانت عادلة في رعاياها. وكذلك سنة الله في المجتمعات، إذا كان الظلم منتشرًا فيما بينهم فإن الله يهلكهم، وإن كانوا مسلمين.

(١) التحرير والتنوير (٧٣/٨-٧٤) باختصار.

(٢) التفسير الكبير (١٣/١٩٤)

(٣) أخرجه محمد بن أحمد الصيداوي في معجم الشيوخ (١/١٤٩) وفي سنده مجاهيل (كشف الخفا ٢/١٦٦)

(٤) روح المعاني (٨/٢٧)



ولا يهلك الله مجتمعا كافرا بمجرد كفرهم إذا كانوا متصالحين غير متظالمين يعرف بعضهم حقوق بعض.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس، والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم. وبهذا قال المفسرون وأهل العلم.<sup>(١)</sup>

قال الفخر الرازي في هذه الآية: إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك. والمعنى أن الله تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، ويعامل بعضهم بعضا على الصلاح وعدم الفساد.<sup>(٢)</sup>

وقال القرطبي: ﴿يُظْلِمُونَ﴾ أي بشرك وكفر، ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧] أي فيما بينهم في تعاطي الحقوق. ومعنى الآية إن الله تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط.<sup>(٣)</sup>

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يروى أن الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة."<sup>(٤)</sup>

(١) السنن الإلهية ص ١٢٢

(٢) التفسير الكبير (١٧/٥١٧)

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٩/١١٤)

(٤) مجموع الفتاوى (٢٨/٦٢-٦٣)



وقال أيضا: "وأمر الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم. ولهذا قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام. وقد قال النبي ﷺ: ليس ذنب أسرع عقوبة من البغي وقطيعة الرحم.<sup>(١)</sup> فالباغي يصرع في الدنيا وإن كان مغفورا له مرحوما في الآخرة. وذلك أن العدل نظام كل شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها من خلاق -أي في الآخرة- وإن لم تقم بالعدل لم تقم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة".<sup>(٢)</sup>

#### ترابط السنن بعضها ببعض

فهذه هي بعض السنن التي يمكن تصويرها برسم الهيكل العامة لتلك الخطوط التي تحدد مسار حياة الإنسان فردا وجماعات. وإن هذه السنن جارية في كل الناس، ومطردة في كل الأحوال. ومجموع هذه السنن كلها تعمل في رسم الأحداث. ولكن قد تجري في حدث واحد سنن متعددة فيظهر أحيانا شيء من التضارب إذا غاب تصور كلي متكامل لهذه السنن مجتمعة.

فمثلا، حياة المؤمن سعيدة طيبة كما وعد الله، وهذه سنة الله. إلا أن سنة الله أيضا أن يبتلى المؤمن بالخير والشر. وأيضا قد يسيء المؤمن العمل فتجري عليه سنة الجزاء من جنس العمل.

(١) رواه أحمد (٣٦/٥) والبخاري في الأدب المفرد (٣٠٨/١) والبيهقي (٣٥/١٠) = والبزار (١٣٧/٩) بألفاظ متقاربة.

(٢) مجموع الفتاوى (١٤٥/٢٨-١٤٦)



فسنة الابتلاء وسنة الجزاء تخصصان بعض جزئيات سنة صلاح الدنيا بصلاح الدين، وتبقى جزئيات أخرى أن حياة المؤمن حياة طيبة سواء فسرت الحياة الطيبة بما يكون يوم القيامة أو أن الحياة الطيبة الموعودة تكون في الدور الثالث. فإن المؤمن سعيد بإيمانه بما وعد الله مطمئنة نفسه بقيينه بالله كما تقدم الكلام عليه. وإذا فسرت باليوم الآخر فأتى للحياة الدنيا أن تخرم وتفسد ما يكون للمؤمن في الجنة؟ غمسة واحدة في الجنة تنسي أشد ما يكون من البؤس في الدنيا. إلا أن ما تبين من خلال استقراء النصوص أن صلاح الدنيا مرتبط بصلاح الدين يرجح أن الحياة الطيبة تكون في الدنيا والآخرة كما رجحه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ. وقد سبق تقرير ذلك.

وكذلك شأن الفجار وعد الله عليهم بالعذاب إلا أن الله قد يمهلهم أو ينعم عليهم بأنواع من النعم انتظارا للتوبة أو جزاء بعض الأعمال الصالحة في الدنيا أو استدراجا إلى عذاب أشد.

وقد تكون العلاقة بين السنن علاقة تأكيد وتفصيل. فإن بعض السنن قد تأتي تفصل سنة أخرى. وتؤكد لها في نفس الوقت. مثل سنة ترتيب صلاح الظاهر على صلاح الباطن قد تأتي تفصل سنة الجزاء من جنس العمل. ويكون هذا تأكيدا لهذه السنة.

وقد تجري في حدث واحد أكثر من سنة لوقوعها على أفراد متباينين. فآتيه في بني إسرائيل عقوبة لهم وابتلاء لموسى عَلَيْهِ السَّلَام وليس عقوبة له. وكذلك الهزيمة التي نزلت بالمسلمين في أحد، عقوبة للعاصين، وابتلاء للرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعض أصحابه الذين ثبتوا، وكذلك منحة للشهداء الذين استشهدوا فيها. كما



قال الله في حديث الإفك: ﴿تَحَسَّبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ أَمْرٍ مِّنْهُم مَّا أَكْثَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١] أي لا تظنوا أن هذا الحدث شر محض، بل فيه حكم متعددة، ولكل فرد ما يستحقه من الجزاء حسب عمله. وأما الذي تولى كبر هذا الأمر فله عذاب عظيم وشر محض لما في عمله ونيته من الخبث المجرد. وأما غيره فكل يأخذ نصيبه من جزاء عمله، ولا تعمم النتيجة.

فلذلك يجب مراعاة هذه السنن مجتمعة في تحليل الأحداث والوقائع. فإن أفراد سنة واحدة عن بقية السنن قد يأتي بتفسير مضلل وفهم مشوه للواقع. والله أعلم.

#### دراسة السنن كأسس لعلم الاجتماع الإسلامي

إن هذه السنن تحتاج إلى تعميق النظر فيها وتبسيط الضوء عليها، ويستحق أن تفرد بدراسة مستقلة. فهي تصلح أن تكون أسسا أولية لعلم الاجتماع الإسلامي، وقد قام ابن خلدون بشيء من رصد تجليات بعض تلك السنن، ولكن أكثر اعتماده كان على معلوماته التاريخية والملاحظات الواقعية، وأما استخلاص السنن من النصوص ما كان حاضرا بقوة في أعماله، وليس ذلك عزيزا عليه، ولعل الله أراد من اللاحقين أن يواصل درب السابقين، وأن يبنى الأبناء على ما تركه الآباء. فإنه من الخطأ الجسيم أن يبقى المسلمون يرددون أعمال أسلافهم ولا يضيفون عليها شيئا. ويقولون: ما ترك الأول للآخر شيئا، كأن الإسلام منعهم عن الزيادة في الخير، وكأن الفكر الإسلامي لا يكون إلا إذا نطق على لسان السابقين، وليس لمن بعدهم حق المشاركة والمداركة في تشييد الصرح الحضاري.



### النوع الثاني: سنن مستخلصة من التجارب والملاحظات

إن العلم الذي دعا إليه الإسلام وحث عليه القرآن والسنة هو كل معرفة مستندة إلى استدلال. وعلى هذا يشمل العلم في الإسلام مجالات عدة تقصر عن الدلالة عليها كلمة العلم بمفهومها الغربي الحديث. فيشمل العلم مجال "ما وراء الطبيعة" ومجال الإنسان وما يتعلق به من دراسات، ومجال الماديات.<sup>(١)</sup>

وقد أقرّ النبي ﷺ مبدأ التجربة في الأمور الدنيوية الفنية، فما أثبتت التجربة نفعه في هذا فهو مطلوب شرعا، وما أثبتت ضرره فهو مرفوض شرعا.<sup>(٢)</sup>

وأوضح مثال لهذا المبدأ: موقفه ﷺ من قضية تأبير النخل، حيث مر رسول الله ﷺ على قوم في رؤوس النخل فقال: ما يصنع هؤلاء؟ قالوا: يلحقونه يجعلون الذكر في الأنثى. قال: ما أظن ذلك يغني شيئا. فأخبروا بذلك فتركوه. فأخبر رسول الله ﷺ فقال: إن كان ينفعهم فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظنا، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا أخبرتكم عن الله عز وجل بشيء فخذوه، فإني لن أكذب على الله شيئا.<sup>(٣)</sup>

وفي صحيح مسلم من رواية رافع بن خديج<sup>(٤)</sup> أنه قال لهم: "إنما أنا بشر،

(١) انظر "الرسول والعلم" ص ٣٧، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

(٢) الرسول والعلم ص ٤٨

(٣) أخرجه أحمد (١/١٦٢ رقم ١٣٩٥)

(٤) رافع بن خديج بن رافع بن عدي الأنصاري الصحابي من الأنصار شهد أحدا وما بعدها مع رسول الله وكنيته أبو عبد الله وأمه حليلة بنت عروة بن مسعود توفي سنة ٧٤ هـ (النجوم الزاهرة





إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر." (١)  
وفيه من رواية عائشة وأنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أجمعين: أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لهم بعد أن  
أخرج التمر شيصا -بسرا رديئا- ما لنخلكم؟! قالوا: قلت كذا وكذا. قال: أنتم أعلم  
بأمر دنياكم. (٢)

فالقانون الذي يجب الخضوع له هنا هو القانون الذي تنتجه الخبرة والممارسة،  
أو المشاهدة والتجربة. ويكفي العقل الإنساني في هذه الأمور هاديا ودليلا. أما  
الوحي فحسبه أن يضع للناس القيم والمبادئ العامة والضوابط. ثم يدع البشر  
يتصرفون تبعالما يعلمون. وحسبهم هذه الكلمة الجليلة: "أنتم أعلم بأمر دنياكم." (٣)

#### أوليات ابن خلدون

فمن أوائل من سعى إلى استخراج تلك السنن من بين زوايا التاريخ وثنايا الواقع  
العالم العظيم العلامة ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد المعروف  
بابن خلدون، بل هو أول من كتب في هذا على الإطلاق وأولى له اهتماما خاصا.  
ولا غنى عن ذكر بعض آراءه في هذه الجزئية، وما تركه من كنوز العلم كان هائلا،  
لكن استفادة المسلمين منها ما زالت ضيئة.

ومن آراءه المهمة: أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص. (٤) واستند إلى  
دلائل التاريخ والواقع المشاهد على الأرض التي كان ابن خلدون خاض فيها

(١) أخرجه مسلم (٤/١٨٣٦ رقم ٢٣٦٢)

(٢) أخرجه مسلم (٤/١٨٣٦ رقم ٢٣٦٣)

(٣) الرسول والعلم ص ٤٩

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٨٦



معارك سياسية ورصد فيها ظواهر متعددة متكررة قابلة للقياس عليها وصالحة لأن تكون قانونا عاما.

وما قاله رَحِمَهُ اللهُ نجد مصداقه في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْزِزُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩] قال الطبري في معنى الآية: يقول تعالى: لكل قوم ميقاتٌ لانقضاء مدتهم وأجلهم، فإذا جاء وقت انقضاء أجلهم وفناء أعمارهم....<sup>(١)</sup>

وأما تقدير مدة هذه الأعمار فهو خاضع لكثير من العوامل التي تقوم على أسسها الدول، وقد تطول المدة إذا قويت هذه العوامل واستمرت، وقد تقصر إذا ضعفت وتلاشت. ولكن لا بد من نهاية هذه الأمور كما أن كل الأشخاص لا بد من ملاقة أجلهم إن عاجلا أو آجلا.

ومن السنن التي رصدها ابن خلدون أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة، ويكتسب القائمون بها في كل طور خُلُقًا من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الآخر، لأن الخُلُق تابع بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه. وحالات الدولة وأطوارها لا تعدو في الغالب خمسة أطوار: الطور الأول: طور الظفر بالبيعة وغلب المدافع والممانع، والطور الثاني: طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكبحهم عن التناول للمساهمة والمشاركة. والطور الثالث: طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك مما تنزع طباع البشر إليه من تحصيل المال وتخيل الآثار وبعد الصيت. والطور الرابع: طور القنوع والمسالمة. ويكون صاحب الدولة في هذا قانعًا بما بنى أولوه، سلمًا لأنظاره من الملوك وأقتاله، مقلدًا للماضين

(١) تفسير الطبري: ١٥/١٠٠



من سلفه، فيتبع آثارهم حذو النعل بالنعل، ويقتفي طرقهم بأحسن مناهج الاقتداء، ويرى أن في الخروج عن تقليدهم فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده. والطور الخامس: طور الإسراف والتبذير. ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متلفاً لما جمع أولوه في سبيل الشهوات والملاذ والكرم على بطانته وفي مجالسه، واصطناع أخذان السوء وخضراء الدمن، وتقليدهم عظيمات الأمور التي لا يستلفون بحملها، ولا يعرفون ما يأتون ويذرون منها، مستفسداً لكبار الأولياء من قومه وصنائع سلفه، حتى يضطغونوا عليه، ويتخاذلوا عن نصرته، مضيعاً من جنده بما أنفق من أعطياتهم في شهواته، وحجب عنهم وجه مباشرته وتفقدته، فيكون مخرباً لما كان سلفه يؤسسونه، وهادماً لما كانوا يبنون، وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم، ويستولي عليها المرض المزمن الذي لا تكاد تخفض منه، ولا يكون لها معه برء، إلى أن تنقرض كما نبينه في الأحوال التي نسردها. والله خير الوارثين.<sup>(١)</sup>

ومن السنن الاجتماعية المهمة التي رصدها أيضاً أن الظلم مؤذن بخراب العمران، وعلل ذلك بأن عمران الدولة وازدهارها مرتبط برغبة الناس وسعيهم في كسب مصالحهم فيعملون من أجل ذلك وتعلقت آمالهم بتحصيلها تحت ظل النظام القائم. فإذا كان النظام لا يضمن لهم الحق في تحصيلها انقضت أيديهم عن السعي في ذلك.<sup>(٢)</sup>

وأضاف ابن خلدون بأن الظلم المسبب للخراب ليس مقتصر على أخذ المال أو الملك من يد مالكة من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور، بل الظلم أعم من

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٨٨-٨٩ مختصراً.

(٢) المصدر نفسه ص ١٥٥



ذلك. وكل من أخذ ملك أحد أو غضبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه. فجباة الأموال بغير حقها ظلمة، والمعتدون عليها ظلمة، والمتتهبون لها ظلمة، والمانعون لحقوق الناس ظلمة، وغصاب الأملاك على العموم ظلمة، ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها لإذهابه الآمال من أهله.<sup>(١)</sup>

ومن أهم الحقائق التي استخلصها ابن خلدون هو أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها. قال: والسبب في ذلك أن الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد عن أهل العصبية وتفرد الوجهة إلى الحق. فإذا حصل لهم الاستبصار في أمرهم لم يقف لهم شيء، لأن الوجهة واحدة والمطلوب متساو عندهم، وهم مستميتون عليه، وأهل الدولة التي هم طالبوها - وإن كانوا أضعافهم - فأغراضهم متباينة بالباطل، وتخاذلهم لتقية الموت حاصل، فلا يقاومونهم وإن كانوا أكثر منهم، بل يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم من الترف والذل.

وهذا كما وقع للعرب صدر الإسلام في الفتوحات. فكانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعاً وثلاثين ألفاً في كل معسكر، وجموع فارس مائة وعشرين ألفاً بالقادسية، وجموع هرقل - على ما قاله الواقدي - أربعمئة ألف، فلم يقف للعرب أحد من الجانبين، وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم.

واعتبر ذلك أيضاً في دولة لمتونة ودولة الموحدين. فقد كان بالمغرب من القبائل كثير ممن يقاومهم في العدد والعصبية أو يشف عليهم، إلا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماتة كما قلناه، فلم يقف لهم شيء.



واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين، وفسدت، كيف ينتقض الأمر، ويصير الغلب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين، فتغلب الدولة من كان تحت يدها من العصائب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم بمضاعفة الدين لقوتها، ولو كانوا أكثر عصبية منها وأشد بدواة.<sup>(١)</sup>

والملاحظ من آراء ابن خلدون أنه اعتبر ما سماه "العصبية" أنها القوة الجاذبة والجامعة لتكوين الدولة، وهي التي تشكل القوة الضامنة لبقاء الدولة واستمرارها. وأكثر ما استشهد به هو قيام الأنظمة الملكية وخاصة هي التي قامت على أيدي قبائل تغلبت على أخرى تجاورها. لم يكن ابن خلدون بصدد تأصيل النظرية السياسية الإسلامية وإنما كان يصف ويشخص الواقع، ولم يكن أيضاً يهدف إلى بناء تصور لمدينة فاضلة كما عمل أفلاطون<sup>(٢)</sup> والفارابي<sup>(٣)</sup> وغيرهما من الفلاسفة. ومقدمة ابن

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٧٨-٧٩

(٢) أفلاطون باللاتينية: Plato، ولد في أثينا ٤٢٧-٤٢٨ ق.م ٣٤٧-٣٤٨ ق.م، فيلسوف يوناني كلاسيكي، كاتب عدد من الحوارات الفلسفية، ويعتبر مؤسس لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو، وضع أفلاطون الأسس الأولى للفلسفة الغربية والعلوم. نبوغ أفلاطون وأسلوبه ككاتب واضح في محاوراته السقراطية (نحو ثلاثين محاوراً) التي تتناول مواضيع فلسفية مختلفة. ( "Plato". Encyclopaedia Britannica. ٢٠٠٢ )

(٣) الفارابي (٢٦٠ - ٣٣٩ هـ / ٨٧٤ - ٩٥٠ م) محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، ويعرف بالمعلم الثاني: أكبر فلاسفة المسلمين. تركي الأصل، مستعرب. ولد في فاراب (على نهر جيحون) وانتقل إلى بغداد فنشأ فيها، وألف بها أكثر كتبه، ورحل إلى مصر والشام. واتصل بسيف الدولة ابن حمدان. وتوفي بدمشق. كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره. وعرف بالمعلم الثاني، لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول). له نحو مائة كتاب. (الأعلام: ٢٠ / ٧)



خلدون في الأصل مقدمة لكتاب تاريخ فلذلك كان أكثر اعتماده على المعلومات التاريخية والحالات الواقعية.

ونعذر ابن خلدون في اقتصاره على وضع الدين كقوة إضافية تضاف على العصبية في تأسيس الدول، مع أن الوضع المثالي أن يكون الدين هو العامل الأساسي يضاف معه العصبية المعتدلة غير المتطرفة التي تؤدي إلى ظلم الغير، لأن ابن خلدون ما كان يتحدث عن المثالية ولكنه كان يصف الواقع.

ومقصود ابن خلدون بالعصبية ليس هو ما عناه الحديث: لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ.<sup>(١)</sup> أو حديث: مَنْ قُتِلَ تَحْتَ رَايَةٍ عِمِّيَّةٍ يَدْعُو عَصَبِيَّةً أَوْ يَنْصُرُ عَصَبِيَّةً فَقَتَلَهُ جَاهِلِيَّةٌ<sup>(٢)</sup> فهذه العصبية مذمومة وضارة لوحدة البلاد. وإنما مراده قوة الانتماء المؤدي إلى التناصر والتآزر.

ومع تقديرنا لمكانة ابن خلدون العلمية لكننا غير ملزمين بالجمود على هذه النظرية، معتقدين أن هناك تفسيراً أفضل للتاريخ ونظرية أكمل في تأسيس الدول. ولسنا في صدد الكلام عن التفسير التاريخي المجرد ولكننا نهدف إلى فهم السنن الكونية بشكل أفضل لنؤسس عليها رؤيتنا المستقبلية. والمبادئ التي جاء بها الإسلام فتحت مجالاً أكبر من حدود ظاهرة تسلط الأقوياء على الضعفاء، فالعصبية القبلية مهما هدّبت وعدّلت لن تكون أرقى من الدوافع الإيمانية الإسلامية. فاعتماد العصبية التي طرحه ابن خلدون يمكن الاستعاضة عنها بقوة التمسك الديني وشدة

(١) رواه وأبو داود (٣٢٥/١٣) رقم: (٤٤٦٥) والبغوي في شرح السنة: ٨٣٥/١

(٢) أخرجه مسلم (٣٩٢/٩) رقم: (٣٤٤٠) وأحمد: ٤٢٤/١٣ رقم: ٨٠٦١



الوازع الإيمان. واعتماد العصبية بدلا عن الوازع الديني يعتبر نزولا عن الحالة المثالية التي دل عليها أصل الدين، فلذلك نجد الصورة الواقعية لما بعد الخلافة الراشدة مشوهة على غير تلك الصورة الناصعة التي مثلتها الحكومات المبنية على الوازع الإسلامي الخالص لدى الخلفاء الأربعة الراشدة رضوان الله عليهم. ولا نتكلم هنا عن الشرعية فإن الإسلام يتحرك بين المثالية والواقعية بتوازن.

وأنا أعتقد أن نظرية العقد الاجتماعي<sup>(١)</sup> أفضل من نظرية العصبية، لأنها تضمن العدالة أكثر وتسمح ببقاء الدولة أطول وتتيح مشاركة أوسع لأطياف المجتمع. وقد لا يخلو المجتمع من العصبية إلى حد ما لكن مبدأ التعاقد بطبيعة الحال أفضل من مبدأ التسلط الناتج عن العصبية. وليست نظرية العقد الاجتماعي غريبة عن مضمون الفقه الإسلامي، فإن ما قام به النبي ﷺ لحظة قدومه المدينة من اتفاقية بينه وبين أهل المدينة يعتبر أول عقد اجتماعي عرفه البشر. وإن ما قام به الصحابة من التشاور في شؤون الحكم واختيار الخلفاء قد سبق طرح تلك النظرية لدى الغربيين. فنظرية العقد الاجتماعي أقرب إلى الفكر الإسلامي الأصيل من نظرية العصبية، وإن كانت الأخيرة هي السائدة في مسيرتنا التاريخية المتأخرة.

(١) العقد الاجتماعي هو اتفاق بين الشعب وقادته، أو بين أناس انضموا في مجتمع معين. ويتردد مصطلح العقد الاجتماعي على امتداد تاريخ أدبيات الفكر الإنساني منذ القدم وفي عدّة مجالات مختلفة منه، ابتداءً من ظهوره في فلسفات سقراط وأفلاطون (٤٠٠ ق.م)، ومن ثمّ دراسته وبلورته بشكل "نظرية علمية" علي يد بعض علماء الاجتماع أمثال توماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩م) وجون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤م) وجان جاك روسو (١٧١٢-١٧٧٨م)، لتظهر في ما بعد ذلك انعكاساته كرمز محرّك لأحداث سياسية غيرت مجرى التاريخ مثل الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م. (انظر: Jean Hampton. 1999. "Social Contract". In *Cambridge Dictionary of Philosophy*. Robert Audi, ed. 855. London: Cambridge University Press)



وعلى كل حال فهذه قراءة أولية لتراث ابن خلدون الاجتماعي، فهو تراث ثري يستحق كل العناية والدراية بروح التقدير مع النقد البناء لغرض بناء المستقبل المنشود لا مجرد اجترار المنتج.

وما قدمه ابن خلدون كان فتحاً على عقول الناس، فقد كان المؤرخون قبله في الشرق والغرب يسردون الأحداث دون التوصل إلى اكتشاف قانون ينظم تلك الأحداث. قال مالك بن نبي<sup>(١)</sup>: "أما ابن خلدون فقد تمكن من قبل من اكتشاف منطق التاريخ في مجرى أحداثه، فكان بهذا المؤرخ الأول الذي قام بالبحث عن هذا المنطق إذا لم نقل إنه قد قام بصياغته فعلاً. فقد كان يمكن أن يكون أول من أتيح له أن يصوغ قانون الدورة التاريخية (La Luidu Cycle)، لولا أن مصطلح عصره قد وقف له عند ناتج معين من منتوجات الحضارة ونعني به الدولة، وليس عند الحضارة نفسها."<sup>(٢)</sup>

#### شرارات مالك بن نبي

كان مالك بن نبي وريث ابن خلدون في اهتمامه برصد قوانين اجتماعية، لكن مرمى مالك بن نبي غير ما كان يرمى إليه ابن خلدون، فبينما كان ابن خلدون يرصد عوامل صعود دول وسقوط أخرى لتسجيل الوقائع وتحليل الأحداث، كان

(١) مالك بن نبي (١٣٢٣ - ١٣٩٣ هـ = ١٩٠٥ - ١٩٧٣ م) مالك بن نبي: مفكر إسلامي جزائري. ولد بها في مدينة قسنطينة. ودرس القضاء في المعهد الإسلامي المختلط. وتخرج مهندسا ميكانيكيا في معهد الهندسة العالي بباريس. وزار مكة، وأقام في القاهرة سبع سنوات أصدر فيها معظم آثاره. باللغة الفرنسية نحو ٣٠ كتابا جلها مطبوع. ترجم بعضها إلى العربية. وكان من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية، بالقاهرة. وتولى إدارة التعليم العالي بوزارة الثقافة والإرشاد القومي الجزائري (١٩٦٤) وتوفي ببلده. (الأعلام: ٥/ ٢٦٦)

(٢) شروط النهضة ص ٦٩، مالك بن نبي، دار الفكر، دمشق، الطبعة التاسعة سنة ١٤٣٠هـ، ٢٠٠٩م





مالك بن نبي يرمي إلى إحداث نهضة الأمة الإسلامية، وكان يتتبع ظواهر تدل على معالم طريق الخروج من ورطة الاستعمار<sup>(١)</sup> الغربي الذي مني به المسلمون آنذاك. فكان يطلق شررات من الأفكار النيرة التي لا يستغني عنها كل ناشد لنهضة الأمة.

ومن آراءه السديدة التي توصل إليها بن نبي رَحِمَهُ اللهُ هو أن الدول الغربية لم تتمكن من استعمار المسلمين لو لا أن عند المسلمين قابلية لذلك. فلولا عوامل الضعف الناخرة في جسد الأمة الإسلامية ما كان لأية قوة أن تتغلب عليها. فهذه رؤية غاية في الشفافية، وانكشاف على الذات، وارتقاء سريع إلى التنبه لمكامن الضعف التي يجب أن تنتفض منها الشعوب المسلمة.

كانت ثقافة مالك بن نبي منفتحة على عالم الغرب، فكان يستفيد من نتاج الفكر الغربي ما يخدم مشروعه النهضوي. ومما استفاد منه بن نبي جهود علماء غربيين في تفسير التاريخ وكشف أنماط حركته. فلم يقف عند تراث ابن خلدون رغم علو كعبه وجلالة قدره في هذا الباب، فكان مما أضافه على فكر ابن خلدون هو توسيع دائرة رصد الأحداث من أطوار دول إلى مراحل الحضارات.

ومن المثير أن نجد أن مالك بن نبي ذهب أبعد من ابن خلدون في دور الدين، بينما كان ابن خلدون اكتفى بتقرير الدور الإضافي للدين في قوة الدولة<sup>(٢)</sup>، فإن مالك بن

(١) إن استعمال هذا اللفظ على معنى الاحتلال يعتبر تحريفاً عن أصل معناه. إن لفظ "استعمار" أول ما استخدم في القرآن الكريم (سورة هود: ٦١) يدور على معنى طلب الإعمار أو الإسكان أو إطالة العمر (النكت والعيون: ٢/٢٠٧). أما تداوله لدى المتأخرين فهو ترجمة خاطئة للفظ (colonialisme) وهو يعني استيلاء دولة غالبية على أخرى مغلوبة. (Selon Margaret Kohn dans L'encyclopédie de philosophie de Stanford, 2006, «Le colonialisme est une pratique de domination qui met en jeu la domination d'un peuple par un autre»)

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٧٨-٧٩



نبي يقرر ويؤكد أن الحضارات جميعها إنما نشأت من الروح الدينية، والفكرة الدينية دائماً - قديماً وحديثاً - هي المركّب والمحفّز (Catalyseur) لنشأة الحضارات.<sup>(١)</sup> وأكثر منه إثارة أنه استند في هذه الرؤية إلى المفكر الغربي كسرلنج الذي رأى أن الحضارة الأوروبية كانت تركيباً مكوناً من (روح) المسيحية وتقاليد الجرمانية.<sup>(٢)</sup>

كما أنه رَحِمَهُ اللهُ استفاد في تصوير مراحل الحضارة من ولادتها ثم وصول أوجها حتى أفولها من نموذج شبنجلر<sup>(٣)</sup> (Spengler) الذي يقسم مراحل الحضارة إلى ثلاث: هي روحية وعقلية وغرائزية. فتكون المرحلة الروحية هي طور النهضة والمرحلة العقلية تمثل أوج الحضارة أما المرحلة التي تسيطر فيها الغرائز فهي مرحلة الأفول والانحطاط.

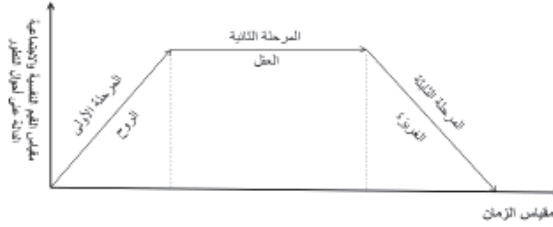
(١) انظر شروط النهضة ص ٦٨

(٢) المصدر نفسه ص ٧١، ومن مقولاته: "وكان أعظم ارتكاز حضارة أوروبا على روحها الدينية". وتشابه هذا الموقف بموقف الفيلسوف الألماني الآخر ماكس وير الذي قرر في كتابه الشهير (الخلق البروتستانتي وروح الرأسمالية) أن العقائد المسيحية وبالأخص المذهب البروتستانتي منها هي العامل الأساسي لنهضة أوروبا وأمريكا، وكانت أعماله العلمية ترصد آثار الدين في السلوك الاقتصادي، فدرس العقيدة الكنفوشية وأثرها على الاقتصاد الصيني، ثم الحالة الهندية وعلاقتها بالعقيدة البرهامية، وكان قد شرع في دراسة العقيدة اليهودية قاصدا مواصلة عمله بالعقيدة الإسلامية، إلا أن المنية وافته بشكل مفاجئ. (Weber, Marianne (1926/1988) *Max Weber: A Biography*. New Brunswick: Transaction Books. ISBN 0-471-92333-8)

(٣) جون جوزيف شبنجلر (19 November 1902 - 2 January 1991) الخبير الاقتصادي الأمريكي، ومؤرخ الفكر الاقتصادي، حصل على جائزة جون لويس فريدريك ١٩٥١ من الجمعية الفلسفية الأمريكية، وجائزة 1981 زميل المتميز تاريخ جمعية الاقتصاد، كان أستاذا فخريا في الاقتصاد في جامعة ديوك. (History of Economics Society, Distinguished Fellow Awards. American Philosophical Society, John Frederick Lewis Awards)



## مراحل الحضارة



ومع نفاسة هذه الرؤية إلا أن هناك ملحوظات ينبغي الوقوف عليها:

الأولى: أنه ليس بالدقيق أن يوضع الإسلام موضع المساواة مع أي فكرة دينية واعتباره فقط شعلة أخلاقية تصلح لتركيب المعادلة، فالمفكر (كسرلنج) - ومثله ماكس ويبر - عندما يتكلم عن النصرانية يتكلم عنها كجزء من الأجزاء المكونة للحضارة الغربية، وبينما أن الإسلام دين شامل وليس مبدأ أخلاقياً فحسب، وقاعدته الأساسية هي التوحيد الذي ينبني عليه الأخلاق والآداب والتشريعات.

الثانية: أن التفرقة الحادة بين مرحلتي الروح والعقل لا تنطبق في الحالة الإسلامية، فإن صدر الإسلام شهد النهضة الروحية التي نبعت من إصلاح فكري شامل. فإن انسجام الروح والعقل هو من أهم خصائص الدين الإسلامي. وظلت الروح والعقل منسجمين متناغمين حتى ظهرت البدع الفكرية التي تشطح في الروحيات ضاربة سلطان العقل في عصور التخلف الحضاري. وطلعت رؤوس الشيطان بالشبهات العقلية التي تميّت الحياة الإيمانية الإسلامية الأصيلة. فغدت



العقيدة فلسفة كلامية خاوية فقيرة من قوة الروح الإيمانية، وصارت التربية الروحية عن طريق الشطحات والعواطف والمواجيد التي لا تمت إلى العقل والعلم بصلة.

الثالثة: أن مراحل نهوض أوروبا لم تسر على خط واحد تنسجم فيها كل العوامل، فقد كانت تنطوي على تناقضات حادة بين الدين والعلم، ولم تنتظم النهضة الروحية في اطراد مع نمو الأنشطة العقلية. وإن الصراع المير والطويل بين الكنيسة والعلماء المتحررين لم يضع أوزاره حتى استسلمت الكنيسة وقنعت بهامش محدود من حياة الأوربيين. ومع ذلك فإن بقايا التعاليم الأخلاقية والمعتقدات الدينية الأساسية لم تبرح تعتمل في ضمائر الغرب. وسمحت للكنيسة في تعبئة الروح التوسعية الاستعمارية ضد شعوب أخرى. ولكن المناهج التعليمية والمؤسسات العلمية لم تعترف بقيمتها العلمية ولا بمكانتها في المحيط العلمي إلا كونها ثقافة موروثة وتقاليد مأثورة.

ومع ذلك فإننا استفدنا من هذا التصوير أن نهضة الشعوب دائما أساسها وثبة الروح، فإنها هي التي تؤجج الحماسة وتلهب العواطف، وليس هناك أقوى من العاطفة الدينية إذا التهب، ولا أثبت من المواقف الإيمانية إذا اشتعلت.

ونلاحظ لهذا النموذج شبا كبيرا بنموذج ابن خلدون في نمط صعود وهبوط الدول، إلا أن ابن خلدون كان يميل إلى تفصيل عملية الهبوط أكثر من تحليل عوامل النهوض. فالعصبية التي طرحها ابن خلدون كسر رئيس في قوة الدولة ليست أكثر من شكل من أشكال الوثبات الروحية. وهذا يدعونا إلى التعقيب على



تفسير المؤرخ الإنجليزي أرنولد توينبي<sup>(١)</sup> صاحب مذهب "التحدي"، فقد رأى أن الحضارة إنما تقوم نتيجة "رد فعل" يقوم به أحد الشعوب أو الأجناس لمواجهة "تحدٍ" معين. فقد كان تركيزه على العوامل الطبيعية والتحديات الجغرافية.

فكان مالك بن نبي لم يرتض هذا التفسير في الحالة الإسلامية،<sup>(٢)</sup> فإن نشوء الحضارة الإسلامية لم تكن رد فعل لتلك الأشكال المعروفة لدى الأمم من تحديات، بقدر ما كان استجابة لأوامر الوحي القرآني والتعليم النبوي وتحقيقا لمقاصد الدين الإسلامي. إلا أن قيام التحديات لم يكن غائبا في الحقيقة عن تشكيل القوة الروحية لدى نفوس المسلمين. فإن الضغوط وأشكال الاضطهاد التي تعرض لها المسلمون مع أوامر الوحي بالصبر والتحمل قد ولدت طاقة هائلة ونضوجا نفسيا غير عادي. نعم فإن تحركات المسلمين بذلك لم تكن ردود أفعال طبيعية نابعة من هوى النفس ورغبة الانتقام أو التخلص من الوضع المريع، لكنها تصرفات راقية تنبئ عن تمثل القيم الإنسانية العالية التي لا تطيقها غير الأنبياء وأتباع الأنبياء. إن تاريخ المسلمين لا يخضع لمنطق إنسان عادي، لكنه عبارة عن معجزة تاريخية تشهد بصدق الرسالة المحمدية على صاحبها الصلاة والسلام.

(١) أرنولد جوزف توينبي (١٨٨٩ - ١٩٧٥) عالم بريطاني، وهو من أشهر المؤرخين في القرن العشرين، ودرس اليونانية واللاتينية في أكسفورد. يُعتبر توينبي أحدث وأهم مؤرخ بحث في مسألة الحضارات بشكل مُفصل وشامل، ولا سيما في موسوعته التاريخية المُعنونة "دراسة للتاريخ" التي تتألف من اثني عشر مُجلدًا أنفق في تأليفها واحدًا وأربعين عامًا. وكان أهم أعماله "دراسة للتاريخ" (انظر: "التاريخ الحضاري عند توينبي"، لمنح خوري، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١٩٦٠، و "العالم والغرب"، ص ١٦-١٧، لأرنولد توينبي)

(٢) شروط النهضة ص ٧٢



وعلى كل حال، فإن تفسير مالك بن نبي رَحِمَهُ اللهُ للتاريخ كان بالقوة التي يستحق أن نعيد له القراءة الكرة تلو الأخرى لأنه كان عميقا في تفكيره، وخاصة أنه دائم التطلع إلى طرق صياغة المستقبل الإسلامي المشرق.

#### المبحث الثاني: أخبار الوحي الصريحة

والوسيلة الأخرى لاستكشاف خبايا المستقبل هي ما أخبر الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أحداث تقع في المستقبل. وهي من أجلّ وأنفع ما منح به الله عباده. وقع بعضها في عهد الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبعضها وقع بعد وفاته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد شهدنا أو سمعنا حدوثها، والبعض الآخر سيقع في مستقبلنا نحن وسنشهد ونقول إن شاء الله: هذا ما وعد الله ورسوله، وصدق الله ورسوله.

ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه الأخبار وتلك الأحداث التي تحدث عنها القرآن والسنة، وأخبر عن وقوعها، لا تخرج عن إطار السنن التي وضعها الله في نظام الحياة. وأن هذه السنن تحدد مسار كل ما جرى وما سيجري في الكون. وسنلاحظ أن كل تلك الحوادث تشكل صورا واقعية لتلك السنن الإلهية. وسنجد أيضا أن آيات الله وأحاديث الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصدق بعضها بعضا، يبنى بعضها على بعض، ويكمل بعضها بعضا، في تكامل وتناسق رائعين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

#### نماذج من الأخبار الواردة في مستقبل الأمة من القرآن والسنة

لقد ألف الناس قديما وحديثا كتباً في الأحداث المستقبلية التي أخبر عنها وتنبأها الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. كما أن المحدثين رَحِمَهُمُ اللهُ أيضا خصصوا أبواباً في



كتبهم عن أحاديث الفتن وأشرط الساعة. فليس من الصعب أن نعثر على مفردات هذا الموضوع لأن مظانها معروفة ومتناولها قريب.

ومنهجي في هذا البحث أن أختار من تلك الأخبار نماذج تصور معالم مجريات الأحداث في المستقبل، وليس الهدف في هذا الموضوع حصر تلك الأخبار.

وما تلك الأخبار إلا تفصيل لما أخبر الله في كتابه الكريم وما تقرر من السنن الجارية على كل أحداث الكون. فالخير والشر يتبادلان وفق سنة التداول، والفتن حدثت وتحدث وفق سنة الابتلاء وسنة الجزاء من جنس العمل. وظهور حاكم عادل أو ظالم يحصل وفق سنة الله في ربط صلاح الجماعة بصلاح الأفراد، وهكذا. لذلك ينبغي أن نفهم تلك الأخبار على ضوء تلك السنن الإلهية ولا نراها أحداثاً متفرقة وحقائق متناثرة ومشاهد متباينة، بل كلها لا تكون غير فصول مترابطة لقصة واحدة متواصلة، متحدة النظام، متفقة المعايير.

والمتتبع لتلك الأخبار يجد أنها على قسمين، قسم يأتي بأخبار سارة مبشرة، وقسم يأتي بأخبار مخيفة محذرة.

لنشرع الآن في تفاصيل تلك الأخبار.

#### ١- أخبار مبشرة

لقد جاء في القرآن والسنة أخبار تبشر بمستقبل مشرق لهذا الدين، فقد وعد الله لعباده المؤمنين بنصرة الإسلام وإتمام نوره ولو كره الكافرون، وإظهاره على كل الأديان ولو كره المشركون.

قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نَوْرَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].



قال ابن كثير في هاتين الآيتين: يقول تعالى: يريد هؤلاء الكفار من المشركين وأهل الكتاب ﴿أَنْ يُظْفِقُوا نُورَ اللَّهِ﴾ أي ما بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الهدى ودين الحق بمجرد جدالهم وافتراءهم. فمثلهم في ذلك كمثل من يريد أن يطفىء شعاع الشمس أو نور القمر بنفخه. وهذا لا سبيل إليه. فكذلك ما أرسل به رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا بد أن يتم ويظهر.

ولهذا قال تعالى مقابلاً لهم فيما راموه وأرادوه: ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتَرَ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾. والكافر هو الذي يستر الشيء ويغطيه، ومنه سمي الليل كافراً لأنه يستر الأشياء، وسمي الزارع كافراً لأنه يغطي الحب في الأرض، كما قال: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ [الحديد: ٢٠].

ثم قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾، فالهدى هو: ما جاء به من الإخبارات الصادقة والإيمان الصحيح والعلم النافع. ودين الحق هو: الأعمال الصالحة الصحيحة النافعة في الدنيا والآخرة.

﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ [التوبة: ٣٣] أي على سائر الأديان، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها".<sup>(١)</sup>

وأخرج الإمام أحمد بسنده عن ابن مسعود يقول: صلى هذا الحي من محارب الصبح، فلما صلوا قال شاب منهم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢١٥) رقم (٢٨٨٩)





يقول: "إنه ستفتح لكم مشارق الأرض ومغاربها، وإن عمالها في النار إلا من اتقى الله وأدى الأمانة." (١)

وعن تميم الداري (٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: "ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله هذا الدين، بعز عزيز أو بذل ذليل عزاء يعز الله به الإسلام وذلا يذل الله به الكفر."

فكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان كافرا منهم الذل والصغار والجزية. (٣)

وعن المقداد بن الأسود (٤) يقول: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول:

(١) مسند أحمد (٥/٣٦٦ رقم ٢٣١٥٨)

(٢) تميم الداري صاحب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو رقية تميم بن أوس بن خارجة بن سود بن جذيمة اللخمي الفلسطيني الداري والدار بطن من لحم ولحم فخذ من يعرب بن قحطان. صحابي جليل. وكان عابدا تلاء لكتاب الله. وروى قرعة عن ابن سيرين قال جمع القرآن على عهد رسول الله أبي عثمان وزيد وتميم الداري. مات سنة أربعين (سير أعلام النبلاء ٢/٤٤٢-٤٤٨)

(٣) أخرجه أحمد (٤/١٠٣) والطبراني في الكبير (٢/٥٨ رقم ١٢٨٠)

(٤) المقداد بن الأسود الكندي هو ابن عمرو بن ثعلبة بن مالك بن ربيعة بن عامر بن مطرود البهراني وقيل الحضرمي. قال ابن الكلبي: كان عمرو بن ثعلبة أصاب دما في قومه فلحق بحضرموت فحالف كندة فكان يقال له الكندي وتزوج هناك امرأة فولدت له المقداد فلما كبر المقداد وقع بينه وبين أبي شمر بن حجر الكندي فضرب رجله بالسيف وهرب إلى مكة فحالف الأسود بن عبد يغوث الزهري وكتب إلى أبيه فقدم عليه فبنى الأسود المقداد. فصار يقال المقداد بن الأسود. وغلبت عليه واشتهر بذلك فلما نزلت ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] قيل له المقداد بن عمرو. واشتهرت شهرته بابن الأسود. وأسلم قديما وتزوج ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب ابنة عم النبي وهاجر الهجرتين وشهد بدرًا والمشاهد بعدها. اتفقوا على أنه مات سنة ٣٣ هـ في خلافة عثمان. (الإصابة ٦/٢٠٢)



"لا يبقى على ظهر الأرض من بيت مدر ولا وبر إلا أدخل الله عليهم كلمة الإسلام، بعز عزيز أو بذل ذليل، يعزهم الله فيجعلهم من أهلها، أو يذلهم فلا يدينوا لها." (١)  
وفي المسند عن عدي بن حاتم (٢) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه يقول: دخلت على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا عدي، أسلم تسلم.

فقلت: إني من أهل دين.

قال: أنا أعلم بدينك منك.

فقلت: أنت أعلم بديني مني؟

قال: نعم. ألسنت من الركوسية (٣)؟ وأنت تأكل مرباع قومك؟

قلت: بلى.

قال: فإن هذا لا يحل لك في دينك.

قال: فلم يعد أن قالها فتواضعت لها.

قال: أما إني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول إنما اتبعه ضعفة الناس، ومن لا قوة له، وقد رمتهم العرب، أتعرف الحيرة؟

قلت: لم أرها، وقد سمعت بها.

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤ رقم ٢٣٨٦٥) والحاكم (٤/ ٤٧٦ رقم ٨٣٢٤) واللفظ له

(٢) عدي بن حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي الطائي ولد الجواد المشهور أبو طريف. أسلم في سنة تسع وقيل سنة عشر وكان نصرانيا قبل ذلك وثبت على إسلامه في الردة وأحضر صدقة قومه إلى أبي بكر وشهد فتح العراق ثم سكن الكوفة وشهد صفين مع علي ومات بعد الستين وقد أسن. قال محل بن خليفة عن عدي بن حاتم ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء وكان جوادا. (الإصابة ٤/ ٤٦٩-٤٧١)

(٣) هو دين بين النصاري والصابئين (النهاية ١/ ٦٨٦)



قال: فوالذي نفسي بيده، ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الطعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز.

قلت: كسرى بن هرمز؟

قال: نعم كسرى بن هرمز، وليبذلن المال حتى لا يقبله أحد.

قال عدي: فهذه الطعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جواز أحد، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة، لأن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالها. (١)

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: لا يذهب الليل والنهار حتى تعبد اللات والعزى.

فقلت: يا رسول الله، إن كنت لأظن حين أنزل الله عَزَّجَلَّ (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ) الآية أن ذلك تام.

قال: إنه سيكون من ذلك ما شاء الله عَزَّجَلَّ، ثم يبعث الله ريحا طيبة، فيتوفى كل من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيبقى من لا خير فيه فيرجعون إلى دين آبائهم" (٢). اهـ (٣)

التمكين لدين الله وأهله

ومن الأخبار المبشرة في القرآن قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٧)

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٣٠ رقم ٢٩٠٧)

(٣) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٣٥٠-٣٥١)



دِيْنَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور: ٥٥].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: "هذا وعد من الله تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض، أي أئمة الناس والولادة عليهم، وبهم تصلح البلاد وتخضع لهم العباد.

﴿وَلِيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وحكما فيهم. وقد فعله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وله الحمد والمنة. فإنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها، وأخذ الجزية من مجوس هجر ومن بعض أطراف الشام، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر وإسكندرية وهو المقوقس وملوك عمان والنجاشي ملك الحبشة الذي تملك بعد أصحمة رَحِمَهُ اللهُ وأكرمه.

ثم لما مات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، واختار الله ما عنده من الكرامة، قام بالأمر بعده خليفته أبو بكر الصديق، فلمْ شعث ما وهى بعد موته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأطد جزيرة العرب ومهداها وبعث جيوش الإسلام إلى بلاد فارس، صحبة خالد بن الوليد<sup>(١)</sup> رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، ففتحوا طرفا منها، وقتلوا خلقا من أهلها، وجيشا آخر صحبة أبي عبيدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومن اتبعه من الأمراء إلى أرض الشام، وثالثا صحبة

(١) خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن محزوم القرشي المخزومي سيف الله أبو سليمان. كان أحد أشرف قريش في الجاهلية وكان إليه أئنة الخيل في الجاهلية وشهد مع كفار قريش الحروب إلى عمرة الحديبية. لقبه الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسيف الله. لم يهزم في الجاهلية ولا في الإسلام. ولما حضرت خالدا الوفاة أوصى إلى عمر فتولى عمر وصيته. مات خالد بن الوليد بمدينة حمص سنة إحدى وعشرين وقيل توفي بالمدينة النبوية (الإصابة ٢/ ٢٥١-٢٥٥)



عمرو بن العاص<sup>(١)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بلاد مصر. ففتح الله للجيش الشامي في أيامه بصرى ودمشق ومخاليفهما من بلاد حوران وما والاها.

وتوفاه الله عَزَّوَجَلَّ. واختار له ما عنده من الكرامة، ومنّ على أهل الإسلام بأن ألهم الصديق أن يستخلف عمر الفاروق. فقام بالأمر بعده قياماً تاماً، لم يدر الفلك بعد الأنبياء على مثله في قوة سيرته وكمال عدله، وتم في أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس، وكسر كسرى وأهانته غاية الهوان وتقهقر إلى أقصى مملكته، وقصر قيصر، وانتزع يده عن بلاد الشام، وانحدر إلى القسطنطينية، وأنفق أموالهما في سبيل الله، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة.

ثم لما كانت الدولة العثمانية - يعني دولة عثمان بن عفان - امتدت الممالك الإسلامية إلى أقصى مشارق الأرض ومغاربها، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك؛ الأندلس وقبرص وبلاد القيروان وبلاد سبتة مما يلي البحر المحيط، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين، وقتل كسرى، وباد ملكه بالكلية، وفتحت مدائن العراق وخراسان والأهواز، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جداً، وخذل الله ملكهم الأعظم خاقان، وجبي الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن. ولهذا ثبت في الصحيح أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها وسيبلغ ملك أمتي ما زوي

(١) عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم بن سعيد بالتصغير بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي القرشي السهمي أمير مصر يكنى أبا عبد الله. أسلم قبل الفتح في صفر سنة ثمان وقيل بين الحديبية وخيبر. مات سنة ثلاث وأربعين على الصحيح (الإصابة ٤/ ٦٥٠-٦٥٣)



لي منها." فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله فنسأل الله الإيمان به وبرسوله والقيام بشكره على الوجه الذي يرضيه عنا.

عن جابر بن سمرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم إثنا عشر رجلا."

ثم تكلم النبي ﷺ بكلمة خفيت عني. فسألت أبي: ماذا قال رسول الله ﷺ؟

فقال: قال: "كلهم من قريش".<sup>(١)</sup>

وفي هذا الحديث دلالة على أنه لا بد من وجود اثني عشر خليفة عادل، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثني عشر، فإن كثيرا من أولئك لم يكن لهم من الأمر شيء، فأما هؤلاء فيكونون من قريش يلون فيعدلون. وقد وقعت البشارة بهم. ولا يشترط أن يكونوا متتابعين بل يكون وجودهم في الأمة متتابعا ومتفرقا. وقد وجد منهم أربعة على التوالي وهم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ. ثم كانت بعدهم فترة. ثم وجد منهم ما شاء الله. ثم قد يوجد منهم من بقي في الوقت الذي يعلمه الله تعالى، ومنهم المهدي الذي اسمه يطابق اسم رسول الله ﷺ وكنيته كنيته يملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت جورا وظلما.

وقال الربيع بن أنس عن أبي العالية في قوله ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥] الآية. قال: كان النبي ﷺ وأصحابه بمكة نحوًا من عشر سنين، يدعون إلى الله وحده وإلى عبادته

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٥٢ رقم ١٨٢١)



وحده لا شريك له سرا وهم خائفون، لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بعد بالهجرة إلى المدينة، فقدموها فأمرهم الله بالقتال فكانوا بها خائفين يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فغبروا بذلك ما شاء الله، ثم إن رجلا من الصحابة قال: يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه السلاح؟ فقال رسول الله ﷺ: لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملا العظيم محتبيا ليست فيه حديدة. وأنزل الله هذه الآية. فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح. ثم إن الله تعالى قبض نبيه ﷺ، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان، حتى وقعوا فيما وقعوا فيه فأدخل عليهم الخوف فاتخذوا الحجة طاعة بهم.

وقال بعض السلف: خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما حق في كتاب الله ثم قرأ هذه الآية.

وقال البراء بن عازب: نزلت هذه الآية ونحن في خوف شديد. وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [إلى قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وقوله تعالى: ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ كما قال تعالى عن موسى عليه السلام أنه قال لقومه: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٩] الآية. وقال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الفصل: ٥] الآيتين.

وقوله: ﴿وَلَيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ الآية، كما قال رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم. <sup>(١)</sup>



وعن أبي بن كعب قال قال رسول الله ﷺ: بشر هذه الأمة بالسنا والنصر والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب. (١) اهـ. (٢)

"لقد تحقق وعد الله مرة. وظل متحققا وواقعا ما قام المسلمون على شرط الله: يعبدونني لا يشركون بي شيئا.. لا من الآلهة ولا من الشهوات. ويؤمنون - من الإيمان - ويعملون صالحا. ووعد الله مذكور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة". (٣)

#### استمرار دعوة الخير وأنصاره

ومن الأخبار المبشرة في القرآن ما ذكره الله تعالى في سورة المائدة مهددا المرتدين المارقين من الدين، بأنهم لن يضرروا دين الله شيئا. ولن ينهدم الدين بارتدادهم عنه. فقد تكفل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنَّهُ يَدْخِرْ لِهَذَا الدِّينِ جَيْلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الْأَقْوِيَاءِ. قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: يقول تعالى مخبرا عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرته دينه وإقامة شريعته فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه وأشد منعة وأقوم سبيلا، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا

(١) أخرجه أحمد (١٣٤/٥ رقم ٢١٢٥٨) وابن حبان (١٣٢/٢ رقم ٤٠٥) والحاكم في المستدرک

(٤/٤٣٦ رقم ٧٨٨٢) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٣٠١-٣٠٣) مختصرا

(٣) في ظلال القرآن (٤/٢٥٢٩-٢٥٣٠)





﴿أَمَّا لَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿[ابراهيم: ١٩، ٢٠] أي بممتنع ولا صعب. (١)

### فتح القسطنطينية وروما

ومن المبشرات ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب، إذ سئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولاً أفسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: مدينة هرقل تفتح أولاً يعني قسطنطينية. (٢)

ورومية هي روما عاصمة إيطاليا الآن، والقسطنطينية هي إسطنبول الآن. ويفهم من السؤال أن الصحابة كانوا قد علموا قبل ذلك أن الإسلام سيفتح المدينتين، ويدخل أهلها في دين الله، ولكن يريدون أن يعرفوا: أي المدينتين تسبق الأخرى، فأجاب أن مدينة هرقل وهي القسطنطينية ستفتح أولاً. (٣)

### اتساع دولة الإسلام

ومن الأخبار المبشرة أيضاً ما رواه مسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض". (٤)

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٧٠)

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ١٧٦ رقم ٦٦٤٥) والحاكم (٤/ ٤٦٨ رقم ٨٣٠١، ٤/ ٥٥٣ رقم ٨٥٥٠، ٤/ ٥٩٨ رقم ٨٦٦٢) وصححه والطبراني في الأوسط (١/ ١٩٥ رقم ٦٢٣) وقال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٧/ ٣٤٩)

(٣) المبشرات بانتصار الإسلام ص ٣٣، د. يوسف القرضاوي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

(٤) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢١٥ رقم ٢٨٨٩)



"(زوى لي الأرض) قال الخطابي<sup>(١)</sup>: معناه قبضها وجمعها. يقال انزوى الشيء إذا انقبض وتجمع. (مشاركها) أي الأرض.

(ما زوي لي منها) أي من الأرض. قال الخطابي: يتوهم بعض الناس أن (من) ها هنا معناها التبعض، فيقول: كيف شرط هاهنا في أول الكلام الاستيعاب، ورد آخره إلى التبعض؟ وليس ذلك على ما يقدرونه. وإنما معناه التفصيل، والتفصيل لا يناقض الجملة، ولا يبطل شيئاً منها. لكنه يأتي عليها شيئاً فشيئاً ويستوفيها جزءاً جزءاً. والمعنى: أن الأرض زويت جملتها مرة واحدة فرآها، ثم يفتح له جزء جزء منها، حتى يأتي عليها كلها، فيكون هذا معنى التبعض فيها.

قال النووي: فيه إشارة إلى أن ملك هذه الأمة يكون معظم امتداده في جهتي المشرق والمغرب. وهكذا وقع. وأما في جهتي الجنوب والشمال فقليل بالنسبة إلى المشرق والمغرب. انتهى

(الأحمر والأبيض) أي الذهب والفضة. وفي النهاية: فالأحمر ملك الشام والأبيض ملك فارس. وإنما قال لفارس الأبيض لبياض ألوانهم، ولأن الغالب على أموالهم الفضة، كما أن الغالب على ألوان أهل الشام الحمرة، وعلى أموالهم الذهب. انتهى.

(١) الإمام العلامة المفيد المحدث الرحال أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي صاحب التصانيف وصنف شرح البخاري ومعالم السنن وغريب الحديث وشرح الأسماء الحسنى والعزلة وغير ذلك. وكان ثقة مثبته من أوعية العلم. مات ببست في ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة (طبقات الحفاظ ١/ ٤٠٤-٤٠٥)



قال: النووي المراد بالكنزين الذهب والفضة، والمراد كنز كسرى وقيصر، ملكي العراق والشام.<sup>(١)</sup>

وهذا الحديث يبشر باتساع دولة الإسلام حتى تشمل المشارق والمغارب، أي الأرض كلها. فهذا الحديث يبشر بقوة دولة الإسلام واتساعها بحيث تضم المشارق والمغارب التي رآها النبي ﷺ.<sup>(٢)</sup>

### الرخاء والأمن وفيض المال

ومن المبشرات أيضا ما رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً".<sup>(٣)</sup>

وكذلك ما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: لا تقوم الساعة حتى يكثُر فيكم المال فيفيض، حتى يهَمُّ رَبُّ الْمَالِ مِنْ يَقْبَلُ مِنْهُ صَدَقَتَهُ، وَحَتَّى يَعْرِضَهُ فَيَقُولَ الَّذِي يَعْرِضُهُ عَلَيْهِ: لَا أَرُبُّ لِي.<sup>(٤)</sup>

ومثله حديث حارثة بن وهب<sup>(٥)</sup> مرفوعاً: "تصدقوا فإنه يأتي عليكم زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقبلها، يقول الرجل: لو جئت بها بالأمس لقبلتها، فأما اليوم فلا حاجة لي بها".<sup>(٦)</sup>

(١) عون المعبود (٢١٧/١١)

(٢) المبشرات بانتصار الإسلام ص ٣٥

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة باب الترغيب في الصدقة (٧٠١/٢) وابن حبان (٩٣/١٥) وأحمد (٣٧٠/٢) رقم ٨٨١٩

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة باب الترغيب في الصدقة (٧٠١/٢) والبخاري باب الصدقة قبل الرد (٥١٢/٢) رقم ١٣٤٥

(٥) حارثة بن وهب الخزاعي أمه أم كلثوم بنت جرويل بن مالك الخزاعية (الإصابة ٦١٩/١)

(٦) أخرجه البخاري باب الصدقة قبل الرد (٥١٢/٢) رقم ١٣٤٥ ومسلم باب التغيب في الصدقة قبل أن لا يوجد من يقبلها (٧٠٠/٢) رقم ١٠١١



### عودة الخلافة على منهاج النبوة

ومن الأخبار المبشرة أيضا أن الخلافة الراشدة على منهاج النبوة ستعود بعد غياب طال قرونا.

عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ: "تكون النبوة ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها، ثم تكون ملكا عاضا فيكون ما شاء الله أن يكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكا جبريا فتكون ما شاء الله أن تكون ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة." (١)

### الانتصار على اليهود

ومن الأخبار المبشرة انتصار المسلمين على اليهود، فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم، ثم يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي ورائي فاقتله. (٢)

ومثله ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون، حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبد الله، هذا يهودي خلفي، فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود. (٣)

(١) أخرجه أحمد (٢٧٣/٤) والبخاري (٢٢٤/٧) والبيهقي: رواه أحمد في ترجمة

النعمان والبخاري (١٨٩/٥) (مجمع الزوائد ١٨٩/٥)

(٢) أخرجه البخاري (١٣١٦/٣) ومسلم (٣٣٩٨) ومسلم (٢٢٩٣/٤) رقم (٢٩٢١)

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٣٩/٤) رقم (٢٩٢٢)



### بقاء الطائفة المنصورة على الحق

ومن الأخبار المبشرة ما رواه عدد من الصحابة أن الطائفة المنصورة ستبقى إلى يوم القيامة وهم ظاهرون على الحق.

عن المغيرة بن شعبة<sup>(١)</sup> عن النبي ﷺ قال: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون.<sup>(٢)</sup>

عن معاوية بن أبي سفيان قال: سمعت النبي ﷺ يقول: من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم ويعطي الله، ولن يزال أمر هذه الأمة مستقيما حتى تقوم الساعة، أو حتى يأتي أمر الله.<sup>(٣)</sup>

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر من أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم.

فبينما هم على ذلك أقبل عقبة بن عامر<sup>(٤)</sup> فقال له مسلمة: يا عقبة، اسمع ما يقول عبد الله.

(١) المغيرة بن شعبة بن أبي عامر بن مسعود بن معقب بن مالك بن كعب بن عمرو بن سعد بن عوف بن قيس الثقفي أبو عيسى أو أبو محمد. أسلم قبل عمرة الحديبية وشهدها وبيعة الرضوان وله فيها ذكر. قال ابن سعد كان يقال له مغيرة الرأي وشهد اليمامة وفتح الشام والعراق وقال الشعبي كان من دهاة العرب. فلما قتل عثمان اعتزل القتال إلى أن حضر مع الحكمين ثم بايع معاوية بعد أن اجتمع الناس عليه ثم ولاه بعد ذلك الكوفة فاستمر على إمرتها حتى مات سنة خمسين عند الأكثر (الإصابة ٦/ ١٩٧-١٩٨)

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٦٦٧ رقم ٧٨٨١) ومسلم (٣/ ١٥٢٣ رقم ١٩٢٢، ١٩٢١) بلفظ: "لن يزال قوم من أمتي"

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٦٦٧ رقم ٦٨٨٢) ومسلم (٣/ ١٥٢٤ رقم ١٠٣٧) واللفظ للبخاري.

(٤) عقبة بن عامر الجهني من أصحاب الصفة كان عقبة بن عامر يقول خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما ونحن في الصفة فقال أيكم يحب أن يغدو إلى بطحان وتوفي بمصر (حلية الأولياء ٨/ ٢)



فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك.

فقال عبد الله: أجل، ثم يبعث الله ريحا كريح المسك، مسها مس الحرير، فلا تترك نفسا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة.<sup>(١)</sup>

قال ابن حجر: قال النووي: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب وفقه ومحدث ومفسر وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزاهد وعابد ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد وأن يكونوا في بعض منه دون بعض، ويجوز إخلاء الأرض كلها من بعضهم أولا فأولا إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله. ونظيره ما نبه عليه ما حمل عليه بعض الأئمة حديث أن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط.<sup>(٢)</sup>

وعن أبي أمامة قال قال رسول الله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي على الدين ظاهرين لعدوهم قاهرين لا يضرهم من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء حتى

(١) أخرجه مسلم (٣/١٥٢٤ رقم ١٩٢٤)

(٢) فتح الباري (١٣/٢٩٥) بتصرف



يأتيهم أمر الله وهم كذلك. قالوا: يا رسول الله وأين هم قال: بيت المقدس وأكناف بيت المقدس.<sup>(١)</sup>

### ظهور المجديين في كل قرن

ومن المبشرات أن الله يبعث لهذه الأمة في كل قرن من يجدد لها دينها.  
عن أبي هريرة فيما أعلم عن رسول الله ﷺ قال: "إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها."<sup>(٢)</sup>

قال ابن حجر: حديث أنه لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة -أي الطائفة المنصورة- وهو متجه، فإن المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير. ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعى ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه قام بالأمر على رأس المائة الأولى باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثم أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه. وأما من جاء بعده كالشافعي وإن كان متصفا بالصفات الجميلة إلا أنه لم يقم بأمر الجهاد والحكم بالعدل. فعلى هذا كل من كان متصفا بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد سواء تعدد أم لا."<sup>(٣)</sup>

(١) أخرجه أحمد (٢٦٩/٥ رقم ٢٢٣٧٤) قال الهيثمي: رواه عبدالله -أي ابن أحمد بن حنبل- وجادة عن خط أبيه والطبراني ورجاله ثقات (مجمع الزوائد ٧/٢٨٨)

(٢) أخرجه أبو داود (١٠٩/٤ رقم ٤٢٩١) والحاكم (٥٦٨/٤ رقم ٨٥٩٣) والطبراني في الأوسط (٣٢٤/٦ رقم ٦٥٢٧) وقال العجلوني: رواه أبو داود عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ وأخرجه الطبراني في الأوسط عنه أيضا بسند رجاله ثقات وأخرجه الحاكم من حديث ابن وهب وصححه وقد اعتمد الأئمة هذا الحديث (كشف الخفا ١/٢٨٢).

(٣) فتح الباري (٢٩٥/١٣)



"وقال المناوي في مقدمة فيض القدير - كما نقله صاحب عون المعبود - واختلف في رأس المائة هل يعتبر من المولد النبوي أو البعثة أو الهجرة أو الوفاة ولو قيل بأقربية الثاني لم يبعد، لكن صنيع السبكي وغيره مصرح بأن المراد الثالث. انتهى. (من يجدد) مفعول (يبعث لها) أي لهذه الأمة دينها أي يبين السنة من البدعة ويكثر العلم وينصر أهله ويكسر أهل البدعة ويدلهم. قالوا: ولا يكون إلا عالما بالعلوم الدينية الظاهرة والباطنة. قاله المناوي في فيض القدير.

وقال العلقمي<sup>(١)</sup> في شرحه: معنى التجديد إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب لسنة والأمر بمقتضاها.

قال الحافظ ابن حجر في توالي التأسيس: قال أبو بكر البزار<sup>(٢)</sup>: سمعت عبد الملك ابن عبد الحميد الميموني<sup>(٣)</sup> يقول: كنت عند أحمد بن حنبل فجرى ذكر الشافعي فرأيت أحمد يرفعه، وقال: روي عن النبي يقول: إن الله تعالى يقيض في رأس كل مائة سنة من يعلم الناس دينهم. قال: فكان عمر بن عبد العزيز في رأس المائة الأولى وأرجو أن يكون الشافعي على رأس المائة الأخرى. "اهـ"<sup>(٤)</sup>

(١) الشيخ شمس الدين محمد بن العلقمي الشافعي المتوفى سنة ٩٢٩ له الكوكب المنير شرح فيض القدير (كشف الظنون ١/ ٥٦٠)

(٢) الحافظ العلامة الشهير أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البصري صاحب المسند الكبير رحل في آخر عمره إلى أصبهان والشام بنشر علمه مات بالرملة سنة اثنتين وتسعين ومائتين (طبقات الحفاظ ١/ ٢٨٩)

(٣) أبو الحسن عبد الملك بن عبد الحميد الميموني الجزري صاحب الإمام أحمد روى عنه وعن أبيه عبد الحميد وجماعة وعنه النسائي ووثقه أبو حاتم وآخرون مات سنة أربع وسبعين ومائتين (طبقات الحفاظ ١/ ٢٦٧)

(٤) عون المعبود (١١/ ٢٦٠) مختصرا





### نزول المسيح عيسى ابن مريم

ومن المبشرات التي أخبر بها الرسول ﷺ نزول عيسى عليه الصلاة والسلام. فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ وَيَقْتُلَ الْخَزِيرَ وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ وَيَفِيضَ الْمَالَ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ".<sup>(١)</sup>

عن جابر بن عبد الله يقول سمعت النبي ﷺ يقول: "لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. قال: فينزل عيسى بن مريم ﷺ فيقول أميرهم: تعال صل لنا. فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة".<sup>(٢)</sup>

### علاقة هذه المبشرات بالسنن الإلهية

إن هذه الأخبار التي تبشر بالخير والصلاح الدنيوي ينبغي أن تفهم على ضوء سنن الله التي لا تتبدل ولا تتحول.

إن انتشار هذا الدين واعتناق الناس له يجلب رحمة الله، وبالتالي فإن الله يفتح لهم بركات من السماء والأرض، فيفيض المال ويسود الأمن والرخاء. وصلاح الناس وإنصافهم لحقوق الآخرين يترتب عليه ظهور حاكم عادل، فليس بإمكان أي حاكم مهما أوتي من قوة وعلم وصلاح أن يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ما ملئت ظلماً وجوراً إلا إذا كان معه أناس أصحاب نفوذ وعدد يعينونه على نشر العدل ومحاربة الظلم.

(١) أخرجه البخاري (٧٧٤/٢)، رقم ٢١٠٩، ٨٧٥ / ٢، رقم ٢٣٤٤) ومسلم (١٣٥ / ١) رقم ١٥٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٣٧ / ١)



ولا يجب أيضا أن نتصور حدوث هذه الأخبار المبشرة على شكل خوارق دائما. فإن الأصل في الانتصار أن يتحقق على أكتاف رجال يحملون عبء هذا الدين ويجاهدون من أجله.

ولا يجوز كذلك أن نتوقع دائما أن النصر سيكون خالصا بدون شوائب في كل الأحوال، فقد يأتي نصر الله ويكون الحرب سجالا مرة الدائرة للمسلمين ومرة عليهم، أو قد تشوب الانتصار آثار الذنوب وبقايا الفتن تتلطح بها أيادي بعض المسلمين، كما حدث لبني إسرائيل وكما وقع للمسلمين بعد القرون المفضلة. وكما سنرى عند الكلام في الأخبار المحذرة من الفتن لاحقا.

وسنة التداول تعمل في تاريخ الأمة ومستقبلها فإنها جزء من الابتلاء الذي خلقت الدنيا من أجله، فلذلك حذر الرسول ﷺ من الفتن ومن تبدل الخير بالشر. فهي حكمة من الله عز وجل ليختبر عباده فيجازي المحسنين ويعاقب المسيئين أو يعفو عنهم.

## ٢- أخبار محذرة

إن الرسول ﷺ أخبر عن وقوع الفتن والبلايا التي ستصيب المسلمين ليس لغرض تئيسهم وإقناطهم من رحمة الله. كلا! وألف كلا! إن الفتنة والابتلاء سنة ثابتة في حياة الناس أفرادا وجماعات. فإخبار الرسول ﷺ بالفتن ليس أكثر من تحذير أمته من شرورها وتحاشي الوقوع فيها.

إن نظام الحياة للإنسان مبني على المخاطرة. والفرص والتحديات كلاهما قائم. وخيارات الخير والشر مفتوحة للإنسان. وهكذا يكون الاختبار. والإسلام لم ينزل إلا لهداية الناس، والرسول ﷺ لم يرسل إلا رحمة للعالمين. والرب واحد، ورحمته وسعت كل شيء. فالرحيم في عهد الرسول والصحابة هو



الرحيم في كل زمان ومكان. وستته تعالى ثابتة لا تتغير. ففوق المصيبة في كل زمان ومكان بسبب الذنوب وخلاصها يكون بالتوبة. والعقوبة لكل عاص، والنجاة لكل تائب. وشدة البلاء لأولياء الله في كل زمان ومكان، وطريق النجاة هو اللجوء إلى الله والتمسك بحبل الله تعالى. والرب واحد. والرحمة صفة ثابتة له سبحانه، فهو الرحيم في القرون المفضلة، وهو الرحيم في العصور المتأخرة. وعلى هذا الفهم نتناول أحاديث الفتن وأشراط الساعة.

#### وقوع الفتن كمواقع القطر

من هذه الأخبار ما روي عن أسامة أن النبي ﷺ أشرف على أطم من أطام المدينة، ثم قال: "هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر".<sup>(١)</sup>

قال النووي: "(الأطم) بضم الهمزة والطاء هو القصر والحصن، وجمعه أطام. ومعنى (أشرف) علا وارتفع. والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم، أي أنها كثيرة، وتعم الناس، لا تختص بها طائفة".<sup>(٢)</sup>

إن هذا توطئة نفسية وضعها الرسول ﷺ للصحابة رضوان الله عليهم حتى يتهيؤوا نفسياً لما سيلقون من الاختبار الصعب.

(١) أخرجه البخاري (٢/٦٦٤، رقم ١٧٧٩، ٢/٨٧١، رقم ٢٣٣٥، ٣/١٣١٧٣٤٠٢) ومسلم (٤/٢٢١١، رقم ٢٨٨٥) كلاهما عن أسامة بن زيد وروى البخاري عن أم سلمة (٦/٢٥٨٩، رقم ٦٦٥١) في كتاب الفتن بلفظ: كوقع القطر.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/٧-٨)



"وهذا إشارة الى الحروب الجارية بينهم، كوقعة الجمل وصفين والحرّة ومقتل عثمان ومقتل الحسين رضى الله عنهما وغير ذلك. وفيه معجزة ظاهرة له صلى الله عليه وسلم".<sup>(١)</sup>

وقال ابن حجر: "إنما اختصت المدينة بذلك لأن قتل عثمان رضى الله عنه كان بها، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك. فالقتال بالجمل وبصفين كان بسبب قتل عثمان. والقتال بالنهروان كان بسبب التحكيم بصفين. وكل قتال وقع في ذلك العصر إنما تولد عن شيء من ذلك، أو عن شيء تولد عنه. ثم إن قتل عثمان كان أشد أسبابه الطعن على أمراءه ثم عليه بتوليته لهم. وأول ما نشأ ذلك من العراق وهي من جهة المشرق. فلا منافاة بين حديث الباب وبين الحديث الآتي "إن الفتنة من قبل المشرق". وحسن التشبيه بالمطر لإرادة التعميم. لأنه إذا وقع في أرض معينة عمها، ولو في بعض جهاتها.

قال ابن بطال<sup>(٢)</sup>: أئذّر النبي صلى الله عليه وسلم في حديث زينب بقرب قيام الساعة كي يتوبوا قبل أن تهجم عليهم.

وقد ثبت أن خروج يأجوج ومأجوج قرب قيام الساعة. فإذا فتح من ردمهم ذاك القدر في زمنه صلى الله عليه وسلم لم يزل الفتح يتسع على مر الأوقات. وقد جاء في حديث أبي هريرة رفعه: "ويل للعرب من شر قد اقترب، موتوا إن استطعتم".<sup>(٣)</sup> قال: وهذا غاية في التحذير من الفتن والخوض فيها، حيث جعل الموت خيرا من مباشرتها.

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/٧-٨)

(٢) شارح الصحيح أبو الحسن علي بن خلف بن بطلال القرطبي توفي في صفر سنة ٤٤٩ هـ (سير أعلام النبلاء ١٨/٦٣، شذرات الذهب ٢/٢٨٣)

(٣) أخرجه الحاكم (٤/٤٨٦ رقم ٨٣٥٧)



وأخبر في حديث أسامة بوقوع الفتن خلال البيوت ليتأهبوا لها، فلا يخوضوا فيها. ويسألوا الله الصبر والنجاة من شرها. <sup>(١)</sup>

### وقوع الهلاك إذا كثر الخبث

ومن الأخبار التي تحذر الأمة من المخاطر ما أخبر به النبي ﷺ من الهلاك العام إذا عم الفساد.

عن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزَعَا، يَقُولُ: "لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَبِاللَّهِ الْعِزَّةِ، مِنْ شَرِّ قَدِ اقْتَرَبَ، فَتَحَ الْيَوْمَ مِنْ رَدَمٍ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مِثْلَ هَذِهِ." وَحَلَقَ بِأَصْبَعِهِ الْإِبْهَامَ وَالَّتِي تَلِيهَا. قَالَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنْهَلَكَ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: "نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الْخَبْثُ". <sup>(٢)</sup>

والمراد بالخبث هو المعاصي عموماً كما رجحه الإمام النووي. <sup>(٣)</sup> "ومعنى الحديث: أن الخبث إذا كثر فقد يحصل الهلاك العام، وإن كان هناك صالحون." <sup>(٤)</sup> ويأجوج ومأجوج قوم من بني آدم من ذرية يافث بن نوح كما رجحه كثير من العلماء وقيل هم من الترك وقيل من الديلم. وقيل إنهم لم يولدوا من آدم وحواء وهو أبعد الأقوال وأضعفها. إذ كل الناس تفنى غير ما حملهم الله على سفينة نوح، فلم يبق على وجه الأرض من البشر إلا نوح وأتباعه. والله أعلم. <sup>(٥)</sup>

(١) فتح الباري (١٣/١٢-١٣)

(٢) أخرجه البخاري (٣/١٢٢١ رقم ٣١٦٨، ٣/١٣١٧ رقم ٣٤٠٣، ٦/٢٦٨٩ رقم ٦٦٥٠، ٦/٢٦٠٩ رقم ٦٧١٦) ومسلم (٤/٢٢٠٧ رقم ٢٨٨٠)

(٣) انظر شرح النووي (١٨/٢-٤)

(٤) المصدر السابق

(٥) فتح الباري (١٣/١٠٦)



"وقوله (ويل للعرب من شر قد اقترب) خص العرب بذلك لأنهم كانوا حينئذ معظم من أسلم. والمراد بالشر: ما وقع بعده من قتل عثمان، ثم توالى الفتن حتى صارت العرب بين الأمم كالقصعة بين الأكلة. كما وقع في الحديث الآخر: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة على قصعتها." وإن المخاطب بذلك العرب. قال القرطبي: ويحتمل أن يكون المراد بالشر ما أشار إليه في حديث أم سلمة: "ماذا أنزل الليلة من الفتن؟! وماذا أنزل من الخزائن؟! فأشار بذلك إلى الفتوح التي حصلت بعده، فكثرت الأموال في أيديهم، فوقع التنافس الذي جر الفتن. وكذلك التنافس على الإمرة، فإن معظم ما أنكروه على عثمان تولية أقاربه من بني أمية وغيرهم، حتى أفضى ذلك إلى قتله، وترتب على قتله من القتال بين المسلمين ما اشتهر واستمر.

قوله (فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج) المراد بالردم: السد الذي بناه ذو القرنين.

قوله (مثل هذا وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها) أي جعلهما مثل الحلقة. قوله: (وفينا الصالحون) كأنها أخذت ذلك من قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٣] قوله (قال: نعم إذا كثر الخبث) بفتح المعجمة والموحدة ثم مثناة، فسروه بالزنا وبأولاد الزنا، وبالفسوق والفجور وهو أولى لأنه قابله بالصالح. <sup>(١)</sup>

ويشهد لما تقدم حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إذا أنزل الله بقوم عذابا، أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بعثوا على أعمالهم." <sup>(٢)</sup>

(١) فتح الباري (١٠٦/١٣-١٠٩) مختصرا

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٠٢/٦) رقم ٦٦٩١ ومسلم (٢٢٠٦/٤) رقم ٢٨٧٩



قال ابن حجر: "الذي يناسب كلامه الأخير-أي كلام ابن بطل أن سبب إهلاك الجميع هو ظهور المنكر والإعلان بالمعاصي- حديث أبي بكر الصديق سمع رسول الله ﷺ يقول: "إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب."<sup>(١)</sup>

وهذا هو الحكم في الدنيا، أما في الآخرة فكل يبعث على عمله الخاص. ويشهد لذلك حديث عائشة مرفوعا إلى النبي ﷺ: "أن ناسا من أمتي يؤمنون هذا البيت، حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم. فقلنا: يا رسول الله إن الطريق قد تجمع الناس.

قال: نعم، فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل، يهلكون مهلكا واحدا، ويصدرون مصادر شتى، يبعثهم الله على نياتهم."<sup>(٢)</sup>

ومثل ذلك حديث أم سلمة ولفظه: فقلت: يا رسول الله فكيف بمن كان كارها؟ قال: يخسف به معهم ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته."<sup>(٣)</sup>

قال ابن حجر: وجنح ابن أبي جمرة إلى أن الذين يقع لهم ذلك إنما يقع بسبب سكوتهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وأما من أمر ونهى فهم المؤمنون حقا لا يرسل الله عليهم العذاب، بل يدفع بهم العذاب."<sup>(٤)</sup> ويؤيده قوله تعالى:

(١) أخرجه ابن حبان (١/٥٤٠ رقم ٣٠٥) أبو داود (٤/١٢٢ رقم ٤٣٣٨) والترمذي (٤/٤٦٧ رقم ٢١٦٨) والنسائي في الكبرى (٦/٣٣٨ رقم ١١٥٧) وابن ماجه (٢/١٣٢٧ رقم ٤٠٠٥) وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٢١٠ رقم ٢٨٨٤)

(٣) أخرجه مسلم (٤/٢٢٠٨ رقم ٢٨٨٢)

(٤) راجع الكلام عن سنة ربط صلاح الجماعة بصلاح الأفراد.



﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩] وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].  
ويدل على تعميم العذاب لمن لم ينه عن المنكر وإن لم يتعاطاه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [النساء: ١٤٠].<sup>(١)</sup>

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "ويستفاد من هذا مشروعية الهرب من الكفار ومن الظلمة، لأن الإقامة معهم من إلقاء النفس إلى التهلكة. هذا إذا لم يُعْنِهِمْ ولم يرض بأفعالهم. فإن أعان أو رضي فهو منهم، ويؤيده أمره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالإسراع في الخروج من أرض ثمود." <sup>(٢)</sup>

ويشير الحديث إلى مبدأ المسؤولية الجماعية في الدنيا والمسؤولية الفردية في الآخرة. قال ابن حجر: وأما بعثهم على أعمالهم فحكم عدل لأن أعمالهم الصالحة إنما يجازون بها في الآخرة. وأما في الدنيا فمهما أصابهم من بلاء كان تكفيرا لما قدموه من عمل سيء فكان العذاب في الدنيا على الذي ظلموا يتناول من كان معهم ولم ينكر عليهم، فكان ذلك جزاء لهم على مداونتهم. ثم يوم القيامة يبعث كل منهم فيجازى بعمله. <sup>(٣)</sup>

فيه الحث على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قال ابن حجر: "وفي الحديث تحذير وتخويف عظيم لمن سكت عن النهي. فكيف بمن داهن؟ فكيف بمن رضي؟ فكيف بمن عاون؟ نسأل الله السلامة." <sup>(٤)</sup>

(١) فتح الباري (١٣/ ٦١)

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق





### فتنة إبليس وجنوده

ومن الأخبار الظريفة لكنها في غاية الأهمية ما حكاه الرسول ﷺ عن صنع إبليس وتنظيمه لجنوده في إغواء الناس.

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه. فآدناهم منه منزلة أعظمهم فتنة.

يجيء أحدهم فيقول: فعلت كذا وكذا.

فيقول: ما صنعت شيئا.

قال ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقت بينه وبين امرأته.

قال فيدنيه منه ويقول: نعم أنت. قال فيلتزمه.<sup>(١)</sup>

قال المناوي: "إن إبليس يضع عرشه يحتمل أن يكون سريرا حقيقة، يضعه ﴿عَلَى الْمَاءِ﴾ ويجلس عليه ويحتمل كونه تمثيلا لتفرغه وشدة عتوه ونفوذ أمره بين سراياه وجيوشه، وأيا ما كان فيظهر أن استعمال هذه العبارة الهائلة وهي قوله ﴿عَرْشُهُ﴾ تهكما وسخرية فإنها استعملت في الجبار الذي لا يغالب ﴿وَكَاثَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]. والقصد أن إبليس مسكنه البحر.

(ثم يبعث سراياه) جمع سرية وهي القطعة من الجيش. (فآدناهم منه) أي أقربهم (منزلة) وهو مبتدأ (أعظمهم فتنة) خبره (يجيء أحدهم) بيان لمن هو أدنى منه ولمن هو أبعد (فيقول فعلت كذا وكذا) أي وسوست بنحو قتل أو سرقة أو شرب (فيقول له: ما صنعت شيئا) استخفافا بفعله.

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٦٧ رقم ٢٨١٣)



(ويجيء أحدهم فيقول له ما تركته) يعني الرجل (حتى فرقت بينه وبين أهله) أي زوجته. (فيدنيه منه) أي يقربه منه ويقول مادحا شاكرا له: (نعم أنت). إن هذا تهويل عظيم في ذم التفريق، حيث كان أعظم مقاصد اللعين، لما فيه من انقطاع النسل المستدركة بني آدم، توقع وقوع الزنا الذي هو أعظم الكبائر فسادا وأكثرها معرة. كيف وقد استعظمه في التنزيل بقوله: ﴿فَتَعَلَّمَوْتُ مِنْهُمَا مَا يَفْرِقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]<sup>(١)</sup>.

في هذا الحديث بين الرسول ﷺ كيف جند إبليس جنوده ووجههم لإغواء الناس ثم حاسبهم على أداء مهماتهم. ويفهم من هذا الحديث شكل من التنظيم في هذا الشر، فأهل الخير أولى بتنظيم أعمالهم للخير منهم.

### فتن كقطع الليل المظلم

ومن الأحاديث المهمة في شأن الفتن ما أمر به الرسول ﷺ من المبادرة بالأعمال الصالحة قبل وقوع الفتن الصعبة حيث إن الرجل يبذل دينه بين عشية وضحاها مقابل ثمن بخس من أعراض الدنيا.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا."<sup>(٢)</sup>

والحديث حث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم

(١) فيض القدير (٢/ ٤٠٨-٤٠٩) مختصرا

(٢) أخرجه مسلم (١/ ١١٠ رقم ١١٨)



لا المقمر. ووصف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نوعاً من شدائد تلك الفتن وهو أنه يمسي مؤمناً ثم يصبح كافراً، أو عكسه شك الراوى، وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان فى اليوم الواحد هذا الانقلاب.<sup>(١)</sup>

إن وصف الفتن بكونها مثل قطع من الليل يدل دلالة قوية على شدة الظلمة والالتباس والحيرة فى تلك الظروف الصعبة.

قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "كَقَطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلَمِ) أى كل فتنة كقطعة من الليل المظلم، فى شدتها وظلمتها وعدم تبين أمرها. قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: يريد بذلك التباسها وفضاعتها وشيوعها واستمرارها فيها أى فى تلك الفتن.<sup>(٢)</sup>

إنه من صعوبة المسألة وشدة التباسها وقوة التجاذب فيها ظل الإنسان فيها يتقلب بين الكفر والإيمان بسهولة.

قال ابن حجر: "الظاهر أن المراد بالإصباح والإمساء تقلب الناس فيها وقت دون وقت لا بخصوص الزمانين. فكأنه كناية عن تردد أحوالهم وتذبذب أقوالهم وتنوع أفعالهم، من عهد ونقض وأمانة وخيانة ومعروف ومنكر وسنة وبدعة وإيمان وكفر."<sup>(٣)</sup>

فأمام هذه الحقيقة المستقبلية يجب على الإنسان أن يستغل الفرصة المتاحة قبل وقوع تلك الفتن التى صعب فيها العمل الصالح، فيبادر الإنسان بالأعمال حتى لا يصاب بالحسرة من جراء فوات الفرصة.

(١) شرح النووي (١٣٣/٢) بتصرف يسير.

(٢) عون المعبود (٢٢٦/١١) (٢٢٧-٢٢٦)

(٣) عون المعبود (٢٢٦/١١) (٢٢٧-٢٢٦)



قال المباركفوري: فمعنى بادروا تعجلوا بالأعمال الصالحة قبل مجيء الفتن المظلمة من القتل والنهب والاختلاف بين المسلمين في أمر فإنكم لا تطيقون الأعمال على وجه الكمال فيها.<sup>(١)</sup>

إنها فتن مظلمة محيرة ولكن الله لم يترك الناس بدون نور يهتدي به في الظلمات. قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]

فليس هذه الفتن مغلقة بدون مخرج. بل قد بين الرسول ﷺ أن التمسك بكتاب الله يخرج الإنسان من هذه الظلمات الحالكة.

روي عن علي رضي الله عنه قال: أما إني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: ألا إنها ستكون فتنة.

فقلت: ما المخرج منها يا رسول الله؟

قال: كتاب الله، فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾ [الجن: ١، ٢] من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.<sup>(٢)</sup>

(١) تحفة الأحوذى (٦/ ٣٦٤)

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ١٧٢ رقم ٢٩٠٦) والدارمي (٢/ ٥٢٦ رقم ٣٣٣١) والبخاري (٣/ ٧٢ رقم



وعن معاذ بن جبل قال: ذكر رسول الله ﷺ يوماً الفتن فعظمهما وشدهما.

فقال علي بن أبي طالب: يا رسول الله فما المخرج منها؟

فقال: كتاب الله، فيه حديث ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وفصل ما بينكم، من تركه من جبار قصمه الله، ومن تتبع الهدى في غيره أضله الله، هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم، هو الذي لما سمعته الجن قالت: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ هو الذي لا تختلف به الألسن، ولا تخلقه كثرة الرد.<sup>(١)</sup>

والتمسك بكتاب الله هو التمسك أيضاً، فإن القرآن يقول: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. ويقول: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

وعن المقدم بن معديكرب<sup>(٢)</sup> عن رسول الله ﷺ أنه قال: "ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه."<sup>(٣)</sup>

قال صاحب عون المعبود: "أوتيت الكتاب أي القرآن ومثله معه،" أي الوحي المتلو أو تأويل الوحي الظاهر وبيانه بتعميم وتخصيص وزيادة ونقص أو أحكاماً ومواعظ وأمثالا، تماثل القرآن في وجوب العمل أو في المقدار.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٠/ ٨٤ رقم ١٦٠)

(٢) المقدم بن معديكرب الكندي ويكنى أبا يحيى توفي بالشام سنة سبع وثمانين في خلافة عبد الملك بن مروان وهو بن إحدى وتسعين سنة (الطبقات الكبرى ٧/ ٤١٥)

(٣) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٠٠ رقم ٤٦٠٤) وأحمد (٤/ ١٣٠) قال ابن حجر: حسنه الترمذي، وصححه الحاكم والبيهقي (لسان الميزان ٣/ ١)



قال البيهقي: هذا الحديث يحتمل وجهين (أحدهما) أنه أوتي من الوحي المتلو مثل ما أوتي من الظاهر المتلو (والثاني) أن معناه أنه أوتي الكتاب وحيا يتلى وأوتي مثله من البيان، أي أذن له أن يبين ما في الكتاب، فيعم ويخص، وأن يزيد عليه، فيشرع ما ليس في الكتاب له ذكر، فيكون ذلك في وجوب الحكم ولزوم العمل به كالظاهر المتلو من القرآن.

وقوله: (رجل شبعان) هو كناية عن البلادة وسوء الفهم الناشئ عن الشبع، أو عن الحماقة اللازمة للتنعم والغرور بالمال والجاه.

وقوله: (على أريكته) أي سريره المزين بالحلل والأثواب. وأراد بهذه الصفة أصحاب الترفه والدعة الذين لزموا البيوت، ولم يطلبوا العلم من مظانه، فأحلوه أي اعتقدوه حلالا، فحرموه أي اعتقدوه حراما. "اه<sup>(١)</sup>

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكن بهما كتاب الله وسنة نبيه".<sup>(٢)</sup>

"...فإنهما الأصلان اللذان لا عدول عنهما، ولا هدي إلا منهما، والعصمة والنجاة لمن تمسك بهما، واعتصم بحبلهما، وهما العرفان الواضح، والبرهان اللائح، بين المحق إذا اقتفاهما، والمبطل إذا تخلى عنهما، فوجوب الرجوع إليهما معلوم من الدين ضرورة، لكن القرآن يحصل العلم القطعي يقينا، وفي السنة تفصيل معروف".<sup>(٣)</sup>

(١) عون المعبود (٣٢١/١٢) مختصرا

(٢) أخرجه الإمام مالك (٢/٨٩٩ رقم ١٥٩٤) الحاكم (١/١٢٧ رقم ٣١٩) قال ابن عبد البر: وهذا أيضا محفوظ معروف مشهور عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند أهل العلم شهرة يكاد يستغني بها عن الإسناد. (التمهيد ٢٤/٣٣١)

(٣) شرح الزرقاني (٤/٣٠٧-٣٠٨)



يستفاد هذا الحديث: الحث على العمل قبل حدوث الفتن، وصعوبة تلك الفتن بحيث لم يتبين وجه الحق فيها، وأن الاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ سبيل النجاة عند كل الملمات.

### عرض الفتن على القلوب

ومن تحذير الرسول ﷺ من الفتن أنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ صور كيف أثرت الفتن على قلوب الناس حتى خرج الناس منها وقد انقسموا قسمين. قسم ناج سالم من شرها وأصبح لهم مناعة، وقسم هالك مطموس البصائر كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها.

قال حذيفة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "تعرض<sup>(١)</sup> الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا"<sup>(٢)</sup>، فأى قلب أشربها<sup>(٣)</sup> نكت فيه نكتة<sup>(٤)</sup> سوداء، وأى قلب أنكرها<sup>(٥)</sup> نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين؛ على أبيض مثل الصفا<sup>(٦)</sup>

- (١) ومعنى تعرض: أنها تلصق بعرض القلوب، أي جانبها، كما يلصق الحصير بجنب النائم، ويؤثر فيه شدة التصاقها به. (شرح النووي ١٧١/٢)
- (٢) ومعنى (عودا عودا) أى تعاد وتكرر شيئا بعد شيء. وقال الأستاذ أبو عبد الله بن سليمان: معناه تظهر على القلوب أى تظهر لها فتنة بعد أخرى (شرح النووي ١٧١٩/٢)
- (٣) معنى أشربها دخلت فيه دخولا تاما، وألزمها وحلت منه محل الشراب. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣] أى حب العجل. ومنه قولهم: ثوب مشرب بحمرة أى خالطته الحمرة مخالطة لا انفكاك لها (شرح النووي ١٧١/٢)
- (٤) ومعنى (نكت نكتة): نقط نقطة. وهى بالتاء المثناة فى آخره. قال ابن دريد وغيره: كل نقطة فى شيء بخلاف لونه فهو نكت (شرح النووي ١٧٢/٢)
- (٥) ومعنى (أنكرها) ردها (شرح النووي ١٧٢/٢)
- (٦) قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: ليس تشبيهه بالصفاء بيانا لبياضه لكن صفة أخرى لشدة على عقد الإيمان وسلامته من الخل، وأن الفتن لم تلصق به ولم تؤثر فيه، كالصفاء وهو الحجر الأملس الذى لا يعلق به شيء (شرح النووي ١٧٢/٢)



فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا<sup>(١)</sup> كالكوز مجخيا<sup>(٢)</sup> لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه.<sup>(٣)</sup>

والفتنة - كما دل عليه معناه اللغوي - هي الاختبار وهو كذلك في الواقع. فإن الفتنة تفرق بين الناجح فيها والفاشل في عراك الحياة.

(١) وأما قوله (مربادًا) فكذا هو في روايتنا وأصول بلادنا وهو نصب على الحال. وذكر القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ خلافاً في ضبطه وأن منهم من ضبطه كما ذكرناه، ومنهم من رواه مربد بهمزة مكسورة بعد الباء. قال القاضي: وهذه رواية أكثر شيوخنا، وأصله أن لا يهزم ويكون مربد مثل مسود ومحمر. وكذا ذكره أبو عبيد والهروي وصححه بعض شيوخنا عن أبي مروان بن سراج، لأنه من اربد إلا على لغة من قال احمار بهمزة بعد الميم لالتقاء الساكنين، فيقال ارباد ومربد، والدال مشددة على القولين. قال: أرى إن صوابه شبه البياض في سواد، وذلك أن شدة البياض في سواد لا يسمى ربة، وإنما يقال لها: بلق، إذا كان في الجسم، وهورا إذا كان في العين، والربة إنما هو شيء من بياض يسير كلون أكثر النعام، ومنه قيل: للنعام رباء، فصوابه شبه البياض، لا شدة البياض. قال أبو عبيد عن أبي عمرو وغيره: الربة لون بين السواد والغبرة. وقال ابن دريد: الربة لون أكدر. وقال غيره: هي أن يختلط السواد بكدره. وقال الحربي: لون النعام بعضه أسود وبعضه أبيض. ومنه اربد لونه إذا تغير ودخله سواد. وقال نفطويه: المربد الملمع بسواد وبياض. ومنه تربد لونه أي تلون. والله أعلم. (شرح النووي ١٧٢/٢ - ١٧٤)

(٢) وأما قوله (مَجْخِيًا) فهو بميم مضمومة ثم جيم مفتوحة ثم خاء معجمة مكسورة معناه مائلًا. كذا قاله الهروي وغيره. وفسره الراوي في الكتاب بقوله (منكوسا)، وهو قريب من معنى المائل. قال القاضي عياض: قال لي ابن سراج: ليس قوله كالكوز مجخيا تشبيها لما تقدم من سواده، بل هو وصف آخر من أوصافه بأنه قلب نكس حتى لا يعلق به خير ولا حكمة. ومثله بالكوز المجخي. وبينه بقوله (لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرا). قال القاضي رَحِمَهُ اللهُ: شبه القلب الذي لا يعي خيرا بالكوز المنحرف الذي لا يثبت الماء فيه. وقال صاحب التحرير: معنى الحديث أن الرجل إذا تبع هواه وارتكب المعاصي دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة، وإذا صار كذلك افتتن وزال عنه نور الإسلام. والقلب مثل الكوز فاذا انكب انصب ما فيه، ولم يدخله شيء بعد ذلك (شرح النووي ١٧٣/٢)

(٣) أخرجه مسلم (١/١٢٨ رقم ١٤٤)





قال النووي: "قال أهل اللغة أصل الفتنة فى كلام العرب الابتلاء والامتحان والاختبار. قال القاضى: ثم صارت فى عرف الكلام لكل أمر كشفه الاختبار عن سوء. قال أبو زيد: فتن الرجل يفتن فتونا إذا وقع فى الفتنة وتحول من حال حسنة إلى سيئة." (١)

"ويجيء كلام النبي ﷺ يبين أمثال الله تعالى التي ضربها للناس، ويوضح أنها مسألة استعداد فى بعض القلوب لقبول الافتتان. فمن الناس من جعل الله فيه فطرة صالحة تنكر الفتن، ومنهم من يأبى بعض الهداية فيضله الله. فمن أباهـ أى أبى الفتنـ ابتداء: أباهـ انتهاء، ومن رحب بها ابتداء: طبعت فى قلبه سوادا يظل يتسع حتى يتم اسوداده مع نهايتها." (٢)

يستفاد من الحديث أن المقصد من الفتن هو امتحان القلوب واختبارها حتى يتميز القلب الطيب من القلب الخبيث، وأن الفتن تتكرر على القلوب حتى تنطبع عليها، وأن القلوب التي تنكر الفتنة تسلم وإذا ثبتت واستمرت على الطريق المستقيم لم تضرها الفتنة إلى يوم القيامة، وأن القلوب التي تستجيب للهوى دائما لا تعرف معروفًا ولا تنكر منكرا. وهي التي تقع وتضل عند الفتن.

### باب يسد الفتن

ومن الأخبار المحذرة أن النبي ﷺ أخبر بحصول الفتن المائجة كموج البحر بعد وفاة الفاروق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأنه كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سدا منيعا أمام أمواج الفتن المتلاطمة.

(١) شرح النووي (٢/ ١٧١)

(٢) العوائق، محمد أحمد الراشد، ص ٣١، مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م



عن حذيفة قال: بينا نحن جلوس عند عمر إذ قال: أيكم يحفظ قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الفتنة؟

قال: فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره تكفرها الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال: ليس عن هذا أسألك، ولكن التي تموج كموج البحر.

قال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابا مغلقا.

قال عمر: أيكسر الباب أم يفتح؟

قال: لا، بل يكسر.

قال عمر: إذا، لا يغلق أبدا.

قلت: أجل.

قلنا لحذيفة: أكان عمر يعلم الباب؟

قال: نعم، كما يعلم أن دون غد الليلة، وذلك أني حدثته حديثا ليس بالأغاليط.

فهبنا أن نسأله من الباب؟ فأمرنا مسروقا فسأله فقال: من الباب؟

قال: عمر.<sup>(١)</sup>

قال ابن حجر: والمراد بالفتنة أي التي في الأهل والمال والولد والجار: ما يعرض للإنسان من غفلة مع من ذكر من البشر أو الالتئام بهم، أو أن يأتي لأجلهم بما لا يحل له، أو يخل بما يجب عليه.<sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه البخاري (٢/٥٢٠ رقم ١٣٦٨، ٣/١٣١٤ رقم ٣٣٩٣، ٦/٢٢٩٩ رقم ٦٦٨٣) ومسلم

(٤/٢٢١٨ رقم ١٤٤) واللفظ للبخاري.

(٢) فتح الباري (٦/٦٠٥)



وقال الزبن بن المنير: الفتنة بالأهل تقع بالميل إليهن أو عليهن في القسمة والإيثار، حتى في أولادهن، ومن جهة التفريط في الحقوق الواجبة لهن، وبالمال يقع الاشتغال به عن العبادة، أو بحبسه عن إخراج حق الله. والفتنة بالأولاد تقع بالميل الطبيعي إلى الولد، وإيثاره على كل أحد. والفتنة بالجار تقع بالحسد والمفاخرة والمزاحمة في الحقوق وإهمال التعاقد. وهي لا تنحصر في تلك المذكورات.<sup>(١)</sup>

والضابط أن كل ما يشغل صاحبه عن الله فهو فتنة.<sup>(٢)</sup>

واستشكل كيف يكون الوقوع في المحرمات والإخلال بالواجب يكفر بتلك الأمور المذكورة مع أن الطاعات لا تسقط ولا تقضى بتلك الأمور؟ لم يناسب إطلاق التكفير إن حمل على الوقوع في المكروه والإخلال بالمستحب.

والجواب: أن المراد الوقوع في المحرمات والإخلال بالواجبات، وأن الممتنع من تكفير الحرام والواجب ما كان كبيرة فهي التي فيها النزاع. وأما الصغائر فلا نزاع أنها تكفر. لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١] الآية. وقد مضى شيء من البحث في هذا في كتاب الصلاة.<sup>(٣)</sup>

وفي التنصيص أن الصلاة والصدقة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تكفر السيئات دلالة على عظم قدر تلك الأمور من حيث إن قدرها أعظم من قدر السيئات.

(١) المصدر السابق

(٢) انظر فتح الباري (٦/٦٠٦)

(٣) انظر فتح الباري (٦/٦٠٥-٦٠٧)



والتكفير يكون بنفس الفعل لتلك الأمور ويحتمل أيضا بأن يكون زيادة وزن تلك الأمور ترجح حتى يغلب على السيئات المرتكبة. والأول أظهر. والله أعلم.<sup>(١)</sup>

والمكفرات لا تختص بما ذكر بل نبه به على ما عداها. فذكر من عبادة الأفعال الصلاة والصيام، ومن عبادة المال الصدقة، ومن عبادة الأقوال الأمر بالمعروف.

أما الفتن التي تموج كموج البحر فهي ليست تلك التي تصيب على مستوى الأفراد. بل هي التي تعصف بالأمة الإسلامية فتضربها وتضطرب بها كالبحر عند هيجانه. وهذه هي التي تهتم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تشغل باله. فسأل عن ذلك.

ولكن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنسان من طراز متميز. وكانت مميزاته الشخصية وقوته وشدته في الحق وقفت حاجزا دون تلك الفتن العارمة. فطمأنه حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: (إن بينك وبينها بابا مغلقا) أي لا يخرج منها شيء في حياتك. وكأنه مثل الفتن بدار ومثل حياة عمر بباب لها مغلق. ومثل موته بفتح ذلك الباب. فما دامت حياة عمر قائمة فهي الباب المغلق لا يخرج مما هو داخل تلك الدار شيء. فإذا مات فقد انفتح ذلك الباب. فخرج ما في تلك الدار.

قال ابن بطال: "إنما عدل حذيفة حين سأله عمر عن الإخبار بالفتنة الكبرى إلى الإخبار بالفتنة الخاصة، لئلا يغم ويشغل باله. ومن ثم قال له: إن بينك وبينها بابا مغلقا. ولم يقل له أنت الباب، وهو يعلم أنه الباب، فعرض له بما فهمه ولم يصرح. وذلك من حسن أدبه."<sup>(٢)</sup>

(١) انظر فتح الباري (٦/٦٠٦)

(٢) فتح الباري (١٣/٥٠)



وقال النووي: "يحتمل أن يكون حذيفة علم أن عمر يقتل، ولكنه كره أن يخاطبه بالقتل، لأن عمر كان يعلم أنه الباب. فأتى بعبارة يحصل بها المقصود بغير التصريح بالقتل."<sup>(١)</sup>

لذلك سأل عمر يفتح الباب أو يكسر؟ فأجاب: لا بل يكسر. فقال: ذلك أخرى أن لا يغلق.

قال ابن بطل: إنما قال ذلك لأن العادة أن الغلق إنما يقع في الصحيح، فأما إذا انكسر فلا يتصور غلقه حتى يجبر.

ويحتمل أن يكون كنى عن الموت بالفتح وعن القتل بالكسر.<sup>(٢)</sup> ولكن رواية أخرى تدل على ما رجحان دلالة القتل أو الموت وليس الفتح قدمته فإن فيها (وحدثه أن ذلك الباب رجل يقتل أو يموت)<sup>(٣)</sup>. وإنما قال عمر ذلك اعتماداً على ما عنده من النصوص الصريحة في وقوع الفتن في هذه الأمة ووقوع البأس بينهم إلى يوم القيامة.<sup>(٤)</sup>

وقول عمر أنه إذا كسر لم يغلق، أخذه من جهة أن الكسر لا يكون إلا غلبة والغلبة لا تقع إلا في الفتنة. وعلم من الخبر النبوي أن بأس الأمة بينهم وأن الهرج لا يزال إلى يوم القيامة، كما وقع في حديث شداد رفعه: "إذا وضع السيف في أمتي لم يرفع عنها إلى يوم القيامة"<sup>(٥)</sup>.<sup>(٦)</sup>

(١) شرح النووي (١٧٥/٢)

(٢) فتح الباري (٦٠٥-٦٠٧/٦)

(٣) أخرجه مسلم (١٢٩/١) رقم (١٤٤)

(٤) فتح الباري (٦٠٥-٦٠٧/٦)

(٥) أخرجه ابن حبان (٢٢١/١٦) رقم (٧٢٣٨) وأحمد (٥/٢٨٤) رقم (٢٢٥٠٥) وأبو داود (٩٧/٤)

رقم (٤٢٥٢) والترمذي (٤/٤٩٠) رقم (٢٢٠٢) والحاكم (٤/٤٩٦) رقم (٨٣٩٠)

(٦) فتح الباري (١٣/٥٠) بتصرف يسير.



وقد كان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعلم ذلك كعلمه أن دون غد الليلة -أي علمه علما ضروريا مثل هذا<sup>(١)</sup> وأن ليلة غد أقرب إلى اليوم من غد<sup>(٢)</sup> -: أنه هو الباب -كما قال ابن بطلال- لأنه كان مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على حراء وأبو بكر وعثمان فرجف فقال: أثبت فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان.<sup>(٣)</sup> أو فهم ذلك من قول حذيفة "بل يكسر" انتهى.

والذي يظهر أن عمر علم الباب بالنص. فعمل حذيفة حضر ذلك. وهو الذي قال: أنا أعلم الناس بكل فتنة هي كائنة فيما بيني وبين الساعة. وفيه أنه سمع ذلك معه من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جماعة ماتوا قبله.<sup>(٤)</sup>

نستفيد من الحديث: حرص الصحابة على التعرف على الفتن اتقاء شرها، وأن العبادة مثل الصلاة والزكاة والصيام تكفر سيئات الفتن الصغيرة. وهي أحداث طبيعية، وحدوث الفتن المزلزلة بعد زوال شخص حازم قوي وهو عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ويمكن أن يستفاد من سيرة الفاروق ومن آراءه وأقواله فقه منع الفتن.

#### مضاعفة الأجر خمسين مرة أيام الفتن

ومن الأخبار التي تحذر الأمة من الفتن القادمة ما أخبر به الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ستكون أيام صعبة ليس لها إلا أن يصبر فيها الإنسان. ومن عدل الله ورحمته أن الله يجازي الصابرين فيها بخمسة أضعاف جزاء الصابرين في أيام عادية. فهذا تحذير وتبشير في نفس الوقت.

(١) فتح الباري (١٣/ ٥٠) بتصرف.

(٢) فتح الباري (٦/ ٦٠٧)

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ١٣٤٤ رقم ٣٤٧٢، ٣/ ١٣٥٣ رقم ٣٤٩٦)

(٤) فتح الباري (٦/ ٦٠٧)



عن أبي ثعلبة الخشني<sup>(١)</sup> رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَأَلْتُ عَنْهَا -أَي آيَةِ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥] - رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فَقَالَ: بَلِ اتَّمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنَاهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ، حَتَّى إِذَا رَأَيْتَ شَحَا مَطَاعًا، وَهُوَ مَتَبَعًا، وَدُنْيَا مُؤَثَّرَةً، وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ، فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ، وَدَعِ عَنْكَ الْعَوَامَ، فَإِنَّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الصَّبْرُ فِيهِ مِثْلُ قَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ، لِلْعَامِلِ فِيهِمْ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلًا، يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِهِ،

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْهُمْ؟

قَالَ: أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ.<sup>(٢)</sup>

لَقَدْ سَأَلَ أَبُو ثَعْلَبَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ مَعْنَى تِلْكَ الْآيَةِ الْمَذْكُورَةِ الَّتِي قَدْ تَفْهَمُ فَهَمَّا خَطَأً أَنَّهَا تَزْهِيدٌ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مَعَ الْآيَةِ فَقَطْ تَحَدَّثَتْ عَنِ الْحَثِّ عَلَى أَنْ يَهْتَمَّ كُلُّ إِنْسَانٍ بِنَفْسِهِ وَعَدَمِ التَّضَرُّرِ ضَلَالِ النَّاسِ إِذَا كَانَ الشَّخْصُ عَلَى هَدًى، وَلَمْ تَقُلْ الْآيَةُ: "لَا تَهْتَمُّوا إِلَّا بِأَنْفُسِكُمْ". فَسُوءُ الْفَهْمِ قَدْ يَحْرِفُ بِقَارِئِ هَذِهِ الْآيَةِ إِلَى أَنَّهَا تَعْنِي ذَلِكَ. لِذَلِكَ اسْتَدْرَكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: (بَلِ اتَّمَرُوا)

(١) أَبُو ثَعْلَبَةَ الْخَشَنِيُّ صَحَابِيٌّ مَشْهُورٌ مَعْرُوفٌ بِكُنْيَتِهِ وَاسْتَخْلَفَ فِي اسْمِهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا وَكَذَا فِي اسْمِ أَبِيهِ فَقِيلَ جَرَّهُمْ بَضْمُ الْجِيمِ وَالْهَاءُ بَيْنَهُمَا رَاءٌ سَاكِنَةٌ وَقِيلَ جَرَّثُمُ مِثْلُهُ لَكِنْ بَدَلَ الْهَاءِ مِثْلَتَهُ وَقِيلَ جَرَّهُومُ كَالْأَوَّلِ لَكِنْ بَزِيَادَةً وَاقِيلَ جَرَّثُومُ كَالثَّانِي بَزِيَادَةً وَاقِيلَ جَرَّثُومَةُ. قَدَّمَ أَبُو ثَعْلَبَةَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ يَتَجَهَّزُ إِلَى خَيْبَرَ فَأَسْلَمَ وَخَرَجَ مَعَهُ فَشَهِدَهَا ثُمَّ قَدَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ سَبْعَةَ نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ فَأَسْلَمُوا وَنَزَلُوا عَلَيْهِ. وَعَاشَ بَعْدَ النَّبِيِّ وَلَمْ يُقَاتِلْ بِصَفِينٍ مَعَ أَحَدِ الْفَرِيقَيْنِ وَمَاتَ فِي أَوَّلِ خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ (الإصابة ٧/ ٥٧)

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ (٢/ ١٠٨-١٠٩ رَقْم ٣٨٥) أَبُو دَاوُدَ (٤/ ١٢٣ رَقْم ٤٣٤١) وَابْنُ مَاجَةَ (٢/ ١٣٣٠ رَقْم ٤٠١٤) وَالتِّرْمِذِيُّ (٥/ ٢٥٧ رَقْم ٣٠٥٨) وَحُسَيْنُ (٧/ ١٢٧ رَقْم ٩٧٣١) وَالحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ (٤/ ٣٥٨ رَقْم ٣٩١٢) قَالَ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يَخْرُجْاهُ.



أي امثلوا بالمعروف أي ومنه الأمر بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، أي انتهوا واجتنبوا عنه، ومنه الامتناع عن نهيه. أو الائتمار بمعنى (التأمر) بمعنى المشاركة في الأمر كالاختصاص بمعنى التخاصم، ويؤيده لفظ التناهي بعده. والمعنى ليأمر بعضكم بعضا بالمعروف وتنه طائفة منكم طائفة عن المنكر.

ومعنى (شحا مطاعا) أي بخلا مطاعا بأن أطاعته نفسك وطاوعه غيرك. وفي النهاية: هو أشد البخل. وقيل: البخل مع الحرص. وقيل: البخل في أفراد الأمور وآحادها، والشح عام. وقيل: البخل بالمال والشح بالمال والمعروف.<sup>(١)</sup>

وقوله (وهوى متبعا) بصيغة المفعول، أي وهوى للنفس متبوعا، وعن طريق الهدى مدفوعا.

وقوله (ودنيا مؤثرة) أي مختارة على أمور الدين أو يؤثرها الإنسان على غيره من إخوانه المسلمين. فليس هناك العطاء المتبادل بينهم بل التنافس على أعراض الدنيا التناحر من أجلها يكون الظاهرة السائدة.

وقوله (وإعجاب كل ذي رأي برأيه) أي بدون نظر إلى الكتاب والسنة وإجماع الأمة وترك الاقتداء بالصحابة والتابعين. والإعجاب بكسر الهمزة هو وجدان الشيء حسنا، ورؤيته مستحسنا، بحيث يصير صاحبه به معجبا، وعن قبول كلام الغير مجنبا، وإن كان قبيحا في نفس الأمر. ففي هذه الحالة زيادة على الشح واتباع الهوى والأثرة بالدنيا يبقى من الصعب بل من المستحيل أن تنفع فيها النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إذ كل الناس يتبع هواه ويتحكم فيه الشح والظن بالنفس، وكل الناس يؤثر بالدنيا على الآخرة ويستأثر بها عن غيره فلا





يعطي ولا يبذل ابتغاء وجه الله ومع ذلك كل إنسان يرى أنه رأيه هو الصواب الذي لا صواب بعده. فهذه أحوال سيئة يتعذر فيها الإصلاح.

وفي هذه الحالة الصعبة يأمر النبي ﷺ أن يعتني المؤمن بنفسه لا بيبالي بما عليه الناس من الفساد فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كما في رواية ابن حبان: (فعلبك نفسك ودع أمر العوام) أي واترك عامة الناس الخارجين عن طريق الخواص المهتدين بهداية الإسلام. (فإن من ورائكم أي خلفكم أيام الصبر) أي أياما لا طريق لكم فيها إلا الصبر، أو أياما يحمد فيها الصبر.

و(الصبر فيه مثل قبض على الجمر) يعني يلحقه المشقة بالصبر كمشقة الصابر على قبض الجمر بيده.

(للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلا يعملون مثل عمله) بمعنى أن أجر العمل في هذه الأيام الصعبة خمسون ضعف العمل في غيره من الأيام العادية.

وهذا التفضيل للأجر ليس مطلقا وقد جاء عن الرسول ﷺ في تفضيل الصحابة قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه."<sup>(١)</sup> ولأن الصحابي أفضل من غيره وقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنهم خير الناس مطلقا.

"وقد تكلم ابن عبد البر في هذه المسألة وقال يمكن أن يجيء بعد الصحابة من هو في درجة بعض منهم أو أفضل وما اختاره العلماء خلافه.

وقال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: ليس هذا على إطلاقه، بل هو مبني على قاعدتين (إحدهما) أن الأعمال تشرف بشمراتها (والثانية) أن الغريب في آخر

(١) أخرجه البخاري (٣/١٣٤٣ رقم ٣٤٧٠) ومسلم (٤/١٩٦٧ رقم ٢٥٤٠)



الإسلام كالغريب في أوله وبالعكس، لقوله عَلَيْهِ السَّلَامُ: "بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ فطوبى للغرباء من أمتي"<sup>(١)</sup>، يريد المنفردين عن أهل زمانهم."<sup>(٢)</sup>

إذا تقرر ذلك فنقول: الإنفاق في أول الإسلام أفضل، لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه" أي مد الحنطة. والسبب فيه أن تلك النفقة أثمرت في فتح الإسلام وإعلاء كلمة الله ما لا يثمر غيرها.

وكذلك الجهاد بالنفوس لا يصل المتأخرون فيه إلى فضل المتقدمين لقلة عدد المتقدمين وقلة أنصارهم. فكان جهادهم أفضل. ولأن بذل النفس مع النصره ورجاء الحياة ليس كبذلها مع عدمها. ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر."<sup>(٣)</sup> جعله أفضل الجهاد ليأسه من حياته.

وأما النهي عن المنكر بين ظهور المسلمين وإظهار شعائر الإسلام فإن ذلك شاق على المتأخرين لعدم المعين وكثرة المنكر فيهم. كالمنكر على السلطان الجائر. ولذلك قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يكون القابض كالقابض على الجمر). لا يستطيع دوام ذلك لمزيد المشقة. فكذلك المتأخر في حفظ دينه. وأما المتقدمون فليسوا كذلك لكثرة المعين وعدم المنكر. فعلى هذا ينزل الحديث."<sup>(٤)</sup>

(١) أخرجه مسلم (١/ ١٣٠ رقم ١٤٥) بدون "من أمتي"

(٢) تحفة الأحوذى (٨/ ٣٣٧-٣٣٨) بتصرف يسير

(٣) أخرجه النسائي في المجتبى (٧/ ١٦١ رقم ٤٢٠٩) وابن ماجه (٢/ ١٣٣٠ رقم ٤٠١٢) والحاكم (٤/ ٥٥١ رقم ٨٥٤٣)

(٤) عون المعبود (١١/ ٣٣٢-٣٣٣) وذكره أيضا المباركفوري في تحفة الأحوذى (٨/ ٣٣٧-



ويتلخص مما تقدم أن للمتأخرين أفضلية نسبية من حيث عظم الأجر وقلة الأعوان على الخير مع كثرة المنكرات. فالصبر في هذه الظروف أصعب والأجر فيها أعظم. إلا أن الأفضلية المطلقة تبقى للسابقين الأولين من الصحابة المهاجرين والأنصار. فإن الرسول ﷺ أطلق الخيرية لهم. عن عبد الله قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس خير؟ قال: "قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" (١).

ولكن لا يفهم منه أن الخير في هبوط دائم بعد القرون المفضلة كما يفهمه كثير من الناس. ويدل على ذلك حديث حذيفة الآتي ذكره بعد قليل، وظهور المجددين في كل مائة سنة، وظهور المهدي ونزول المسيح. وأعظم من كل ذلك ما تبين سابقا في السنن الإلهية أن الحق يغلب الباطل دائما وأن الباطل في أصله زهوق زائل.

### دورة التاريخ

ومن الأخبار التي تحذر المسلمين إخبار الرسول ﷺ أن المسلمين ستجري عليهم سنة ثابتة وقانون مطرد لكل الأمم وأنهم سيتبعونهم في مسيرتهم. وذلك تنبيه من ألا ينساق المسلم مع التيار الغالب والظاهرة السائدة. بل عليه أن يتمسك بالهدي الأصيل الذي جاء به النبي ﷺ.

وفي ذلك حديثان، الحديث الأول:

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: لتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع، حتى لو دخلوا في جحر ضب لاتبعتموهم.

قلنا: يا رسول الله آلهود والنصارى؟

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٥٢٢٤ رقم ٦٣١٧)



قال: فمن؟<sup>(١)</sup>

قال النووي: "السَّنَن: بفتح السين والنون وهو الطريق. والمراد بالشبر والذراع وجحر الضب التمثيل بشدة الموافقة لهم.

والمراد الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر. وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فقد وقع ما أخبر به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ." <sup>(٢)</sup>

قال ابن حجر: "قوله (ضب) بفتح المعجمة وتشديد الموحدة: دوية معروفة. يقال: خصت بالذكر لأن الضب يقال له قاضي البهائم، والذي يظهر أن التخصيص إنما وقع لجحر الضب لشدة ضيقه ورداءته، ومع ذلك فإنهم لاقتنائهم آثارهم وأتباعهم طرائقهم لو دخلوا في مثل هذا الضيق الرديء لتبعوهم.

قوله: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فمن؟ هو استفهام إنكاري. أي ليس المراد غيرهم." <sup>(٣)</sup>

### والحديث الثاني:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها، شبرا بشبر، وذراعا بذراع،

فقليل: يا رسول الله، كفارس والروم؟

(١) أخرجه البخاري (١٢٧٤/٣) رقم ٣٢٦٩، ٢٦٦٩/٦ رقم ٦٨٨٩ ومسلم (٤/٢٠٥٤) رقم ٢٦٦٩

(٢) شرح النووي (٢١٩/١٦-٢٢٠)

(٣) فتح الباري (٦/٤٩٨)



فقال: ومن الناس إلا أولئك؟<sup>(١)</sup>

وقال ابن حجر: قوله (القرون) جمع قرن، بفتح القاف وسكون الراء: الأمة من الناس.

قوله: (كفارس والروم؟) يعني الأمتين المشهورتين في ذلك الوقت. وهم الفرس في ملكهم كسرى، والروم في ملكهم قيصر.

قوله (ومن الناس إلا أولئك؟) أي فارس والروم، لكونهم كانوا إذ ذاك أكبر ملوك الأرض وأكثرهم رعية وأوسعهم بلادا.<sup>(٢)</sup>

وقال: وقد أخرج الطبراني من حديث المستورد بن شداد<sup>(٣)</sup> رفعه "لا تترك هذه الأمة شيئاً من سنن الأولين حتى تأتيه".<sup>(٤)</sup>

ووقع في حديث عبد الله بن عمرو عند الشافعي بسند صحيح: "لتركن سنة من كان قبلكم حلوها ومرها".<sup>(٥)</sup>

وقال الكرمانى<sup>(٦)</sup>: حديث أبي هريرة مغاير لحديث أبي سعيد لأن الأول بفارس والروم والثاني باليهود والنصارى. ولكن الروم نصارى وقد كان في الفرس يهود.

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٦٦٩ رقم ٦٨٨٨) وأحمد (٢/ ٣٢٥ رقم ٨٢٩١، ٢/ ٣٣٦ رقم ٨٤١٤، ٢/ ٣٦٧ رقم ٨٧٩١) وأبو يعلى في مسنده (١١/ ٨٢ رقم ٦٢٩٢) واللفظ للبخاري.

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٠٠-٣٠١) مختصراً

(٣) المستورد بن شداد بن عمرو بن حسل بن الأحب بن حبيب بن عمرو بن سفيان بن محارب بن فهر القرشي الفهري المكي نزبل الكوفة له وأبيه صحبة. توفي بالإسكندرية سنة خمس وأربعين من الهجرة (الإصابة ٦/ ٩٠)

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (١/ ١٠١ رقم ٣١٣) قال الهيثمي: رجاله ثقات (مجمع الزوائد ٧/ ٢٦١)

(٥) وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٤٧٩ رقم ٣٧٣٧٧)

(٦) العلامة شمس الدين محمد بن يوسف بن علي الكرمانى المتوفى سنة ٧٨٦ =



أو ذكر ذلك على سبيل المثال، لأنه قال في السؤال كفارس والروم.<sup>(١)</sup>

والظاهر من الحديثين أنه ليس على سبيل المثال، لأن الرسول ﷺ قال في الحديث الأول: فمن؟ وفي الحديث الثاني: فمن الناس إلا أولئك؟ مما يدل على أنه يريد الحصر عليهم لا التمثيل بهم. والله أعلم.

قال ابن حجر بعد أن فند قول الكرمانى: "ويحتمل أن يكون الجواب يختلف بحسب المقام. فحيث قال فارس والروم كان هناك قرينة تتعلق بالحكم بين الناس وسياسة الرعية. وحيث قيل اليهود والنصارى كان هناك قرينة تتعلق بأمور الديانات أصولها وفروعها. ومن ثم كان في الجواب عن الأول "ومن الناس إلا أولئك" وأما الجواب في الثاني بالإبهام. فيؤيد الحمل المذكور وأنه كان هناك قرينة تتعلق بما ذكرت." <sup>(٢)</sup>

إنه القانون الثابت لكل الأمم التي منحها الله الرسالة الإلهية فأكرمهم الله بأنواع النعم فامتحنهم الله بها فهناك من يسلم من هذه الفتنة وهناك من يسقط، وكذلك من أكرمهم الله بالظهور وسيادة الناس فمنهم من استقام على طريق السداد ومنهم من انحرف عن سواء السبيل.

من ذلك وقوع الاختلاف في الدين، التقاتل على الدنيا، اتباع الهوى، ظهور البدع في الدين، كثرة المعاصي، إلخ. إلا أن هذه الأمة خصها الله بأن حفظ الله كتابه وقيض أناساً ظاهرين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم.

= له الكواكب الداراري شرح صحيح البخاري وهو شرح وسط مشهور بالقول جامع لفرائد الفوائد وزوائد الفرائد (كشف الظنون ١/ ٥٤٦)

(١) فتح الباري (١٣/ ٣٠١)

(٢) فتح الباري (١٣/ ٣٠١)



وعلى كل حال فإن سنة الله في الأمم واحدة، فينبغي الحذر من الوقوع فيما وقع فيه الأمم السابقة. فإن الحديث وإن كان يخبر بحدوث ذلك لا محالة، إلا أن السعيد من وعظ بغيره، والشقي لا يفيد الوعظ ولا المشاهدة ولا التجربة. نسأل الله التوفيق.

يستفاد من الحديثين أنه ليست الأمة الإسلامية بدعا من الأمم بحيث لا تجري عليها السنن كما جرت على الأمم السابقة. وأيضا ينبغي الحذر من الوقوع فيما وقع فيه اليهود والنصارى من الانحراف في الدين وما وقع فيه فارس والروم من الفساد والطغيان في الدنيا. وينبغي دراسة تاريخ الأمم والحضارات السابقة على هذا الضوء حتى نعرف كيف سقطت وبماذا نهضت، لأنها كلها تسير على سنة الله الثابتة.

### تعاقب الخير والشر

ومن الأخبار المنذرة بالفتن حديث حذيفة فقد أخبر الرسول ﷺ أن الخير والشر في هذه الدنيا في تعاقب مطرد وتداول مستمر.

عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني.

فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟

قال: نعم.

قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟

قال: نعم، وفيه دخن.



قلت: وما دخنه؟

قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر.

قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟

قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها.

قلت: يا رسول الله صفهم لنا.

قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.

قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟

قال: الزم جماعة المسلمين وإمامهم.

قلت: فان لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟

قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة، حتى يدركك الموت

وأنت على ذلك.<sup>(١)</sup>

لقد سأل حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من شدة حرص على التحرز وقوة تنبهه من الشر عن

مجئ الشر بعد الخير الذي كانوا عليه. كما أنهم كانوا على الشر الجاهلي قبل أن

جاء ذلك الخير الإسلامي.

فأجاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سيأتي شر بعد ذلك الخير العميم والسعد العظيم.

فإن الدنيا دار ابتلاء وليست مستقر النعماء.

(١) أخرجه البخاري (٣/١٣١٩ رقم ٤٣١١، ٦/٢٥٩٥ رقم ٦٦٧٣) ومسلم (٣/١٤٧٥ رقم





قال ابن حجر: "والمراد بالشر ما يقع من الفتن من بعد قتل عثمان وهلم جرا، أو ما يترتب على ذلك من عقوبات الآخرة." (١)

ثم أخبر الرسول ﷺ أن بعد ذلك الشر يأتي الخير فإن الحق باق ومنتصر، والباطل زائل ومنحدر. إلا أن هذا الخير الآتي يشوبه دخن ليبقى قدر من الابتلاء.

قال النووي فيما نقله عن أبي عبيد وغيره إن الدخن بفتح الدال المهملة والخاء المعجمة؛ أصله أن تكون في لون الدابة كدورة إلى سواد، قالوا: والمراد هنا أن لا تصفو القلوب بعضها لبعض، ولا يزول خبثها، ولا ترجع إلى ما كانت عليه من الصفاء. (٢)

وقال ابن حجر في معنى الدخن أنه هو الحقد. وقيل: الدغل. وقيل: فساد في القلب. ومعنى الثلاثة متقارب، يشير إلى أن الخير الذي يجيء بعد الشر لا يكون خيرا خالصا، بل فيه كدر. وقيل: المراد بالدخن الدخان، ويشير بذلك إلى كدر الحال. وقيل: الدخن كل أمر مكروه. وقال أبو عبيدة: يفسر المراد بهذا الحديث الحديث الآخر "لا ترجع قلوب قوم على ما كانت عليه." وأصله أن يكون في لون الدابة كدورة بالحق. المعنى أن قلوبهم لا يصفو بعضها لبعض. (٣)

قال القاضي: قيل المراد بالخير بعد الشر أيام عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. (٤)

(١) فتح الباري (٣٥ / ١٣)

(٢) شرح النووي (٢٣٦ / ١٢)

(٣) فتح الباري (٣٥ / ١٣)

(٤) شرح النووي (٢٣٨ / ١٢)



وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (قوم يهتدون بغير هديي) الهدى الهيئة والسيرة والطريقة، كأن هذا مظهر من مظاهر الدخن الذي يشوب ذلك الخير الآتي.

وقوله بعده (تعرف منهم وتنكر) أنهم هؤلاء القوم خلطوا المعروف بالمنكر، فتعرف منهم أمورا محمودة وتنكر فيهم أشياء مذمومة.

وجاء عن أم سلمة ثم زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: إنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع. قالوا: يا رسول الله ألا نقاتلهم؟ قال: لا ما صلوا.<sup>(١)</sup>

فذلك المنكر الحاصل لم يصل إلى مستوى يستدعي تغييره بقوة وعنف ورفع السيف.

ثم أخبر الرسول أن بعد ذلك الخير يأتي شر مرة أخرى. وهذا الشر يتمثل في ظهور أناس يدعون إلى المنكرات المؤدية إلى النار.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها)، قال العلماء: هؤلاء من كان من الأمراء يدعو إلى بدعة أو ضلال آخر كالخوارج والقرامطة وأصحاب الفتنة.<sup>(٢)</sup>

قال ابن حجر: قوله (على أبواب جهنم) أطلق عليهم ذلك باعتبار ما يؤول إليه حالهم كما يقال لمن أمر بفعل محرم: وقف على شفير جهنم.<sup>(٣)</sup>

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٨١ رقم ١٨٥٤)

(٢) شرح النووي (١٢/ ٢٣٦-٢٣٨)

(٣) فتح الباري (٣٦/ ١٣)



ثم وصفهم الرسول ﷺ هؤلاء القوم الدعاة على أبواب جهنم أنهم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا.

قال ابن حجر: قوله (هم من جلدتنا) أي من قومنا ومن أهل لساننا وملتنا. وفيه إشارة إلى أنهم من العرب. وقال الداودي<sup>(١)</sup>: أي من بني آدم. وقال القابسي<sup>(٢)</sup>: معناه أنهم في الظاهر على ملتنا وفي الباطن مخالفون. وجلدة الشيء ظاهره. وهي في الأصل غشاء البدن. قيل: ويؤيد إرادة العرب أن السمرة غالبية عليهم. واللون إنما يظهر في الجلد.<sup>(٣)</sup>

ثم أرشد الرسول ﷺ بالتمسك بالوحدة الإسلامية إن كان لهم كيان جامع وجماعة قائمة. وسأتكلم عن هذه النقطة فيما بعد بشيء من التفصيل بإذن الله.

وأرشد في الأخير كيف يتصرف المسلم إذا كان هو وحده ولم يجد جماعة المسلمين يلتزم بهم ولا إمام يقف معه، أن يتمسك بأصل الدين الحق حتى الموت. قال البيضاوي<sup>(٤)</sup>: المعنى إذا لم يكن في الأرض خليفة فعليك بالعزلة والصبر على تحمل شدة الزمان. وعض أصل الشجرة كناية عن مكابدة المشقة، كقولهم

(١) أبو جعفر أحمد بن سعيد الداودي وهو ممن ينقل عنه بن التين في شرحه للبخاري (كشف الظنون ٥٤٥/١)

(٢) أبو الحسن القابسي علي بن محمد بن خلف المعافري القيرواني الفقيه شيخ المالكية أخذ عن ابن مسرور الدباغ وفي الرحلة عن حمزة الكتاني وطائفة وصنف تصانيف فائقة في الأصول والفروع وكان مع تقدمه في العلوم حافظا صالحا تقيا ورعا حافظا للحديث وعلمه منقطع القرن وكان ضريرا توفي سنة ٤٠٣ هـ (شذرات الذهب ١٦٨/٢)

(٣) فتح الباري (٣٦/١٣)

(٤) القاضي ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي قاضي القضاة البيضاوي بفتح



فلان يعرض الحجارة من شدة الألم. أو المراد اللزوم، كقوله في الحديث الآخر: "وعضوا عليها بالنواجذ." ويؤيد الأول قوله في الحديث الآخر "فإن مت وأنت عاض على جذل خير لك من أن تتبع أحدا منهم."<sup>(١)</sup>

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: وفي حديث حذيفة هذا لزوم جماعة المسلمين وإمامهم ووجوب طاعته وإن فسق وعمل المعاصي من أخذ الأموال وغير ذلك فتجب طاعته معصية وفيه معجزات لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهي هذه الأمور التي أخبر بها.<sup>(٢)</sup>



وأما أمر الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلزوم الجماعة، فجاء في الرسالة للإمام الشافعي:

قال: فما معنى أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بلزوم جماعتهم؟

قلت: لا معنى له إلا واحد.

قال: فكيف لا يحتمل إلا واحدا؟

قلت: إذا كانت جماعتهم متفرقة في البلدان فلا يقدر أحد أن يلزم جماعة أبدان قوم متفرقين، وإن وجدت الأبدان تكون مجتمعة من المسلمين والكافرين والأتقياء والفجار، فلم يكن في لزوم الأبدان معنى لأنه لا يمكن، ولأن الأبدان لا يصنع شيئا، فلم يكن للزوم جماعتهم معنى إلا ما عليه جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما.<sup>(٣)</sup>

الباء إلى البيضاء من بلاد فارس الشافعي. قال السبكي كان إماما مبرزا نظارا خيرا صالحا متعبدا.

توفي بمدينة تبريز سنة إحدى وتسعين وستمائة (شذرات الذهب ٣/ ٣٩١)

(١) فتح الباري (١٣/ ٣٥-٣٧) مختصرا

(٢) شرح النووي (١٢/ ٢٣٦-٢٣٨)

(٣) الرسالة: ٤٧٥



قال الطبري: اختلف في هذا الأمر وفي الجماعة، فقال قوم: هو السواد الأعظم ثم ساق عن محمد بن سيرين عن أبي مسعود أنه وصى من سأل له لما قتل عثمان: "عليك بالجماعة، فإن الله لم يكن ليجمع أمة محمد على ضلالة." وقال قوم: المراد بالجماعة الصحابة دون من بعدهم. وقال قوم: المراد بهم أهل العلم لأن الله جعلهم حجة على الخلق، والناس تبع لهم في أمر الدين.<sup>(١)</sup>

وكل تلك الأقوال تتفق في أن المراد بالجماعة هي الإطار العلمي الاعتقادي الذي يجب أن تتفق عليه الأمة من مسائل قطعية ثابتة بالكتاب والسنة والإجماع واتباع ما كان عليه السلف الصالح من لزوم الحق واتباع السنة ومجانبة البدع والمحدثات. ويقابل الجماعة بهذا المعنى التفرق في الدين. والمخالفون لها هم الفرق الضالة وأهل الأهواء.

قال الطبري: والصواب أن المراد في الخبر لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة.<sup>(٢)</sup>

وهذا القول يعني أن الجماعة هي الإطار السياسي الذي يجب أن ينخرط فيه كل أفراد الأمة من خرج عنه فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه. والجماعة بهذا المعنى تقع في مقابلة البغي والتفرق في الراية، ويسمى المفارق لها باغيا وناكثا وإن كان من أهل السنة.

(١) فتح الباري (٣٧/١٣)

(٢) فتح الباري (٣٧/١٣)



يدل على المعنى الأول: أحاديث منها: حديث: "إن أهل الكتابين افترقوا في دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة يعني الأهواء كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة." (١)

ومما يدل على المعنى الثاني أحاديث منها: حديث: "من رأى من أميره شيئا يكرهه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات فميتة جاهلية." (٢)  
فيتلخص من النصوص وأقوال العلماء أن جميعها يؤول عند التحقيق إلى قولين يكمل الواحد منهما الآخر:

"الأول: أن الجماعة هي جماعة العلماء من أهل السنة أي الاجتماع على الحق الذي تمثله القرون الثلاثة الفاضلة، ويحمل لواءه في كل عصر الثقات العدول من أئمة أهل السنة، وهم يمثلون السواد العام من المسلمين، لأن العامة بالفطرة تبع لهم، وهي بذلك تقع في مقابلة أهل الأهواء والبدع.

الثاني: أن الجماعة هي الأمة في اجتماعها على الإمام ما دام في الجملة مقيما لأحكام الإسلام.

وهكذا تتفق دلالات النصوص، ومآلات أقوال أهل العلم في بيان المقصود بمعنى الجماعة وأنها تتضمن كلا المعنيين السابقين." (٣)

"وهذا يعني أن بناء على ما سبق من بيان المقصود بالجماعة - أن لزوم الجماعة يتضمن أمرين:

(١) أخرجه أحمد (١٠٢/٤) والحاكم (٢١٨/١) رقم (٤٤٣)

(٢) أخرجه مسلم (١٤٧٧/٣) رقم (١٨٤٩)

(٣) جماعة المسلمين: مفهومها وكيفية لزومها في واقعنا المعاصر، د. صلاح الصاوي ص ٢١، دار الصفوة، القاهرة، سنة ١٤١٢ هـ



الأول: الجانب العلمي والاعتقادي: ويعني ضرورة اتباعهم فيما كانوا عليه من الاعتقاد والتحليل والتحريم ونحو ذلك مما يؤول إلى هذا الجانب.

الثاني: الجانب السياسي ويعني اتباعهم فيما اتفقوا عليه من تقديم الإمام والطاعة له في غير معصية، وعدم الخروج عليه إلا بالكفر البواح.

والواجب على كل مسلم أن يستجيب لأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بلزوم الجماعة بكلا معنيها اللذان تمخضت عنهما أقوال أهل العلم (العلمي والسياسي أو الدعوة والدولة).<sup>(١)</sup>

"والأصل أن ينشأ الإطار السياسي للجماعة على أساس من إطارها العلمي التزاما به، وحماية له، ودعوة إليه. وهكذا كان الحال أيام الراشدين. فقد كانوا أعلام السنة وخلفاء الأمة.

وأما إذا اُفترق الإطاران وتجاوز الإطار السياسي للجماعة إطارها العلمي كما كان الحال أيام الإمام أحمد بن حنبل وشيخ الإسلام ابن تيمية نظر؛ فإن كان هذا التجاوز لم يبلغ بعد مبلغ الكفر أو انعدام الشرعية، فإن الواجب وفقا لما انتهى إليه جمهور المحققين من أهل السنة هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتزام الطاعة له في غير معصية. فيكون سبيل النجاة يومئذ هو السنة والجماعة."<sup>(٢)</sup>

وأما إذا بلغ التجاوز بالإطار السياسي مبلغ الكفر البواح أو انعدمت شرعية ولايته لأي سبب من الأسباب، فنحن أمام شغور الزمان عن السلطان، ومن ذلك انعقاد الولاية على أن تكون السيادة العليا أو التشريع المطلق لأحد من دون الله،

(١) المصدر نفسه ص ٢٣

(٢) المصدر نفسه ص ١٢٠



فإن هذا مما يبطل هذه الولاية، ويعدم وجودها من الناحية الشرعية، والمنعدم شرعا كالمنعدم حسا. ولا بدليل من ذلك إلا الاعتزال حتى الموت.

ويتحقق الانتساب إلى الجماعة في إطارها العلمي في هذه الحالة بما يلي:

أ- الالتزام المجمل بالإسلام، وذلك بالبقاء على الولاء للإسلام والرضا بشريعته وموالاته دعائه، وعدم استبدال المذاهب الوضعية به.

ب- عدم الالتزام المجمل بفرقة من الفرق الضالة أو بأصل كلي من أصولها الظاهرة، مع ما يقتضيه ذلك من الالتزام المجمل بمنهج أهل السنة وموالاته أصحابه وتبديع من خالفه.

ويتمثل الإطار السياسي للجماعة في حالة خلو الزمان من السلطان في أهل الحل والعقد الذين ينتظم بهم الأمر ويتبعهم سائر الناس، ويفزع إليهم في المهمات والمصالح العامة.

وأهل الحل والعقد هم أهل العلم وأهل القدرة، أو أهل الزعامة الدينية والدينية ممن تحقق لديهم الحد الأدنى من الانتساب إلى الجماعة في إطارها العلمي، من الالتزام المجمل بالإسلام وعدم الالتزام المجمل بفرقة من الفرق الضالة، ويشترط فيهم العدالة والكفاية والعلم بمقاصد الإمامة وشرائطها المعتمدة.<sup>(١)</sup>

والمقصود بالاعتزال في حديث حذيفة "اعتزل تلك الفرق كلها" هو اعتزال الفرق الضالة المشار إليها في الحديث "دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها." ولا يصح إطلاق الفرق على تجمعات العمل الإسلامي المعاصر. لأن الجماعة كما قال ابن مسعود: "إنما الجماعة ما وافق طاعة الله

(١) جماعة المسلمين ص ١٢٠-١٢٢





وإن كنت وحدك." (١) فكيف بأناس تجمعوا على الحق وجاهدوا من أجله؟ فأولى أن يلتزم بهم، ولا يعتزل عنهم.

وكيف يفهم أن الشرع يأمر باعتزال جماعات الخير وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، ووقد حصر الله السلامة من الخسران المحقق على أناس اجتمعوا على الخير والتواصي بالحق والصبر عليه ﴿وَالْعَصْرُ﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

والأصل في المسلمين أن يكون لهم كيان منظم، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "لا إسلام إلا بجماعة، ولا جماعة إلا بإمارة، ولا إمارة إلا بطاعة، فمن سوده قومه على الفقه كان حياة له ولهم، ومن سوده قومه على غير فقه كان هلاكاً له ولهم." (٢)

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها. فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع، لحاجة بعضهم إلى بعض. ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس، حتى قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم." (٣) رواه أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة. وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا

(١) اعتقاد أهل السنة، هبة الله اللالكائي، ١/١٠٩، دار طيبة، الرياض، ١٤٠٢ هـ.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١/٩١ رقم ٢٥١)

(٣) أخرجه أبو داود (٣/٣٦، ٢٦٠٨، ٢٦٠٩) وأخرجه ابن خزيمة عن عمر (٤/١٤١ رقم

(٢٥٤١) والحاكم (١/٦١١ رقم ١٦٢٣) وصححه.



عليهم أحدهم." (١) فأوجب صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهها بذلك على سائر أنواع الاجتماع. ولأن الله تعالى أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة. وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة. (٢)

فالشرع يحث ويأمر بالانضمام إلى تلك التجمعات التي تلتزم بهدي الكتاب والسنة والعمل على إحياء الدين. فإذا لم يتحقق وجود الجماعة على الوجه الكامل فلا أقل من أن يجتمع المسلمون بأقل ما يمكن تحقيقه. والله أعلم.

وخلاصة فوائد ما في الحديث أمور منها:

- ١- يجب الحذر من الشر كما يجب الحرص على الخير.
- ٢- سنة التداول من الخير إلى الشر والعكس جارية على هذه الأمة.
- ٣- يجب التنبه من الدخن الذي يوجد في زمن الخير.
- ٤- الثبات على الحق في كلا الزمнин.
- ٥- وجوب لزوم جماعة المسلمين وإمامهم وعدم التفرق.
- ٦- اعتزال الفرق الضالة.

#### فتنة المسيح الدجال

ومن الأخبار التي تحذر الأمة هو الإخبار بمجيء الدجال نزول عيسى المسيح بعده يقتله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وقد في ذلك أحاديث أذكر منها هذا الحديث الآتي:

(١) أخرجه أحمد (١٧٦/٢) رقم (٦٦٤٧)

(٢) السياسة الشرعية، لابن تيمية ص ١٣٦-١٣٧



عن النواس بن سمعان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل. فلما رحنا إليه، عرف ذلك فينا.

فقال: ما شأنكم؟

قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال غداة، فخفضت فيه ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل.

فقال: غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم،

إنه شاب قطط، عينه طافئة، كأني أشبهه بعبد العزي بن قطن، فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف، إنه خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينا وعاث شمالا، يا عباد الله! فأثبتوا!

قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟

قال: أربعون يوما، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم.

قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفيها فيه صلاة يوم؟

قال: لا، اقدروا له قدره.

قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟

قال: كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به، ويستجيبيون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذرا، وأسبغه ضروعا، وأمدّه خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم



فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون مُمَحِلِينَ، ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة، فيقول: لها أخرجي كنوزك! فتتبعه كنوزها كيغاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين رمية الغرض، ثم يدعوهُ فيقبل ويتهلل وجهه يضحك،

فبينما هو كذلك، إذ بعث الله المسيح بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين، واضعاً كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ،

فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لد فيقتله،

ثم يأتي عيسى بن مريم قوم قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: "إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور."

ويبعث الله ياجوج وماجوج وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء. ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسَى كموت نفس واحدة،

ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملاءهم وتنتهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله



طيرا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرا لا يكن منه بيت مدر ولا وبر فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة،

ثم يقال للأرض: "أنبتي ثمرتك، وردي بركتك." فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة، ويستظلون بقحفها، ويبارك في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس،

فبينما هم كذلك، إذ بعث الله ريحا طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمير، فعليهم تقوم الساعة.<sup>(١)</sup>

بهذا تنتهي سلسلة تعاقب الخير والشر ليأتي بعده شر محض تقوم عليه الساعة. ويظهر من هذا الحديث انتصار أهل الحق ودفاع الله عنهم مهما أوتي أهل الباطل من قوة خارقة.

#### قيام الساعة على شرار الناس

ومن أحاديث الفتن وأشراط الساعة التي أخبر بها الرسول ﷺ إخباره ﷺ أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الناس.

عبد الرحمن بن شماس المهيري<sup>(٢)</sup> قال: كنت عند مسلمة بن مخلد<sup>(٣)</sup>،

(١) تقدم تخريجه.

(٢) عبد الرحمن بن شماس المهيري من ثقات المصريين كان قد صحب زيد بن ثابت زمانا (مشاهير علماء الأمصار ١/ ١١٩)

(٣) مسلمة بن مخلد بن الصامت بن نيار بن لوزان بن عبد ود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة الأنصاري الخزرجي ويقال زرقى يكنى أبا سعيد ذكره بن السكن وأبو نعيم وغيرهما في الصحابة قال بن السكن روى عن النبي أحاديث لا يذكر في شيء منها سماعا كذا قال =



وعنده عبد الله بن عمرو بن العاص، فقال عبد الله: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر من أهل الجاهلية، لا يدعون الله بشيء إلا رده عليهم.  
فبينما هم على ذلك، أقبل عقبة بن عامر، فقال له مسلمة: يا عقبة، اسمع ما يقول عبد الله.

فقال عقبة: هو أعلم، وأما أنا فسمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تزال عصابة من أمتي يقتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك.

فقال عبد الله: أجل، ثم يبعث الله ريحا كريح المسك مسها مس الحرير، فلا تترك نفسا في قلبه مثقال حبة من الإيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس عليهم تقوم الساعة.<sup>(١)</sup>

قال ابن مسعود: سمعت النبي ﷺ يقول: من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء.<sup>(٢)</sup>

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس.<sup>(٣)</sup>

---

= وقد أخرج أبو نعيم من طريق بن عون عن مكحول قال ركب عقبة بن عامر إلى مسلمة وهو أمير على مصر وهو أول من جمعت له مصر والمغرب وذلك في خلافة معاوية وصدر من خلافة يزيد بن معاوية وتوفي بمصر سنة اثنتين وستين (الإصابة ٦/١١٦)  
(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٥٩٠ رقم ٦٦٥٦)

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٦٨ رقم ٢٩٤٩)



ويستفاد من هذا الحديث أنه لا تقوم الساعة إلا إذا انعدم الخير في الناس، وبقاء الأمة على الحق والخير حتى قيام الساعة إلى أن يقبض الله أرواح المؤمنين فلا يبقى في الناس خير.

#### المواقف المطلوبة من هذه الأخبار

إن تلك الأخبار التي جاءت عن الله ورسوله ﷺ لم تأت قصصاً يتفكك بها في المجالس الفارغة ولا ترفاً علمياً تحشى بها الكتب وتدبج بها المقالات. بل هي معالم وضعها الله وبينها رسوله أن تتخذ منارات يهتدي بها السالك إلى الله ويستبصر بها الأمة في سيرها الطويل. لذا يجب أن نحدد بعد سماع تلك الأخبار القضايا العملية التي نستفيد من هذه الأخبار التي أتت من لدن العليم الخبير سبحانه وما ينطق ﷺ عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

إن الوعي بحقائق المستقبل من أخطر القضايا لدى كل إنسان. وكشف القرآن والسنة عن أحداث المستقبل يأتي على مستوى خطورة القضية.

#### التحقق من صحة الأخبار

ويجب التنبيه في هذا الموضوع فإن أكثر الأحاديث في الملاحم وأشراف الساعة ضعيفة أو موضوعة.

قال الخطيب: "... أحاديث الملاحم وما يكون من الحوادث فإن أكثرها موضوع، وجلها مصنوع. وقال: فأما كتب الملاحم فجميعها بهذه الصفة وليس يصح في ذكر الملاحم المرتقبة والفتن المنتظرة غير أحاديث يسيرة." (١)

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي (١/١٥٩)



"وقال الإمام أحمد: ثلاثة كتب ليس لها أصول: وهي المغازي والتفسير والملاحم. قلت: ينبغي أن يضاف إليها الفضائل فهذه أودية الأحاديث الضعيفة والموضوعة إذ كانت العمدة في المغازي على مثل الواقدي<sup>(١)</sup> وفي التفسير على مثل مقاتل<sup>(٢)</sup> والكلبي<sup>(٣)</sup> وفي الملاحم على الإسرائيليات وأما الفضائل فلا تحصى كم وضع الرافضة في فضل أهل البيت وعارضهم جهلة أهل السنة بفضائل معاوية بدء وفضائل الشيخين وقد أغناها الله وأعلى مرتبتها عنها".<sup>(٤)</sup>

(١) قاضي بغداد أبو عبد الله محمد بن عمر بن واقد الأسلمي المدني العلامة أحد أوعية العلم روى عن ثور بن يزيد وابن جريج وطبقتهما وكان يقول حفطي أكثر من كتبي وقد تحول مرة فكانت كتبه مائة وعشرين حملا ضعفه الجماعة كلهم. وقال الذهبي في كتابه المغني في الضعفاء محمد بن عمر بن واقد الأسلمي مولا هم الواقدي صاحب التصانيف مجمع على تركه وقال ابن عدي يروي أحاديث غير محفوظة والبلاء منه وقال النسائي كان يضع الحديث (شذرات الذهب ١٨/١)

(٢) أبو الحسن مقاتل بن سليمان الأزدي مولا هم الخراساني المفسر وقال في المغني مقاتل بن سليمان البلخي هالك كذبة وكيع النسائي انتهى وقال ابن الأهدل كان نبيلاً واتهم في الرواية قال مرة سلوني عما دون العرش فقليل له من حلق رأس آدم لما حج وقال له آخر الذرة أو النملة أمعاؤها في مقدمها أو مؤخرها فلم يدرك ما يقول وقال ليس هذا من علمكم لكن بليت به لعجبي بنفسه مات سنة ١٥٠ هـ (شذرات الذهب ٢٢٧/١)

(٣) العلامة الإخباري أبو المنذر هشام بن محمد بن السائب بن الكوفي الشيعي. روى عن أبيه كثيرا وعن مجالد وأبي مخنف وطائفة. حدث عنه ابنه العباس ومحمد بن سعد وخليفة بن خياط وابن أبي السري العسقلاني وأحمد بن المقدام العجلي. قال أحمد بن حنبل: إنما كان صاحب سمر ونسب ما ظننت أن أحدا يحدث عنه. وقال الدارقطني: وغيره متروك الحديث. وقال ابن عساكر رافضي ليس بثقة. مات على الصحيح سنة ٢٠٤ وقيل: بعد ذلك بقليل (سير أعلام النبلاء ١٠١/١-١٠٣)

(٤) لسان الميزان، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (١٢/١) مؤسسة الأعلمي، بيروت، ١٤٠٦ هـ-





لذلك يجب التحقق من صحة الخبر فإن كثيرا من الكتب التي كتبت قي أشراف الساعة والفتن والملاحم لم يعتنوا بانتقاء الأحاديث الواردة فيها. ولا يحل لمسلم أن ينسب إلى رسول الله ﷺ حديثا وهو يعلم أنه لا يثبت عن الرسول ﷺ.

روى مسلم في مقدمة صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: "من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين."<sup>(١)</sup>

فذكر الروايات الضعيفة عن الرسول ﷺ بدون بيان ضعفه وإيهام الناس بأنه من كلام الرسول ﷺ يعتبر كذبا عليه، والكذب على الرسول ﷺ متوعد عليه بالنار. فقد روي عن عدد من الصحابة أن رسول الله ﷺ قال: "إن كذبا علي ليس ككذب على أحد، فمن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار."<sup>(٢)</sup>

#### الإيمان بما صح عن الله ورسوله

وأما ما ثبت الخبر عن الله ورسوله بأسانيد صحيحة فيجب الإيمان به. وكانت تلك الأخبار أعلاما ومعجزات تدل على صدق الرسول وثبوت رسالته ﷺ.

"وهذه نبوءات تحدث بها السيد الرسول محمد ﷺ تجعلك على مثل الشمس مبصرة، وأن محمدا رسول الله ﷺ، وأنه لا ينطق عن الهوى."<sup>(٣)</sup>

(١) صحيح مسلم (١٨/١) وابن حبان (٢١١/١) رقم ٢٩

(٢) أخرجه البخاري (٥٢/١) رقم ١٠٧-١٠٩) ومسلم (١٠/١) رقم ٢-٤) واللفظ لمسلم في رواية المغيرة.

(٣) الرسول، سعيد حوى ص ٣٤٤، مكتبة وهبة، القاهرة، بدون سنة الطبع.



"فليس كلامنا إلا حالة التصديق الكامل من الواقع للنبوءات الثابتة، فليس كلامنا إذن في التوقعات، وليس كلامنا في التكهّنات الكهنية التي يكذب الواقع عشرات مثلها، وليس كلامنا في النبوءات المدعاة التي يدعي أنها قيلت قبل وقوع مضمونها والحقيقة أنها قيلت بعده، وليس كلامنا في أمر بُيِّت فتنبأ بوقوعها بعض من بيّت، وليس كلامنا في إنسان تحققت بعض نبوءاته وكذب الواقع بعضها، وليس كلامنا كانت عن رؤيا منام أو يشبه رؤيا منام، وليس كلامنا في نبوءة صدرت عن تابع نبي صديق فكانت كرامة له باتباعه لهذا النبي.

وإنما كلامنا في أخبار عن المستقبل المجهول، عن رجل يقول أنه رسول، ويتحقق هذا المستقبل تحقّقاً تاماً، لا يخرم منه شيء. فذلك إذن نبوءة لا شك فيها، واتصال بالله عالم الغيب والشهادة، لا شك فيه." (١)

#### المبشرات دافعة إلى العمل لا ذريعة للاتكال

إن الأخبار التي تبشر بالخير وأن النصر قادم وأن المستقبل للإسلام كلها يجب أن تدفع المسلم إلى العمل في سبيل تحقيق ذلك. لم يكن رسول الله ﷺ يبشر أمته بقدوم الخير ومجيء النصر حتى يتكل الناس على الأقدار أو حتى ينزل النصر من السماء بدون بذل الجهد. بل "... إن المسلم مطالب بأن يعمل لدينه منتجاً معطاء، حتى تلفظ الحياة آخر أنفاسها، ولا يتوانى في عمارة الأرض لحظة واحدة، وهذا ما علمناه رسول الله ﷺ حين قال: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها." (٢)

(١) الرسول ص ٣٤٣

(٢) انظر الصفحة ١٨٥ وما بعدها، حيث ذكر تخريجه وشرح ألفاظه.



فإذا كان هذا مطلوباً لدنيا المرء فكيف لا يكون مطلوباً لدينه؟ كيف يكون الدين أهون عند الله من الدنيا؟!.

إن المؤمن مطالب أن يعمل لدينه ما استطاع، داعياً إلى الخير، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر مجاهداً في سبيل الله، مقاوماً للشر والفساد، متعاوناً مع إخوانه المؤمنين على البر والتقوى، فإن النصوص التي أمرت بهذا كله، ولم تخصص بزمان، بل هي باقية محكمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.<sup>(١)</sup>

إن النصر قادم، والمستقبل للإسلام لا محالة، والسؤال الذي يجب أن يسأله كل مسلم نفسه في هذا: ما دوري في هذا النصر؟ ماذا أسهمت في حصول ذلك النصر؟ ما موقعي من هذا الخير الذي سيأتي ولا بد؟ ولا يكون مثل ذلك الشخص الذي قال الله فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠].

### الفتن وروح التحدي

حدوث الفتن وصولاً الباطل يجب ألا يقعد بصاحب العزم أن يمضي ويواجه. إن صاحب البصيرة لا يبالي بوجود العوائق وقيام التحديات، لأن المعوقات والتحديات شيء ملازم لكل جهاد وكفاح. وكل الأرباح في الحياة لا تأتي بدون مخاطرة. بل إن عظم الإنجاز لا يكون إلا على قوة التحدي. إن العظماء لا يكونون عظماء إلا بمغالبة التحديات العظيمة. والذي يحيد دائماً عن المخاطر سيبقى حقيراً مهماً أبداً.

(١) من أجل صحوة راشدة، د. يوسف القرضاوي، ص ١٨-١٩، مؤسسة الرسالة، بيروت،



فليس الإشكال في حصول الفتن أو وجود الصعوبات، ولكن المسألة في عزيمة الإنسان على مواجهتها، وثباته على الاستقامة عندها. ولا ينجو إلا أولياء الله وأحباؤه. فليرشح كل مسلم نفسه، وليعقد عزمه، ثم ليستعن بربه، وليتوكل عليه، فنعم المولى ونعم الوكيل.

#### المبحث الثالث: التقنيات العلمية الحديثة



تعتمد مراكز البحوث والدراسات المستقبلية في الدول المتقدمة في استشراف المستقبل على تقنيات علمية في رسم التصورات المستقبلية وصياغة مساراتها لتحقيق الأهداف. فالدول المتقدمة لها آلاف مراكز بحوث مستقبلية لتلبية هذه الحاجة، بينما عالمنا الإسلامي يعاني من الفقر في هذا النوع من البحوث والدراسات.

#### أنواع الدراسات المستقبلية

تنقسم الدراسات المستقبلية الحديثة إلى نوعين رئيسيين:

الأول: الدراسات المستقبلية التي تركز على مشكلات العالم الراهنة التي ليس لها حلول حاسمة شافية مثل الأخطار النووية والانفجار السكاني والمجاعة والتلوث البيئي ومشكلات المياه، وتتنبأ بتفاقمها في المستقبل.

الثاني: الدراسات المستقبلية التي تناول الصور الإيجابية والمستقبل المرغوب الذي نريد أن تشكله، وتركز على القيم الإيجابية التي نريد أن يتأسس عليها العالم في المستقبل.

وتتفرع تلك الدراسات الرئيسية إلى ثلاثة اتجاهات فرعية:

١- الدراسات المستقبلية التنبؤية التي نكتشف من خلالها أحدث لتعيين محطات مستقبلية ثابتة ومؤكدة يتحرك نحوها المسار المستقبلي في خط مستقيم، ابتداء من حاضرنّا.



٢- الدراسات المستقبلية الاستقرائية التي تعتمد على استقراء الأحداث التاريخية الماضي والحاضر ورصد مسار الحركة التاريخية وتجاهها نحو المستقبل، لتخمين الوقائع المحتملة وكتابة التصورات (السيناريوهات) وبيان الرؤى عما سيحدث في المستقبل لعقد أو عقدين أو ثلاثة قادمة. وهذا النوع يعتمد على الاستراتيجيون، وهو يتطلب فريق عمل جماعي متخصصين في العلوم السياسية والاقتصادية والتربوية وغير ذلك.

٣- الدراسات المستقبلية الافتراضية، التي تعتمد على افتراض المستقبل وخلق أحداثه بما يلائم الأهداف والطموحات المراد تحقيقها، تخلق مسارا افتراضيا يبدأ من الحاضر وينتهي بالأهداف تحقيقها.<sup>(١)</sup>

#### من مبادئ الدراسات المستقبلية الحديثة

واعتمدت هذه الدراسات المستقبلية على عدة مبادئ<sup>(٢)</sup>:

١- دراسة التاريخ والتعمق فيه والاستفادة منه، وكذلك دراسة جميع المتغيرات المحيطة ومدى تأثيرها، ومعرفة ما هي الفرص المتاحة والقيود المفروضة والتهديدات والأخطار الناتجة من تلك المتغيرات.

٢- تصور المستقبل: أي وضع صورة للمستقبل خلال العقد أو الثلاثة العقود المقبلة باستخدام جميع النماذج الرياضية المتاحة مع توضيح الأهداف الغايات وتفصيلها ما أمكن.

(١) مبادئ علم المستقبل واتجاهات التفكير المستقبلي، د. محمد الأمجد، من من مؤسسة آفاق

للدراسات والأبحاث العراقية، مجلة مؤسسة آفاق العدد الثاني عشر، بتاريخ ٨/٨/٢٠٠٩م

(٢) انظر: الدراسات المستقبلية النشأة والتطور والأهمية، وليد عبد الحي، مجلة التسامح، العدد ٩،

٢٠٠٥، ص ٦٧-٧٨.



- ٣- عدم التحيز: بالاعتماد على المسلمات والفرضيات التي تلاقي قبولا في مختلف الاتجاهات العلمية والفكرية والتكنولوجية.
- ٤- توضيح القدرات المطلوبة لإنجاز كل مسار مستقبلي بتحديد جميع ما يلزم للارتقاء بالمسار المستقبلي من آليات، وتوضيح الأخطار والتكاليف اللازمة.
- ٥- الارتكاز على عوامل التطور في المجالات المختلفة بما يحقق الأهداف والغايات تحقيقا فاعلا.
- ٦- الاعتماد على سيناريوهات مختلفة تشمل جميع الاحتمالات الممكنة يستفيد منها صانع القرار بناء على الأزمة المستقبلية.

#### الشروط العامة للقيام بالدراسات المستقبلية في المجتمعات الإسلامية

- اقترح الدكتور وليد عبد الحي، خبير علم المستقبلات، جملة الاقتراحات في تطبيق علم المستقبلات في عالمنا الإسلامي على النحو التالي:
- ١- تطوير علم أصول الفقه بالاستفادة من الثورة المعلوماتية في صياغة برامج لنماذج التحليل والاجتهاد والقياس.
- ٢- انتهاج المنهج المقارن والاجتهاد الجماعي المؤسسي والإنشائي الإبداعي.
- ٣- إشراك جميع الاختصاصيين من جميع العلوم في عمل الدراسات.
- ٤- ربط أصول ومقاصد الشريعة بالدراسات المستقبلية.
- ٥- إحياء وتطوير وتوظيف فقه المقاصد والموازنات أو الأولويات وغيرها من العلوم الشرعية والإفادة منها لإخراج الحركة العلمية في عالمنا الإسلامي.<sup>(١)</sup>

(١) انظر: مناهج الدراسات المستقبلية وتطبيقاتها في العالم العربي، د. وليد عبد الحي، =



(وكانت رسالتي في الدكتور بعنوان "مقاصد الشريعة ودورها في صياغة المستقبل" يمكن أن يكون نموذجا تطبيقيا لهذا الاقتراح).

#### أنواع التقنيات

يستخدم فن استشراف المستقبل تقنيات عدة، مثل: التوقعات الخطية (Linear Projections) واستقراء الوجهات، وبناء السيناريو، وقصص "ماذا لو؟" (what-if stories). وقد وضعت الدراسات المستقبلية، الحقل الذي انبثق عن علم المستقبل (futurology)، تقنيات إضافية، مثل: تحليل القضايا الناشئة (emerging issues analysis)، والمسح (scanning)، وتحليل الطبقات السببية (layered causal analysis). أما مجال استشراف المستقبل فالعادة أن تستخدم تقنيات: أسلوب دلفي (Delphi Method)، استشراف بالقياس، منحنيات النمو، والاستقراء (extrapolation). وهناك أساليب قياسية أخرى مثل أشجار العلاقات (relevance trees)، ومخططات جدول المهام - كما يشاع استخدامها. ومن المتعذر توضيح كل هذه التقنيات، ولكن نكتفي بشيء من اللامحات المختصرة عن بعض منها:

#### طريقة استقراء التوجه (Trend Extrapolation)

هذه الطريقة تعني تحليل التوجه أو استقراء التوجه وهي طريقة التنبؤ على أساس التحديد (Identifying) وبناء على البيانات التاريخية والملاحظات، والتغير المستمر. وموضوع تحليل التوجه هو تحديد التوجه في اللحظة الحالية في حالة أنه لا يزال من المحتمل أن يستمر في المستقبل. ويستخدم هذا الأسلوب إذا توفر لدينا إحصائيات في مجال معين لفترات متتابعة. فيكتشف من خلال البيانات الموجودة كيف ستتوجه الأوضاع. وهذا الأسلوب يعتمد على فرضية أن الأشياء



إذا كانت تتشكل على نمط معين فهي ستتحرك وتتوجه على النمط نفسه. فصحة ودقة هذا الأسلوب يتوقف على دقة المعلومات وعدم وجود تغيرات مؤثرة في تشكيل تلك النمطية التي يعتمد عليها هذا الأسلوب.

#### بناء السيناريوهات

ومن أكثر الطرق شيوعاً هو بناء السيناريوهات. ومما قيل في التعريف العلمي للسيناريو هو: وصف لوضع مستقبلي ممكن أو مرغوب فيه، وتوضيح خصائص المسار أو المسارات التي تؤدي إليه، بدءاً من الوضع الراهن، أو من وضع ابتدائي مفترض.

وتحليل السيناريو هي واحدة من أكثر الطرق شيوعاً وتستخدم على نطاق واسع في الدراسات المستقبلية واستشراف المستقبل. ومنهج التخطيط القائم على السيناريو عبارة عن أداة إطار تحليلي تستخدم لترتيب تصورات المرء عن مستقبل البيئات التي قد تلعب لها قرارات اليوم. تخطيط السيناريو ليست في الحقيقة آلية التنبؤ بقدر ما هو وسيلة لإدارة المتغيرات الراهنة. وقد قيل: "إن أفضل أسلوب لتنبؤ المستقبل هو أن تصنعه."<sup>(١)</sup>

وتحليل السيناريو هو عملية تحليل أحداث مستقبلية محتملة من خلال النظر في النتائج المحتملة أو السيناريوهات البديلة (باستخدام حكم الخبراء، بدلاً من التوقعات الكمية). وكل سيناريو يحكي قصة عن مستقبل "بديل" للعالم وتشجع أولئك الذين يستكشفونها لـ "توسيع" مخيلاتهم وتعلق أحكامهم المسبقة من أجل تطوير وجهة نظر في الأحداث المعقدة الواردة في هذا العالم.<sup>(٢)</sup>

(1) "the best way to predict the future is to create it."

(٢) الموسوعة الحرة، ويكيبيديا: [http://en.wikipedia.org/wiki/Scenario\\_analysis](http://en.wikipedia.org/wiki/Scenario_analysis)





والسيناريو المستقبلي هو أحد نتاج العلم الحديث يقوم أساساً على دراسة الجدوى، وهذا يعني: (١) السيطرة على الخطة، (٢) إمكانية استمراريتها، (٣) الوفاء بالتزاماتها المادية، (٤) توفير القيادة التقنية والتغلب على العقبات الخارجية التي قد توقف السيناريو في إحدى مراحلها في نهاية المطاف.

إن السيناريو لا يأتي من فراغ، لكنه يعتمد بشكل رئيسي على منظومة كبيرة من البيانات المبرمجة والمخزنة والتي يتم تحديثها باستمرار وفقاً للتغيرات في جميع الميادين.

وللسيناريو خصائص أهمها:

- أن كتابته تتطلب إبداع وخيال فكري عميق.
- يستند إلى منهج علمي دقيق للحصول على الحقائق.
- يستند على أحداث رئيسية واقعية.
- ضرورة تعدد السيناريوهات ويمكن أن يكون اثنين إلى أربعة من السيناريوهات.
- يعتمد على حشد من العلماء والخبراء
- وينقسم السيناريو إلى قسمين:

#### ١- فرض الأزمة

هذا هو سيناريو إيجابي يفرض إرادته، من خلال صنع أزمة معينة، تهدف إلى إجبار الطرف الآخر على قبول قرار ما. هذا السيناريو يتسم بإجراءات إيجابية فاعلة، ويفرض مواقف محددة على قيادة الطرف الآخر للتعامل معها، ومن خلال



ذلك، ينفذ القرار. وقد شهد العقد الماضي العديد من هذا النوع من السيناريو، سواء في الخليج أو في مناطق أخرى من العالم.

## ٢- مواجهة الأزمة

تتمثل كإجراءات سلبية (دفاعية) وإيجابية (هجومية)، تسعى للتعامل مع الأحداث الخارجية أو الداخلية، لتسخير الإمكانيات، ولتحديد الأسلوب ولتوظيف الأشخاص والمنظمات التي سوف تعالج مراحل الأزمة. هذا السيناريو لا بد منه للحفاظ على استمرارية وسلامة الدول والمؤسسات، وعدم تعرضهم لصدمات قوية.

هذا السيناريو يشمل جميع القطاعات الأخرى، مثل: دراسات الجدوى وخطط مستقبلية. ويمكن فهم الطريقة التي تمكن من تحويل الأزمة من سلبية إلى إيجابية، وتحقيق الهدف المستقبلي المقترح.

ولبناء السيناريوهات المستقبلية طرق: الأول: الطريقة الحدسية (العشوائية) والثاني: الطريقة النظامية (النمذجية) والثالث: الطريقة التفاعلية (التفاعل بين الحدسية والنمذجية).<sup>(١)</sup>

### المحاكاة (simulation)

وقد يعتمد بناء السيناريو على أسلوب محاكاة (simulation)، ويعني هذا الأسلوب أن نضع الشيء المدروس أو شبيهه في بيئة مصطنعة تعمل شبيهة جدا - إلى أقصى حد ممكن - بالواقع القائم الذي نريد أن ندرسه. ثم نترك كل العوامل الموضوعية

(١) الموسوعة الحرة: علم المستقبل [http://ar.wikipedia.org/wiki/علم\\_المستقبل](http://ar.wikipedia.org/wiki/علم_المستقبل)



تتفاعل مع بعضها البعض لنرى ماذا سيحصل، فنبنى تصورنا المستقبلي بناء على تلك النتيجة.

وإصابة النتيجة تتوقف على مدى مشابهة تلك الأشياء الموضوع المصطنعة لتلك الأشياء الواقعية الحقيقية وعلى مدى اشتراك البيئتين في نوعية العوامل المؤثرة فيهما.

#### طريقة المسح البيئي (Scanning Method)

المسح البيئي هو مقارنة لكشف مؤشرات خفية متعلقة بالمستقبل من مصادر المعلومات المتاحة. ويمكن وصفه بأن قيام وسائل الإعلام بدراسة سريعة في محاولة لاستيعاب أدبيات العلم والثقافة الشعبية، وبيانات عن كل شيء تقريبا. يتم تنفيذ المسح البيئي قبل دراسة مستقبلية، ويعتبر شرطا مسبقا لأية دراسات المستقبلية.

ومما يعتمد عليه هذا الأسلوب هو حقيقة أن الإنسان إنما تحركه رغباته وتدفعه اهتماماته. فمن خلال تحليل رغبات الناس أو اهتماماتهم نستطيع أن نتوقع إلى أين سيتوجهون.

فهذا الأسلوب يحتاج إلى دراسة ميدانية وتحليل نفسيات الناس وأفكارهم. وكذلك من المفيد أن ندرس القيم التي تحرك الناس حتى نكتشف كيف سيتصرفون وكيف يفكرون ويقدررون الأشياء.



### طريقة دلفي (Delphi Survey Method)

طريقة دلفي عبارة عن تقنية التواصل المنظم، وضع أصلاً كأسلوب تنبؤ تفاعلي منظم يعتمد على لجنة من الخبراء.<sup>(١)</sup> وهي تقنية شائعة الاستخدام للتنبؤ. ويقوم على فريق من الخبراء الذين يدلون بأرائهم في توقيت واحتمال، وأهمية وآثار العوامل والتوجهات والأحداث المتعلقة بالمشكلة في الموضوعات المبحوثة. والفكرة الأساسية لأسلوب دلفي هي كما يلي:

- إنشاء قائمة من البيانات أو الأسئلة

- قدم الخبراء تقديراتهم أو أجوبتهم

- تقديم تقرير / خلاصة - ثم إرسالها إلى كل شخص

- قام الخبراء بمراجعة أجوبتهم

- تقديم التقرير الثاني بعد تلك المراجعة

وفي شكله القياسي، يجيب الخبراء على الاستبيانات في جولتين أو أكثر، بعد كل جولة يقوم المنسق بتقديم خلاصة تنبؤات هؤلاء الخبراء، (مع عدم ذكر أسمائهم)، وتذكر فيها الأسباب التي بنيت عليها أحكامهم، مما يشجع الخبراء على مراجعة إجاباتهم السابقة في ضوء الردود من أعضاء اللجنة الآخرين، ويعتقد أنه خلال هذه العملية يتقلص التفاوت بين الإجابات، وسوف الجميع على الإجابة "الصحيحة." وفي النهاية يتم إيقاف العملية بعد الوقوف على معيار محدد مسبقاً

(1) Harold A. Linstone, Murray Turoff (1975), *The Delphi Method: Techniques and Applications*, Reading, Mass.: Adison-Wesley, ISBN 9780201042948



(مثل عدد من الجولات أو تحقيق التوافق أو الاستقرار من النتائج) ويحدد النتائج متوسط النقاط من الجولات الأخيرة.<sup>(١)</sup>

وهناك أشكال أخرى، مثل دلفي السياسي،<sup>(٢)</sup> وقد صممت لاستخدامات معيارية واستكشافية، ولا سيما في مجال السياسة الاجتماعية والصحة العامة.<sup>(٣)</sup> وفي أوروبا مؤخراً، فإن أكثر التجارب المعتمدة على شبكة الإنترنت استخدمت أسلوب دلفي كتقنية التواصل من أجل تفاعلية عملية صنع القرار والديمقراطية الإلكترونية.<sup>(٤)</sup>

ويستند دلفي على مبدأ أن التوقعات (أو القرارات) من مجموعة منظمة من الأفراد تكون أكثر دقة من تلك التي نتجت جماعات غير منظمة.<sup>(٥)</sup> وقد يشير إلى ذلك ما يسمى بـ"الذكاء الجماعي".<sup>(٦)</sup> هذه التقنية يمكن تكييفها لاستخدام اجتماعات "وجها لوجه" (face to face meeting)، ويسمى ذلك دلفي مصغرة،

- (1) Rowe and Wright (1999): The Delphi technique as a forecasting tool: issues and analysis. *International Journal of Forecasting*, Volume 15, Issue 4, October 1999.
- (2) Murray Turoff, "The Design of a Policy Delphi", *Technological Forecasting and Social Change* 2, 2, 1970.
- (3) Michael Adler, Erio Ziglio (eds.) (1996), *Gazing Into the Oracle: The Delphi Method and Its Application to Social Policy and Public Health*, London: Kingsley Publishers, ISBN 9781853021046
- (4) Maurizio Bolognini (2001) (in Italian), *Democrazia elettronica. Metodo Delphi e politiche pubbliche* (Electronic Democracy. Delphi Method and Public Policy-Making), Rome: Carocci Editore, ISBN 8843020358. An example of e-democracy application is DEMOS (Delphi Mediation Online System), whose prototype was presented at the 3rd Worldwide Forum on Electronic Democracy, in 2002.
- (5) Rowe and Wright (2001): Expert Opinions in Forecasting. Role of the Delphi Technique. In: Armstrong (Ed.): *Principles of Forecasting: A Handbook of Researchers and Practitioners*, Boston: Kluwer Academic Publishers.
- (6) Hiltz, S.R., Turoff M. (1978), *The Network Nation: Human Communication via Computer*, Addison-Wesley, ISBN 9780262082198



أو ETE (estimate-talk-estimate) يعني "توقع - تحدّث - توقع". وقد استخدم دلفي بشكل واسع في تنبؤ مجال الأعمال.<sup>(١)</sup>

#### الجمع بين التوقعات

إن الدراسات التي أجريت على التنبؤات التي سبق افتراضها أظهرت أن واحداً من الأسباب الأكثر حدوثاً في خطأ التوقعات هو أن المتنبئ يتجاهل المجالات ذات الصلة. إن واحدة من التقنيات المقدمة يمكن أن تفشل في تحقيق هذا المستوى من القدرة على التنبؤ به، لأنه استبدل بها تقنية أخرى تجاهلها المتنبئ.

وثمة مشكلة أخرى هي أن وجود تضارب (inconsistency) بين التوقعات. وبسبب هذه المشاكل، وغالباً ما يكون من الضروري الجمع بين تقنيات مختلفة للتوقعات. ولذلك بدلاً من محاولة تحديد أسلوب واحد أكثر ملاءمة، قد يكون من الأفضل محاولة الجمع بين التوقعات التي حصلت عليها وسائل مختلفة. إذا تم هذا فقد يكون من نقاط القوة وسيلة واحدة تساعد على التعويض عن نقاط الضعف في أخرى. وبالإضافة إلى ذلك، فإن استخدام أكثر من طريقة في كثير من الأحيان يعطي للمتنبئ فكرة أكثر تبصراً في الإجراءات أثناء عملها حيث تعتبر مسؤولية عن نمو التكنولوجيا حين تجري التوقع.

#### مميزات هذه التقنيات

وهذه الأساليب تتسم بالمعقولة والوضوح، ولها مميزات هامة هي:

- ١- يمكن تعليمها وتعلمها،
- ٢- يمكن وصفها وإيضاحها،

(1) Green, Armstrong, and Graefe (2007): Methods to Elicit Forecasts from Groups: Delphi and Prediction Markets Compared. Forthcoming in Foresight: The International Journal of Applied Forecasting (Fall 2007). [PDF format](#)



٣- تقدّم إجراء قابلاً للتباع من قبل أي شخص استوعب التدريب اللازم وفي بعض الحالات،

٤- يمكن أن يعاد النظر في تلك التوقعات في أي وقت لاحق،

٥- وتكنولوجيا التنبؤ ليست خيالاً لكنها مزيج بين العلم والخيال والمثالية.

ومع ذلك فإن هذه التقنية لا تخرج عن محدودية المعرفة الإنسانية في عالم المستقبل، فإنها مهما تقدمت لم ولن تصل إلى الجزم واليقين، وإنما تخرج بتوقعات وتصورات محتملة لا أكثر. ولكنها أفضل بمراحل كثيرة من الجهل المطبق والعمى المعرفي الكامل والاعتماد على التخيلات غير المنضبطة.

#### مراتب الدراسات المستقبلية

إن مجالات الدراسات المستقبلية في العالم على درجات:

الدرجة الأولى والأساسية: دراسات مبادئ وأفكار وعلوم تتعلق بالمستقبل

الثانية: دراسات تهتم برصد الواقع ووضع تصورات مستقبلية

الثالثة: دراسات تهتم بوضع خطط مستقبلية وتحقيق أهداف

الرابعة: دراسات تهدف إلى خلق واقع مطلوب وخارطة مستقبلية جديدة وفقاً

للأهداف الاستراتيجية الكبرى التي تتبناها بعض القوى العالمية الكبرى.

#### المبحث الرابع: وسائل مساعدة لاستشراف المستقبل

نوع آخر من وسائل استشراف المستقبل مساعد لما سبق من الوسائل الأساسية التي تتسم بالانضباط والعلمية. وهذا النوع الأخير يعتبر لطفاً من أطاف الله لعبده.



فإن الله قد يكشف ستار المستقبل لمن يشاء من عباده، إلا أن نتاج هذه الوسائل لا بد أن يعرض على نصوص الكتاب والسنة وأحكام الإسلام وإلا يختلط الحابل بالنابل، والعلم بالجهل، والمعرفة بالدجل.

### الفراسة

فما هي هذه الفراسة؟

قال ابن الأثير: إن الفراسة تقال بمعنيين: (أحدهما) ما يوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه يعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس. (والثاني): نوع يتعلم بالدلائل والتجارب والخلق والأخلاق فتعرف به أحوال الناس.<sup>(١)</sup>

فالفراسة نوعان فراسة تعتمد على نوع من الكشف الإلهي والظن والحدس وأخرى تقوم على الدلائل والتجارب وملاحظة الخلق والأخلاق.

وأما ابن القيم فيقسم الفراسة إلى ثلاثة أنواع: فراسة إيمانية وفراسة الرياضة، والفراسة الخلقية.<sup>(٢)</sup> وهذا التقسيم يفصل بين الفراسة المبنية على الكشف والكرامات التي تنتج عن حالة إيمانية عالية وبين الفراسة التي تبني على الحدس والظن المكتسب من الرياضات النفسية مثل الجوع والسهر والخلوة. وهذان النوعان جعلهما ابن الأثير نوعاً واحداً، كأنه يبني تقسيمه على ظهور سبب الفراسة وخفائه. فالنوع الأول عند ابن الأثير هو الفراسة المبنية على أسباب خفية، والنوع الثاني الفراسة المبنية على أسباب ظاهرة. بينما يبني ابن القيم تقسيمه على الطريق

(١) النهاية (٣٥٤/٢)

(٢) انظر مدارج السالكين (٤٨٣/٢ - ٤٨٨)





التي تحصل بها الفراسة، فيرى هناك ثلاث طرق؛ طريق إيمانية، وطريق الرياضة، وطريق الملاحظة.

والنوعان اللذان ذكرهما ابن القيم لا علاقة لهما بإيمان أو كفر ولا سند له على صلاح أو فساد. ويمكن الحصول عليهما إما بالتمرين والرياضة القلبية وإما بالدراية والتعلم والملاحظة. وقد يلتبس هذان الأخيران على الجاهل يظنون أنهما نوع من أنواع الكرامات وليس منها في شيء.<sup>(١)</sup>

قال القرطبي: "وزعمت الصوفية أنها كرامة." ثم أورد قولاً آخر وقال: "بل هي استدلال بالعلامات. ومن العلامات ما يبدو ظاهراً لكل أحد وبأول نظرة. ومنها ما يخفى، فلا يبدو لكل أحد، ولا يدرك ببادئ النظر."<sup>(٢)</sup>

### حكم الفراسة في الشرع

بناءً على ما سبق، فالكلام على حكمها الشرعي ينقسم إلى قسمين، حكم في الفراسة الباطنة أي ما يستند إلى أمور باطنة خفية، وآخر في الفراسة الظاهرة وهي ما يستند إلى أشياء ظاهرة ملحوظة.

#### ١- الفراسة الباطنة

فأما حكم الفراسة التي تحصل بسبب خفي كالكشف وغيره فالكلام فيه مثل الكلام في سائر أنواع الكشف مثل الإلهام والخواطر والرؤيا المنامية. والناس فيها بين الغالي فيه والجافي عنه. والصواب في هذا وسط بين طرفي الإفراط والتفريط. فلا ننفيه نفياً كلياً ولا نعتمد عليها اعتماداً مطلقاً بدون عرضها على حكم الكتاب والسنة.

(١) انظر مدارج السالكين (١/ ٤٨٥-٤٨٨)

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٤٣)



"لا نزاع أن الإيمان والعبادة والتقوى، ومجاهدة النفس لها أثرها في تنوير العقل، وهداية القلب، والتوفيق إلى إصابة الحق في الأقوال، والسداد في الأعمال، والخروج من مضايق الاشتباه إلى باحات الوضوح، ومن اضطراب الشك إلى ثبات اليقين."<sup>(١)</sup>

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]  
وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

وكما في ورد في صحيح البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه."<sup>(٢)</sup>

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "القلب المعمور بالتقوى إذا رجع بمجرد رأيه فهو ترجيح شرعى. قال: فمتى ما وقع عنده، وحصل فى قلبه ما بطن معه، أن هذا الأمر أو هذا الكلام أرضى الله ورسوله كان هذا ترجيحاً بدليل شرعى. والذين أنكروا كون الإلهام ليس طريقاً إلى الحقائق مطلقاً أخطأوا. فإذا اجتهد العبد فى طاعة الله وتقواه كان ترجيحه لما رجع أقوى من أدلة كثيرة ضعيفة. فإلهام مثل هذا دليل فى حقه. وهو أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والموهومة، والظواهر والاستصحابات الكثيرة، التى يحتج بها كثير من الخائضين فى المذاهب والخلاف وأصول الفقه.

(١) موقف الإسلام ص ٣٠

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ٢٣٨٤ رقم ٦١٣٧)



وحديث مكحول المرفوع: "ما أخلص عبد العبادة له تعالى أربعين يوما إلا أجرى الله الحكمة على قلبه، وأنطق بها لسانه." وفي رواية: "إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه."<sup>(١)</sup>

وقال أبو سليمان الداراني: "إن القلوب إذا اجتمعت على التقوى جالت في الملكوت ورجعت إلى أصحابها بطُرف الفوائد من غير أن يؤدي إليها عالم علما."<sup>(٢)</sup>

وقد قال النبي ﷺ: "الصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء."<sup>(٣)</sup> ومن معه نور وبرهان وضياء، كيف لا يعرف حقائق الأشياء من فحوى كلام أصحابها؟ ولا سيما الأحاديث النبوية فإنه يعرف ذلك معرفة تامة، لأنه قاصد العمل بها. فتساعد في حقه هذه الأشياء، مع الامتثال ومحبة الله ورسوله، حتى إن المحب يعرف من فحوى كلام محبوبه مراده منه تلويحا لا تصريحاً.

والعين تعرف من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها  
إنارة العقل مكسوف بطوع هوى وعقل عاصي الهوى يزداد تنويراً  
وفي الحديث الصحيح: "لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها."<sup>(٤)</sup>

ومن كان توفيق الله له كذلك، فكيف لا يكون ذا بصيرة نافذة ونفس فعالة؟ وإذا كان الإثم والبر في صدور الخلق له تردد وجولان، فكيف حال من الله سمعه

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٨٠ رقم ٣٤٣٤٤)

(٢) ذكره أبو نعيم في ترجمة أحمد بن أبي الحواري (١٠/ ١٤)

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم (١/ ٢٠٣ رقم ٢٢٣)

(٤) تقدم تخريجه قريباً



وبصره وهو في قلبه؟ وقد قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "الإثم حَوَّازُ القلوب." <sup>(١)</sup> وقد قدمنا أن الكذب ريبة، والصدق طمأنينة. فالحديث الصدق تطمئن إليه النفس ويطمئن إليه القلب.

وأيضاً فإن الله فطر عباده على الحق، فإذا لم تستحل الفطرة، شاهدت الأشياء على ما هي عليه، فأنكرت منكرها وعرفت معروفها. قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الحق أبلج لا يخفى على فطن.

فإذا كانت الفطرة مستقيمة على الحقيقة، منورة بنور القرآن، تجلت لها الأشياء على ما هي عليه في تلك المزايا، وانتفت عنها ظلمات الجهالات. فرأت الأمور عياناً مع غيبها عن غيرها.

وفي السنن والمسند وغيره عن النواس بن سمعان عن النبي قال: "ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبتي الصراط سوران، وفي السورين أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو من فوق الصراط، والصراط المستقيم هو الإسلام، والستور المرخاة حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، فإذا أراد العبد أن يفتح باباً من تلك الأبواب ناداه المنادي: "يا عبد الله، لا تفتحه، فإنك إن فتحتَه تلجَه." والداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن." <sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١٤٩/٩ رقم ٨٧٤٩، ٨٧٤٨) قال الهيثمي: رواه الطبراني كله بأسانيد رجالها ثقات (مجمع الزوائد ١/١٧٦) وحواز من حاز يحوز أي يجمع القلوب ويغلب عليها (النهاية ١/٤٥٠)

(٢) أخرجه أحمد (١٨٣، ١٨٢) والترمذي (١٤٤/٥ رقم ٢٨٥٩) والنسائي في الكبرى (٦/٣٦١ رقم ١١٢٣٣) والحاكم (١/١٤٤ رقم ٢٤٥)



فقد بين في هذا الحديث العظيم الذي من عرفه انتفع به انتفاعا بالغا - إن ساعده التوفيق - واستغنى به عن علوم كثيرة، أن في قلب كل مؤمن واعظ. والوعظ هو الأمر والنهي والترغيب والترهيب.

وإذا كان القلب معمورا بالتقوى انجلت له الأمور، وانكشفت. بخلاف القلب الخراب المظلم.

قال حذيفة بن اليمان: إن في قلب المؤمن سراجا يزهر.<sup>(١)</sup>

وفي الحديث الصحيح: إن الدجال مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن قارئ وغير قارئ.<sup>(٢)</sup>

فدل على أن المؤمن يتبين له ما لا يتبين لغيره، ولا سيما في الفتن. وينكشف له حال الكذاب الوضاع على الله ورسوله. فإن الدجال أكذب خلق الله، مع أن الله يجري على يديه أموراً هائلة، ومخاريق مزللة. حتى إن من رآه افتن به. فيكشفها الله للمؤمن حتى يعتقد كذبها وبطلانها.

وكلما قوي الإيمان في القلب، قوي انكشاف الأمور له، وعرف حقائقها من بواطنها. وكلما ضعف الإيمان، ضعف الكشف. وذلك مثل السراج القوي والسراج الضعيف في البيت المظلم.

ولهذا قال بعض السلف في قوله ﴿تُورُّ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، قال: هو المؤمن ينطق بالحكمة المطابقة للحق، وإن لم يسمع فيها بالأثر، فاذا سمع فيها بالأثر كان نوراً على نور.

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/١٦٨، رقم ٣٠٤٠٤، ٧/٤٨١، رقم ٣٧٣٩٥)

(٢) أخرجه البخاري عن ابن عباس (٢/٥٦٣، رقم ١٤٨٠) وأنس (٦/٢٦٩٥، رقم ٦٩٧٣)

وأخرجه مسلم مبهما عن بعض أصحاب النبي ﷺ (٤/٢٢٤٥، رقم ١٦٩) وعن أنس

(٤/٢٢٤٨، رقم ٢٩٣٣) وعن حذيفة (٤/٢٢٤٩، رقم ٢٩٣٤)



فالإيمان الذي في قلب المؤمن يطابق نور القرآن. فالإلهام القلبي تارة يكون من جنس القول والعلم والظن أن هذا القول كذب، وأن هذا العمل باطل، وهذا أرجح من هذا، أو هذا أصوب.

وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: "قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمرو."<sup>(١)</sup>

والمحدث هو الملهم المخاطب في سره. وما قال عمر لشيء: "إنني لأظنه كذا وكذا"، إلا كان كما ظنه. وكانوا يرون أن السكينة تنطق على قلبه ولسانه.

وأيضا فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن لقوة إيمانه يقينا وظنا، فالأمور الدينية كشفها له أيسر بطريق الأولى. فإنه إلى كشفها أحوج.

فالمؤمن تقع في قلبه أدلة على الأشياء لا يمكنه التعبير عنها في الغالب. فإن كل أحد لا يمكنه إبانة المعاني القائمة بقلبه. فإذا تكلم الكاذب بين يدي الصادق، عرف كذبه من فحوى كلامه، فتدخل عليه نخوة الحياء الإيماني، فتمنعه البيان. ولكن هو في نفسه قد أخذ حذره منه. وربما لوح أو صرح به خوفا من الله وشفقة على خلق الله، ليحذروا من روايته أو العمل به.

وكثير من أهل الإيمان والكشف يلقي الله في قلبه أن هذا الطعام حرام، وأن هذا الرجل كافر، أو فاسق أو ديوث أو لوطي أو خمار أو مغن أو كاذب من غير دليل ظاهر. بل بما يلقي الله في قلبه. وكذلك بالعكس يلقي في قلبه محبة لشخص، وأنه من أولياء الله، وأن هذا الرجل صالح، وهذا الطعام حلال، وهذا القول صدق. فهذا وأمثاله لا يجوز أن يستبعد في حق أولياء الله المؤمنين المتقين. وقصة الخضر مع

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٦٤ رقم ٢٣٩٨)



موسى هي من هذا الباب. وإن الخضر علم هذه الأحوال المعينة بما أطلع الله عليه. وهذا باب واسع يطول بسطه، قد نبهنا فيه على نكت شريفة تطلعك على ما وراءها.<sup>(١)</sup>

#### • الحدود الشرعية ضابطة

وهذا الإقرار من الشرع بقبول واعتبار المكاشفات مشروط بشرط عدم مخالفته حكما شرعيا وعدم مصادمته لقاعدة دينية ثابتة، كما تقدم في حكم الرؤيا المنامية، فإن حكم هذا حكم ذاك سواء بسواء.

قال الشاطبي: "وعلى هذا لو حصلت له مكاشفة بأن هذا الماء مغصوب أو نجس، أو أن الشاهد كاذب، أو أن المال لزيد وقد تحصل بالحجة لعمره، أو ما أشبه ذلك، فلا يصح له العمل على وفق ذلك. ما يتعين سبب ظاهر. فلا يجوز له الانتقال إلى التيمم، ولا ترك قبول الشاهد، ولا الشهادة بالمال لزيد على حال. فإن الظواهر قد تعين فيها بحكم الشريعة أمر آخر. فلا يتركها اعتمادا على مجرد المكاشفة أو الفراسة. كما لا يعتمد فيها على الرؤيا النومية. ولو جاز ذلك لجاز نقض الأحكام بها، وإن ترتبت في الظاهر موجباتها. وهذا غير صحيح بحال، فكذا ما نحن فيه.

وقد جاء في الصحيح: "إنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحكم له على نحو ما أسمع منه."<sup>(٢)</sup> الحديث. قيد الحكم بمقتضى ما يسمع، وترك ما وراء ذلك. وقد كان كثير من الأحكام التي تجري على

(١) مجموع الفتاوى (٤٢/٢٠-٤٧)

(٢) أخرجه البخاري (٩٥٢/٢) رقم (٢٥٣٤) ومسلم (١٣٣٧/٣) رقم (١٧١٣)



يديه يطلع على أصلها وما فيها من حق أو باطل. ولكنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لم يحكم إلا على وفق ما سمع، لا على وفق ما علم.<sup>(١)</sup>

"وقد كان يعلم من دخائل المنافقين وبواطن كفرهم ما يعلم، ولكنه لم يعاملهم وفقا لما كشف الله له من بواطنهم. بل عاملهم حسب ظواهرهم، وأجرى عليهم أحكام الإسلام، ومنحهم حقوق المسلمين في الحياة وبعد الممات. وبهذا رد على من أراد من الصحابة أن يعاملهم معاملة الكفار المجاهرين، فقال: "أخشى أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه."<sup>(٢)</sup> وهكذا أمرنا أن نحكم بالظواهر، والله يتولى السرائر، ولم نؤمر أن نشق عن قلوب الناس."<sup>(٣)</sup>

#### • شبهات مردودة

ذكر بعض الصوفية أمورا يستدلون بها على حجية الإلهام<sup>(٤)</sup> في إثبات الأحكام الشرعية نجملها على ما يلي:

١- قول الله تعالى: ﴿فَالْهَمَّهَا فَجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]، فبين أن النفوس ملهمة.

٢- وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، فيؤخذ منه مثل ذلك للآدمي بطريق الأولى.

(١) الموافقات (٢/ ٢٦٦-٢٦٨)

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ١٨٦١ رقم ٤٦٢٢، ٤/ ١٨٦٣ رقم ٤٦٢٤) ومسلم (٤/ ١٩٩٨ رقم ٢٥٨٤)

(٣) موقف الإسلام ص ٣٨-٣٩

(٤) انظر إرشاد الفحول (٢/ ١٠١٦)، البحر المحيط (٦/ ١٠٣-١٠٦)، مدارج السالكين (١/ ٤٥-٦١)، شرح الكوكب المنير (١/ ٣٢٩-٣٧٢)، فواتح الرحموت (٢/ ٣٧١-٣٧٢)، فتح الباري (١٢/ ٣٨٨)





٣- حديث: "اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله."

٤- قول النبي ﷺ لوابصة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك." فجعل شهادة قلبه حجة مقدمة على الفتوى.

٥- حديث: "قد كان فيمن قبلكم من الأمم محدثون."

٦- القياس على الرؤيا الصادقة، وخاصة رؤيا الرسول ﷺ فقد أخذ بعضهم من حديث "إن الشيطان لا يتمثل بي"، أن من تمثلت صورته ﷺ في خاطره من أرباب القلوب وتصورت له في عالم سره أنه يخاطبه ويكلمه، فإن ذلك حقا.

٧- قصة العبد الصالح الذي ذكر في القرآن في سورة الكهف المعروف باسم الخضر مع كليم الله موسى عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حيث أمر الله موسى باتباع الخضر وقد خالف تصرفات الخضر ما يظهر لموسى من حكم الشرع أول وهلة.

ردود على تلك الشبهات

ولا حجة في شيء مما استند إليه هؤلاء،

(١) فأما آية ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨] فلها معنيان:

الأول: أن الاستعداد للتقوى والفجور أمر ركزه الله تعالى في الفطرة، فالإنسان قد خلق مزودا باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال، بحكم ازدواج طبيعته وخلقته من طين الأرض ونفخة الروح.

الثاني: أن معنى ألهمها فبين لها ما ينبغي لها أن تأتي أو تذر من خير أو شر أو طاعة أو معصية، بحيث تميز رشدتها من ضلالها كما جاء ذلك من مفسري



السلف<sup>(١)</sup>، والآية على ذلك نظير قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]. على أن الإلهام في الآية إلهام عام لكل نفس، والإلهام الذي يتحدثون إلهام خاص بأرباب القلوب، كما يقولون، فلا دليل في الآية، ولا شبه دليل.

وأما آية ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] فإن الله يلهم كل كائن حي ما تقوم به حياته، وما يهتدي به إلى بقائه وحياته، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. فهذا الإيحاء عام لكل الخلق فلا تدل الآية على ذلك الإلهام الخاص ببعض الناس.

(٣) وأما حديث "اتقوا فراسة المؤمن"، فهو لم يصل إلى درجة الصحة التي يحتج بها، فقد اختلف في صحته وضعفه،<sup>(٢)</sup> إلا أن الأدلة الأخرى شهدت بثبوت الفراسة الصادقة فلا خلاف في ثبوتها ولكن الكلام في جعلها حجة شرعية تثبت بها الأحكام وتقرر بها الحقوق وتشغل بها الذمة أو تبرأ وتهرق بها الدماء أو تحقن. وأيضا فإن الفراسة قد تشبه لا تستطيع أن تميز بين ما كان من الله أو غيره، فيبقى ظنا محتملا.

قال ابن حجر: "وأما الفراسة فنسلمها لكن لا تجعل شهادة القلب حجة، لأننا لا نتحقق كونها من الله أو من غيره."<sup>(٣)</sup>

(١) انظر تفسير الطبري (٢١٠/٣٠) وروح المعاني (١٤٣/٣٠)

(٢) فقد رواه الترمذي (٢٩٨/٥) رقم ٣١٢٧ واستغربه وعلّله البخاري في التاريخ الكبير (٣٥٤/٧) رقم ١٥٢٩) وأخرج الطبراني في الأوسط عن أبي أمامة (٣/٣١٢ رقم ٣٢٥٤) وأبي سعيد (٢٣/٨ رقم ٧٨٤٣) قال الهيثمي: رواه الطبراني وإسناده حسن (مجمع الزوائد ١٠/٢٦٨) وحكم السخاوي على الكل بالضعف (فيض القدير: ١/١٤٤) ووافقه الألباني في ضعيف الجامع الصغير.

(٣) فتح الباري (٣٨٨/١٢)



• حديث "استفت قلبك"

(٤) وأما حديث وابصة<sup>(١)</sup>: "استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك"،<sup>(٢)</sup> فالاستدلال به على أن فتوى القلب مقدمة على فتوى المفتي بحكم الشرع فمردود لوجوه:

أولاً: أن الحديث لم يجرى بلفظ عام بحيث تؤخذ منه قاعدة عامة، بل جاء في واقعة معينة وشخص معين.

ثانياً: على فرض العموم فموضع هذا فيما لا نص فيه أو -كما قال الشوكاني<sup>(٣)</sup>- في الواقعة التي تتعارض فيها الأدلة. قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال سبحانه: ﴿فَسَبِّحُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]، فكيف يوجب الله تعالى سؤالهم ثم نترك أجوبتهم وفتاواهم إلى فتاوى قلوبنا؟

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] ولم يقل: ردوه إلى خواطركم وأحاديث قلوبكم.

ثالثاً: أن المفتي يبنى فتواه على ظاهر الحال كما يعرضه له السائل، قد يكون هناك أمور خفية لا يطلع عليها، ولعله لو اطلع عليها لغير فتواه. والمستفتي هو الذي

(١) وابصة بن معبد بن عتبة بن الحارث بن مالك بن الحارث بن قيس بن كعب بن سعيد بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد بن خزيمة الأسدي وقال أبو حاتم هو وابصة بن عبيدة ومعبد لقب أبو سالم ويقال أبو الشعثاء يقال أبو سعيد وفد على النبي سنة تسع (الإصابة ٦/ ٥٩٠)

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٨) والدارمي (٢/ ٣٢٠ رقم ٢٥٣٣) حسنه الهيثمي في الترميز والترهيب (٢/ ٣٥١) والنووي في رياض الصالحين وفي الأربعين حديث رقم ٢٧، وكذلك الألباني في صحيح الجامع.

(٣) انظر إرشاد الفحول (٢/ ١٠١٩)



يعرفها، لذلك تظل نفسه قلقة غير مطمئنة بما ألقى إليه من فتوى. ففتوى المفتي هنا مثل قضاء القاضي، الذي يحكم بالظاهر، ويقضي على نحو ما يسمع، ولكنه لا يجعل الحرام حلالاً لمن استقضاه إذا كان ألحن بحجته من خصمه صاحب الحق. قال ابن رجب: "فدل حديث وابصة وما في معناه على الرجوع إلى القلوب عند الاشتباه مما سكن إليه القلب وانشرح إليه الصدر. فهو البر والحلال، وما كان خلاف ذلك فهو الإثم والحرام.

وقوله في حديث النواس بن سمعان "الإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع عليه الناس"، إشارة إلى أن الإثم ما أثر في الصدر حرجاً وضيقاً وقلقاً واضطراباً، فلم ينشرح له الصدر. ومع هذا فهو عند الناس مستنكر بحيث ينكرونه عند اطلاعهم عليه، وهذا أعلى مراتب معرفة الإثم عند الاشتباه. وهو ما استنكر الناس فاعله وغير فاعله. ومن هذا المعنى قول ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن، وما رآه المؤمنون قبيحاً فهو عند الله قبيح." <sup>(١)</sup>

وقوله في حديث وابصة وأبي ثعلبة: "وإن أفتاك المفتون"، يعني أن ما حاك في صدر الإنسان فهو إثم، وإن أفتاه غيره بأنه ليس بإثم. فهذه مرتبة ثانية. وهو أن يكون الشيء مستنكراً عند فاعله دون غيره. وقد جعله أيضاً إثماً. وهذا إنما يكون إذا كان صاحبه ممن شرح صدره للإيمان، وكان المفتي يفتي له بمجرد ظن أو ميل إلى هوى من غير دليل شرعي. فأما ما كان مع المفتي به دليل شرعي، فالواجب على

(١) أخرجه الحاكم (٨٣/٣ رقم ٤٤٦٥) وصححه والهيتمي في مجمع الزوائد (١٧٧/١) وقال: رواه أحمد والبخاري والطبراني في الكبير ورجاله موثقون. روي مرفوعاً وموقوفاً ولم يصح إلا موقوفاً على ابن مسعود (انظر كشف الخفا ٢/٢٤٥، نصب الراية ٤/١٣٣، الدراية في تخريج أحاديث الهداية ٢/١٨٧)



المفتي الرجوع إليه، وإن لم ينشرح له صدره. وهذا كالرخصة الشرعية مثل الفطر في السفر والمرض وقصر الصلاة في السفر ونحو ذلك، مما لا ينشرح به صدور كثير من الجهال فهذا لا عبرة به.

وقد كان النبي ﷺ أحيانا يأمر أصحابه بما لا تنشرح به صدور بعضهم، فيمتنعون من قوله، فيغضب من ذلك، كما أمرهم بفسخ الحج إلى العمرة فكرهه من كرهه منهم. وكما أمرهم بنحر هديهم والتحلل من عمرة الحديبية، فكرهوه وكرهوا مفاوضته لقريش على أن يرجع من عامه، وعلى أن من أتاه منهم يرده إليهم.

وفي الجملة فما ورد النص به فليس للمؤمن إلا طاعة الله ورسوله. كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وينبغي أن يتلقى ذلك بانشرح الصدر والرضا. فإن ما شرعه الله ورسوله يجب الإيمان والرضا به والتسليم له. كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وأما ما ليس فيه نص من الله ولا رسوله، ولا عمن يقتدى بقوله من الصحابة وسلف الأمة، فإذا وقع في نفس المؤمن المطمئن قلبه بالإيمان المنشرح صدره بنور المعرفة واليقين منه شيء وحك في صدره بشبهة موجودة، ولم يجد من يفتي فيه بالرخصة، إلا من يخبر عن رأيه، وهو ممن لا يوثق بعلمه وبدينه، بل هو معروف باتباع الهوى، فهنا يرجع المؤمن إلى ما حاك في صدره. وإن أفتاه هؤلاء المفتون. (١)

والخلاصة: أن استفتاء القلب إنما يطلب حيث لا يوجد مفت ثقة يستند إلى دليل شرعي معتبر يثق المسلم بعلمه ودينه معاً، وفي مسألة تتعارض فيها الأدلة.



ولكن أي قلب يعتمد عليه في الفتوى؟ قال الغزالي -فيما نقل عنه الشوكاني<sup>(١)</sup>:  
 "... ثم لا نقول على كل قلب، فرب قلب موسوس ينفي كل شيء، ورب متساهل  
 يطير إلى كل شيء، فلا اعتبار بهذين القلبين، وإنما الاعتبار بقلب العالم الموفق  
 لدقائق الأحوال، فهو المحك الذي يمتحن به حقائق الأمور، وما أعز هذا القلب".<sup>(٢)</sup>

#### • حديث "لقد كان فيمن قبلكم محدثون"

(٥) وأما حديث: "لقد كان فيمن قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي منهم  
 أحد فعمر بن الخطاب"<sup>(٣)</sup>، فالحديث صحيح متفق عليه، ولكن لا دليل فيه على  
 دعواهم. فليس في الحديث دليل على أن المحدث أو الملهم يعمل بحديث قلبه  
 في مواجهة شرع ربه، ولو فعل لكان محدثا من الشيطان لا من الرحمن.

قال ابن تيمية فيما نقله عنه ابن القيم رَحِمَهُمَا اللَّهُ جميعا: "وأما ما يقوله كثير من  
 أصحاب الخيالات والجهالات: "حدثني قلبي عن ربي"، فصحيح أن قلبه حدثه،  
 ولكن عمن؟ عن شيطانه أو عن ربه؟ فإذا قال: "حدثني قلبي عن ربي" كان مسندا  
 الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به. وذلك كذب.

قال ومحدث الأمة -يعني عمر بن الخطاب- لم يكن يقول ذلك ولا تفوه به يوما  
 من الدهر. وقد أعاده الله من أن يقول ذلك. بل كتب كاتبه يوما: "هذا ما أرى الله أمير

(١) العلامة محمد بن علي بن عبد الله الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن من أهل صنعاء  
 ولد بهجرة شوكان (من بلاد خولان باليمن) سنة ١١٧٣ هـ الموافق ١٧٦٠ م ولي قضاءها سنة  
 ١٢٢٩ هـ وتوفي سنة ١٢٥٠ هـ الموافق ١٨٣٤ م (الأعلام ٩٧/٦)

(٢) إرشاد الفحول (١٠١٩/٢)

(٣) أخرجه البخاري (١٢٧٩/٣) رقم ٣٢٨٢، ١٣٤٩/٣ رقم ٣٤٨٦ ومسلم (٤/١٨٦٤) رقم



المؤمنين عمر بن الخطاب. "فقال: لا! امحه، واكتب: "هذا ما رأى عمر بن الخطاب، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأ فمن عمر، والله ورسوله منه برىء."

وقال في الكلاله: "أقول فيها برأىي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان."

فهذا قول المحدث بشهادة الرسول ﷺ. وأنت ترى الإتحادي والحلولي والإباحي الشطاح والسماعي مجاهر بالقحة والفرية يقول: "حدثني قلبي عن ربي." فانظر إلى ما بين القائلين والمرتبين والقولين والحالين. وأعط كل ذي حق حقه. ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً.<sup>(١)</sup>

قال ابن القيم: "وهؤلاء الجهال يرى أحدهم أدنى شيء فيحكم هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة، ولا يلتفت إليهما، ويقول: "حدثني قلبي عن ربي، ونحن أخذنا عن الحي الذي لا يموت، وأنتم أخذتم عن الوسائط، ونحن أخذنا بالحقائق، وأنتم اتبعتم الرسوم." وأمثال ذلك من الكلام الذي هو كفر وإلحاد. وغاية صاحبه أن يكون جاهلاً يعذر بجهله.

حتى قيل لبعض هؤلاء: "ألا تذهب فتسمع الحديث من عبد الرزاق؟" فقال: "ما يصنع بالسماع من عبد الرزاق من يسمع من الملك الخلاق؟" وهذا غاية الجهل. فإن الذي سمع من الملك الخلاق موسى بن عمران كليم الرحمن. وأما هذا وأمثاله فلم يحصل لهم السماع من بعض ورثة الرسول. وهو يدعي أنه يسمع الخطاب من مرسله، فيستغني به عن ظاهر العلم. ولعل الذي يخاطبهم هو الشيطان أو نفسه الجاهلة أو هما مجتمعين ومنفردين.



ومن ظن أنه يستغني عما جاء به الرسول بما يلقي في قلبه من الخواطر والهواجس، فهو من أعظم الناس كفرا. وكذلك إن ظن أنه يكتفي بهذا تارة وبهذا تارة. فما يلقي في القلوب لا عبرة به ولا التفات إليه، إن لم يعرض على ما جاء به الرسول، ويشهد له بالموافقة. وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان.

وقد سئل عبد الله بن مسعود عن مسألة المفوضة شهرا فقال بعد الشهر: "أقول فيها برأيي فإن يكن صوابا فمن الله، وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان، والله برىء منه ورسوله."

وكتب كاتب لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بين يديه: "هذا ما أرى الله عمر." فقال: لا، امحه، واكتب: "هذا ما رأى عمر."

وقال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضا: "أيها الناس اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أستطيع أن أرد أمر رسول الله عَلَيْهِ السَّلَام لرددته."

واتهام الصحابة لآرائهم كثير مشهور. وهم أبر الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأبعدها من الشيطان. فكانوا أتبع الأمة للسنّة، وأشدّهم اتهاما لآرائهم. وهؤلاء ضد ذلك.

وأهل الاستقامة منهم سلكوا على الجادة، ولم يلتفتوا إلى شيء من الخواطر والهواجس والإلهامات، حتى يقوم عليها شاهدان. قال الجنيد: قال أبو سليمان الداراني: "ربما يقع في قلبي النكته، من نكت القوم أياما، فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة."

وقال أبو يزيد<sup>(١)</sup>: "لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يتربع في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود."

(١) أبو يزيد البسطامي أبو يزيد طيفور بن عيسى بن شروسان البسطامي أحد الزهاد أخو الزاهدين آدم وعلي وكان جدّهم شروسان مجوسيا فأسلم وله هكذا نكت مليحة وجاء عنه =





وقال أيضا: من ترك قراءة القرآن ولزوم الجماعات وحضور الجنائز وعبادة المرضى، وادعى بهذا الشأن فهو مدع.

وقال سري السقطي<sup>(١)</sup>: من ادعى باطن علم ينقضه ظاهر حكم فهو غالط.

وقال الجنيد: مذهبنا هذا مقيد بالأصول بالكتاب والسنة فمن لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ويتفقه لا يقتدى به.

وقال أبو بكر الدقاق<sup>(٢)</sup>: من ضيع حدود الأمر والنهي في الظاهر، حرم مشاهدة القلب في الباطن.

وقال أبو الحسين النوري<sup>(٣)</sup>: من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي، فلا تقربه، ومن رأيته يدعي حالة لا يشهد لها حفظ ظاهره، فاتهمه على دينه.

= أشياء مشكلة لا مساخ لها الشان في ثبوتها عنه أو أنه قالها في حال الدهشة والسكر والغيبة والمحو فيطوي ولا يحتاج بها إذ ظاهرها إلحاد. توفي أبو يزيد ببسطام سنة إحدى وستين ومئتين عن ثلاث وسبعين سنة (سير أعلام النبلاء ١٣/ ٨٦)

(١) السري بن المغلس السقطي الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو الحسن البغدادي. ولد في حدود الستين ومئة وحدث عن الفضيل بن عياض وهشيم بن بشير وأبي بكر بن عياش وعلي بن غراب ويزيد بن هارون وغيرهم بأحاديث قليلة واشتغل بالعبادة وصحب معروف الكرخي وهو أجل أصحابه. توفي في شهر رمضان سنة ثلاث وخمسين ومئتين وقيل توفي سنة إحدى وخمسين وقيل سنة سبع وخمسين (سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٨٥)

(٢) الإمام الحافظ القدوة مفيد بغداد أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقي بن منصور البغدادي الدقاق وكان فاضلا حسن القراءة للحديث ورعا ثبتا زاهدا ثقة قائما باللغة علامة في الأدب قدوة في الحديث خير موجود وكان لا يحفظ إنما يعول على الكتب روى السير مات في ثاني ربيع الأول سنة تسع وثمانين وأربعمائة (طبقات الحفاظ ١/ ٤٤٨)

(٣) أبو الحسين النوري أحمد بن محمد وقيل محمد ابن محمد وأحمد أصح بغدادي المنشأ والمولد خراساني الأصل يعرف بابن البغوي. وكان من أجل مشايخ القوم وعلماهم لم يكن في وقته أحسن طريقة منه ولا ألطف كلاما صحب السري السقطي ومحمد بن علي القصاب ورأى أحمد بن أبي الحواري توفي سنة خمس وتسعين (طبقات الصوفية ١/ ٣٥)



وقال الجريري<sup>(١)</sup>: أمرنا هذا كله مجموع على فصل واحد: أن تلزم قلبك المراقبة، ويكون العلم على ظاهرك قائما.

وقال أبو حفص<sup>(٢)</sup>: من لم يزن أحواله وأفعاله بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعدوه في ديوان الرجال.

وما أحسن ما قال أبو أحمد الشيرازي<sup>(٣)</sup>: كان الصوفية يسخرون من الشيطان، والآن الشيطان يسخر منهم.

ونظير هذا ما قاله بعض أهل العلم: كان الشيطان فيما مضى يهب من الناس، واليوم الرجل الذي يهب من الشيطان. "اهـ"<sup>(٤)</sup>

وقال أيضا: "أما حصوله -أي الإلهام- بواسطة سمع فليس ذلك إلهاما، بل هو من قبيل الخطاب. وهذا يستحيل حصوله لغير الأنبياء. وهو الذي خص به موسى، إذ كان المخاطب هو الحق عزَّجَلَّ.

وأما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع، فهو من أحد وجوه ثلاثة لا رابع لها: (أعلاها) أن يخاطبه الملك خطابا جزئيا. فإن هذا يقع لغير الأنبياء.

(١) أبو محمد الجريري اسمه أحمد بن محمد بن الحسين وكنية والده أبو الحسين. وكان من كبار أصحاب الجنيد وصحب أيضا سهل بن عبد الله التستري وهو من علماء مشايخ القوم أقعد بعد الجنيد في مجلسه لتمام حاله وصحة علمه مات سنة إحدى عشرة وثلاثمائة (طبقات الصوفية ٢٠٣/١)

(٢) أبو حفص النيسابوري عمرو بن سلم ويقال عمرو بن سلمة وهو الأصح إن شاء الله، وكان أحد الأئمة والسادة انتهى إليه شاه بن شجاع الكرمانى وأبو عثمان سعيد بن إسماعيل توفي سنة سبعين ومائتين ويقال سنة سبع وستين والله أعلم (طبقات الصوفية ١٠٣/١-١٠٤)

(٣) أبو أحمد القاسم بن عبد الواحد الشيرازي توفي يوم الثلاثاء العاشر من ربيع الأول سنة ٤٢١ هـ حدث بيسير كتب أبوه وأهل بيته الكثير (وفيات المصريين ٦٥/١)

(٤) إغائة اللهفان (١٢٣/١-١٢٥)



فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام، فلما اكتوى تركت خطابه، فلما ترك الكي عاد إليه خطاب ملكي. وهو نوعان:

(أحدها) خطاب يسمعه بأذنه وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين.

(والثاني) خطاب يلقي في قلبه يخاطب به الملك روحه. كما في الحديث المشهور: "إن للملك لمة بقلب ابن آدم، وللشيطان لمة، فلمة الملك إيعاد بالخير وتصديق بالوعد، ولمة الشيطان إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد." ثم قرأ: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أُنْزِلْ مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]. قيل في تفسيرها: قووا قلوبهم، وبشروهم بالنصر. وقيل: احضروا معهم القتال. والقولان حق. فإنهم حضروا معهم القتال، وثبتوا قلوبهم.

ومن هذا الخطاب واعظ الله عز وجل في قلوب عباده المؤمنين. كما في جامع الترمذي ومسند أحمد من حديث النواس بن سمعان عن النبي: "إن الله تعالى ضرب مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى كنفتي الصراط سوران، لهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وداع يدعو على رأس الصراط، وداع يدعو فوق الصراط، فالصراط المستقيم الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، فلا يقع أحد في حد من حدود الله حتى يكشف الستر، والداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مؤمن." فهذا الواعظ في قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهي بواسطة الملائكة.

وأما وقوعه بغير واسطة فمما لم يتبين بعد. والجزم فيه بنفي أو إثبات موقوف على الدليل. والله أعلم.



النوع الثاني من الخطاب المسموع: خطاب الهواتف من الجان. وقد يكون المخاطب جنيا مؤمنا صالحا، وقد يكون شيطانا. وهذا أيضا نوعان: (أحدهما) أن يخاطبه خطابا يسمعه بأذنه.

(والثاني) أن يلقي في قلبه وعده ما يلم به. ومنه وعده وتمنيته حين يعد الإنسي ويمنيه ويأمره وينهاه. كما قال تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠]. وقال: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُّكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. وللقب من هذا الخطاب نصيب، وللأذن أيضا منه نصيب، والعصمة منتفية إلا عن الرسل ومجموع الأمة.

فمن أين للمخاطب أن هذا الخطاب رحماني أو ملكي؟ بأي برهان أو بأي دليل؟ والشيطان يقذف في النفس وحيه، ويلقي في السمع خطابه، فيقول المغرور المخدوع: "قيل لي، وخوطبت". صدقت، لكن الشأن في القائل لك، والمخاطب. وقد قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لغيلان بن سلمة<sup>(١)</sup> وهو من الصحابة لما طلق نساءه وقسم ماله بين بنيه: "إني لأظن الشيطان فيما يسترق من السمع سمع بموتك فقذفه في نفسك"، فمن يأمن القراء بعدك يا شهر؟

قال: "النوع الثالث: خطاب حالي تكون بدايته من النفس، وعوده إليها. فيتوهمه من خارج. وإنما هو من نفسه منها بدا وإليها يعود.

وهذا كثيرا ما يعرض للسالك. فيغلط فيه، ويعتقد أنه خطاب من الله، كلمه به منه إليه. وسبب غلظه: أن اللطيفة المدركة من الإنسان إذا صفت بالرياضة،

(١) غيلان بن سلمة الثقفي أسلم يوم الفتح وتحتة عشر نسوة فأمره النبي أن يختار منهن أربعاً مات في آخر خلافة عمر بن الخطاب (مشاهير علماء الأمصار ١ / ٣٥)



وانقطعت علقها عن الشواغل الكثيفة، صار الحكم لها، بحكم استيلاء الروح والقلب على البدن. ومصير الحكم لهما، فتصرف عناية النفس والقلب إلى تجريد المعاني التي هي متصلة بهما، وتشدد عناية الروح بها، وتصير في محل تلك العلائق والشواغل، فتملاً القلب، فتصرف تلك المعاني إلى المنطق والخطاب القلبي الروحي بحكم العادة، ويتفق تجرد الروح، فتتشكل تلك المعاني للقوة السامعة بشكل الأصوات المسموعة، وللقوة الباصرة بشكل الأشخاص المرئية. فيرى صورها. ويسمع الخطاب. وكله في نفسه، ليس في الخارج منه شيء. ويحلف أنه رأى وسمع. وصدق. لكن رأى وسمع في الخارج أو في نفسه؟ ويتفق ضعف التمييز وقلة العلم واستيلاء تلك المعاني على الروح وتجردها عن الشواغل.

فهذه الوجوه الثلاثة هي وجوه الخطاب. ومن سمع نفسه غيرها فإنما هو غرور وخدع وتلبيس. وهذا الموضع مقطع القول. وهو من أجل الموضع لمن حقه وفهمه. والله الموفق للصواب.<sup>(١)</sup>

وابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ لَهُ وقفة أخرى من هذا الحديث أبعد من ذلك، قال: "فهذا الحديث يدل على أن أول المحدثين من هذه الأمة عمر. وأبو بكر أفضل منه، إذ هو الصديق. فالمحدث وإن كان يلهم ويحدث من جهة الله تعالى، فعليه أن يعرض ذلك على الكتاب والسنة. فإنه ليس بمعصوم. كما قال أبو الحسن الشاذلي<sup>(٢)</sup>: قد ضمنت لنا العصمة فيما جاء به الكتاب والسنة، ولم تضمن لنا العصمة في الكشوف والإلهام.

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٥-٤٨)

(٢) أبو الحسن علي بن محمد بن علي المالكي الشاذلي شيخ الطائفة الشاذلية المتوفى سنة ٩٣٠ (كشف الظنون ٢/ ١٩٢٧، تاريخ الخلفاء ١/ ٤٧٧)



ولهذا كان عمر بن الخطاب وقافا عند كتاب الله، وكان أبو بكر الصديق يبين له أشياء تخالف ما يقع له. كما بين له يوم الحديبية، ويوم موت النبي، ويوم قتال مانعي الزكاة، وغير ذلك. وكان عمر بن الخطاب يشاور الصحابة، فتارة يرجع إليهم، وتارة يرجعون إليه. وربما قال القول فترد عليه امرأة من المسلمين قوله، وتبين له الحق، فيرجع إليها ويدع قوله. كما في قدر الصداق. وربما يرى رأيا، فيذكر له حديثا عن النبي فيعمل به، ويدع رأيه. وكان يأخذ بعض السنة عمن هو دونه في قضايا متعددة. وكان يقول القول فيقال له: أصبت؟ فيقول: والله، ما يدري عمر أصاب الحق أم أخطأه؟

فإذا كان هذا إمام المحدثين، فكل ذي قلب يحدثه قلبه عن ربه إلى يوم القيامة هو دون عمر. فليس فيهم معصوم، بل الخطأ يجوز عليهم كلهم. وإن كان طائفة تدّعي أن الولي محفوظ، وهو نظير ما يثبت للأنبياء من العصمة. والحكيم الترمذي قد أشار إلى هذا. فهذا باطل مخالف للسنة والإجماع.

ولهذا اتفق المسلمون على أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ. وإن كانوا متفاضلين في الهدى والنور والإصابة.

ولهذا كان الصديق أفضل من المحدث، لأن الصديق يأخذ من مشكاة النبوة، فلا يأخذ إلا شيئا معصوما محفوظا. وأما المحدث فيقع له صواب وخطأ. والكتاب والسنة تميز صوابه من خطئه. وبهذا صار جميع الأولياء مفتقرين إلى الكتاب والسنة لا بد لهم أن يزونا جميع أمورهم بآثار الرسول، فما وافق آثار الرسول فهو الحق، وما خالف ذلك فهو باطل، وإن كانوا مجتهدين فيه. والله تعالى يشيهم على اجتهداهم، ويغفر لهم خطأهم.<sup>(١)</sup>



قال ابن القيم: "وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: جزم بأنهم كائنون في الأمم قبلنا، وعلق وجودهم في هذه الأمة بـ"إن" الشرطية مع أنها أفضل الأمم، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم، واستغناء هذه الأمة عنهم، بكمال نبينا ورسالته. فلم يحوج الله الأمة بعده إلى محدث ولا ملهم ولا صاحب كشف ولا منام. فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها. والمحدث هو الذي يحدث في سره وقلبه بالشيء فيكون كما يحدث به.

قال شيخنا: والصديق أكمل من المحدث لأنه استغنى بكمال صديقيته ومتابعته عن التحديث والإلهام والكشف. فإنه قد سلم قلبه كله وسره وظاهره وباطنه للرسول، فاستغنى به عما منه.

قال: وكان هذا المحدث يعرض ما يحدث به على ما جاء به الرسول فإن وافقه قبله وإلا رده، فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث.<sup>(١)</sup>

#### قياس الإلهام على الرؤيا الصادقة

(٦) أما قياس الإلهام والكشف على الرؤيا الصادقة خصوصا رؤيا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي لا يتمثل به الشيطان، فهو قياس لم يستوف شرائطه، لأن المقيس عليه هو أيضا محل الخلاف. وقد تقدم أن الرؤيا المنامية ليست من الأدلة الشرعية وإن كانت صالحة لتبشير المؤمنين بأمور سارة أو تحذيرهم من أمور سيئة.

وحتى رؤيا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نفسه لا يجوز أن تكون مصدرا لحكم شرعي لم يثبت بالقرآن والسنة. لأن النائم ليس من أهل التحمل للرواية لعدم ضبطه وحفظه.<sup>(٢)</sup>

(١) مدارج السالكين (١/٣٩-٤٠)

(٢) انظر إرشاد الفحول (٢/١٠٢٠)



وقال الشوكاني: "ولا يخفأك أن الشرع الذي شرعه الله لنا على لسان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد كمله الله عز وجل. قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] ولم يأتنا دليل يدل على أن رؤيته في النوم بعد موته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا قال فيها بقول، أو فعل فيها فعلا يكون دليلا وحجة. بل قد قبضه الله إليه بعد أن كمل لهذه الأمة ما شرعه لها على لسانه، ولم يبق بعد ذلك حاجة للأمة في أمر دينها. وقد انقطعت البعثة لتبليغ الشرائع وتبيينها بالموت وإن كان رسولا حيا وميتا. وبهذا تعلم أن لو قدرنا ضبط النائم لم يكن ما رآه من قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو فعله حجة عليه ولا على غيره من الأمة." (١)

#### قصة الخضر مع موسى

(٧) وأما الاستدلال بقصة الخضر مع موسى فلسنا ملزمين بها إذ ليس في شرعنا الحكم بغير بينة. والعلماء في مسألة شرع من قبلنا هل هو شرع لنا أم لا على قولين، قول أن شرع من قبلنا ليس شرعا لنا. وعلى هذا القول فليس في القصة أدنى حجة. وقول ثان أن شرع من قبلنا شرع لنا إلا ما نسخه شرعنا. (٢) فإن هذه الشريعة تنسخ كل ما سبقها من الشرائع. فلسنا ملزمين بما فعله الخضر، ولا موسى يجب عليه اتباع الخضر. ولا الخضر ملزم باتباع موسى. فلكل شرعه الذي ألزمه الله به.

قال ابن تيمية: "ومما يبين الغلط الذي وقع لهم في الاحتجاج بقصة موسى والخضر على مخالفة الشريعة، أن موسى عَلَيْهِ السَّلَام لم يكن مبعوثا إلى الخضر.

(١) إرشاد الفحول (٢/ ١٠٢٠-١٠٢١)

(٢) انظر إرشاد الفحول (٢/ ٩٨٢-٩٨٥)، والبحر المحيط (٦/ ٤١-٤٥)، الإحكام لابن حزم (٧٢٢-٧٢٣)، المستصفى (١/ ٢٤٨٢٦٠)، المحصول (٣/ ٢٦٥-٢٧٥)، الإحكام للآمدي (٤/ ١٤٠-١٤٨)، شرح الكوكب المنير (٤/ ٤١٢-٤١٧).





ولا أوجب الله على الخضر متابعتة وطاعته. بل قد ثبت في الصحيحين أن الخضر قال له: "يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه."<sup>(١)</sup> وذلك أن دعوة موسى كانت خاصة.

وقد ثبت في الصحاح من غير وجه عن النبي أنه قال فيما فضله الله به على الأنبياء قال: "كان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعث إلى الناس عامة."<sup>(٢)</sup>

فدعوة محمد ﷺ شاملة لجميع العباد ليس لأحد الخروج عن متابعتة وطاعته، ولا الاستغناء عن رسالته. كما ساغ للخضر الخروج عن متابعة موسى وطاعته مستغنيا عنه بما علمه الله. وليس لأحد ممن أدركه الإسلام أن يقول لمحمد: "إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه." ومن سوغ هذا أو اعتقد أن أحدا من الخلق - الزهاد والعباد أو غيرهم - له الخروج عن دعوة محمد ومتابعتة فهو كافر باتفاق المسلمين. ودلائل هذا من الكتاب والسنة أكثر من أن تذكر هنا."<sup>(٣)</sup>

هذا كله على اعتبار أن فيه دلالة مخالفة الباطن للظاهر. وقد تخرج المسألة تخريجا يوافق مع ظاهر الشريعة. قال ابن تيمية: "وقصة الخضر ليس فيها خروج عن الشريعة. ولهذا لما بين الخضر لموسى الأسباب التي فعل لأجلها ما فعل، وافقه موسى. ولم يختلفا حينئذ. ولو كان ما فعله الخضر مخالفا لشريعة موسى لما وافقه.

ومثل هذا وأمثاله يقع للمؤمنين بأن يختص أحد الشخصين بالعلم بسبب يبيح له الفعل في الشريعة والآخر لا يعلم ذلك السبب. وإن كان قد يكون أفضل من الأول.

(١) أخرجه البخاري (٥٧/١) رقم (١٢٢)

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨/١) رقم (٣٢٨، ١٦٨/١) رقم (٤٢٧) ومسلم (٣٧٠/١) رقم (٥٢١) وابن حبان (٣٠٨/١٤) رقم (٦٣٩٨)

(٣) مجموع الفتاوى (٣٢٥/١١)



مثل شخصين دخلا إلى بيت شخص وكان أحدهما يعلم طيب نفسه بالتصرف في منزله إما بإذن لفظي أو غيره. فيتصرف، وذلك مباح في الشريعة. والآخر الذي لم يعلم هذا السبب، لا يتصرف. وخرق السفينة كان من هذا الباب. فإن الخضر كان يعلم أن أمامهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا. وكان من المصلحة التي يختارها أصحاب السفينة إذا علموا ذلك لئلا يأخذها خير من انتزاعها منهم.

ونظير هذا حديث الشاة التي أصابها الموت فذبحتها امرأة بدون إذن أهلها فسألوا النبي عنها فأذن لهم في أكلها. ولم يلزم التي ذبحت بضمان ما نقصت بالذبح. لأنه كان مأذونا فيه عرفا. والإذن العرفي كالإذن اللفظي. ولهذا بايع النبي عن عثمان في غيبته بدون استئذانه لفظا.

ولهذا لما دعاه أبو طلحة ونفرا قليلا إلى بيته، قام بجميع أهل المسجد لما علم من طيب نفس أبي طلحة. وذلك لما يجعله الله من البركة.

وكذلك حديث جابر وقد ثبت أن لحاما دعاه، فاستأذنه في شخص يستتبعه، لأنه لم يكن يعلم من طيب نفس اللحام ما علمه من طيب نفس أبي طلحة وجابر وغيرهما.

وكذلك قتل الغلام كان من باب دفع الصائل على أبوابه، لعلمه بأنه كان يفتنهما عن دينهما. وقتل الصبيان يجوز إذا قاتلوا المسلمين. بل يجوز قتلهم لدفع الصول على الأموال.

فلهذا ثبت في صحيح البخاري أن نجدة الحروري<sup>(١)</sup> لما سأل ابن عباس عن قتل الغلمان قال: إن كنت تعلم منهم ما علمه الخضر من الغلام فاقتلهم، وإلا فلا تقتلهم.

(١) نجدة بن عامر الحروري من رؤوس الخوارج زائغ عن الحق ذكر في الضعفاء للجوزجاني (ميزان الاعتدال ١١/٧)



وكذلك فى الصحيحين أن عمر لما استأذن النبى فى قتل ابن صياد، وكان مرافقا، لما ظنه الدجال فقال: "إن يكنه، فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك فى قتله." (١) فلم يقل إن يكنه فلا خير لك فى قتله، بل قال فلن تسلط عليه.

وذلك يدل على أنه لو أمكن إعدامه قبل بلوغه لقطع فساد، لم يكن ذلك محذورا. وإلا ما كان التعليل بالصغر كافيا. فإن الأعم إذا كان مستقلا بالحكم كان الأخص عديم التأثير. كما قال فى الهرة: إنها ليست بنجس، إنها من الطوافين عليكم والطوافات. (٢)

وأما بناء الجدار فإنما فيه ترك أخذ الجعل مع جوعهم. وقد بين الخضر أن أهله فيهم من الشيم وصلاح الوالد ما يستحقون به التبرع. وإن كان جائعا. (٣)



وخلاصة القول أن الفراسة إنما تعتبر إذا لم تخالف الشريعة المحمدية - على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم. كما قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ: "إن الشريعة كما أنها عامة في جميع المكلفين وجارية على مختلفات أحوالهم فهي عامة أيضا بالنسبة إلى عالم الغيب وعالم الشهادة من جهة كل مكلف. فإليها نرد كل ما جاءنا من جهة الباطن، كما نرد إليها كل ما في الظاهر." (٤)

(١) أخرجه البخاري (١/ ٤٥٤ رقم ١٢٨٩، ٣/ ١١١٢ رقم ٢٨٩٠) ومسلم (٤/ ٢٢٤٤ رقم ٢٩٣٠)

(٢) أخرجه ابن خزيمة (١/ ٥٥ رقم ١٠٤) وابن حبان (٤/ ١١٥ رقم ١٢٩٩) والترمذي (١/ ١٥٤)

رقم ٩٢) والنسائي في الصغرى (١/ ١٤٠ رقم ١٨٤)

(٣) مجموع الفتاوى (١١/ ٤٢٥-٤٢٩)

(٤) الموافقات (٢/ ١٨٧)



وهذا الكلام كله في الفراسة التي تستند إلى أمور خفية إيمانية كانت أو غيرها. بل ما كان عن مجرد حدس وقوة نفسية لا تصدر عن قلب مؤمن تقي أولى بعرضها على الشريعة وبتمحيصها بمنظارها.

## ٢- الفراسة الظاهرة

وأما الفراسة التي تعتمد على دلالات ظاهرة وأمارات محسوسة فالأمر فيها أوسع. حيث يجوز كثير من العلماء الحكم بها في مسائل القضاء. ولكن في تسميتها بالفراسة نزاع. فقد سئل ابن عقيل عن الحاكم أو الوالي يحكم بالفراسة والقرائن التي يظهر له فيها الحق، والاستدلال بالآمارات، ولا يقف مع مجرد ظواهر البيّنات والأحوال. فقال: "ليس ذلك حكما بالفراسة، بل حكم بالآمارات. وإذا تأملتكم الشرع وجدتموه يجوز التعويل على ذلك." (١)

فابن عقيل رَحِمَهُ اللهُ جوز الاعتماد عليها في إثبات الأحكام إلا أنه لم يعتبرها فراسة. كأنه رَحِمَهُ اللهُ حصر الفراسة فيما يستند إلى أمور باطنة خفية فقط. وقد سبق أن الفراسة تشمل هذا وهذا. لذلك لم ير ابن القيم غضاظة في تسمية ذلك فراسة. قال: "ولا محذور في تسميته فراسة، فهي فراسة صادقة وقد مدح الله سبحانه الفراسة وأهلها في مواضع من كتابه فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾" (٢) وهم المتفرسون." (٣)

وذهب بعض المالكية منهم ابن العربي إلى أن الفراسة بأي حال من الأحوال لا تثبت حكما شرعيا، ولكنه رَحِمَهُ اللهُ لم ينكر أن الفراسة طريق من طرق الإدراك.

(١) الطرق الحكمية ص ٩، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

(٢) سورة الحجر: ٧٥

(٣) الطرق الحكمية ص ١٧



قال أبو بكر بن العربي: "إذا ثبت أن التوسم والتفرس من مدارك المعاني، فإن ذلك لا يترتب عليه حكم، ولا يؤخذ به موسوم ولا مفترس. وقد كان قاضي القضاة الشامي المالكي ببغداد أيام كوني بالشام يحكم بالفراصة في الأحكام جريا على طريق إياس بن معاوية<sup>(١)</sup> أيام كان قاضيا. وكان شيخنا فخر الإسلام أبو بكر الشاشي صنف جزءا في الرد عليه. كتبه لي بخطه وأعطانيه. وذلك صحيح. فإن مدارك الأحكام معلومة شرعا، مدركة قطعاً. وليست الفراصة منها."<sup>(٢)</sup>

فهذه ثلاثة أقوال: قول باعتمادها في إثبات الحقوق، وقول بعدم اعتبارها من الفراصة ولكن بقبولها في إثبات حكم قضائي، وقول بعدم اعتمادها في الأحكام القضائية مع الإقرار بصحة اعتمادها كوسيلة من وسائل الإدراك.

#### المبحث الثاني: الفرق بين الفراصة الباطنة والفراصة الظاهرة

إن الفرق الأساسي الذي يجعل حكم الفراصة الباطنة يختلف عن الفراصة الظاهرة في القضاء بها، أن الفراصة الباطنة مجرد قناعة داخلية لا يمكن -في الغالب- الإفصاح عن سببها، وإن كانت قد تكون من الفيوضات الإلهية الشريفة التي لا غبار في صحتها في نفس الأمر. أما الفراصة الظاهرة يمكن توضيحها والإفصاح عن مبرراتها. والشرعية مبنية على الحكم بالظواهر، وتكل السرائر إلى رب الضمائر.

وليتضح ذلك أكثر، أضرب نماذج من النوعين، ليتبين الفرق.

(١) قاضي البرة أبو وائلة إياس بن معاوية بن قرة المزني الليثي يضرب بذكائه وفطنته المثل كان صاحب فراصة قيل لأبيه معاوية كيف ابنك لك قال كفاني أمر دنياي وفرغني لآخرتي وعنه قال رأيت في المنام كأني وأبي على فرسين معا فلم أسبقه ولم يسبقني وعاش أبي ستا وتسعين سنة وها أنا فيها فلما كان آخر لياليه قال الليلة استكملت عمري ونام فأصبح ميتا رَحِمَهُ اللهُ تعالى وذلك

سنة ١٢٢هـ (شذرات الذهب ١/ ١٦٠)

(٢) الجامع لأحكام القرآن (١٠/ ٤٢-٤٥)



### نماذج من الضراعة الباطنة

عن عائشة زوج النبي ﷺ أنها قالت: إن أبا بكر الصديق كان نحلها جداد عشرين وسقا من ماله بالغابة، فلما حضرته الوفاة،

قال: والله يا بنية، ما من الناس أحد أحب إلي غني بعدي منك، ولا أعز علي فقرا بعدي منك، وإنني كنت نحلتك جداد عشرين وسقا فلو كنت جدديته واحتزتيه كان لك، وإنما هو اليوم مال وارث، وإنما هما أخواك وأختاك، فاقسموه على كتاب الله.

قالت عائشة: فقلت يا أبت والله لو كان كذا وكذا لتركته، إنما هي أسماء، فمن الأخرى؟

فقال أبو بكر: ذو بطن بنت خارجه أراها جارية.<sup>(١)</sup> فكان كما قال ﷺ.

روي أن عمر بن الخطاب ﷺ ومر به سواد بن قارب ولم يكن يعرفه، فقال: لقد أخطأ ظني أن هذا كاهن أو كان يعرف الكهانة في الجاهلية.

فلما جلس بين يديه، قال له ذلك عمر فقال: سبحان الله يا أمير المؤمنين، ما استقبلت أحدا من جلسائك بمثل ما استقبلتني به.

فقال له عمر ﷺ: ما كنا عليه في الجاهلية أعظم من ذلك، ولكن أخبرني عما سألتك عنه.

فقال: صدقت يا أمير المؤمنين، كنت كاهنا في الجاهلية.

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٧٥٢/٢) رقم (١٤٣٨) والبيهقي في السنن الكبرى (٢٥٧/٦) رقم (١٢٢٦٧) وعبد الرزاق في المصنف (١٠١/٩)



ثم ذكر القصة.<sup>(١)</sup>

وقال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دخلت على عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكنت رأيت امرأة في الطريق، تأملت محاسنها، فقال عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يدخل علي أحدكم وأثر الزنا ظاهر في عينيه؟! فقلت: أوحى بعد رسول الله؟ فقال: لا، ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة.<sup>(٢)</sup>

### نماذج من الفراسة الظاهرة

ذكر ابن القيم في الطرق الحكمية قصصا كثيرة في فراسة الخلفاء والقضاة، نذكر بعضها منها:

ومن ذلك أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أته امرأة. فشكرت عنده زوجها. وقالت: هو من خير أهل الدنيا، يقوم الليل حتى الصباح، ويصوم النهار حتى يمسي. ثم أدركها الحياء. فقال: جزاك الله خيرا، فقد أحسنت الثناء. فلما ولت. قال كعب بن سور<sup>(٣)</sup>: يا أمير المؤمنين، لقد أبلغت في الشكوى إليك.

فقال: وما اشتكت؟

قال: زوجها.

(١) جزء من حديث طويل أخرجه الحاكم في المستدرک (٧٠٣-٧٠٤)

(٢) مدارج السالكين (٤٨٤-٤٨٦)

(٣) كعب بن سور بن بكر من الأزد. بعثه عمر بن الخطاب كعب بن سور على قضاء البصرة. أخذ المصحف يوم وقعة الجمل فنشره ومشى بين الصفين يدعوهم إلى ما فيه فجاءه سهم غرب فقتله وكان معروفا بالخير والصلاح وليس له حديث (الطبقات الكبرى ٧/ ٩١)



قال: علي بهما.

فقال لكعب: اقض بينهما.

قال: أقضي وأنت شاهد؟

قال: إنك قد فطنت إلى ما لم أفطن له.

قال: إن الله تعالى يقول: ﴿فَأَنكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ [النساء: ٣]،

صم ثلاثة أيام، وأفطر عندها يوماً، وقم ثلاث ليال، وبت عندها ليلة.

فقال عمر: هذا أعجب إلي من الأول.

فبعثه قاضياً لأهل البصرة. فكان يقع له في الحكومة من الفراسة أمور عجيبة.<sup>(١)</sup>

قال الشعبي<sup>(٢)</sup>: شهدت شريحاً. وجاءته امرأة تخاصم رجلاً. فأرسلت عينيها

وبكت. فقلت: يا أبا أمية، ما أظن هذه البائسة إلا مظلومة.

فقال: يا شعبي، إن إخوة يوسف ﴿وَجَاءَ وَآبَاهُمُ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦].<sup>(٣)</sup>

وتقدم إلى إياس بن معاوية أربع نسوة، فقال إياس: أما إحداهن فحامل،

والأخرى مريض، والأخرى ثيب، والأخرى بكر، فنظروا فوجدوا الأمر كما قال.

(١) الطرق الحكمية ص ٣٦

(٢) عامر بن شراحيل الشعبي الكوفي. ولد لست سنين مضت من خلافة عمر علي المشهور وأدرك

خمس مائة من الصحابة وقال ما كتبت سوداء في بيضاء قط ولا حدثني رجل بحدث فأحببت أن

يعيده علي ولا حدثني رجل بحدث إلا حفظته وقال أبو مخلد ما رأيت أفقه من الشعبي وقال

عبد الملك بن عمير. مر ابن عمر على الشعبي وهو يحدث بالمغازي فقال لقد شهدت القوم فلهو

أحفظ لها وأعلم بها، مات سنة ثلاث ومائة أو أربع أو سبع أو عشر (طبقات الحفاظ ٣٠ / ١)

(٣) الطرق الحكمية ص ٣٧





قالوا: وكيف عرفت؟

فقال: أما الحامل، فكانت تكلمني وترفع ثوبها عن بطنها، فعرفت أنها حامل، وأما المرضع فكانت تضرب ثدييها فعرفت أنها مرضع، وأما الثيب فكانت تكلمني وعينها في عيني، فعرفت أنها ثيب، وأما البكر فكانت تكلمني وعينها في الأرض، فعرفت أنها بكر.<sup>(١)</sup>

وجاء رجلان إلى إياس بن معاوية يختصمان في قطيفتين، إحداهما حمراء، والأخرى خضراء، فقال أحدهما: دخلت الحوض لأغتسل، ووضعت قطيفتي، ثم جاء هذا فوضع قطيفته تحت قطيفتي، ثم دخل فاغتسل فخرج قبلي، وأخذ قطيفتي فمضى بها، ثم خرجت فتبعته، فزعم أنها قطيفته.

فقال: ألك بينة؟

قال: لا.

قال: ائتوني بمشط فأتى بمشط، فسرح رأس هذا ورأس هذا، فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر، ومن رأس الآخر صوف أخضر، فقضى بالحمراء للذي خرج من رأسه الصوف الأحمر، وبالخضراء للذي خرج من رأسه الصوف الأخضر.

واختصم إليه رجلان، فقال أحدهما: إنه باعني جارية رعناء. فقال إياس: وما عسى أن تكون هذه الرعونة؟

قال: شبه الجنون.

فقال إياس: يا جارية أذكرين متى ولدت؟



قالت: نعم.

قال: فأَيُّ رجلِك أطول؟

قالت: هذه.

فقال إِيَّاس: ردها فإنها مجنونة.

وقال نعيم بن حماد<sup>(١)</sup> عن إبراهيم بن مرزوق البصري<sup>(٢)</sup>: كنا عند إِيَّاس بن معاوية قبل أن يستقضي، وكنا نكتب عنه الفراسة كما نكتب عن المحدث الحديث. إذ جاء رجل، فجلس على دكان مرتفع بالمربد. فجعل يترصد الطريق. فبينما هو كذلك. إذ نزل فاستقبل رجلا فنظر في وجهه. ثم رجع إلى موضعه.

فقال إِيَّاس: قولوا في هذا الرجل.

قالوا: ما نقول؟ رجل طالب حاجة.

فقال: هو معلم صبيان قد أبق له غلام أعور.

فقام إليه بعضنا، فسأله عن حاجته، فقال: هو غلام لي أبق.

قالوا: وما صفته؟

(١) نعيم بن حماد أبو عبد الله الفارض الأعور منهم من وثقه والأكثر منهم ضعفه قال في المغني: نعيم بن حماد أحد الأئمة وثقه أحمد بن حنبل وغيره وابن معين في رواية وقال في رواية أخرى يشبه له فيروي ما لا أصل له وقال النسائي ليس بثقة وقال الدارقطني كثير الوهم وقال أبو حاتم محلّه الصدق وقال العباس بن مصعب وضع كتباً في الرد على أبي حنيفة قال الأزدي كان يضع الحديث في تقوية السنة وحكايات مزورة في ثلب أبي حنيفة كلها كذب وكان من أعلم الناس بالفرائض انتهى ملخصاً. توفي سنة ٢٢٨ (شذرات الذهب ١/ ٦٦-٦٧)

(٢) إبراهيم بن مرزوق بن دينار الحافظ الحجة أبو إسحاق البصري نزيل مصر مات في جمادى الآخرة سنة سبعين ومعين سكن مصر (سير أعلام النبلاء ١٢/ ٣٥٤-٣٥٥)



قال: كذا وكذا وإحدى عينيه ذاهبة.

قلنا: وما صنعتك؟

قال: أعلم الصبيان.

قلنا لإياس: كيف علمت ذلك؟

قال: رأيته جاء، فجعل يطلب موضعاً يجلس فيه، فنظر إلى أرفع شيء يقدر عليه، فجلس عليه. فنظرت في قدره، فإذا ليس قدره قدر الملوك. فنظرت فيمن اعتاد في جلوسه جلوس الملوك، فلم أجدهم إلا المعلمين. فعلمت أنه معلم صبيان.

فقلنا: كيف علمت أنه أبق له غلام؟

قال: إني رأيته يترصد الطريق، ينظر في وجوه الناس.

قلنا: كيف علمت أنه أعور؟

قال: بينما هو كذلك، إذ نزل فاستقبل رجلاً قد ذهب إحدى عينيه، فعلمت أنه شبهه بغلامه.

ونظر إياس بن معاوية إلى رجل، فقال: هذا غريب، وهو من أهل واسط، وهو معلم، وهو يطلب عبداً له أبق. فوجدوا الأمر كما قال. فسألوه، فقال: رأيته يمشي ويلتفت، فعلمت أنه غريب، ورأيتُه وعلى ثوبه حمرة تربة واسط، فعلمت أنه من أهلها، ورأيتُه يمر بالصبيان، فيسلم عليهم، ولا يسلم على الرجال، فعلمت أنه معلم، ورأيتُه إذا مر بذي هيئة لم يلتفت إليه، وإذا مر بذي أسمال تأمله، فعلمت أنه يطلب آبقاً.

ومر إياس بن معاوية، فسمع قراءة من عليه. فقال: هذه قراءة امرأة حامل بغلام.



فسئل: كيف عرفت ذلك؟

فقال: سمعت بصوتها ونفسها مخالطة، فعلمت أنها حامل، وسمعت صحلا، فعلمت أن الحمل غلام.

ومر بعد ذلك بكتاب فيه صبيان، فنظر إلى صبي منهم. فقال: هذا ابن تلك المرأة. فكان كما قال.

وقال رجل لإياس بن معاوية: علمني القضاء.

فقال: إن القضاء لا يعلم، إنما القضاء فهم، ولكن قل: علمني من العلم.

وهذا هو سر المسألة، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَمْرُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ (ص: ٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴿[الأنبياء: ٧٨، ٧٩] فخص سليمان بفهم القضية وعمهما بالعلم.<sup>(١)</sup>

#### الاستخارة

ومن هذه الوسائل المساعدة لاستشراف المستقبل هي الاستخارة. وهي وسيلة سهلة ميسرة لمن أراد أن يقدم على شيء أو يحجم، أن يصلي ركعتين ثم يدعو ربه يسأل هل الأمر الذي سيقدم عليه خير له فيمضي أو شر فيمسك؟ إذا يسر الله له الأمر أو أظهر الله له أمارة معينة على أن يمضي، يمضي وهو واثق أن الأمر سيكون خيرا بلا شك. وإذا لم يتيسر أو ظهر علامة معينة تشير إلى الإمساك يمسك وهو يعلم أن غيره خير له بدلا عنه.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، يقول: إذا هم أحدكم بالأمر فليركع

(١) الطرق الحكيمة ص ٤٧-٤٩ بتصرف يسير



ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقُل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي، في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال عاجل أمري وآجله، فاقدري لي ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي، في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، أو قال في عاجل أمري وآجله، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان، ثم أرضني به، قال: ويسمي حاجته.<sup>(١)</sup>

وقد شرع لنا رسول الله ﷺ هذه السنة، وبلغ به من الاهتمام حتى يعلمها للصحابة كما يعلمهم السورة من القرآن.

وهذه الوسيلة من أنفع الوسائل لمعرفة مستقبل أمر سنقدم عليه. فإذا استخرنا الله ويسر الله لنا ذلك الأمر فاستيقن أن مآله خير بلا شك. وسيبارك الله فيه. وإذا استخرنا الله ثم صرفنا الله عنه أو صرف الله هذا الأمر عنا فاعلم أن في ذلك الأمر ضرراً ما وسيأتي الله بدله ما هو خير منه.

#### الرؤيا الصالحة

ومن تلك الوسائل المساعدة لاستشراف المستقبل هي الرؤيا الصادقة. قال العلامة الشيخ يوسف القرضاوي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: "والناس في قضية الرؤيا جد متفاوتين:

فمن الناس من غلظ حجابهم -كالماديين في عصرنا وفي كل عصر، وكأتباع مدرسة التحليل النفسي- فهم ينكرون الرؤيا الصادقة، ولا يرون الرؤيا كلها إلا

(١) أخرجه البخاري (١/٣٩١ رقم ١١٠٩، ٥/٢٣٤٥ رقم ٦٠١٩، ٦/٢٦٩٠ رقم ٦٩٥٥)



انعكاسا لما في النفس حالة اليقظة، أو لما يختبئ في سرايب العقل الباطن (اللاشعور).

وفي مقابل هؤلاء من يعتمدون في حياتهم على الرؤيا كأنها وحي، ويتنظرون في كل أمر أن يروا فيه رؤيا تشير لهم إلى الطريق. بل منهم من يجعلها حجة يستدل بها كما يستدل بالسنة والكتاب أو الإجماع والقياس.<sup>(١)</sup>

والحق دائما يلوح بين طرفي الإفراط والتفريط. وهو موقف الإسلام، الذي يحارب الخرافة والاعتقادات الباطلة ولم يحصر منافذ المعرفة على حدود الحواس الخمسة. وفي قضية الرؤيا لم يغرق الإسلام في عالم الخيالات المنامية لكنه كشف للناس أن من الروى ما يكون حقا من الله تعالى.

فقد روى عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "والرؤيا ثلاثة؛ فرويا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه."<sup>(٢)</sup> فما كان من الشيطان فلا ينبغي للإنسان أن يشتغل به.

عن جابر قال جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله رأيت في المنام كأن رأسي ضرب فتدحرج فاشتدت على أثره.

فقال رسول الله ﷺ للأعرابي: لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك في منامك.<sup>(٣)</sup>

(١) موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن التائم والكهانة والرقى، د. يوسف

القرضاوي، ص ١٢٠، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٣٢٢ هـ - ٢٠٠١ م

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٧٣ رقم ٢٢٦٣).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٧٦ رقم ٢٢٦٨)



وعن أبي سلمة يقول: لقد كنت أرى الرؤيا فتمرضني حتى سمعت أبا قتادة يقول: وأنا كنت أرى الرؤيا تمرضني حتى سمعت النبي ﷺ يقول: "الرؤيا الحسنة من الله فإذا رأى أحدكم ما يحب فلا يحدث به إلا من يحب، وإذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها ومن شر الشيطان وليتفلثا ولا يحدث بها أحدا فإنها لن تضره." (١)

إن الاكتراث بالأحلام المزعجة يؤدي إلى قلق واضطراب نفسي، فالإسلام أرشد إلى التخلص من هذا التحزين من الشيطان زيادة على ما سبق من عدم المبالاة به بأن يتعوذ الإنسان من الشيطان إحباطا لكيد الشيطان ووسوسته.

عن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ يقول: إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله فليحمد الله عليها وليحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرها، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره. (٢)

ويستحب أيضا الصلاة بعد الرؤيا المنامية الكريهة.

عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "إذا اقترب الزمان لم تكدر رؤيا المسلم تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءا من النبوة، والرؤيا ثلاثة؛ فرؤيا الصالحة بشرى من الله، ورؤيا تحزين من الشيطان، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه، فإن رأى أحدكم ما يكره فليقم فليصل ولا يحدث بها الناس." (٣)

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٢/٦) رقم ٦٦٣٧ ومسلم (١٧٧٢/٤) رقم ٢٢٦١

(٢) أخرجه البخاري (٢٥٦٢/٦) رقم ٦٥٨٤

(٣) أخرجه مسلم (١٧٧٣/٤) رقم ٢٢٦٣



"فالناس على هذا ثلاث درجات: (الأنبياء) ورؤياهم كلها صدق. وقد يقع فيها ما يحتاج إلى تعبير. و(الصالحون) والأغلب على رؤياهم الصدق. وقد يقع فيها ما لا يحتاج إلى تعبير. و(من عداهم) يقع في رؤياهم الصدق والأضغاث، وهي على ثلاثة أقسام: (مستورون)، فالغالب استواء الحال في حقهم. و(فسقة) والغالب على رؤياهم الأضغاث، ويقل فيها الصدق. و(كفار) ويندر في رؤياهم الصدق جدا." (١)

وكلامنا إنما هو في الرؤيا الصادقة فهي التي تفيد معرفة المستقبل. وهي من بقايا النبوة التي قال عنها الرسول ﷺ: "أيها الناس إنه لم يبق من مبشرات النبوة، إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له." (٢)

عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "لم يبق من النبوة إلا المبشرات. قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة." (٣)

قال ابن القيم رحمة الله عليه: "...والذي هو من أسباب الهداية - أي من الرؤى - هو الرؤيا من الله خاصة.

ورؤيا الأنبياء وحي فإنها معصومة من الشيطان وهذا باتفاق الأمة ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَام بالرؤيا.

وأما رؤيا غيرهم فتعرض على الوحي الصريح، فإن وافقته وإلا لم يعمل بها." (٤)

(١) فتح الباري (١٢/٣٦٢)

(٢) أخرجه مسلم (١/٣٤٨ رقم ٤٧٩)

(٣) أخرجه البخاري (٦/٢٥٦٤ رقم ٦٥٨٩)

(٤) مدارج السالكين (١/٥١)





### مشروعيتها

عرض القرآن الكريم لقضية الرؤيا في قصة الخليل إبراهيم مع ابنه الذبيح إسماعيل عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وفي قصة يوسف في أكثر من موضع.

وقد اتفق العلماء على أن رؤيا الأنبياء إحدى طرق الوحي، وهي داخلة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَى حَكِيمٍ﴾ [الشورى: ٥١]، فقله ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ يشمل الإلهام، وما يطلق عليه "النفث في الروح" يعني في اليقظة، كما يشمل الرؤيا في النوم، وعلى هذا اعتبرت رؤيا إبراهيم في ذبح ولده وحيا وأمرًا من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى<sup>(١)</sup>.

ففي قصة إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام دلالة واضحة على اعتبار مدلول الرؤيا، لكنها تقتصر على رؤيا نبي وهو إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. ولكن في قصة يوسف عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما يدل على أن رؤى عامة الناس قد تفيد علما مستقبليا. إلا أن تعبير الرؤيا يحتاج إلى علم ودراية.

فقد كان من شأن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يسأل أصحابه عن رؤاهم فيعبرها لهم. عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعني مما يكثر أن يقول لأصحابه: هل رأى أحد منكم من رؤيا؟ قال فيقص عليه من شاء الله أن يقص<sup>(٢)</sup>. قال ابن عبد البر: "وهذا الحديث يدل على شرف علم الرؤيا وفضلها، لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما كان يسأل عنها لتقص عليه ويعبرها ليعلم أصحابه كيف الكلام

(١) موقف الإسلام ص ١١٨ وانظر الجامع لأحكام القرآن (١٦/ ٥٣)

(٢) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (١/ ٤٦٦، رقم ١٣٢٠، ٦/ ٢٥٨٣، رقم ٦٦٤٠) ومسلم (٤/ ١٧٨١، رقم ٢٢٧٥) واللفظ للبخاري.



في تأويلها. وقد أثنى الله عَزَّوَجَلَّ على يوسف بن يعقوب صلى الله عليهما وعدد عليه فيما عدّد من النعم التي آتاه: التمكين في الأرض وتعليم تأويل الأحاديث. وأجمعوا أن ذلك في تأويل الرؤيا. وكان يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أعلم الناس بتأويلها. وكان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نحو ذلك. وكان أبو بكر الصديق من أَعبر الناس لها. وحصل لابن سيرين فيها التقدم العظيم والطبع والإحسان. ونحوه أو قرب منه كان سعيد بن المسيب في ذلك فيما ذكروا.<sup>(١)</sup>

وقال النووي: "وفيه -أي في الحديث- دليل لاستحباب إقبال الإمام المصلي بعد سلامه على أصحابه، وفيه استحباب السؤال عن الرؤيا، والمبادرة إلى تأويلها وتعجيلها أول النهار لهذا الحديث ولأن الذهن جمع قبل أن يتشعب باشغاله في معاش الدنيا، ولأن عهد الرائي قريب لم يطرأ عليه ما يهوش الرؤيا عليه، ولأنه قد يكون فيها ما يستحب تعجيله، كالحث على خير أو التحذير من معصية ونحو ذلك. وفيه إباحة الكلام في العلم وتفسير الرؤيا ونحوهما بعد صلاة الصبح."<sup>(٢)</sup>

#### الحدود المشروعة للاستفادة منها

إن دلالة الرؤيا مهما كانت صادقة لم يجعلها الشارع حجة شرعية يستدل بها في استنباط الأحكام من إيجاب الفعل أو منعه ولا جوازه أو تركه، ولا كراهية الفعل أو استحبابه، وذلك لأسباب:

١- أن الشرع قد حدد أدلة الأحكام في الكتاب والسنة، وما دلا عليه من الإجماع والقياس الصحيح. ولم يجعل من أدلة أحكامه رؤيا زيد أو عمرو من البشر

(١) التمهيد (١/٣١٣-٣١٤)، لابن عبد البر، وزارة عموم الأوقاف، المغرب، ١٣٨٧هـ

(٢) شرح النووي (١٥/٣٥)



غير المعصومين. قال تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ<sup>٥</sup> قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢]، وقال: ﴿وَمَا أَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

٢- أن منابع الرؤيا متعددة متنوعة، فهي كالكشف، منها ما هو روحاني، ومنها ما هو نفساني، وما هو شيطاني. فمن أين يأتي اليقين بأن رؤيا فلان هذه رحمانية لا نفسانية ولا شيطانية؟ كما تقدم في الحديث أن الرؤيا على ثلاثة أنواع. فالرؤيا الصادقة التي هي من دلائل الهداية هي التي من الله خاصة، وكيف يمكن التمييز بين الأنواع الثلاثة إلا بعرضها على ميزان آخر وهو الشرع؟ فرؤيا الأنبياء وحي، وهي حق، لأن الوحي لا يدخله خلل. لأنه محروس من الشيطان. هذا باتفاق الأمة. ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالرؤيا. وأما رؤيا غيرهم فلا عصمة لها، ولهذا وجب أن تعرض على الوحي الصريح، فإن وافقته وإلا لم يعمل بها.

٣- أن النائم ليس من أهل التحمل وهو غير مأمون على ضبط ما رآه، ولذا رفع عنه حكم التكليف.

٤- أن الغالب في الرؤيا أن تكون على خلاف ظاهرها، فهي عادة تكون رموزا وإشارات لا يفتن إلى حقيقتها إلا الأقلون من الناس. ولهذا اختص يوسف بأن الله علمه تأويل الأحاديث، أي الرؤى. ومن الناس كان يمكن أن يؤول رؤيا ملك مصر للبقر والسنبلات بما أوله يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ لقد عجز المعبرون في عصره وقالوا: ﴿قَالُوا أَصْغَتْ أَحْلَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعِلْمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤]. ولقد يرى الشخص



الواحد منامين متشابهين في وقتين أو حالين مختلفتين فيفسر كل منهما بعكس ما يفسر به الآخر.

ولهذه الأمور اتفق أهل العلم على أن الرؤيا لا تصلح للحجة وتتخذ دليلاً شرعياً. وإنما هي تبشير وتحذير وتنبيه. ولهذا سماها الرسول ﷺ: "المبشرات." (١) قال ابن القيم: "والرؤيا مبدأ الوحي، وصدقها بحسب صدق الرائي. وأصدق الناس رؤياً أصدقهم حديثاً. وهي عند اقتراب الزمان لا تكاد تخطيء. كما قال النبي ﷺ. وذلك لبعده العهد بالنبوة وآثارها، فيتعوض المؤمنون بالرؤيا. وأما في زمن قوة نور النبوة ففي ظهور نورها وقوته ما يغني عن الرؤيا.

ونظير هذا الكرامات التي ظهرت بعد عصر الصحابة، ولم تظهر عليهم لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم. واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم. وقد نص أحمد على هذا المعنى." (٢)

وقد تكلم الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ في الرد على هؤلاء المنحرفين الذين جعلوا المنامات كأنها وحي منزل فقال: "وأضعف هؤلاء -أي المبتدعة- احتجاجاً: قوم استندوا في أخذ الأعمال إلى المنامات، وأقبلوا وأعرضوا بسببها، فيقولون: رأينا كذا فلانا الرجل الصالح (أي في المنام)، فقال لنا: اتركوا كذا، واعملوا كذا. ويتفق هذا كثيراً للمتمرسين برسم التصوف. وربما قال بعضهم: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي كذا، وأمرني بكذا، فيعمل بها، ويترك بها، معرضاً عن الحدود الموضوععة في الشريعة. وهو خطأ. لأن الرؤي من غير الأنبياء لا يحكم بها شرعاً

(١) موقف الإسلام ص ١٢٥-١٢٦ مختصراً

(٢) مدارج السالكين (١/٥٠-٥١)



على حال، إلا أن تعرض على ما في أيدينا من الأحكام الشرعية. فإن سوغها عمل بمقتضاها، وإلا وجب تركها والإعراض عنها. وإنما فائدتها البشارة والندارة خاصة، وأما استفادة الأحكام فلا. كما يحكى عن الكنانى رَحِمَهُ اللهُ قال: رأيت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المنام، فقلت: ادع الله ألا يميت قلبي. فقال: "قل كل يوم أربعين مرة: يا حي يا قيوم، لا إله إلا أنت." فهذا كلام حسن، لا إشكال في صحته. وكون الذكر يحيي القلب صحيح شرعا. وفائدة الرؤيا: التنبيه على الخير. وهو من ناحية البشارة، وإنما يبقى الكلام في التحديد بالأربعين. وإذا لم يوجد على اللزوم (يعني إذا لم يلتزم به ويدوم عليه) استقام.

فلو رأى في النوم قائلا يقول: إن فلانا سرق فاقطعه، أو عالم فأسأله، أو اعمل بما يقول لك، أو فلان زنى فحده، وما أشبه ذلك، لم يصح له العمل، حتى يقوم له الشاهد في اليقظة، وإلا كان عاملا بغير شريعة، إذ ليس بعد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحي.

ولا يقال: إن الرؤيا من أجزاء النبوة فلا ينبغي أن تهمل، وأيضا إن المخبر في المنام قد يكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو قد قال: "من رآني في النوم فقد رآني حقا، فإن الشيطان لا يتمثل بي."<sup>(١)</sup> وإذا كان، فأخباره في النوم كأخباره في اليقظة، لأننا نقول: إن كانت الرؤيا من أجزاء النبوة فليست إلينا من كمال الوحي، بل جزء من أجزائه، والجزء لا يقوم مقام الكل في جميع الوجوه. بل إنما يقوم مقامه في بعض الوجوه، وقد صرفت إلى جهة البشارة والندارة، وفيها كاف.

وأیضا فإن الرؤيا التي هي جزء من أجزاء النبوة من شرطها أن تكون صالحة من الرجل الصالح، وحصول الشروط مما ينظر فيه، فقد تتوفر، وقد لا يتوفر.

(١) أخرجه البخاري (٥٢/١) رقم ١١٠، ٥/٢٢٨٩٠ رقم ٥٨٤٤، ٦/٢٥٦٨ رقم ٦٥٩٣ ومسلم (٤/١٧٧٥ رقم ٢٢٦٥-٢٢٦٦، ٤/١٧٧٦ رقم ٢٢٦٧-٢٢٧٨)



وأيضاً فهي منقسمة إلى الحلم وهو من الشيطان، وإلى حديث النفس. وقد تكون سبب هيجان بعض أخلاط، فمتى تتعين الصالحة حتى يحكم بها، وتترك غير الصالحة؟

ويلزم أيضاً على ذلك أن يكون تجديد وحي بحكم بعد النبي ﷺ وهو منهي عنه بالإجماع.<sup>(١)</sup>

قال: "وأما الرؤيا التي يخبر فيها رسول الله ﷺ الرائي بالحكم فلا بد من النظر فيها أيضاً. لأنه إذا أخبر بحكم موافق لشريعته، فالحكم بما استقر، وإن أخبر بمخالف، فمحال. لأنه لا ينسخ بعد موته شريعته المستقرة في حياته. لأن الدين لا يتوقف استقراره بعد موته على حصول المرئي المنامية، لأن ذلك باطل بالإجماع. فمن رأى شيئاً من ذلك فلا عمل عليه، وعند ذلك نقول: إن رؤياه غير صحيحة، إذ لو رآه حقاً لم يخبره بما يخالف الشرع.

ولكن يبقى النظر في معنى قوله ﷺ "من رآني في النوم فقد رآني". وفيه تأويلان:

(أحدهما) ما ذكر ابن رشد إذ سئل عن حاكم شهد عنده عدلان مشهوران بالعدالة في قضية، فلما نام الحاكم ذكر أنه رأى النبي ﷺ، فقال له: ما تحكم بهذه الشهادة؟ فإنها باطلة. فأجاب بأنه لا يحل له أن يترك العمل بتلك الشهادة، لأن ذلك إبطال لأحكام الشريعة بالرؤيا. وذلك باطل لا يصح أن يعتقد. إذ لا يعلم الغيب من ناحيتها إلا الأنبياء الذين رؤياهم وحي. ومن سواهم إنما رؤياهم جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة.

(١) الاعتصام، لأبي إسحاق الشاطبي (١٧٦-١٧٧)، دار إحياء لتراث العربي، بيروت، بدون سنة الطبع.



ثم قال: وليس معنى قوله "من رأي فقد رأي حقاً" أن كل من رأى في منامه أنه رأى فقد رآه حقيقة. بدليل أن الرائي فقد رآه مرات على صور مختلفة، ويراها الرائي على صفة، وغيره على صفة أخرى. ولا يجوز أن تختلف صور النبي ﷺ ولا صفاته. وإنما معنى الحديث "من رأي على صورتي التي خلقت عليها فقد رأي، إذ لا يتمثل الشيطان بي." إذ لم يقل: من رأى أنه رأي فقد رأي. وأنى لهذا الرائي الذي رأى أنه رأى على صورته أنه رآه عليها؟ وإن ظن أنه رآه. ما لم يعلم أن تلك الصورة صورته بعينها. وهذا ما لا طريق لأحد إلى معرفته.

فهذا ما نقل عن ابن رشد. وحاصل يرجع إلى أن المرئي قد يكون غير النبي ﷺ وإن اعتقد الرائي أنه هو.

(والتأويل الثاني): يقول علماء التعبير: إن الشيطان قد يأتي النائم في صورة ما من معارف الرائي وغيرهم فيشير له إلى رجل آخر: هذا فلان النبي، وهذا الملك الفلاني، أو من أشبه هؤلاء ممن لا يتمثل الشيطان به، فيوقع اللبس على الرائي بذلك وله علامة عندهم. وإذا كان كذلك أمكن أن يكلمه المشار إليه بالأمر والنهي غير الموافقين للشرع. فيظن الرائي أنه من قبل النبي ﷺ. ولا يكون كذلك، فلا يوثق بما يقول له أو يأمر أو ينهى.

وما أخرى هذا الضرب أن يكون الأمر أو النهي فيه مخالفاً لكمال الأول، حقيق بأن يكون فيه موافقا، وعند ذلك لا يبقى في المسألة إشكال. نعم لا يحكم بمجرد الرؤيا حتى يعرضها على العلم، لإمكان اختلاط أحد القسمين بالآخر. وعلى الجملة فلا يستدل بالرؤيا في الأحكام إلا ضعيف المنة. نعم يأتي المرئي تأنيسا وبشارة ونذارة خاصة، بحيث لا يقطعون بمقتضاها حكمان ولا يبنون عليها أصلا، وهو الاعتدال في أخذها، حسبما فهم من الشرع فيها، والله أعلم.<sup>(١)</sup>



لا يعبر إلا عالم ناصح

قيل لمالك رَحِمَهُ اللهُ: أيعبر الرؤيا كل أحد؟

فقال: أبالنبوة يلعب؟

وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيرا أخبر به، وإن رأى مكروها فليقل خيرا أو ليصمت.

قيل: فهل يعبرها على الخير وهي عنده على المكروه، لقول من قال إنها على ما أولت عليه؟

فقال: لا. ثم قال: الرؤيا جزء من النبوة فلا يتلاعب بالنبوة.<sup>(١)</sup>

عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن الرؤيا تقع على ما تعبر، ومثل ذلك مثل رجل رفع رجله فهو ينتظر متى يضعها، فإذا رأى أحدكم رؤيا فلا يحدث بها إلا ناصحا أو عالما.<sup>(٢)</sup>

ورد عن أبي هريرة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنه كان يقول: لا تقصوا الرؤيا إلا على عالم أو ناصح.<sup>(٣)</sup>

تعبير الرؤيا اجتهاد بشري يحتمل الخطأ والصواب

روى البخاري ومسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أنه كان يحدث أن رجلا أتى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إني رأيت الليلة في المنام ظلة تنطف السمن والعسل،

(١) التمهيد (٢٨٨/١) ونقل عنه القرطبي في تفسيره (١٢٦/٩) وابن حجر في الفتح (٣٦٣/١٢)

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرک (٤٣٣/٤) رقم (٨١٧٧) وصححه ووافقه عليه الذهبي وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٠٥/١٩) رقم (٤٦٣) عن أبي رزين وزاد فيه: "أو حبيبا".

(٣) أخرجه الدارمي في سننه (١٦٩/٢) رقم (٢١٤٧)





فأرى الناس يتكفون منها، فالمستكثر والمستقل، وإذا سبب واصل من الأرض إلى السماء، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فعلا به، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع ثم وصل.

فقال أبو بكر: يا رسول الله بأبي أنت والله لتدعني فأعبرها.

فقال النبي ﷺ: اعبرها.

قال: أما الظلة فالإسلام، وأما الذي ينطف من العسل والسمن فالقرآن، حلاوته تنطف، فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه، تأخذ به فيُعَلِّيك الله، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أصبت أم أخطأت؟

قال النبي ﷺ: أصبت بعضا وأخطأت بعضا.

قال: فوالله لتحدثني بالذي أخطأت.

قال: لا تقسم.<sup>(١)</sup>

قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: "وفي هذا الحديث جواز عبر الرؤيا، وأن عابرها قد يصيب وقد يخطئ، وأن الرؤيا ليست لأول عابر على الإطلاق، وإنما ذلك إذا أصاب وجهها."<sup>(٢)</sup>

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٢/٦) رقم ٦٦٣٩ ومسلم (١٧٧٧/٤) رقم ٢٢٦٩

(٢) شرح النووي (٢٩/١٥)



### الرؤيا الصالحة مجرد مبشرات أو منبهات

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لم يبق من النبوة إلا المبشرات. قالوا: وما المبشرات؟ قال: الرؤيا الصالحة. (١)

قال القرطبي في هذا الحديث: وهذا الحديث بظاهره يدل على أن الرؤيا بشرى على الإطلاق، وليس كذلك. فإن الرؤيا الصادقة قد تكون منذرة من قبل الله تعالى، لا تسر رائيها. وإنما يريها الله تعالى المؤمن رفقا ليستعد لنزول البلاء قبل وقوعه. فإن أدرك تأولها بنفسه، وإلا سأل عنها من له أهلية ذلك. وقد رأى الشافعي رضى الله عنه وهو بمصر رؤيا تحصل لابن حنبل تدل على محنته، فكتب إليه بذلك ليستعد لذلك. وقد تقدم في يونس في تفسير قوله تعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [يونس: ٦٤] أنها الرؤيا الصالحة. وهذا وحديث البخاري مخرجه على الأغلب. والله أعلم. (٢)

قال ابن حجر: "قال المهلب (٣) ما حاصله أن التعبير بالمبشرات خرج للأغلب، فإن من الرؤيا ما تكون منذرة، وهي صادقة يريها الله للمؤمن رفقا به ليستعد لما يقع قبل وقوعه. (٤)"

"إن الرؤى الصالحة مجرد مبشرات أو منبهات لتشيت قلوب المؤمنين أو تقوية عزائمهم وليست مخدرات، يتعاطاها بعض السليبيين من الناس ليتخذوا منها تكأة

(١) أخرجه البخاري (٦/٢٥٦٤ رقم ٦٥٨٩)

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٩/١٢٧)

(٣) أبو القاسم المهلب أحمد بن أبي صفرة الأندلسي الأسدي قاضي المرية وكان من أهل الذكاء المفرط والاعتناء التام بالعلوم وقد شرح صحيح البخاري وتوفي في شوال في سن الشيخوخة سنة ٤٣٥هـ (شذرات الذهب ٢/٢٥٥)

(٤) فتح الباري (١٢/٣٧٥)



للاتكالية الواهنة، وللهرب من الواقع، أو للعود عن مجاهدة الفساد، ومواجهة الظلم والظلام. فهو إذا رأى في منامه أن طاغية سيسقط، أو أن نظاما سينهار، أو أن طائفة ستنتصر، هلل وكبر، وضحك واستبشر، ووقف عند هذا الحد، لا يقوم بجهد إيجابي في تحويل الغيب المرتقب إلى واقع ملموس، مكتفيا بإلقاء العبء على كاهل القدر الذي يقول للشيء: "كن" فيكون.

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه لم يكونوا ينظرون إلى الرؤيا أكثر من أنها بشرى، ثم يمشون في خطتهم وجهادهم، سائرين على الدرب، غير وائين ولا متثاقلين، ولا مهملين لسنن الله. <sup>(١)</sup>



# الباب الرابع

## بناء المستقبل الإسلامي، تطلعات وخطوات

الفصل الأول:

هدي القرآن والسنة في صناعة المستقبل



الفصل الثاني:

تطلعات مستقبلية







قد تبين من خلال ما سبق ما هي المنطلقات العقدية التي ينبغي أن يبنى المسلم أو المجتمع المسلم على أساسها تطلعه المستقبلي، والأفكار العميقة لذلك، وما هي الوسائل التي يتوصل بها في تعرف مستقبله. وفي هذا الباب سنتناول التصورات المستقبلية التي ينبغي أن يتطلع إليها الإنسان المسلم أو المجتمع المسلم بناء على المنطلقات الإسلامية الأصيلة. وما هي السلوكيات المطلوبة لتحقيق تلك الطموحات كما بينها هدي الإسلام الأصيل.

إن تطلعنا إلى المستقبل واستشرافنا له ليس أكثر من خطوة مبتدأة في السير إلى غد أفضل، وبداية العمل لتحقيق مستقبل مشرق. وليس اشتغالنا بالمستقبل ترفاً علمياً تملأ به المكتبات، وتلهى به المجالس. إنه محاولة جادة وعزيمة صادقة على إيجاد واقع جديد يوازي تلك المثل التي يراود من الإنسان تحقيقها.

فهذا الباب يقدم نموذجاً مقترحاً لرؤية مستقبلية تتصف بالأصالة الإسلامية وتتحرى الوضوح والشمول. وتأتي هذه السطور لتوقظ الهمم النائمة، وتشجذ العزيمة الفاترة، وتفتق الأذهان النيرة، وتستدعي الأفكار الناضجة.

وليس المراد من هذا الباب تأكيد قدوم الإسلام وسيادة حكمه في المستقبل. فذلك أمر مفروغ منه وقد سبق تقريره في الكلام عن الأخبار المبشرة في الباب الثالث. وليس الغرض أيضاً إخبار بسقوط الأنظمة الظالمة أو انهزام معسكر الكفر وكل ما من هذا القبيل. فكل ذلك قد أشرنا إليه بما فيه كفاية والحمد لله. وإنما نريد من هذا الكلام أن نضع تصوراً بشيء من التفصيل أكثر من عمومات النصوص، كيف يتحقق وعد الله بانتصار هذا الدين وظهور أهله. لأننا نريد أن ننهي دور المتفرجين والسلبين. فيكون كلامنا في هذا الباب كله كلاماً عملياً يدفعنا إلى التغيير كما أرشد إليه قرآننا وسنة نبينا وهدى سلفنا.



والرسالة التي تحملها هذه الأطروحة هي أنه يجب أن يكون للإنسان المسلم رؤية واضحة، ولا يبنى حياته على التصورات العائمة التي تترك للارتجال والتخبط مساحة تشتت الجهود وتضيع الأوقات. وأن يكون للمسلم مذهبه الأصيل، المنبثق من عقيدته ودينه، وليس مجرد ردود الأفعال أو محض هروب من الواقع الأليم. إن المسلم صاحب رسالة سماوية يحمل مهمة إنسانية شريفة، فالمسلم لا يعيش لنفسه. بل لا يأتي ويذهب إلا من أجل رسالته كما قال تعالى : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. فالأمة الإسلامية أمة لا تبقى لنفسها، هي أمة أخرجها الله للناس، تحمل رسالة رحمة للعالمين.

وأقسم هذا الباب إلى فصلين، الفصل الأول سأتناول فيه الإرشادات العملية من القرآن والسنة لصياغة المستقبل المنشود. والفصل الثاني سأطرح فيه نموذجاً مقترحاً من الرؤية المستقبلية التي "يحلم" بها المسلم الطموح الذي يصدق ما وعده الله ورسوله من انتصار هذا الدين وظهور أهله. وسأطرح الخطوات العملية التي يتحقق من خلالها ذلك الوعد.





## الفصل الأول: هدي القرآن والسنة في صناعة المستقبل

إن القرآن بين أن البداية في صناعة مستقبل الإنسان هي الإرادة من الإنسان نفسه. قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] إن الإنسان هو الذي يحدد موقفه من مستقبله، ومن خلال هذا الموقف يتحدد مساره بعد ذلك. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ [آل عمران: ١٤٥]. من اختار حياة الإيمان وسبيل الآخرة ستفتح له أبوابه، ومن اختار حياة الكفر وشهوات الدنيا ستكون له أسبابه. قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ يَدُهُ عُجَاجَةً عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [١٨] وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَتْ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩].

ويدل على ذلك حديث "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى." (١) على أحد الوجهين اللذين ذكرهما العلماء أن الباء هنا سببية فيكون المعنى أن الأعمال إنما تحصل بسبب النية، فهي السبب الباعث الذي يدفع الإنسان على العمل. (٢)

ثم إن الإرادة فقط لا تكفي لحصول المراد بل لا بد من العمل وبذل الجهد حتى يتحقق المقصود. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ

(١) أخرجه البخاري (٣/١) رقم ١، ٦/٢٤٦١، ٦/٢٥٥١ رقم ٢٥٥٣ (٦٥٥٣) ومسلم (٣/١٥١٥ رقم ١٩٠٧) واللفظ للبخاري.

(٢) انظر فتح الباري (١/١٠)





اللَّهُ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال أيضا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُمي الذي يتمنى ويريد شيئا بدون بذل الجهد عاجزا. قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله." (١)

إن من ترك نفسه لقيادة الشهوات ثم يتمنى على الله أمانى فارغة لعاجز عن إنجاز أي شيء نافع. فالرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمرنا بالاجتهاد في العمل، وينهانا عن العجز، فإنه ضياع وخسارة. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز." (٢)

لم يكتف الرسول في إرشاده بالحرص والاجتهاد في العمل، بل أمر أيضا بالاستعانة بالله، لأنه سبحانه هو النافع والضار وهو الذي بيده الأمر كله. فلا يكتفي المؤمن ببذل الجهد من نفسه بل يطلب أيضا العون من الله الذي بيده كل شيء وهو العزيز الحكيم. قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [فاطر: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُدْرِكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يونس: ١٠٧].

إن قدرة الله مطلقة، وإرادته نافذة. فلا يكون من شيء في السماوات ولا في الأرض إلا بإذنه. والخلق كلهم لو اجتمعوا على فعل شيء لم يقدره الله ما كان

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٢٤) والترمذي (٤/ ٦٣٨ رقم ٢٤٥٩) وحسنه وابن ماجه (٢/ ١٤٢٣ رقم ٤٢٦٠) والحاكم (١/ ١٢٥ رقم ١٩١) وصححه.

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤)



بوسعهم شيء من ذلك. قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك."<sup>(١)</sup>

هذه الحقائق كلها يمكن أن نصوغها بلغة الرياضيات في المعادلة الآتية:

$$[إرادة الإنسان \times جهده] + عوامل خارجية \times توفيق من الله = المحصلة.$$

ومعنى هذه المعادلة أن ما يحصل للإنسان من نتيجة فعله يساوي -كمًا ونوعًا- إرادته مضروبة في جهده، وهذه تشكل عوامل داخلية. وهذه العوامل الداخلية زائد العوامل الخارجية المؤثرة إيجاباً أو سلباً تشكل الأسباب الحسية. وهذه الأسباب مضروبة في "حجم" توفيق الله تساوي الحصلة النهائية من سعي الإنسان.

وإنما تكون العلاقة بين إرادة الإنسان وبين جهده علاقة ضرب لأن كلا منهما يأخذ قيمته وحجمه من الآخر. فلو فرض أن الإنسان عنده إرادة قوية ونية نبيلة، ولكن لم يبذل أي جهد لذلك، تكون النهاية صفراً لا شيء. وإذا كان جهده مناقضاً لما أراد وما قصد، تكون النتيجة سالبة. وكذلك إذا كان الإنسان يبذل جهداً كبيراً وسعيًا طيباً ولكن له نية ولا وراء إرادة وهدف معين، تكون النتيجة أيضاً ضياعاً وصفراً. أو سعيه في الظاهر طيب ولكن نيته سيئة وإرادته خبيثة تكون النتيجة سالبة.

وتكون العلاقة بين العوامل الداخلية والعوامل الخارجية علاقة زيادة أو نقص لأن كل واحد منهما لا يأخذ قيمته من الآخر، فمهما ضعفت العوامل الخارجية

(١) أخرجه أحمد (٢٩٣/١، رقم ٢٦٦٩، ٣٠٣/١، رقم ٢٧٦٣) والترمذي (٤/٦٦٧، رقم ٢٥١٦) وصححه والحاكم (٣/٦٢٣، رقم ٦٣٠٣، ٦٣٠٤)



لم تذهب قيمة إرادة الإنسان وجهده، بل تبقى مؤثرة وإن كان التأثير محدوداً، لكن التأثير بقي قائماً. وكذلك العكس. (بل العوامل الداخلية قد تحوّل العوامل الخارجية السالبة إلى عوامل إيجابية بحنكة وذكاء ومع إصرار وعزيمة. وكذلك العكس. قد تغير العوامل الخارجية مجرى العوامل الداخلية إلى اتجاه آخر إذا ضعفت الإرادة والعزيمة وغابت الحنكة والذكاء).

والعلاقة بين توفيق الله وهذه الأسباب الموجودة علاقة ضرب لأن هذه الأسباب قيمتها وفاعليتها تتوقف على ما أعطى الله لها من قيمة وفاعلية. إذا وفق الله العبد، ضاعف الجهد القليل، وبارك السبب الضئيل، وعظم القصد اليسير. وإذا أراد الله إحباط عمل، نسف الجهد الكثير، وضعيع السبب الكبير، وأبطل القصد النبيل.

إلا أن عادة الله في العبد ورحمته به أن الله إذا اطلع أن في قلب عبده نية خالصة وموقفا صادقا بارك الله في عمله وأعانه على قصده. تأمل قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلًا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فالله يهدي هؤلاء الذين "جاهدوا" أي اجتهدوا وبذلوا جهدا طيبا، وهذا كله فينا، في الله وفي مرضاته، أي قصده خالص لله. فهؤلاء أعانهم الله على نيتهم الصادقة وبارك في جهودهم الطيبة.

ومثل ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيَهُمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩].

وكذلك الحديث القدسي المتفق عليه قال رسول الله صلى عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: "إذا تقرب العبد إلي شبرا تقربت إليه ذراعا، وإذا تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإذا أتاني يمشي أتيته هرولة".<sup>(١)</sup>

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٧٤١، رقم ٧٠٩٨، ٧٠٩٩) ومسلم (٤/ ٢٠٦٧، رقم ٢٦٧٥، ٢١٠٢/٤) واللفظ للبخاري.



وهذا قانون سعي الإنسان إجمالاً. فلتتكلم عن كل هذه العوامل تفصيلاً. فأقول:

#### المبحث الأول: في الإرادة

إن العنصر الأول من عناصر التغيير وأول بذرة من بذور الإصلاح هو الإرادة. وأول مشكلة من مشاكل الإنسان وأهم عامل من عوامل الفشل هو غياب الإرادة القوية الصادقة. وأول الضياع الذي أصيب به الإنسان هو ضياع الهدف.

والإرادة لها ثلاثة أبعاد؛ الأول: وجهتها وهي ما يسمى بالهدف، الثاني: خلوصها وتجردها وهذه القضية يتكلم فيها تحت عنوان الإخلاص، والثالث: قوتها والإرادة في حالة قوتها تسمى العزم أو العزيمة.

#### الأهداف

إن أول قوة تبعث الإنسان على الحركة هو وجود هدف يقصده. فأول ما ينبغي أن يفكر فيه الإنسان هو الهدف، الهدف من حياته، والهدف من عمله، والهدف من كل شيء.

#### • الفكر قبل الإرادة والعمل

قال ابن القيم: أصل الخير والشر من قبل التفكير. فإن الفكر مبدأ الإرادة والطلب في الزهد والترك والحب والبغض. وأنفع الفكر (١) الفكر في مصالح المعاد، (٢) وفي طرق اجتلابها، (٣) وفي دفع مفسد المعاد، (٤) وفي طرق اجتنابها. فهذه أربعة أفكار هي أجل الأفكار. ويليهما أربعة: (١) فكر في مصالح الدنيا (٢) وطرق تحصيلها (٣) وفكر في مفسد الدنيا (٤) وطرق الاحتراز منها. فعلى هذه الأقسام الثمانية دارت أفكار العقلاء.<sup>(١)</sup>



فيجب على الإنسان أن يحدد هدفه ويوجه فكره نحو أنفع الأشياء وأجلها قدرا.

### • العلم وقدر الهدف

إنه حسب ما كان عند الشخص من العلم يكون قدر الفكر الذي يقوده إلى الهدف. فليغذ الإنسان أفكاره بعلم نافع شريف القدر، فبقدر العلم يكون قدر الفكر. وإذا سما فكر الإنسان سمت إرادته وطمحت أهدافه.

"وكمال كل انسان إنما يتم بهذين النوعين: (١) همة ترقيه، (٢) وعلم يبصره ويهديه، فإن مراتب السعادة والفلاح إنما تفوت العبد من هاتين الجهتين، أو من إحداهما. إما أن لا يكون له علم بها، فلا يتحرك في طلبها، أو يكون عالما بها، ولا تنهض همته إليها، فلا يزال في حضيض طبعه محبوبا وقلبه عن كماله الذي خلق له مصدودا منكوسا، قد أسام نفسه مع الأنعام راعيا مع الهمل، واستطاب لقيعات الراحة والبطالة واستلان فراش العجز والكسل، لا كمن رفع له علم، فشمير إليه وبورك له في تفرد في طريق طلبه، فلزمه واستقام عليه، قد أبت غلبات شوقه إلا الهجرة إلى الله ورسوله، ومقتت نفسه الرفقاء إلا ابن سبيل يرافقه في سبيله." (١)

### • النفس والإرادة

والنفس إن لم توجه نحو الخير والنفع ستتحرك اضطرابا إلى الشر والضرر.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة، فإن لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضار. وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ (٢)،

(١) مفتاح دار السعادة (٤٦/١)

(٢) سورة المعارج: ١٩-٢٢



فأخبر سبحانه أن الإنسان خلق على هذه الصفة، وإن كان على غيرها فلاجل ما زكاه الله به من فضله وإحسانه." (١)

### • الهدف الجيد يبعث على العمل الجيد

فالهدف الجيد هو الذي يقود الإنسان إلى عمل جيد. فكلما كبر الهدف عظم قدر العمل.

وقال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى." (٢)

لذلك نصح علماء علم الإدارة حتى يكون الهدف جيدا لا بد أن يتصف بخمس صفات: (١) أول شيء أن يكون طموحا، (٢) ثم أن يكون واقعا يمكن تحقيقه، (٣) وأن يكون محددا ليس غامضا عائما، (٤) وأن يوضع له تحديد زمني لإنجازه، (٥) وأن يمكن قياسه.

وفي كتب الإدارة تفصيلات مفيدة في الكلام عن الأهداف. فليرجع إليها.

### الإخلاص

إن حقيقة الحياة هي عبادة الله عَزَّوَجَلَّ. قال وَتَبَارَكَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]. والله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصا.

فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه." (٣)

(١) طريق الهجرتين ص ١٨٤-١٨٥

(٢) تقدم تخريجه قريبا انظر ص ٣٦٣

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٨٩ رقم ٢٩٨٥)



إن الله أغنى من أن يقبل عملاً مشوباً غير صاف. إنه طيب لا يقبل إلا طيباً ولا يليق له إلا الطيب. فرب العزة يترك من قدم عملاً مخلوطاً يريد به صاحبه أن يجعل مع الله غرضاً آخر. أليظن هذا أن وجه الله ورضوانه لا يكفيه ولا يرضيه؟ اللهم عياداً بك يا رب.

وقوله سبحانه: "تركته وشركه"، لا يدل فقط أن الله لا يقبل هذا العمل. بل هناك دلالة أخرى أخطر وأخوف. إنه الخذلان منه سبحانه. نعم الله، يترك هذا العامل وعمله. هل يرجو هذا العامل الذي يجمع بين الوجهة السامية والثمرة الدانية أن يوفقه الله ويبارك له في عمله؟ فأنى لهم التناوش من مكان بعيد!!

#### • وحدة الوجهة ووضوحها

إن إخلاص النية لله تعالى يمثل وحدة الجهة التي يتوجه إليها العامل، فلا يتشعب طريقه ولا تتشتت نظراته. وهذا يعطي للعامل وضوحاً في الرؤية واندفاعاً في الخطوة وتفانياً في العمل. فإن من خلصت نيته لله عَزَّوَجَلَّ لا ينخدع بلذة آنية ولا تغره مصلحة فانية.

لنسمع ما حكاه الله من قصة بني إسرائيل ففيها درس من دروس خلوص البداية وصدق التوجه. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ أُولِيَ الْإِيمَانِ مِنَ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّ لَهُمْ أَبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُنْقِذَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَهُ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَاءِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].



فتأمل ما الدافع لهم إلى الجهاد؟ قالوا: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجَتْنَا مِنْ دِينِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]. يريدون القتال في سبيل الله لأنهم قد أخرجوا من ديارهم وأبنائهم. فلما جد الجد تولوا وفشلوا. إلا نفر قليل منهم.

انظر الفرق بين هؤلاء وبين أصحاب رسول الله ﷺ. اسمع الحوار الذي دار بين النبي ﷺ وبين أصحابه وهو يطلب منهم أن يقاتلوا للدفاع عن هذا الدين.

ففي بيعة العقبة قال أحد الصحابة: يا رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم.

قالوا: فما لنا إذا فعلنا ذلك؟

قال: الجنة.

قالوا: ربح البيع! لا نقيّل ولا نستقيّل.<sup>(١)</sup>

#### • صدق التوجه

إن ذلك الفارق هو فارق الصدق والإخلاص. لم يكن الصحابة يريدون من ذلك القتال غير الجنة. لم يدفعهم مصالح الدنيا ولا حركهم مجرد الفرار من المشاكل كما كان هؤلاء المملأ من بني إسرائيل.

(١) فتح الباري (٤/٦) ورواه الطبري في تفسيره (٣٦/١١) وأخرجه مختصراً الحاكم في المستدرک عن جابر وأنس والنسائي عنه (٥/٦٤ رقم ٨٢٢٨) والطبراني في الأوسط (٨/٦٢-٦٣ رقم ٧٩٦٨) وأبو يعلى (٣/٤٠٥ رقم ١٨٨٧، ٦/٤١٠ رقم ٣٧٧٢)





إن إخلاص النية ليس دعوى يدعيها الإنسان، ولا خيال يتخيله في نفسه أنه قد أخلص. إن أساس الإخلاص هو الصدق مع النفس والصدق مع الله.

"ليس للعبد شيء أنفع من صدقه ربه في جميع أموره مع صدق العزيمة في صدقه في عزمه وفي فعله. قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، فسعادته في صدق العزيمة وصدق الفعل. فصدق العزيمة جمعها وجزمها وعدم التردد فيها. بل تكون عزيمة لا يشوبها تردد ولا تلوم. فإذا صدقت عزمته بقى عليه صدق الفعل. وهو است فراغ الوسع وبذل الجهد فيه، وأن لا يتخلف عنه بشيء من ظاهره وباطنه. فعزيمة القصد تمنعه من ضعف الإرادة والهمة. وصدق الفعل يمنعه من الكسل والفتور. ومن صدق الله في جميع أموره صنع الله له فوق ما يصنع لغيره. وهذا الصدق معنى يلتزم من صحة الإخلاص وصدق التوكل. فأصدق الناس من صح إخلاصه وتوكله." (١)

#### • الزهد رافد من روافد الإخلاص

إن أعظم ما يعين الإنسان على الإخلاص هو زهده في الدنيا. فيكون قلب هذا الإنسان فارغا من رغبة شيء لم يرغبه الله فيه. فيكون انطلاقه كله خالصا لله عز وجل. قال تعالى: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَتْ بِهِ ۖ أَرْزَلْجَا مِنْهُم﴾ [الحجر: ٨٨]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعَتْ بِهِ ۖ أَرْزَلْجَا مِنْهُم زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]. ونصوص القرآن والسنة مليئة بالتهديد في الدنيا والإخبار بخستها وقتلتها وسرعة فنائها. والترغيب في الآخرة والإخبار بشرفها ودوامها.

والزهد الصحيح هو الزهد في الشيء الذي زهده الله، ولا يصح أن يزهد الإنسان في الشيء الذي رغبه الله.



"ذلك أن الزهد في الشيء في لغة العرب - التي هي لغة الإسلام - الانصراف عنه احتقارا له وتصغيرا لشأنه للاستغناء عنه بخير منه. ولم يجئ لفظ الزهد في القرآن إلا في شأن الذين شروا يوسف ﴿يَشْتَرُونَ بِحَسِّ دَرَاهِمٍ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]. والزهد فيما أنعم الله وتفضل به على الإنسان في هذه الحياة بما جعله عوناً للمهتدين على الإيمان والهدى وصالح الأعمال للمتقين، فيكون باقيا صالحا للآخرة، الزهد في ذلك إعراض عن نعم الله وتحقير لها. وليس هذا من هدي رسول الله ﷺ ولا هدي أصحابه. وإنما كان هداهم تقدير هذه النعم وحبها والفرح بفضل الله عليهم بها وشكرها بالاستعانة بها على النجاح والفلاح فيما ابتلاهم الله به." (١)

قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه: الأول ترك الحرام وهو زهد العوام، والثاني: ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص، والثالث: ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين. (٢)

#### العزيمة

إن قوة العزيمة وصحتها وعلو الهمة وشرفها وخلوص القصد وصفاء تحدد مسارا مباركا للعمل القادم. هذه هي القوة الأولية التي تحمل العمل إلى النهاية المحمودة. فليبدأ العامل بهذه القوة المباركة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "فالكيس يقطع من المسافة بصحة العزيمة وعلو الهمة وتجريد القصد وصحة النية مع العمل القليل أضعاف أضعاف ما يقطعه الفارغ من

(١) تهذيب مدارج السالكين ص ٢٨٤، دار قتيبة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م بتصرف

(٢) مدارج السالكين (٨/٢)



ذلك مع التعب الكثير والسفر الشاق. فإن العزيمة والمحبة تذهب المشقة وتطيب السير. والتقدم والسبق إلى الله سبحانه إنما هو بالهمم وصدق الرغبة والعزيمة، فيتقدم صاحب الهمة مع سكونه صاحب العمل الكثير بمراحل. فإن ساواه في همته تقدم عليه بعمله.<sup>(١)</sup>

والعزيمة الصادقة لا تتج إلا عملاً جاداً. والإرادة القوية لا تلد من رحمها إلا سعياً حثيثاً. فأصحاب العزيمة وذوو الهمة فارقوا أهل البطالة والكسل مسافة لا يستدرکها إلا أمثالهم.

"إذا أراد القدر شخصاً، بذر في أرض قلبه بذر التوفيق، ثم سقاه بماء الرغبة والرغبة، ثم أقام عليه بأطوار المراقبة، واستخدم له حارس العلم. فإذا الزرع قائم على سوقه، إذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة، وردفه قمر العزيمة، أشرقت أرض القلب بنور ربها، إذا جن الليل، تغالب النوم والسهر، فالخوف والشوق في مقدم عسكر اليقظة، والكسل والتواني في كتية الغفلة. فإذا حمل العزم حمل على الميمنة، وانهزمت جنود التفريط. فما يطلع الفجر إلا وقد قسمت السهمان، وبردت الغنيمة لأهلها. سفر الليل لا يطيقه إلا مضمّر المجاعة النجائب في الأول وحاملات الزاد في الأخير."<sup>(٢)</sup>

ثم الله يعين أصحاب العزائم الصادقة وأرباب الإرادات العظيمة على اجتياز العوائق وقطع العوارض.

(١) الفوائد ص ١٤٢

(٢) الفوائد ص ٥١



"فإن صدق الطلب وقوة الإرادة وكمال الانقياد يحيل تلك العوارض والغواشي الغريبة إلى مقتضاه وموجبه، كما أن الكذب وفساد القصد وضعف الانقياد يحيل الأقوال والأفعال الممدوحة إلى مقتضاه وموجبه"<sup>(١)</sup> والله الموفق إلى سواء السبيل.

#### المبحث الثاني: في الجهود

ثم العامل الثاني من عوامل الإنجاز هو الجهد المبذول من الإنسان. وهو محك الاختبار الذي تقام من أجله الحياة الدنيوية. قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ﴾ [الملك: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧].

والله سبحانه بنى دار الجزاء على حسب ما قدمه الإنسان من عمل.

قال تعالى: ﴿أَن تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ تَوْفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

وقال في جزاء الكفار أيضا: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ۖ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٥٢].

والعمل مع حالة القلب هما محلا نظر الله للعبد فأكرم من طاب قلبه وحسن عمله ومقت من خبث قلبه وساء عمله.



قال رسول الله ﷺ: "إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم."<sup>(١)</sup>

وتفاوت الناس في نظر الله إنما بني على هذين الشيئين.

وقدر العمل يتحدد بناء على ثلاثة معايير: الباعث له وهو قصده من عمله، ونوعية الأداء وإحسانه فيه، ومدى قوته وثباته وصبر صاحبه عليه. وقد سبق الكلام عن القصد والإرادة.

#### إحسان العمل

إن ما يرفع قدر العمل ويجعله في موضع القبول قبولاً حسناً هو إحسان أدائه بعد إخلاص نيته. وقد حث الله تعالى على الإحسان ورغب فيه. قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وأخبر أنه يحب المحسنين. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال: ﴿فَأَتَتْهُمْ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسُنَ ثَوَابُ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨] وقال أيضاً: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣]. وقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

وهو سبحانه يؤيد المحسنين ويقف بجانبه. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]



وهو أحق من يحسن إليه وقد بدأ بالإحسان فلا يستحق من الإنسان إلا الإحسان وقد أحسن الله إليه أيما إحسان. قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

لذلك جعل الله الإحسان مشروعاً في كل الأمور. قال: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء." (١)

وأهم وأنفع العوامل التي تعين الإنسان على إحسان العمل هو مراقبة الله واستحضار عظمة الله، قال رسول الله ﷺ: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. (٢)

### • من معاني الإحسان

إن الإحسان من الألفاظ الجامعة التي تجمع معاني كثيرة ومظاهر متعددة. فمن معاني الإحسان إخلاص النية وتطهيرها من حظوظ النفس. فكلما أخلص الإنسان نيته وحرر قصده لله وحده كان عمله أحسن.

وكذلك من معاني الإحسان أن يوافق العمل ما أمر به الشارع.

قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ اللهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، قال: أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص إذا كان لله، والصواب إذا كان على السنة. (٣)

(١) أخرجه مسلم (٣/١٥٤٨ رقم ١٩٥٥)

(٢) أخرجه البخاري (٤/١٧٩٣ رقم ٤٤٩٩، ١/٢٧ رقم ٥٠) ومسلم (١/٣٧ رقم ٨، ١/٣٩ رقم

٩، ١٠/٤٠ رقم ١٠)

(٣) حلية الأولياء (٨/٩٥)



ومن معاني الإحسان أن يكون نفع العمل أعظم وفائدته أعم. فكلما كان العمل أنفع كلما كان أحسن.

ومن إحسان العمل إتقانه وحسن أدائه.

ومن الإحسان ألا يمن الإنسان بعمله.

ومن معانيه أيضا أداء العمل في وقت مناسب ومكان مناسب وقدر مناسب.

ومن الإحسان في العمل وضعه حسب الأولوية الصحيحة فيقدم ما حقه التقديم ويؤخر ما حقه التأخير.

ومن إحسان العمل أن تخطط له تخطيطا محكما وأن تقوّمه بين آن وآخر.

ومن الإحسان عدم الإعجاب به والاعتراف بأن حق الله أعظم من ذلك.

#### الصبر

وبعد إحسان العمل والإخلاص فيه يحتاج العامل إلى الصبر. لأن العمل يتطلب تحمل المشاق وحمل النفس على ما تكره.

وقد جعل الله التواصي بالصبر شرطا من شروط النجاة من الخسران ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ٢، ٣]، وأفرد التواصي بالصبر مع أنه داخل في التواصي بالحق لأهميته الخاصة، ومكانته المتميزة.

والصبر من عزائم الأمور التي لا يستغني عنها كل من أراد الاستقامة على هذا الدين. وخاصة الذي قام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. كما قال تعالى على لسان لقمان حين وصى ابنه: ﴿يَبْنِىْ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَآمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ۚ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].



والصبر أيضا من أهم دعائم الفلاح ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]. "لقد بين الله أن الطريق الموصل إلى الفلاح لزوم الصبر الذي هو حبس النفس على ما تكرهه، من ترك المعاصي، ومن الصبر على المصائب، وعلى الأوامر الثقيلة، فأمرهم بالصبر على جميع ذلك.

والمصابرة أي الملازمة والاستمرار على ذلك على الدوام، ومقاومة الأعداء في جميع الأحوال،

والمرابطة هي لزوم المحل الذي يخاف من وصول العدو منه، وأن يراقبوا أعداءهم، ويمنعوا من الوصول إلى مقاصدهم." (١)

والصبر مع اليقين شرطان أساسيان لنيل الإمامة في الدين. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "فمتى فقدت الصبر واليقين كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب." (٢)

والله أمر المؤمنين بالاستعانة بالصبر والصلاة على جميع أمورهم قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]

والصبر يضفي طريق الحياة ويعين على السير في درب الطاعة. قال نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "والصبر ضياء." (٣)

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/٣٧٦-٣٧٨)

(٢) الفوائد ص ١٤٩

(٣) أخرجه مسلم (١/٢٠٣ رقم ٢٢٣)





قال النووي رَحِمَهُ اللهُ: "والمراد أن الصبر محمود لا يزال صاحبه مستضيئاً مهتدياً مستمراً على الصواب." (١)

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ: "وأما الصبر فإنه ضياء. والضياء هو النور الذي يحصل فيه نوع حرارة وإحراق كضياء الشمس، بخلاف القمر فإنه نور محض فيه إشراق بغير إحراق. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥].

ومن هنا وصف الله شريعة موسى بأنها ضياء، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]. وإن كان قد ذكر أن في التوراة نورا كما قال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤] لكن الغالب على شريعتهم الضياء لما فيها من الآصار والأغلال والأثقال. ووصف شريعة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنها نور لما فيها من الحنفية السمحة. قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]. وقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولما كان الصبر شاقاً على النفوس يحتاج إلى مجاهدة النفس وحبسها وكفها عما تهواه كان ضياء. فإن معنى الصبر في اللغة الحبس، ومنه: قتل الصبر وهو أن يحبس الرجل حتى يقتل.

والصبر المحمود أنواع: (١) منه صبر على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، (٢) ومنه صبر عن معاصي الله عَزَّوَجَلَّ، (٣) ومنه صبر على أقدار الله عَزَّوَجَلَّ.



والصبر على الطاعات وعن المحرمات أفضل من الصبر على الأقدار المؤلمة. صرح بذلك السلف منهم سعيد بن جبير وميمون بن مهران وغيرهما. "اهـ<sup>(١)</sup>

### • معاني الصبر

والصبر أيضا من الألفاظ الجامعة التي تشمل معاني كثيرة وصورا عديدة من حبس النفس على احتمال المكروه.

"وهو -كما قال الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ- ضربان، ضرب بدني، كتحمل المشاق بالبدن، والثبات عليها. وهو إما بالفعل كتعاطي الأعمال الشاقة، وإما بالاحتمال. وذلك إنما يحمد إذا وافق الشرع.

ولكن المحمود التام هو الصبر النفسي عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى. ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمي عفة، وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميته عند الناس باختلاف المكروه الذي غلب عليه الصبر. فإن كان في مصيبة اقتصر على اسم الصبر. وتضاده حالة تسمى الجزع والهلع، وإن كان في احتمال الغنى سمي ضبط النفس. تضاده حالة تسمى البطر، وإن كان في حرب ومقاتلة سمي شجاعة ويضاده الجبن، وإن كان في كظم الغيظ والغضب سمي حلما، ويضاده التذمر، وإن كان في نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمي سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر، وإن كان في إخفاء كلام سمي كتمان السر وسمي صاحبه كتوما،

وإن كان عن فضول العيش سمي زهدا، ويضاده الحرص، وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سمي قناعة ويضاده الشره، فأكثر أخلاق الإيمان داخل في الصبر. "هـ<sup>(٢)</sup>

(١) جامع العلوم والحكم ص ٢١٧

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٨٤-٨٥)، الإمام أبو حامد الغزالي، دار مصر للطباعة، سنة ١٩٩٨ م، بتصرف.



### • مبدأ التدرج

ومما يدخل في الصبر أيضا التأني مع الثبات والإصرار في بلوغ الهدف الطويل المدى. وهذا المعنى من أهم ما يعين الإنسان على الوصول إلى الغايات السامية، فإن الأمور العظيمة لا تنال بخطوة أو خطوتين. بل هو يحتاج إلى نفس طويل وتدرج في الخطوات.

وهذا مما أكد عليه الرسول ﷺ لأمته، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "سدّدوا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا."<sup>(١)</sup>

"فالسداد هو حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد. وقد أمر النبي ﷺ عليا أن يسأل الله عَزَّوَجَلَّ السداد والهدى. وقال له: "قل: اللهم اهْدني وسدّدني، واذكر بالهداية هداية الطريق، واذكر بالسداد تسديدك السهم."<sup>(٢)</sup>

والمقاربة أن يصيب ما قرب من الغرض إذا لم يصب الغرض نفسه ولكن بشرط أن يكون مصمما على قصد السداد وإصابة الغرض، فتكون مقاربتة عن غير عمد. ويدل عليه قول النبي ﷺ في حديث الحكم بن حزن: "أيها الناس إنكم لن تعملوا ولن تطيقوا كل ما أمرتكم، ولكن سدّدوا وأبشروا."<sup>(٣)</sup>

والمعني اقصدوا التسديد والإصابة والاستقامة فإنهم لو سدّدوا في العمل كله لكانوا قد فعلوا ما أمروا به كله."<sup>(٤)</sup>

(١) أخرجه البخاري (٢٣٧٣/٥) رقم ٦٠٩٨

(٢) أخرجه أحمد (٨٨/١) رقم ٦٦٤، ١٣٤/١، ١١٢٤، ١٣٨/١، ١١٦٨) وأبو داود (٩٠/٤)

رقم ٤٢٢٥) والحاكم (٢٩٨/٤) رقم ٧٧٠٠

(٣) أخرجه أحمد (٢١٢/٤)

(٤) جامع العلوم والحكم ص ٢٠٥



"اطلبوا السداد واعملوا به، وإن عجزتم عنه فقاربوه، اقربوا منه. والسداد الصواب، وهو بين الإفراط والتفريط، فلا تغلوا ولا تقصروا."<sup>(١)</sup>

وعن أنس بن مالك قال قال رسول الله ﷺ: "إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق."<sup>(٢)</sup>

قال المناوي: "إن هذا الدين متين) أي صلب شديد (فأوغلوا) أي سيروا فيه (برفق) بغير تكلف ولا تحملوا على أنفسكم ما لا تطيقونه فتعجزوا وتركوا العمل. والإيغال - كما في النهاية: السير الشديد. والوغل: الدخول في الشيء."<sup>(٣)</sup>

والظاهر أن المراد في الحديث السير الذي لا يفيد الشدة إذ لا يلائم السياق.

وقال الغزالي: أراد بهذا الحديث أن لا يكلف نفسه في أعماله الدينية ما يخالف العادة، بل يكون بتلطف وتدرج. فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبدل. فإن الطبع نفور. ولا يمكن نقله عن أخلاقه الرديئة إلا شيئاً فشيئاً حتى تنقص المذمومة الراسخة فيه. ومن لم يراع التدرج وتوغل دفعة واحدة ترقى إلى حالة تشق عليه فتعكس أموره، فيصير ما كان محبوباً عنده ممقوتاً، وما كان مكروهاً عنده مشرباً هنيئاً لا ينفر عنه. وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والذوق. وله نظير في العادات. فإن الصبي يحمل على التعليم ابتداءً قهراً فيشق عليه الصبر عن اللعب، والصبر مع العلم، حتى إذا انفتحت بصيرته وأنس بالعلم انقلب الأمر عليه إلى الصبر عن العلم." اهـ<sup>(٤)</sup>

(١) شرح النووي (١٦٢/١٧)

(٢) أخرجه أحمد (١٩٨/٣) رقم (١٣٧٤) قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله موثقون إلا أن خلف بن

مهران لم يدرك أنسا والله أعلم (مجمع الزوائد ١/ ٦٢)

(٣) النهاية (٢/ ٨٦٧)

(٤) فيض القدير (٢/ ٥٤٤)



### المبحث الثالث: في العوامل الخارجية

إن تأثير العوامل الخارجية أمر يقره كل ذي عقل سليم. فهو أوضح من أن يستدل على وجوده وثبوته.

والكون كله عوامل جعلها الله للإنسان منحة يشكرها عليها أو محنة يصبر عليها.

### علاقة الإنسان بالكون

إن الله سخر الكون كله ليتمكن الإنسان من بلوغ حاجته فيه وأداء واجبه على متنه. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

وقال تعالى: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [الإسراء: ٦٦].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

إن الله لم يخلق الكون عدوا للإنسان بل امتن الله به على الإنسان.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

فكل ما في الأرض جعل الله للإنسان، نعمة يتمتع بها أو يعبد الله بها... أو يغتر بها.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا إِلَى حِينٍ ۝٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ



لَكُمْ سَرِيلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ وَسَرِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُشْلِمُونَ ﴿[النحل: ٨٠، ٨١].

فالأصل أن هذا الكون جعله الله عوامل مساعدة لعبادة الله. إلا أن الله خلق بعض الأشياء المكروهة ليختبر صبر الإنسان. قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿[البقرة: ١٥٥]. ورزق الإنسان بأنواع من الطيبات ليختبر أشكر أم يكفر، قال تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاكَ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿[الأنفال: ٢٦].

فمهمة الإنسان أن يسخر هذا الكون لعبادة الله بعمارته ونشر الخير والعدل فيه.

#### خريطة الصراع

وخلق الله للإنسان أعداء وأعوانا لأداء هذه المهمة، وقد سبق في الأبواب السابقة أن هذا المسرح الحياتي هو مسرح الابتلاء والامتحان. وركب الله هذا هذه الحياة القصيرة وفقا لذلك.

قال رسول الله ﷺ مصورا خريطة هذه الحياة: "ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، على كتفي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى الصراط داع يدعو، يقول: "يا أيها الناس اسلكوا الصراط جميعا، ولا تعوجوا!" وداع يدعو على الصراط، فإذا أراد أحدكم فتح شيء من تلك الأبواب قال: "ويلك لا تفتحه! فإنك إن تفتحه تلجه." فالصراط الإسلام. والستور حدود الله. والأبواب المفتحة محارم الله. والداعي الذي على رأس الصراط كتاب الله. والداعي من فوق واعظ الله يذكر في قلب كل مسلم." (١)

(١) أخرجه الترمذي (١٤٤/٥ رقم ٢٨٥٩) والنسائي في سننه الكبرى (٦/٣٦١ رقم ١١٢٣٣) والحاكم (١٤٤/١ رقم ٢٤٥) وصححه واللفظ له وحسنه المنذري في الترغيب والترهيب (٣/١٧١ رقم ٣٥٣٧)



قال ابن القيم: "هذا مقتضى حال العبد، فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر وأمدّه بمدد آخر يقاوم به هذا الجند الذي يريد هلاكه -يعني الشيطان، فأرسل إليه رسوله، وأنزل عليه كتابه، وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان. فإذا أمره الشيطان بأمر أمره الملك بأمر ربه، وبين له ما في طاعة العدو من الهلاك. فهذا يلم به مرة وهذا مرة. والمنصور من نصره الله عَزَّوَجَلَّ. والمحفوظ من حفظه الله تعالى.

وجعل له مقابل نفسه الأمانة نفسها مطمئنة. إذا أمرته النفس الأمانة بالسوء نهته عنه النفس المطمئنة. وإذا نهته النفس الأمانة عن الخير أمرته به النفس المطمئنة. فهو يطيع هذه مرة وهذه مرة. وهو الغالب منهما. وربما انقهرت إحدهما بالكلية قهرا، لا تقوم معه أبدا.

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمانة نورا وبصيرة وعقلا يرده عن الذهاب مع الهوى. فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور: "الحذر، الحذر! فإن المهالك والمتالف بين يديك! وأنت صيد الحرامية، وقطاع الطريق." إن سرت خلف هذا الدليل فهو يطيع الناصح مرة، فيبين له رشده ونصحه، ويمشي خلف دليل الهوى مرة، فيقطع عليه الطريق، ويؤخذ ماله، ويسلب ثيابه، فيقول: "ترى من أين أتيت؟" اهـ<sup>(١)</sup>

وهذا كله تصوير للأعداء في مقابلة الأعوان في العالم الباطن. أما في العالم الظاهر فأعداء المسلمين كفار ومنافقون في مقابلة المؤمنين والمجاهدين. والكفار منهم المحاربون ومنهم المسالمون، والموقف من المحاربين قول الله تعالى:



﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾  
 [البقرة: ١٩٠]، والموقف من المسالمين قول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ  
 يُقْتُلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾  
 [الممتحنة: ٨].

أما الموقف من المنافقين، الأخذ بظواهرهم والنصح لضمائرهم والحذر من  
 شرورهم.

وأما المؤمنون فلهم النصح والنصرة والحب والإخاء.

#### العوامل المساعدة فضل ورحمة والعوامل المعرقلة ابتلاء وحكمة

إن أفضل الطرق في مواجهة تلك الأمور كلها ومعالجة تلك العوامل أجمعها  
 هي إيجابية الرؤية من المؤمن وإيجابية الموقف. إن كل شيء لا بد أن ينظر من  
 جانبه الإيجابي وكل شيء له نقطة إيجابية يمكن الاستفادة منها، حتى الأمور  
 المكروهة التي قد لا تحبها النفس، إذا نظرنا نظرة إيجابية نتوصل إلى شيء يمكن  
 الاستفادة منه بدل الجزع والتذمر من كدرها. وبالتالي نقف موقفا إيجابيا دائما بأن  
 نستغل كل شيء مفيد ونتجنب كل أمر ضار.

وقد لخص الرسول ﷺ هذه الفكرة بقوله: "عجبا لأمر المؤمن إن أمره  
 كله له خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر، فكان خيرا له، وإن  
 أصابته ضراء صبر، فكان خيرا له." (١)

والشكر يشمل -مع الثناء على الله والاعتراف له بالجميل- استعمال ما أنعم الله  
 على الإنسان من الإمكانيات والفرص في طاعة الله ونفع النفس والناس.

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٩٥ رقم ٢٩٩٩)





والصبر أيضا لا يقتصر على معنى سلبي من حبس النفس فقط بل أبضا يشمل معنى إيجابيا مثل الشجاعة والإقدام والثبات والإصرار كما تقدم في معاني الصبر.

#### المبحث الرابع: التوفيق من الله

إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هُوَ الَّذِي بِيَدِهِ كُلُّ شَيْءٍ ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٣].

فَاللَّهُ هُوَ الْمَعْوَلُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ط وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

فلا يغتر الإنسان بما عنده فإن كل ما عند الإنسان من الإمكانيات ما هو إلا فضل من الله تفضل به على الإنسان.

قال رسول الله ﷺ: لن ينجي أحدا منكم عمله.

قال رجل: ولا إياك يا رسول الله؟

قال: ولا إياي، إلا أن يتغمدني الله منه برحمة وفضل.<sup>(١)</sup>

#### صدق الالتجاء

فإذا علم الإنسان ذلك فعليه أن يلتجئ إلى الله جل في علاه، فإنه هو النافع والضار والباسط والقابض والمعطي والمانع، وليصدق الله في توجهه إليه. ﴿فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

(١) أخرجه البخاري (٢١٤٧/٥) رقم ٥٣٤٩، ٢٣٧٣/٥ رقم ٦٠٩٨) ومسلم (٢١٦٩/٤) رقم ٢٨١٦) واللفظ له.



فإن الذي يجلب العون من الله والتوفيق منه هو صدق العبد مع ربه، والصدق مفتاح كل خير. قال رسول الله ﷺ: "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب ثم الله صديقاً." (١)

### • من الصدق العمل الجاد

مما يدل على صدق العبد هو جديته في العمل. فلا يعتقد إنسان أن الله سيوفق العبد إذا لم يعمل للوصول إلى مراده. قال تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [٥] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٦﴾ [العنكبوت: ٢، ٣] فلا يقبل مجرد قول بلا مصدق من العمل. لذلك لم يعد العون إلا لمن بذل الجهد في ذلك. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، فمن لم يتق الله لم يجعل الله له مخرجاً، ولم يجعل الله له من أمره يسراً.

### الالتزام بأمر الله

ثم إن من دواعي التوفيق هو التزام العبد بأمر ربه وتمسكه بحبله، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنِ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].



وقال رسول الله ﷺ: "احفظ الله يحفظك"<sup>(١)</sup>. ومعنى حفظ الله أي حفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه. وقد تقدم الكلام عليه بالتفصيل في الباب الثالث.<sup>(٢)</sup>

#### عدم الاتكال على غير الله

فينبغي للعبد ألا يعتمد إلا على الله ولا يتوكل إلا عليه. "والتوكل جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضى لا يتصور وجوده بدونها"<sup>(٣)</sup> ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ ﴿[الطلاق: ٣]﴾. وقد تقدم الكلام في التوكل في الباب الثاني بما فيه كفاية. ويكفي أن نشير في هذا الموضع إلى أنه ينبغي للمؤمن وهو يسعى في تحقيق أهدافه أن يسأل الله التوفيق ولا يعتقد أنه ما عنده من العلم والقدرة هو الذي يوصله إلى هدفه.

لذلك كان دعاء الرسول ﷺ: "اللهم رحمتك أرجو، فلا تكني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت."<sup>(٤)</sup>

#### • الشكر على توفيق الله

إن من فطرة الإنسان إذا كانت في حالة الضعف والانكسار وقد ألجأه الاضطراب، يتوجه القلب إلى الله ويتضرع ويلج في الدعاء وغاب رجاؤه إلا من الله. ولكن لما

(١) تقدم تخريجه في ص ٥١

(٢) انظر ص ١٨٧-١٩٣

(٣) مدارج السالكين (١/١٣٦)

(٤) أخرجه أحمد (٥/٤٢) وابن حبان في صحيحه (٣/٢٥٠ رقم ٩٧٠) والبخاري في الأدب المفرد

(١/٢٤٤ رقم ٧٠١) وأبو داود (٤/٣٢٤ رقم ٥٠٩٠) والنسائي في سننه الكبرى (٦/١٦٧ رقم

١٠٤٨٧) وحسن إسناده الهيثمي (مجمع الزوائد ١٠/١٣٧)



أعطاه الله ما سأل ووفقه الله لما يريد نسي لجوئه إليه وغاب عن ذهنه توفيق الله له، ونسب كل ما عنده إلى نفسه وزعم أن ما كسبه إنما يأتي بشطارة منه وقدرة وقوة من نفسه. قال تعالى مصورا هذه الحالة: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتُهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

مثل هذا التصرف من الإنسان أشبه ما يكون بخلق الكفار الذين لا يعرفون نعمة الله وينكرونها، وقد ذم الله هذا التصرف أشد الذم، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَ لَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرِّآءٍ مَّسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْبَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [فصلت: ٥٠].

وذم الله لمثل هذا الفعل القبيح يتكرر كثيرا في القرآن لوقوعه كثيرا من الإنسان. قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبَيْهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّكَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَبَىٰ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِّیُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨]، وقال أيضا: ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَٰبَا بِهَا وَإِن نُّضِيقَهُمْ سَيِّئَةً يَمَّا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨].

والأليق بالعبد إذا وفق للخير أو أوتي نعمة من الله أن يعترف بفضل الله عليه فيحمده ويشكره ويقول مثل ما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].



والشكر يديم النعمة ويزيدها وكفرانها يزيلها ويحول النعمة نقمة، قال  
تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ<sup>ط</sup> وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي  
لَشَدِيدٌ﴾ [ابراهيم: ٧].





## الفصل الثاني: تطلعات مستقبلية

هذا الفصل فيه أربعة مباحث: المبحث الأول عن مواصفات بناء شخصي للمجدد المسلم الذي يتحقق على يديه مستقبل أفضل، وأقصد بالمجدد المسلم هنا كل مسلم ولا أتكلم عن وصف مجدد القرن الذي يشار إليه بالبنان، بل كل مسلم يجب أن يكون عنصراً مساهماً في بناء المستقبل. ثم المبحث الثاني سأتكلم فيه عن مواصفات المجتمع المسلم الذي ننشد تحقيقه في المستقبل، والمبحث الثالث سأتكلم فيه عن الرؤية الحضارية التي تحمل مُثُل هذا الدين وتعبّر عنها. والمبحث الرابع يتكلم عن المقارنة بين التطلعات المستقبلية التي شكلت الحضارة الغربية الحالية وما يجب على المسلمين من صياغة تطلعاتهم المستقبلية.

وأحرص في هذا الفصل ألا أتكلم إلا في الأمور التي لم أجد من أشار إليها أو قل اهتمام الناس بها فيحتاج إلى تنبيه أو أن اهتمامهم -من وجهة نظري- يكون على غير الوجه الذي ينبغي أن يكون. وحرصاً على الاختصار، أكتفي بالإشارة المجملّة إلى رؤوس المسائل دون الغوص في تفاصيلها ولا الخوض في تفاريحها. والإشارة تكفي اللبيب وتغني الأريب. والله الموفق.

### المبحث الأول: في البناء النفسي والعقلي

يبدأ كلامنا عن الرؤية المستقبلية بتحديد ملامح الشخصية الإسلامية التي يتحقق بها مستقبل الإسلام المنشود، والبدء بالكلام عن الفرد في سياق البحث عن مستقبل الأمة يكون لأسباب:



السبب الأول، أن كل إنسان مسؤول عن نفسه فقط. ولا يسوغ لنا ونحن نريد مستقبلاً أفضل أن نعول على غيرنا، ولا أن نتظر ظهور المهدي أو نزول المسيح مكتوفي الأيدي. لأننا لسنا مسؤولين عن مجيء المهدي ولا نطالب بإتيان المسيح. ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدر: ٣٨]. وفساد الناس لا يكون مبرراً لأن ينجّر الإنسان في تيار الفساد. فكل إنسان مأمور بإصلاح نفسه ولا يضره ضلال الناس إن كان هو على هدى من ربه. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

قال رسول الله ﷺ: "لا تكونوا إمعة، تقولون إن أحسن الناس أحسناً، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم، إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا فلا تظلموا." (١)

والسبب الثاني، أن الأمة إنما هي مجموعة الأفراد، والمجتمع - كما يقال - هو فرد متكرر. فإذا صلح الأفراد فلا يكون المجموع غير أناس صالحين. وسبق الإشارة إلى هذا المبدأ في الباب السابق. (٢) فعلى كل من يأمل وضعاً أحسن أن يبدأ التغيير من نفسه. فليصلح نفسه حتى يكون عنصراً إيجابياً في تشكيل مستقبل قريب وبعيد. وليجتهد كل إنسان أن يكون له إسهام أكبر في بناء صرح المستقبل.

السبب الثالث، أن كل عملية التغيير نحو الأفضل لا بد أن تكون له بداية. وكما يقول المثل الصيني أن ألف ميل تبدأ من خطوة واحدة. ويقال إن الغيث بدايته قطرة والسير أوله خطوة. ولا تكون هذه البداية إلا من فرد، ولا يتصور أن ينصلح الناس

(١) أخرجه الترمذي (٣٦٤/٤) رقم (٢٠٠٧) وقال: حسن غريب.

(٢) راجع ص ٢٣٠ في الكلام عن سنة صلاح الجماعة بصلاح الأفراد



كلهم في لحظة واحدة. بل لا بد من مصلح يصلح نفسه ثم يوسع دائرة الصلاح حتى يسود الخير والصلاح. وأنا أفترض أن يكون كل قارئ لهذا البحث مجددا للقرن الجديد. ولا أقصد أنه عالم مجتهد له من المزايا الخارقة ما يبهر الناس ويفرض عليهم اتباعه. بل أقصد أن كل مسلم غيور هو عنصر فاعل مؤثر إيجابا في إصلاح الوضع، لا يتلطف بأمراض المجتمع ولا يمثل النقص الواقع في الأمة. بل يكتسب هذا المسلم الإيجابي شخصيته من مثاليته، ويستعلي على الواقع الهابط، ويعمل على تغييره. وبهذا فقط يتحقق الأمل. والله الهادي إلى سواء السبيل.

والكلام على مواصفات الجيل الجديد الذي يتحقق على أيديهم مجد الإسلام ونصر دين الله قد سبق إليه العلماء الأجلاء والدعاة الأفاضل. ومن أحسن ما كتب في هذا كتاب "جيل النصر المنشود" للدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله وسدد خطاه. وكذلك من أنفع ما كتب فيه كتاب "جند الله ثقافة وأخلاقا" للشيخ سعيد حوى. وغيرهما كثير. ولا أريد هنا أن أكرر ما كتبوا في هذا. ففي هذا المقام أريد فقط أن أقترح بعض النقاط النظرية والعملية التي تقربنا إلى الوصول وتعيننا على الحصول بإذن الله في تحقيق تلك الآمال التي يجب أن نأملها يحكم إسلامنا وانتماءنا لربنا عبادا، ولنبينا أتباعا ولديننا أنصارا.

#### اكتساب وتنمية الصفات الإنسانية

تعتمد كل نهضة وكل تقدم على شخصية تتوفر فيها صفات التفوق والقوة؛ مثل الصبر والعزم والجدية والحلم والتواضع والرحمة والذكاء والعلم إلى ما هنالك. وهذه الصفات تتفق جميع الملل والأديان والفلسفات وكل العقول السليمة على مدحها والدعوة إليها.





ووجه أفراد الصفات الإنسانية عن الصفات الإسلامية ليس بمعنى أن الصفات الإنسانية لا تمت إلى الإسلام بصلة. لا بل هي أهم ركائز الإسلام. لكن أقصد بهذا التفريق أن من الأشياء التي حث عليها الإسلام وامتدح أصحابها صفات ترنو إليها كل الفطر السليمة وتدعو إليها كل العقول السديدة. والكاملون في هذه الصفات الإنسانية هم دائما دعائم الإصلاح وأركان التغيير.

إن للتقدم والنجاح سلوكيات ومؤهلات توصل بصاحبها إلى مراده. وللتخلف والفشل ممارسات أو عادات "تؤهل" صاحبها لأن يبقى في صفوف المتأخرين والمهمشين.

وحرصنا على أن يكون في صف المسلمين أناس أقوىاء شرفاء هو الذي يدفعنا إلى التأكيد على هذا الجانب.

ويمكن أن تجتمع كل تلك الصفات في معاني القوة، قوة في العلم، قوة في النفس، قوة في العمل، قوة العزيمة، قوة التوجه إلى الله، وهكذا. وهي البداية المطلوبة في السير إلى الله وفي الطريق إلى المستقبل المشرق. قال تعالى: ﴿يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] فأمر يحيى عليه السلام ببداية قوية وبأداء قوي. وكذلك أمر الله كليمه موسى بذلك، قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]. وأمر أمة محمد صلى الله عليه وسلم كذلك بإعداد القوة ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ولا يتعارض هذا مع ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: "هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم."<sup>(١)</sup> لأن هؤلاء ليسوا ضعفاء في كل المعاني، فإن هؤلاء وإن كانوا

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٠٦١ رقم ٢٧٣٩)



ضعفاء في الأجسام إلا أنهم أقوياء في إخلاصهم وصدقهم مع الله. ويشهد لذلك رواية النسائي "إنما نصر الله هذه الأمة بضعفتهم بدعواتهم وصلاتهم وإخلاصهم." قال ابن بطال: تأويل الحديث أن الضعفاء أشد إخلاصا في الدعاء، وأكثر خشوعا في العبادة، لخلاء قلوبهم عن التعلق بزخرف الدنيا.<sup>(١)</sup> وأراد الرسول ﷺ بذلك طرد الزهو عن شجعان المقاتلين من الصحابة، لأنه إن كان لهؤلاء الأشداء فضل شجاعتهم وإثخانهم في العدو، فإن لضعاف الصحابة رضى الله عنهم أجمعين أيضا فضل دعائهم وإخلاصهم.<sup>(٢)</sup>

والزهو أيضا نوع من الضعف النفسي الذي ينقص من قيمة القوة الجسدية. فيبقى المدح المطلق لمعنى القوة. كما قال رسول الله ﷺ: "المؤمن القوي خير وأحب إلي الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير."<sup>(٣)</sup>

فينبغي على كل مسلم أن يكتسب كل معاني القوة والتفوق، لأن هذا هو الذي يجعله قادرا على تحقيق الهدف. وكذلك حيازته لتلك الصفات تجعله أحب إلى الله وأقرب له. ويجب أن يكون حرص الإنسان على حيازة الصفات الحميدة أكثر من حرصه على جمع الأموال. فإن أحسن أنواع الغنى غنى النفس. كما قال عليه الصلاة والسلام: "ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس."<sup>(٤)</sup>

وليس غنى النفس يقتصر على معنى القناعة فحسب ولكن غنى النفس أيضا أن تكون النفس غنية بالصفات الحميدة والأخلاق الفاضلة.

(١) فتح الباري (٦/ ٨٩)

(٢) انظر فتح الباري (٦/ ٨٩)

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٥٢ رقم ٢٦٦٤)

(٤) أخرجه البخاري (٥/ ٢٣٦٨ رقم ٦٠ ٨١) ومسلم (٢/ ٧٢٦ رقم ١٠٥١)



## • الصفات الفطرية والصفات المكتسبة

ومن الأمور التي قد يقعد كثيرا من الناس بسببها عن تغيير الصفات الذميمة واكتساب الصفات الحميدة هو اعتقادهم أن صفات الإنسان جميعها وراثية أو فطرية وأن الأخلاق كلها مطبوعة، لا يمكن تغييرها. فهذا الاعتقاد زيادة على أنه خطأ فإنه من يعتقد هذا فقد جنى على نفسه من غير أن يشعر، فإنه بهذا قد أغلق على نفسه باب الارتقاء إلى سمو نفسه وسمح لنفسه درجة الدون.

والأخلاق والصفات يمكن تغييرها واكتسابها. وقد رغب الرسول ﷺ في اكتساب الأخلاق الفاضلة فقال: "ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرا وأوسع من الصبر." (١)

ومعنى يتصبر: "يعالج الصبر ويتكلفه على ضيق العيش وغيره من مكاره الدنيا." (٢) وهذا هو طريق اكتساب خلق من الأخلاق وحياسة صفة من الصفات، أن يعالج الإنسان نفسه على فعل شيء ما كان يتعوده، فيتكلف في أول الأمر على فعله ويكرره مرة بعد أخرى ويستمر عليه حتى يتعود عليه. فصار خلقا له. (٣)

والإسلام لا ينفي أن يكون من الأخلاق ما هو جبلي يطبع عليه الإنسان. ففي رواية أبي داود أن الرسول ﷺ قال لأشج عبد قيس: إن فيك خلتين يحبهما الله؛ الحلم والأناة.

قال: يا رسول الله، أنا أتخلق بهما أم الله جبلي عليهما؟

(١) أخرجه البخاري (٢/٥٣٤، رقم ١٤٠٠، ٥/٢٣٧٥ رقم ٦١٠٥)

(٢) شرح الزرقاني (٤/٥٤٣)

(٣) راجع كلام ابن القيم السابق في معادلة التغيير ص ٢٢٢



قال: بل الله جبلك عليهما.

قال: الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله.<sup>(١)</sup>

فقد أقر الرسول ﷺ أن صفات الإنسان على نوعين، نوع جبلي ونوع كسبي يكتسب بالتخلق والتمرّن.

فبناء على ذلك يجب علينا ونحن نسير في هذا الدرب أن نكتسب صفات حميدة جديدة كل فترة. وهذا يحتاج إلى مجاهدة طويلة. ويجب أن نعتقد أن الشرع ما دام أنه حثنا على الأخلاق الفاضلة وحب إلينا الصفات الجيدة فهو يعني أن اكتسابها والسعي لها مقدور للإنسان، فإن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، والتكليف يشمل الإيجاب والاستحباب. وإن كان الثاني ليس فيه إلزام إلا أن بعض المستحبات قد تصير من الواجبات بالنظر الكلي أو بكون الواجب لا يتم إلا به.<sup>(٢)</sup>

ثم الصفات الفطرية الموجودة ينبغي أن ننمّيها، وأن نؤطرها في إطارها الشرعي ونجعلها في مسارها الذي حددها القرآن والسنة، ولا نتركها كما هي حتى لا تميل إلى الغلو والإفراط. لأن النفس تميل إلى ما جبلت عليه. فالصفات الفطرية ينبغي تهذيبها بهذه الطريقة.

#### • الصفات الأساسية والصفات الكمالية

من الصفات الإنسانية ما هو أساسي بحيث لا يتحقق أي تقدم إلا به، مثل صفات الصبر والشجاعة والحكمة. ومنها ما هو كمالي، والإخلال به ينقص من حسن الإنسان وعمله، وإن كان من الممكن وصول الهدف بدونّه، لكنه يشوه الصورة

(١) أخرجه أبو داود (٣٥٧/٤) رقم ٥٢٢٥

(٢) انظر الموافقات (١/٧٩-٨٤)



بعض الشيء، وهذه الصفات مثل الآداب والنظافة وحسن النظام وبعض مظاهر الجمال.

فبجانب اهتمامنا بالصفات الأساسية يجب ألا نهمل الصفات الكمالية فإنها من الأمور التي حث عليها الشرع.

فإن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إن الله كتب الإحسان على كل شيء".<sup>(١)</sup>

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً".<sup>(٢)</sup>

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن الله جميل يحب الجمال".<sup>(٣)</sup>

وفي مسند أبي يعلى لموصلني أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه".<sup>(٤)</sup>

والملاحظ أن تلك النصوص كلها وردت بصيغ العموم. فدل ذلك على أن الإحسان والطيب والجمال والإتقان مرغوب بل مطلوب في كل الأمور. فحري بالمسلم أن يعتني بكل معاني الحسن والطيب والجمال والإتقان في جميع الأشياء، من غير إسراف ولا مخيلة.

وأيضاً فإن الآداب وإن كان العلماء جعلوها في كماليات الشريعة فإن من الآداب ما يكون له وزن عظيم والإخلال به يهدم الأعمال. انظر قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿يَتَأْتِيهَا

(١) أخرجه مسلم (٣/١٥٤٨ رقم ١٩٥٥)

(٢) أخرجه مسلم (٢/٧٠٣ رقم ١٠١٥)

(٣) أخرجه مسلم (١/٩٣ رقم ٩١)

(٤) أخرجه أبو يعلى (٧/٣٤٩ رقم ٤٣٨٦) وقال الهيثمي: رواه أبو يعلى وفيه مصعب بن ثابت وثقه

ابن حبان وضعفه جماعة (مجمع الزوائد ٤/٩٨)



الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ [الحجرات: ٢]. فتأمل كيف أن رفع الصوت عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكون من الجرم ما يحبط به عمل الإنسان!!

وتأمل أيضا كيف أن كلمة "أف" المنهي عنها في حق الوالدين جعلها الله في سياق الكبائر في سورة الإسراء.

ومن هنا نفهم لماذا قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق."<sup>(١)</sup>

فحسن الأدب ليس شيئا هامشيا في الإسلام. وجعل العلماء الآداب في قسم الكماليات هو باعتبار أنها ليست من الضروريات التي تتعذر حياة الإنسان بدونها ولا من الحاجيات التي يلحق المشقة الإخلال بها أي بجزء منها، وإلا فالإخلال الكلي بالمكملات كالإخلال بالحاجيات والإخلال الكلي للحاجيات كالإخلال بالضروريات. كما قرره الإمام الشاطبي.<sup>(٢)</sup>

ومع ذلك فإن اعتبار مكارم الأخلاق كلها جملة وتفصيلا ضمن المرتبة الثالثة بعد الضروريات والحاجيات ليس صائبا على الإطلاق، بل إن من الأخلاق ما هو ضروري لا تقوم الحياة إلا بإقامته ولا يصح الدين إلا بالوفاء به. فالصدق -على سبيل المثال- ضروري لاستقامة كل معاملات الإنسان وشرط أساسي في قبول الإيمان، فشهادة الكاذب فساد في باب القضاء كما أن تشهد المنافقين الكاذبين لا

(١) أخرجه أبو داود (٢٥٣/٤) رقم ٤٧٩٩) والترمذي (٣٦٢/٤) رقم ٢٠٠٢، ٤/٣٦٣ رقم ٢٠٠٣

وقال: حسن صحيح.

(٢) انظر الموافقات (١٧-١٢/٢)



تتعقد به عقيدة الإيمان. وخلق الأمانة ضروري في كل الميادين، فلا تبقى المصالح قائمة مع الخيانة، ولا تبقى خصلة من الإيمان باقية عند عديم الأمانة. وكذلك خلق العدل فهو قوام الحياة، فإنها لا تقوم بشكل سليم إلا مع قيام العدل وأداء الأمانة. فلذلك نعرف مبلغ التقصير الذي وقع عند من قرّر أن الأخلاق والآداب كلها من باب التحسينيات يمكن بقاء الحياة بدونها لا يكون بلا تحقيقها حرج ولا مشقة.<sup>(١)</sup>

ويدل على محورية الأخلاق في الإسلام قول النبي ﷺ: **إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ**.<sup>(٢)</sup>

فيحرص المسلم أيضاً أن يعتني ويراعي هذه الصفات الكمالية فإنه يزيد الإنسان نورا ويضفي على الإسلام الذي نعمل من أجله بهاء.

ثم أخص هنا الكلام عن النظافة. فإنها رغم مكانتها العظيمة في الإسلام وشدة عناية القرآن والسنة بها فإن واقع بعض المسلمين بعيد كل البعد عن هذه الخصلة المهمة. وقد كانت العناية بالطهارة من بداية الدعوة. قال تعالى: ﴿وَيَا بَاكَ فَطْهَرْ﴾ [المدثر: ٤] وقد روى ابن جرير عن محمد بن سيرين وابن زيد أن المراد تطهير الثياب

(١) أنظر: مقاصد الشريعة ودورها في صياغة المستقبل، للمؤلف، مكتبة الأسرة العربية-إسطنبول، الطبعة الأولى سنة ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م، ص ٩١-٩٢

(٢) أخرجه أحمد (١٨/١٣٨ رقم: ٨٥٩٥) بلفظ "صالح الأخلاق"، والبيهقي في الشعب (٩/١٧) رقم: ٧٧٤٨) والحاكم في المستدرک (٢/٦٧٠، رقم ٤٢٢١) وقال: صحيح على شرط مسلم قال الهيثمي: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح (مجمع الزوائد ٣/٤٦٩ باب مكارم الأخلاق والنفوس عن ظلم، ٤/٦١ باب حسن معاشرته [ص]) وقد أورد البيهقي في السنن الكبرى (١٠/٧٧١) في باب بيان مكارم الأخلاق ومعاليتها التي من كان متخلّفاً بها) بلفظ: **إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ** وقال السخاوي: وأورده مالك في الموطأ (٥/٣٨٦) بلاغاً عن النبي ﷺ وقال ابن عبد البر: هو متصل من وجوه صحاح عن أبي هريرة وغيره مرفوعاً (المقاصد الحسنة: ١/٥٨) وكذا قال العجلوني (كشف الخفا ١/٢١١ رقم: ٦٣٨)



كما هو ظاهر الآية، وقال رَحِمَهُ اللهُ: "وهذا القول الذي قاله ابن سيرين وابن زيد في ذلك أظهر معانيه. والذي قاله ابن عباس وعكرمة وابن زكريا قول عليه أكثر السلف من أنه عني به جسمك فطهر من الذنوب. والله أعلم بمراده من ذلك." (١) والذي يقوي القول الأول أن الآية التي بعدها قالت: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدر: ٥] والرجز هو الإثم، والأصل أن العطف يقتضي المغايرة. ومثله قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَّينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]. ففرق بين التوبة والتطهر. ولكن القول الثاني أيضا لا يدل على أن الطهارة الحسية غير مطلوبة. فترك الظاهر اكتفاء بالباطن ليس من شأن أهل السنة، بل هو دأب الباطنية التي طمس الله بصائرهم وأعمى أبصارهم.

وأيضا فإن الطائفة التي أمر الله رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يكون معهم، هؤلاء أناس يعتنون أشد العناية بالطهارة الحسية. قال تعالى: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨] والمراد بهؤلاء هم الأنصار الذين يستنجون بالماء. (٢)

إنه ليس من الهين أن ينزل الله كلامه من فوق سبع سماوات يشي على صنيع هؤلاء المتطهرين. إنه تنبيه واضح على أهمية الطهارة وحب الله لأهلها. وفي ظني أن ما ذكروا من الاستنجاء ليس كل ما تميزوا به من أمور الطهارة، فما ذلك إلا إشارة إلى شدة اهتمامهم بالطهارة. لأن القرآن لم يحصر المدح على الاستنجاء، وإنما جاء ذكر الاستنجاء لما سألهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماذا عملوا حتى خصهم الله

(١) جامع البيان (٢٩/١٤٧)

(٢) رواه ابن خزيمة وصححه (١/٤٥ رقم ٨٣) والترمذي (٥/٢٨٠ رقم ٣١٠٠) والنسائي في السنن الصغرى (١/٥٩ رقم ٥٦) والحاكم وصححه (١/٢٥٧ رقم ٥٥٤)





بهذا الثناء، فقالوا إنهم يستنجون بالماء. والظاهر أن ذلك ليس حصرا وتحديدًا لما تميزوا به، فيبقى الثناء على مطلق التطهر وأهل التطهر. والله أعلم.

### • الصفات الإيجابية والصفات السلبية

ومن الجدير بالتنبيه عليه أيضا، أن الإنسان لا يكتفي بحيازة الصفات الإيجابية كالقوة والشجاعة والصبر إلى آخره، لكنه أيضا لا بد أن يتحرر من الصفات السلبية، كالبلخل والكسل والإهمال إلى آخره. بل علماء التربية يرون أن بداية طريق الصلاح هو التخلص من الرذائل أولا، ما يسمون بالتخلي عن الصفات الذميمة، ثم التحلي بالصفات الحميدة فيترقى إلى مقامات التجلي.

ويجب على الإنسان أن يعتني بعيوبه ويظهر نفسه منها فإنه طريق الفلاح. قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۖ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۗ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۖ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٧-١٠]

فيبدأ الإنسان بالتوبة من الذنوب والآثام وجميع النقائص ثم يمضي إلى المراحل التالية. ويجوز أيضا أن يقطع الإنسان خطوطا متوازية، يأخذ ويكتسب الصفات الإيجابية ويترك ويتخلص في نفس الوقت من الصفات السلبية.

### • كسب القدرات والمهارات وتنميتها

ومن الأشياء التي لا بد أن نكسبها أيضا القدرات والمهارات. وكما يقال إن قيمة الإنسان فيما يحسنه ويتقنه. فكلما كانت قدرات الإنسان أكبر ومهارته أجود كانت قيمته أرفع. والترقي في هذا على خطين، أفقي وعمودي. يعني أن نكثر من قدراتنا ومهاراتنا، وأن نمي القدرات والمهارات الموجودة.



وهي تكون في ثلاثة مجالات: في العبادات، كقراءة القرآن مجودة وحفظه والإمامة والخشوع في الصلاة والدعاء وحساب الزكاة والمواريث إلخ. والثاني في الأمور الإنسانية، مثل فن التواصل والاتصال ومخاطبة أصناف مختلفة من الناس وبعض المجالات الضرورية وكل أنواع التعامل مع الناس. الثالث في الأمور الفنية، كالقراءة السريعة والكتابة والحاسوب وقيادة السيارة والإسعافات الأولية وفن الدفاع عن النفس وكل شيء مفيد.

فهذه الأشياء كلها يجب أن يكون في خطة المسلم كسبها وترقيتها. وينبغي استغلال الأوقات الفارغة والإجازات بكسب هذه الأشياء، وخاصة المهارات الفنية، فإن هذه الأمور في الغالب تحتاج إلى وقت مخصص.

#### • ترجمة العموميات إلى جزئيات على أوسع نطاق

إن الترقى عن طريق تطبيق القيم والمثل يحتاج منا إلى تصور أكبر قدر ممكن من الجزئيات المندرجة تحت عموم تلك القيم والمثل. فكلما اتسعت دائرة التصور للصور العملية لتلك القيم والمثل كان التطبيق أقرب إلى الوفاء بها، وكان الاتصاف بتلك الصفات أكمل، والانتساب إلى أهلها أصدق.

فهذا الأمر كما أنه يحتاج إلى شمول الفهم وسعة التصور يحتاج أيضا إلى مراجعة بين وقت وآخر ويقارن بين ما تم تحقيقه وما تم تصوره وما يستجد من الصور العملية. فكثيرا ما يحدث أن الشخص قد يتصف بالشجاعة مثلا، لكن الشجاعة التي عنده ما زالت تنحصر مثلا في إبداء الرأي المخالف، ولم يجروا هو مثلا أن يعترف بخطأه، والاعتراف بالخطأ شجاعة، أو لم تصل الشجاعة إلى حد أن يتخذ موقفا منافحا للحق، قد يجروا على فلان أو علان من الناس، ولكن أن ينصب نفسه داعيا للحق الذي غاب في واقع الأمة لم يصل الأمر إلى ذلك الحد.



وهكذا في سائر الصفات، كالصدق مثلا، يحتاج إلى توسيع دائرة الصدق حتى يصبح من أهل الصدق حقا. وكما قال الرسول ﷺ: "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا." (١)

فتأمل قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ "وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا." فحتى يكون الرجل صديقا حقا يحتاج إلى مداومة الصدق وتحري مواضع الصدق. وهكذا في سائر الصفات، فلا يوصف الإنسان بصفة معينة حتى تكون تلك الصفة حالته الدائمة وحتى يتحرى مواضعها وتتسع دائرة تطبيقها فتغطي جميع مجالاتها.

وهكذا يمكن أن تصاغ الأهداف والمواصفات بشكل آخر إلا أننا فعلا نحتاج إلى تصور مفصل لمثالياتنا حتى لا تبقى عائمة تضيع مع طول العهد وتقلب الأوضاع.

#### • معايير التفوق الثلاثة

لتحقيق تلك المثاليات يجب أن يكون لنا معايير نقيس بها مدى تحقق تلك المثاليات وإلى أي حد يجب أن نحقق تلك المثاليات. وأنا أقترح لهؤلاء الطموحين أن يكون لهم معايير على أنواع ثلاثة آتية:

الأول معايير مأخوذة من عظم الرسالة الإسلامية، أي أن يقيس هذا المسلم الغيور أهدافه وأدائه بقدر هذه الرسالة الإلهية التي أنزلها رب العالمين إلى رسوله الأمين. فبقدر ما يعرف الإنسان قدر من يعبد ومن أمره بهذا الواجب يكون علو همته وطموح أهدافه. ويعرف قدر قوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾



[الرحمن: ٦٠]. إنه لفرق شاسع جدا بين إحسان الله لعباده وبين محاولة إحسان العبد. فبقدر ما يعرف العبد مدى إحسان الله له يعرف كيف ينبغي أن يتعامل مع هذا المحسن العظيم الكريم سبحانه، ويعرف ماذا ينبغي أن يقدمه شكرا له سبحانه وطاعة وحباً وتعظيماً.

يجب أن يستشعر أن ما يحمله على ظهره من أمانة التكليف ليس هزلاً، بل هو يتعامل مع رب عظيم كريم، ويؤدي رسالة عظيمة جلية، فلا يضع لنفسه هدفاً تافهاً، ولا يسمح لنفسه أداء هزلاً. ثم يستعين بالله لأداء هذه المهمة الجليلة. والله الموفق.

الثاني، أن يضع هذا المسلم الغيور نصب عينيه كيف كان سلفنا الصالح قد أدوا الأمانة، وكيف كانوا قد قدموا لتاريخ الأمة وتاريخ الإنسانية صوراً راقية عجيبة تعجب الزراع ليغيب بهم الكفار. فيرسم لنفسه خطة طموحة للحاق بهؤلاء القوم. وهذا وإن كان لكل عصر ومرحلة محدداً الخاصة، إلا أن لكل جيل مسؤوليته التاريخية الخاصة أيضاً، مما يدفع لمجموع الأمة إلى أن يجتهد كل جيل أن يكون خير خلف لخير سلف. حتى لا يلحقنا العار التاريخي، وحتى لا يحمل الجيل اللاحق أعباء تقصير الجيل السابق.

هذا على الرغم من أن تراكم المشاكل التاريخية -بطبيعة الحال، وبلا شك- تزيد الأداء صعوبة كلما تقادم العهد وتأخر الزمن، غير أن هذا القياس الطموح يظهر لنا مدى القصور الذي يقع. وهو بالتأكيد يشكل حافزاً قوياً لأن يجتهد أفراد الأمة لأداء مهمتها، كما اجتهد الصحابة ومن تبعهم بإحسان.



وهذه اليقظة التاريخية واستشعار عظم المسؤولية تكسب الأمة ثقتها بنفسها واعتزازها بتاريخها. فإن لها تاريخا حافلا بالبطولات يدعو الأمة لأن تعود إلى دورها الذي قام به السابقون لقيادة البشرية. فالأمة الإسلامية يحق لها بل يجب عليها أن تسود بعد هذا الغياب الذي يعتري سلسلة أمجادهم بهذا الانقطاع. ليس ذلك هو الأصل ولا المصير. بل أصلهم ومصيرهم هو الوعد الإلهي حيث قال الله عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾ [النور: ٥٥].

الثالث أن تكون هذه الجهود وذلك الطموح في محاذاة بل مسابقة جهود غيرهم ممن يشارك - بل ويسبق - في حلبة تأثير الحياة المعاصرة.

إن أداء الأمم غير الإسلامية لمهامها الدنيوية ومصالحها المادية بكفاءة عالية وفعالية أخاذة شيء يثير العجب مع غيابهم عن الوجهة الصحيحة والهدى المستقيم. ويثير الدهشة أكثر إذا نظرنا إلى أصحاب الهداية الربانية يمارسون دعوتهم - وهي دعوة الحق - لا يمارسونها - إن لم يكن بعيدا عن المطلوب أصلا - إلا مجرد أداء أقل ما يتأدى به الواجب وبرودة المشاعر وبلادة العاطفة وفقدان الحكمة والحنكة، وليس عندهم همة عالية تدفعهم لمواكبة الركب أو مسابقة الآخرين.

لا يصح من أمة مثل هذه الأمة لها موقعها العظيم من سائر البشر أن يكون له حضور غير مشرف ولا يؤكد هذا الموقع وتلك المكانة.

وليس من العيب أن نستفيد المقياس العملي من الأعداء حتى لا يكون هناك مظهر قصور بهذا المعيار.



وهذا المقياس إضافة إلى أنه قد يستند إلى منطق رد الفعل الذي يضمن على أقل تقدير عدم غياب تكافؤ المواجهة، فهو من جانب آخر يعكس لنا إلى أي مدى وصلت القدرة البشرية، مما نربأ بأنفسنا ونحن لسنا أقل بشرية منهم أن نكون دون مستوى الذين وصفهم الله أنهم ﴿كَأَلَّا نَعْبُدَ لَهُمْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

#### • اعتماد التربية الذاتية

ومهما تكن من أهمية الانضمام إلى جماعة تتعاون على البر والتقوى وضرورة الاستفادة من المؤسسات التربوية الموجودة، يبقى العامل الأساسي في إصلاح النفس وترقيته نحو معالي الأمور هو الشخص ذاته. فما نبغ نابغ إلا وهو قد بذل جهدا ذاتيا فاق بسببه أقرانه.

والذي يريد الوصول إلى حدود الكمال لا يفترض أن يكون عند من حوله كل ما يحتاجه. في الحقيقة نحن نعيش في عصر تخلف المسلمون في كل المجالات فالذي يفعل على مستوى ما فعله الناس عموما سيكون بالتأكيد من جملة المتخلفين. فمن أراد النهوض بنفسه لا بد أن يبذل جهدا إضافيا يرفع نفسه عن مستوى التخلف الذي وصل فيه عموم الناس.

#### بناء الصفات الإسلامية وترشيدها

إن كل ما سبق الكلام عليه في الصفات الأساسية من الإرشادات العملية ينسحب أيضا على هذه الصفات. ونضيف على ذلك نقاطا أخرى فنقول:

#### • أهداف قرآنية

إن وصف الجيل الرائد الذي يتحقق على يديه النصر قد صورته القرآن في مواضع متعددة. ويجب أن يكون ذلك أهداف المسلم.



من ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ [المائدة: ٥٤]

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ [المؤمنون: ١-١١].

ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٢﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٣﴾ [الأنفال: ٢-٤].

ومن ذلك أيضا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿١٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿١٤﴾ وَيَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿١٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿١٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿١٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴿٢٠﴾ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢١﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ



يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦-٧٣﴾ [الفرقان: ٧٦-٦٣]

وكذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً آتَا وَقَلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧، ٦١]

فهذه كلها وأمثالها كثيرة في القرآن مثل للمسلم الغيور وأهدافه التي يعمل على تحقيقها. وما ذكر الله أوصاف المؤمنين إلا من أجل أن يحقق المسلم تلك الصفات. وليست تلك الصفات مثاليات بعيدة عن الواقعية، نعم كلها أوصاف جميلة راقية جدا، لكنها قريبة ويسيرة لمن يسرها الله له. ولن يحرم الله رحمته ولطفه لمن أراد ذلك وصدق في طلبه، لكن السؤال من يعقد العزم ويشمر عن مساعد الجد؟ فليكن كل منا ذلك الرجل. ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

إن أصحاب الهمة العالية موجودون في كل زمان. إلا أن كثرة الخبث قد تحجبهم عن أنظار الناس. والذين يريد الله لهم الخير ييسر الله لهم اللحاق بركب هؤلاء. إن مشكلة الأمة ليس غياب أولياء الله على وجه الأرض، لكن المشكلة أن هؤلاء لم يبلغوا نصاب النصر. فليجتهد كل منا أن نكثر سواد هؤلاء، وليساند جهود هؤلاء، وليقم على صف هؤلاء.





واعتقاد أن مسيرة هذه الأمة دائما في خط التراجع وفي منحني نازل اعتقاد غير صحيح وموقف غير موفق. (وقد سبق الكلام عليه في الباب الثالث، فليرجع إليه).<sup>(١)</sup> فلا يقعد همتنا مثل هذا التصور. والله الموفق إلى سواء السبيل.

### • أهمية تزكية النفس

إن الترقية بالنفس نحو المقامات العالية وتطهيرها من أدران النفس الأمارة بالسوء وعلائق الشهوات ثلث ركائز الرسالة المحمدية - على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم. قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢]

إن التكامل في هذه العناصر الثلاثة، تلاوة آيات الله، وتزكية الأنفس، تعليم الكتاب والسنة، هو الذي جعل الجيل الأول من الصحابة والتابعين وتابعيهم تميزوا بالتكامل في شخصياتهم. فتجدهم عبادا من العابدين، وتجدهم علماء راسخين، وتراهم مجاهدين منتصرين. فتلك العناصر الثلاثة التي ذكرها القرآن ولخص مهمة الرسول ﷺ فيها، تعتبر دعائم متكاملة لبناء الشخصية الإسلامية الحضارية. فكما نريد أن تكون للأمة حضارتها المتكاملة فينبغي أن نبني أنفسنا بناء متكاملا بتلك الطريقة التي سلكها الرسول ﷺ.

### • إحياء الروح

ومسألة تزكية النفس ليست مسألة معلومات تنقل أو كلام يروى، ولا هي مجرد سلوكيات محددة، غائبة عن المعاني والروح. إنها عملية إحياء النفوس ومعالجة القلوب ومخاطبة الخواطر. والغوص في أعماق النفوس لإصلاحها وتزكيته ليس كالتعامل مع الشكليات.

(١) راجع ص ٢٨٧-٢٩٢ في الكلام عن تعاقب الخير والشر.



إنها إيقاظ للروح، وتحريك للنفس، فتتكلم بلغة المشاعر، وتتعامل بنظام الأذواق. فكلما كنا في تزكية النفوس ليست أصواتا مجردة عن العواطف، وتفاعلنا فيها يجب أن يكون مشحونا بالحرقة والإشفاق والحنان، وتصرفاتنا فيها يشترط أن تستوفي أذواق الجلال والجمال.

### • بين المبنى والمعنى

إن أكثر ما يتعرض له الدين من الضياع هو جوهره ومعناه. فكثيرا ما يمارس المسلمون أعمالهم فتبقى صورا بلا روح، وأشكالا بلا معنى. وهذا الخلل له مظاهر كثيرة جدا. بل يكاد لا يسلم أمر من الأمور إلا وقد تعرض لنسيان معناه وضياع مغزاه.

فالمصلون إلا من رحم الله يأتون بكل أركانها وأشكالها، ويهملون خشوعها ولا يذكرون الله فيها إلا قليلا. والطلاب يهتمون بنتائج الاختبار ولا يراعون هل تحققت أهداف المادة أم لا؟ والموظفون يأتون في وقت الدوام ويرجعون لا يفكرون هل أنجزوا دورهم أم لا؟ وقارئ القرآن قرأ جزءا أو جزءين لا يهتم ماذا أراد الله له من هذا الكلام الذي قرأه، خوفه من النار ولا يرتعد، ورغبه في الجنة ولا يستعد، أمره بالخير فلا ياتمر، وزجره عن الشر فلا ينزجر.

وهكذا نحتاج إلى مراجعة شاملة لكل شيء مارسناه ما معناه؟ وكل شيء كلفنا به ما الهدف منه؟ فيكون لحياتنا كلها معنى قائم حي.

### • المطلوب كمال الإيمان

إن القرآن والسنة يطالبنا بالإيمان الكامل. والإيمان الناقص في لغة القرآن والسنة في حكم المعدوم غير معتبر. فتأمل قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] الآية. ولاحظ قول الله تعالى:



﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥]. فاستخدم القرآن لفظ "إنما" لحصر المؤمنين في هؤلاء المتصفين بتلك الصفات، فالذين لم يستوفوا بها كأن إيمانهم غير معتبر.

وتأمل كذلك قول الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه."<sup>(١)</sup> واسمع أيضا قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين."<sup>(٢)</sup>

وأشد تأكيداً من ذلك قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! والله لا يؤمن! قيل: من يا رسول الله؟ قال: الذي لا يأمن جاره بوائقه."<sup>(٣)</sup>

فالله تعالى وكذلك رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطالبان منا الإتيان بكمال الإيمان، فيجب أن نشمر عن ساعد الجد للوصول إلى ذلك، فإنه تكليف، و﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

### • دوائر الإيمان الثلاث

والمتتبع للنصوص يجد أن خصال الإيمان تشمل دوائر الشخصية الثلاث، وهي الدائرة المعرفية والدائرة العاطفية والدائرة السلوكية. فالإيمان ليس مجرد اعتقادات وقناعات، بل الإيمان أيضا مشاعر وعواطف.

(١) أخرجه البخاري (١٤/١ رقم ١٣) ومسلم (٦٧/١ رقم ٤٥) واللفظ للبخاري

(٢) أخرجه البخاري (١٤/١ رقم ١٤) ومسلم (٦٧/١ رقم ٤٤)

(٣) أخرجه البخاري (٥/٢٢٤٠ رقم ٥٦٧٠)



ففي الحديث السابق "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين." وكذلك حديث: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه." وكذلك حديث: "لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا."<sup>(١)</sup> وأيضا حديث: "أوثق عرى الإيمان الحب في الله عَزَّوَجَلَّ والبغض في الله."<sup>(٢)</sup>

والإيمان كذلك أيضا سلوكيات. قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا."<sup>(٣)</sup> فكمال الإيمان بكمال الخلق وهو سلوكيات. وكذلك قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت."<sup>(٤)</sup> فهذه كلها سلوكيات.

فالشخصية الإسلامية التي يطالب بإيجادها القرآن والسنة هي الشخصية التي تكاملت جوانبها من صحة المعارف واستقامة الاعتقاد، وحياة الضمير وقوة المشاعر، وسلامة السلوك وحسن التصرف.

فلبناء الشخصية الإسلامية نحتاج إلى خطة ثلاثية الأبعاد تغطي كل جانب بغذائها المناسب.

- (١) أخرجه مسلم (١/٧٤ رقم ٤٥)
- (٢) أخرجه أبو داود الطيالسي في مسنده (١/١٠١ رقم ٧٤٧) وابن أبي شيبة في مصنفه (٧/٨٠ رقم ٣٤٣٣٨)
- (٣) أخرجه ابن حبان (٢/٢٢٧ رقم ٤٧٩، ٩/٤٨٣ رقم ٤١٧٦) وأحمد (٢/٢٥٠ رقم ٧٣٩٦، ٢/٤٧٢ رقم ١٠١١٠، ٢/٥٢٧ رقم ١٠٨٢٩، ٦/٤٧ رقم ٢٤٢٥٠، ٦/٩٩ رقم ٢٤٧٢١) والحاكم (١/٤٣ رقم ١٠٢) والترمذي (٣/٤٦٦ رقم ٩/١١٦٢، ٥/٦٢١٢) وصحاحه.
- (٤) أخرجه البخاري (٥/٢٢٤٠ رقم ٥٦٧٢)



لبناء الجانب المعرفي نحتاج إلى الغذاء من الحقائق الصحيحة والمعلومات الموثوقة.

ولبناء الجانب العاطفي نحتاج إلى الغذاء من المشاعر والذوقيات.

ولبناء الجانب السلوكي نحتاج إلى الغذاء من التكاليف والنماذج العملية والمؤثرات البيئية.

#### • التركيبة السليمة للشخصية الإسلامية

ثم التركيبة السليمة للشخصية يجب أن تكون مبنية على الترتيب الصحيح لتلك الجوانب، وإلا سيكون هناك خلل نفسي وانفصام شخصي.

والتركيبة السليمة للشخصية الإسلامية لا بد أن تؤسس على قاعدة معرفية صحيحة.

العواطف والمشاعر والذوقيات يجب أن تبنى على أساس الإيمان الصحيح وفق الكتاب والسنة المؤسس أيضا على قاعدة من الحقائق الثابتة الموافقة للقواعد العلمية الصحيحة. ثم السلوكيات يجب أن تبنى أيضا على الأدلة الصحيحة من الكتاب والسنة وما ينبنى عليهما من الأصول المعتمدة، وتنطلق الأفعال من تلك المشاعر المضبوطة. (انظر الشكل رقم ١)

والانحراف سيحدث إذا اختل هذا الترتيب. وذلك يأتي على أنواع:

الأول: أن يحدث انفصام بين تلك الجوانب الثلاثة. فالمعارف والعلوم والاعتقادات لا تؤجج المشاعر ولا تحيي الضمير. فتبقى قناعات مجردة واعتقادات ميتة، لا تحرك ساكنا ولا تؤسس عملا. والمشاعر لا تنتج عن الحقائق



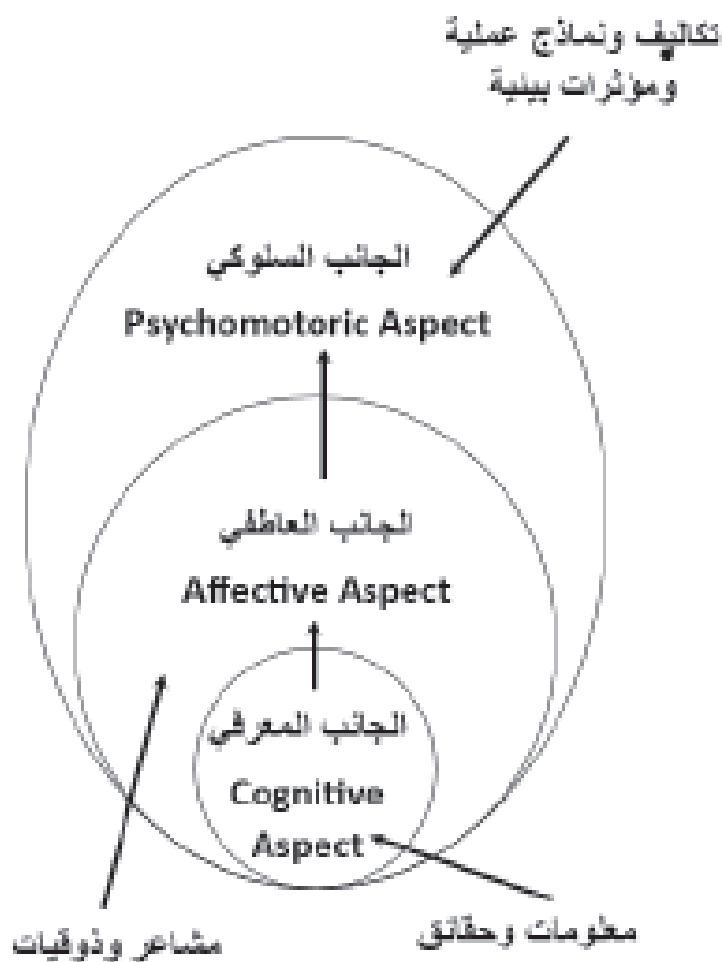
الصحيحة ولا تبنى على قناعة سليمة، فتكون نتاج الخيالات والأوهام. أو تكون العواطف تجري وراء الشهوات وتطيع كل ما تأمره الأهواء. والسلوك والتصرفات لا تقوم على قناعة صحيحة أو لا تدفعها مشاعر صادقة، بأن تنجرف مثلاً مع التيار البيئي المنحرف وهو يعتقد فساد تلك السلوكيات وخطأ تلك التصرفات، أو بأن يتحرك تحت ضغط خارجي لا يرضاه هو.

ويدخل في هذا النوع صور كثيرة من الانفصام الشخصي يطول ذكرها. ولا يشترط انفصال كل تلك الجوانب الثلاثة لحدوث الخلل. بل يكفي أن يخرج جانب واحد عن إطاره الطبيعي لحصول الاختلال.

الثاني: أن تنقلب تشكيلة هذه الجوانب، بأن يكون مثلاً الجانب العاطفي يحتل المكان الأساس في بناء الشخصية، فتبنى عليها المعارف والقناعات، وكذلك تؤسس التصرفات والسلوكيات تبعاً للمشاعر والمواجيد. أو تشكّل القناعات وفقاً للسلوكيات القائمة والتصرفات السائدة الموجودة. وهذا أصل ضلال أكثر المنحرفين، فيكون العقل تابعاً لا متبوعاً، ويكون العلم محكوماً لا حاكماً.

الثالث: أن يكون الخطأ من الأساس وهو الجانب المعرفي الذي لا يبنى على حقائق ثابتة ومعلومات صحيحة. فيكون البناء، مهما كان، مختلاً كلياً، خاطئاً من أصله.

ويتفرع على تلك الصور كلها صور منحرفة كثيرة. والمهم في هذا يكون بناؤنا الشخصي صحيحاً سليماً. والله الموفق.



الشكل رقم ١



## القرآن والسنة غذاء كافٍ ودواء شافٍ

إن الاهتمام بالقرآن والسنة والتعامل مع نصوصهما تعاملًا عمليًا جادًا يكفي لتغذية كل الجوانب الشخصية الثلاثة، ويشفي صدور كل من أراد الهداية والوصول قمة السمو الإنساني.

إذ في القرآن والسنة الصحيحة من الحقائق العلمية والحجج الواضحة والمعلومات القيمة ما يهدي العقول وينميها. وفيهما من جمال البلاغة وحسن الأساليب وروعة الحقائق الناصعة ما يشبع المشاعر ويرضي الأذواق. وفيهما من الإرشادات العلمية والنماذج العملية ما يحرك الإنسان ويصوغ الشخصية شخصية ناضجة ربانية. ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، إنه وعد من الله ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]؟ ومن صدق الله صدقه الله. وقد وعد الله أن من طلب الهداية من الله هداه. قال تعالى في الحديث القدسي: "فاستهدوني أهدكم."<sup>(١)</sup>

إنه وعد الصدق من رب العرش العظيم أنه من التجأ إليه وأتاب فتح الله له الأبواب وهيا الله له الأسباب. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

## • تكامل شعب الإيمان

إن بعض الناس قد يستدلون ببعض المظاهر الإيمانية، مثل كثرة الصلاة أو حفظ القرآن، على قوة إيمان صاحبها، ثم يصاب بصدمة لما يراه أنه ليس بصاحب الأمانة

(١) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٤ رقم ٢٥٧٧)





التي يوثق به. وينسى أن الإيمان شعب متعددة، قد تقوى شعبة واحدة وتضعف أخرى.

قال الرسول ﷺ: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان".<sup>(١)</sup>  
فقد يكون الإنسان قويا في إمطة الأذى والإحسان إلى الناس لكنه ضعيف مثلا في حياته أو في قول لا إله إلا الله، ويبقى عنده شيء من الإيمان. وقد يكون العكس يكون الإنسان قويا في اعتقاده لكنه ضعيف في أخلاقه. وهكذا. (انظر الشكل رقم ٢)

فلا يكتفي الإنسان الذي يريد كمال الإيمان أن يكون عنده قوة فقط في بعض الشعب دون الأخرى. فينبغي أن يأتي على كل شعبة بنصيب وافر قدر المستطاع.

(١) أخرجه مسلم (١/٦٣ رقم ٣٥)



## شعب الإيمان



الشكل رقم ٢



## شيخ التربية وشيخ التعليم

إن أرباب السلوك وأهل التصوف يرون أنه لا بد من وجود شيخ مرب يأخذ بيد السالك إلى الله حتى يصل إلى الأحوال السنية واستقر على المقامات العلية. وهذا شاهد في الكتاب والسنة. فقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين حتى يكونوا أعوانا على الطاعة. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]. بل وقد أمر الله نبيه أن يبقى مع الذاكرين المخلصين ونهاه أن يتبع الغافلين قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَنَتِ يَرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]. والله حصر الذين يسلمون من الخسارة فقط في هؤلاء الذين يتواصون بالحق ويتواصون بالصبر عليه. ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣].

والشاهد من السنة حديث الرجل الذي قتل مائة نفس وأراد أن يتوب إلى الله فدل على عالم فسأله: هل له من توبة؟ قال: نعم، ثم قال: "انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فاعبد الله معهم. ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء." (١)

فالذي يريد صلاح نفسه يحتاج إلى معين. والله بين أن من ليس له ولي يرشده أضله الله. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

ولكن هل وجود شيخ مرب شرط لازم أم يمكن أن يكفيه بأن يتعلم ويتلقى العلوم من أهلها دون أن يكون له شيخ طريقة؟

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم (٤/٢١١٨ رقم ٢٧٦٦)



نقل الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في تعليقه على رسالة المسترشدين هذه المسألة عن الشاطبي لما وجه هذا السؤال إلى محمد بن عبد الله النفري، فكتب له: "الشيخ المرجوع إليه في السلوك ينقسم إلى قسمين: شيخ تعليم وتربية وشيخ تعليم بلا تربية.

فشيخ التربية ليس بضروري لكل سالك، وإنما يحتاج إليه من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس. أما من كان وافر العقل منقاد النفس فليس بلازم في حقه. وتقيده به من باب الأولى. وأما شيخ تعليم فهو لازم لكل سالك.

أما كون شيخ التربية لازماً لمن ذكرناه من السالكون فظاهر، لأن حجب أنفسهم كثيفة جداً. ولا يستقل برفعها وإماتها إلا الشيخ المربي. وهو بمنزلة من به علل مزمنة وأدواء معضلة من مرض الأبدان، فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية القاهرة.

وأما عدم لزوم الشيخ المربي لمن كان وافر العقل منقاد النفس فلأن وفور عقله وانقياد نفسه يغنيانه عنه، فيستقيم له من العمل بما يليقه إليه شيخ التعليم ما لا يستقيم لغيره. وهو واصل بإذن الله تعالى، ولا يخاف عليه ضرر يقع له في طريق السلوك إذا قصده من وجهه، وأتاه من بابه.

واعتماد شيخ التربية هو طريق الأئمة المتأخرين من الصوفية، واعتماد شيخ التعليم هو طريق الأوائل منهم. ويظهر هذا من كتب كثير من مصنفهم كالحارث المحاسبي وأبي طالب المكي وغيرهما، من قبل أنهم لم ينصوا على شيخ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره أئمة المتأخرين، مع أنهم ذكروا أصول علم القوم وفروعها، وسوابقها ولواحقها، لاسيما الشيخ أبو طالب. فعدم ذكرهم له دليل على عدم شرطيته ولزومه في طريق السلوك.



وهذه هي الطريقة السابلة -أي المسلوكة- التي انتهجها أكثر السالكين، وهي أشبه بحال السلف الأقدمين، إذ لم ينقل عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية، وتقيدوا بهم، والتزموا معهم ما يلتزمه التلامذة مع الشيوخ المربين. وإنما كان حالهم اقتباس العلوم واستصلاح الأحوال بطريق الصحبة والمؤاخاة بعضهم لبعض. ويحصل لهم بسبب التلاقي والتزاور مزيد عظيم يجدون أثره في بواطنهم وظواهرهم، ولذلك جالوا في البلاد وقصدوا إلى لقاء الأولياء والعلماء والعباد".<sup>(١)</sup>

واختار الشيخ أبو غدة هذا المذهب. قال: "فأي إنسان مسترشد عمل بكتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالحين على منهج العلم فقد سلك طريق الهدى، وتوجه إلى الله تعالى راشدا مهديا، إذ القرآن والسنة في ذاتهما هاديان إلى الله تعالى، ومزكيان للروح والنفس أيما تركية".<sup>(٢)</sup>

ومع ذلك نقول متى وجد هناك شيخ عالم بالكتاب والسنة وأحكام الدين، ملتزم به، متنزه من البدع، ناصح للخلق، فلا ينبغي أن نزهد في إرشاده وتربيته. لأن الشيخ بحكم تقدمه وخبرته قد يختصر له الطريق، وينبه على آفاتها ما قد يفوت المبتدئ في هذا الطريق. إلا أن التعويل في الحقيقة على الشخص نفسه. من كانت له نفس وثابة منقادة لأوامر الله وقافة عند كلام الله ورسوله فهو سينطلق إلى رضوان الله تعالى سواء كان معه شيخ أم لا.

ولا أقصد بالشيخ هنا الشيخ المتمي إلى طريقة من طرق الصوفية. وإنما هو كل شخص له من الصلاح والعلم الشرعي ما يصلح أن يقتدى به ويتربى على يديه.

(١) تعليق الشيخ عبد الفتاح أبي غدة على رسالة المسترشدتين ٧٢-٧٢، للحارث المحاسبي، مكتب المطبوعات الإسلامية، بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٩هـ-١٩٩٩م

(٢) المصدر نفسه ص ٧١



والملاحظ أن التلقي من أهل العلم لا أحد من العلماء يقول بجواز التخلي عنه. إذ السلوك لا يستقيم إلا بالعلم، والعلم لا يؤخذ إلا من أفواه الرجال. وقد قالوا: إن العلم كان في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب، وصارت مفاتحه بأيدي الرجال.<sup>(١)</sup>

### • الصحبة لها أصل

وقد تكون الصحبة الصالحة بمثابة وجود الشيخ بل في كثير من الأحيان أفضل وأقوى تأثيراً. إذ إن معاشرة الرجل لأصحابه أكثر من ملازمة شيخه.

والملاحظ في سير الصحابة وعلماء السلف أن يطلق لفظ الأصحاب على التلاميذ فيقال: أصحاب ابن مسعود، وأصحاب ابن عباس، أو أصحاب أبي حنيفة، وأصحاب الشافعي. بل نقول لتلاميذ رسول الله ﷺ أنهم أصحاب رسول الله عليه وسلم. وهذا له دلالة مهمة. إذ إن طبيعة العلاقة بينهم تتجاوز مجرد السماع وتلقي العلوم بل تتعدى إلى العلاقات الشخصية والمعرفة والمعاشرة الفردية. وإن العلاقة المثلى بين المربي والمتربي تكون علاقة المعاشرة والملازمة أكثر من مجرد علاقة السماع والتلقي.<sup>(٢)</sup>

### صياغة عقلية علمية رصينة

لا يختلف اثنان في أن من أساسيات الإصلاح هو إصلاح الفكر. وقد كانت بداية الإسلام يقظة عقلية إذ أمر الله أول ما أمر بالقراءة وهي عملية فكرية وترشيد

(١) انظر الموافقات (١/٥٧)

(٢) ذكر هذه الفائدة شيخنا محمد المختار الشنقيطي حفظه الله تعالى ورعاه في إحدى محاضراته التي ألقاها في مسجد جامعة الإيمان حرسها الله من كيد الكائدين ومكر الماكرين.



للعقل. قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ أَفَرَأَى أَفَرَأَى وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]. إن دلالة هذه البداية السماوية على أسس الإسلام وقواعده واضحة جدا. إن الإسلام يبنى على العلم والحقائق، لا على الظن والخرافات. وطريقه هو طريق التعليم والتعلم، لا طريق التخمين والتوهم.

وطريق التقدم دائما يبدأ بالتفكير الإيجابي والعقلية المفتوحة التي تصل بصاحبها إلى سبل الانطلاق وطرائق الارتقاء.

### • الاعتماد على الحقائق القطعية وطرح الظنون والأوهام

إن العقلية التي يعتمد عليها في بناء المستقبل هي العقلية التي تجرؤ على نبذ الأوهام والخرافات وإن كانت لها السيادة في دنيا الناس. فالحقيقة الثابتة هي التي تبنى عليها الحقائق والطموحات المأمولة. أما الخيالات والأوهام التي قدر لها من الأبواق المنفوخة ما تروج بها أسواقها فهي لا توصل إلا إلى المهالك والمتالف.

إن أهم ما يميز أصحاب الإيمان من غيرهم هو اعتقادهم المبني على الحقائق العلمية، فلا يقبلون إلا الحق ولا يصدقون إلا الثابت من الحقائق والصحيح من الأخبار، فيردون غير ذلك من الأقاويل والمعتقدات. فلا يقصدون غير الحق إذ لا قيمة لما بعد الحق. ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢].

إن ما لم يقم على أساس ثابت من العلم ولم ينجح في تمحيص الوثاقة لا يجدي شيئا في بناء الفكر ولم يغن شيئا من جوعة العقل. ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾



### • النقل أو الدليل

فهناك موقفان متطرفان في تلقي المعلومات والتعامل معها، الأول أن يقابل كل شارد ووارد بالقبول، الثاني وضع كل المعلومات في دائرة الاحتمال وقابلية التشكيك. أو موقف ثالث لا يقل خطلاً، وهو أن توزن المعلومات بميزان المزاج الذي يسيطر عليه أو يلوي عنقها لخدمة مصلحة معينة. وهذا في الحقيقة هو الذي عناه القرآن باتباع الهوى. وقد نهى الله نبيه داود عَلَيْهِ السَّلَام عن اتباع الهوى لأن ذلك يصده عن الحق ويضله عن سبيل الله. قال تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [سورة ص: ٢٦].

والقرآن يحارب الاتباع الأعمى للهوى، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]، وقال: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فينبغي للمسلم أن يكون له معيار واضح مستقيم تجاه المعلومات التي تأتيه. ويمكن تلخيص هذا الموقف المعتدل من خلال قوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ١١١]. وقوله: ﴿إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]. فالإسلام يرفض دعوى بغير برهان، ويرد كل خبر بغير توثيق.

### • الرد إلى الأصول المحكمات

إن من الأمور المنهجية التي ربي القرآن المسلمين عليها ولم يأخذ بها كثير من المسلمين هو مبدأ رد المتشابهات إلى المحكمات. وهذه منهجية عقلية عظيمة لو التزم بها الإنسان لسلم من الإشكالات الكثيرة.





قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧]

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي بينات واضحات الدلالة لا التباس فيها على أحد، ومنه آيات آخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم. فمن رد ما اشتبه إلى الواضح منه وحكم محكمه على متشابهه عنده فقد اهتدى، ومن عكس انعكس. ولهذا قال تعالى: ﴿هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ أي تحتل دلالتهما موافقة المحكم وقد تحتل شيئاً آخر من حيث اللفظ والتركيب لا من حيث المراد." (١)

والذي ذهب إليه ابن كثير ورجحه في معنى المحكم والمتشابه من أن المحكم هو الواضح الدلالة والظاهر المعنى والمتشابه ما لم يكن كذلك هو ما رجحه غيره أيضاً كالقرطبي والشوكاني. (٢)

ومهما يكن من خلاف في معنى المحكم والمتشابه، فإن كل الأقوال كلها تتفق في أن المحكم يتصف بكونه واضح الدلالة ثابت الحكم غير منسوخ فيكون مرجعاً وعمدة في العمل. قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما المحكمات فإنهن اللواتي قد أحكمن بالبيان والتفصيل وأثبت حججهن وأدلتهن على ما جعلن أدلة عليه من حلال وحرام ووعد ووعيد وثواب وعقاب وأمر وزجر وخبر ومثل وعظة وعبر

(١) تفسير القرآن العظيم (١/ ٣٤٥)

(٢) انظر أيضاً الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٠) وفتح القدير (١/ ٣٩٨)



وما أشبه ذلك. ثم وصف جل ثناؤه هؤلاء الآيات المحكمات بأنهن أم الكتاب، يعني بذلك أنهن أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود وسائر ما بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم وما كلفوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم. وإنما سماهن أم الكتاب لأنهن معظم الكتاب وموضع مفرع أهله عند الحاجة إليه. وكذلك تفعل العرب تسمي الجامع ومعظم الشيء أمًّا له. فتسمي راية القوم التي تجمعهم في العساكر أمهم، والمدبر معظم أمر القرية والبلدة أمها. <sup>(١)</sup>

وإن الآية واضحة في ذم من تتبع المتشابه واعتمد عليه وجعله أصلاً. فهو خطأ وزيف وانحراف عن المنهج العلمي السليم قبل أن يكون ضلالاً عن هدى الإسلام المستقيم.

لو التزم كل إنسان بأن يرد كل أمر مشتبّه إلى الشيء الواضح الثابت لزال عنه كثير من اللبس في إدراك الحقائق. وكثير من انحراف المنحرفين وضلالة الضالين إن لم يكن كله منشأ تشبّهم بالمتشابهات من النصوص، وإنما اعتمدوا عليها لما فيها من إمكانية تأويلها على الوجه الذي يريدون. بخلاف المحكمات من النصوص، فإن الوضوح فيها لم يترك للمغرضين مساحة للتأويل.

فالذي يريد الحقيقة الناصعة لم يعتمد إلا على المحكمات. ومن فعل غير ذلك فإنما يريد الفتنة والبعد عن الحق.

### • الدقة والموضوعية في الحكم

ومن السلوكيات العلمية التي يحتاج إلى الالتزام بها للوصول إلى الحقيقة بدون غش هو الدقة والموضوعية في الأحكام.



وتتحقق الدقة والموضوعية بتحييد العواطف واجتناب المبالغة في إصدار الأحكام.

وقد أنكر ونهى القرآن عن إشراك العواطف في إصدار الحكم قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]. وليس من العدل أن يحكم على الشيء أكبر أو أقل مما هو عليه. كما نهت الآية عن أن يتأثر الحكم بعاطفة البغض.

وقد جعل الرسول من الأمور المنجيات أن يلتزم الإنسان العدل والإنصاف في حالتي الغضب أو الرضى. ففي الحديث: "وأما المنجيات: فالعدل في الغضب والرضى، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السر والعلانية." (١)

وفي لفظ: "فأما المنجيات: فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغنى والفقر." (٢)

فاتباع العاطفة كثيرا ما يجنى على الحقائق المبتغاة. قال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوْا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيْهِ خَيْرًا كَثِيْرًا﴾ [النساء: ١٩] وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوْا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوْا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

إن من الأساليب التي كثيرا ما تعيننا على تجنب المبالغة في التعبير أو التصور هو استعمال لغة الأرقام في تصوير الحقائق وفي التعرف على الواقع.

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/٤٧ رقم ٥٧٥٤)

(٢) شعب الإيمان (٥/٤٥٢ رقم ٧٢٥٢)



وقد استخدم الرسول ﷺ هذا الأسلوب وأجرى إحصائية في التعرف على حجم المسلمين الحقيقي على وجه الدقة. ففي صحيح مسلم عن حذيفة قال: كنا مع رسول الله ﷺ فقال: "أحصوا لي كم يلفظ الإسلام." (١)

وفي رواية البخاري: قال النبي ﷺ: اكتبوا لي من يلفظ بالإسلام من الناس فكتبنا له ألفا وخمسمائة رجل. (٢)

### • ملكة النقد والابتكار

إن كل نتاج فكري بشري معرض للخطأ والنقص، فلا يجوز أن يعامل معاملة الوحي المقدس. وليس بصحيح أن يكون عقل المسلم مثل البيغاء يردد كل ما يلقن عليه من المقولات. إن مصيبة التقليد قد أصابت الأمة في الأمور الدينية والمدنية. ففي الأمور الدينية كثير من المنسوبين إلى الفقه يتلقون أقوال بعض العلماء وفتاويهم بدون اعتماد دليل فكأنها وحي منزل. ومثل ذلك انبهار المتغربين بعلماء الغرب، يرون أن كل ما جاء من الغرب كله هو أحسن وأصح ما يتوصل إليه عقل بشري، معطين بذلك ما منحهم الله من العقول.

ثم لا يجوز أيضا أن يوجه النقد بناء على عدم الاستيعاب، أو انطلاقا من مجرد العناد. بل لا يكون النقد مقبولا إلا إذا كان صاحبه ملما بالموضوع متجردا لطلب الحقيقة.

وأيضا فإن مجرد النقد قد لا ينفع إذا لم يأت برأي بديل أحسن. فإن الهدم دائما أسهل من البناء. فلا بد أيضا من ملكة الابتكار لشيء جديد مفيد أحسن من الموجود.

(١) أخرجه مسلم (١٣١/١) رقم (١٣٩)

(٢) أخرجه البخاري (١١١٤/٣) رقم (٢٨٩٥)



### • الاستفادة من الحضارة الحديثة

ثم ما توصلت إليه الحضارة المعاصرة من التقدم العلمي لا يجوز أن نحرم أنفسنا منه. فالحكمة ضالة المؤمن. فالعلم ليس له جنسية ولا عرقية. فهو حق مشاع لكل إنسان. وهو إنما يتكون نتيجة التراكم من جهود البشر كلهم عبر التاريخ اشتركت فيه الحضارات المختلفة.

ولكن يجب أن نكون عقلانيين ومتيقظين دائماً في تقبل كل نتاج بشري، لا نقبل كل شيء كأنه مسلمات، فكل عمل بشري معرض للخطأ والنقص.

### • بين دقة التخصص وسعة الثقافة

إن تشعب الحياة المعاصرة وتوسع رقعة التخصصات العلمية يستوجب على الإنسان المعاصر الذي يريد أن يدرك ما حوله من الحقائق ويعيش على وعي كامل لمتطلبات العصر أن يكون له من سعة الثقافة ورحابة الأفق ما يغطي تلك المساحة المعرفية المعاصرة. ولا أقصد أنه يجب أن يعرف كل شيء. بل هناك قدر من تعدد المعارف وسعة المدارك لا بد أن يحصل عليه.

ويتحقق ذلك بأن يعرف أساسات كل علم ويفهم مبادئه ويرى ما جرى في العالم من ذلك المجهر الذي يتكون من ذلك التركيب المعرفي. ولا يكون ذلك على حساب التخصص. فهو يعرف كل ما في تخصصه بدقة ويعرف الأشياء الأخرى على الإجمال نسبياً. وأقول أن الإجمال هنا نسبي لأن بعض الناس لهم قدرة على الاستيعاب ما يمكنه أن يعرف في كل أمر كأنه متخصص فيه. وما ذلك على الله بعزيز.

ومع ذلك يجب أيضاً أن يقف الإنسان عند حده ولا يقحم نفسه فيما لا يعرفه. فإن التخصصات لا بد أن تحترم. لا يجوز لمن قرأ كتباً في الطب ولم يدرسه ولا



أجيز فيه، أن يفتح مستوصفا يعالج الناس. أو من تثقف على كتب في الفقه ولم يدرس الفقه على أيدي العلماء المتخصصين أن يفتي الناس ويحلل ويحرم. إن احترام التخصص أمر ضروري لصالح الناس وضمان سلامتهم وإلا فسدت الحياة واضطربت وانهدمت مصالح الناس.

#### • ربط الحقائق

إن معارف الناس كلها -سوى ما جاء عن طريق الوحي- مستوحاة من هذا الكون الواحد، وتفرع العلوم والفنون ليس تفرقة لهذا الكون. فالحق واحد بمعنى أن الحق في الرياضيات هو الحق في الكيمياء وفي الاجتماع أيضا. وإن اختلفت الصياغات والمصطلحات. فلا يجوز أن يفهم كل حقيقة في فن معزولة عن أخرى. فلا يفهم مثلا أن مبدأ الإنسان في الدين من آدم عَلَيْهِ السَّلَام وفي علم الحياة أن الإنسان من القرد. فلا بد أن يكون أحد الأمرين خطأ. ففي هذه الحالة لا يجوز أن تنسف الثوابت القطعية بالظنيات المجتثة ما لها من قرار. وإن الحقيقة الثابتة لا تبطلها الفرضيات المظنونة. فليس هذا من منطق العلم في شيء.

إن ربط الحقائق بعضها ببعض يرينا وجه الحق في هذا الكون كاملا واضحا. وبالأستقراء يظهر أنه كلما ربطت أية حقيقة ثابتة في نصوص القرآن أو السنة بحقيقة أخرى ثابتة تظهر دائما عظمة هذا الدين، وأن هذا جاء من مصدر المعارف كلها، نزل ممن خلق هذا الكون ويعلم تفاصيله سبحانه، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

وكما ينفع ربط الحقائق الدينية بالحقائق الكونية من المفيد أيضا أن تربط النظريات الاجتماعية والفلسفات الإنسانية بحقائق علمية كونية. فإنه لا يجوز



أن يسرح عقل الإنسان في التصورات المبتورة عن الواقع وهو يغض النظر عن الحقائق الناصعة بين يديه.

وفي الجملة فإن ربط الحقائق في كل شيء مفيد، لأن الحقائق الصحيحة تتعاقد لا تتعارض.

#### المبحث الرابع: فئات إسلامية راشدة

ثم بناء المستقبل الإسلامي لا يكون إلا على عقول أشبعت بروح الإسلام وتنفست بنفسه. إلا أن تقلبات التاريخ الطويل لهذه الأمة تركت في عقول المسلمين وتراثهم كثيرا من الدخن المتراكم عبر تلك المراحل المتطاولة. ففي عقول المسلمين أشياء راسخة يظنها الجاهل أنها من الدين وهي لا تمت إلى الإسلام بصلة. كما أن هناك أمورا من صلب الدين تركها الناس ظنا منهم أن الإسلام لا يشملها.

#### • أصالة الفهم

إن العصمة وضمن سلامة فهم الإسلام لا يكون إلا بالبناء على الوحي الإلهي ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١]، وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه".<sup>(١)</sup> ولا عصمة لغير هذين المصدرين.

(١) أخرجه الإمام مالك (٢/٨٩٩ رقم ١٥٩٤) الحاكم (١/١٢٧ رقم ٣١٩) قال ابن عبد البر: وهذا أيضا محفوظ معروف مشهور عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند أهل العلم شهرة يكاد يستغني بها عن الإسناد. (التمهيد ٢٤/٣٣١)



### • أخذ الإسلام جملة

إن معنى الإسلام هو استسلام كامل لرب العالمين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

والله سبحانه وتعالى لا يقبل تجزئة الدين، قال تبارك وتعالى: ﴿أَقْتُوا مَنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة: ٨٥]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

### • جمع النصوص

ومن العواصم الشرعية لفهم الحقائق الدينية هو فهمها على ضوء النصوص مجتمعة، يفسر بعضها بعضا ويبين بعضها بعضا، لا أن يسلط الضوء على بعضها معزولا عن الآخر، ولا أن يوضع في مقابلة متباينة يكذب بعضها بعضا. ينبغي أن تفهم النصوص كلها متعاضدة يشد بعضها بعضا. يوضح مبينها مجملها، يخصص خاصها عامها، يقيد مقيدها مطلقها، في بناء متماسك وتصور محكم متناسق.

والرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غضب أشد الغضب على من جعل بعض القرآن كأنه يعارض بعضه بعضا.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: سمع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوما يتدارؤون -أي يتجادلون- فقال: "هلك من كان قبلكم بهذا؛ ضربوا كتاب الله بعضه ببعض،





وإنما نزل كتاب الله يصدق بعضه بعضاً، فلا تضربوا بعضه بعضاً، ما علمتم منه فقولوا، وما لا فكلوه إلى عالمه." <sup>(١)</sup> وفي رواية: "انظروا الذي أمرتم به فاعملوا به والذي نهيتهم عنه فانتهوا." <sup>(٢)</sup>

### • الوسطية

وباستقراء نصوص الشرع وأحكامه وقواعده يظهر للموفق أن دين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه. <sup>(٣)</sup> والاعتدال دائماً خير من الميل إلى طرف دون طرف.

وقال ابن القيم: "وخير الأمور أوساطها والأخلاق الفاضلة كلها وسط بين طرفي إفراط وتفریط. وكذلك الدين المستقيم وسط بين انحرافين، وكذلك السنة وسط بين بدعتين، وكذلك الصواب في مسائل النزاع إذا شئت أن تحظى به فهو القول الوسط بين الطرفين المتباعدين." <sup>(٤)</sup>

وقال أيضاً: "وما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان؛ إما إلى تفریط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو. ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه. كالوادي بين جبلين والهدى بين ضلالتين والوسط بين طرفين ذميمين. فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له. هذا بتقصيره عن الحد وهذا بتجاوزه الحد. وقد نهى الله عن الغلو بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٧٧].

والغلو نوعان: (نوع) يخرج عن كونه مطيعاً، كمن زاد في الصلاة ركعة، أو صام الدهر مع أيام النهي، أو رمى الجمرات بالصخور الكبار التي يرمى بها في

(١) أخرجه الطبراني (٧٩/٢ رقم ١٣٠٨) وأحمد (١٧٨/٢ رقم ٦٦٦٨)

(٢) أخرجه أحمد (١٩٥/٢ رقم ٦٨٤٥)

(٣) انظر مجموع الفتاوى (٣٧٣-٣٧٥، ١٨/١٩١، ٢٨/٢١٣)

(٤) روضة المحبين (١/٢٢٠)



المنجنيق، أو سعى بين الصفا والمروة عشرا أو نحو ذلك عمدا. (وغلو) يخاف منه الانقطاع والاستحسار، كقيام الليل كله، وسرد الصيام الدهر أجمع بدون صوم أيام النهي، والجور على النفوس في العبادات والأوراد، الذي قال فيه النبي: "إن هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا ويسروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة."<sup>(١)</sup> يعني استعينوا على طاعة الله بالأعمال في هذه الأوقات الثلاثة، فإن المسافر يستعين على قطع مسافة السفر بالسير فيها.<sup>(٢)</sup>

وقال: "ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر فليرقد."<sup>(٣)</sup>

وفي صحيح مسلم أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: "هلك المتنطعون."<sup>(٤)</sup> قالها ثلاثا. وهم المتعمقون المتشددون.

وفي الصحيحين قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "عليكم من الأعمال ما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا."<sup>(٥)</sup>

### • منهجية التلقي

إن حصول الكفاءة في العلم الشرعي لا ينتج عن قراءات متفرقة أو سماع فيه هنا وهناك كما يزعم حصوله المتطفلون في هذا الميدان الخطير. إن هناك منهجية يجب أن يتبعها كل من أراد الانخراط في سلك الفقهاء والمتفقيين. شأنه شأن كل التخصصات العلمية أو العملية. وقد كتب العلماء قديما وحديثا كتباً في هذا

(١) أخرجه البخاري (٢٣/١) رقم ٣٩

(٢) مدارج السالكين (٢/٤٩٦-٤٩٧)

(٣) أخرجه البخاري (١/٣٨٦) رقم ١٠٩٩ ومسلم (١/٥٤١) رقم ٧٨٤ واللفظ للبخاري.

(٤) أخرجه مسلم (٤/٢٠٥٥) رقم ٢٦٧٠

(٥) أخرجه البخاري (١/٣٨٦) رقم ١١٠٠ ومسلم (١/٥٤٠) رقم ٧٨٢، (١/٥٤٢) رقم ٧٨٥



الموضوع مثل الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادي ومنتهى الأرب للإمام الشوكاني، ومن العلماء المعاصرين كتاب حلية طالب العلم للشيخ بكر أبي زيد، أو كتاب ثقافة الداعية للشيخ يوسف القرضاوي كما أن الشيخ سعيد حوى أيضا له جهد عظيم في وضع منهج متكامل للمسلم المعاصر الذي يكون لبنة المستقبل فوضع سلسلة الأساس في التفسير والأساس في السنة بعد سلسلة الأصول الثلاثة ثم سلسلة فقه البناء والدعوة والعمل الإسلامي.

وقد أشار الإمام الشاطبي إلى أنه لا بد من أخذ العلم من أهله المتحققين به، وقد قالوا: إن العلم كان في صدور الرجال، ثم انتقل إلى الكتب، وصارت مفاتحه بأيدي الرجال.<sup>(١)</sup>

وأصل هذا في الصحيحين: "إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا."<sup>(٢)</sup>

قال: "فإذا كان كذلك فالرجال هم مفاتحه بلا شك، فإذا تقرر هذا فلا يؤخذ العلم إلا ممن تحقق به."<sup>(٣)</sup>

### • علامات العالم الذي يؤخذ عنه العلم

"وللعالم المتحقق بالعلم أمارات وعلامات تتفق مع ما تقدم، وهي ثلاث: إحداها: العمل بما علم حتى يكون قوله مطابقا لفعله. فإن كان مخالفا له فليس بأهل لأن يؤخذ عنه، ولا أن يقتدى به في علم.

(١) انظر الموافقات (٥٧/١)

(٢) أخرجه البخاري (٥٠/١ رقم ١٠٠) ومسلم (٢٠٥٨/٤ رقم ٢٦٧٣)

(٣) الموافقات (٥٧/١)



والثانية: أن يكون ممن رباه الشيوخ في ذلك العلم لأخذه عنهم، وملازمته لهم، فهو الجدير بأن يتصف بما اتصفوا به من ذلك. وهكذا شأن السلف الصالح. فأول ذلك ملازمة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأخذهم بأقواله وأفعاله.

والثالثة: الاقتداء بمن أخذ عنهم والتأدب بأدبه، كما علمت من اقتداء الصحابة بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واقتداء التابعين بالصحابة، وهكذا في كل قرن.<sup>(١)</sup>

### • زغل<sup>(٢)</sup> العلم

قد ألف الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ كتاباً لطيفاً بهذا العنوان. وذكر فيه ما يؤاخذ على كل طائفة من أهل العلم من آفات لا تتفق مع روح العلم الشرعي ولا الهدي النبوي. وأذكر هنا ملخص ما جاء فيه ليكون السالك في طريق العلم على يقظة وحذر من الوقوع في تلك الآفات:

يؤاخذ على القراء الموجودين التنطع في قراءتها بحيث يشغله عن تدبر معاني كتاب الله ويصرفه عن الخشوع.

ويؤاخذ على المحدثين عدم الاهتمام بالفقه واقتصارهم على معرفة الحديث والإكثار من الرواية لاهين عن التدين به والتأدب به.

ويؤاخذ على الفقهاء تسارع بعضهم في إصدار الفتوى وتقليدهم لأنتمهم، كما يؤاخذ على طائفة منهم كثرة التحيل والحيل ونقر الصلاة والعمل بما يخالف النصوص النبوية، ويؤاخذ على قوم منهم حرصهم على المناصب وجاء الدنيا وزخرفها. ويحذر أيضاً من التكبر والعجب بالعمل وحب الظهور.

(١) الموافقات (١/٥٨-٥٩) مختصراً

(٢) زغل الشيء زغلا وأزغله صبه دفعاً ومجه (لسان العرب ١١/٣٠٤) وزغل العلم ما يدفع منه ويستنكر من ممارسات بعض المنتسبين إلى العلم مما لا يتفق مع هدي الإسلام القويم.



ويؤاخذ على النحويين بعدهم عن علم الكتاب والسنة وما فيهم من مظاهر الفراغ والبطالة واللعب.

ويوجه اللوم على أهل عصره من انعدام علماء في اللغة، فتجد الفقيه لا يدري لغة الفقه، والمقرئ لا يدري لغة القرآن، والمحدث لا يعتني بلغة الحديث.

ويؤاخذ على الأصوليين كون المقلدين يشتغلون به إذ لا حاجة لمقلد إليه، ولا فائدة تعود عليهم في تقليدهم. كما انتقد أيضا على من قال بغلق باب الاجتهاد.

ويؤاخذ على علم أصول الدين إطلاقه على غير الكتاب والسنة إذا هما أصول دين الإسلام، بل يطلق على العقل والمنطق.

ويؤاخذ على علم المنطق كون ضرره لا يكافئ نفعه، وأن النافع منه مركز في الفطرة الذكية والنفس الزكية. وكما قال ابن تيمية إن المنطق: لا يحتاج إليه اللبيب ولا ينتفع منه البليد.

ويؤاخذ على علم الحكمة والفلسفة كونه مبينا لما جاءت به الرسل وما أدخل على علم الإسلام من شبهات.

ويؤاخذ على علم الفرائض كون بعض مسائله غير واقعية.

ويؤاخذ على علم الشعر كثرة الكذب فيه والإسراف في المدح والهجو.

ويؤاخذ على علم الوعظ كون بعض الوعاظ راغبا في الدنيا مع قلة في الدين.

والله الموفق إلى سواء السبيل.



### المبحث الثاني: قضايا في تكوين المجتمع الإسلامي

إن تكوين المجتمع الذي يلتزم بشرع الله وتسود فيه تعاليم الإسلام وقيمه ومثله العليا واجب من واجبات الدين.

"والإسلام لا يتصور الإنسان وحده، ولهذا توجهت التكاليف إليه بصيغة الجماعة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٠٤] ولم يجئ في القرآن "يا أيها المؤمن". وذلك أن تكاليف الإسلام تحتاج إلى التكاتف والتضامن في حملها والقيام بأعبائها، يستوي في ذلك العبادات والمعاملات.

فإذا نظرنا إلى فريضة كالصلاة وجدنا أنها لا يمكن أن تقام كما يريد الإسلام إلا بمسجد يتعاون المجتمع على بنائه، ومؤذن يعلن للناس بمواقيت الصلاة، وإمام يؤمهم، وخطيب يخطبهم، ومعلم يعلمهم، وهذا كله لا يقوم به الفرد، وإنما ينظمه المجتمع.

وقد جعل الله أول أعمال الدولة المسلمة إذا مكن لها في الأرض: أن تقيم الصلاة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ﴾ [الحج: ٤١] الآية.

ومثل ذلك يقال في فريضة الصوم، وضرورة ترتيب أمور الحياة في رمضان ترتيباً يعين على الصيام والقيام والسحور وغيرها.

ومن باب أولى الزكاة، فالأصل فيها أنها تنظيم اجتماعي تشرف عليه الدولة، بواسطة "العاملين عليها" الذين نص عليهم القرآن. وكذلك كل شعائر الإسلام وأركانه.



أما الأخلاق والمعاملات فلا يتصور أن تقوم -كما ينشدها الإسلام- إلا في ظلال مجتمع ملتزم بالإسلام، يتعبد لله بإقامة حياته على أساس الإسلام.

وقد علم الإسلام المسلم أن يقول إذا ناجى ربه في صلاته ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فهو يتكلم بلسان الجماعة، وإن كان وحده. وكذلك إذا دعا دعاه بصيغة الجمع: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] فالجماعة حية في وجدانه، حاضرة على لسانه.<sup>(١)</sup>

#### في رسم الأهداف

والحقيقة تقال إن وعي المسلمين وتصورهم لمواصفات المجتمع المسلم الذي يمثل تلك المثاليات التي نشدها القرآن وتحققت في القرون المفضلة من الغموض بمكان مما يترك مساحة كبيرة للتناقضات في الآراء والمواقف. وينتج عن ذلك ثلاثة أمور خطيرة.

الأول عدم وضوح الأهداف والمعايير في تحقيق هذا الواجب. وهذا بدوره يؤدي إلى التحرك العائم الذي لا يدري صاحبه كم المسافة بينه وبين المثاليات التي يسعى لتحقيقها. وتلك الجهود التي بذلت والأوقات التي استغرقت كم قربت أو بعدت عن الأهداف. قد يبرح هذا العامل مكانه مع بذل الجهود وهو لا يشعر أن ذلك مشكلة. أو أنه قد قدمت من الخطوات الشيء الكثير وهو لا يشعر بأي إنجاز إذ مثالياته لم تتحقق مائة بالمائة. فهو لم ير إلا الجزء الذي لم يتحقق ولم يحسب القدر الذي تحقق. إنه لا يكفي أن نمضي بدافع فقط أننا يجب أن نمضي. لا بد أن نعرف هدف المضي والمعايير التي يقاس بها مدى نجاح أو فشل هذا المضي.

(١) ملامح المجتمع المسلم الذي نشده ص ٦-٧، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة،



والخطر الثاني أنكى من الأول وهو تضارب الآراء والمواقف والتناحر بين أصحاب المشروع الإسلامي أنفسهم. من المؤسف جدا أن اتفاق العاملين للإسلام لا يكفي لألفتهم وشد بعضهم بعضا كالبنیان. إذ اختلاف التصور في توصيف المجتمع المسلم الذي يريده الله من المسلمين يؤدي إلى عدم اتفاقهم في المساحة المشتركة التي تجمعهم. ولا أعتقد أن الحل هو حمل الكل على تصور واحد لا يسع فيه خلاف. بل يكفي أن يتفق الجميع على القواسم المشتركة وأن يعترف الكل أن ليس بين أصحاب المشروع الإسلامي ما يستوجب الفرقة إن كانوا فعلا يريدون الإسلام ويعملون من أجله. وأي خلاف في إطار ثوابت القرآن والسنة يمكن احتماله. يحقق هذا أن يجتمع العلماء والدعاة وأصحاب الرأي في مباحثة هذه القضية بهذه الروح.

والخطر الثالث الناجم عن هذا الغموض هو تشوّه صورة الإسلام واستغلال أعداء الإسلام من بعض التصورات التي لا تتفق مع الذوق العام لينفروا الناس من الإسلام والمشروع الإسلامي وأصحاب المشروع الإسلامي. ليس المخرج أن نصور الإسلام كما يريده أعداؤه، فإن النفور من الخير كثيرا ما يحدث من أصحاب الطباع المنكوسة والفطرة الممسوخة. بل مكن الخطر الحقيقي في هذا هو أن هذا الغموض يفتح ثغرات كثيرة في خط الدفاع عن الإسلام من خلال بعض التصورات والممارسات الخارجة عن إطار الفهم السليم والتطبيق السليم للإسلام. فيجب وضع تصور مؤصل عن ملامح المجتمع المسلم كما يريده الله وكما يسعى إليه أصحاب المشروع الإسلامي.

وقد سبق الأستاذ القرضاوي حفظه الله أن طرق هذا الموضوع بكتابه "ملامح المجتمع الإسلامي الذي ننشده." وقد وفق إلى حد كبير في خدمة الموضوع.





ولكنني أعتقد أننا بحاجة إلى التعدد في هذا التصور على روح التفاهم والتكامل والتعاون على البر والتقوى لأننا أمام واقع الاختلاف في جهتين. جهة فهم الناس لهذا الموضوع، وجهة احتمال النصوص أيضا لذلك التعدد. وأنا أتصور أن إيجاد التعدد بهذه الروح الأخوية التعاونية يقرب كثيرا إلى المثاليات التي نشدها الدين الإسلامي. والله أعلم.

### • التجديد الشامل

إن تبشير الرسول ﷺ يبعث من يجدد الدين على رأس كل مائة سنة يفهم منه أن هذا الدين يحتاج إلى تذكير ما نسيه الناس والإتيان بما تركه الناس والتقوية فيما ضعف فيه الناس وتفقيه ما غلط فيه الناس. وهكذا فإن مرور الزمن يقتضي التآكل في كل شيء فيحتاج إلى الترميم والتصليح. وهذا أمر تقتضيه الطبيعة في كل شيء.

وهناك فرق بين لفظ التجديد الذي بشر بظهوره في الأمة وبين لفظ الإحداث الذي حذر من الوقوع فيه. أما الأمور المحدثات التي أنكرها النبي ﷺ فهي ما لم يكن معروفا في كتاب ولا سنة ولا إجماع<sup>(١)</sup> وتضاهي الشرعية كما قاله الشاطبي.<sup>(٢)</sup> وأما التجديد فهو إحياء ما اندرس وبناء ما انهدم وتقويم ما انحرف كما دل عليه لفظ التجديد الذي يعني جعل الشيء جديدا، ولم يكن معناه إيجاد شيء لم يكن موجودا.

وكما قال المناوي: أنه يجدد ما اندرس من أحكام الشريعة وما ذهب من معالم السنن وما خفي من العلوم الظاهرة والباطنة.<sup>(٣)</sup>

(١) النهاية (٣٤٤/١)

(٢) الاعتصام (٤٢/١)

(٣) فيض القدير (١٠/١)



"والتجديد لشيء ما هو إلا محاولة العودة إلى ما كان عليه يوم نشأ وظهر، بحيث يبدو مع قدمه كأنه جديد، وذلك بتقوية ما وهى منه وترميم ما بلي ورتق ما انتفق، حتى يعود أقرب ما يكون إلى صورته الأولى." (١)

وبناء على ذلك فالمجدد هو الذي يعرف الدين ويفقهه على نصاعته الأولى وكماله الأوفى ويميز الأصيل منه والدخيل.

والحقيقة فإن قدر حاجة الأمة إلى التجديد يقاس بقدر التخلف الموجود لدى المسلمين على مستوى الفهم والتطبيق. ودور المجدد يشمل كل تلك المساحة التي تخلف عنها المسلمون. فدور المجدد دور علمي وعملي في نفس الوقت.

#### في آلية التغيير والبناء

إن المشكلة إذا كانت متجذرة في الأصول لا بد من تغييرها من نقطة بدايتها وقلعها من جذورها. وإن من أوائل ما يلزم خطة التغيير الاجتماعي هو تصور مكونات المجتمع ومعرفة آلية تكوّنه حتى يعرف كيف تتفاعل العوامل الموجودة على تشكيل الأوضاع. ومن ثم تكون عملية التغيير مستفيدة من التحركات الإيجابية الموجودة وتعديل أو تحييد التحركات السلبية.

#### • هيلكة بناء المجتمع

إن كل نظام من النظم ما هو إلا ترجمة عملية وانعكاس طبيعي للمبادئ والقيم. فترسيخ المبادئ وتثبيت القيم يجب أن يكتمل قبل تقنين القوانين وإنشاء النظم. إن مقارنة النظم رأساً والمطالبة بتغيير النظام قبل تغيير قناعة الناس وإقناعهم بمبادئ وقيم مطلوبة تعتبر عملية معكوسة منكوسة.

(١) من أجل صحوة راشدة ص ٣٤، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى،



وفي تاريخ الدعوة الإسلامية أقوى دليل وأوضح سبيل لاكتشاف هذه الحقيقة حيث بدأت الدعوة بترسيخ العقيدة والإيمان بالله واليوم الآخر. وما أقيم نظام الحكم الجديد في المدينة إلا بعد رسوخ تلك العقيدة وتمكن تلك الأفكار في ضمائر أنصار الإسلام.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "إنما نزل أول ما نزل منه -أي من القرآن- سورة من المفصل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام. ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر لقالوا: لا ندع الخمر أبداً. ولو نزل لا تزنوا لقالوا: لا ندع الزنا أبداً. لقد نزل بمكة على محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإني لجارية ألعب بَلِ السَّاعَةِ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذْهَى وَأَمَرٌ [القمر: ٤٦] وما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عنده -أي في المدينة." (١)

فهذه الشهادة من فقيهة هذه الأمة التي تربت في حضن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لها دلالة ناصعة على هذا المبدأ المهم. إن التشريعات لا تفيد ولا تعمل إلا في القلوب التي تؤمن بالمبادئ التي تكون أساساً لها.

ولا يقاس رسوخ المبادئ وانتشار المبادئ بكثرة المؤلفات وتكرر الخطب والمواعظ لدى السنة الناس. بل لا بد من ظهور ذلك في سلوكيات الناس وأخلاقياتهم.

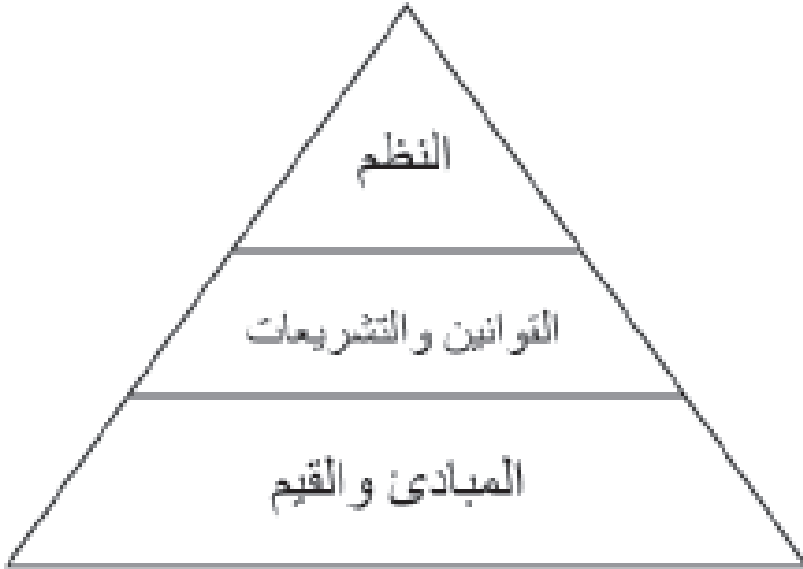
ولا أقصد بالمبادئ والقيم التي تؤسس الأنظمة الإسلامية هي فلسفة النظم ومبادئها الفكرية فقط، على شاكلة النظم الوضعية الأخرى. فإن إقناع الناس بذلك وقناعتهم به لا يكفي أن يكون ضمان النجاح لتطبيق الشريعة. إن المبادئ والأسس

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٩١٠ رقم ٤٧٠٧)



التي تبنى عليها الأنظمة الإسلامية هي الإيمان بكل مكوناته من الجوانب المعرفية والعاطفية والسلوكية التي سبق ذكرها في المبحث السابق. أقول إن ذلك لا يكفي لأن الشريعة الإسلامية تحتاج إلى أناس مؤمنين إيماناً صحيحاً حتى تطبق تطبيقاً صحيحاً ملتزماً. إذ إن التطبيق الصحيح المنضبط للشريعة يعتمد على الأمانة. والولاية أمانة وابتلاء ولا يؤديها حق أدائها إلا من خاف الله والتزم بأحكامه.

فبدء نزول القرآن بالآيات عن الإيمان بالله واليوم الآخر والحث على التحلي بالأخلاق السليمة إنما يأتي ممهداً لإنزال الأوامر التشريعية. كما يتضح ذلك من كلام أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.



الشكل رقم ٣



### • النمو الطبيعي كشجرة طيبة

ولكن لا يفهم من ذلك أن بناء المجتمع يكون على نحو بناء البيوت والعمائر بمعنى أن مرحلة بناء الأساس مثلا ليس فيها جدار، والسقف لا يكون إلا بعد قيام الجدران. فيكون كما فهمه بعض الجاهل أن الدعوة في المرحلة المكية لا تشريع فيها، فلا يصلون ولا يزكون، ولا يهتمون بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية وهكذا. وهذا الفهم خطأ من وجهين: الأول أن مراحل التشريع قد اكتملت في عهد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وليست مهمة المسلم أو الحركة الإصلاحية في هذا العصر أن تعيد تلك المراحل من جديد ويبدأ العمل من الصفر، وأن يرفع بعض الوحي وينزل مرة أخرى، فهذه ليست مهمة أي واحد من البشر. قد ثبتت الأحكام وأحكمت الآيات. وإنما مهمة المصلحين أن يجددوا هذا الدين الموجود لا أن ينسفه ثم يأتي بشيء جديد.

والوجه الثاني أن النفس الإنسانية والحياة البشرية لا تشبه البناء المادي من كل وجه. فلا يتصور في مرحلة تأسيس المبادئ والقيم أن يعيش الإنسان بدون علاقة اجتماعية ولا يتعامل مع بعض النظم الاقتصادية والسياسية. إن التصور الصحيح لعملية التدرج هو مثل نمو الشجرة، فبعد زرع البذرة تنبت البذرة ورقا صغيرا مع ساق يناسب حجمه ثم تكبر كل الأجزاء معتدلة ومتناسبة هكذا حتى يشتد ويثمر. فعملية التغير لا بد أن تكون على هذه الشاكلة. فتكون لعملية البناء خطوط متفرعة متوازنة ﴿كَزَّرَ أَخْرَجَ شَطْرَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].



## • العوامل التي تشكل أوضاع المجتمع

العوامل التي تشكل أوضاع المجتمع نوعان؛ نوع منظم إرادي ونوع عشوائي غير إرادي.

فمن النوع المنظم الإرادي ثلاثة معسكرات: معسكر خير وإيمان، ومعسكر شر وكفر، والثالث معسكر متأرجح يمكن تسخيره للخير وللشر أيضا.

فمن معسكر الخير والإيمان: الحركات الإسلامية والجمعيات الخيرية والعلماء والدعاة ومعهم الملائكة الحفظة الكرام البررة. وأول سمات هذا المعسكر أنه بني على أساس الإسلام ويكون الإسلام هو هدفه.

ومن معسكر الشر والكفر: الحركة الصهيونية والماسونية وشركات المخدرات والفساد والجماعات الدينية المنحرفة ووراءهم إبليس وجنوده. وهذا المعسكر تكوّن أساسا لمحاربة الخير أو محاربة الإسلام على وجه التحديد.

والمعسكر الثالث قابل لأن يكون مع أي واحد من المعسكرين، والغالب يكون اتجاهه تبعا لاتجاه قيادته وإن كانت قاعدته قد لا تميل إلى الاتجاه نفسه. ومن هذا المعسكر وفي مقدمته هو الحكومات ثم المؤسسات الشعبية الأهلية التي تقوم على جهود أفراد المجتمع. فالحكومة في الحقيقة في وضع متأرجح، وليس بصحيح أن نصنفها دائما في مواجهة المشروع الإسلامي (ولا العكس أيضا حيث تعتبر الحكومة مع الحق دائما، ومخالفتهم تعتبر معصية منكرة في كل الأحوال). فمكونات الحكومات أفراد مسلمون، إلا أن الوضع العام للمسلمين البعيد عن الإسلام هو الذي يحدد اتجاه الحكومات. والملاحظ أن وضع حكومة ما في دولة ما يعكس دائما تركيبة الشعب نفسه (إلا إذا كانت تلك الحكومات



خضعت وأديرت بالكامل من جهة خارجية لا علاقة لها بالشعوب). فالشعب الذي يغلب عليه التدين وحب الدين وإن كان مع الجهل والبعد عن كثير من تعاليمه يكون أفراد الحكومات على هذه الشاكلة. وإذا كان الشعب يغلب عليه الانحلال وكراهية التدين يكون أفراد الحكومة على الاتجاه نفسه. لا ننفي وجود حكومة عميلة تكون ضد الشعب لحساب الأعداء، ولكن التعميم والإطلاق في هذا جناية على الحقيقة الموضوعية.

وحتى دولة مثل الولايات المتحدة الأمريكية لا يصح أن نتصور أنها كتلة واحدة ولها اتجاه واحد. بل يختلف الشعوب عن الحكام. والجهات الموجهة لها متنوعة من الشركات المتعددة الجنسية وشركات الأسلحة واللوبي اليهودي والجماعات الدينية وضغط الشعب إلى آخره، وهذه كلها ألوان وأشكال قد تتفق وقد تختلف.

ثم النوع الثاني من العوامل نوع عشوائي<sup>(١)</sup> لا إرادي. وهذا قسمان؛ قسم يدفع إلى الخير والصلاح وقسم يوقع في الشر والفساد. فمن القسم الأول فطرة الإنسان وقيم الخير والمثل العليا الموجودة في المجتمع مما يتفق مع الإسلام الحنيف وكل الكون في الأصل ما وضع إلا للخير إلا ما جعله الله فتنة للناس وابتلاء. ومن القسم الثاني شهوات الناس والاعتقادات الخاطئة والأفكار المنحرفة.

إن النظرة العشوائية كثيرا ما تجعلنا نقع في معركة لا داعي لها وتفتت علينا إمكانية الاستفادة من الأشياء التي من المفروض أن نستفيد منها. وعلينا أن نضيق دائرة المعركة مهما أمكن ولا نصور المشاكل أكبر من حجمها. وبعض العوامل المعادية يمكن تحييدها أو صرفها عن الوجهة المعاكسة لنا. فالعدو الذي لا يتحول ولا يتبدل أبدا هو الشيطان وحده. أما الإنسان فقلبه بيد الله يقلبه كيف يشاء.

---

(١) لا أقصد بالعشوائية هنا أنها لا تخضع لأي نظام بل هذه العوامل تعمل وفق سنة الله، لكن كونها عشوائية من قبيل أنه لا يحركها إرادة بشرية أو وفق خطة معينة.



إننا بحاجة إلى أن نعرف أن ما من الله علينا من الإمكانيات والأعوان وكل العوامل المساعدة ما يكفي لمواجهة التحديات. وكيف لا يكون كذلك فالمصلحون معهم الله الذي بيده الخير كله؟ إلا أن الله سبحانه تعالى يريد من عباده شيئا من الصدق والجد ما يميز به الخبيث الطيب، ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ﴾ [محمد: ٤]. وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. ولا يجوز التهوين أيضا من حجم التحديات ولا التهويل في قدر الإمكانيات، فالواقعية والدقة والموضوعية كلها ضروري. ولكن النفسية المنهزمة كثيرا ما تجني على صاحبها قبل وأكثر مما جنى عليه أعداؤها.

### التعامل مع نسيبات المجتمع

ولا تكون الخلافات الموجودة دائما داخل جسم الأمة تقف عائقة أمام خطوات التقدم. بل العمل على التقدم إلى الأمام مع وجود هذه الخلافات شيء ممكن. وذلك بالآتي:

١- استغلال القواسم المشتركة للتعاون في العمل المشترك وتحقيق مصالح مشتركة.

٢- دفع كل اتجاه في خندقه الخاص مع التأييد المعنوي في حالة تعذر التعاون العملي في العمل المشترك.

٣- العمل على إذابة الحواجز النفسية والحزاة القلبية بالزيارات وتبادل التهاني وإيجاد علاقة طيبة مع كل الأطراف.

وعلى التيار الوسطي أن يكون أوسع فهما وأرحب صدرا لهذه الخلافات، ولا يبقى في موقف المطالب بفهم الآخرين له أو طلب الاعتذار له، بل يسبق ويبادر





بتفهم المخالفين وعدم التضايق من خلافهم والاستعداد للتنازل في الأمور الثانوية النسبية القابلة للنقاش والأخذ والرد.

وفي التعامل مع كل القضايا الخلافية لا بد من التذكير والتأكيد على النقاط المتفق عليها، من أجل الحفاظ على القضايا المتفق عليها التي تكون في الغالب -إن لم تكن دائماً- أهم من الخلافات، حتى يكون محور العلاقة هي تلك الأمور المتفق عليها.

#### • الحقائق بين نسبيات وثوابت

إن فهم الواقع وإدراك الحقائق لا يتم إلا بالتمييز بين ما هو نسبي متغير وما هو مطلق ثابت. فمن الأمور النسبية:

- نسبية صفات الأشخاص ومواقفهم أي أن صفات الناس قد تتغير وكذلك مواقفهم، وإن كان تغيير الصفات أصعب وحصوله في الناس قليل لكنه ممكن ووارد.

- نسبية المصالح والأغراض، أي أن المصالح قد تتغير إذا تغيرت الأوضاع فتتغير أغراض الناس تبعاً لذلك.

- نسبية الشعوب والمجتمعات أي أنه لا يصح أن يتصور أن شعباً أو مجتمعاً ما كأنه كتلة واحدة لا تتجزأ ولا تتنوع، بل هناك مواقف متباينة في شعب واحد ومصالح قد تكون متعارضة ورؤى قد تكون متعاكسة وهكذا. لنسمع -على سبيل المثال- حكم الله في أهل الكتاب ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].



- نسبية الأحكام المنوطة بالظنيات أو المستندة إليها، أي أن الأحكام قد تختلف باختلاف مناطقها وتعلقاتها أو بظنية أدلتها.

- نسبية الخطط المرحلية، أي أن الأهداف المرحلية ومعاييرها يجب أن تتغير بتغير الظروف والملابسة لها.

- نسبية الآراء، أي أن رأي الإنسان - مهما كان - يحتمل الخطأ والقصور.

وهناك أمور ثوابت لا يجوز الخلاف فيها ولا التنازل عنها، منها:

- أن الله الخالق هو المستحق للعبادة لا شريك له وأن ما أنزله الله من الوحي يجب الإيمان به والعمل به والذود عنه.

- أن القرآن حق ومحمد رسول من الله حقا ويجب الإيمان به اعتقادا وقولا وفعلا.

- أن الخير مع الإيمان وأهله، والشر مع الكفر وأهله.

- أن الصراع بين الإيمان والكفر سنة الحياة بغض النظر عما يكون ممثلا لكل واحد منهما.

- أن النجاة في الوقوف مع معسكر الإيمان مهما أصيب من أذى ونكبة في جولة من جولات الصراع.

#### • تعميم فقه الاختلاف وآدابه

إن ظاهرة اختلاف الأمة وخاصة بين العاملين للإسلام تأكل وتهدر من الطاقات وتضيع من الفرص والأوقات ما يندى له الجبين. وقد سعى العلماء والدعاة لتفادي هذا الداء العضال وبذلوا جهدا مشكورا. إلا أن الملاحظ دائما أن هذا الأمر يكون



أكثر وأشد في الأتباع وعوام الناس. لا نزهد في طرح ومعالجة هذا الأمر في وسط العلماء والدعاة والمفكرين إلا أن ذلك لا يتم إلا إذا نزل هذا الوعي إلى مستوى عوام الناس.

وأخص بالذكر المنتسبين إلى الحركات الإسلامية لأنهم أكثر الناس فاعلية وتأثيراً من واقع العمل الإسلامي. والتناحر فيما بينهم أشد خطراً وأقوى ضراوة. فإن لم يرب المصلحون أتباعهم على الفقه المتزن للخلاف وآداب الخلاف ستشهد الساحة واقعا مؤلماً ومصيراً مؤسفاً. والتعويل الأكثر على التيار الوسطي إذ هم أكثر الناس تفهماً للقضية وأقرب الأطراف إلى التعامل مع المخالفين.

### • التدرج مع الإصرار

إن نصح العقلاء والحكماء بأن يتدرج المرء في تحقيق أهدافه وبلوغ مراده وألا يهجم على القضية هجمة واحدة لا بد أن يصحبه الإصرار والثبات على المبدأ. فإن أسهل ما يفقده المكافح هو إصراره وثباته على الهدف المرسوم. فكثر العوائق قد تصرفه عن وجهته الأولى، والاحتجاج بالتدرج قد يضعف عزمته على المضي في الطريق، وتشعب القضية قد يضلّه عن الوجهة الأصلية.

ومن هذا الباب كان التكرار بطلب الهداية مهما إذ يقول المؤمن دائماً في صلاته وغيرها ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]. ومن هنا أيضاً يعرف قدر أمر الله نبيه ﷺ بالاستقامة، قال تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود: ١١٢]، قال أيضاً: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمَّ كَمَا أَمَرْتُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا



وَأَيُّهُ الْمَصِيرُ ﴿[الشورى: ١٥]، وقد كان أمر الله بالاستقامة هو الذي شيب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ<sup>(١)</sup>، وهو من هو في القوة النفسية.

والأهداف المرحلية نوعان: نوع يجوز تجاوزه أو الإتيان بغيره بدلا عنه، ونوع لا يجوز تجاوزه ولا يمكن الإتيان بغيره بدلا عنه.

فالنوع الأول هو ما كان مجرد وسيلة إلى الهدف النهائي. فما دام أنه مجرد وسيلة فيمكن استبداله إذا تحقق الهدف بدونه أو هناك وسيلة أخرى أنفع وأحسن. والنوع الثاني هو ما كان هدفا ووسيلة في نفس الوقت، مثل الصلاة شرعت للذكر، ولكنها غاية بذاتها لا يجوز التخلي عنها.

### • الإحصاء وليس الانطباع

لا شيء أدق لقياس نجاح العمل أو فشله من استعمال لغة الأرقام. وقد سبق أن ذكرت أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يجري إحصائية لمعرفة عدد المسلمين الموجودين آنذاك. فمن الخطأ أن نعتد في محاسبة الأعمال وتقويمها على مجرد الانطباع العام من المسؤول تجاه الإنجاز. بل لا بد من عملية القياس المنضبط حتى يعرف مدى تحقق الأهداف.

### • الأرقام ودلالاتها

إن الأرقام تصور الحقيقة أكثر وأدق من الكلام المجرد لأنها لا تترك مساحة لاختلاف التفسيرات ولا تسمح مجالا للمبالغة. إننا لن ندرك الحقيقة لو قلنا مثلا: أننا قد أنجزنا أعمالا كثيرة أو نقول: "أن الوضع بخير والكل على ما يرام." إذا أردنا

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن (٢/٩)



أن نعرف الحقيقة لا بد نأتي بكلام محدد مقيس. نقول مثلا: لقد أسلم على أيدي دعائنا في هذا الشهر عشرة أشخاص. أو إذا أردنا أن نصور الوضع نقول: إن عدد المصلين في مساجد منطقة كذا عشرة آلاف مثلا. وهكذا.

ولكن هناك مسافة يجب أن نعرفها بين ما تدل عليه الأرقام وبين ما نفهمه ونستنتج من تلك الأرقام. إن الأرقام لا تدل إلا على جزئية محددة، والذي نريد أن نتعرف عليه دائما أكبر وأوسع من دائرة تلك الجزئية. فمثلا إذا أردنا أن نعرف نسبة التدين لدى أفراد مجموعة ما، لا يمكن إلا أن نجري إحصائية على بعض الجزئيات مثلا على نسبة صلاة الجماعة في الشهر أو كم يختم القرآن أو كم ساعة يقضيها الشخص للعمل الإسلامي خلال الأسبوع وهكذا. فإن هذه الجزئيات التي نريد أن نقيسها بعض الأجزاء فقط من التدين. فيجب في التعامل مع الأرقام أن نعرف نسبية دلالتها ولا نستطيع إلا أن نقرب إلى الحقيقة لا أن نصل إليها حقيقة. وللتقريب من التصور الدقيق لا بد أن نعدّد المعايير مهما أمكن. ولا نجمد على معيار واحد. بل كما يجب أن يدرس الوضع يجب أيضا أن يدرس المعيار لقياس الوضع.

### • قسم البحث والتطوير

ولا بد أن يكون في كل مؤسسة قسم خاص للبحث والتطوير لدراسة أهدافها وجودة أدائها وكفاءة أفرادها وتنمية إمكانياتها وطرح طرق تطويرها. ولا يجوز اعتبار هذا القسم نافلة من نوافل العمل، بل هو من ضرورياته، لأن أهمية هذا الجهاز تصب في مبرر وجود المؤسسة نفسها. إذ ليس للمؤسسة معنى إذا لم تعرف ما إذا حققت أهدافها أم لا؟ أجادت عملها أم أساءت؟ سلكت طريقا جيدا لوصول



الهدف أم طريقاً سيئاً؟ استخدمت أفضل وسيلة أم لا؟ وُضع هيكل تنظيم مناسب أم فيه قصور؟ العلاقة بين الأفراد مؤدية إلى إلى إنجاز جيد أم فيها مشاكل؟ إلى عشرات من الأسئلة لا يمكن معرفتها على وجه الدقة إلا بقيام جهاز متخصص لدراسة كل ذلك.

### أهلية التغيير والتمكين

إن لأهل التغيير مواصفات وللمتمكين مؤهلات وللنصر موجبات. قال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُٓ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝ الَّذِينَ إِن مَكَّيْنَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْأُمُورِ ۝﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

فالذين يستحقون التمكين هم المؤمنون على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وقيام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. هم الذين يؤدي تمكينهم إلى قيام الشعائر وأداء الحقوق وظهور الفضائل واندحار الرذائل.

وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝﴾ [النور: ٥٥].

وهنا وعد للمؤمنين العاملين للصلاحات بالاستخلاف وتمكين الدين والأمن. ووصفهم بالعبادة وعدم الشرك مع أنهما داخلان في الإيمان والعمل الصالح له دلالة مهمة، كأنهما سبب ومبرر لهذا الوعد الكريم. وإرداف عدم الشرك بالله على عبادة الله يؤكد معنى الإخلاص في العبادة والسلامة من كل أنواع الشرك.



ثم لما نسمع قول الله عز وجل: ﴿هَآئِنْتُمْ هَآئِلًا تُدْعَوْنَ لِتُفْقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨] تبين بعد آخر للاستحقاق.

قال الطبري رحمه الله في تفسير هذه الآية: وإن تتولوا أيها الناس عن هذا الدين الذي جاءكم به محمد صلى الله عليه وسلم فترتدوا راجعين عنه، ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يهلككم ثم يجيء بقوم آخرين غيركم بدلا منكم، يصدقون به ويعملون بشرائعه. ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ﴾ أي ثم لا ييخلوا بما أمروا به من النفقة في سبيل الله ولا يضيعون شيئا من حدود دينهم ولكنهم يقومون بذلك كله على ما يؤمرون به.<sup>(١)</sup>

فإن الله ربط استبدال قوم بقضية البخل عن الإنفاق في سبيل الله، لأن الإنفاق برهان الإيمان ودليل صدق العبادة وأمانة على التجرد عن الدنيا وعدم حبه. كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: "والصدقة برهان."<sup>(٢)</sup> وهذه الحقيقة تسلمنا إلى نقطة أخرى مهمة، وهي:

### • الحاجة إلى الزهد الجماعي

كأن الآية السابقة تقول أن من يبخل ولا ينفق في سبيل الله لا يستحق ذلك التشريف. وهذا يذكرنا بأمر آخر سبق ذكره في الباب الثالث وهو أن من موانع النصر: حب الدنيا. قال تعالى مبينا سبب هزيمة المسلمين في أحد: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

ويؤكد ذلك الحديث الذي رواه أبو داود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها. فقال قائل: ومن قلة نحن

(١) جامع البيان (٦٥/٢٦)

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم (١/٢٠٣ رقم ٢٢٣)



يومئذ؟ قال: بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. فقال قائل: يا رسول الله، وما الوهن؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت<sup>(١)</sup>.

فحب الدنيا - ويدخل فيه كراهية الموت لأنها نتيجةه - وهن وضعف وسبب خذلان الله للمسلمين. ومن هنا نعرف أن المسلمين لا يستحقون النصر ما داموا يحبون الدنيا حبا يمنعهم من التضحية في سبيل الله.

ويجب أن نتنبه أن هذا الداء يكفي لحرمان المسلمين كلهم من النصر إذا أصيب البعض بهذا الداء، فإن الله قال: ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٥٢] وليس الكل. بل أثبت أن هناك من يريد الآخرة لكنه لا يعفيهم عن الحرمان.

ومن هنا تبين أننا نحتاج ليس فقط إلى زاهد أو زاهدين في جملة المسلمين، بل لا بد أن يكون المسلمون زهادا في الدنيا - وخاصة رواد الأمة. أن تفرغ قلوبهم عن التعلق بالدنيا وإن كانت حاضية بها واصمة أيديهم عليها.

ومن أهم صور الزهد في هذا المجال الزهد في السلطة والجاه فإنه مزلق خطير. لأن المطالبين بالحكم إذا لم تصف نفوسهم من حب الظهور وطلب السلطة كان عملهم مشوبا بحفظ النفس والشهوة الخفية المكسوة بطلب الحق والدفاع عنه. والله يقول في الحديث القدسي: "من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه."<sup>(٢)</sup>

لنتصور حال من تركه الله. هل سينصره؟ هل سيوفق عمله؟ هل سيبارك عمله؟  
فأني له ذلك؟!

(١) أخرجه أبو داود (٤/١١١ رقم ٤٢٩٧)

(٢) أخرجه مسلم (٤/٢٢٨٩ رقم ٢٩٨٥)





وقد نبه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ هذه الآفة الخفية في تفصيله الرباعي بناء على قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أَلْدَارُ الْأُخْرَىٰ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]

فقسم الناس على أربعة أقسام: (١) من يريد العلو والفساد (٢) ومن يريد فسادا بلا علو (٣) ومن يريد العلو بلا فساد (٤) ومن لا يريد علوا ولا فسادا.

والمنطقة الرمادية التي قد يحسب الناس أنها ليست بخطيرة هي القسم الثالث. قال ابن تيمية: يريدون علوًّا بلا فساد، كالذين عندهم دين يريدون أن يعلوا به على غيرهم من الناس، وهو أكثر في المتعلقة بنوع من العلم أو نوع من الورع.<sup>(١)</sup>

والزهد الذي نحتاجه كما سبق ليس وصف فرد أو اثنين، بل يجب أن تكون الجماعة العاملة لنصرة الإسلام زاهدين في الدنيا، وإلا لن يؤهلوا لأن يعطيهم الله حكم الدنيا تكريما.

وإذا تصورنا أن يؤتى قوم الدنيا مع حبهم لها وتكالبهم عليها، فلن يكون ذلك تكريما لهم بل سيكون بلا ريب فتنة وبلاء لهم.

• الحاجة إلى إحساس وشفافية شديدة في النية والدوافع، والانتباه إلى الشهوة الخفية

وبناء على ذلك يجب أن يكون لدى رواد النهضة حساسية شديدة من الميل إلى الدنيا والتطلع لها. وتكون لهم شفافية مع ضمائرهم ومراقبة شديدة لقلوبهم. فإن المحك هنا ليس في الأمور الظاهرة التي يسهل تصنيفها ضمن الآثام. فالخطر يأتي من الطاعات التي أريد بها غير الله.



إن بعض الأعمال تشترك فيها مقاصد شرعية ومصالح دينية مع مطامع شخصية ودوافع شهوات خفية. فهذا هو مكنم الخطر. فإن العمل الإسلامي إذا لم تصفُ فيها النية فإن الله لا يقبل، والعمل لا يبارك الله فيه.

وخاصة على أصحاب القرارات، فإنه من السهل تبرير عمل ما أو اتخاذ موقف معين أنه إن إريد به إلا الإصلاح، ولكن هل فعلاً أنه صادق فيه؟ وقد كان الإنسان أكثر شيء جدلاً.

وليس هذا الكلام كله في التزهيد في العمل الإسلامي ولا التشكيك في نوايا الناس. إن هذا إلا تذكير وتحذير من الأمور التي قد تقع بسبب التقصير في مراقبة القلب وإنكار الذات ولوم النفس. فإن الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. وما أكثر ما يزل الناس في شعارات الحق التي أريد بها مصالح خاصة ومطامع خفية.

ونسأل الله التوفيق والسداد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

#### المبحث الثالث: في الكيان الحضاري



يجب على المسلمين أن يكون لهم "مذهبهم" الخاص في بناء حضارة المستقبل. نعم إنه من الواجب على هذه الأمة التي تحمل رسالة رب العالمين أن يكون لهم دور رائد في توجيه مسار البشرية لأن هذا الدين لم ينزل إلا للناس كافة وما أرسل الله محمداً ﷺ إلا رحمة للعالمين.

ليس من الصواب أن تبقى دائرة الهداية الإلهية على أوساط محدودة، بل لا بد أن نحقق عالمية هذا الدين وأن نوصل رسالته الإنسانية إلى جميع البشر.



فالإسلام لا بد أن يكون له كيانه الحضاري الذي يؤدي به دوره في إسعاد البشر وإنقاذهم من الحضارة القائمة التي تورطت بسبب انسلاخها عن فطرتها وتمرداها أو جهلها عن الهدى الإلهي.

#### صياغة رؤية حضارية أصيلة

كلما اتسعت مساحة قضية ما، ضعف وعي الناس بها. فكل إنسان يجيد النظرة إلى جزئية معينة ولكن لما اتسعت الجزئية أو تعددت، بقدر ذلك قل من يكون له وعي مناسب لأبعادها. فكذلك الإسلام، فإن أكثر المسلمين يعرفون الإسلام كجزئية أو عدة جزئيات متناثرة لا تربطها نظرة كلية أو مقاصد شاملة.

ومن جهة أخرى فإن القضية كلما دقت خفيت عن الإدراك وصعبت على الفهم، مثل ذلك أيضا فهم الناس للإسلام كثيرا ما يكتفون بالعموميات ويقفون عند السطحيات دون الغوص في دقائق الأدلة التفصيلية والتمكن في الأحكام الجزئية.

فالإسلام مظلوم من جهتين. من النظرة الجزئية التي تجهل مقاصد الشرع العامة وطبيعة الدين الكلية، ومن النظرة العامة العائمة غير المعمقة التي لا تبنى على استيعاب الجزئيات.

والكلام عن الحضارة الإسلامية يحتاج توازنا من هذا النوع. يحتاج إلى النظرة الموسعة الشاملة التي تعتمد على إدراك الجزئيات متقيدة بها، لا تلك النظرة التي تعمم القضايا وتعمّمها فتفترط عن الانضباط بالأحكام الجزئية التي أثبتتها النصوص الشرعية الثابتة ودلت عليها القواعد الفقهية الصحيحة.



### • ضمان أصالة الرؤية الحضارية

وتكوين الرؤية الحضارية لا بد أن تصدّقها قاعدتان مهمتان؛ (١) قاعدة النصوص العامة التي لا تحولها قرائن الأحوال إلى أحكام جزئية، (٢) وقاعدة استقرار أحكام الإسلام وقواعده التي تشكل الطبيعة العامة للإسلام وتدل على مقاصده الكلية. ودعوى رؤية إسلامية من غير اعتماد على هاتين القاعدتين أو إحداهما دعوى مردودة على صاحبها.

إن البعض قد يفرق بين الدين الإسلامي وبين الحضارة الإسلامية، فإن الأول وحي إلهي معصوم والثاني جهد بشري موسوم بقابلية الأخذ والرد والخطأ والصواب. وهذا التفريق صحيح لكن وصفها الإسلامي له حقه. فالمخالفات المرتكبة من قبل المسلمين لا يجوز إدراجها تحت ملفات حضارتنا الإسلامية. إذ لا يقرها الإسلام. نعم قد يصح أن نقول أنه حضارة المسلمين لأنهم هم الذين قاموا به. ولكن اسم الإسلام له قداسته وله نسبته المحترمة إلى مُنْزِلِهِ عَزَّوَجَلَّ.

وقد يستفاد بل ويجب أن يستفاد من الإنجازات التاريخية التي حققها المسلمون عبر الأجيال المتلاحقة ولكن لا نتبنى منها إلا ما وافق شريعة الله عَزَّوَجَلَّ.

ويدخل ضمن الحضارة الإسلامية ما أنجزه غير المسلمين إذا كان هذا الإنجاز تحقق في ظل الأوساط الإسلامية التي تحتضنه وتكيفه، والتي لولاها ما تحقق ذلك الإنجاز. لأن مثل هذا ثمرة من ثمار تطبيق دين الله على وجه الأرض والمستفيدون من ذلك مسلمون وغيرهم. بل هذا يعد من مفاخر الحضارة الإسلامية إذ إن هذه الحضارة لا تظلم الناس شيئاً. بل وفرت جواً ملائماً للتقدم ومساحة رحبة للعتاء والمشاركة وترحيباً مخلصاً للاستفادة والمناولة.

**عطاء الحضارة الإسلامية للإنسانية**

ما الذي تعطيه حضارتنا الإسلامية لخير البشرية جمعاء؟ هل المسألة هي رغبة مجموعة من البشر في الاستيلاء على الآخرين؟ أو هي مصلحة سكان بقاع من الأرض في السيطرة على بقية البقاع؟ أم فعلا أن الأمر ينطلق من دافع الواجب الإلهي في إيصال النور إلى كل البشر وتعميم الخير لكل الناس؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة تأتي من جهتين؛ من تحديد وتعريف بطبيعة الحضارة التي ينشدها المسلمون، ومن جهة صدق القائمين على هذا المشروع الإسلامي وإخلاصهم لأداء تلك الرسالة الربانية.

قبل أن نتكلم عن مواصفات الحضارة نأتي أولا على الشق الثاني من هذه القضية، فإن هذا الأمر مع أهميته قل من أشار إليه ونبه لذلك. إنه مراجعة لأنفسنا قبل أن يكون إعلانا للناس وترغيبا لهم في هذه الفكرة. ما الضمان أن هؤلاء الذين يصيحون في الناس يدعون إلى الانضمام والمشاركة والتأييد أنهم سيقومون بهذا الواجب إذا استلموا مقاليد الأمور؟

إن حب الإنسان للمال والجاه والشهوات طبيعة إنسانية أصيلة، لا يسلم من شرها إلا من زكى نفسه بالتربية الشديدة والتزكية الأكيدة. فمن هنا يظهر رجحان منهجية التغيير التي تعطي لتربية الأفراد وتزكية النفوس القدر الأكبر والركن الأساسي في برنامجها. ويتبين صواب من جعل إصلاح النفس أول خطوة إلى الخلافة الإسلامية. وشأنه شأن كل مشروع يتكون من مراحل، لا يمكن أن ينجح المشروع إلا إذا نجح تحقيق كل مرحلة قبل التي بعدها. فنجاح المشروع الحضاري الإسلامي مرهون بنجاح مرحلة إصلاح النفوس وصياغتها صياغة



إسلامية صحيحة، ثم توسيع دائرتها حتى يتكون المجتمع على تلك الشاكلة. قد يكون مستحيلاً أن يكون المجتمع كله على مستوى واحد من الخير، ولكن النجاح يتحقق بأن يكون ذلك الخير هو السائد والطبع المسيطر على حياة الناس عامة. والله المستعان.

وأما عن الذي قدمه الإسلام للبشرية فالكلام فيه يطول ولا يسعه هذا المطلب المحدود، لكننا سنقف وقفة قصيرة مع أجمل وأروع عبارة قيلت في العطاء الحضاري الذي جاء به هذا الدين، ألا وهو قول رباعي بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قال لرستم: "والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام."<sup>(١)</sup>

إنه مع اختصار الكلام فقد لخص رباعي بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مجامع الرسالة الإسلامية الحضارية في ثلاث كلمات من نور.

#### • الربانية بدل الشهوانية أو الشيطانية

إن أهم ما تجنيه البشرية من هذا الإسلام هو الخروج من مستنقع عبودية المخلوقات إلى رفعة وشرف عبادة الله. إن الإنسانية ما لم تتجرد لله في الطاعة المطلقة لن تتحرر من نير عبودية المخلوقات أي كانت تلك المخلوقات.

وحقيقة العبادة هي الطاعة المطلقة كما بينها الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عدي اطرَح هذا الوثن من عنقك. فطرحت، فانتهيت إليه وهو يقرأ سورة براءة فقرأ هذه الآية

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٤٠١)، محمد بن جرير الطبري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،



﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] حتى فرغ منها، فقلت: إنا لسنا نعبدهم. فقال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتستحلونه؟ قلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم.<sup>(١)</sup>

فهذه هي حقيقة العبودية، وإن كان الناس لا يعرفون ذلك أو لا يعترفون، كما استنكر عدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أول وهلة.

فالإنسان غير المسلم لا يخلو من الخضوع والطاعة لغير الله، فهو إما في عبادة الإنسان كالملوك والكبراء والرسل والأنبياء والأحبار والرهبان،... إلخ، أو في عبادة المخلوقات غير المنظورة كالملائكة والجن والشيطان وغيرها، أو في عبادة الأشياء المحسوسة كالطبيعة والكواكب والحيوانات والأشجار والأصنام،... إلخ، أو في عبادة الذات، عبادة الهوى وهو شر إله عبد في الأرض.

فالإسلام حركة تحرير للإنسانية من ذلة وشقاء عبادة العباد بعضهم لبعض إلى رفعة وفضاء عبادة رب العباد وحده.

### • حقيقة السعادة بدل سراب الرفاهية

والإسلام يخرج الناس من حدود الدنيا الضيقة إلى آفاقها الواسعة. إنه يدل الناس على السعادة الحقيقية بدل ما يتصوره الناس من البهجة الظاهرة مع الخواء الباطن.

إنه إنقاذ البشرية من سراب مظاهر اللذة والرفاهية التي كثيرا ما تُوقِع البشر في شقاء حيث طلبوا السعادة، توقعهم في ضيق وقلق وهم يبحثون عن السعة والطمأنينة.

(١) أخرجه الترمذي (٢٧٨/٥) رقم ٣٠٩٥ والطبراني في الكبير (١٧/٩٢ رقم ٢١٨) واللفظ له.



إن وصول البشرية إلى قمة في التقدم المادي والرخاء الظاهر لم يوصلهم إلى حقيقة السعادة التي تشرح الصدر وتريح النفس. إن العالم الغربي الذي يتمتع بكل أنواع الرفاهية وغني بكل مظاهر المتعة هو أكثر العالم معاناة نفسية وأزمة روحية. فعدد الجرائم، ونسبة الانتحار خاصة في المراهقين، وانتشار الأمراض النفسية والعقلية، وتفاقم مظاهر التفكك الأسري، وارتفاع نسبة الطلاق، كل هذه الحالات البئيسة التي وصلوا إليها لم يشهد التاريخ لها مثيلاً بهذه الدرجة السحيقة المخيفة.<sup>(١)</sup>

إن الإسلام يدل ويبين طريق الوصول إلى السعادة التي لا شقاء فيها والطمأنينة التي لا قلق فيها والخير الذي لا سوء فيه.

لم يخدر الإسلام شعور البشرية ولا يमित تطلّعهم إلى الخير المادي. بل ليس هناك دين أقوى في الحث على العمل والجدية فيه من الإسلام. إن كل إنسان في مجتمع الإسلام مطالب أن يعمل، مأمور أن يمشي في مناكب الأرض ويأكل من رزق الله، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك: ١٥]، وأمر عباده عقب الصلاة أن ينتشروا في الأرض طالبين رزق الله فيها، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ١٠].

واعتبر الإسلام أن ما أكله الإنسان من كد يده وعرق جبينه هو أطيب وأحسن أرزاقه، قال رسول الله ﷺ: "ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده."<sup>(٢)</sup>

(١) انظر للتوسع كتاب الإسلام حضارة الغد في الكلام عن الآفات الآثار السيئة للحضارة الغربية، د. يوسف القرضاوي، ص ٣١-٩٠، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ-١٩٩٥م

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ٧٣٠ رقم ١٩٦٦)





ومن أعجب التوجيهات النبوية في الحث على العمل أن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر بغرس الفسيلة وإن كان في الوقت الحرج الذي لا يتبقى فيه فرصة للعيش. قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها." (١)

إلا أن الإسلام لا يعتبر متعة الدنيا واللذة الظاهرة فيها هي أقصى ما يطلب في هذه الحياة، إنها دار عمل واجتهاد لا دار راحة واعتماد. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فْجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَرْتَعَنَّ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

إن فيها عناء وابتلاء ولكن المؤمن يعيش في سعادة غامرة وطيب حقيقي، (٢) قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

صدق شيخ الإسلام ابن تيمية حين قال رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة." (٣)

إنها جنة الحياة الإيمانية ورياض المنهج الرباني ومتعة المحبة الإلهية.

### • العدالة بدل الظلم

لا يوجد نظام ينصف الناس جميعا مثل الإسلام. ففي الاقتصاد، البشرية وقعوا إما في ظلم النظام الرأسمالي الذي يبخس حقوق الضعفاء والعجزة

(١) أخرجه أحمد (١٩١/٣) رقم ١٣٠٠٤ والبخاري في الأدب المفرد (١٦٨/١) رقم ٤٧٩ عن أنس بسند صحيح.

(٢) راجع الكلام في جزاء العمل الصالح ص ١٩٥ في الباب الثالث.

(٣) ذكره عنه تلميذه في الوابل الصيب ص ٦٩، وذكره أيضا في مدارج السالكين (١/٤٥٤)



الذين لم يقدروا على العمل والمنافسة، أو في ظلم النظام الشيوعي والاشتراكي الذي لم ينصفوا الحقوق الفردية. وكلا النظامين الرأسمالي والشيوعي لم ينصفا إنسانية الإنسان حيث جعلتا الإنتاج المادي هو الهدف والمعيار الأساس للتفاضل، فوضعا الإنسان تحت درجة المواد. وفي السياسة ظلم الناس جميعا إما تحت قمع المتجبرين المستبدين أو في ظل خداع الأعياب الديمقراطية التي تنحاز دائما لأصحاب الأموال الذين يشترون أصواتهم أو لأصحاب النفوذ الذين استغلوا مناصبهم. وفي العقائد وقع الناس في ظلم الأحرار والرهبان والقسيسين الذين حرفوا الدين لجلب طاعة الناس لهم والإنفاق عليهم بدون وجه الحق. وجاء الإسلام يحارب كل هذه الألوان من الظلم وأتى بنظام عادل ورجال أمناء. نسأل الله عزَّ وجلَّ أن يبرم للبشرية أمر رشد يقام فيه العدل ويعز أنصاره ويقمع فيه الظلم ويذل أصحابه ويأمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر، فالله ولي ذلك والقادر عليه.

#### العلاقات بين الحضارات

إن الإسلام يحمل رسالة حضارية منفتحة، يرحب كل خير من أي وعاء خرج، ويحث على أخذ الحكمة من كل عين نبعت. قال النبي ﷺ: "الكلمة الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها."<sup>(١)</sup>

والإسلام دائما يتبنى الحوار الحر الذي يتوصل به إلى الحقيقة ويدعو إلى بدء الدعوة من نقطة اتفاق ليصل بذلك إلى الوفاق مهما أمكن، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِٗ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ٦٤].

(١) أخرجه الترمذي (٥١/٥ رقم ٢٦٨٧) وابن ماجه (٢/١٣٩٥ رقم ٤١٦٩)



ويحث على اتباع أحسن الطرق للحوار، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا ءَامَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَالْحُكْمُ وَالْأَهْلُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

### • سماحة الإسلام وصراع الحضارات

إن الإسلام لا يرى وهو يحرص على إبلاغ هذا الدين أن يعتنقه أحد تحت قهر الإكراه، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۚ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، إن قوة الإسلام في وضوح الحق فيه فلا يحتاج إلى قوة أخرى تجبر الناس على الاقتناع.

والسيف في الإسلام ما هو إلا ضمان لحرية الناس في الاختيار فهو ليس ضد الكفر بحد ذاته، لكن السيف موجه ضد من يمنع الناس من اعتناق الحقيقة. لذلك ظل الذميون والمستأمنون في كنف حماية المسلمين عبر تاريخه المديد. لا يرى التاريخ السماحة الدينية مثل ما شوهد في الحضارة الإسلامية.

ولكن الإسلام أرفع من أن يطمئن إلى سذاجة حسن الظن لأعداء الحرية وأبعد من الوقوع في بلاهة التصديق لكل من يدعي حب السلام ودعوى الوئام.

إن الحضارة التي تدعي حماية السلام العالمي والديانة التي تزعم نشر الرحمة لهي أكثر الناس دموية في تاريخها. فالغزو الصليبي والاستعمار الغربي والعداء الصهيوني كله واقع ماثل أمام البشرية لا يمكن تجاهله. إن الدعوة إلى السلام واجبة لحقن الدماء وإنقاذ البشرية من الشقاء. والتنادي إلى لغة الحوار وأسلوب التفاهم والتعاون بين الجهات أمر مفضل عند كل منصف ومريد الخير. إلا أن الواقع والتاريخ لم يشهدا خلو العالم من المحرضين الماكرين أصحاب الجبروت والطغيان. فلا يوقف هذا الأمر إلا قوة دافعة أو رهبة رادعة. فمن هذا الباب



أمر الله تعالى بإعداد القوة، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

والإسلام دقيق في هذا التشريع، فهو لا يوجه هذه القوة الضاربة إلا تجاه الظلمة أعداء السلام وأعداء اللئام. قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿[الممتحنة: ٨، ٩].

فهذا هو الإسلام دين الرحمة ومعها القوة، دعوة السلام ومعها التوازن، حضارة الحوار ومعها الفطنة.

### • بين المشاركة والاستقلالية

ففي ظل الحضارة الإسلامية يتسع مجال العطاء والمشاركة في البناء لكل الناس. وينفتح المجال لكل من يساهم في إيصال الخير والنور. إلا أننا نحتاج إلى حفظ أصالتنا والوقوف عند هويتنا الإسلامية. نحتاج إلى التنبه واليقظ من كل ما يمس صفاء الإسلام وأصالته والذود عن كل ما يكدر نقاء الدين ويبهت نصاعته. فالفلسفات تتلون، والعقائد والأفكار تتشابه وتتشابه.

وفي عملنا لإنصاج رؤانا الحضارية نحتاج أيضا إلى مثل هذه اليقظة. فالأمة تحتاج إلى تأمين في هويتها الفكرية وكيانها الحضاري. لذلك فقد كان الإسلام متوازنا دائما. فمن أجل هذا التأمين جاء مثل قوله تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ



وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿البقرة: ١٢٠﴾.

ولنتأمل سياق قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، بين سبحانه وتعالى مركز هذه الأمة بين الأمم ودورها الرائد وموقعها الهادي للبشرية. ثم موقف غيرهم من هذه الرسالة وما يمكن أن يلحقوه بهذه الأمة الهادية المهدية، قال تعالى:

﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًىٌ وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلَوْكُمْ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١]. إن هناك دائما من يقف موقفا معاديا لحملة هذه الرسالة. إلا أنه إذا تمسكت الأمة بحبل الله فليس باستطاعة أعداءهم إضرار المسلمين ولا إيقاف حركة دعوتهم. يستطيعون فقط إلحاق الأذى الذي لا يضر مسيرة هذه الحركة. ولا خسارة في ذلك لأن كل أذى في سبيل الله مأجور عليه ومحسوب فيه.

ثم في المقابل بين الله سبحانه حال الأعداء من المضرة والخسارة، قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

إلا أن القرآن دائما يعلمنا التوازن والإنصاف حتى مع المخالفين، قال تعالى في حال هؤلاء أهل الكتاب: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ آلِيلٍ وَهُمْ لَا يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣]. فأصحاب الخير موجودون في صفهم. فيبقى هناك هامش للتداول والدعوة بالتي هي أحسن.



## المبحث الرابع: مسيرة الأمم بين أحلامها وواقعها

إن واقع الأمم اليوم مرتبط بما كانوا يحلمون سابقا وبما وضعه علماءهم ومفكروهم وأدباؤهم من مثاليات تشجع الناس وترغبهم في التحرك نحوها. والأمة التي ليس لها أحلام ولم يضع مفكروهم تصورات مثالية عالية السقف ليس لهم حظ من الواقع المتقدم.

### أحلام فلاسفة أوروبا

إن واقع المجتمع الغربي اليوم مرتبط بأحلام سابقهم وتصورات فلاسفتهم وخيال أدبائهم. وكان أفلاطون تخیل في كتابه الشهير "الجمهورية"<sup>(١)</sup> دولة فاضلة تقوم على العدالة، يحكمها من من الحكماء الفلاسفة. وقسم المجتمع حسب طبقات أعمالهم. والدولة المثالية بناء على أفلاطون مكونة من ثلاث طبقات، طبقة اقتصادية مكونة طبقة التجار والحرفيين طبقة الحراس وطبقة الملوك الفلاسفة. يتم اختيار الأشخاص من طبقة معينة يتم إخضاعهم لعملية تربوية وتعليمية معينة. يتم اختيار الأشخاص الأفضل ليكونوا ملوك فلاسفة، حيث استوعبوا المثل الموجودة في علم المثل ليخرجوا الحكمة.

أما فلاسفة عصر النهضة الأوروبية فلهم أحلام أخرى. فقد تبنا مبدأ المساواة الإنسانية، ودعوا إلى مجتمع تتساوى فيه الحقوق وتحترم فيه الكرامة الإنسانية.

(١) الجمهورية كتاب فلسفي ألفه أفلاطون في عام ٣٦٠ قبل الميلاد، الجمهورية هي المؤلف السياسي الرئيسي لأفلاطون وسماها كاليبوس مقترنة بالعدل ماهي الدولة العادلة ومن هم الأفراد العادلون.



كرّسوا الفلسفة الإنسانية التي تنظر إلى الإنسان ككيان له حرمة المعصومة لا يجوز الاعتداء عليها. ورأوا أن العلاقة بين الحاكم والمحكوم يجب أن تكون مبنية على عقد يضمن المساواة والعدالة الاجتماعية. ودعوا إلى التحرر من سيطرة الكنيسة والبابوية التي تسلطت على شعوب أوروبا سياسياً وثقافياً، وحجرت عليهم حق البحث وحرية الفكر. وفي ظل هذه الروح النهضوية التي اجتاحت أوروبا، تخيل فرانسيس بيكون<sup>(١)</sup> مدينة "أطلنطيس الجديدة" التي رأى فيها مجتمعاً يقوم على أساس العظمة الإنسانية. وألف فيها رواية صور فيها حياة متطورة سادها الإيمان الديني والرقى العلمي والتطور التقني والرخاء الاقتصادي.<sup>(٢)</sup>

وتخيل ليوناردو دا فينشي<sup>(٣)</sup> تقنيات كثيرة كالألة الحاسبة والغواصة والمروحية

(١) فرانسيس بيكون (بالإنجليزية: Francis Bacon) (٢٢ يناير ١٥٦١م - ٩ أبريل ١٦٢٦م) فيلسوف ورجل دولة وكاتب إنجليزي، معروف بقيادته للثورة العلمية عن طريق فلسفته الجديدة القائمة على "الملاحظة والتجريب". من الرواد الذين انتبهوا إلى غياب جدوى المنطق الأرسطي الذي يعتمد على القياس، ودعا إلى اعتماد المنهج التجريبي بدلا عنه. انظر:

Chisholm, Hugh, ed (1911). "Bacon, Francis". *Encyclopædia Britannica* (11th ed.).

Cambridge University Press.

(2) [http://en.wikipedia.org/wiki/New\\_Atlantis](http://en.wikipedia.org/wiki/New_Atlantis)

(٣) ليوناردو دا فينشي (١٤٥٢ - ١٥١٩ م)، يعد من أشهر فناني النهضة الإيطاليين على الإطلاق وهو مشهور كرسام، نحّات، معماري، وعالم. كانت مكتشفاته وفنونه نتيجة شغفه الدائم للمعرفة والبحث العملي، له آثار عديدة على مدارس الفن بإيطاليا امتد لأكثر من قرن بعد وفاته. وإن أبحاثه العلمية خاصة في مجال علم التشريح، البصريات وعلم الحركة والماء حاضرة ضمن العديد من اختراعات عصرنا الحالي. (انظر: "Leonardo da Vinci" in the 1913 *Catholic Encyclopedia*.)

*Encyclopedia*.)



وأمورا كثيرة لم تتحقق إلا بعد قرون من وفاته. وعلى إثره عمل جول فيرن<sup>(١)</sup> أعماله الأدبية التي تعرف فيما بعد بالخيال العلمي الذي حرك عقول الناس ودفعهم إلى المخترعات الكثيرة التي غيرت حياة الناس إلى يومنا هذا.

ورسم آدم سميث<sup>(٢)</sup> في كتابه المعروف باسم "ثروة الأمم" طريق الأمم في تحصيل الثروة بنظرية اقتصادية تحمل اسمه، تقوم هذه النظرية على اعتبار أن كل أمة أو شعب يملك القدرة على إنتاج سلعة أو مادة خام بكلفة أقل بكثير من باقي الدول الأخرى، فإذا ما تبادلت الدول هذه السلع عم الرخاء بين الجميع، تقوم اتفاقية التجارة العالمية على كسر الحواجز أمام انتقال السلع لكي تعم العالم.<sup>(٣)</sup>

(١) جول فيرن (Jules Verne) (٨ فبراير ١٨٢٨ - ٢٤ مارس ١٩٠٥م)، كاتب فرنسي من القرن التاسع عشر. ولد جول فيرن في مدينة نانت بفرنسا ودرس القانون، ولكنه انصرف إلى كتابة العديد من القصص والروايات عن رحلات وسفرات ابتدعتها من نبع خياله الخصب، وكان يعرضها في إطار علمي، أو في جو من التنبؤات العلمية. كان له الفضل في تأسيس ما يعرف بأدب الخيال العلمي. في عام ٢٠٠٥ احتفل "بسنه جول فيرن" وذلك بمناسبة مرور مائة عام على وفاة هذا الأديب. (انظر:

Roberts, Adam (2007). "7. Jules Verne and H. G. Wells". The History of Science Fiction. Palgrave Macmillan. pp. 129-155. ISBN 0230546919. Retrieved 2011-05-25.

(٢) آدم سميث (٥ يونيو ١٧٢٣ - ١٧ يوليو ١٧٩٠) فيلسوف وباحث اقتصادي أسكتلندي، اشتهر بكونه من منظري العلم الاقتصادي المعاصر ويبقى كتابه الشهير ثروة الأمم واحدا من أسس الليبرالية الاقتصادية المعاصرة. عمل سميث أستاذا لمادة الفلسفة الأخلاقية بجامعة جلاسجو بأسكتلندا، وكرس عشر سنين من حياته في التحضير لكتابه والذي سيكون مصدر إلهام لأكبر الاقتصاديين من بعده والذين سيعرفون فيما بعد بالكلاسيكيين حيث سيعملون على وضع أهم مبادئ الليبرالية الاقتصادية.

(آدم\_سميث/ <http://ar.wikipedia.org/wiki/>)

(3) An Inquiry into the Nature and Causes of the Wealth of Nations, by Adam Smith. London: Methuen and Co., Ltd., ed. Edwin Cannan, 1904. Fifth edition.





ومع بروز وتزايد قوة النظام الرأسمالي التي جرت الأمم إلى أزمة معاناة طبقة العمال برز كارل ماركس<sup>(١)</sup> برؤيته عن حاجة الناس إلى تكوين مجتمع ينصف حق العمال وتختفي فيه الطبقة، مجتمع بلا نزاع على الملكية، وجاء ماركس بحلم أقنع فقراء العالم وغير مصائر الدول والشعوب، ثم كان ما كان من نشوء دول شيوعية بعد الثورة البلشفية ثم سقوطها بعد سبعين سنة مع سقوط جدار برلين.

#### واقع العالم بعد زمن من الأحلام

وهكذا نشأت آراء ورؤى شكّلت واقع أوروبا وتعدت آثارها إلى سائر بقاع الأرض بعدها. وبين تلك الرؤى والأحلام وبين الواقع القائم قرون قضيت وأفكار درست وجهود بذلت. تحقق بعضها وانهار بعضها.

إن أول نظام ديمقراطي كان في مدينة أثينا اليونانية. فكان كل مواطن فيها يستمتع، ويصر على أن يستمتع، بكل ما يستمتع به غيره من حقوق أمام القانون وفي الجمعية الوطنية. ولم يكن "المواطن" في نظر الأثيني هو الذي يقترح فحسب، بل كان هو الذي يشغل بالقرعة إذا جاء دوره على مر الأيام منصب الحاكم أو القاضي، ويجب أن يكون حراً، مستعداً لخدمة الدولة حين تناديه، وقادراً على خدمتها. ولا يخفى أنه ليس في مقدور إنسان خاضع لغيره، أو مضطر إلى الكدح ليحصل على قوته، أن يجد من الوقت أو من المقدرة ما يمكنه من أداء هذه الخدمات؛

(١) كارل ماركس (٥ مايو ١٨١٨ - إلى ١٤ مارس ١٨٨٣ م) فيلسوف ألماني، سياسي، وصحفي، ومنظر اجتماعي ولد لعائلة يهودية. قام بتأليف العديد من المؤلفات إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية. لذلك يعتبر مؤسس الفلسفة الماركسية ويعتبر مع صديقه فريدريك إنجلز المنظرين الرسميين الأساسيين للفكر الشيوعي. شكل وقدم مع صديقه فريدريك إنجلز ما يدعى اليوم بالاشتراكية العلمية. (انظر:



ومن أجل هذا كان يبدو لمعظم الأثينيين أن الذي يعمل بيديه غير صالح لأن يكون مواطناً أثينياً. فلم تكن الحقوق السياسية متاحة للعبيد والفلاحين الكادحين من التجار. وكانت أن أقلية صغيرة من الأهلين كانت هي التي تستطيع القراءة. ولم تكن ممارسة هذه الحقوق متاحة أيضاً لسكان أقاليم البلاد خارج أثينا. وكان في أثينا نواد من جميع الأنواع - نواد سياسية، ونواد للأقرباء، ونواد عسكرية، ونواد للصناع، ونواد للممثلين، ونواد دينية، ونواد تجهر بأن همها هو الأكل والشرب. وكانت أقوى هذه النوادي هي النوادي الأَلجركية التي يتعهد أعضاؤها بأن يساعد بعضهم بعضاً في الشؤون السياسية والقانونية، وتربطهم بعضهم ببعض رابطة العداء المشتركة الشديدة للطبقات الدنيا التي نالت حقوقها السياسية، والتي أخذت تنافس طبقتي الأشراف مُلاك الأراضي والتجار أصحاب المال. وفي وجه هذا الحزب الأَلجركي يقف الحزب الديمقراطي - إلى حد ما - حزب صغار رجال الأعمال، والمواطنين الذين أصبحوا أجراء، وأولئك الرجال الذين يعملون بحارة على ظهور السفن التجارية والأسطول الأثيني.<sup>(١)</sup> وضعف هذا النظام مع حروب متواصلة ضد جارتها إسبارطة، حتى صار الحكم في اليونان ملكياً إلى آخر ملكهم الإسكندر الأكبر.<sup>(٢)</sup>

(١) قصة الحضارة: ٧/ ٢١-٢٢، للمؤلف: ول ديورانت، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمود وآخرين، دار الجيل، بيروت - لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، عام النشر: ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

(٢) الإسكندر الأكبر أو الإسكندر المقدوني (٢١ يوليو ٣٥٦ ق.م. - ١٣ يونيو ٣٢٣ ق.م). حاكم الإمبراطورية المقدونية اليونانية، قاهر الإمبراطورية الفارسية وواحد من أذكى وأعظم القادة الحربيين على مر العصور، ومن أعظم أباطرة في التاريخ.  
([http://ar.wikipedia.org/wiki/الإسكندر\\_الأكبر](http://ar.wikipedia.org/wiki/الإسكندر_الأكبر))



وفي ظل الحكم الروماني تحقق مرة ثانية قيام نظام الجمهورية وذلك بعد كفاح طويل دام ما يقارب قرنين من الزمن.<sup>(١)</sup> وليس قيام الجمهورية إقامة العدالة الاجتماعية. نعم حررت روما من سلطان الأسرة المالكة المتسلطة وحل محلهم حكم الأشراف الذي ظلوا يحكمونها إلى عهد قيصر. أما الفقراء من المواطنين فلم تنصلح أحوالهم بعد الثورة بل ساءت عما كانت عليه؛ فقد طلب إليهم أن ينزلوا عن الأراضي التي وهبها لهم الملك السابق المخلوع، وخسروا ذلك القسط الضئيل من الحماية من سلطان الأشراف وهو الذي كان لهم في عهد الملكية. وقال الظافرون: "إن الثورة كانت نصراً مؤزراً للحرية." ولكن الحرية في لغة الأقوياء لا يقصد بها في بعض الأحيان إلا التحرر من القيود التي تحول دون استغلال الضعفاء.<sup>(٢)</sup> ولكن مع ذلك فقد أقاموا نظام حكم ديمقراطي فريد، وكان لمجلس الشيوخ صلاحية سن القوانين واختيار الحكام. وتطور ونما هذا النظام خمسة قرون. وهكذا إلى أن جاء يوليوس قيصر<sup>(٣)</sup> سنة ٤٤ قبل الميلاد وعين إمبراطوراً للروم واعتبر ذلك خروجاً عن نظام الجمهورية ونهاية له.<sup>(٤)</sup>

وبعد انتهاء حكم يوليوس قيصر بدأت الإمبراطورية الرومانية تتضعضع بشكل مستمر. ثم اتجهت أوروبا في العصور الوسطى إلى الزهد في الدنيا، والتبتل إلى الآخرة،

(١) قصة الحضارة: ٧٥-٤١/٩

(٢) المصدر السابق: ٣٥-٣٦/٩

(٣) غيوس يوليوس قيصر (Julius Caesar) جنرال وقائد سياسي وكاتب روماني ولد عام ١٠٠ ق.م وتوفي عام ٤٤ ق.م وهو أول من أطلق على نفسه لقب: إمبراطور. ولد في عائلة عريقة من الأشراف الرومان، ويعتبر يوليوس قيصر من أبرز الشخصيات العسكرية الفذة في التاريخ. تم اغتياله سنة ٤٤ ق.م. (انظر: سيرة قائد يوليوس قيصر - سيد ررما والعالم - إعداد: هشام خضر دار المشارق للنشر والتوزيع)

(٤) الجمهورية\_الرومانية <http://ar.wikipedia.org/wiki/>



وذلك نتيجة هيمنة رجال الكنيسة على مختلف شؤون الحياة، باعتبارهم علماء في الدين وفلاسفة في القانون الروماني، فحاربوا المفكرين، وحاكموهم بقسوة، واحتكروا زعامة المجتمع، فتفشيت فيه الخرافات وعم الجهل، فلم ينتفع الجمهور باللغة اللاتينية التي كانت محتكرة لدى طائفة من رجال الكنيسة ولم تكن صناعة الورق، أو فن الطباعة معروفين في أوروبا، ولهذا كان المجتمع الأوروبي متخلفاً ويئن تحت وطأة الإقطاع، ويعاني من ويلات الحروب الإقطاعية والتجزئة السياسية.

قال ول ديورنت<sup>(١)</sup>: "أما أوروبا الغربية فكانت في القرن السادس الميلادي مسرحاً لفوضى الفتوح، والانحلال، والعودة إلى الهمجية نعم إن قسطاً كبيراً من الثقافة اليونانية والرومانية القديمة قد بقي فيها، وإن كان معظمه صامتاً مخبوءاً في عدد قليل من الأديرة والأسر، ولكن مصادر الأسس الجسمية والنفسية التي يقوم عليها النظام الاجتماعي كانت قد اضطربت اضطراباً لا تعود معه هذه الأسس إلى الاستقرار إلا بعد قرون طوال."<sup>(٢)</sup>

سيطر على أوروبا تعصب ديني رهيب حركهم نحو حروب صليبية متكررة دامت قرنين من الزمان. وانتهت ببقاء بيت المقدس في أيدي المماليك المسلمين،

(١) ويليام جيمس ديورانت (بالإنجليزية: William James Durant) ولد سنة ١٨٨٥ وتوفي سنة ١٩٨١م فيلسوف، مؤرخ، وكاتب أمريكي من أشهر مؤلفاته كتاب "قصة الحضارة" والذي شاركته زوجته أرييل ديورانت في تأليفه. ومن تأليفه أيضاً "تاريخ الفلسفة". فقد حصل على جائزة بولتزر العالمية سنة ١٩٦٨ بسبب أعماله الرائدة في نشر الفلسفة. وحصل على الوسام الرئاسي الحرية سنة ١٩٧٧.

("Durant, Will and Durant, Ariel." Encyclopædia Britannica from Encyclopædia Britannica Premium Service. (Accessed May 14, 2005)



وقل عدد الحجاج المسيحيين إلى تلك المدينة وزادت مخاوفهم. يضاف إلى هذا أن الحكومات الإسلامية التي كانت من قبل تمتاز بالتسامح مع أصحاب الأديان الأخرى قد ذهب عنها تسامحها بسبب الهجمات المتكررة على بلادها، ولم يبق في أيدي المسيحيين ثغر واحد من ثغور فلسطين والشام التي انتزعوها من قبل لتستقبل التجارة الإيطالية، وأثبتت الحضارة الإسلامية أنها أرقى من الحضارة المسيحية في رقتها، وأسباب راحتها، وتعليمها وأساليبها الحربية.<sup>(١)</sup>

خسرت أوروبا في حروبها الصليبية لكنها كسبت خبرات وثقافات جديدة. وكان أثر الحروب الصليبية الذي يلي في أهميته إضعاف العقيدة الدينية المسيحية، هو بث روح النشاط في الحياة المدنية الأوروبية لمعرفة الأوروبيين بأساليب المسلمين التجارية والصناعية.<sup>(٢)</sup> وهذا كله ينقلهم إلى بدء جديد في نمط الحياة الفكرية والاقتصادية، وأخرجهم من قوالب بالية إلى انفتاح عقلي وتجدد ثقافي.

وبذلك بدأت أوروبا عصرها الجديد وفترة الانتقال من العصور الوسطى إلى عصر النهضة وهو القرون ١٤ - ١٦ ويؤرخ لها بسقوط القسطنطينية عام ١٤٥٣م، حيث نزح العلماء إلى إيطاليا حاملين معهم تراث اليونان والرومان، كما يدل مصطلح عصر النهضة على التيارات الثقافية والفكرية التي بدأت في البلاد الإيطالية في القرن ١٤، حيث بلغت أوج ازدهارها في القرنين ١٥ و ١٦، ومن إيطاليا انتشرت النهضة إلى فرنسا وإسبانيا وألمانيا وهولندا وانكلترا وإلى سائر أوروبا ازدهر شأن النهضة الإيطالية إذ وجدت لها أنصاراً يصرفون عليها المال الوفير.

(١) المصدر السابق: ٦١/١٥

(٢) المصدر السابق



وأطلق الإيطاليون على هذا النضوج اسم الرناشيتا<sup>(١)</sup> la Rinascita أي المولد الجديد، لأنه بدا لهم بعثاً مظفراً للروح القديمة بعد أن أوقفت البربرية في سبيلها مدى ألف عام.<sup>(٢)</sup>

وإذا كان ملوك الإغريق والرومان وأساقفة العصور الوسطى قد خيخوا أمل أفلاطون في نشوء جمهورية فاضلة، فإن فلاسفة عصر النهضة قد أحيوا ذلك الحلم القديم بعد أن كسروا حواجز الهرطقة وبددوا الإيمان البابوي. فحاربوا الدكتاتوريات وحكم البابوات، وتحرروا من احتكار الكنيسة للعلم والمعرفة. فكان لأوروبا وجهها الجديد وطريقها المستأنفة. ثم كان من أحلام الفلاسفة أن تجد طريقها إلى نهوض أوروبا وسيادتها العالمية، بل وجدت أراضي جديدة لبسط سيطرتها في مشارق الأرض ومغاربها.

إن ما توصلت إليه المجتمعات الغربية اليوم من التقدم المادي ليس خارقاً من خوارق العادات لكنه نتيجة طبيعية لتصورات ترسخت في الأذهان واندفعت الجهود المتواصلة المتراكمة لإخراجها إلى عالم الواقع. ومع ذلك لا تغرنا المظاهر الخلافة التي بهرت الناس من حياة هؤلاء، فإنها تنطوي على صنوف من الأزمات.

قال الدكتور العلواني: "إن الحضارة المعاصرة - على كل ما أسدته للإنسان من خدمات في عمليات الكشف والتسخير، وعلى كل ما أنتجته من علوم ومعارف

(١) جورجيو فازاري (Giorgio Vasari) (ت: ١٥٥٠) في كتابه الحياة الشيطنة لفنون العمارة والتصوير والنحت الممتاز هو الذي ثبت استعمال لفظة Rinascita، وكانت الموسوعة الفرنسية التي صدرت بين عامي ١٧٥١ و ١٧٧٢ هي التي استعملت لأول مرة وبصفة قاطعة واضحة لفظ Renaissance للدلالة على ازدهار الآداب والفنون في القرن الرابع عشر، والقرن الخامس عشر، والقرن السادس عشر. (قصة الحضارة: ١٨/١١٩)

(٢) المصدر السابق: ١٨/١١٩



وآداب وفنون- بقطع النظر عن طبيعتها- لم تستطع أن تقدم "أطرا ووسائل تربوية إنسانية هادفة" يمكن أن نجد فيها ما يساعد الإنسان على تقويم نفسه وتهذيب سلوكه وتربية ذاته.

لقد كان الدين المسيحي في العصر الأوروبي الوسيط مصدر المعرفة ومصدر الفن كذلك في أوروبا. أما في عصر النهضة الأوروبية فقد صار العقل مصدر المعرفة والفن. أما بعد ذلك فقد ساد الحس وصار مصدرا للمعارف والفنون كذلك. وتجاوز الحس بذلك الدين والعقل. وأصبح الحس سيد كل شيء، فحصر العلم في زوايا المختبرات وحقول التجارب، وأخرج من دائرته كل ما لا يخضع لسلطانه، وحصر الفن في دوائر أضيق من ذلك، فبدأت تتلاشى وتهبط ويضيق عليها الخناق. وأما التربية فصارت غايتها ومثلها الأعلى القدرات الإنتاجية فقط لا غير. يزود بها الإنسان ليسابق بها الآلة التي كبرا ما تتفوق عليه وتتجاوزته، وقد تسحقه وترمي به إلى زوايا البطالة والتعطّل. فليس غريبا - بعد ذلك - أن يجد الإنسان نفسه وقد ملأها الخوف من الكون وهو بيته، ومن الطبيعة وهي أمه، والإنسان وهو أخوه، والغيب وهو عونه ورائده إلى مستقبله، فيبهر من خوفه المتراكب إلى تغييب عقله بالسكر والمخدرات، وهدم ذاته في الجنس والانحرافات، وقد ينصرف إلى تدين شائه ناقص أو قاصر أو منحرف لا يختلف في إضراره بالإنسان والحياة عن تلك الوسائل المدمرة. وهنا قد تصبح الجريمة نوعا من التغيير، بل والمتعة المطلوبة، والعياذ بالله. وأحيانا يصبح الانتحار وإنهاء الحياة جماعيا تجربة من التجارب، أو فرديا للتخلص من مرارتها أو آلامها أو تفاهتها أو أعبائها.<sup>(١)</sup>



### المسلمون بين الأحلام والحقائق



إن ماضي المسلمين كان مختلفاً عن ماضي غيرهم، فإذا كانت الأمم تحتاج إلى قرون طويلة حتى تتحقق بعض أحلامها، فإن ما تحقق لدى المسلمين في عصرهم الذهبي ما كان ليحلم به أحد منهم قبل. فقد حققوا الأمجاد في وقت قياسي مذهل. وإن تاريخنا العلمي أتم وأكمل من التاريخ العلمي في الغرب، حيث إن التقدم العلمي والحضاري في الإسلام لا يحتاج إلى مثل ذلك الصراع المرير بين العلم والدين كما حدث في أوروبا. فإذا انتصر الفقهاء في كسب قلوب الناس على الفلاسفة فإن ذلك بسبب أن الفقهاء يمتلكون رصيда من الحقائق العلمية ورسوخاً في مناهج التفكير. ولم يعارض الفقهاء التفكير العلمي الحر. وكثير غفير من الفقهاء علماء في الفلسفة والطب والكيمياء وغيرها من العلوم. وإذا كان الغزالي قد أوقف المد الفلسفي بكتابه "تهافت الفلاسفة" فإن النشاط العلمي لم يتوقف. فقد جاء بعده من المخترعين الكبار أمثال ابن النفيس<sup>(١)</sup>

(١) أبو الحسن علاء الدين علي بن أبي الحرم القرشي الدمشقي الملقب بابن النفيس (٦٠٧ هـ/١٢١٣م - ٦٩٧ هـ/١٢٨٨م) ويعرف أحياناً بالقرشي بفتح القاف والراء نسبة إلى بلدة القرش التي تقع بقرب دمشق، هو عالم موسوعي وطبيب عربي مسلم، له إسهامات كثيرة في الطب، ويعد مكتشف الدورة الدموية الصغرى، وأحد رواد علم وظائف الأعضاء في الإنسان، حيث وضع نظريات يعتمد عليها العلماء إلى الآن. وظل الغرب يعتمدون على نظريته حول الدورة الدموية، حتى اكتشف ويليام هارفي الدورة الدموية الكبرى.

- Peter E. Pormann and E. Savage Smith, Medieval Islamic medicine Georgetown University, Washington DC, 2007, p. 47. See also "Ibn Al-Nafis and the pulmonary circulation", The Lancet 1: 1148.

- المنجد في الأعلام - ص ١٠ - الطبعة السابعة والعشرون مجددة - صادرة عام ٢٠٠٥ عن

دار المشرق ش.م.م. بيروت - ISBN ٧٢١٤-٢٢٤٦-٤

- الموسوعة البريطانية، ٢٠٠٧، تحت مادة Ibn an-Nafis





وابن البيطار<sup>(١)</sup> وابن طفيل<sup>(٢)</sup> وابن خلدون وغيرهم. إن التقدم العلمي الإسلامي لا يحتاج إلى الفلسفة اللاهوتية التي لا ولن تصل إلى حقائق إلهية أو كونية لأنها لا تمتلك وسائلها بل تتحاشاها.

ولكن الحق نقول إن المسلمين في قرونهم المتأخرة - وبشكل كبير بعد القرن التاسع الهجري - قد جنحوا إلى التقليد والجمود الفكري في كلا المجالين الدين والعلم<sup>(٣)</sup>. وإن سر قوة المسلمين في تكاملهما. ولم يتغلب الدين على حساب العلم كما حسبه المؤرخون الغربيون، بل اضمحل العلم والدين معاً، ففي العالم الإسلامي لم ينفرد قط أحدهما عن الآخر، فإذا قوي الدين عندهم علا شأن العلم فيهم،

(١) ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي، لقب بالمالقي لأنه ولد في قرية واقعة في مدينة مالقة في الأندلس، اشتهر بابن البيطار مشتق من "ابن البيطري" لأن والده كان طبيباً بيطرياً ماهراً. ولد حوالي سنة ١١٩٧م وتوفي في دمشق سنة ١٢٤٨، يعتبر خبيراً في علم النباتات والصيدلة، وأعظم عالم نباتي ظهر في القرون الوسطى، وساهم إسهامات عظيمة في مجالات الصيدلة الطب. كتب موسوعة عن إعداد وتركيب الدواء والغذاء، ذكر "ابن البيطار" ١٤٠٠ نوع من النباتات في أسبانيا وشمال إفريقيا وسوريا، يمكن استخدامها لأهداف طبية، وذكر أيضاً اسم ٣٠٠ نوع من النباتات التي لم يتعرف إليها طبيب قبله، كما ذكر هذا العالم طريقة تركيب الدواء لبعض الأمراض، والجرعة المطلوب تناولها للعلاج.

(ابن البيطار) <http://ar.wikipedia.org/wiki/البيطار>

Prof. Nil Sari (Istanbul University, Cerrahpasha Medical School) (06 June, 2007).

["Hindiba: A Drug for Cancer Treatment in Muslim Heritage". FSTC Limited]

(٢) أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل القيسي الأندلسي هو فيلسوف وفيزيائي وقاضي أندلسي، ولد في وادي آش، وهي تبعد ٥٥ كم عن غرناطة، ثم تعلم الطب في غرناطة وخدم حاكمها. توفي في عام ٥٨١ هـ الموافق ١١٨٥م بمراكش وحضر السلطان جنازته. كان ابن طفيل فيلسوفاً ومفكراً وقاضياً وطبيباً وفلكياً. (الوافي بالوفيات ٤ / ٣٧)

(٣) انظر كتاب مقاصد الشريعة ودورها في صياغة المستقبل، للمؤلف ص ١٩٠-١٩١، الطبعة الأولى مكتبة الأسرة العربية، إسطنبول.



وإذا أفل أحدهما اختفى الآخر. إن دنيا المسلمين ذهبت بإهمال دينهم، وإذا أقبلوا على الدين لم يلبث أن تقبل عليهم الدنيا، كما أثبتته النصوص ووقائع التاريخ. ولا نتكلم هنا عن مظاهر فردية، ولكن مصداق ذلك في المظاهر العامة والحياة الاجتماعية السائدة. وقد سبق تقرير ذلك في الكلام عن سنة الله في الباب السابق.

ولكن ماذا عن أحلام المسلمين اليوم ورؤيتهم المستقبلية؟... من هنا نحتاج إلى تصور مفصل عن العمران الإسلامي المنشود. وهذا يدعونا إلى مراجعة أدبياتنا المتعلقة بالرؤية المستقبلية. لقد كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يروون الأحاديث المبشرة بالأحداث المستقبلية الطيبة، كما سبق ذكرها في الأخبار المستقبلية، لكن المؤسف أن يجنح المسلمون بعدهم إلى تغليب أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة بشكل يدمر الأمل ويحطم آفاق التفكير المستقبلي. وزد على ذلك المبالغة في ذم الدنيا وتكريس الفهم الخاطئ للزهد. ثم أضف إلى ذلك تصورنا الناقص المقلوب لمقاصد الشريعة حيث جعلت الضروريات الأساسيات في قمة هرم المقاصد، وتنزوي الكماليات في درج الزوائد غير المطلوبة ولا المندوبة.

وقد سبق التقرير<sup>(١)</sup> أن الأولى في ترتيب المقاصد أن تكون التحسينيات هي الأفق الأعلى للمقاصد المطلوبة مع إعادة النظر في معنى التحسينيات المطلوبة شرعا، فهي ليست الأشياء المترفة والمرفهة لكنها صور الإحسان الذي كتبه الله على كل شيء، والطيبات التي لا يقبل الله إلا الطيب.

إن فقه أولوياتنا يكمله فقه السباق الحضاري أو فقه التفوق العمراني في المرحلة التالية بحيث يكون نداء الفقهاء بتقديم الضروريات على الحاجيات والتحسينيات



تلحقه خطوات تالية للارتقاء بحال الأمة من حالة الضعف والنقص إلى حالة القوة والوفرة، بدءاً بالسعي نحو حسن التدين وكمال الإيمان فإنه أول المقاصد وأشرفها، ثم بقية الأصول الخمسة. والله الموفق.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.





## فهرس الموضوعات

|    |                                        |
|----|----------------------------------------|
| ٥  | قراءة في كتاب فضيلة الدكتور فهمي إسلام |
| ٨  | منهجية البحث ومحتوى الكتاب             |
| ١٣ | مسالك الانحراف وموارد الشبهات:         |
| ١٣ | قادة الحضارة الإنسانية وفقه المستقبل   |
| ١٤ | أحكام وضوابط                           |
| ١٥ | المشروع والممنوع من وسائل الاستشراق    |
| ١٦ | سنن القرآن وأسس علم الاجتماع الإسلامي  |
| ١٨ | سنة التغيير في الدول والمجتمعات        |
| ٢٠ | هندسة بناء المستقبل                    |
| ٢٢ | بناء المجدد                            |
| ٢٤ | هندسة بناء المجتمع                     |
| ٢٧ | في تكوين المجتمع الإسلامي              |
| ٢٨ | تدبير الخلاف المجتمعي                  |
| ٢٩ | العطاء الحضاري وأفق المستقبل           |
| ٣٣ | مقدمة                                  |
| ٣٥ | حاجتنا إلى فقهٍ لاستشراق المستقبل      |
| ٣٧ | التعريف بفقه استشراق المستقبل          |
| ٣٧ | معنى الفقه                             |
| ٣٨ | معنى الاستشراق                         |
| ٣٩ | معنى المستقبل                          |



## الباب الأول: العقيدة البناءة للمستقبل

- ٤٤ ..... الفصل الأول: الإيمان باليوم الآخر والتكليف والجزاء والحساب
- ٤٤ ..... المبحث الأول: الإنسان والتكليف
- ٤٧ ..... المبحث الثاني: الجزاء والحساب
- ٥٣ ..... المبحث الثالث: مقياس الربح والخسارة
- ٥٧ ..... المبحث الرابع: اليوم الآخر
- ٥٨ ..... التذكير المكثف في ضرورة الاهتمام باليوم الآخر كحتمية مستقبلية
- ٦٤ ..... الزهد في الدنيا
- ٦٧ ..... المبحث الخامس: الحث على العمل من أجل المستقبل القريب والبعيد
- ٦٩ ..... الفصل الثاني: بناء المستقبل الديني
- ٦٩ ..... المبحث الأول: قيمة الحياة الدنيا في الإسلام
- ٧٢ ..... المبحث الثاني: ضبط الموازين بين صلاحي الدنيا والآخرة
- ٧٤ ..... المبحث الثالث: الاستعداد للتحديات القادمة
- ٧٥ ..... المبحث الرابع: الاهتمام بمستقبل الأجيال
- ٧٦ ..... المبحث الخامس: الإحساس بالزمان
- ٧٨ ..... الفصل الثالث: مسألة القضاء والقدر في سياق بناء المستقبل
- ٧٩ ..... المبحث الأول: المنهجية المناسبة في معالجة الموضوع
- ٧٩ ..... المطلب الأول: مركزية القرآن
- ٨٠ ..... المطلب الثاني: إشكالية أخبار الآحاد
- ٨٣ ..... المطلب الثالث: قصور علم الكلام في تقرير العقائد



|                                                          |     |
|----------------------------------------------------------|-----|
| المطلب الرابع: مراعاة سياق النصوص .....                  | ٨٥  |
| المبحث الثاني: معنى الإيمان بالقضاء والقدر .....         | ٨٦  |
| المطلب الأول: معنى القضاء .....                          | ٨٧  |
| المطلب الثاني: معنى القدر .....                          | ٨٩  |
| المبحث الثالث: القضاء والقدر في بيان القرآن والسنة ..... | ٩١  |
| المطلب الأول: القضاء والقدر في السياق القرآني .....      | ٩٢  |
| علم الله الشامل .....                                    | ٩٢  |
| ضبط التوازن النفسي .....                                 | ٩٤  |
| حجة الله البالغة وعدله المطلق .....                      | ٩٨  |
| المطلب الثاني: القدر في البيان النبوي .....              | ١٠٢ |
| تقرير الحقائق .....                                      | ١٠٢ |
| توجيه المواقف .....                                      | ١٠٥ |
| المبحث الرابع: حرية الإنسان .....                        | ١٠٧ |
| دلالة النصوص على حرية الإنسان .....                      | ١١٠ |
| النهي عن ترك العمل .....                                 | ١١٣ |
| دفع الأقدار بالأقدار .....                               | ١١٥ |
| المبحث الخامس: انسجام الحقائق .....                      | ١١٩ |
| معارضة الحقائق تسيء الفهم .....                          | ١٢٠ |
| رحمة الله الواسعة وحكمته البالغة .....                   | ١٢٢ |
| العدالة الإلهية .....                                    | ١٣٠ |
| الإيمان توازن .....                                      | ١٣١ |



|                                                              |     |
|--------------------------------------------------------------|-----|
| آفاق مفتوحة لمن يريد بناء المستقبل .....                     | ١٣٢ |
| الفصل الرابع: التوكل الصحيح .....                            | ١٣٤ |
| المبحث الأول: حقيقة التوكل .....                             | ١٣٤ |
| المبحث الثاني: التوكل واتخاذ الأسباب .....                   | ١٣٨ |
| استدلالات مردودة .....                                       | ١٤٤ |
| متى تزد الأسباب؟ .....                                       | ١٤٥ |
| ما تعجز عنه الأسباب تكمله القدرة الإلهية .....               | ١٤٥ |
| الفصل الخامس: صور من التخطيط المستقبلي في الإسلام .....      | ١٤٨ |
| المبحث الأول: خطة الأمن الغذائي .....                        | ١٤٨ |
| المبحث الثاني: التخطيط لإيجاد قاعدة الدعوة الجديدة .....     | ١٤٩ |
| المبحث الثالث: خطة الهجرة إلى المدينة .....                  | ١٥٤ |
| الخطة والخطة المضادة .....                                   | ١٥٤ |
| ملامح دقة التنظيم وإحكام الخطة في حادثة الهجرة .....         | ١٥٦ |
| المبحث الرابع: جمع المعلومات ورصد الأخبار .....              | ١٥٧ |
| المبحث الخامس: التشريعات الاستباقية للأجيال القادمة .....    | ١٥٩ |
| تهيئة الخلفاء من بعده .....                                  | ١٥٩ |
| تجهيز جيش للحد من خطر قادم .....                             | ١٦١ |
| المبحث السادس: النظرة الاستشرافية والرؤية الاستراتيجية ..... | ١٦٢ |
| الاهتمام بقضايا "جيو سياسية" في فاتحة سورة الروم .....       | ١٦٢ |
| رؤية استراتيجية لفتح العالم .....                            | ١٦٥ |
| الإخبار بالأحداث المستقبلية .....                            | ١٦٧ |



## الباب الثاني: القناعات الهدامة للمستقبل

- الفصل الأول: تصورات سلبية بسبب أحاديث أُسيء فهمها وُغِيَّت سياقاتها ..... ١٧٢
- المبحث الأول: حديث ”لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه“ ..... ١٧٣
- المبحث الثاني: خيرية الأمة ماذا بعد خير القرون ..... ١٧٨
- المبحث الثالث: الاتزان في الموقف من الفتن ..... ١٨١
- الهدي القرآني في مواجهة الفتن ..... ١٨٥
- بين الانخراط والاعتزال ..... ١٨٨
- لفت النظر في ترتيب أحاديث آخر الزمان في كتب الحديث ..... ١٩٩
- الفصل الثاني: إشكالية نظرية عودة التاريخ ..... ٢٠٢
- المبحث الأول: تكامل الأدوار في تسلسل شرائع الأنبياء والرسل ..... ٢٠٤
- تواصل البناء في تاريخ الرسالات ..... ٢٠٤
- بعثة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام نقلة نوعية لتاريخ الرسالات ..... ٢٠٩
- قوم يونس أول مشهد للإيمان الجماعي ..... ٢١٢
- بداية مشاركة أهل التوحيد للحكم ..... ٢١٣
- موسى ومشروع السيادة الإيمانية ..... ٢١٤
- داود والسيادة الإيمانية الكاملة ..... ٢١٩
- ملك سليمان قمة يعقبها انحدار ..... ٢٢٠
- عيسى ابن مريم ودوره الانتقالي ..... ٢٢٢
- اكتمال الدين على يد خاتم النبيين ..... ٢٢٦
- المبحث الثاني: الإسلام شهادة تطور الحياة البشرية ..... ٢٣١





|     |                                                    |
|-----|----------------------------------------------------|
| ٢٣٧ | المبحث الثالث: أمة محمد تواصل مسيرة الأنبياء ..... |
| ٢٤٠ | هكذا نفهم التاريخ وهكذا نرى المستقبل .....         |
| ٢٤٢ | الفصل الثالث: توسيع دائرة البدعة .....             |
| ٢٤٣ | معنى البدعة لغة واصطلاحاً .....                    |
| ٢٤٧ | مفهوم البدعة بين التوسيع والتضييق .....            |
| ٢٤٩ | المحدثات التي ليست بدعاً منها عنها .....           |
| ٢٥٠ | لماذا مُنعت البدعة؟ .....                          |
| ٢٥٤ | بين الابتداع الديني والإبداع الدنيوي .....         |

### الباب الثالث: منافذ شرعية لمعرفة المستقبل

|     |                                                 |
|-----|-------------------------------------------------|
| ٢٦٢ | الفصل الأول: أستار غيب المستقبل .....           |
| ٢٦٢ | استئثار الله بعلم الغيب .....                   |
| ٢٦٣ | الأحاديث الواردة في ذكر مفاتيح الغيب .....      |
| ٢٦٦ | أقوال العلماء في تحديد مفهوم مفاتيح الغيب ..... |
| ٢٦٧ | تحديد الغيوب التي استأثر الله بعلمها .....      |
| ٢٧١ | إمكانية إطلاع الله بعض عباده على الغيب .....    |
| ٢٧٧ | الفصل الثاني: تحريم الكهانة .....               |
| ٢٧٧ | المبحث الأول: حقيقة الكهانة .....               |
| ٢٧٧ | معنى الكهانة .....                              |
| ٢٧٨ | أنواع الكهانة .....                             |
| ٢٨٠ | المبحث الثاني: ذم الشرع للكهانة .....           |



|                                                    |     |
|----------------------------------------------------|-----|
| التنجيم ضرب من الكهانة .....                       | ٢٨٢ |
| أدلة تحريم التنجيم .....                           | ٢٨٢ |
| أنواع التنجيم .....                                | ٢٨٥ |
| الفصل الثالث: منافذ المعرفة المستقبلية .....       | ٢٨٨ |
| المبحث الأول: النظر إلى سنن الحياة .....           | ٢٨٩ |
| النوع الأول: سنن مقررة في القرآن والسنة .....      | ٢٩١ |
| سنة الابتلاء .....                                 | ٢٩٢ |
| الشر والخير كلاهما ابتلاء .....                    | ٢٩٢ |
| الابتلاء ومحبة الله لعبده .....                    | ٢٩٤ |
| النظرة المستقبلية في ضوء سنة الابتلاء .....        | ٢٩٥ |
| سنن تدرج تحت سنة الابتلاء .....                    | ٢٩٦ |
| ١. سنة التداول .....                               | ٢٩٦ |
| ٢. سنة التدافع بين الحق والباطل .....              | ٢٩٧ |
| تشوُّه النتيجة بسبب اختلاط العوامل .....           | ٢٩٨ |
| التدافع لا يعني إزالة الآخر .....                  | ٣٠٢ |
| ٣. سنة الاستدراج .....                             | ٣٠٤ |
| قانون السببية .....                                | ٣١٠ |
| الحكمة من قانون السببية .....                      | ٣١١ |
| لا بد للأسباب من وجود الشروط وانتفاء الموانع ..... | ٣١٢ |
| التوكل والدعاء من أقوى الأسباب .....               | ٣١٣ |



- أحكام الدخول في الأسباب ..... ٣١٤
- سنن تندرج تحت قانون السببية ..... ٣١٥
- ١- ربط الصلاح الخارجي بالإصلاح الداخلي ..... ٣١٥
- مراعاة السلف لطواهر تدل على السرائر ..... ٣٢٠
- ظاهرة النفاق زيف مكشوف ..... ٣٢٣
- ٢- ربط صلاح الجماعة بصلاح الأفراد ..... ٣٢٧
- إنقاذ المجتمع من الفساد العام ..... ٣٣٢
- ٣- ربط الصلاح الديني بالصلاح الديني ..... ٣٣٦
- بركة الإيمان والتقوى ..... ٣٣٧
- فساد الدنيا بسبب فساد الدين ..... ٣٣٧
- أثر تطبيق شرع الله على الحياة الدنيوية ..... ٣٤٠
- الدنيا متاع الغرور ..... ٣٤٥
- الدنيا المقبولة ..... ٣٤٦
- هدي الإسلام هو التوازن في كل شيء ..... ٣٤٩
- ٤- الجزاء من جنس العمل ..... ٣٥٢
- جزاء الظلم ..... ٣٥٤
- الظلم لحقوق العباد ..... ٣٥٥
- من جزاء الظلم تولية الظالمين على الظالمين ..... ٣٥٦
- تبقى الدولة مع الكفر ولا تبقى مع الظلم ..... ٣٥٨
- ترابط السنن بعضها ببعض ..... ٣٦٠



- دراسة السنن كأسس لعلم الاجتماع الإسلامي ..... ٣٦٢
- النوع الثاني: سنن مستخلصة من التجارب والملاحظات ..... ٣٦٣
- أوليات ابن خلدون ..... ٣٦٤
- شررات مالك بن نبي ..... ٣٧١
- المبحث الثاني: أخبار الوحي الصريحة ..... ٣٧٧
- نماذج من الأخبار الواردة في مستقبل الأمة من القرآن والسنة ..... ٣٧٧
- ١ - أخبار مبشرة ..... ٣٧٨
- التمكين لدين الله وأهله ..... ٣٨٢
- استمرار دعوة الخير وأنصاره ..... ٣٨٧
- فتح القسطنطينية وروما ..... ٣٨٨
- اتساع دولة الإسلام ..... ٣٨٨
- الرخاء والأمن وفيض المال ..... ٣٩٠
- عودة الخلافة على منهاج النبوة ..... ٣٩١
- الانتصار على اليهود ..... ٣٩١
- بقاء الطائفة المنصورة على الحق ..... ٣٩٢
- ظهور المجددين في كل قرن ..... ٣٩٤
- نزول المسيح عيسى ابن مريم ..... ٣٩٦
- علاقة هذه المبشرات بالسنن الإلهية ..... ٣٩٦
- ٢ - أخبار محدّرة ..... ٣٩٧
- وقوع الفتن كمواقع القطر ..... ٣٩٨



- ٤٠٠ ..... وقوع الهلاك إذا كثرت الخبث
- ٤٠٤ ..... فتنة إبليس وجنوده
- ٤٠٥ ..... فتن كقطع الليل المظلم
- ٤١٠ ..... عرض الفتن على القلوب
- ٤١٢ ..... باب يسد الفتن
- ٤١٧ ..... مضاعفة الأجر خمسين مرة أيام الفتن
- ٤٢٢ ..... دورة التاريخ
- ٤٢٦ ..... تعاقب الخير والشر
- ٤٣٧ ..... فتنة المسيح الدجال
- ٤٤٠ ..... قيام الساعة على شرار الناس
- ٤٤٢ ..... المواقف المطلوبة من هذه الأخبار
- ٤٤٢ ..... التحقق من صحة الأخبار
- ٤٤٤ ..... الإيمان بما صح عن الله ورسوله
- ٤٤٥ ..... المبشرات دافعة إلى العمل لا ذريعة للاتكال
- ٤٤٦ ..... الفتن وروح التحدي
- ٤٤٧ ..... المبحث الثالث: التقنيات العلمية الحديثة
- ٤٤٧ ..... أنواع الدراسات المستقبلية
- ٤٤٨ ..... من مبادئ الدراسات المستقبلية الحديثة
- ٤٤٩ ..... الشروط العامة للقيام بالدراسات المستقبلية في المجتمعات الإسلامية
- ٤٥٠ ..... أنواع التقنيات



|     |                                               |
|-----|-----------------------------------------------|
| ٤٥٠ | طريقة استقراء التوجه (Trend Extrapolation)    |
| ٤٥١ | بناء السيناريوهات                             |
| ٤٥٣ | المحاكاة (simulation)                         |
| ٤٥٤ | طريقة المسح البيئي (Scanning Method)          |
| ٤٥٥ | طريقة دلفي (Delphi Survey Method)             |
| ٤٥٧ | الجمع بين التوقعات                            |
| ٤٥٧ | مميزات هذه التقنيات                           |
| ٤٥٨ | مراتب الدراسات المستقبلية                     |
| ٤٥٨ | المبحث الرابع: وسائل مساعدة لاستشراف المستقبل |
| ٤٥٩ | الفراسة                                       |
| ٤٦٠ | حكم الفراسة في الشرع                          |
| ٤٦٠ | ١- الفراسة الباطنة                            |
| ٤٦٦ | • الحدود الشرعية ضابطة                        |
| ٤٦٧ | • شبهات مردودة                                |
| ٤٦٨ | ردود على تلك الشبهات                          |
| ٤٧٠ | • حديث "استفت قلبك"                           |
| ٤٧٣ | • حديث "لقد كان فيمن قبلكم محدثون"            |
| ٤٨٢ | قياس الإلهام على الرؤيا الصادقة               |
| ٤٨٣ | قصة الخضر مع موسى                             |
| ٤٨٧ | ٢- الفراسة الظاهرة                            |



|     |                                                                 |
|-----|-----------------------------------------------------------------|
| ٤٨٨ | المبحث الثاني: الفرق بين الفراسة الباطنة والفراسة الظاهرة ..... |
| ٤٨٩ | نماذج من الفراسة الباطنة .....                                  |
| ٤٩٠ | نماذج من الفراسة الظاهرة .....                                  |
| ٤٩٥ | الاستخارة .....                                                 |
| ٤٩٦ | الرؤيا الصالحة .....                                            |
| ٥٠٠ | مشروعيتها .....                                                 |
| ٥٠١ | الحدود المشروعة للاستفادة منها .....                            |
| ٥٠٧ | لا يعبر إلا عالم ناصح .....                                     |
| ٥٠٧ | تعبير الرؤيا اجتهد بشري يحتمل الخطأ والصواب .....               |
| ٥٠٩ | الرؤيا الصالحة مجرد مبشرات أو منبهات .....                      |

## الباب الرابع: بناء المستقبل الإسلامي، تطلعات وخطوات

|     |                                                        |
|-----|--------------------------------------------------------|
| ٥١٥ | الفصل الأول: هدي القرآن والسنة في صناعة المستقبل ..... |
| ٥١٩ | المبحث الأول: في الإرادة .....                         |
| ٥١٩ | الأهداف .....                                          |
| ٥٢١ | الإخلاص .....                                          |
| ٥٢٥ | العزيمة .....                                          |
| ٥٢٧ | المبحث الثاني: في الجهود .....                         |
| ٥٢٨ | إحسان العمل .....                                      |
| ٥٣٠ | الصبر .....                                            |
| ٥٣٦ | المبحث الثالث: في العوامل الخارجية .....               |

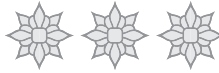


- ٥٣٦ ..... علاقة الإنسان بالكون
- ٥٣٧ ..... خريطة الصراع
- ٥٣٩ ..... العوامل المساعدة فضل ورحمة والعوامل المعرقة ابتلاء وحكمة
- ٥٤٠ ..... المبحث الرابع: التوفيق من الله
- ٥٤٠ ..... صدق الالتجاء
- ٥٤١ ..... الالتزام بأمر الله
- ٥٤٢ ..... عدم الاتكال على غير الله
- ٥٤٥ ..... الفصل الثاني: تطلعات مستقبلية
- ٥٤٥ ..... المبحث الأول: في البناء النفسي والعقلي
- ٥٤٧ ..... اكتساب وتنمية الصفات الإنسانية
- ٥٦١ ..... بناء الصفات الإسلامية وترشيدها
- ٥٧٧ ..... صياغة عقلية علمية رصينة
- ٥٨٦ ..... المبحث الرابع: قناعات إسلامية راشدة
- ٥٩٣ ..... المبحث الثاني: قضايا في تكوين المجتمع الإسلامي
- ٥٩٤ ..... في رسم الأهداف
- ٥٩٧ ..... في آلية التغيير والبناء
- ٦٠٩ ..... أهلية التغيير والتمكين
- ٦١٣ ..... المبحث الثالث: في الكيان الحضاري
- ٦١٤ ..... صياغة رؤية حضارية أصيلة
- ٦١٦ ..... عطاء الحضارة الإسلامية للإنسانية





- ٦٢١ ..... العلاقات بين الحضارات
- ٦٢٥ ..... المبحث الرابع: مسيرة الأمم بين أحلامها وواقعها
- ٦٢٥ ..... أحلام فلاسفة أوروبا
- ٦٢٨ ..... واقع العالم بعد زمن من الأحلام
- ٦٣٥ ..... المسلمون بين الأحلام والحقائق
- ٦٥٥ ..... السيرة الذاتية
- ٦٥٥ ..... المسيرة العلمية:
- ٦٥٦ ..... المسيرة العملية:
- ٦٥٧ ..... الأعمال العلمية (المكتوبة):



## السيرة الذاتية



الاسم : فهمي إسلام جيوانتو

محل وتاريخ الميلاد : كيديري / إندونيسيا، ١٢ أكتوبر ١٩٧٣

البريد الإلكتروني : fi1393@gmail.com

رقم الهاتف : +٩٠٢٣٦٣٩١ ٨١٢ ٦٢

+٥٢٠٨٢٢٨٢ ٩٧٤

## المسيرة العلمية:

- الدكتوراة في مقاصد الشريعة برسالة عنوانها: «المقاصد الشرعية ودورها في صياغة المستقبل» بجامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس - المغرب بتقدير «مشرف جدا»



- ماجستير في الشريعة الإسلامية من جامعة الإيمان باليمن (عنوان الرسالة: استشراف المستقبل في القرآن والسنة) بدرجة «ممتاز»
- بكالوريوس في الشريعة من الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - المملكة العربية السعودية بدرجة «جيد جداً»
- الثانوية العامة من المدرسة الثانوية العامة بجاكرتا/ إندونيسيا
- إجازة حفظ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

#### المسيرة العملية:

- رئيس قسم استشراف المستقبل والدراسات الاستراتيجية
- أستاذ بقسم الدراسات العليا بجامعة الشافعية الإسلامية بجاكرتا (٢٠١٣ إلى الآن)
- أستاذ مساعد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (٢٠١٤-٢٠٢٢)
- رئيس قسم اللغة الإندونيسية في الترجمة بالرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي. (٢٠١٤-٢٠٢٢)
- تدريس مادة التفسير والثقافة الإسلامية في معهد العلوم الإسلامية والعربية بجاكرتا (فرع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) (٢٠١٣-٢٠١٤)
- تدريس مادة السيرة النبوية في معهد النعيمي لإعداد الدعاة بجاكرتا (٢٠١٣-٢٠١٤)



- تدريس مادة أصول الدعوة في معهد القدوة للعلوم الإسلامية (٢٠٠٥-٢٠٠٦)

- عضو الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين  
- رئيس قسم استشراف المستقبل والدراسة الاستراتيجية في الاتحاد العالمي لعلماء المسلمين

- رئيس المركز الإندونيسي للفكري الحضاري الإسلامي  
- عضو مجلس علماء إندونيسيا في مدينة ديبوك  
- مؤسس ورئيس مجلس أمناء مؤسسة منتدى أهل القرآن بإندونيسيا  
- إلقاء محاضرات في عديد من الدوائر الرسمية  
- خطيب الجمعة في العديد من مساجد جاكرتا

#### الأعمال العلمية (المكتوبة):

- مقاصد الشريعة ودورها في صياغة المستقبل (رسالة دكتوراة)  
- استشراف المستقبل في القرآن والسنة (رسالة ماجستير)  
- أسرار التعامل مع المستقبل في خبايا الماضي (منشور في ضمن إصدارات سلسلة روافد التابعة لوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الكويتية)  
- مراتب قراءة القرآن (مطبوع)  
- مستقبل العالم بين الخير والشر (مطبوع)  
- الدين في المنظور القرآني



- الفتنة المائجة والملة السائدة
- «ثم جعلناك على شريعة...»
- «وفي السماء رزقكم وما توعدون...»
- عقول المستقبل
- مقاصد الحج
- الحج والبركة الاقتصادية
- الثروة بين الغنى المحمود والترف المذموم
- الإسلام وتوليد المشاريع
- معركة الإرادات
- من منطق المصارعة إلى نهج المسارعة
- القانون القرآني في السعي الإنساني
- الخلاف الفقهي أسبابه وآدابه (محاضرة في ندوة علمية)
- ظاهرة الخلاعة في وسائل الإعلام وعلاجها الشرعي (محاضرة في ندوة علمية)
- منهجية تعاطي الأخبار (إعداد وتقديم في ورش عمل)
- أكثر من مائتي مقالة على وسائل التواصل الاجتماعي



## هذا الكتاب

تقف أمتنا اليوم على عتبة مرحلة جديدة من مسيرتها، وهذه المرحلة لا تشبه ما قبلها، فسرعة التغيرات غير تلك التي عشناها في القرن الماضي، وموازن القوى غير تلك التي تشكلت في السابق، وخريطة الأفكار أيضا تغيرت بسرعة هائلة مع سهولة المعلومات وسهولة تناقلها وبعض التصورات القديمة للأحداث والأوضاع لم تعد صالحة لدخول هذه المرحلة.

وتحديات هذه المرحلة غير تلك التي جثمت على صدورنا في الماضي، مع التشابه غير القليل بين مرحلة ومرحلة، إلا أن بعض التحديات القديمة تحجمت، وبعضها تلاشت، وأخرى تضخمت، مع نشوء تحديات جديدة لم تكن مولودة في الماضي، وإن الفرص أيضا تغيرت، فأمامنا فرص جديدة كثيرة تولدت، والقديمة منها فلتت بعضها، واستغلت بعضها، وصاحبتنا إلى اليوم بعضها.

وأمام هذه المعطيات، فنحن بحاجة ماسة إلى علم يبصرنا، وهدى يضيء طريقنا، ومنهجية ترشدنا. والدفاع عن الثوابت المحكمة في ظل المتغيرات المتسارعة المتكاثرة يتطلب سرعة الإدراك وتجدد الوعي وتحديث المعلومات والتزام المنهجية الهادية. ثم إن الاتزان بين التمسك والدفاع عن ثوابت ديننا وقيمنا وبين متابعة التغيرات يفرض علينا علما بالدين المنزل وفقها للواقع المُعاش.

ولكن الأهم من كل ذلك والأجدر بموقعنا كأمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، أن ترتقي إلى موقع القيادة والريادة والنهوض بالبشرية نحو الخير العام والرحمة الشاملة، وفي هذا المستوى من الإدراك تنتقل من التبعية إلى المواكبة ثم إلى قيادة الأمم وريادتها.

بناء على ذلك فإن تكوين بنية معرفية تفتح طريق بناء المستقبل من الفروض الكفائية التي تسد حاجة أمتنا في إنارة خريطة طريق نهوضنا الحضاري. ولا يتحقق ذلك إلا عن طريق العلم والمعرفة، ولنا من كنوز العلم والمعرفة المتعلقة بالمستقبل الشيء الكثير، إلا أنها ما زالت "غابة عذراء" قلما من دخلها واستخرج منها تلك الكنوز الثمينة.

ISBN: 978-625-5637-35-2



9

786255

637352

asaletyayinlari.com.tr



asaletyayinlari

